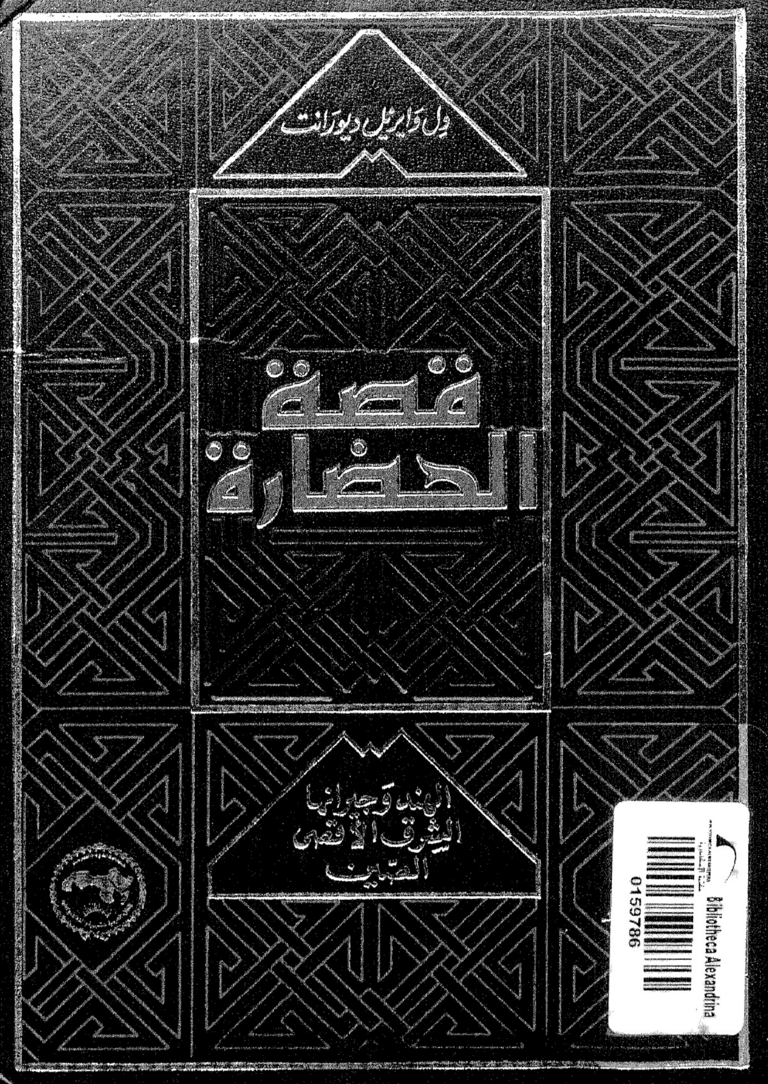

ول وايريل ديورانت
قصة الحضارة
الهند وجيرانها
الشرق الأقصى
الصين

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الهند وجيرانها

ترجمة

الدكتور زكي نجيب محمود

الجزء الثالث من المجلد الأول





تونس



بيروت

فهرس

الكتاب الثانى

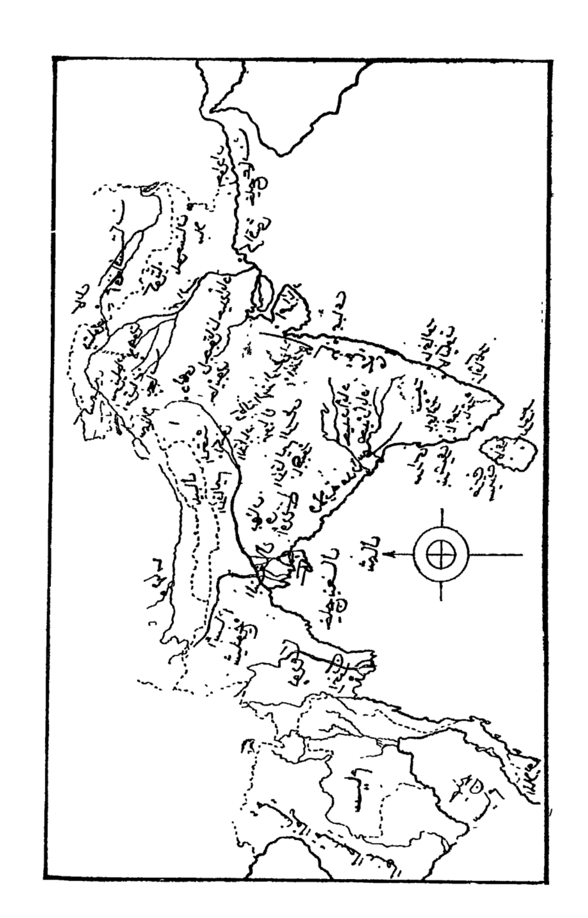
الهند وجيرانها

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

فهرس الخرائط والصور

الصورة … الصفحة



الكتاب الثاني

الهند وجيرانها

« أسمى الحقائق هى هذه : الله كائن فى الأشياء كلها ؛ إنها صوره الكثيرة ، ليس وراء هذه الكائنات إله آخر تبحث عنه ... إننا نريد عقيدة دينية تعمل على تكوين الإنسان ... اطرح هذه التصرفات المنهكة للقوى وكن قوياً ... ومدى الخمسين عاماً المقبلة ... لنمح كل ما عدا ذلك من آلهة من صفحات أذهاننا ؛ جنسنا البشرى هو الإله الوحيد اليقظان ، يداه فى كل مكان ، قدماه فى كل مكان ، أذناه فى كل مكان ؛ إنه يشمل كل شىء ... إن أولى العبادات كلها هى عبادة من حولنا ... ليس يعبد الله إلا من يخدم سائر الكائنات جميعاً ».

ڤيڤيكاناندا(١)

قائمة تبين التاريخ الهندى بترتيبه الزمنى(*)

قبل الميلاد	
٤٠٠٠	ثقافة العصر الحجرى الحديث فى ميسور
٢٩٠٠	ثقافة «موهنجو دارو»
١٦٠٠	الغزو الآرى للهند
١٠٠٠ — ٥٠٠	تكوين الفيدات
٨٠٠ — ٥٠٠	كتب يوپانشاد
٥٩٩ — ٥٢٧	ماهاڤيرا مؤسس العقيدة الجانتية
٥٦٣ — ٤٨٣	بوذا
٥٠٠	سوشروتا الطبيب
٥٠٠	كابيلا وفلسفة «سانخيا»
٥٠٠	أول الأشعار الدينية السنسكريتية
٣٢٩	الغزو اليونانى للهند
٣٢٥	الإسكندر يغادر الهند
٣٢٢ — ١٨٥	أسرة موريا المالكة
٣٢٢ — ٢٩٨	تشاندرا جبتا موريا
٣٠٢ — ٢٩٨	المجسطى فى باتاليپترا
٢٧٣ — ٢٣٢	أشوكا

بعد الميلاد	
١٢٠	كانشكا ، ملك كوشان
١٢٠	شاراكا الطبيب
٣٢٠ — ٥٣٠	أسرة جبتا المالكة
٣٢٠ — ٣٣٠	شاندرا جبتا الأول
٣٣٠ — ٣٨٠	سامدرا جبتا
٣٨٠ — ٤١٣	فكراماديتيا
٣٩٩ — ٤١٤	فاهيين فى الهند
١٠٠ — ٧٠٠	معابد أجانتا ورسومها
٤٠٠	كاليداسا ، شاعر ومسرحى
٤٥٥ — ٥٠٠	غزو الهون الهند
٤٩٩	أريا بهاتا الرياضى
٥٠٥ — ٥٨٧	ڤاراها ميهيرا الفلكى
٥٩٨ — ٦٦٠	براهما جبتا الفلكى
٦٠٦ — ٦٤٨	الملك هارشا ڤاردانا
٦٠٨ — ٦٤٢	پولاكيشين الثانى ملك شالوكيان
٦٢٩ — ٦٤٥	يوان تشوانج فى الهند
٦٢٩ — ٥٠	سترونج – تسان جامپو ملك التبت
٦٣٠ — ٨٠٠	العصر الذهبى فى التبت
٦٣٩	سترونج – تسان جامپو يؤسس لهازا
٧١٢	غزو العرب للسند
٧٥٠	نشأة مملكة پالاڤا
٧٥٠ — ٧٨٠	بناء بوروبدور ، جاوه معبد كايلاشا
٧٨٨ — ٨٢٠	شانكارا فيلسوف الڤدانتا

(*) التواريخ التى قبل سنة ١٦٠٠ ميلادية موضع الشك ، والتواريخ التى قبل سنة ٣٢٩ قبل الميلاد رجم بالغيب .

بعد الميلاد

٨٠٠ — ١٣٠٠ العصر الذهبي في كامبوديا
٨٠٠ — ١٤٠٠ العصر الذهبي في راچپوتانا
٩٠٠ ظهور مملكة تشولا
٩٧٣ — ١٠٤٨ البيروني العالم العربي
٩٩٣ تأسيس دلهي
٩٩٧ — ١٠٣٠ السلطان محمود الغزنوي
١٠٠٨ محمود يغزو الهند
١٠٧٦ — ١١٢٦ ڤكراما ديتيا شالوكيا
١١١٤ بهاسكارا الرياضي
١١٥٠ بناء انجور وات
١١٨٦ الغزو التركي للهند
١٢٠٦ — ١٥٢٦ سلطنة دلهي
١٢٠٦ — ١٢١٠ السلطان قطب الدين أيبك
١٢٨٨ — ١٢٩٣ ماركو پولو في الهند
١٢٩٦ — ١٣١٥ السلطان علاء الدين
١٣٠٣ علاء الدين يستولي على شيتور
١٣٢٥ — ١٣٥١ السلطان محمود بن طغلك
١٣٣٦ تأسيس ڤيجا يانجار
١٣٣٦ — ١٤٠٥ تيمور لنك
١٣٥١ — ١٣٨٨ السلطان ڤيروز شاه
١٣٩٨ تيمور لنك يغزو الهند
١٤٤٠ — ١٥١٨ كابر الشاعر
١٤٦٩ — ١٥٣٨ بابا ناناك مؤسس السيخ
١٤٨٣ — ١٥٣٠ بهبور يؤسس أسرة المغول المالكة
١٤٨٣ — ١٥٧٣ سرداس الشاعر
١٤٩٨ ڤاسكو دا جاما يصل إلى الهند
١٥٠٩ — ١٥٢٩ كرشنا ديڤا رايا يحكم ڤيجا يانجار
١٥١٠ البرتغاليون يحتلون جوا
١٥٣٠ — ١٥٤٢ همیان
١٥٣٢ — ١٦٢٤ تولس داس الشاعر

بعد الميلاد

١٥٤٢ — ١٥٤٥ شرشاه
١٥٥٥ — ١٥٥٦ عودة همیان وموته
١٥٦٠ — ١٦٠٥ أكبر
١٥٦٥ سقوط ڤيجا يانجار في تاليكوتا
١٦٠٠ تأسيس شركة الهند الشرقية
١٦٠٥ — ١٦٢٧ جهانكير
١٦٢٨ — ١٦٥٨ شاه جيهان
١٦٣١ موت ممتاز محل
١٦٣٢ — ١٦٥٣ بناء تاج محل
١٦٥٨ — ١٧٠٧ أورانجزيب
١٦٧٤ الفرنسيون يؤسسون — بندشيري
١٦٧٤ — ١٦٨٠ راجا شيڤاش
١٦٩٠ الإنجليز يؤسسون كلكتا
١٧٥٦ — ١٧٦٣ الحرب الإنجليزية الفرنسية في الهند
١٧٥٧ موقعة پلاسي
١٧٦٥ — ١٧٦٧ روبرت كلايف حاكم البنغال
١٧٧٢ — ١٧٧٤ وارن هيستنجز حاكم البنغال
١٧٨٨ — ١٧٩٥ محاكمة وارن هيستنجز
١٧٨٦ — ١٧٩٣ لورد كورنواليس حاكم البنغال
١٧٩٨ — ١٨٠٥ المركيز ولزلي حاكم البنغال
١٨٢٨ — ١٨٣٥ لورد وليم كاڤندش بنتنك حاكم الهند العام
١٨٢٨ رام موهون روي يؤسس « براهما — سوماج »
١٨٢٩ إلغاء دفن الزوجات مع أزواجهن

بعد الميلاد

١٨٣٦ — ١٨٨٦	راما كرشنا
١٨٥٧	ثورة سيبوى
١٨٥٨	الهند تتبع التاج البريطانى
١٨٦١	مولد رابندرانات طاغور
١٨٦٣ — ١٩٠٢	ڤڤيكاناندا (نارندرانات دوت)
١٨٦٩	مولد موهنداس كارامشاند غاندى
١٨٧٥	دايانانندا يؤسس « آريا سوماچ »

بعد الميلاد

١٨٨٠ — ١٨٨٤	مركيز ريبون نائب الملك
١٨٨٥	تأسيس المؤتمر الهندى الوطنى
١٨٨٩ — ١٩٠٥	البارون كيرزن نائب الملك
١٩١٦ — ١٩٢١	البارون تشلمز فورد نائب الملك
١٩١٩	أمرتسار
١٩٢١ — ١٩٢٦	إيرل ردنج نائب الملك
١٩٢٦ — ١٩٣١	لورد إروين نائب الملك
١٩٣١	لورد ولنجدن نائب الملك

الباب الرابع عشر

أساس الهند

الفصل الأول

مكان المسرحية

إعادة كشف الهند – نظرة عجلى إلى الخريطة – المؤثرات المناخية

ليس ثمة ما يجلل طلب العلم فى عصرنا بعار أكبر من حداثة معرفته بالهند ونقص هذه المعرفة ؛ فهاهنا شبه جزيرة فسيحة الأرجاء يبلغ اتساعها ما يقرب من مليونى ميل مربع ، فهى ثلثا الولايات المتحدة فى مساحتها ، وهى أكثر من بريطانيا العظمى – صاحبة السيادة عليها[1] – عشرين مرة ، ويسكنها ثلاثمائة وعشرون مليوناً من الأنفس، وهو عدد أكبر من سكان أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية مجتمعتين، أو هو خُمْس سكان الأرض جميعاً، وفيها اتصال عجيب فى مراحل تطورها وفى مدنيتها من « موهنچو – دارو » ، سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك ، إلى غاندى وراماں وطاغور ؛ ولها من العقائد الدينية ما يمثل كل مراحل العقيدة من الوثنية البربرية إلى أدق عقيدة فى وحدة الوجود وأكثرها روحانية، ولها من الفلاسفة من عزفوا مئات الأنغام على وتر التوحيد بادئين من أسفار « اليوبانشاد » فى القرن الثامن قبل الميلاد ، إلى شانكارا فى القرن الثامن بعد الميلاد ؛ ومنها العلماء الذين تقدموا بالفلك منذ ثلاثة آلاف عام والذين ظفروا بجوائز « نوبل » فى عصرنا هذا ؛ ويسودها دستور ديمقراطى لا نستطيع أن نتعقبه إلى أصوله الأولى فى القُرَى ، كما سادها فى العواصم حكّام حكماء خيّرون مثل « أشوكا » و « أكبر » ؛ وأنشد لها من الشعراء من تغنّى لهم بملاحم عظمى تكاد تعادل هومر فى قِدَم العهد ، ومن

---

(١) صدر الكتاب فى الأصل الإنجليزى سنة ١٩٣٥ .

يستوقف أسماع العالم اليوم ؛ ولها من رجال الفن من شيدوا لها المعابد الجبارة لآلهة الهندوس ، تراها منتشرة من التبت إلى سيلان ؛ ومن كامبوديا إلى جاوة أو مَن زخرفوا القصور الرائعة بالعشرات لملوك المغول وملكاتهم — تلك هى الهند التى يفتح لنا أبوابها البحثُ العلمى الدءوب ، كأنها قارة عقلية جديدة يفتحها البحث العلمى أمام العقل الغربى الذى كان بالأمس يظن أن المدنية نتاج أوروبى خالص لا يشاركها فيه بلد آخر(*) .

(*) منذ عهد المجسطى الذى وصف الهند لليونان حول سنة ٣٠٢ قبل الميلاد حتى القرن الثامن عشر ، ظلت الهند فى عينى أوروبا أعجوبة ولغزاً غامضاً ؛ فلقد صور ماركو پولو (١٢٥٤ — ١٣٢٣) حافتها الغربية تصويراً غامضاً ؛ وعثر كولمبس على أمريكا فى محاولته بلوغ الهند ، وأبحر ڤاسكودا جاما حول أفريقيا كشف الهند ؛ وانطلقت ألسنة التجار فى جشع تتحدث عن « ثروة جزائر الهند » أما العلماء فقد تركوا هذا المنجم وأوشكوا ألا يطرقوه ؛ ثم افتتح لهم الطريق مبشر هولندى ذهب إلى الهند ، هو « ابراهام روچر » بكتابه « باب مفتوح إلى الوثنية الخبيئة » (١٦٥١) ؛ وبرهن « دريدن » على يقظته العالم حين كتب مسرحيته « أورنجزيب » (١٦٧٥) وبعدئذ جاء راهب نمساوى ، هو « فرا پاولينو دى س . بارتلوميو » فخطا بالموضوع خطوة بكتابين فى قواعد اللغة السنسكريتية ، ورسالة فى « النظام البرهمى » (١٧٩٢)(١) ؛ وفى سنة ١٧٨٩ بدأ « سير وليم چونز » سيرة حياته كعالم عظيم فى شئون الهند ، بترجمته لـ « شاكنتالا » وهى من تأليف « كاليداسا » وقد أعيدت هذه الترجمة إلى اللغة الألمانية سنة ١٧٩١ ، فكان لها أعمق الأثر على « هردر » و « جيته » بل وعلى الحركة الابتداعية كلها بفضل أبناء شليجل ؛ تلك الحركة التى تعلق رجاؤها بالشرق تلتمس عنده كل التصوف وكل الغموض الذى يظهر أن قد محاه من الغرب دخول العلم وموجة التنوير ؛ ولقد أدهش « چونز » دنيا العلم حين أعلن أن اللغة السنسكريتية متحدة فى أصولها مع لغات أوروبا ، ودليل ناهض على قرابتنا الجنسية بالهندوس أصحاب الڤيدا ؛ وتكاد هذه النتائج التى أعلنها تكون البداية الأولى لعلم اللغات وعلم أصول الأجناس البشرية الحديثين ؛ وفى سنة ١٨٠٥ كتب « كولبروك » مقالا « فى الڤيدات » كشف به لأوروبا أقدم ما جرى به الأدب الهندى ؛ وحول الوقت نفسه ترجم « أنكتيل دپرون » أسفار « يوپانشاد » عن ترجمة فارسية ، فاطلع عليها « شلنج » و « شوبنهور » وقال عنها الأخير إنها أعمق ما قرأ من فلسفة(٢) ؛ وكادت البوذية ألا يعرفها أحد باعتبارها فلسفة فكرية حتى نشر « برنوف » مقالته « فى اللغة البالية » (١٨٢٦) — أى اللغة التى كتبت بها وثائق البوذية ؛ وبفضل « برنوف » فى فرنسا ، وتلميذه « ماكس مولر » فى انجلترا ، تحرك العلماء ومهدوا السبيل إلى ترجمة كاملة « للكتب المقدسة فى الشرق » وخطا « رايس ديڤدز » بالمهمة خطوة إلى الأمام حين خصص كل حياته لعرض الأدب البوذى وبفضل هذه المجهودات وبالرغم منها ، تبين لنا أننا لا نعرف عن الهند إلا ما يصح أن نسميه بداية المعرفة ؛ فإلمامنا بأدبها يشبه فى ضآلته إلمام أوروبا بالآداب اليونانية والرومانية أيام شرلمان ؛ وترانا اليوم وقد بهرنا الكشف الجديد نسرف فى سخاء حين نقدر قيمة ما كشفنا عنه ، فيعتقد —

١١

إن مسرح التاريخ مثلث كبير تضيق جوانبه تدريجاً من ثلوج الهملايا الدائمة إلى حرارة سيلان التي لم تبرد منذ الأزل ؛ وفي ركن من جهة اليسار تقع فارس التي تشبه الهند الڤيدية شبهاً قوياً في أهلها ولغتها وآلهتها ، فإذا ما تتبعت الحدود الشمالية متجهاً نحو الشرق . وقعت على أفغانستان ، حيث ترى « قندهار » . وهي « جاندهار » قديماً ، وفيها التقى النحتُ اليوناني بالنحت الهندوسي(*) حيناً ثم افترقا بحيث لا يلتقيان إلى الأبد ؛ وإلى الشمال ترى « كابل » التي أغار منها المسلمون والمغول تلك الإغارات الدموية التي مكنتهم من الهند مدى ألف عام ؛ فإذا توغلت في حدود الهند مسيرة يوم قصير وأنت راكب من « كابل » وصلت « بشاور » التي لا تزال على العهد القديم الذي ألفناه في أهل الشمال ، وأعني به الميل إلى غزو الجنوب ؛ والْحَظْ كم تقرب الروسيا من الهند عند جبال الپامير وممرات هندوكوش ، فهاهنا سترى كثيراً من المشكلات السياسية يثور ؛ وإلى الطرف الشمالي من الهند مباشرة يقع إقليم « كشمير » الذي يدل اسمه نفسه على مجد تليد ظفرت به صناعات النسيج في الهند ، وجنوبها يقع الپنجاب ، ومعناها (أرض النهار الخمسة) بمدينتيه العظيمتين « لاهور » و « شمْلا » عاصمة الصيف عند سطح الهملايا ، ومعناها (بيت الثلج) .

ويجري نهر السند خلال الجزء الغربي من پنجاب ، وهو نهر جبار طوله

= فيلسوف أوروبي أن « حكمة الهند أعمق ماعرف العالم من حكمة » وكتب كاتب قصصي عظيم يقول « إني لم أصادف في أوروبا أو أمريكا من الشعراء أو المفكرين أو الزعماء الشعبيين من يساوي ، بل لم أجد من يصح أن يقارن بما نراه في الهند اليوم من هؤلاء وأولئك »(٣) .

(*) كلمة هندي سنعني بها في هذا الكتاب أهل الهند بصفة عامة ، وكذلك سنستخدم كلمة هندوسي أحيانا بهذا المعنى ، على سبيل التغيير ، متبعين في ذلك ما جرى عليه الفرس واليونان ، ولكننا في المواضع التي نخشى عندها الخلط ، سنستعمل كلمة هندوسي في معناها الأدق الذي شاع في العصور الأخيرة ، وذلك أن نعني به فريقاً واحداً من سكان الهند يعتنق إحدى العقائد الدينية الوطنية (فهناك في هذا الصدد الهندوسي من جهة والمسلم من جهة أخرى) .

ألف ميل ، واسمه مشتق اللفظة الإقليمية التى معناها « نهر » (وهى سندو) وقد حورها الفرس إلى كلمة « هندو » ثم أطلقوها على الهند الشمالية كلها كلمتهم « هندوستان » (أى بلاد الأنهار) ، ومن هذه الكلمة الفارسية « هندو » نحتَ الإغريق الغزاة كلمة « الهند » وهى التى بقيت لنا إلى اليوم .

وينبع من البنجاب نهرا جمنة والكنج ، اللذان يجريان فى خطوٍ وئيد ، إلى الجنوب الشرقى ؛ أما « جمنة » فيروى العاصمة الجديدة « دلهى » ويعكس على صفحته « تاج محل » عند « أجرا » ، وأما نهر الكنج فيزداد اتساعا كلما سار نحو « المدينة المقدسة » بنارس ، ويطهِّر بمائه ألف عابد من عبَّاده كل يوم ، ويخصب بمصباته الاثنى عشر إقليم البنغال والعاصمة البريطانية القديمة كلكتا ، فإذا ما ازددت إيغالا فى مسرك ناحية الشرق ، ألفيتَ « بورما » بمعابدها الذهبية فى رانجون وطريقها المُشرِق إلى مندلاى ، وعدْ من مندلاى عابراً الهند إلى مطارها الشرقى فى كراتشى . تجدك قد قطعت فى الهواء طريقاً يكاد يقرب من المسافة التى تقطعها بالطائرة من نيويورك إلى لوس انجلس ، وإذ أنت فى طائرتك عائداً ، سترى جنوبى السند إقليم راچپوتانا ، وهو الإقليم الذى شهد مدن راچپوت المعروفة ببطولتها ، والمشهورة على الدهر ، وهى « جواليور » و« شيتور» و« جايور » و« آجمر » و « أورايبور» ؛ وإلى الجنوب والغرب ترى « مكان الرئاسة » أو إقليم بمباى ، الذى تموج مدائنه بأهلها : سورات ، أحمد أباد ، بمباى ، يونا ؛ وإلى الجنوب والشرق تقع دويلتان متقدمتان يحكمهما حكام وطنيون ، وهما حيدر أباد وميسور ، بعاصمتيهما الرائعتين المسماتين بهذين الاسمين ؛ وعلى الساحل الغربى تقع « جوا » ، وعلى الساحل الشرقى تقع « بندشيرى » ، حيث ترك الغزاة البريطانيون للبرتغاليين وللفرنسيين — على هذا التوالى — بضعة أميال مربعة على سبيل التعويض ؛ وعلى امتداد خليج البنغال تمتد « رئاسة مدراس » بمدينتها مدراس المعروفة بدقة الحكم فيها ، مركزاً لها ، وبمعابدها الفخمة فى اكتئاب عند « تانجور » و« ترتشيفوپولى » و« مادورا » و « راماشفارام » تزيِّن حدودها

الجنوبية ؛ ثم يأتى « جسر آدم » — وهو خط من الجزائر الغائصة فى الماء — يأتى بعدئذ فيشير لنا داعياً أن نعبر عليه المضيق إلى سيلان حيث ازدهرت المدنية منذ ستة عشر قرناً ؛ وكل هذه الأرجاء لا تزيد عن جزء صغير من الهنـــد .

فلا ينبغى إذن أن ننظر إليها نظرتنا إلى أمة واحدة مثل مصر أو بابل أو انجلترا ، بل لا بد من اعتبارها قارة بأسرها فيها من كثرة السكان واختلاف اللغات ما فى القارة الأوروبية ، وتكاد تشبه القارة الأوروبية كذلك فى اختلاف أجوائها وآدابها وفلسفاتها وفنونها ؛ فالجزء الشمالى منها يتعرض للرياح الباردة التى تهب عليها من الهملايا ، كما يتعرض للضباب الذى يتكون حين تلتقى هذه الرياح الباردة بشمس الجنوب ، وفى البنجاب تكونت بفعل الأنهار سهول خصيبة عظيمة لا يدانيها فى خصوبتها بلد آخر(٤) . لكنك إذا ما توجهت جنوبى وديان تلك الأنهار ، وجدت الشمس تحكم حكم المستبد الذى لا يقف استبداده شىء ، ولهذا جفت السهول وتعرت ، وتحتاج فى زراعتها لكى تثمر ، لا إلى مجرد الفلاحة ، بل تحتاج من الجهود الشاقة إلى ما يكاد يدنو من العبودية المميتة(٥) ولذلك لا يقيم الإنجليز فى الهند أكثر من خمس سنوات فى المرة الواحدة ، فإذا رأيت مائة ألف انجليزى يحكمون من الهنود عدداً يكبر عددهم ثلاثة آلاف مرة فاعلم أن سبب ذلك هو أنهم لم يقيموا هناك مدة تكفى لصبغهم بصبغة الإقليم .

وتنتثر فى أرجاء البلاد هنا وهناك غابات بدائية لم تزل باقية تكوّن خمس البلاد ، ترتع فيها النمور والفهود والذئاب والثعابين ؛ وفى الثلث الجنوبى من الهند يقع إقليم « دِكن »(*) حيث تزداد حرارة الشمس جفافاً إلا إذا لطفتها نسائم تهب عليها من البحر ؛ لكن الحرارة هى العنصر الرئيسى السائد من

(*) كلمة « دكن » مشتقة من أصل لغوى معناه « اليمين » ومن ثم يكون لها معنى ثان هو « الجنوب » لأن جنوب الهند يكون على يمين المصلى الذى يواجه مشرق الشمس .

دلهى إلى سيلان ، تلك الحرارة التى أضعفت الأبدان ، وقصّرت الشباب ، وأنتجت للناس هناك دياناتهم وفلسفتهم المسالمتين ؛ فليس يخفف عنك الحرارة إلا أن تجلس ساكناً ، لا تعمل شيئاً ، ولا ترغب فى شىء ؛ أو قد تأتى أشهر الصيف فتأتى رياحها الموسمية برطوبة منعشة ومطر مخصب من البحر ، فإذا امتنعت الرياح الموسمية عن هبوبها ، تضورت الهند بالجوع ، وطافت بها أحلام النرفانا .

الفصل الثانى

أقدم المدنيّات

الهند قبل التاريخ – موهنچو دارو – عصرها القديم

فى العهد الذى كان المؤرخون فيه يفترضون أن التاريخ قد بدأ سيره باليونان ، آمنت أوروبا إيماناً اغتبطت له ، بأن الهند قد كانت مباءة وحشيةً حتى هاجر إليها « الآريون » أبناء أعمام الأوروبيون ، هاجروا من شطئان بحر قزوين ليحملوا معهم الفنون والعلوم إلى شبه جزيرة وحشية يكتنفها ظلام الليل ؛ لكن الأبحاث الحديثة قد أفسدت هذه الصورة الممتعة – كما ستغير أبحاث المستقبل من الصورة التى نرسمها على هـــذه الصفحات ؛ فنى الهند – كما فى سائر أقطار الأرض – بدايات المدنية دفينةٌ تحت الثرى ، ويستحيل على فؤوس البحث الأثرى كلها أن تستخرجها جميعاً ؛ فبقايا العصر الحجرى القديم تملأ خزانات كثيرة فى متاحف كلكتا ومدراس وبمباى ، كما وجدت أشياء من العصر الحجرى الحديث فى كل دولة تقريباً (٦) ؛ ومع ذلك فقد كانت هذه ثقافات لم تصبح بعد مدنية .

وفى سنة ١٩٢٤ ارتجت دنيا العلم الجديد مرة أخرى بأنباء جاءتها من الهند ، إذ أعلن « سير چون مارشال » أن أعوانه من الهنود – وبصفة خاصة « ر . د . بانرچى » – قد اكتشفوا عند « موهنچو – دارو » على الضفة الغربية من السند الأدنى – آثاراً من مدنية يبدو أنها أقدم عهداً من أية مدنية أخرى يعرفها المؤرخون ؛ فهنالك – كما فى « هارابا » على بعد بضع مئات من الأميال ناحية الشمال – أزيلت طبقة من الأرض عن أربع مدن أو خمس بعضها فوق بعض طبقات ، وفيها مئات من المنازل والدكاكين بنيت بالآجر بناء متيناً ، واصطفت على امتداد طرق واسعة حيناً وحارات ضيقة حيناً آخر ،

وترفع فى حالات كثيرة عدة طبقات ؛ ولنترك « سير جون » يحدثنا عن تقديره لعمر هذه الآثار .

« تؤيد هذه الكشوف قيام حياة مدنية بالغة الرقى فى السند (وهى إقليم فى « رئاسة بمباى » يقع فى أقصى الشمال) والبنجاب خلال الألف الرابعة والألف الثالثة من السنين قبل الميلاد ؛ ووجود آبار وحمامات ونظام دقيق للصرف فى كثير من المنازل ، يدل على حالة اجتماعية فى حياة أهل تلك المدن تساوى على الأقل ما وجدناه فى « سومر » ، وتفوق ما كان سائداً فى العصر نفسه فى بابل ومصر ... وحتى « أور » لا تضارع بمنازلها من حيث البناء ، منازل موهنجو — دارو » .

وبين الموجودات فى هذه الأماكن آنية منزلية وأدوات للزينة ، وخزف مطلى وبغير طلاء ، صاغه الإنسان بيده فى بعض الحالات وبالعجلة فى بعضها الآخر ؛ وتماثيل من الخزف ، وزهر اللعب وشطرنج ، ونقود اقدم من أى نقود وجدناها من قبل ؛ وأكثر من ألف خاتم معظمها محفور ومكتوب بكتابة تصويرية نجهلها ، وخزف مزخرف من الطراز الأول ، وحفر على الحجر أجود مما وجدناه فى سومر[8] وأسلحة وأدوات من النحاس ، ونموذج نحاسى لعربة ذات عجلتين (وهى أقدم ما لدينا من أمثلة للعربة ذات العجلات) وأساور وأقراط وعقود وغيرها من الحلى المصنوع من الذهب والفضة صناعة — كما يقول مارشال — « بلغت من دقة الإتقان ومهارة الصقل حداً يجعلها صالحة للعرض عند صائغ فى شارع بُنْد (شارع فى لندن مشهور بجودة معروضاته) فى يومنا هذا » فذلك أقرب إلى المعقول من أن تستخرج من منزل مما قبل التاريخ يرجع إلى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد »[9] .

ومن العجيب أن الطبقات الدنيا من هذه الآثار أرفع فى فنونها من الطبقات العليا — كأنما أقدم هذه الآثار عهداً يرجع إلى مدنية أقدم من مدنية زميلتها فى الطبقات العليا بمئات السنين ، وقد يكون بآلافها ، وبعض الآلات هناك

مصنوع من الحجر ، وبعضها من النحاس ، وبعضها من البرونز ، مما قد يدل على أن هذه الثقافة السندية قد نشأت فى مرحلة انتقال بين عصر الحجر ، وعصر البرونز من حيث المادة التى تصنع منها الآلات(١٠) .

وتنهض الدلائل على أن « موهنجو – دارو » كانت ذروتها حين شيد خوفو الهرم الأكبر ، وعلى أنها كانت تتصل مع سومر وبابل(*) بصلات تجارية ودينية وفنية ؛ وأنها ظلت قائمة أكثر من ثلاثة آلاف عام ، حتى كان القرن الثالث قبل الميلاد(**) ، ولسنا نستطيع الحزم برأى فيما إذا كانت

(*) هذه الصلات يدل عليها ما وجدناه من أختام متشابهة فى موهنجو – دارو وفى سومر (خصوصاً عند كيش) كما يدل عليها ظهور « الناجا » أى الثعبان ذى الغطاء ، بين الآثار القديمة فيما بين النهرين(١١) ، وفى سنة ١٩٣٢ كشف الدكتور هنرى فرانكفورت بين آثار وجدها فى قرية « بابلية عيلامية » وهى ما يسمى الآن « بتل أسمر » (بالقرب من بغداد) ؛ كشف عن أختام وخرزات خزفية هى فى رأيه (ويوافقه سير جون مارشال) قد جاءتها من موهنجو – دارو حول سنة ٢٠٠٠ الميلاد (١٢) .

(*) يعتقد « ماكدونل » أن هذه المدنية العجيبة قد استمدت أصولها من سومر (١٤) وأما « هول » فيرى أن السومريين قد نقلوا ثقافتهم عن الهند (١٥) ؛ ورأى « وولى » هو أن الثقافتين السومرية والهندوسية القديمة قد جاءتا معاً من أصل مشترك وثقافة مشتركة فى بلوخستان أو بالقرب منها(١٦) ؛ ولقد دهش الباحثون حين رأوا أن الأختام المتشابهة الموجودة فى بابل وفى الهند ترجع إلى أقدم مراحل الثقافة فى أرض الجزيرة (ما بين النهرين) ، أى إلى المرحلة السابقة لسومر ، لكنها ترجع إلى آخر مرحلة من مراحل المدنية السندية (١٧) – مما يدل على أسبقية الهند ، ويميل « تشايلد » إلى الأخذ بهذه النتيجة : « عند نهاية الألف الرابع من السنين قبل الميلاد ، تستطيع الثقافة المادية فى « أبيدوس » أو « موهنجو – دارو » أن تثبت المقارنة مع مثيلتها فى أثينا أيام بركليز ، أو مع أية مدنية شئت من مدن القرون الوسطى . . . وإذا حكمنا بفن بناء المنازل وخراطة الأختام وبراعة المصنوعات الحرفية ، وجدنا أن المدنية السندية كانت سابقة للبابلية فى بداية الألف الثالث من السنين (حوالى ٣٠٠٠ قبل الميلاد) غير أن ذلك كان مرحلة متأخرة فى الثقافة الهندية ، ومن الجائز أن قد كان لها زعامة لا تقل عن هذه فى الأزمنة السابقة لذلك العهد ؛ ألم تكن – إذن – المبتكرات والمكتشفات التى تتميز بها المدنية السومرية النمط ، نباتاً أنتجته تربة بابل نفسها وتعهدته فى مراحل تطوره ، بل كانت أثراً من آثار الإيحاء الهندى ؟ ولو صح ذلك ، فهل جاء السومريون أنفسهم من السند ، أو على الأقل من مناطق تقع تحت تأثيرها المباشر ؟ (١٨) هذه الأسئلة المثيرة للخيال لا يمكن الإجابة عنها الآن ، لكنها تذكرنا بأن تاريخاً نكتبه للمدنية قد يبدأ – بسبب جهلنا البشرى – عند نقطة ربما كانت فى حقيقة أمرها مرحلة متأخرة فى مجرى التطور الثقافى .

« موهنجو — دارو » تمثل أقدم ما كشف عنه الإنسان من مدنيات ، كما يعتقد « مارشال » ؛ لكن إخراج ما تكنه الهند فى جوفها قد بدأ أمس القريب ؛ فالبحث الأثرى لم ينتقل من مصر عبر الجزيرة إلى الهند ، إلا فى حياتنا ؛ فلندع ننكت تربة الهند كما فعلنا بتربة مصر ، فربما نجد هناك مدنية أقدم من المدنية التى ازدهرت من غرين النيل(*) .

(*) كشفت الحفريات الحديثة بالقرب من « تشتالدرج » فى ميسور ، عن ست طبقات من آثار الثقافة القديمة ، بادئة من آلات العصر الحجرى والمصنوعات الخزفية المزخرفة بأشكال هندسية يرجع عهدها فى الغالب إلى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، إلى آثار هى من حداثة العهد بحيث ترجع إلى سنة ١٢٠٠ بعد الميلاد(١٩) .

الفصل الثالث

الهنود الآريون

السكان الأصليون – العراة – المجتمع القروى – نظام الطبقات – المحاربون – الكهنة – التجارة – الصناع – المنبوذون

على الرغم مما تدل عليه آثار السند وميسور من اتصال فى تسلسل التاريخ، فإنا نشعر بأن بين ازدهار « موهنجو – دارو » وبين دخول الآريين، فجوة فى علمنا، أو ربما كان الأقرب إلى الصواب هو أن علمنا بالماضى فجوة شاءتها المصادفة فى جهلنا؛ وتشتمل آثار السند على خاتم عجيب يتألف من رأسين من رءوس الثعابين، وهو الرمز المميز لأقدم سكان الهند ممن عرف التاريخ – هؤلاء هم « الناجا » الذين كانوا يعبدون الثعبان، والذين وجدهم الآريون الغزاة قابضين على المناطق الشمالية، والذين لا تزال سلالتهم متلكئة على قيد الحياة فى التلال البعيدة(٢٠). فإذا توغلتَ ناحية الجنوب، وجدت الأرضَ التى كان يسكنها عندئذ قوم سود البشرة فطس الأنوف، ويسمَّوْن « بالدراڤيديين » – ولا نعلم أصل الكلمة – وقد كانوا على شىء من المدنية حين هبط عليهم الآريون، وبحّارتهم المغامرون شقوا البحار حتى بلغوا سومر وبابل، وعرَفتْ مدائنهم كثيراً من رقة العيش وأسباب الترف(٢١)؛ فيجوز أن الآريين قد استمدوا من هؤلاء الناس نظام الجماعة القروية وملكية الأرض والضرائب، ولا يزال « الدكن » إلى يومنا هذا مسكناً رئيسياً للدراڤيديين ومركزاً لعاداتهم ولغتهم وأدبهم وفنونهم.

ولم تكن غزوة الآريين لهذه القبائل المزدهرة، وانتصارهم عليها، إلا حلقة

من سلسلة متصلة : من الغزوات كانت تقع على فترات منتظمة بين الشمال والجنوب ، فينقض الشمال انقضاضاً عنيفاً على الجنوب المستقر الآمن ؛ وقد كان ذلك مجرى من المجارى الرئيسية التى سارت فيها حوادث التاريخ ، إذ أخذت المدنيات تعلو على سطحه وتهبط كأنها أدوار الفيضان يعلو عصراً بعد عصر ؛ فالآريون قد هبطوا على الدراڤيديين ، والآخيون والدوريون قد هبطوا على الكريتيين والإيجيين ، والجرمان قد هبطوا على الرومان ، واللمبارديون قد هبطوا على الإيطاليين ، والإنجليز قد هبطوا على العالم بأسره ؛ وسيظل الشمال إلى الأبد يمد العالم بالحاكمين والمقاتلين ، والجنوب بالفنانين والقديسين ؛ فالجنة إنما يرثها الجبناء .

فمن هؤلاء الآريون الذين كانوا يضربون فى الأرض ؟ أما هم أنفسهم فقد استعملوا كلمة « آرى » ليعنوا بها « الأشراف » (فى السنسكريتية آريا معناها شريف) ، لكن ربما كان هذا الاشتقاق المبنى على النزعة الوطنية أحد الأفكار البعْدية التى تلقى شعاعاً من التهكم المر على علم اللغات(*) ، ومن المرجح جداً أن يكونوا قد جاءوا من تلك المنطقة القزوينية التى كان بنو أعمامهم من الفرس يسمونها « إيريانا ڤيجو » ومعناها « الوطن الآرى(**) » ، وفى نفس

(*) يرى « مونييه - وليمز » أن آرى » مشتقة من أصل سنسكريتى معناه يحرث(٢٣) ، ولك أن تقارن هذا الأصل (ri - ar) بكلمتين لاتينيتين (aratrum) ومعناها محراث ، (area) ومعناها سهل مكشوف ؛ وعلى هذا الأساس تكون كلمة « آرى » معناها فى الأصل فلاح لا شريف .

(**) نجد بعض الآلهة الڤيديين الصميمين مثل «إندرا » و « مترا » و « ڤارونا » مذكورين فى معاهدة عقدت بين الحيثيين الآريين والميتانيين فى بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد(٢٤) ، وكذلك نرى أن أحد الطقوس الڤيدية الخالصة ، وهى شرب عصير « السوما » المقدس ، يظهر أيضاً عند الفرس فى احتفالهم بشرب عصير « الهوما » المقدس (مع ملاحظة أن حرف س فى اللغة السنسكريتية يقابل حرف الهاء فى الفارسية ، ومن هنا « سوما » أصبحت « هوما » كما أصبحت كلمة « السندو » « هندو » عند الفارسيين(٢٥) فنخلص من هذا إلى أن الميتانيين والحيثيين والكاسيين والسومريين والبكتريين والميديين والفرس والآريين ممن غزوا الهند كانوا كلهم فروعاً من أصل « هندى أوربى » انتشر فى الأرض من شواطئ بحر قزوين .

الوقت تقريباً الذى كان الكاسيُّون الآريون يكتسحون فيه بابل ، كان الآريون الفيديون قد أخذوا يدخلون الهند .

وكان هؤلاء الآريون أقرب إلى المهاجرين منهم إلى الفاتحين ، شأنهم فى ذلك شأن الجرمان فى غزوهم لإيطاليا ، ولكنهم جاءوا ومعهم أجسام قوية ، وشهيّة عارمة للطعام والشراب ، ووحشية لا تتردد فى الهجوم ، ومهارة وشجاعة فى الحروب ، وسرعان ما أدت بهم هذه الخصال كلها إلى السيادة على الهند الشمالية ؛ وكانوا يحاربون بالقسىّ والسهام ، يقودهم مقاتلون مدرّعون فى عربات حربية ، أدواتهم فى القتال هى الفؤوس إن كانوا على مقربة من العدو ، والحراب يقذفون بها إن كانوا على مبعدة منه ؛ وكانوا من الأخلاق البدائية على درجة لا تسمح بالنفاق ، ولذلك أخضعوا الهند دون أن يدّعوا أنهم يرفعون مستواها ، وكل ما فى الأمر أنهم أرادوا أرضاً ومرعى لماشيتهم ، ولم يحيطوا حروبهم بدعوى الشرف القومى ، لكنهم قصدوا بالحرف صراحة إلى « رغبة فى مزيد من الأبقار(٢٦) » . وجعلوا خطوة فخطوة يزحفون شرقاً على امتداد نهرى السند والكنج ، حتى خضعت الهندوستان(*) كلها لسلطانهم .

ولما تحولوا من الحرب المسلحة إلى زراعة الأرض واستقرارها طفقت قبائلهم بالتدريج تأتلف لتكوّن دويلات ، كل منها يحكمها ملك يقيده مجلس من المقاتلين ؛ وكل قبيلة يقودها « راجا » أو رئيس يحدد قوته مجلس قَبَلىّ ، وكل قبيلة تتألف من جماعات قروية مستقل بعضها عن بعض استقلالا نسبياً ، ويحكم الجماعة القروية مجلس من رءوس العائلات ؛ ويروى عن بوذا أنه قال فى سؤاله لمن كان له بمثابة القديس يوحنا : « هل سمعت » يا « أناندا » أن « الفاچيين » يجتمعون عادة ليتشاوروا فى الأمر قبل الحسم فيه ، وأنهم يرتادون الاجتماعات العامة التى تعقدها قبائلهم ؟ ... فما دام الفاچيون يا « أناندا »

(*) كلمة أطلقها الفرس القدماء على الهند شمالى نهر ناربادا .

يجتمعون هكذا عادة ، ويرتادون الاجتماعيات العامة التي تعقدها قبائلهم ، فتوقع منهم ألا يصيبهم انحلال ، بل يصيبهم النجاح[٢٧] » .

والآريون — كسائر الشعوب — كانت لهم قواعد الزواج في حدود العشيرة وخارج حدودها معاً ، بمعنى أن يحرم الزواج خارج حدود جنسهم ، كما يحرم داخل حدود الأقوياء الأقربين ؛ ومن هذه القواعد استمد الهندوس أهم ما يميزهم من أنظمة اجتماعية ؛ وذلك أن الآريين عندما رأوا أنفسهم قلة عددية بالنسبة إلى من أخضعوهم ومن يعدونهم أحط منهم منزلة ، أيقنوا أنهم بغير تقييد التزاوج بينهم وبين هؤلاء ، فسرعان ما تضيع ذاتيتهم العنصرية ، بحيث لا يمضى قرن واحد أو قرنان من الزمان حتى تهضمهم الأغلبية في ثناياها وتمتصهم في جسمها امتصاصاً ؛ وإذن فقد كان أول تقسيم للطبقات قائماً على أساس اللون لا على أساس الحالة الاجتماعية ؛ فتفرق الناس فريقين . فريق الأنوف الطويلة وفريق الأنوف العريضة ؛ وبذلك ميزوا بين الآريين من جهة ، و « الناجا » و « الدراڤيديين » من جهة أخرى ، ولم تكن التفرقة عندئذ أكثر من تنظيم الزواج بحيث يحرم خارج حدود الجماعة[٢٨] ؛ وكاد نظام الطبقات ألا يكون له وجود في العهد الڤيدى[٢٩] بهذه الصورة التي اتخذها فيما بعد ، حيث أسرف في تقسيم الناس على أساس الوراثة وعلى أساس العنصر وعلى أساس العمل الذى يزاولونه ؛ أما بين الآريين أنفسهم فقد كان الزواج حراً من القيود (ما عدا ذوى القربى الأقربين) ، ولم تكن المنزلة الاجتماعية تورث مع الولادة .

فلما انتقلت الهند الڤيدية (٢٠٠٠ — ١٠٠٠ قبل الميلاد) إلى عصر « البطولة » (١٠٠٠ — ٥٠٠ قبل الميلاد) ، أو بعبارة أخرى لما انتقلت الهند من ظروف حياتها كما صورتها أسفار الڤيدا ، إلى حياة جديدة ترى وصفها في « الماهابهاراتا » و « رامايانا » أصبحت أعمال الناس مقسمة بينهم بالنسبة إلى طبقاتهم ، بحيث يرث الولد عمل طبقته ، وتحددت الفوارق بين

الطبقات فى وضوح وجلاء ، ففى القمة كان « الكشاترية » أو المقاتلون الذين عدوها خطيئة من الخطايا أن يموت الرجل فى مخدعه[٣٠] ، حتى المحافل الدينية فى الأيام الأولى كان يؤديها الرؤساء أو الملوك على نحو ما كان يقوم قيصر بدور كبير الكهنة ، وكان البراهمة ، أى الكهنة ، لا يزيدون عن مجرد شهود فى الاحتفال بتقديم القرابين[٣١] ، ففى « رامايانا » ترى رجلا من طبقة « الكشاترية » يحتج احتجاجاً حنقاً على زواج « عروس شماء الأنف فريدة » من عنصر المقاتلين من كاهن براهمى ثرثار »[٣٢] ، وفى الأسفار « الجانتية » ترى زعامة « الكشاترية » أمراً مسلماً به ، بل يذهب الأدب البوذى إلى حد أبعد ، فيسمى « البراهمة » « من أصل وضيع[٣٣] » . وهكذا ترى الأشياء يصيبها التغير حتى فى الهند .

لكن لما حلّتْ السلم محل الحرب ؛ وبالتالى ازدادت الديانة أهمية اجتماعية وتعقداً فى الطقوس ، لأنها أصبحت عندئذ عوناً إلى حد كبير للزراعة ، تقيها شر الكوارث الجوية التى لا يمكن إعداد العدة لها ، فقد تطلبت الديانة وسطاء فنيين بين الناس وآلهتهم ، ولهذا ازداد البراهمة عدداً وثروة وقوة ؛ فباعتبارهم القائمين على تربية النشء ، والرواة لتاريخ أمتهم وآدابها وقوانينها ، استطاعوا أن يعيدوا خلق الماضى خلقاً جديداً ، وتشكيل المستقبل على صورتهم ، بحيث يصبُّون كل جيل صباً يزيد من تقديسه للكهنة ، فيبنون بهذا لطبقتهم مكانة ستمكنهم فى القرون المقبلة من احتلال المنزلة العليا فى المجتمع الهندوسى : وقد بدأوا بالفعل أيام بوذا يتحدوْن سيادة طبقة « الكشاترية » ؛ وعدوُّهم طبقة أحط من طبقتهم ، على نحو ما كان يعدُّهم « الكشاترية » من قبل أدنى منهم منزلة[٣٤] ؛ وأحس بوذا أن لكل من وجهتى النظر ما يؤيده ؛ لكن « الكشاترية » مع ذلك لم تخفِ زعامتها الفكرية بالقياس إلى البراهمة ، حتى فى عهد بوذا نفسه ، بل إن الحركة البوذية نفسها ، التى أسسها شريف من

أشراف الكشاترية ، نافست البراهمـــة زعامتهم الدينية على الهند مدى ألف عام .

وتحت هذه الأقليات الحاكمة طبقات فى منازل أدنى ، فهناك طبقة « الفيزيا » أو التجار والأحرار الذين كادوا قبل بوذا ألا يكون لهم ما يميزهم طبقة قائمة بذاتها ؛ وهناك طبقة « الشودرا » أو الصناع الذين يشملون معظم السكان الأصليين ، وأخيراً هناك « الپاريا » أو المنبوذون ، وقوامهم قبائل وطنية لم ترتد عن ديانتها مثل قبيلة « شاندالا » ، وأسرى الحرب ، ورجال تحولوا إلى عبيد على سبيل العقاب[٣٥] ؛ ومن هذه الفئة التى كانت بادئ أمرها جماعة صغيرة لا تنتمى إلى طبقة من الطبقات ، تكونت طبقة « المنبوذين » فى الهند اليوم وعددها أربعون مليوناً .

الفصل الرابع

المجتمع الآرى الهندى

الرعاة – زراع الأرض – الصناع – التجار – العملة والديون – الأخلاق – الزواج – المرأة

كيف كان هؤلاء الهنود الآريون يعيشون ؟ بالحرب والسَّلب أول الأمر ، ثم بالرعى والزراعة والصناعة على نمط ريفى كالذى ساد أوروبا فى العصور الوسطى ، لأنه حتى قامت الثورة الصناعية التى تظللُنا اليوم ، لبثت حياة الإنسان الرئيسية من حيث الاقتصاد والسياسة ، على صورة واحدة لا تكاد تتغير فى جوهرها منذ العصر الحجرى الحديث ؛ فكان الآريون الهنود يربون الماشية ويستخدمون البقرة دون أن ينزلوها من أنفسهم منزلة التقديس ، ويأكلون اللحم أينما استطاعوا إليه سبيلا ، بعد أن يهبوا جزءاً منه للكهنة أو للآلهة (٣٦) ؛ ونعلم أن بوذا بعد أن أوشك على الموت جوعاً بما التزمه فى شبابه من تقشف ، كاد يودى بحياته بعد أكلة كبيرة من لحم الخنزير (٣٧) ؛ وكذلك كانوا يزرعون الشعير لكن يظهر أنهم لم يكونوا يعلمون عن الأرز شيئاً فى العهد الفيدى ؛ وكانت الحقول تقسمها الجماعة القروية بين عائلاتها ، على أن يقوم لكل معاً بريها ؛ ولم يكن يجوز بيع الأرض لأجنبى عن القرية ، ويمكن توريثها لأبناء الأسرة نفسها من نسل الذكور المباشر ، وكانت الكثرة الغالبة من الناس فلاحين يملكون أرضهم التى يفلحونها ، لأن الآريين كانوا يعدُّونه عاراً أن يعملوا لقاء أجر يتقاضونه ؛ ويؤكد لنا العالمون بحياتهم أنه لم يكن بينهم ملاك كبار ولا متسولون ، لم يكن بينهم أصحاب الملايين ولا المُعْدَمون(٣٨) .

وأما فى المدن فقد ازدهرت الصناعات اليدوية على أيدى صناع وناشئين فى الصناعة ، كل منهم مستقل بذاته ؛ ثم انتظمتهم قبل ميلاد المسيح بنصف

ألف من السنين ، نقابات قوية لصناع المعادن ، وصناع الخشب ، وصناع الحجر ، وصناع الجلود ، وصناع العاج ، وصناع السلال ، وطلاة المنازل والرسامين ، والخزافين والصباغين والسماكين والبحارة والصيادين وبائعي جلود الحيوان ، والجزارين وبائعي الحلوى والحلاقين والدلالين والزهارين والطهاة — إن مجرد النظر إلى هذه القائمة يبين لك كم كانت الحياة الهندية مليئة متعددة الجوانب ؛ وكانت النقابات تقضي فيما ينشب بين مختلف الطوائف العمالية من أمور ، بل كانت تقيم نفسها حكماً يفض النزاع بين الصناع وزوجاتهم ؛ وكانت أسعار السلع تحدَّد — كما نفعل نحن اليوم — لا وفق قانون العرض والطلب ، بل على أساس من غفلة الشاري ؛ ومع ذلك فقد كان في قصر الملك « مثمِّن » رسمي — يشبه ما لدينا الآن من مكتب لتحديد الأسعار — واجباته أن يختبِرَ السلع المعروضة للبيع ، ويملي الشروط على الصناع(٣٩) .

وتقدمت بينهم وسائل التجارة والسفر حتى بلغت مرحلة استخدام الجواد والعربة ذات العجلتين ، لكنها كانت تعاني من الصعاب ما كانت تعانيه القرون الوسطى ، وكانت القوافل تُستوقَفُ للضرائب عند كل حد يفصل دويلة عن زميلتها مهما صغرت هذه الدويلات ، كما كانت تتعرض لهجمات اللصوص في الطريق عند كل منعطف ؛ وكان النقل بالنهر والبحر أكثر من ذلك رقياً ، فكنت ترى في سنة ٨٦٠ قبل الميلاد أو نحوها ، سفناً تدفعها أشرعة متواضعة ومئات من المجاديف ، في طريقها إلى بلاد الجزيرة وشبه جزيرة العرب ومصر ، تحمل إليها منتجات تتسم بطابع الهند مثل العطور والتوابل والقطن والحرير والشيلان والنسيج الموصلي واللؤلؤ والياقوت والأبنوس والأحجار الكريمة ونسيج الحرير الموشى بالفضة والذهب(٤٠) .

وكان مما وقف في سبيل التجارة أساليب التبادل العقيمة التي اصطنعها الناس في معاملاتهم — فقد كانت وسيلتهم بادئ الأمر تبادل سلعة بسلعة ، ثم

استخدموا الماشية عملة نقدية ، حتى لقد كانت العروس تشترى بالأبقار(٤١)، كهؤلاء اللاتى يقول عنهن هومر « عذارى يحملن أبقاراً » وبعد ذلك ظهرت عملة نحاسية ثقيلة ، لم يكن يضمن قيمتها إلا الأفراد بصفاتهم الشخصية ، ولم يكن للقوم مصارف ، ولذلك كان المال المخزون يخبأ فى المنازل أو يدفن فى الأرض او يودع عند صديق ؛ ومن هنا تطور نظام للإبداع فى عهد بوذا ؛ وذلك أن التجار فى المدن المختلفة كانوا ييسرون التجارة بأن يعطى كل منهم لزميله خطاباً يعترف فيه بما عليه له ؛ وكان فى المستطاع أن تستعير من هؤلاء — وهم أشباه أسرة روتشيلد — ديناً بربح مقداره ثمانية عشر فى كل مائة(٤٢) وكنت تسمع بين الناس حديثاً كثيراً عما بينهم من عهود مالية ؛ وفى ذلك العصر لم تكن العملة النقدية من ثقل الوزن بحيث تثبط المقامرين عن استخدامها فى قمارهم ، وكان « زهر » القمار قد وطد لنفسه مكانة فى المدنية ؛ ففى حالات كثيرة كان الملك يُعدُّ قاعات للقمار لشعبه ، على غرار « موناكو » إن لم تكن على صورتها ؛ وكان جزء من المال المكسوب يذهب إلى الخزانة الملكية(٤٣)؛ ولقد يبدو ذلك فى أعيننا نظاماً يصم أصحابه بوصمة العار ، لأننا لم نَعْتَدْ أن نرى أنظمة القمار عندنا تمد رجال الحكم بيننا بالمال بطريقة مباشرة .

وكانت أخلاقهم فى التجارة رفيعة المستوى ، ولو أن الملوك فى الهند الڤيدية — كما كان أقرانهم فى اليونان الهرمونية — لم يترفعوا عن اغتصاب الماشية من جيرانهم(٤٤) ، لكن المؤرخ اليونانى الذى أرّخ لحملات الإسكندرية ، يصف الهنود بأنهم « يستوقفون النظر باستقامتهم ، وأنهم بلغوا من سداد الرأى حداً يجعل التجاءهم إلى القضاء نادراً ، كما بلغوا من الأمانة حداً يغنيهم عن الأقفال لأبوابهم وعن العهود المكتوبة تسجيلا لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون إلى أبعد الحدود(٤٥) » ؛ نعم إن فى سِفْر « رج — ڤيدا » ذكراً للزواج المحرّم وللتضليل وللعهر وللإجهاض وللزنا(٤٦) ، كما أن هناك علامات تدل على الانحراف الجنسى الذى يجعل الرجال يتصلون بالرجال(٤٧) ، إلا أن الصورة

العامة التى نستمدها من أسفار الفيدا ومن الملاحم ، تدل على مستوى رفيع فى العلاقات بين الجنسين وفى حياة الأسرة .

كان الزواج يتم باغتصاب العروس من أهلها أو بشرائها أو بالاتفاق المتبادل بين العروسين ، لكن هذا النوع الأخير كان ينظر إليه بعين النقد إلى حد ما ، فقد ظن نساؤهم أنه أشرف لهن أن يُشْتَرَيْن وأن يُدفع فيهن الأثمان ، وأنه مما يزيد قدر المرأة أن يسرقها الزوج من أهلها(٤٨) ؛ وكان تعدد الزوجات جائزاً ، ويشجعون عليه بين العِلْية ، لأنه مما يسجِّل للرجل بالفخر أن يعول زوجات كثيرات وأن ينقل إلى الخلف قوته(٤٩) ، وكذلك كان هناك تعدد الأزواج ؛ فقصة « دروپادى(٥٠) » التى تزوجت إخوة خمسة دفعة واحدة تدل على وقوع تعدد الأزواج للزوجة الواحدة — فى أيام الملاحم — حيناً بعد حين ، وكان الأزواج عادة إخوة ، وهى عادة بقيت فى جزيرة سيلان حتى سنة ١٨٥٩ ، ولا تزال متلكئة فى بعض قرى الجبال فى التبت(٥١) ، لكن التعدد كان فى العادة ميزة يتمتع بها الذكر دون الأنثى ، لأنه عند الآريين هو رب الأسرة يحكمها حكماً لا ينازعه فى سيادته منازع ، فكان له حق امتلاك زوجاته وأبنائه ، وله الحق فى ظروف معينة أن يبيعهم أو يرمى بهم فى عرض الطريق(٥٢) .

ومع ذلك فقد تمتعت المرأة بحرية فى العصر الفيدى أكثر جداً مما عتعت به منها فى العصور التالية ، فقد كان لها حينئذ رأى فى اختيار زوجها ، أكثر مما قد تدل عليه ظواهر المراسيم فى الزواج ؛ وكان لها حق الظهور بغير قيود فى الحفلات والرقص ، وكانت تشارك الرجل فى الطقوس الدينية التى تُقدَّم بها القرابين ؛ ولها حق الدرس ، بل ربما ذهبت فى ذلك إلى حد بعيد مثل « جارجى » التى اشتركت فى المجادلات الفلسفية(٥٣) ، وإذا تركها زوجها أرملة فلم يكن على زواجها من قيود(٥٤) ، أما فى عصر « البطولة » فيظهر أن المرأة قد فقدت بعض هذه الحرية ، فكانوا لا يشجعونها على المضى فى الأبحاث العقلية ،

على أساس أن المرأة إذا درست أسفار الڤيدا كان ذلك دليلا على اضطراب المملكة»(٥٥)، وقلّ زواج المرأة بعد موت زوجها الأول ، وبدأت « البردة » — التى تعنى عزل المرأة — وزادت بين الناس عادة دفن الزوجة مع زوجها وهى عادة لم تكد تعرفها الأيام الڤيدية(٥٦) ، وأصبحت المرأة المثالية هى التى جاءت على نموذج بطلة « رامايانا » — وهى « سيتا » الوفية التى تتبع زوجها وتطيعه فى خضوع مهما تطلّب منها ذلك من ضروب الوفاء والشجاعة حتى آخر يوم من حياتها .

الفصل الخامس

ديانة أسفار الڤيدا

الديانة السابقة للڤيدا – آلهة الڤيدا – آلهة الأخلاق – قصة الڤيدا عن الخلق – الخلود – الضحية بالجواد

الظاهر أن أقدم ديانة نعرفها عن الهند ، تلك الديانة التي وجدها الغزاة الآريون بين « الناجا » والتي لا تزال قائمة في الأجناس البشرية البدائية التي تراها هنا وهناك في ثنايا شبه الجزيرة العظيمة ، هي عبادة روحانية طوطمية لأرواح كثيرة تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجارى الماء والجبال والنجوم ؛ وكانت الثعابين والأفاعي مقدسات — إذ كانت آلهة تعبد ومثلاً عليا تنشد في قواها الجنسية العارمة ؛ وكذلك شجرة « بوذى » المقدسة في عهد بوذا كانت تمثل تقديسهم لجلال الأشجار الصامت[٥٧]، وهو تقديس صوفي لكنه سليم ؛ وهناك من آلهة الهنود الأولين ما هبط مع الزمان إلى هنود العصور التاريخية ، مثل « ناجا » الإله الأفعوان ، و « هانومان » الإله القرد ، و « ناندس » الثور المقدس و « الياكشا » أو الإلهة من الأشجار[٥٨]؛ ولما كان بعض هذه الأرواح طيباً وبعضها خبيثاً ، فلا يستطيع حفظ الجسم من دخول الشياطين فيه وتعذيبه في حالات المرض أو الجنون ، تلك الشياطين التي تملأ الهواء ، إلا مهارةٌ عظيمة في أمور السحر ؛ ومن ثم نشأت مجموعة الرُّقى في « ڤيدا أثارڤا » أي « سفر الإلمام بالسحر » ؛ فلابد للإنسان من صيغ سحرية يتلوها إذا أراد الأبناء أو أراد اجتناب الإجهاض ، أو إطالة العمر ، أو دفع الشر ، أو جلب النعاس ، أو إيقاع الأذى أو الارتباك بالأعداء(*)[٥٩] .

(*) راجع « ڤيد أثارڤا » الجزء السادس ص١٣٨ ، والسابع ص ٣٥ ، ص ٩٠ حيث نجد —

وأقدم آلهة ذكرتها «أسفار الڤيدا» هي قوى الطبيعة نفسها وعناصرها : السماء والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء والجنس[٦٢] ؛ فكان «ديوس» (وهو زيوس عند اليونان، وجوپتر عند الرومان)، أول الأمر هو السماء نفسها ؛ وكذلك اللفظة السنسكريتية التي معناها مقدس، كانت في أصلها تعني «اللامع» فقط ؛ ثم أدت هذه النزعة الشعرية التي أباحت لهم أن يخلقوا لأنفسهم كل هذا العدد من الآلهة، إلى تشخيص هذه العناصر الطبيعية ؛ فمثلا جعلوا السماء أباً، وأسموها «ڤارونا» ؛ وجعلوا الأرض أما، وأطلقوا عليها اسم «بريثيڤي» . وكان النبات هو ثمرة التقائهما بوساطة المطر[٦٣]، وكان المطر هو الإله «بارجانيا»، والنار هي «آجني»، والريح كانت «ڤايو» وأما إن كانت الريح مهلكة فهي «رودْرا»، وكانت العاصفة هي «إندرا» والفجر «أوشاس» ومجرى المحراث في الحقل كان اسمه «سيتا» والشمس «سوريا» أو «مترا» أو «ڤشنو» ؛ والنبات المقدس المسمى «سوما»، والذي كان عصيره مقدساً ومسكراً للآلهة والناس معاً، كان هو نفسه إلها يقابل في الهند ما كان «ديونيسوس» عند اليونان، فهو الذي يوحي للإنسان — بمادته المنعشة — أن يفعل الإحسان ويهديه إلى الرأي الثاقب، وإلى المرح، بل يخلع على الإنسان حياة الخلود[٦٤] .

ولما كانت الأمة كالفرد تبدأ بالشعر وتنتهي بالنثر، فقد تحول كل شيء لما أصبحت الأشياء في أعين الناس أشخاصاً، إذ أصبحت صفات الأشياء أشياء قائمة بذاتها، وباتت نعوتها بمثابة الأسماء، والعبارات التي تجري مجرى الحكمة أصبحت آلهة ؛ والشمس التي تهب الحياة انقلبت إلها جديداً اسمه «سڤيتار واهب الحياة» وأما ضوؤها فإله آخر اسمه «ڤيڤاسڤات» أي الإله

— رق «تشتعل بالكراهية» أو «لغة فيها وحشية لا يضبطها ضابط» تجري على لسان نساء يحاولن إبعاد المنافسات لهن، أو إنزال العقم بهن[٦٠]، وفي أحد أسفار يوپانشاد، وهو سفر «بريها دارانياكا» (٦ – ١٢) صيغ يراد بها أن تخطب امرأة بالعزيم، وأخرى «لارتكاب الخطيئة بغير حمل»[٦١] .

الساطع ، والشمس الذى تولد الحى من الحى أصبحت إلها عظيما هو « پراجاپاتى » أى رب الأحياء جميعاً (*)(٦٥) .

ولبثت النار « وهى الإله أجنى » حينا من الدهر أهم آلهة الڤيدا جميعاً ، إذ كان هذا الإله هو الشعلة المقدسة التى ترفع القربان إلى السماء ، وكان هو البرق الذى يثب فى أرجاء الفضاء ، وكان للعالم حياته النارية وروحه المشتعلة ؛ غير أن « إندرا » الذى ينصرف فى الرعد والعاصفة كان أشيع الآلهة كلهم ذكراً بين الناس ، لأنه هو الذى يجلب للآرى الهندى الأمطار النفيسة التى بدت له عنصراً جوهرياً يكاد يزيد فى أهميته للحياة على الشمس ذاتها ، ولذا فقد جعلوه أعظم الآلهة مقاماً ، يلتمسون معونة رعوده وهم فى حومات القتال ، وصوروه — بدافع الحسد له — فى صورة البطل الجبار الذى يأكل العجول مئات مئات ، ويشرب الخمر بحيرات بحيرات(٦٦) ، وكان عدوه المحبب إلى نفسه هو « كرشنا » الذى لم يذكر فى أسفار الڤيدا إلا على أنه إله محلى لقبيلة « كرشنا » إذ لم يكن حينئذ قد تجاوز هذه المرحلة ؛ كذلك كان « ڤشنو » أى الشمس التى تجتاز الأرض بخطواتها الجبارة ، إلها ثانوياً ، كأنما هو لا يدرى أن المستقبل له ولـ « كرشنا » الذى يجسده ؛ وإذن فمن فوائد أسفار الڤيدا لنا أنها تعرض علينا الدين وهو فى طريق التكوين ، فنرى مولده ونموه وموت الآلهة والعقائد ، ونرى ذلك بادئين من النزعة الروحانية البدائية حتى نبلغ وحدة الوجود الفلسفية ؛ بادئين بالخرافة فى « ڤيدا أثارڤا » (أى سفر السحر) ومنتهين إلى الوحدانية الجليلة كما ذكرت فى أسفار « يوپانشاد » .

كان هؤلاء الآلهة بشراً فى صورة الجسم وفى الدافع المحرك للعمل ، بل

(*) كاد « پراجاپاتى » يصعد على أنه الإله الواحد ، حتى جاء اللاهوت فى العهد التالى فجعل براهما الذى يفنى فى نفسه كل شىء ، يبتلع پراجاپاتى فى جوفه .

كادت تكون بشراً فى جهلها كذلك ، فانظر أحدها وقد أحاطت به دعوات الداعى ، فجعل يفكر ماذا عسى أن يهب هذا المتوسل : « هذا ما سأصنعه — كلا ، لن أصنع هذا ؛ سأعطيه بقرة — أم هل أعطيه جواداً ؟ ترى هل تقرب إلى حقاً بشراب السوما ؟ » (٦٧)؛ لكن بعض هؤلاء الآلهة قد صعد فى العصور الڤيدية المتأخرة إلى مستوى خلقى رفيع ؛ خذ مثلا « ڤارونا » الذى كان بادئ ذى بدء هو السماء المحيطة بالأرض ، أنفاسه هى ريح العواصف ، ورداؤه هو السماء ؛ هذا الإله قد تطور على أيدى عباده حتى أصبح أكثر آلهة الڤيدا علواً فى الأخلاق وقرباً من المثل الأعلى للآلهة ؛ أصبح يرقب العالم بعينه الكبرى ، التى هى الشمس ، يعاقب الشر ويكافئ الخير ، ويعفو عن ذنوب التائبين ؛ وبهذا كان « ڤارونا » حارساً على القانون الأبدى ومنفذاً له . ذلك القانون الذى يسمونه « ريتا » وهو الذى كان أول أمره قانوناً يقيم النجوم فى أفلاكها ويحفظها هناك فلا يضطرب مسيرها ، ثم تطور بالتدريج حتى أصبح قانون الحق إطلاقاً ، أصبح نغمة خلقية كونية لا مندوحة لكل إنسان عن مراعاتها إذا أراد أن يجتنب الضلال والدمار (٦٨) .

ولما كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة ، هى : أى هؤلاء الآلهة خلق العالم ؟ فكانوا يعزون هذا الدور الأساسى تارة لـ « آجنى » وتارة لـ « إندرا » وطوراً لـ « سوما » وطوراً رابعاً لـ « پراچاپاتى » ، وفى أحد أسفار « يوپانشاد » يعزى خلق العالم إلى خالق أول قهار :

« حقاً إنه لم يشعر بالسرور ؛ فواحد وحده لا يشعر بالسرور ، فتطلب ثانيا ؛ كان فى الحق كبير الحجم حتى ليعدل جسمه رجلا وامرأة تعانقا ، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ، وعلى ذلك تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة . . . وهذا الفراغ تملؤه الزوجة ؛ وضاجع زوجته وبهذا أنسل البشر ؛ وسألت نفسها الزوجة قائلة : « كيف استطاع مضاجعتى بعد أن أخرجنى من نفسه ، فلأختف » واختفت فى صورة

البقرة ، وانقلب هو ثوراً ، فزاوجها ، وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية ؛ فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ لنفسه هيئة الجواد ، ثم أصبحت هي حمارة فأصبح هو حماراً ، وزاوجها حقاً ، وولدت لها ذوات الحافر ؛ وانقلبت عنزة فانقلب لها تيساً ، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشاً ، وزاوجها حقاً ، وولدت لها الماعز والخراف ؛ وهكذا حقاً كان خالق كل شيء ، مهما تنوعت الذكور والإناث ، حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى حيث النمال ؛ وقد أدرك هو حقيقة الأمر قائلا : « حقاً إني أنا هذا الخالق نفسه ، لأني أخرجته من نفسي ؛ من هنا نشأ الخلق »(٦٩) .

في هذه الفقرة الفريدة . نلمس بذرة مذهب وحدة الوجود وتناسخ الأرواح ، فالخالق وخلقه شيء واحد ، وكل الأشياء وكل الأحياء كائن واحد فكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم صورة أخرى ، ولا يميز هذه الصورة من تلك ويجعلهما حقيقتين إلا الحس المخدوع وإلا تفريق الزمن بينهما ؛ هذه النظرة لم تكن قد ظهرت بعد في أيام الفيدا جزءاً من العقيدة الشعبية ، وإن تكن قد لقيت صياغتها على هذا النحو في « يوپانشاد » ؛ فالآري الهندي — مثل زميله الآري الفارسي — بدل أن يعتقد في تناسخ الأرواح على صور متتابعة ، آمن بعقيدة أبسط ، إذ آمن بالخلود الشخصي ؛ فالروح بعد الموت تلاقي إما عذاباً أو نعيما ؛ فإما أن يلقيها « فارونا » في هوة مظلمة سحيقة ، أو في جهنم ذات السعير ، وإما أن يتلقاها « ياما » فيرفعها إلى الجنة حيث كل صنوف اللذائذ الأرضية قد كملت ودامت إلى أبد الآبدين(٧٠) وفي ذلك يقول سفر « كاثا » من أسفار يوپانشاد : « يفنى الفاني كما تفنى الغلال ، ويعود إلى الحياة في ولادة جديدة كما تعود الغلال »(٧١) .

وليست تدلنا الشواهد على أن الديانة الفيدية في أولى مراحلها كان لها معابد وأصنام(٧٢) . بل كانت مذابح القرابين تنصب من جديد لكل قربان يراد تقديمه ، كما هي الحال في فارس الزرادشتية ، وكان يناط بالنار المقدسة أن

ترفع القربان الممنوح إلى السماء ؛ وفى هذه المرحلة تظهر آثار ضئيلة من التضحية بالإنسان ، كما ظهرت فى فاتحة المدنيات كلها تقريباً ، لكنها آثار قليلة يحوطها الشك ؛ وكذلك أشبهت الهند فارس فى أنها كانت تحرق الحصان أحياناً ليكون قرباناً تقدمه الآلهة(٧٤) وإن « أشفاميزا » — أو « تضحية الجواد » — لمن أغرب الطقوس جميعاً . إذ يخيل للناس فيها أن ملكة القبيلة زاوجت الحصان المقدس بعد ذبحه(*)(٧٥) على أن القربان المعتاد هو أن يسكب قليل من عصير « سوما » وأن يصب شىء من الزبد السائل فى النار(٧٧) ، وكانوا يحيطون القربان برقى السحر ، فلو قدمه مقدمه على النحو الأكمل جاءته بالجزاء المطلوب بغض النظر عما هو حقيق به من ثواب بالنسبة إلى خلقه الشخصى(٧٨) وكان الكهنة يتقاضون أجوراً عالية على مساعدة المتعبد فى أداء طقوس القربان التى أخذت تزداد مع مر الزمن تعقداً ، فإذا لم يكن فى وسع المتعبد أن يدفع للكاهن أجره ، رفض أن يتلو له الصيغ اللازمة ، فأجره لابد أن يسبق ما يدفع لله من أجر ؛ ولقد وضع رجال الدين قواعد تضبط مقدار ما يدفعه صاحب هذه العبادة ، — كم من الأبقار والجياد وكم من الذهب ؛ وقد كان الذهب بصفة خاصة عميق التأثير فى الكهنة والآلهة(٧٩) وفى « أوراق البراهمانا » التى كتبها البراهمة ، إرشادات للكاهن تدله على الطريقة التى يستطيع بها أن يقلب الصلاة أو القربان شراً على رءوس أصحابه إذا لم يؤجروه أجراً كافياً(٨٠) ، وكذلك سنوا قوانين أخرى تفصل دقائق المحافل والطقوس التى ينبغى أن تقام فى كل ظرف من ظروف الحياة تقريباً ، وهى عادة تتطلب معونة الكهنة فى أدائها ؛ وهكذا أصبح البراهمة شيئاً فشيئاً طبقة ممتازة ، تسيطر على الحياة الفكرية والروحية فى الهند سيطرة تهددت كل تفكير وكل تغيير بالمقاومة المميتة .

(*) Ponebatque in gremium regina genitalle victimae membrum

الفصل السادس

أسفار الڤيدا باعتبارها أدباً

السنسكريتية والإنجليزية – الكتابة – الڤيدات الأربعة
سفر رج – ترنيمة الخلق

إنه لما ينبغي أن يثير اهتمامنا الخاص ، هذه اللغة السنسكريتية التي كان يكتبها الآريون الهنود ، ذلك لأنها تعد من أقدم مجموعات اللغات « الأوروبية الهندية » التي تنتمي إليها لغتنا التي نتحدث بها ، فإننا نشعر للحظة من الزمن شعوراً عجيباً باتصال حلقات الثقافة عبر هذه الآماد الفسيحة من الزمان والمكان ، حين نلاحظ أوجه الشبه – في السنسكريتية واليونانية واللاتينية والإنجليزية – بين الألفاظ التي تدل على الأعداد ، وعلى أنواع الصلة في الأسرة ؛ وفي كلمات صغيرة كبيرة الدلالة في هذا الصدد ، وهي الكلمات التي أطلق عليها اسم « الفعل المزاوج » ، ولعل هذا الاسم قد أطلق عليها في غفوة من رجال الأخلاق(*) .

وبعيد جداً أن يكون هذا اللسان القديم الذي قال عنه « سير وليم چونز » إنه « أكمل من لغة اليونان ، وأوسع من لغة الرومان ، وأدق من كلتيهما معاً (٨٣) » بعيداً جداً أن يكون هذا اللسان القديم هو ما كان يتحدث به الغزاة الآريون ؛ فلسنا ندري بأية لغة كان هؤلاء يتكلمون ، وكل ما يستطيعه في هذا الصدد هو أن نفرض فرضاً أنها كانت لغة قريبة الصلة باللهجة الفارسية القديمة التي كتبت بها « الأڤستا » ، وأما السنسكريتية التي كتبت بها أسفار الڤيدا والملاحم فتحتوي بالفعل على علامات اللغة الأدبية الكلاسيكية التي

(*) هنا يذكر المؤلف هامشاً فيه أمثلة توضح هذا الشبه بين اللغات في ألفاظها ، مما يتعذر نقله في الترجمة . (المعرب)

لا يستخدمها إلا العلماء والكهنة ؛ بل إن كلمة « سنسكريتى » نفسها معناها المُعَدَّة ، أو الخالصة ، أو الكاملة ، أو المقدسة ، ولم يكن الناس فى العصر الڤيدى يستخدمون فى كلامهم لغة واحدة ، بل لغات ، لكل قبيلة لهجتها الآرية الخاصة (٨٤) ، فلم يكن للهند فى أى عصر من عصورها لغة واحدة .

ليس فى الڤيدات إشارة واحدة تدل أن مؤلفيها عرفوا الكتابة ؛ ولم يحدث إلا فى القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد أن جاء التجار الهنود — والأرجح أن يكونوا من طائفة الدراڤيديين — من آسيا الغربية بكتابة سامية قريبة الشبه بالكتابة الفينيقية ، وأطلق فيما بعد على هذه الكتابة اسم « الكتابة البراهمية » ؛ ومنها اشتقت كل أحرف الهجاء فى الهند(٨٥) .

ولقد لبثت الكتابة قروناً طويلة — فيما يظهر — لا تستخدم إلا لأغراض تجارية وإدارية ، دون أن يرد على أذهان الناس إلا خاطر جد ضئيل بأن يتخذوها وسيلة أدبية ؛ « وكان التجار — لا الكهنة — هم الذين ارتقوا بهذا الفن الأساسى » حتى القانون البوذى لم يدون — على الأرجح — قبل القرن الثالث السابق لميلاد المسيح ؛ وأقدم ما بقى لنا من كتابات الهند المحفورة على الجدران ، هى محفورات « آشوكا »(٧٨) ؛ وإنه ليتعذر علينا نحن الذين جعلت منا القرون المتعاقبة قوماً تعتمد عقولهم على رؤية عيونهم للمكتوب والمطبوع (حتى جاء هذا العهد الذى امتلأ به الهواء من حولنا ألفاظا وأنغاماً) يتعذر علينا أن نفهم كيف اطمأنت الهند — بعد أن عرفت الكتابة بزمن طويل — إلى استمساكها بالأساليب القديمة فى نقل التاريخ والأدب عن طريق الرواية والذاكرة ؛ فأسفار الڤيدا والملاحم كانت أناشيد أخذت تنمو على تتابع الأجيال التى تناقلتها بالرواية جيلا بعد جيل ؛ ولم يقصد بها إلى الكتابة لتراها العيون ،

بل قصد بها إلى أن تكون أنغاماً تسمعها الآذان(*) ، ومن هذا الإهمال للكتابة نشأت ضآلة علمنا بالهند القديمة :

إذن فما هي أسفار الڤيدا التي نستمد منها جل علمنا بالهند في مرحلتها البدائية ؟ إن كلمة « ڤيدا » معناها معرفة(**). وإذن فسفر الڤيدا معناه الحرفي كتاب المعرفة ؛ « والڤيدات » يطلقها الهندوس على كل تراثهم المقدس الذي ورثوه عن أولى مراحل تاريخهم ، وهي شبيهة بالإنجيل عندنا في أنها تدل على أدب أكثر مما تتخذ لنفسها صورة الكتاب ؛ ولو حاولت تنظيم هذه المجموعة وتبويبها لأحدثت خلطاً فظيعاً ؛ ولم يبق لنا من الڤيدات الكثيرة التي شهدها الماضي إلا أربعة أسفار :

١ – سفر رج ، أو معرفة ترانيم الثناء .
٢ – سفر ساما ، أو معرفة الأنغام .
٣ – سفر ياچور ، أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين .
٤ – سفر أثارڤا ، أو معرفة الرقى السحرية .

وكل واحد من هذه الڤيدات الأربعة ، ينقسم إلى أربعة أقسام :

١ – إلى « مانترا » أو الترانيم .
٢ – إلى « براهمانا » أو قواعد الطقوس والدعاء والرقى لهداية الكهنة في مهمتهم .
٣ – إلى « أرانياكا » أو نصوص الغابة ؛ وهي خاصة بالقديسين الرهبان .
٤ – إلى « يوپانشاد » أو المحاورات السرية ، وهي تقصد إلى الفلاسفة(†)

(*) ربما استعاد الشعر سلطانه القديم على أهل هذا العصر ، إذا ما عادوا إلى إلقائه كلاماً – بدل قراءته في صمت .

(**) ترى أشباه هذه الكلمة في كلمة « أويدا » اليونانية و « ڤيديو » اللاتينية و « ويز » الألمانية و « وت » و « وزدم » الإنجليزيتين .

(†) ليس هذا التقسيم إلا نوعاً واحداً من أنواع التقسيم التي يمكن تطبيقها على مادة هذه الأسفار –

وليس بين أسفار الفيدا إلا سفر واحد ينتمى إلى الأدب أكثر مما ينتمى إلى الدين أو الفلسفة أو السحر ؛ فسفر « رج » ضرب من الدواوين الدينية ، يتألف من ١٠٢٨ ترنيمة ، أو أنشودة من أناشيد الثناء يتوجه بها الناس إلى مختلف معبودات الآريين الهنود ــ الشمس والقمر والسماء والنجوم والريح والمطر والنار والفجر والأرض وغيرها(*) ومعظم الترانيم دعوات واقعية فى سبيل القطعان والمحصول وطول العمر ؛ وقليل جداً منها هو ما يرتفع إلى مستوى الأدب ، وبينها عدد ضئيل يبلغ درجة «الأنشاد» فى رشاقتها وجمالها(٩٢) بعضها شعر طبيعى ساذج ، كأنه الدهشة الفطرية يبديها الطفل إزاء ما يرى ، فترنيمة منها تعجب كيف يخرج اللبن الأبيض من أبقار حمراء ، وترنيمة أخرى تدهش لماذا لا تسقط الشمس على الأرض سقوطاً عمودياً حينما تبدأ فى الانحدار ؛ وترنيمة ثالثة تتساءل : كيف أمكن « لمياه الأنهار كلها أن تثب فوارة إلى المحيط فلا تملؤه » . ومنها ترنيمة رثاء على أسلوب «ثاناتوپسيس» قيلت على جثمان زميل سقط صريعاً فى ميدان القتال :

= وكان علماء الهندوس يضيفون عادة إلى الشروح « الموحى بها » فى البراهمانا واليوبانشاد ، مجموعات كثيرة لشروح أقصر من تلك ، يصوغونها فى عبارات موجزة ويطلقون عليها اسم « سترة » (ومعناها الحرفى خيوط) ، أضافوا هذه الشروح إلى الفيدات ، فاكتسبت على مر الزمن احتراماً تقليدياً يجعلها من مصادر الدين ، على الرغم من أنها ليست منزلة من السماء ؛ وكثير من هذه الشروح موجز إلى حد يتعسر معه فهم معناه ، لكنها كانت تختصر العقيدة اختصاراً يسهل معه نقلها ، أو قل كانت وسيلة تعين على حفظ الطلاب لها فى عصر كانوا يعتمدون فيه على ذاكرتهم أكثر من اعتمادهم على الكتابة .

وليس فى وسع أحد أن يجزم برأى فى إسناد هذه المجموعة الكبيرة من الشعر والأساطير والسحر والطقوس والفلسفة إلى مؤلفيها أو إلى أزمان تأليفها ؛ ويعتقد أتقياء الهندوس أن كل حكمة منها أوحى بها عند الآلهة ، وهم ينبئونك بأن الإله الأعظم براهما كتبها بيده على أوراق من الذهب (٨٩) ، وهى وجهة نظر لا تستطيع تفنيدها بغير عناء ، ويرجع أولو الرأى من الوطنيين أقدم هذه الترانيم إلى تواريخ تتراوح بين سنة ٦٠٠٠ ، وسنة ١٠٠٠ ق . م . حسب درجة الحماسة الوطنية عند القائلين(٩٠) ويرجح أنها جمعت ورتبت بين سنتى ١٠٠٠ ، ٥٠٠ ق . م .(٩١) .

(*) تتألف هذه الأناشيد من مقطوعات قوام الواحدة منها أربعة أبيات عادة ، ويتكون البيت =

هأنذا آخذ القوس من يد ميتة كانت تشدها .
لتكسب لنا ملكاً وقوة ومجداً ؛
فأنت هناك ، ونحن هاهنا : أعزاء بأبنائنا الأبطال ،
سنهزم كل هجمة يوجهها لنا الأعداء ؛
اقترب من صدر الأرض ، أمنا ،
هذه الأرض الفسيحة الأرجاء العطوف بأبنائها ؛
هذه الشابة الناعمة كأنها الصوف المندوف تحت جنوب الأحياء ،
هأنذا أضرع إليها أن تصونك من أيدى الفناء ؛
انفرجى له أيتها الأرض ، ولا تضمى جسده ضما ثقيلا ؛
كونى له مثوى هينا ، ومجديه بعونك الشفوق ؛
فكما تدثر الأم بالثوب ابنها ،
كذلك دثرى هذا الرجل أيتها الأرض(٩٣).

وقصيدة أخرى (رج ، الجزء العاشر ص ١٠) عبارة عن حوار صريح بين الأبوين الأولين للبشر ، هذين التوأمين من أخ وأخته ، « ياما » و « يامى » ؛ فأما « يامى » فتأخذ فى إغراء أخيها أن يضاجعها على الرغم من تحريم مثل هذا الاتصال الجنسى بين أفراد الأسرة الواحدة ، زاعمة له أن كل ما تريده من الأمر هو استمرار الجنس البشرى ، فيقاومها « ياما » على أسس خلقية رفيعة ؛ وتحاول معه كل ضروب الإغراء ، وتفشل ، وأخيراً تصفه بالضعف ؛ والقصة كما هى بين أيدينا ليست كاملة ، ولو أنه فى مقدورنا أن نحكم كيف يكون تمامها من منطق السياق ؛ وأسمى أجزاء القصيدة قطعة هائلة هى « ترنيمة الخلق » وفيها ترى عقيدة وحدة الوجود مبسوطة بظلالها الرقيقة ، بل ترى ريبة التقى الورع ، فى هذا الكتاب الذى هو أقدم كتاب

= الواحد من خمسة مقاطع أو ثمانية أو أحد عشر أو اثنى عشر ، وليس فيه مراعاة للوزن إلا فى المقاطع الأربعة الأخيرة فيراعى فيها الوزن عادة .

ظهر بين أشد الشعوب تمسكاً بالدين :

لم يكن فى الوجود موجود ولا عدم ، فتلك السماء الوضاءة
لم تكن هناك ، كلا ولا كانت بردة السماء منشورة فى الأعالى ؛
فاذا كان لكل شيء غطاء ؟ ماذا كان موئلا ؟ ماذا كان مخبأ ؟
أكانت هى المياه بهوتها التى ليس لها قرار ؟
ولم يكن ثمة موت ، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود .
ولم يكن فاصل بين النهار والليل
و « الواحد الأحد » لم يكن هناك سواه
ولم يوجد سواه منذ ذلك الحين حتى اليوم ؛
كانت هناك ظلمة ؛ وكان كل شيء فى البداية تحت ستار
من ظلام عميق — محيط بغير ضياء —
والجرثومة التى لم تزل كامنة فى اللحاء
برزت طبيعة واحدة من الحر الحرور
ثم أضيف إلى الطبيعة الحب ، وهو الينبوع الجديد
للعقل — نعم إن الشعراء فى أعماقهم يدركون
— إذ هم يتأملون — هذه الرابطة بين ما خلق
وما لم يخلق ؛ فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض .
تتخلل كل شيء وتشمل كل شيء ، أم جاءت من السماء ؟
ثم بذرت الحبوب ، ونهضت جبابرة القوى —
فالطبيعة فى أسفل ، والقوة والإرادة أعلى —
من ذا يعلم السر الدفين ؟ من ذا أعلنه هاهنا ،
من أين ، من أين جاءت هذه الكائنات على اختلافها ؟
إن الآلهة أنفسها جاءت متأخرة فى مراحل الوجود —
من ذا يعلم أنى جاء هذا الوجود ؟

إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم
سواء خلقه بإرادته ، أو صدر عنه وهو ساكن ،
إنه هو ربنا الأعلى فى السموات العلى ،
إنه هو يعلم السر — بل لعله لا يعلم من السر شيئاً (٩٤)

ولبث الأمر هكذا حتى أدركه مؤلفو أسفار « يوپانشاد » فتناولوا هذه المشكلات بالحل . وهذه الإشارات بالتوضيح ، فكان ما أخرجوه فى ذلك أدل نتاج على العقل الهندوسى ، بل لعله أعظم نتاج أخرجه ذلك العقل .

الفصل السابع

فلسفة أسفار يوپانشاد

مؤلفو هذه الأسفار – موضوعها – موازنة العقل بالبصيرة البديهية – أتمان – براهمان – من هما – وصف الله – الخلاص – تأثير أسفار يوپانشاد – ما يقوله إمرسن عن براهما

قال شوبنهور : « إنك لن تجد فى الدنيا كلها دراسة تفيدك وتعلو بك أكثر مما تفيدك وتعلو بك دراسة أسفار يوپانشاد ؛ لقد كانت سلواى فى حياتى – وستكون سلواى فى موتى »(٩٥) فلو استثنيت التحف التى خلفها لنا « فتاح حوتب » (المصرى) فى الأخلاق ، كانت أسفار اليوپانشاد أقدم أثر فلسفى ونفسى موجود لدى البشر ، ففيها مجهود بذله الإنسان دقيق دءوب ، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب ، محاولا أن يفهم العقل وأن يفهم العالم وما بينهما من علاقة ؛ إن أسفار اليوپانشاد قديمة قدم هومر ، ولكنها كذلك حديثة حداثة « كانت » .

والكلمة مؤلفة من مقطعين : « يوپا » ومعناها « بالقرب » و « شاد » ومعناها « يجلس » ؛ ومن « الجلوس بالقرب » من المعلم ، انتقل معنى الكلمة حتى أصبح يطلق على المذهب الغامض الملغز الذى كان يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه وأحبهم إليه(٩٦) ؛ وفى الأسفار مائة وثمان محاورات مما جرى بين المعلم وتلاميذه . ألفها كثير من القديسين والحكماء بين عامى ٨٠٠ و ٥٠٠ قبل الميلاد(٩٧) ، وهى لا تحتوى على مذهب فلسفى متسق الأجزاء ، بل تحتوى على آراء وأفكار ودروس لرجال عدة ، كانت الفلسفة والدين عندهم مايزالان موضوعاً واحداً ؛ وقد حاول هؤلاء الرجال بهذه الآراء أن يفهموا الحقيقة البسيطة الجوهرية التى تكمن وراء كثرة الأشياء الظاهرة ، حتى إذا ما فهموها ، وحدوا أنفسهم بها توحيداً يحوطه إجلال الورع ، وهذه الأسفار كذلك

مليئة بالسخافات والمتناقضات ، وهى فى بعض مواضعها هنا وهناك تتسلف الاتجاه الذى سار فيه « هجل » فيما بعد بكل ما قاله من لغو الحديث(٩٨) ؛ وأحياناً تصادف فيها عبارات غريبة غرابة الصيغ التى يستعملها « توم سوير » فى معالجته للزوائد الجلدية عند مرضاه(٩٩) ، ولكنها أحياناً أخرى تعرض عليك ما قد تظنه أعمق ما ورد فى تاريخ الفلسفة من ضروب التفكير :

إننا نعلم أسماء مؤلفى هذه الأسفار(١٠٠) لكننا لا نعلم من حياتهم شيئاً إلا ما يكشفون لنا عنه حينا بعد حين فى ثنايا تعاليمهم ، وأبرز شخصيتين بين هؤلاء هما : « يا چناڤالكيا » الرجل و « جارجى » المرأة التى لها شرف الانخراط فى سلك أقدم الفلاسفة ؛ وقد كان « يا چناڤالكيا » أحد لساناً من زميلته ، ونظر إليه زملاؤه نظرهم إلى مجدد خطر ، ثم جاء الخلف فاتخذ مذهبه أساساً للعقيدة السليمة التى لا يأتيها الباطل(١٠١) ؛ وهو يحدثنا كيف حاول أن يترك زوجتيه ليكون حكيما راهباً ؛ وإننا لنلمس فى رجاء زوجته « ميترى » له أن يأذن لها بصحبته ، كم كان شغف الهند مدى قرون طوال بمتابعة التفكير فى الفلسفة والدين .

« وبعدئذ كان ياچناڤالكيا » على وشك أن يبدأ لونا جديداً من ألوان الحياة .

قال ياچناڤكيا : « ميترى ! انظرى ، فأنا على وشك الرحيل من هنا لأجوب أقطار الأرض ، فأصغيا إلى أنت و « كاتيايانى » أقل لكما قولا أخير » .

وهنا تكلمت ميترى : إذا ملئت لى هذه الأرض كلها الآن يا مولاى بالغنى ، أأكون بهذا كله بين الخالدين ؟ »

فأجابها ياچناڤالكيا : « كلا ! كلا ! يستحيل أن يكون الثراء طريق الخلود » .

وهنا تكلمت ميترى : « فماذا عساى أن أصنع بما لا يخلدنى ؟ اشرح لى يا مولاى كل ما تعلمه »(١٠٢) .

وموضوع أسفار اليوپانشاد هو كل السر فى هذا العالم الذى عز على الإنسان فهمه : « فمن أين جئنا ، وأين نقيم ، وإلى أين نحن ذاهبون ؟ أيا من يعرف « براهمان » نبئنا من ذا أمر بنا فإذا نحن هاهنا أحياء ... أهو الزمان أم الطبيعة أم الضرورة أم المصادفة أم عناصر الجو ، ذلك الذى كان سبباً فى وجودنا ، أم السبب هو من يسمى « پوروشا » — الروح الأعلى ؟ »(١٠٣) ؛ لقد ظفرت الهند بأكثر من نصيبها العادل من الرجال الذين لا يريدون من هذه الحياة « ما لا يعد بألوف الألوف » ، وإنما يريدون أن يجدوا الجواب عما يسألون » ؛ فتقرأ فى سفر « ميترى » من أسفار يوپانشاد عن ملك خلف ملكه وضرب فى الغابة متقشفاً زاهداً ، لعل عقله بذلك أن يصفو ليفهم ، فيجد حلا للغز هذا الوجود ؛ وبعد أن قضى الملك فى كفارته ألف يوم ، جاءه حكيم « عالم بالروح » ، فقال له الملك : « أنت ممن يعلمون طبيعة الروح الحقيقية ، فهلا أنبأتنا عنها ؟ » فقال الحكيم منذراً : « اختر لنفسك مآرب أخرى » لكن الملك يلح ، ويعبر فى فقرة — لا بد أن تكون قد لاءمت روح شوپنهور وهو يقرؤها — عن ضيقه بالحياة ، وخوفه من العودة إليها بعد موته ذلك الخوف الذى تمتد جذوره فى كل ما تضطرب به رءوس الهندوس من خواطر وأفكار ، وهاك هذه الفقرة :

« سيدى ، ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد النتن المتحلل ، الذى يتألف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنىّ ودم ومخاط ودموع ورشح أنفى وبراز وبول وفساء وصفراء وبلغم ؟ ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد الذى تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والنفور مما ينبغى الرغبة فيه والإقبال على ما يجب النفور منه ، والجوع والظمأ والعقم والموت والمرض والحزن وما إليها ؟ وكذلك نرى هذا العالم كله يتحلل بالفساد كما تتحلل هذه الحشرات الضئيلة وهذا البعوض وهذه الحشائش وهذه الأشجار التى تنمو ثم تذوى ... وإنى لأذكر من كوارث العالم جفاف المحيطات الكبرى وسقوط قمم الجبال وانحراف النجم القطبى رغم ثباته . . . وطغيان البحر على

الأرض . . . فى هذا الضرب من تعاقب أوجه الوجود « ما غناء إشباع الرغبات ، ما دام بعد إشباع الإنسان لها . سيعود إلى هذه الأرض من جديد مرة بعد مرة(١٠٤) ؟ » .

وأول درس يعلمه حكماء اليوبانشاد لتلاميذهم المخلصين هو قصور العقل ، إذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذى تتعبه عملية حسابية صغيرة أن يطمع فى أن يدرك يوماً هذا العالم الفسيح المعقد ، الذى ليس مخ الإنسان إلا ذرة عابرة من ذراته ؟ وليس معنى ذلك أن العقل لا خير فيه ، بل إن له لمكانة متواضعة وهو يؤدى لنا أكبر النفع إذا ما عالج الأشياء المحسوسة وما بينها من علاقات ، أما إذا ما حاول فهم الحقيقة الخالدة ، اللانهائية ، أو الحقيقة فى ذاتها ، فما أعجزه من أداة ! فإزاء هذه الحقيقة الصامتة التى تكمن وراء الظواهر كلها دعامة لها ، والتى تتجلى أمام الإنسان فى وعيه ، لا بد لنا من عضو آخر ندرك به ونفهم ، غير هذه الحواس وهذا العقل « فلسنا ندرك « آتمان » (أى روح العالم) بالتحصيل ، لسنا نبلغه بالنبوغ وبالاطلاع الواسع على الكتب . . . فليطرح البرهمى العلم ليجعل من نفسه طفلا ... لا يبحثن البرهمى عن كلمات كثيرة ، لأنها ليست سوى عناء يشقى به اللسان(١٠٥) » ، فأعلى درجات الفهم — كما كان سبينوزا يقول — هو الإدراك المباشر . أو نفاذ الرأى إلى صميم الأمر بغير درجات وسطى ؛ إنه — كما كان الرأى عند برجسون — هو البصيرة ، التى هى بصر باطنى للعقل الذى أغلق — متعمداً — كل أبواب الحس الخارجى ما استطاع إلى ذلك من سبيل إن « براهمان » الواضح بذاته ، قد تخلل فتحات الحواس من داخل حتى لقد استدارت هذه الفتحات إلى الخارج ، ومن ثم كان الإنسان ينظر فى الخارج ، ولا ينظر إلى نفسه فى داخل نفسه ، أما الحكيم الذى يغلق عينيه ويلتمس لنفسه الخلود ، فيرى النفس فى دخيلته(١٠٦) » .

فإذا ما نظر الإنسان إلى طوية نفسه ولم يجد شيئاً على الإطلاق ، فذلك لا يقوم حجة إلا على دقة استبطانه ، لأنه لا يجوز لإنسان أن يتوقع مشاهدة

الأبدى فى نفسه إذا كان غارقاً فى الظواهر وفى الجزئيات ؛ فقبل أن يحس الإنسان هذه الحقيقة الباطنية ، ينبغى له أولا أن يطهر نفسه تطهيراً تاماً من أدران العمل والتفكير ، ومن كل ما يضطرب به الجسد والروح[١٠٧] يجب أن يصوم الإنسان أربعة عشر يوماً ، لا يشرب إلا الماء[١٠٨] ، وعندئذ يتضور العقل جوعاً — إذا صح هذا التعبير — فيخلد إلى سكينة وهدوء ، وتتطهر الحواس وتسكن ، وكذلك تهدأ الروح هدوءاً يمكنها من الشعور بنفسها وبهذا المحيط الخضم من الأرواح ، التى ليست هى إلا جزءاً منه ؛ وبعدئذ لا يعود الفرد موجوداً باعتباره فرداً ، ويظهر « الاتحاد » وتظهر « الحقيقة الذاتية » لأن الرائى لا يرى فى هذه الرؤية الداخلية النفس الفردية الجزئية ، فتلك النفس الجزئية إن هى إلا سلسلة من حالات مخية أو عقلية ؛ إن هى إلا الجسم منظوراً من الداخل ؛ إنما يبحث الباحث عن « أتمان »(*) نفس النفوس كلها ، وروح الأرواح كلها ، والمطلق الذى لا مادة له ولا صورة ، والذى ننغمس فيه بأنفسنا جميعاً إذا نسينا أنفسنا كل النسيان .

تلك إذن هى الخطوة الأولى فى « المذهب السرى » وهى أن جوهر النفس فينا ليس هو الجسم ، ولا هو العقل ، ولا هو الذات الفريدة ، ولكنه الوجود العميق الصامت الذى لا صورة له ، الكامن فى دخيلة أنفسنا ، هو « أتمان » ؛ وأما الخطوة الثانية فهى « براهمان »(**) وهو جوهر العالم الواحد الشامل الذى لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى (†) غير المشخص فى صفاته ، المحتوى لكل شىء

(*) اشتقاق هذه الكلمة موضع شك ، فيظهر (من سفر رج القسم العاشر ص ١٦) أن معناها فى الأصل نفس ، ثم أصبح معناها الجوهر الحيوى ، ثم أصبح الروح[١٠٩] .

(**) براهمان معناها هنا روح العالم غير المشخصة ، ويجب تمييزها من لفظة براهما الذى هو أكثر منها تشخصاً ، وهو أحد الثالوث الإلهى (براهما وفشنو وشيفا) كما يجب تمييزها من « برهمى » الذى تدل على العضو فى طبقة الكهنة ، ومع ذلك فليس التمييز بين اللفظتين الأوليين بملحوظ دائماً فقد تجد براهما مستعملة بمعنى براهمان .

(†) المفكرون الهنود أقل الفلاسفة الدينيين تأثراً بالشخصية البشرية فى تصويرهم لله ؛ فهم حتى فى الأجزاء الأخيرة من سفر « رج » فى الفيدا ، يشيرون إلى الكائن الأعلى دون أن يذكروا —

والكامن فى كل شىء ، والذى لا تدركه الحواس ، هو « حقيقة الحقيقة » هو الروح الذى لم يولد ولا يتحلل ولا يموت »[١١٠]، إن « أتمان » الذى هو روح الأشياء كلها ، هو روح الأرواح كلها ، هو القوة الواحدة التى وراء جميع القوى وجميع الآلهة ، وتحت جميع القوى وجميع الآلهة ، وفوق جميع القوى وجميع الآلهة :

ثم سأله ڤيداجاداساكايلا قائلا : كم عدد الآلهة يا ياچناڤالكيا ؟

فأجابه : عددهم هو المذكور فى « الترنيمة للآلهة جميعاً » فهم ثلاثمائة وثلاثة ، وهم ثلاثة آلاف وثلاثة » .

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

عددهم ثلاثة وثلاثون

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

عددهم ستة .

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

هما اثنان .

نعم ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

إله ونصف إله .

نعم ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

إنه إله واحد[١١١] .

والخطوة الثالثة هى أهم الخطوات جميعاً : « أتمان » و « براهمان » إن هما إلا فى واحد بعينه ؛ إن الروح (اللافردية) أو القوة الكائنة فينا هى هى بعينها روح العالم غير المشخص ؛ إن أسفار يوپانشاد لا تدخر وسعاً فى تركيز هذا المذهب فى عقل طالب العقيدة ، فما تزال تكرره وتعيده لا تمل له تكراراً

--- له جنساً ، فهم آناً يجعلونه مذكراً عاقلا وآناً يشيرون إليه بضمير غير العاقل ، ليدلوا بذلك على أنه فوق التفرقة الجنسية (الذكر والأنثى) .

وإعادة وإن قل ذلك السامعون ؛ فعلى الرغم من كل هذه الصور الكثيرة وهذه الأقنعة الكثيرة ، فإن ما هو ذاتى وموضوعى شىء واحد ؛ الإنسان فى حقيقته التى تتجرد من الفردية ، هو هو بعينه الله باعتباره جوهراً للكائنات جميعاً ، ويوضح ذلك معلم فى تشبيه مشهور :

— هات لى تينة من ذلك التين

— هذه هى يا مولاى

— اقسمها نصفين

— هأنذا قد قسمتها يا مولاى

— ماذا ترى هناك ؟

— أرى هذه الحُبَيْبَات الدّقاق يا مولاى

— تفضل فاقسم حُبَيْبَةً منها نصفين

— هأنذا قد قسمتها يا مولاى

— ماذا ترى هناك ؟

— لست أرى شيئاً على الإطلاق يا مولاى

— حقاً ياولدى العزيز ، إن هذا الجوهر الذى هو أدق الجواهر والذى لا تستطيع رؤيته — حقاً إنه من هذا الجوهر الذى هو أدق الجواهر قد نبتت هذه الشجرة العظيمة ، فصدقنى يا ولدى العزيز ، إن روح العالم هو هذا الجوهر الذى ليس فى دقته جوهر سواه — هذا هو الحق فى ذاته — هذا هو « أتمان » ؛ هذا هو أنت ياشاوناكيتو

— هل لك أن تزيدنى بالأمر علماً يا مولاى ؟

— ليكن لك يا ولدى العزيز .

هذا التقابل بين « أتمان » و « براهمان » وما ينشأ عن تلاقيهما فى حقيقة

واحدة — الذى يكاد يكون تطبيقاً للتقابل الديالكتيكى عند هيجل — هو صميم أسفار اليوپانشاد ؛ وكثير غير هذا من الدروس تصادفه فى هذه الأسفار لكنها دروس فرعية بالقياس إلى ذلك ، ففى هذه المحادثات نرى عقيدة تناسخ الأرواح قد تم تكوينها(*) ، كما ترى الشوق إلى الخلاص من هذه الدورات التناسخية الفادحة ؛ فهذا هو « چاناكا » ملك «الڤيديها» يتوسل إلى « ياچناڤالكيا» أن ينبئه كيف يمكن التخلص من العودة إلى الولادة من جديد ؛ ويجيب « ياچناڤالكيا » بشرح « اليوجا » (أى رياضة النفس) فيقول : إذا اقتلع الإنسان بالتزهد كل شهوات نفسه ، لم يعد هذا الإنسان فرداً جزئياً قائماً بذاته ، وأمكنه أن يتحد فى نعيم أسمى مع روح العالم ، وبهذا الاتحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديد ؛ وهنا قال له الملك الذى غلبته حكمة الحكيم على أمره ، قال « أى سيدى الكريم ، إنى سأعطيك شعب الڤيديها وسأعطيك نفسى لنكون لك عبيداً »(١١٨) . وإنها لجنة صارمة تلك التى يعدها « ياچناڤالكيا » ذلك الملك المتبتل ، لأن الفرد هناك لن يشعر بفرديته(١١٩) ، بل كل ما سيتم هنالك هو امتصاص الفرد فى الوجود ، هو عودة الجزء إلى الاتحاد بالكل الذى انفصل عنه حيناً من الدهر ؛ « فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة فى البحر ، وتفقد أسماءها وأشكالها ، فكذلك الرجل الحكيم إذا ما تحرر من اسمه وشكله ، يفنى فى الشخص القدسى الذى هو فوق الجميع »(١٢٠) .

مثل هذا الرأى فى الحياة والموت لن يصادف قبولا عند الغربىّ الذى تتغلغل الفردية فى عقيدته الدينية كما تتغلغل فى أنظمته السياسية والاقتصادية ؛ لكنه رأى اقتنع به الهندوسى الفيلسوف اقتناعاً يدهشك باستمراره واتصاله ؛ فستجد

(*) أول ما تظهر هذه العقيدة ، تظهر فى سفر ساتاپاتا من أسفار يوپانشاد حيث يكون تكرار الولادة والموت عقاباً تنزله الآلهة بالإنسان إذا عاش على الشر فى حياته ؛ ومعظم القبائل البدائية تعتقد أن روح الإنسان يمكن انتقالها إلى حيوان أو العكس ، وربما كانت هذه الفكرة — عند سكان الهند السابقين للعنصر الآرى — هى الأساس الذى بنيت عليه العقيدة فى التناسخ(١١٧) .

هذه الفلسفة التى وردت فى اليوپانشاد – هذا اللاهوت التوحيدى ؛ هذا الخلود الصوفى المجرد عن التشخيص – سنجد مثل هذه الفلسفة سائدة فى التفكير الهندى من بوذا إلى غاندى ، ومن ياجناڤالكيا إلى طاغور ؛ فأسفار اليوپانشاد قد ظلت للهند إلى يومنا هذا بمنزلة العهد الجديد للأقطار المسيحية – مذهباً دينيا سامياً – يمارسه الناس أحياناً ، لكنهم يحاونه بصفة عامة ، بل إن هذه الفلسفة اللاهوتية الطموحة لتجد حتّى فى أوربا وأمريكا ملايين بعد ملايين من الأتباع ، من نساء مللن العزلة ورجال أرهقهم التعب ، إلى شوپنهور وإمرسن ، فمن ذا كان يظن أن الفيلسوف الأمريكى العظيم الذى دعا إلى الفردية سيجرى قلمه بتعبير كامل للعقيدة الهندية بأن الفردية وهم من الأوهام ؟

براهما

إذا ظن القاتل المخضب بدماء قتيله أنه القاتل
أو إذا ظن القتيل أنه قتيل
فليس يدريان ما أصطنع من خفىّ الأساليب .
فأحفظها لدىَّ ، ثم أنشرها ، ثم أعيدها
البعيد والمنسىُّ هو إلىَّ قريب
والظل والضوء عندى سواء
والآلهة الخفية تظهر لى
وشهوة الإنسان بخيره أو بشره عندى سواء
إنهم يخطئون الحساب من يخرجوننى من الحساب
إنهم إذا طيرونى عن نفوسهم فأنا الجناحان
إنهم إن شكوا فى وجودى فأنا الشك والشاك معاً
وأنا الترنيمة التى بها البراهمى يتغنى

الباب الخامس عشر

بوذا

الفصل الأول

الزنادقة

المتشككون — العدميون — السوفسطائيون — الملحدون —
الماديون — ديانات بغير إله

إن أسفار اليوپانشاد نفسها تدل على أنه قد كان بين الناس متشككون حتى فى أيام اليوپانشاد ؛ فقد كان الحكماء أحياناً يسخرون من الكهنة ، مثال ذلك فى سفر « شاندوجيا » من أسفار اليوپانشاد ، تشبيه لرجال الدين المتشددين فى تمسكهم بالعقيدة إذ ذاك بموكب من الكلاب أمسك كل منها بذيل سابقه ، وهو يقول فى ورع : « أم ، دعونا نأكل ، أم ، دعونا نشرب[1] » ؛ وفى سفر « سواسانْقِيدْ » من أسفار اليوپانشاد تصريح بأنه لا إله ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا تناسخ ، ولا عالم ؛ وأن أسفار الڤيدا واليوپانشاد ليست إلا تأليفاً من عند جماعة من الحمقى المغرورين ، وأن الأفكار أوهام والألفاظ كلها باطلة ، وأن من تخدعهم العبارات البراقة يتمسكون بالآلهة ، وبالمعابد ، و « بالقديسين » مع أنه لا فرق فى حقيقة الواقع بين « ڤشنو » (الإله) وبين كلب من الكلاب[2] ؛ وإن قصةً لتُروى عن « ڤيروكانا » الذى عاش اثنين وثلاثين عاماً تلميذاً للإله العظيم « براچاپاتى » نفسه ، وأنه تعلم عنها كثيراً عن « النفس التى تخلصت من الشرور ، والتى لا تشيخ ، ولا تموت ، ولا تحزن ، ولا تجوع ، ولا تظمأ والتى لا ترغب إلا الحق » ، ثم عاد « ڤيروكانا » بغتة إلى الأرض وطفق يعلم

الناس هذا المذهب الآتى . الذى هو فضيحة الفضائح : « حياة الإنسان إنما تسعد هاهنا على الأرض . ونفس الإنسان لا بد من إشباع رغباتها ، فمن استطاع أن يُسعد نفسه على هذه الأرض ، وأن يشبع رغبات نفسه ، كسب الدارين معاً ، هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة[٣] » ، وإذن فقد يكون البراهميون الصالحون الذين صانوا تاريخ بلادهم ، قد خدعونا قليلا حين أفهمونا أن نزعة التصوف والتقوى بين الهندوس كانت عامة لم يشذ عنها أحد .

والحق أنه كلما كشف لنا البحث العلمى عن شخصيات لم تكن فى المنزلة العليا من احترام الناس ، ممن اشتغلوا بالفلسفة الهندية قبل بوذا ، ارتسمت لنا صورة تبين لنا إلى جانب القديسين السابحين فى تأملاتهم عن إلههم « براهما » ، طائفة من الأشخاص احتقرت الكهنة وشكت فى الآلهة ، وسميت — دون أن ترتاع لهذا الاسم — سميت بطائفة « اللاأدريين » و « العدميين » ؛ فتلا رفض « سانجايا » اللاأدرى أن يثبت أو أن ينفى الحياة بعد الموت ، وتشكك فى إمكان حصول الإنسان على العلم اليقينى ، وحصر الفلسفة فى محاولة استتباب السلام ؛ كذلك أبى « پورانا كاشياپا » أن يعترف بالفوارق الخلقية ، وعَلَّمَ الناس أن الروح عبد للمصادفة لا يملك لها دفعاً ؛ وذهب « ماسكارين جوسالا » إلى أن القدر قد خط فى لوحة كل شىء يصيبه الإنسان بغض النظر عما هو جدير به حقاً ؛ ورد « أجيتا كاسا كامبالين » الإنسان إلى عناصر هى التراب والماء والنار والهواء ، وقال « إن الحمقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد ، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت[٤] » ولقد صور لنا مؤلف « رامايانا » صورة نموذجية للمتشكك حين صور لنا « جابالى » الذى جعل يسخر من « راما » لأنه رفض مملكة ليفى بوعد تعهد بالوفاء به :

« جابالى وهو برهمى عالم وسوفسطائى مهر فى الكلام ، تشكك فى الإيمان وفى القانون والواجب ، وراح يحدث سيد أيوذيا الشاب قائلا :

أنى لك يا « راما » هذه الحكَم السخيفة التى ترين على قلبك وتكتنف عقلك .

هذه الحكم التى تضلل السذج ومن لا يتعمقون التفكير من بنى الإنسان ..؟

أواه ، إنى لأبكى من أجل هؤلاء الفانين من الناس حين يخطئون فيكبّون على واجب باطل .

ويضحون بهذه المتعة الحبيبة إلى النفس حتى تنقضى حياتهم القاحلة .

وما ينفكون يقدمون العطايا للآلهة وللأسلاف ؛ ياله من ضياع للطعام ؟

لأنه لا الإله ولا السلف يأخذ منا هذا الذى نقدمه إليه فى ولاء وتقوى !

وهل إذا أكل الطعام آكل ، تغذى به ناس آخرون ؟

فهذا الطعام تقدمونه لبرهمى ، هل يمكن له إذن أن يشبع الآباء السالفين ؟

إن الكهنة بخبثهم قد صاغوا هذه الحكم ، وهم يقولون إذ هم ينظرون إلى أغراض أنانية :

« قدّم قربانك وتب إلى الله ؛ واترك مالَك الدنيوى واخلص للصلاة ؟ »

كلا ، يا « راما » ليس هناك حياة آخرة ، وكلها أباطيل

هذه الآمال وهذه العقائد عند الإنسان .

فابحث عن لذائذ الحاضر ، واطرد عن نفسك هذه الأوهام العابثة الواهية(٥) .

ولما شب بوذا رجلا ، وجد القيعان والشوارع بل وجد الغابات فى شمال الهند ، تتجاوب كلها بأصداء نزاع فلسفى ، كان فى جملته ينحو نحواً إلحادياً مادياً . وإنك لترى الأسفار الأخيرة من « يوپانشاد » ، كما ترى أقدم الأسفار البوذية ملأى بالإشارات إلى هؤلاء الزنادقة(٦) ؛ فقد كان هناك طائفة كبيرة من السوفسطائيين الجوالين — ويسمونهم پاريباچاكا أو المتجولين — تنفق أحسن أيام السنة فى الرحلة من مكان إلى مكان ، باحثة لها عن تلاميذ أو معارضين فى البحث الفلسفى ؛ وبعضهم كان يعلم المنطق على أنه الفن الذى تستطيع به أن

تبرهن على أى شىء ، ولذلك أطلق عليهم بحق اسم «من يشققون الشعرة» أو « من يتلوون تلوى ثعابين الماء » ؛ وآخرون طفقوا يبرهنون على عدم وجود الله وعدم ضرورة اصطناع الفضيلة ؛ وكانت جموع كبيرة من الناس تحتشد لتسمع أمثال هذه المحاضرات والمناقشات ، وبنيت قاعات لهم خاصة ، وكان الأمراء أحياناً يكافئون الظافرين فى أمثال هذه الحلبات الفكرية(٧) ؛ حقا لقد كان عصراً يدهشك بحرية فكره ، وبأاوان التجارب التى أجراها أهله فى عالم الفلسفة .

ولم يبق لنا كثير مما قاله هؤلاء المتشككة ، والفضل فى خلود ذكراهم يرجع كله تقريباً إلى ما هاجمهم به أعداؤهم(٨) ، وأقدم اسم بين تلك الطائفة هو « بريهاسپاتى » لكن أقواله الهدامة قد فنيت كلها ، بحيث لم يبق لنا منها إلا قصيدة واحدة تحط من شأن الكهنة فى لغة لا يشوبها غموض الميتافيزيقا :

ليس للجنة وجود ، وليس هناك خلاص أخير ؛
فلا روح ، ولا آخرة ، ولا طقوس للطبقات ...
إن ڤيدا ذات الوجوه الثلاثة ، وأمر الإنسان لنفسه بلغات ثلاث ،
وهذه التوبة بكل ما فيها من تراب ورماد .
كل هذه وسائل عيش لقوم
خلوا من الذكاء والرجولة ...
كيف يمكن لهذا الجسد إذا ما أصبح تراباً ..
أن يعود إلى الظهور على الأرض ؟ وإذا كان فى وسع الشبح أن يمضى إلى عوالم أخرى ، فلماذا لا يجذبه الحب الشديد
لمن يخلفهم وراء ، فيرجعه إليهم ؟
إن هذه الطقوس الغالية التى تقام لمن يموتون
ليست إلا وسائل عيش دبّرها

دهاء الكهنة ـ لا أكثر من ذلك ...
فما دمت حياً ، أنفق حياتك مطمئن البال
مرح النفس ؛ ليقترض الإنسان مالا
من أصدقائه جميعاً ، ويطعم نفسه بالزبد المذاب[٩] .

وعلى أساس القواعد التي أذاعها « بريهاسپاتى » هذا ، نشأت مدرسة هندوسية مادية بأسرها ، أطلق عليها اسم واحد من رجالها ، وهو « شارفاكا » وكانت أتباع هذه المدرسة يضحكون من سخف الرأى القائل : إن أسفار الڤيدا قد احتوت على الحق كما أوحى به الله ؛ وقالوا فى حجاجهم إن الحق يستحيل معرفته إلا عن طريق الحواس ؛ وحتى العقل لا يجوز الركون إليه والثقة به ، لأن كل استدلال عقلى لا يعتمد فى صوابه على الملاحظة الدقيقة والتدليل الصحيح فحسب ، بل يعتمد كذلك على افتراض أن المستقبل سيجىء على غرار الماضى ؛ واليقين فى مثل هذا الافتراض مستحيل ، كما كان « هيوم » ليقول فى الموضوع عندئذ[١٠] ؛ قال فريق « الشارفاكا » إن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود ؛ وإذن فالروح وهم من الأوهام ، والإله « أتمان » أبطولة من الأباطيل : إننا لا نصادف فى تجاربنا ولا فى تجارب السالفين ؛ إذ نستبطن أنفسنا ، أية علامة تدل على وجود قوى خارقة للطبيعة العالم ؛ كل الظواهر طبيعية ، ولا يردها إلى الشياطين أو الآلهة إلا السذج[١١] ؛ والمادة هى وحدها الحقيقة التى لا حقيقة سواها ؛ والجسم مجموعة من ذرات اجتمع بعضها ببعض[١٢] وما العقل إلا مادة تفكر ؛ والجسم ـ لا الروح ـ هو الذى يشعر ويرى ويسمع ويفكر[١٣] « من ذا الذى رأى روحاً موجودة فى استقلال عن الجسم ؟ » فليس هناك خلود ولا عودة إلى الحياة ؛ والدين كله تخليط وهذيان وسفسطة خادعة ، وافتراض وجود الله لا ينفع شيئاً فى شرح العالم أو فهمه ، وإذا اعتقد الناس بضرورة الدين ، فما ذاك إلا أنهم تعودوه ، ولذا فهم يحسون كأنما ضاع منهم ضائع ، ويشعرون كأنهم فى خلاء لا تطمئن

له النفوس ، حين تنمو معارفهم نمواً يهدم العقيدة الدينية(١٤) ؛ وكذلك الأخلاق أمر طبيعي ؛ فهي عرف اجتماعي ووسيلة لراحة العيش في المجتمع ، وليست بالأمر الصادر من الله ؛ والطبيعة لا تأبه لخير أو لشر ، لفضيلة أو رذيلة ، وهي تشرق بشمسها في غير تفرقة بين الأوغاد والقديسين ؛ فلو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً ، فهي منافاتها للأخلاق كما تعرفها حدود البشر ؛ ولا حاجة بالإنسان إلى إلجام غرائزه وشهواته ، لأن هذه هي الإرشادات التي رسمتها الطبيعة للناس ، الفضيلة غلطة من الغلطات ، وغاية الحياة هي أن تعيش ، والحكمة الوحيدة هي أن تعيش سعيداً(١٥) .

كانت هذه الفلسفة الثائرة التي أخذ بها فريق « الشارڤاكا » ختاماً لأسفار الڤيدا وأسفار اليوپانشاد ، وزعزعت سلطة البراهمة على العقل الهندي ، وتركت في المجتمع الهندوسي فراغاً كاد يضطر الناس اضطراراً أن يصطنعوا لأنفسهم ديناً جديداً ؛ لكن أنصار المذهب المادي هؤلاء كانوا قد أجادوا أداء مهمتهم إجادة جعلت الديانتين اللتين نشأتا لتحلا محل العقيدة الڤيدية ، ديانتين ملحدتين ، أو عقيدتين تعبدتين بغير إله — ولو أن هذا القول قد يبدو للقارىء تناقضا — فكلتا الديانتين الجديدتين كانتا شعبتين من الحركة الهدامة ؛ وكلتاهما لم تكونا من إنشاء الكهنة البراهمة ، بل ابتدعهما فريق من « الكشاترية » أي طبقة المقاتلين ، ليردوا بهما فعل اللاهوت والطقوس الكهنوتية ، وبظهور هاتين الديانتين ، وهما الجانتية والبوذية ، بدأ التاريخ الهندي عصراً جديداً .

الفصل الثانى

ماهافيرا والجانتيون

البطل العظيم – العقدة الجانتية – تعدد الآلهة والشرك بالله – التقشف – الخلاص بالانتحار – تاريخ الجانتية فى مراحلها الأخيرة

حول منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وُلد صبى لرجل ثرى من أشراف قبيلة « لِشّاڤى » فى ضاحية من ضواحى مدينة « ڤايشالى » فى الإقليم الذى يسمى الآن بإقليم « بهار »(*) . وكان أبواه على ثرائهما ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن يعود ، وتنظر إلى الانتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر ؛ فلما أن بلغ وليدهما عامه الحادى والثلاثين ، أزهقا روحيهما بجوع متعمد ؛ فتأثر ابنهما الشاب تأثراً بلغ منه سويداء نفسه ، فاطرح العالم كله وأساليب العيش فيه ، وخلع عن جسده كل ثيابه ، وضرب فى أرجاء الإقليم الغربى من البنغال زاهداً متقشفاً ، ينشد تطهير نفسه من أدرانها كما يقصد أن يزداد بسر الوجود فهماً وعلماً ، وبعد أن قضى فى إنكار ذاته على هذا النحو ثلاثة عشر عاماً ، أعلنت جماعة من أتباعه أنه «جِنَا» (أى قاهر) ومعنى ذلك أنه معلم من عظماء المعلمين الذين يكتب لهم القدر – هكذا كانوا يعتقدون – أن يظهروا على فترات دورية ليهدوا شعب الهند سواء السبيل .

واختار هؤلاء الأتباع لزعيمهم اسما جديداً هو « ماهاڤيرا » أو « البطل العظيم » ، واتخذوا لأنفسهم اسماً اشتقوه من اسم عقيدتهم فأطلقوا على أنفسهم اسم « الجانتيين » ونظم « ماهاڤيرا » طائفة من رجاله يكونون

(*) يروى الرواة أن ماهافيرا عاش بين سنتى (٥٩٩ – ٥٢٧ ق . م .) . لكن جاكوبى يعتقد أن ٥٤٩ – ٤٧٧ ق . م . أقرب إلى الصواب(١٦) .

رهباناً عُزَّاباً وطائفة من النساء يكنّ راهبات عانسات ؛ فلما أن جاءته منيته وهو فى الثانية والسبعين من عمره ، ترك وراءه أربعة عشر ألفاً من أشياع مذهبه .

وأخذت هذه العقيدة شيئاً فشيئاً تخرج من جوفها مذهباً من أعجب ما شهده تاريخ الديانات من مذاهب ؛ فقد بدأ هؤلاء الأتباع بمنطق واقعى ، إذ وصفوا المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبى الذى يقع فى الزمان ، فكانوا يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة ، ولو نظر إلى هذا الحق من وجهات نظر أخرى لكان الأرجح أن يكون باطلا ؛ وكان يلذ لهم دائماً أن يرووا قصة العميان الستة الذين وضعوا أيديهم على أجزاء مختلفة من جسم الفيل ، فمن وضع يده على أذنه ظن أن الفيل مروحة ضخمة لذرّ الغلال ، ومن وضع يده على ساقه قال إن الفيل عمود مستدير كبير(٧١) ، فالأحكام كلها — إذن — محدودة بحدود ومشروطة بشروط ، وأما الحقيقة المطلقة فلا تتكشف إلا لهؤلاء المخلصين للبشر الذين يظهرون على فترات منتظمة ، أو طائفة « الجنا » كما كانوا يسمونهم ؛ وليست تنفع أسفار الڤيدا لسد هذا النقص ، لأنها لم تهبط من إله ، وأقل ما يقال فى التدليل على ذلك أن ليس هنالك إله ؛ وقد قال الجانتيون إنه ليس من الضرورى أن نفرض وجود خالق أو سبب أول ، فكل طفل يستطيع أن يفند مثل هذا الفرض بقوله إن الخالق الذى لم يُخْلَق أو السبب الذى لم يسبقه سبب ، لا يقل صعوبة عن الفهم عن افتراض عالم لم تسبقه أسباب ولم يخلقه خالق ؛ وإنه لأقرب إلى المنطق السليم أن نعتقد أن الكون كان موجوداً منذ الأزل ، وأن تغيراته وأطواره التى لا نهاية لها ترجع إلى قوى كامنة فى الطبيعة ، من أن تعزو هذا كله إلى صناعة إله(١٨) .

لكن مناخ الهند لا يساعد على عقيدة طبيعية تقوم بين الناس وتثبت ، فلما أفرغ الجانتيون السماء من إلهها ، لم يلبثوا أن عَمَرُوها من جديد بطائفة من القديسين المؤلهين ممن روى أخبارهم تاريخ الجانتيين وأساطيرهم ؛ وراحوا

يعدونهم مخلصين لهم العبادة مقيمين لهم الشعائر ؛ لكنهم اعتبروا هؤلاء المؤلهين أنفسهم خاضعين للتناسخ والتحلل ، ولم يعدوهم خالقين للعالم أو سادة عليه يحكمونه بأى معنى من المعانى(١٩) ، وليس معنى ذلك أن الجانتيين كانوا يعتنقون مذهباً مادياً خالصاً ، لأنهم فرقوا بين العقل والمادة فى كل الكائنات ، فى كل شىء ، حتى الأحجار والمعادن ، أرواح كامنة ، وكل روح تحيا حياتها بغير شائبة تلام عليها ، تصبح « پاراماتمان » — أو روحاً سامية — وكانت تنجو بذلك من التقمص فى جسد آخر ، مدى حين ، على أنها تتقمص جسدها الجديد إذ ما نالت من الجزاء حقها الموفور ، ولا ينعم « بالخلاص » الكامل إلا أعلى الأرواح وأكملها ؛ ومن هؤلاء تتكون طائفة « الأرهات » — أى السادة المعظمين — الذين كانوا يعيشون ، مثل آلهة أبيقور ، فى مملكة بعيدة ظليلة ، وهم عاجزون عن التأثير فى شئون الناس ، لكنهم ينعمون بارتفاعهم عن كل احتمال يؤدى إلى عودتهم إلى الحياة(٢٠) .

والطريق المؤدية إلى الخـــلاص فى رأى الجانتيين ، هى توبة تقشفية ، واصطناع « أهمْسا » موفورة كاملة ، « وأهمسا » معناها الامتناع عن إيذاء أى كائن حى ؛ ولزام على كل متقشف جانتى أن يأخذ على نفسه عهوداً خمسة ، ألا يقتل كائناً حياً ، وألا يكذب ، وألا يأخذ ما لم يُعْطَه ، وأن يصون عفته وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها ؛ وفى رأيهم أن اللذة الحسية خطيئة دائماً ؛ والمثل الأعلى هو أن تأبه للذة أو ألم وأن تستغنى استغناء تاماً عن الأشياء الخارجية كلها ؛ فالزراعة حرام على الجانتى لأنها تمزق التربة وتستحق الحشرات والديدان ؛ والجانتى الصالح يرفض أكل العسل لأنه حياة النحل ، ويصفى الماء قبل شرابه خشية أن يقتل ما عساه أن يكون كامناً فيه من كائنات ؛ ويغطى فمه حتى لا يستنشق مع الهواء أحياء عالقة فيقتلها ، ويحيط مصباحه بستار حتى يقى الحشرات لذع النار ، ويكنس الأرض أمامه وهو يمشى خوفاً من أن

تدوس قدمه الحافية على كائن حي فتُرْديه ؛ ولا يجوز للجانتي أبداً أن يذبح حيواناً أو يضحي به ، ولو كان « جانتيا » صمم أقام المستشفيات والمصحات — كما ترى في أحد أباد — للحيوانات إن هرمت أو أصابها أذى ؛ والحياة التي يجوز له أن يزهقها هي حياته دون غيرها ؛ فالعقيدة الجانتية تجيز الانتحار ولا تتهم في سبيله العقبات ، خصوصاً إذا تم بوسيلة الجوع ، لأن ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء ؛ ولقد مات جانتيون كثيرون على هذا النحو ، وقادة المذهب يبارحون هذه الدنيا — حتى في عصرنا هذا — بتجويع أنفسهم حتى الموت(٢١) .

إن عقيدة دينية كهذه ، قائمة على أساس من الشك العميق في قيمة الحياة والإنكار الشديد لها ، كان يمكن أن تجد في الناس شيوعاً في بلد ما فتئت الحياة فيه عسيرة شاقة ؛ لكن هذا التطرف في الزهد قد حال دون إقبال الناس عليها حتى في الهند ؛ فمنذ ظهور المذهب الجانتي ، والجانتيون صفوة مختارة ؛ وعلى الرغم من أن « يوان شوانج » وجدهم عديدى النفر أقوياء الأثر في القرن السابع (٢٢). فإنهم كانوا عنــدئذ في أوج حياتهم التي سلخت سيرتها في هدوء ؛ وحدث سنة ٧٩ ميلادية أن انشقوا فريقين تفصلهما هوة سحيقة من اختلاف الرأي على موضوع العرى ؛ ومنذ ذلك الحين ، كان الجانتي إما أن يكون منتسباً إلى طائفة « شويتامبَارا » — أي طائفة ذوى الأردية البيض — وإما أن يكون منتسباً إلى طائفة « ديجامبارا » — أي المتزملين بالسماء ، أو ذوى الأجساد العارية ؛ وكلتا الطائفتين تلبس الثياب العادية كما يقضى المكان والزمان ، وقدّيسوهم وحــدهم هم الذين يجوبون الطرقات عراة الأجسام ؛ وهذان المذهبان الفرعيان لهما فروع ، فطائفة « ديجامبارا » لها أربعة فروع ، وطائفة « شويتامبارا » لها أربعة وثمانون فرعاً (٢٣) ، ويبلغ عدد أتباع الطائفتين معاً مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة من عدد السكان الذين يبلغون ثلاثمائة وعشرين

مليوناً (٢٤) ، ولقد كان غاندى شديد التأثر بالمذهب الجانتى ، واصطنع « أهمسا » — ومعناها الامتناع عن إيذاء الكائنات الحية على اختلافها — أساساً لسياسته وحياته ، ورضى من الثياب بقطعة صغيرة من القماش تستر ردفيه ، ولم يكن يستحيل عليه أن يزهق نفسه جوعاً ؛ ومن يدرى ؟ فلعل الجانتيين يسلكونه فى طائفة « الجنا » فيعدونه تجسّداً جديداً للروح العظمى التى تتقمص جسداً من لحم على فترات منتظمة من الدهر لتخلّص العالم .

الفصل الثالث

أسطورة بوذا

عناقة البوذية – الولادة المعجزة – النشأة – أحزان
الحياة – الهرب – أعوام التقشف – الهداية –
رؤية النرفانا

إنه لمن العسير على أبصارنا أن ترى عبر ألفين وخمسمائة عام ماذا كانت الظروف الاقتصادية والسياسية والخلقية التي استدعت ظهور ديانتين تدعوان مثل ما تدعو إليه الجانتية والبوذية من تقشف وتشاؤم ؛ فمما لا شك فيه أن الهند كانت قد خطت خطوات فسيحة في سبيلها إلى الرقي المادي منذ استقر بها الحكم الآرى : فبنيت مدائن عظيمة مثل « باتاليپُترا » و « ڤايشالى » ؛ وزادت الصناعة والتجارة من ثروة البلاد ؛ والثروة بدورها خلقت لطائفة من الناس فراغاً ، ثم طَوَّر الفراغ العلم والثقافة ؛ ومن الجائز أن تكون الثروة في الهند هي التي أشاعت فيها النزعة الأبيقورية المادية خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ؛ ذلك لأن الدين لا يزدهر في حياة تزدهر بالثراء ، إذ الحواس في ظل الثراء تحرر نفسها من قيود الورع وتخلق من الفلسفات ما يبرر هذا التحرر ؛ وكما حدث في الصين أيام كونفوشيوس ، وفي اليونان أيام بروتاجوراس — ولن نذكر في الهند أيام بوذا — أن أدى الانحلال العقلي للديانة القديمة إلى شك وفوضى في الأخلاق ، فالجانتية والبوذية ، لو أنهما مترعتان في ثناياهما بلون من الإلحاد الكئيب ، الذي ساد ذلك العصر بعد أن زالت عن عينيه غشاوة الأحلام وأوهامها ؛ إلا أنهما في الوقت نفسه كانتا بمثابة رد فعل من جانب الدين في مقاومته لمذاهب اللذة التي أخذت بها طبقة من الناس

حررت نفسها ونعمت فى حياتها بالفراغ (*) .

وتصف الرواية الهندوسية والد بوذا – شُدْذُوذانا – بأنه رجل غمس نفسه فى الحياة ، وهو من أبناء عشيرة «جواتاما» التى تنتسب إلى قبيلة «شاكيا» المُدلَّة بنفسها : كان أميراً أو ملكاً على «كابيلا ڤاستو» عند سفح الهملايا(٢٥) ؛ ولكننا فى حقيقة الأمر لا نعرف شيئاً عن بوذا معرفة اليقين ؛ فلو رأيتنا قد قصصنا عليك هاهنا القصص التى تجمعت حول اسمه ، فليس ذلك لأنها تاريخ نريد إثباته ، ولكننا نرويها لأنها جزء ضرورى من الأدب الهندى والديانة الأسيوية ، ويحدد العلماء مولد بوذا بعام يقرب من سنة ٥٦٣ ق . م ثم لا يستطيعون أن يضيفوا إلى ذلك شيئاً ، فتتناول الأساطير بقية قصته ، وتكشف لنا عن الغرائب التى قد تحدث حين تحمل الأمهات بأعلام الرجال ، فيذكر لنا سفر من أسفار «جاتاكا» (**) أنه فى ذلك الوقت :

«فى مدينة كابيلاڤاستو» أعلن عن الاحتفال بالبدر ؛ وبدأت الملكة «مايا» قبل موعد البدر بسبعة أيام تقيم حفلاتها بالعيد دون أن تقدم فيها المسكرات ، مكتفية بما أغرقت به ولائمها من أكاليل الزهور والعطور ؛ وفى اليوم السابع – يوم اكتمال البدر – استيقظت مبكرة واستحمت فى ماء

(*) لاحظ كثيرون أن هذه الفترة تميزت بكثرة الأنجم اللوامع فى تاريخ العبقرية ؛ فـ «ماهاڤيرا» و «بوذا» فى الهند ؛ و «لاوتسى» و «كونفوشيوس» فى الصين ؛ و «إرميا» و «أشعيا الثانى» فى الأمة اليهودية ؛ وفلاسفة ما قبل سقراط فى اليونان ؛ وربما كان ذلك أيضاً عهد «زرادشت» فى فارس ؛ ومثل هذا التعاصر فى النبوغ يدل على تبادل المؤثرات بين هذه الثقافات القديمة بدرجة أكبر مما يمكننا أن نتعقبه اليوم على سبيل التحديد .

(**) وهى «قصص عن ولادة» بوذا كتبت حول القرن الخامس الميلادى وهناك كذلك أسطورة أخرى عنوانها «لا ليتا فستارا» التى ترجمها إلى الإنجليزية سير إدون آرنلد بعنوان «ضوء آسيا» .

وأحسنت للفقراء بأربعمائة ألف قطعة من النقد : ولما أخذت زخرفها وازّينت ، جلست تأكل طعامها من أطيب الطعام ، وقطعت على نفسها عهود « أبوسلاذا »(*) ، ثم دخلت مخدعها الرسمى المزدان ، واستلقت على سريرها ، فأخذها النعاس ورأت هذا الحلم :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها فى سريرها ويأخذونها إلى جبال الهملايا ويضعونها على هضبات مانوسيلا . . . ثم رأت ملكات هؤلاء الملوك الأربعة ، يأتين إليها فيأخذنها إلى بحيرة أنوتاتا ، ويغمسنها فى الماء ليزلن عنها الصبغة البشرية ، ويلبسنها أردية سماوية ويعطرنها بالعطور ويزيّنّها بالزهور القدسية ؛ ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلا من فضة وعليه قصر من ذهب ؛ وهنالك أعددن لها سريراً إلهياً رأسه إلى الشرق ، وأرقدنها عليه ؛ وهاهنا انقلب « بوذيساتوا »(**) فيلا أبيض ، وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب فلما أن بلغه هبط منه إلى جبل الفضة آتياً إليه من جهة الشمال ؛ وفى جعبته التى أشبهت حبلا من فضة ، كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ؛ وبعدئذ نفخ فى الصور ودخل قصر الذهب ودار تجاه اليمين دورات ثلاثاً حول سرير أمه ، ثم ضرب جنبها الأيمن وظهر لها كأنه يدخل فى رحمها ؛ وبهذا تلقى . . . حياة جديدة .

واستيقظت الملكة فى اليوم التالى وروت حلمها للملك ؛ فدعا الملك إلى حضرته أربعة وستين من أعلام البراهمة ، وخلع عليهم خلع التكريم وأشبعهم طعاماً فاخراً وقدم إليهم الهدايا ؛ فلما أن رضيت نفوسهم بهذه اللذائذ كلها ،

(*) هى عهود تقال فى أربعة أيام مقدسة من كل شهر ، وهى أيام البدر والهلال واليوم الثامن بعد كل منهما .

(**) شخص أراد له القدر أن يكون بوذا ، ومعناها هنا « بوذا » نفسه ، ومعنى كلمة بوذا « المستنير » وهى بين كثير من الألقاب التى تخلع على « السيد » الذى كان اسمه الشخصى « سدذارتا » واسم عشيرته « جواتاما » ؛ وكذلك كان يسمى « شاكيا - مونى » ومعناها « حكيم جماعة شاكيا » كما كان يسمى أيضاً « تاذاجاتا » ومعناها « الرجل الذى ظفر بالحق » ؛ ومع ذلك فلم يطلق بوذا على نفسه لقباً من هذه الألقاب فيما نعلم(٢٧) .

أمر بالحلم أن تُقَصّ عليهم قصته ، واستفسرهم مايكنه الغيب ، فقال البراهمة : لا يأخذنك الهم أيها الملك ، فقد حملت الملكة ، حملت ذكراً لا أنثى ، وسيكون لك ابن ؛ ولو سكن ذلك الولد بيتاً فسيكون ملكاً ، سيكون ملكاً على الدنيا بأسرها ، وأما إن ترك داره وخرج من أحضان العالم ، فسيصبح بوذا ، وسيكون فى هذا العالم رافع الغشاوة عن أعين الناس (غشاوة الجهل) :

وحملت الملكة « مايا » « بوذيستاتاوا » عشرة أشهر كأنه الزيت فى القدح ، ولما أن جاءها أوانها رغبت فى الذهاب إلى بيت أهلها ، ووجهت الخطاب إلى الملك « شدذوذانا » قائلة : « أريد أيها الملك أن أذهب إلى « ديفاداذا » مدينة أسرتى » فوافق الملك وأمر بالطريق من « كابيلاڤاستو » إلى « ديفاداذا » أن يمهد وأن يزين بأصص النبات ، وبالرايات والأعلام ، وأجلسها فى هودج من ذهب يحمله ألف من رجال البلاط ، وأرسلها إلى بيت أهلها فى حاشية كبيرة ؛ وبين البلدين حَرَج يملكه أهل المدينتين جميعاً ، هو حرج يمرح فيــه الناس ، يتألف من أشجار « الملح » ويسمى « حرجُ لُمبِينى » وكان الحرج إذ ذاك كتلة واحدة من الزهر الذى يغطى الأشجار من جذورها إلى رءوسها . . . فلما رأته الملكة رغبت فى أن تمرح فى الحرج . . . وذهبت إلى جذع شجرة كبيرة من أشجار « الملح » وأرادت أن تمسك بغصن من غصونها فانحنى الغصن حتى بات فى متناول يدها كأنه الطرف الأعلى من قصبة لينة ، ومدت يدها وتناولته ، وفى هذه اللحظة عينها اهتزت بالمخاض ، فأقامت لها الحاشية ستاراً يسترها ، وأبعدت عنها ، فوضعت وليدها وهى لم تزل واقفة ممسكة بغصن الشجرة فى يدها ؛ ولم ينزل « بوذيساتاوا » — كما ينزل سائر الأطفال من أجواف أمهاتهم — ملوثاً بالشوائب ؛ بل نزل « بوذيساتاوا » كما ينزل الواعظ من منبر وعظه ، نزل كأنه الرجل ينزل السلم ، ومد يديه وقدميه ، ووقف لا يلوثه القذر ولا تدنسه شائبة من الشوائب ، وقف مشرقاً بالضوء كأنه جوهرة موضوعة على ثوب بنارسى ، هكذا هبط من جوف أمه(٢٨) »

وفوق ذلك ينبغي أن تعلم أنه عند مولد بوذا ظهر في السماء ضوء لامع ، وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة من علياء سمائها لتمد له أيدي المعونة ، وأقبل الملوك من نائي البلاد يرحبون بمقدمه ، وتصور لنا الأساطير صورة زاهية لما أحاط نشأته من أسباب العز والترف ؛ وعاش عيش الأمير الهانئ في ثلاثة قصور « كأنه إله » ، وكان أبوه يقيه ، مدفوعاً بحبه الأبوي ، شر الاتصال بما تعانيه الحياة البشرية من آلام وأحزان ؛ وكان يقوم على تسليته أربع آلاف راقصة ، ولما بلغ الرشد ، عرضت عليه خمسمائة سيدة ليختار إحداهن زوجة له ؛ ولما كان ينتمي إلى طبقة « الكشاترية » — أي « المقاتلين » أُحسن تدريبه في الفنون العسكرية ، ولكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء حتى أتقن دراسة النظريات الفلسفية كلها التي كانت شائعة في عصره (٢٩) ؛ وتزوج وأصبح والداً سعيداً بحياته ، وعاش في ثراء ودعة وطيب أحدوثة .

ويروي الرواة الصالحون أنه خرج من قصره ذات يوم إلى الطرقات حيث عامة الناس ، وهنالك رأى شيخاً كهلا ، وخرج يوماً ثانياً فرأى رجلا مريضاً ، وخرج يوماً ثالثاً فرأى ميتاً ... فاسمع له يروي القصة بنفسه — كما نقلها أتباعه في الكتب المقدسة — يرويها فيحرك في نفسك كامن الشعور .

« وبعدئذ أيها الرهبان جرت خواطري على النحو الآتي — فيما كنت فيه من جلال عيش ورفاهية بالغة — قلت لنفسي : « إن رجلا جاهلا من سواد الناس ، ستنال منه الكهولة كما نالت من ذلك الشيخ ، وليس هو بالبعيد عن نطاق الشيخوخة ، يضطرب ويستحي وتعاف نفسه حين يبصر بشيخ كهل لأنه يتصور نفسه في مثل حالته ؛ إنني كذلك قابل للشيخوخة ، ولست بعيداً عن نطاقها ؛ أفينبغي لي — وأنا القابل الشيخوخة — إذا ما رأيت شيخاً كهلا ، أن أضطرب وأستحي وأن تعاف نفسي ؟ » لم أر ذلك مما يليق ؛ ولما طاف برأسي هذا الخاطر ، ذهب عني بغتة كل تيه بشبابي ...

وهكذا أيها الرهبان قبل أن أهتدى سواء السبيل ، لما وجدتنى ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت فى طبيعة هذه الولادة ماذا تكون ؛ ولما وجدتنى ممن تجوز عليهم الشيخوخة بحثت فى طبيعة هذه الشيخوخة ماذا تكون ، وكذلك المرض ، وكذلك الحزن ، وكذلك الدنس ؛ ثم فكرت لنفسى : « ما دمت أنا نفسى ممن تجوز عليهم الولادة ، فماذا لو بحثت فى طبيعتها ... فلما رأيت ما فى طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عمن لا يولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة النرفانا(٣٠) .

إن الموت هو أصل الديانات كلها ؛ ويجوز أنه لو لم يكن هناك موت لما كان للآلهة عندنا وجود ، هذه النظرات كانت بداية « التنوير » عند بوذا ؛ وكما يرتد الإنسان عن دينه فى لحظة ، وكذلك حدثت لبوذا أن صمم فجأة أن يترك إباه(*) وزوجته وابنه الرضيع ، ليضرب فى الصحراء زاهداً ؛ ولما أسدل الليل ستاره ، تسلل إلى غرفة زوجته ، ونظر إلى ابنه « راهولا » نظرة أخيرة ؛ وتقول الأسفار المقدسة البوذية ، فى فقرة يقدسها أتباع « جوتاما » جميعاً ، إله فى هذه اللحظة عينها :

« كان مصباح يضىء بزيت عبق ، وكانت أم « راهولا » نائمة على سرير ملىء بأكداس الياسمين وغيره من ألوان الزهور ، واضعة راحتها على رأس ابنها ؛ فنظر « بوذيستاوا » — بوذا المنتصر — وقدماه عند الباب ، وقال لنفسه : « لو أزحت يد الملكة لآخذ ابنى ، فستستيقظ الملكة ، وسيكون ذلك حائلا دون فرارى ؛ إننى إذا ما أصبحت بوذا سأعود لأراه » ونزل من القصر(٣١) :

وفى ظلمة الصباح الباكر خلّفَ المدينة على ظهر جواده « كانثاكا » يصحبه سائق عربته « شونا » وقد تعلق يائساً بذيل الجواد ؛ وعندئذ تبدى له « مارا » أمير الشر ، وأغواه بمُلْك عريض ، لكن بوذا أبى عليه غوايته ، وظل راكباً جواده حتى صادفه نهر عريض فوثب من شاطئه إلى شاطئه بوثبة

(*) ماتت أمه فى ولادته .

واحدة جبارة وطافت بنفسه رغبة أن ينظر إلى بلده لكنه أبى على نفسه اللفتة ليرى ، ثم استدارت الأرض العظيمة حتى لا تصبح أمامه سبيل إلى النظر إلى الوراء(٣٢) .

ووقف عند مكان اسمه « يوروڤيلا » يقول : « قلت لنفسي إن هذا لمكان رائع ، وإن هذه لغاية جميلة ؛ فالنهر ينساب صافياً ، وأماكن الاستحمام تبعث في النفس السرور ، وكل ما حولي مروج وقرى » . وهاهنا في هذا الموضع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف ؛ ولبث ستة أعوام يحاول أساليب « اليوجا » – رياضة النفس – التي كانت قد ظهرت قبل ذاك في ربوع الهند ؛ وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضى عليه عهد اقتات فيه بالروث ، وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم ، ولبس ثياباً من الوبر وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب ؛ وكان ينفق الساعات الطوال واقفاً أو راقداً على الشوك ، وكان يترك التراب والقذر يتجمع على جسده حتى يشبه في منظره شجرة عجوزاً ؛ وكثيراً ما كان يرتاد مكاناً تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش ؛ فينام بين هذه الجثث العفنة . ثم اسمع له مرة أخرى يروي لك قصته :

« قلت لنفسي : ماذا لو زممتُ الآن أسناني ، وضغطت لساني إلى لهاتي ؛ وألجمت عقلي وسحقته وأحرقته بعقلي (وهكذا فعلت) ونضح العرق من إبطي ... ثم قلت لنفسي : ماذا لو اصطنعت الآن غيبوبة شعورية يقف فيها التنفس ؟ وهكذا أوقفت النفس شهيقاً وزفيراً من أنفي وفمي ؛ ولما فعلت ذلك سمعت صوتاً عنيفاً للهواء يخرج من أذنيَّ . . . وكما يحدث للرجل إذا ما أراد أن يهشم لإنسان رأسه بسن سيفه ، فكذلك رجّت الرياح العنيفة رأسي .. ثم قلت لنفسي : ماذا لو قللت من طعامي ، فلا آكل أكثر مما تسع راحتي من عصير الفول أو العدس أو البسلّى أو الحمص ... فضمر جسدي ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت العلامة التي أتركها على الأرض إذا ما جلست ، في هيئة أثر الخف يتركه البعير على الرمال ؛ وكان من أثر

تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتى إذا ما حنيتها أو فردتها حتى أشبهت صفاً من رءوس المغازل ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عينى تبرقان عميقتين وطيئتين فى محجريهما ، كما يبرق الماء عميقاً وطيئاً فى بئر عميقة ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن ذبل جلد رأسى كما تتشقق وتذوى القرعة المرة المفصولة عن فرعها وهى فجة ، بفعل الشمس والمطر ، ولما كنت أمد يدى لأمس جلدة بطنى ، كنت أجدنى فى حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهرى ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أنى إذا إذا ما أردت برازاً وجدتنى أنبطح على الأرض سطيحاً ، وكان من أثر تقليل الطعام أنى إذا أردت راحة لجسمى وأخذت أدلكه بكفى ، كانت الشعرات الذاوية تساقط منه »(٣٣) .

لكن فكرة أشرقت على بوذا ذات يوم وهى أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد ، وربما كان فى ذلك اليوم أشد جوعاً منه فى سائر الأيام ، أو ربما ثارت فى نفسه إذ ذاك ذكرى من ذكريات الجمال ، ذلك أنه لم يلحظ تنويراً جديداً يأتيه من هـذه الحياة القاسية بزهدها : « إننى بمثل هذه القسوة لا أرانى أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر ، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية » ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إن تعـذيبه لنفسه قد ولد فيه شعور الزهو بنفسه مما يفسد أى نوع من أنواع التقديس التى كان من الجائز أن تفيض من نفسه ، فأقلع عن زهده وذهب ليجلس تحت شجرة وارفة الظل(*) وجلس هناك جلسة مستقيمة لا حركة فيها ، مصمماً ألا يبرح ذلك المكان حتى يأتيه التنوير ، وسأل نفسه : ما مصدر ما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت ؟ وهنا أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة يتعاقبان فى مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهى ؛ ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ؛ وكل سكينة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد وخيبة أمل جديدة وحزن جديد وألم جديد . « وهكذا

(*) هى « شجرة بوذ » التى ستصبح فيما بعد معبودة عند البوذيين ، ولا تزال هناك تعرض على السائحين عند مرورهم بـ « بوذجايا » .

ركزت عقلي في حالة من نقاء وصفاء ... ركزته في فناء الكائنات وعودتها إلى الحياة في ولادة جديدة ؛ وبنظرة قدسية مطهرة إلهية ، رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود فتولد دَنِيّةً أو سَنِيّةً ، خيرة أو شريرة ، سعيدة أو شقية ، حسب ما يكون لها من «كارما» وفق ذلك القانون الشامل الذى بمقتضاه سيتلقى كل فعل خيّر ثوابه ، وكل فعل شرير عقابه ، في هذه الحياة ، أو في حياة تالية تتقمص فيها الروح جسداً آخر .

إن رؤيته لهذا التعاقب السخيف سخفاً لا يخفى على الرائى ، هذا التعاقب بين الموت والولادة ، هى التى جعلته يزدرى الحياة البشرية ازدراء ؛ فقال لنفسه : إن الولادة أم الشرور جميعاً ، ومع ذلك فالولادة ماضية في طريقها لا تقف فيه عند حد ، إنها ماضية إلى الأبد في طريقها تعيد إلى مجرى الأحزان البشرية فيضه إن فرغ مما يملؤه ؛ فلو استطعنا وقف هذه الولادة . . . لماذا لا نقفها ؟(*) لأن قانون «كارما» يتطلب حالات جديدة من التقمص للروح ، لكى يتاح لها أن تكفر عما اقترفت من شرور في حيــواتها الماضيات ؛ وإذن فإن استطاع الإنسان أن يعيش حياة يسودها عدل كامل ، حياة يسودها صبر وشفقة لا يمتنعان إزاء الناس جميعاً ، لو استطاع أن يحوم بفكره حول ما هو أبدى خالد ، ولا يربط هواه بما يبدأ وينتهى — عندئذ يجوز أن يجنب نفسه العودة إلى الحياة ، وسيغيض معين الشر بالنسبة إليه ؛ لو استطاع الإنسان أن يخمد شهوات نفسه ، ساعياً وراء فعل الخير دون سواه ، عندئذ يجوز أن يمحو هذه الفردية التى هى أولى أوهام الإنسانية وأسوؤها أثراً ، وتتحد النفس آخر الأمر باللانهاية اللاواعية ؛ فيا لها من سكينة تحل بقلب طهر نفسه من شهواته الذاتية تطهيراً تاماً ؟ — وهل ترى قلباً ، لم يطهر نفسه على هذا النحو قد عرف إلى السكينة سبيلا ؟ إن السعادة مستحيلة ، فلا هى ممكنة في هذه الحياة الدنيا كما يظن الوثنيون ، ولا هى ممكنة في الحياة الآخرة كما يتوهم

(*) تتفرع فلسفة شوبنهور من هذه الأرومة عند هذه النقطة .

أنصار كثير من الديانات ؛ أما ما يمكن أن تظفر به فهو السكينة ، هو الهمود البارد الذى نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرفانا .

وهكذا بعد سنوات سبع قضاها متأملا ، أدرك « النبي المستنير » سبب ما يعانيه الناس من آلام فأخذ سمته نحو « المدينة المقدسة » مدينة بنارس ، وهناك فى روضة الغزلان عند « سارنات » طفق يبشر الناس بالنرفانا .

الفصل الرابع

تعاليم بوذا (*)

صورة الزعيم – أساليبه – الحقائق السامية الأربع –
الطريق ذو الخمس شعب – قواعد الأخلاق الخمس –
بوذا والمسيح –لاأدرية بوذا ومناهضته لرجال الدين –
إلحاده – علم نفس بغير نفس – معنى النرفانا

كانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه – شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره – هى المحاورة والمحاضرة وضرب المثل. ولما لم يدر فى خلده قط – كما لم يدر فى خلد سقراط أو المسيح – أن يدون مذهبه، فقد لخصه فى «عبارات مركزة» أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة، وهذه المحادثات – على الصورة التى احتفظ لنا بها الرواة من أتباعه – تصور تصويراً لاشعورياً أول شخصية واضحة الحدود والمعالم فى التاريخ الهندى: رجل قوى الإرادة، صادق الرواية، مزهو بنفسه، وديع المعاملة، رقيق الكلام، محسن إحساناً

(*) أقدم ما لدينا من وثائق تحتوى على تعاليم بوذا هى الـ «پتاكات»، ومعناها «سلاسل القانون»، التى أعدت لتعرض على المجلس البوذى الذى انعقد سنة ٢٤١ قبل الميلاد، وقد وافق هذا المجلس على أن ما فى هذه الوثائق هو تعاليم بوذا بغير تحريف، تلك التعاليم التى لبثت أربعة قرون يتناقلها بالرواية الشفوية جيل عن جيل، أى أنها لبثت كذلك منذ وفاة بوذا حتى انتهى بها الأمر إلى التدوين باللغة «الپاليه» حول سنة ٨٠ قبل الميلاد؛ وهذه «الپتاكات» تقع فى ثلاث مجموعات: «السوتا» أى الحكايات، و «الفنايا» أى التشريع، و «الأبيدوما» أى المذهب؛ أما أولى هذه المجموعات – أعنى پتاكة الحكايات – فتحتوى على محاورات بوذا، التى يضعها «رايس داڤيدز» فى منزلة واحدة مع محاورات أفلاطون(٣٤) وإذا أردنا الدقة فى القول، وجب أن نقول إن هذه المدونات لا تحتوى بالضرورة على تعاليم بوذا نفسه، بل تحتوى على تعاليم المدارس البوذية، ويقول «سير تشارلز إليت»: على الرغم من أن هذه الحكايات أخذت تتزايد على مر القرون، فلست أرى ما يبرر الريبة بأن أقدم الطبقات فى هذا البناء المتراكم تحتوى على ما دونه صحابة الزعيم معتمدين على تذكرهم لما سمعوه منه.

لا ينتهى عند حد معلوم ؛ ولقد زعم لنفسه « الاستنارة » لكنه لم يَدَّع الوحى ، فما زعم قط للناس أن إلها كان يتكلم بلسانه ، وهو فى جدله مع خصومه أكثر صبراً أو مجاملة من أى معلم آخر ممن شهدت الإنسانية من أعلام المعلمين ؛ ويصوره لنا أتباعه — وربما كانوا يضيفون إليه ما ليس فيه لتكمل صورته — يصورونه لنا مصطنعاً لـ « أهمسا » على أتم درجاتها (والأهمسا هى الامتناع عن قتل الكائنات الحية على اختلافها) ؛ فيقولون عنه : « إن جوتاما الذى اعتزل الناس قد رفع نفسه عن الفتك بالحياة ، بأن كف عن قتل الأحياء ؛ لقد خلع عن نفسه الهراوة والسيف (مع أنه كان يوماً من طبقة الكشاترية — أى طبقة المقاتلين) وهو يزورُّ عن غلظة المعاملة ازوراراً ، ويمتلىء قلبه بالرحمة فهو رحيم شفوق بكل كائن تدب فيه الحياة . . وترفع عن النميمة ، أو رفع نفسه عن دناءة الغيبة ... هكذا كان يعيش رابطاً لما انحلت عراه ، مشجعاً لدوام الصداقة بين الأصدقاء ، مصلحاً ذات البين عند الخصوم ، محباً للسلام ، متحمساً للسلام ، متحدثاً بكلمات تهيىء للسلام(٣٦) » ؛ لقد كان مثل « لاوتسى » ومثل « المسيح » يود أن يرد السيئة بالحسنة ، والكراهية بالحب ؛ وإذا أسىء إليه فى النقاش أو أسىء التفاهم بينه وبين من يحاوره ، آثر الصمت « إذا أساء إلىَّ إنسان عن حمق ، فسأرد عليه بوقاية من حبى إياه حباً مخلصاً ، وكلما زادنى شراً ، زدته خيراً » ؛ فإذا جاء غر وأهانه ، استمع إليه بوذا وهو صامت ؛ حتى إذا ما فرغ الرجل من حديثه ، سأله بوذا : « إذا رفض إنسان يا بنى أن يقبل منحة تقدم إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ » فيجيبه الرجل : « إن صاحبها عندئذ هو من قدمها » ، فيقول له بوذا : « إنى أرفض يا بنى قبول إهانتك ، وألتمس منك أن تحفظها لنفسك(٣٧) » إن بوذا — على خلاف الكثرة الغالبة من القديسين — كانت له روح الفكاهة ، لأنه أدرك أن البحث الميتافيزيقى بغير ضحك يصاحبه ، هو من ضروب الكبرياء .

كانت طريقته فى التعلم فريدة لا يماثلها نظير ، ولو أنها مدينة بشىء « للجوالين » أو السوفسطائيين المتنقلين الذين عاصروه فى بلده ؛ فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفى صحبته تلاميذه المقربون ، وفى إثره ما يقرب من ألف ومائتين من أتباعه المخلصين ، ولم يكن أبدا يهتم لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمه له أحد المعجبين من سكان البلد الذى يحل فيه ؛ ولقد وصم ذات يوم أتباعه بالعار ، لأنه أكل فى منزل امرأة فاجرة(٣٨)؛ كانت طريقته دائماً أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه فى حديقة أو غابة أو على ضفة نهر ، وكان يخصص ساعات العصر لتأملاته ، وساعات المساء للتعلم ، وكانت محادثاته تجرى فى صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف فى الحوار ، أو كان يسوق تعاليمه فى عبارات مقتضبة يرمى بها إلى تركيز آرائه تركيزاً يجعلها فى صورة من الإيجاز والترتيب بحيث تقر فى الأذهان وأحب « عباراته التعليمية المقتضبة » إلى نفسه هى « الحقائق السامية الأربع » التى بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً :

١ — تلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء والخيبة واليأس كلها مؤلم . . .

٢ — وتلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن سبب الألم : سببه الشهوة ، الشهوة التى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمازجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التى تسعى وراء اللذائذ تتسقطها هنا وهناك ، شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة ، وشهوة العدم .

٣ — وتلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن وقف الألم :

أن نجتث هذه الشهوة من أصولها فلا تبقى لها بقية فى نفوسنا ، السبيل هى الانقطاع والعزلة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش .

٤ ــ وتلك ــ أيها الرهبان ــ هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم : إنها السبيل السامية ذات الشعب الثمان ، ألا وهى : سلامة الرأى ، وسلامة النية ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة ما نعنى به ، وسلامة التركيز(٣٩) .

كانت عقيدة بوذا التى يؤمن بصدقها ، هى أن الألم أرجح كفة من اللذة الحياة الإنسانية ، وإذن فخير للإنسان ألا يولد ، وهو فى ذلك يقول إن ما سفح الناس من دموع لأغزر من كل ما تحتوى المحيطات العظيمة الأربعة من مياه(٤٠) ، فعنده أن كل لذة تحمل سمها فى طيها ، لمجرد أنها لذة عابرة قصيرة : « أذلك الذى يزول ولا يقيم هو الحزن أم السرور ؟ » ألقى هذا السؤال على أحد تلاميذه ، فأجابه هذا بقوله : « إنه الحزن يا مولاى»(٤١) إذن فأس الشرور هو « ظاميا » ــ وليس معناها الشهوة كائنة ما كانت ، بل الشهوة الأنانية ، الشهوة التى يوجهها صاحبها إلى صالح الجزء أكثر مما يريد بها صالح الكل ؛ وفوق الشهوات كلها الشهوة الجنسية ، لأنها تؤدى إلى التناسل الذى يطيل من سلسلة الحياة إلى ألم جديد بغير غاية مقصودة ؛ وقد استنتج أحد تلاميذه من ذلك أنه ــ أى بوذا ــ بهذا الرأى يجيز الانتحار لكن بوذا عنفه على استنتاجه ذاك ، قائلا : إن الانتحار لا خير فيه ، لأن روح المنتحر ــ بسبب ما يشوبها من أدران ــ ستعود فتولد من جديد فى أدوار أخرى من التقمص ؛ حتى يتسنى لها نسيان نفسها نسياناً تاماً .

ولما طلب تلاميذه منه أن يحدد معنى الحياة السليمة فى رأيه لكى يزيد الرأى وضوحاً ، صاغ لهم ، « قواعد خلقية خمسة » يهتدون بها ــ وهى بمثابة

الوصايا ولكنها بسيطة مختصرة ، غير أنها قد تكون «أشمل نطاقاً وأعسر التزاماً ، مما تقتضيه الوصايا العشر(٤٢)(*) » .

وأما وصاياه الخمس فهى :

١ ــ لا يقتلن أحد كائناً حياً .

٢ ــ لا يأخذن أحد مالم يُعْطَه .

٣ ــ لا يقولن أحد كذباً .

٤ ــ لا يشربن أحد مسكراً .

٥ ــ لا يقيمن أحد على دنس (٤٣) .

وترى بوذا فى مواضع أخرى يضيف إلى تعاليمه عناصر يتسلف بها تعاليم المسيح على نحو يدعو إلى العجب : « على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة ، وأن يزيل الشر بالخير . . . إن النصر يولد المقت لأن المهزوم فى شقاء . . . إن الكراهية يستحيل عليها فى هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها ، إنما تزول الكراهية بالحب(٤٤) » . وهو كالمسيح لم يكن يطمئن نفساً فى حضرة النساء ، وتردد كثيراً قبل أن يسمح لهن بالانضمام إلى الطائفة البوذية ؛ ولقد سأله تلميذه المقرب « أناندا » ذات يوم :

ــ « كيف ينبغى لنا يامولاى أن نسلك إزاء النساء ؟ » .

ــ « كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا »

ــ « لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن ؟ »

ــ « لا تتحدث إليهن يا أناندا »

ــ « لكن إذا ما تحدثن إلينا يامولاى فماذا نصنع ؟ »

ــ « كن منهن على حذر تام يا أناندا » ؛

(*) يشير إلى الوصايا العشر التى جاءت بها الديانة اليهودية : لا تسرق ، لا تقتل الخ . (المعرب)

كانت فكرته عن الدين خلقية خالصة ؛ فكان كل ما يعنيه سلوك الناس وأما الطقوس وأما شـــعائر العبادة ، وما وراء الطبيعة واللاهوت ، فكلها عنده لا تستحق النظر ؛ وحدث ذات يوم أن هم برهمى بتطهير نفسه من خطاياها باستحمامه فى « جايا » ، فقال له بوذا : « استحم هنا ، نعم هاهنا ولا حاجة بك إلى السفر إلى جايا أيها البرهمىّ ؛ كن رحيما بالكائنات جميعاً ؛ فإذا أنت لم تنطق كذباً ، وإذا أنت لم تقتل روحاً ، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يعط لك ، ولبثت آمناً فى حدود إنكارك لذاتك — فماذا تجنى من الذهاب إلى « جايا » ؟ إن كل ماء يكون لك عندئذ كأنه جايا »[٤٦] ؛ إنك لن تجد فى تاريخ الديانات من هو أغرب من بوذا يؤسس ديانة عالمية ، ومع ذلك يأبى أن يدخل فى نقاش عن الأبدية والخلود والله ؛ فاللانهائى أسطورة — كما يقول — وخرافة من خرافات الفلاسفة ، الذين ليس لديهم من التواضع ما يعترفون به بأن الذرة يستحيل عليها أن تفهم الكون ؛ وإنه ليبتسم[٤٧] ساخراً من المحاورة فى موضوع نهائية الكون أو لا نهائيته ؛ كأنما هو قد تسلف بنظره إذ ذاك ما يدور بين علماء الطبيعة والرياضيين اليوم من مناقشة حول الموضوع مناقشة ما أقربها من حديث الأساطير ؛ لقد رفض أن يبدى رأيا عما إذا كان للعالم بداية أو نهاية ، أو إذا كانت النفس هى هى البدن أو شيئاً متميزاً منه أو إذا كان فى الجنة ثواب للناس حتى أقدس القديسين من بينهم ؛ وهو يسمى هذه المشكلات « غابة التأمل النظرى وصحراءه وبهلوانه والتواءه وتعقيده »[٤٨] ويعتزم ألا يكون له شأن بأمثال هذه المسائل ، فهى لا تؤدى بالباحثين فيها إلا إلى الخصومة الحادة ، والكراهية الشخصية والحزن ، ويستحيل أن تؤدى بهم إلى حكمة أو سلام ، إن القدسية والرضى لا يكونان فى معرفة الكون والله ، وإنما يكونان فى العيش الذى ينكر فيه الإنسان ذاته ، ويبسط كفه للناس إحساناً[٤٩] ؛ ثم يضيف إلى ذلك تهكماً بشعاً فيقول إن الآلهة أنفسهم ، لو كان

لم وجود ، لما كان فى وسعهم أن يجيبوا عن أمثال هذه المسائل .

« حدث ذات مرة يا « كفاذا » أن طاف الشك بزميل من طائفة الزملاء هذه ، حول النقطة الآتية : « أين تمضى هذه العناصر الأربعة الكبرى : التراب والماء والنار والهواء ، بحيث لاتترك وراءها أثراً ؟ »وجعل ذلك الزميل يقدح زناد عقله حتى أخذته حالة من الوجد اتضحت له معها السبيل المؤدية إلى الله .

عندئذ يا « كفاذا » صعد هذا الزميل إلى مملكة الملوك الأربعة الكبار ، وخاطب آلهتهم قائلا : « أين يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

فلما أن فرغ من سؤاله هذا ، أجابه الآلهة فى سماء الملوك الأربعة الكبار : « إننا يا أخانا لا ندرى من ذلك شيئاً ، لكن هنالك الملوك الأربعة الكبار ، هم أقوى منا وأعظم ، سَلْهُمْ يجيبوك » .

[وعندئذ يا « كفاذا » ذهب ذلك الزميل إلى الملوك الأربعة وسأل نفس السؤال فأحيل بمثل ذلك الجواب إلى « الثلاثة والثلاثين » الذين أحالوه بدورهم إلى ملكهم « ساكا » الذى أحاله إلى آلهة « ياما » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سوياما » الذى أحاله إلى آلهة « توسيتا » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سانتوسيتا » ، الذى أحاله إلى آلهة « نمانا — رتى » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سونى ميتا » الذى أحاله إلى آلهة « پارانيميتا ڤاساڤاتى » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « ڤاساڤاتى » الذى أحاله إلى آلهة العالم البرهمى » .

وبعدئذ « ياكفاذا » جعل ذلك الزميل يركّز تفكيره فى نفسه تركيزاً استنفد كل ذرة من انتباهه ، وانتهى به ذلك التفكير المركّز إلى شهوده بعقله الذى أمسك هكذا بزمامه ، طريقَ العالم البرهمى واضحاً ؛ فدنا من الآلهة التى تتألف منها حاشية براهما ، وقال : « أين يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة

الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » :

« فلما فرغ من سؤاله أجابته الآلهة التي تؤلف حاشية براهما قائلة : « إننا يا أخانا لا ندرى من ذلك شيئاً ، ولكن هنالك براهما ، براهما العظيم ، الواحد العلى ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، مَن بيده الأمر والتدبير فى جميع الشئون ، فهو ضابط كل شيء وخالق كل شيء وسيد كل شيء ... هو السابق للزمان ، وهو والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! إنه أقوى منا وأعظم ، سَلْهُ يجبك » :

« أين إذن هذا البراهما العظيم ؟ » .

« إننا يا أخانا لا ندرى أين يكون براهما ، ولا لماذا كان ولا من أين جاء ؛ ولكن يا أخانا إذا ما بدت لنا بوادر مجيئه ، إذا ما أشرق الضوء وسطع المجد ، عندئذ سيتبدّى للناظرين ، لأن بادرة ظهور براهما هى إشراق الضوء وسطوع المجد » .

ولم يمض طويل وقت بعد ذاك يا « كفاذا » حتى تبدى براهما العظيم ، فدنا منه أخونا ذاك وسأله : « أين يا صديقى تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » ؛

فلما فرغ من سؤاله أجابه براهما العظيم : « أنا يا أخى براهما العظيم العلى القوى البصير ، بيدى الأمر والتدبير فى كل شيء ، وأنا ضابط كل شيء وخالق كل شيء وسيد كل شيء ، أعين لكل شيء مكانه ، أنا السابق للزمان والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! »

عندئذ أجاب الأخ براهما قائلا : « أنا لم أسألك يا صديقى هل أنت حقاً كل هذا الذى ذكرت من صفات ، لكنى سألتك أين تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » «

فأجابه براهما نفس الجواب مرة أخرى يا « كثاذا » .

وأعاد أخونا سؤاله للمرة الثالثة إلى براهما .

فأخذ براهما العظيم — يا « كثاذا — أخانا ذاك ونحّاه جانباً وقال : « إن هذه الآلهة التي منها تتألف حاشية براهما ، تعتقد أنى — يا أخى — أرى كل شىء وأعلم كل شىء وأتبين كل شىء ؛ ولهذا لم أجبك فى حضرتهم ؛ لكننى ، أيها الأخ ، لست أدرى أين تذهب هذه العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً »(٥٠) .

فإذا ما قال لبوذا بعض تلاميذه ، أن البراهمة يزعمون الإلمام بحلول هذه المسائل ، أجابهم ساخراً : « هنالك يا إخوانى بعض الرهبان وبعض البراهمة يتلوون مثل ثعابين الماء ، فإذا ما ألقيت عليهم سؤالا فى هذا الموضوع أو ذاك، عمدوا إلى غموض القول ، وإلى تلوى الثعابين(٥١) ؛ ولو بدتْ من بوذا حدّة إزاء أحد إطلاقاً ، فإنما كان حاداً تجاه كهنة عصره ، فهو يهزأ بدعواهم أن أسفار الفيدا من وحى الآلهة(٥٢) ، ويفضح البراهمة المعتزين بطبقتهم بقبوله فى طائفته أعضاء الطوائف جميعاً بغير تفريق ؛ إنه لا يهاجم نظام الطبقات مهاجمة صريحة ، لكنه يقول لتلاميذه فى وضوح وجلاء : « انتشروا فى الأرض كلها وانشروا هذه العقيدة ؛ قولوا للناس إن الفقراء والمساكين ، والأغنياء والأعين ، كلهم سواء ، وكل الطبقات فى رأى هذه العقيدة الدينية تتحد لتفعل فعل الأنهار تصب كلها فى البحر »(٥٣) ، وهو يرفض الأخذ بفكرة التضحية فى سبيل الآلهة ، ويفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبحونه ليقيموا أمثال هذه الطقوس(٥٤) ؛ ويرفض كل اعتقاد وكل عبادة لكائنات أعلى من هذه الطبيعة ، ويربأ بنفسه عن التعزيم والرُّقى والتقشف والدعاء(٥٥) ، ويقدّم للناس فى هدوء وبغير محاجة ولجاج ديناً حرًّا أكمل الحرية من جمود الفكر ومن صناعة الكهنوت ، ويفتتح طريقاً للخلاص ، للكافرين والمؤمنين أن يسلكوه على السواء .

وقد يتحول هذا القديس أحياناً ، الذى هو أشهر من عرف الدهر من قديسي الهندوس ، قد يتحول من اللاأدرية إلى إلحاد صريح(٥٦)(*) ، إنه لا ينحرف عن جادّته لينكر وجود الله ، بل إنه حيناً بعد حين يذكر براهما كأنه حقيقة واقعة أكثر منه مثلا أعلى(٥٨) ثم هو لا يحرّم عبادة الآلهة الشائعة بين الناس(٥٩) لكنه يسخر من فكرة إرسال الدعوات إلى « المجهول » ، وفى ذلك يقول : « إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سبباً فى سعادتك أو شقائك(٦٠) لأن السعادة والشقاء دائما نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن » ؛ وهو يأبى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها « قوة وراء الطبيعة » ، كائنة ما كانت تلك العقوبات ، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنة ولا مطهراً ولا جحيما(٦١) ؛ وهو أرهف حساسية للألم والقتل الذى ينزل بالكائنات الحية بحكم العملية البيولوچية فى الحياة ، من أن يفرض أن هذا القتل وذاك الألم قد أرادهما إله مشخص إرادة عن عمد وتدبير ؛ وهو يرى أن هذه الأغلاط فى نظام الكون ترجح ما فيه من آيات تدل على تدبير وتنسيق(٦٢) ؛ انه لا يرى على هذا المسرح الذى تمتزج فيه الفوضى والنظام ، والخير والشر ، مبدأ ينم عن الدوام ، ولا مركزاً لحقيقة أبدية خالدة(٦٣) ، وكل ما يراه فى الحياة دوامة تدور وحركة ما تنفك فى تغير ؛ إن الحقيقة الميتافيزيقية النهائية فى هذه الحياة هى التغير .

وكما أنه يقترح لاهوتاً بغير إله ، فكذلك يقدم لنا علم نفس بغير نفس ؛ فهو يرفض الروحانية فى شتى صورها حتى فى حالة الإنسان ؛ وهو يوافق هرقليطس وبرجسُن فى رأيهما عن العالم ، كما يوافق هيوم فى رأيه عن العقل ، فكل ما نعرفه هو إحساساتنا ، وإذن ، فإلى الحد الذى نستطيع أن نبلغه بعلمنا ، لا نرى سوى أن المادة كلها ضرب من القوة ، والعناصر كلها نوع من الحركة ،

(*) يقول سير تشارلز إليت إن البوذية « لا ترى العالم على أنه من خلق شخصية إلهية ، كلا ولا ترى القانون الأخلاقى على أنه من أمرها ؛ فكون الديانة تستطيع أن تقوم بغير هذه الأفكار أمر عظيم الخطر »(٥٧) .

الحياة تغيُّر ، هي مجرى دافق محايد من صيرورة وفناء ؛ إن « الروح » أسطورة من الأساطير ، فرضناها بغير مبرر يؤيدها ، لنريح بهذا الفرض أذهاننا الضعيفة ، فرضناها قائمة وراء سلسلة الحالات الشعورية المتعاقبة(٦٤) إن هذا « الرابط الذى يربط المدركات دون أن يكون واحداً منها » ، هذا « العقل » الذى ينسج خيوط إحساساتنا وإدراكاتنا فى نسيج من الفكر ، إنْ هو إلا شبح توهمناه ؛ وكل ما هو موجود حقاً هو الإحساسات نفسها والإدراكات نفسها ، تتكون بصورة آلية فى هيئة تذكرات وأفكار(٦٥) ؛ حتى هذه « الذات » النفسية ليست كائناً قائماً بذاته متميزاً من سلسلة الحالات العقلية ؛ ليست الذات سوى استمرار هذه الحالات ، وتذكر الحالات اللاحقة للحالات السابقة ، مضافاً إلى ذلك ما يتعوده الجسم العضوى من عادات عقلية وسلوكية ، وما يتكون لديه من ميول واتجاهات(٦٦) ؛ إن تعاقب هذه الحالات لا تسببه « إرادة » أسطورية تضاف إليها من أعلى ، بل تقرره الوراثة والعادة والبيئة والظروف(٦٧) فهذا العقل السائل الذى لا يعدو أن يكون مجموعة من حالات عقلية ، هذه النفس أو هذه الذات التى ليست إلا ميلاً نحو سلوك معين أو هوى إلى اتجاه بذاته ، كونته الوراثة التى لا حول لها ولا قوة ، كما كونته كذلك الخبرة العابرة خلال تجارب الحياة ، أقول إن هذه النفس أو هذه الذات أو هذا العقل يستحيل أن ينطبق عليه معنى الخلود ، إذا فهمنا من هذا المعنى استمرار الفرد فى وجوده(٦٨) فليس القديس ، بل ليس بوذا نفسه بخالد بعد موته خلوداً يحفظه بشخصه(٦٩) .

ولكن إن كان ذلك كذلك ، فيكف يمكن أن يعود الحى إلى الحياة من جديد فى ولادة ثانية ؟ إذا لم يكن هناك روح ، فما الذى يتقمص أجساداً أخرى فى ولادات تالية ، ليلقى عذابه على خطاياه إذ هو حال فى صورة الجسد ؟ تلك هى أضعف الجوانب فى فلسفة بوذا ، فهو لايحاول أبداً أن يزيل التناقض الكائن بين علم نفسه العقلى وبين قبوله لمذهب التقمص قبولا

أعمى ؛ إن هذا الإيمان بحقيقة التناسخ أو تقمص الروح فى أجساد متتالية له فى الهند قوة وشمول بحيث يعتنقه كل هندوسى على أنه بديهية أو فرض لا بد من التسليم بصحته ، ولا يكاد يكلف نفسه عناء التدليل عليه ؛ فتعاقب الأجيال هناك تعاقباً سريعاً متلاحقاً بسبب قصر الأعمار وكثرة النسل ، يوحى إلى الإنسان إيحاء لا يستطيع أن يفرّ منه ، بأن القوة الحيوية تنتقل من جسد إلى جسد — أو بأن الروح تحلّ بدناً بعد بدن ، إذا عبرنا عن الأمر بعبارة لاهوتية — ؛ ولقد طافت الفكرة برأس بوذا مع مَرّ الهواء فى أنفاسه ؛ فهذا الهواء يدخل شهيقاً ويخرج زفيراً هو الحقيقة الواحدة التى لم تشك فيها قط على ما يبدو[٧٠] ؛ إنه سلم تسليما بعجلة التناسخ فى دورانها وبقانون « كارما » وتفكيره كله إنما يدور حول سبيل الفرار من هذه العجلة الدوارة ، كيف يمكن للإنسان أن يحقق لنفسه النرڤانا فى هذه الحياة الدنيا ، والفناء التام فى الحياة الآخرة .

ولكن ما « النرڤانا » ؟ إنه من العسير أن تجد لهذا السؤال جواباً خاطئاً ، لأن الزعيم قد ترك الموضوع غامضاً ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يستطيع أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير ؛ فالكلمة فى السنسكريتية بصفة إجمالية معناها « منطفىء » كما ينطفىء المصباح أو تنطفىء النار ؛ أما الكتب البوذية المقدسة فتستعملها بمعان : (١) حالة من السعادة يبلغها الإنسان فى هذه الحياة باقتلاعه لكل شهواته الجسدية اقتلاعاً تاماً ؛ (٢) تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ؛ (٣) انعدام شعور الفرد بفرديته ؛ (٤) اتحاد الفرد بالله ؛ (٥) فردوس من السعادة بعد الموت ؛ أما الكلمة فى تعاليم بوذا فمعناها فيما يظهر إخماد شهوات الفرد كلها ، وما يترتب على ذلك للذات من ثواب وأعنى به الفرار من العودة إلى الحياة[٧١] ؛ وأما فى الأدب البوذى ، فكثيراً ما تتخذ الكلمة معنى دنيوياً ، إذ يوصف القديس فى هذا الأدب مراراً بأنه اصطنع النرڤانا فى حياته الدنيا ، بجمعه لمقوماتها السبعة وهى : السيطرة على

النفس ، والبحث عن الحقيقة ، والنشاط ، والهدوء ، والغبطة ، والتركيز ، وعلو النفس[٧٣] ؛ تلك هى مكنونات الـ ڤانا ، لكنها تكاد لا تكون عواملها التى تسبب وجودها ، أما العامل المسبب لوجودها ، والمصدر الذى تنبثق عنه النرڤانا ، فهو إخماد الشهوة الجسدية ، وعلى ذلك تتخذ كلمة « نرڤانا » فى معظم النصوص معنى السكينة التى لا يشوبها ألم ، والتى يثاب بها المرء على إعدام نفسه إعداماً خلقياً[٧٤] ؛ يقول بوذا : « والآن فهذه هى الحقيقة السامية عن زوال الألم ، إنه فى الحق فناء المرء حتى لا تعود له عاطفة تشتهى ، إنه اطراح هذا الظمأ اللاهث ، والتخلص منه والتحرر من ربقته ، ونبذه من نفوسنا نبذاً لا عودة له »[٧٥] وأعنى به هذه الحمى التى تنتابنا من شهوتنا فى البحث عن أنفسنا ؛ إن كلمة « نرڤانا » فى تعاليم الأستاذ الزعيم تكاد دائماً ترادف فى معناها كلمة نعيم[٧٦] وهو رضى النفس رضى هادئاً بحيث لا يعنيها بعدئذ أمرُ نفسها ؛ لكن النرڤانا الكاملة تقتضى العدم : وإذن فثواب التقوى فى أسمى منازلها هو ألا يعود التقىّ إلى الحياة[٧٧] .

ويقول بوذا إننا فى نهاية الأمر ندرك ما فى الفردية النفسية والخلقية من سخف ؛ إن نفوسنا المضطرمة ليست فى حقيقة الأمر كائنات وقوّى مستقلا بعضها عن بعض ، لكنها موجات عابرة على مجرى الحياة الدافق ؛ إنها عُقَدٌ صغيرة تتكون وتتكشف فى شبكة القدر حين تنشرها الريح ؛ فإذا ما نظرنا إلى أنفسنا نظرتنا إلى أجزاء من كل ، وإذا ما أصلحنا أنفسنا وشهواتنا إصلاحاً يقتضيه الكل ، عندئذ لا تعود أشخاصنا بما ينتابها من خيبة أمل أو هزيمة ، وما يعتورها من مختلف الآلام ومن موت لا مهرب منه ولا مفر ، لا تعود هذه الأشخاص تحزننا حزناً مريراً كما كانت تفعل بنا من قبل ؛ عندئذ تفنى هذه الأشخاص فى خضم اللانهاية ؛ إننا إذا ما تعلمنا أن نستبدل بحبنا لأنفسنا حباً للناس جميعاً وللأحياء جميعاً ، عندئذ ننعم آخر الأمر بما ننشد من هدوء .

الفصل الخامس

بوذا فى أيامه الأخيرة

معجزاته – زيارته لبيت أبيه – الرهبان البوذيون – موته

ننتقل من هذه الفلسفة العالية إلى الأساطير الساذجة التى هى كل ما لدينا عن بوذا فى حياته الأخيرة وفى موته ؛ فعلى الرغم من ازدرائه للمعجزات ، انتحل تلاميذه ألف حكاية عن الأعاجيب التى تمت على يديه ؛ فقد سار عبر نهر الكنج فى لمحة بفعل السحر ؛ وأسقط من يده شظية من الخشب كان يزيل بها ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، فنبتت الشظية شجرة ؛ وعندما اختتم وعظه ذات يوم « اهتز العالم كله من أقصاه إلى أقصاه »(٨٠) ؛ ولما أطلق عليه عـــدوه « ديفاناداتا » فيلاً مفترساً ، « غلبه بوذا بالحب » حتى خضع الفيل له خضوعاً كاملا(٨١) ؛ وقد انتهى « سينارْت » وآخرون إلى نتيجة من أمثال هذه المُلَح ، وهى أن أسطورة بوذا قد تكونت على أساس من أساطير الشمس القديمة(٨٢) ومهما يكن من أمر ، فبوذا معناه عندنا الأفكار التى تنسب إليه فى الأدب البوذى ، ولا شك فى أن بوذا صاحب هذه الأفكار التى كان حقيقة تاريخية .

إن الكتب البوذية المقدسة تصور لنا بوذا فى صورة تشرح الصدور ؛ فقد التف حوله أتباع كثيرون ، وذاعت شهرته فى مدائن الجزء الشمالى من الهند ؛ ولما سمع أبوه أنه على مقربة من « كاپيلافاستو » أرسل إليه رسولا يدعوه لقضاء يوم فى مدرج طفولته ؛ وذهب بوذا إلى أبيه الذى كان قد حزن على أميره المفقود ، فسُرَّ أبوه لعودة القديس ساعة من الزمن ؛ وجاءته زوجته التى أخلصت له طوال غيابه عنها ، فجثت أمامه وأمسكت بعقبيه ، ووضعت قدميه حول رأسها ، وقدسته كما تقدس الله ؛ وقص عليه الملك « شُدْذوذانا » قصة حبها له حباً شديداً : « مولاى إن زوجتك حين علمت أنك تلبس رداء

أصفر (وهو ثوب الزاهدين) لبست هى الأخرى رداء أصفر ؛ ولما علمت أنك تأكل وجبة واحدة كل يوم ، أكلت هى الأخرى وجبة واحدة ؛ ولما علمت أنك أبيت النوم على سرير كبير ، نامت هى الأخرى على كنبة ضيقة ، ولما علمت أنك رفضت أكاليل الزهور ورفضت العطور ، رفضتها هى الأخرى » فباركها بوذا ومضى إلى سبيله(٨٣) .

ثم جاءه ابنه « راهولا » وعبر له عن حبه قائلا : « إن ظلك أيها الزاهد ليَسُرُّ النفس » ؛ وضمَّه بوذا إلى طائفته الدينية ، ولو أن أم « راهولا » كانت تأمل أن ترى ابنها ملكاً ؛ لهذا نصبوا أميراً آخر ، وهو « ناندا » ولياً للعهد يتولى العرش حين يحين الحين : لكن « ناندا » ترك حفلة التنصيب - كأنه فى غيبوبة - ، تركها قبل ختامها وغادر المملكة وقصد إلى بوذا ، طالباً إليه أن يضمه هو أيضاً إلى طائفته الدينية ، فلما سمع بذلك الملك « شدذوذانا » حزن والتمس عند بوذا مكرمة ، قائلا له : « لما طلق مولانا هذه الدنيا ، لم يكن ذلك هين الوقع على نفسى ، وكذلك حين غادرَنا « ناندا » وقل ما هو أكثر من هذا عن فراق « راهولا » إن حب الوالد لولده يحز الجلد واللحم والمفاصل والنخاع ؛ فرجائى إليك يا مولاى ألا تدع أتباعك الأشراف يضمون إلى طائفتكم ابناً بغير استئذان أبيه وأمه » فوافق بوذا ، وجعل استئذان الوالدين شرطاً لازماً لانضمام العضو الجديد إلى طائفته(٤٨) .

ويظهر أن هذه العقيدة الدينية التى أرادت أن تستغنى عن الكهنوت ، كانت بالفعل قد كونت لنفسها طائفة من النساك الرهبان لا تقل خطراً عن كهنة الهندوس ؛ ولن يطول الأمد بعد موت بوذا حتى يحيطوا أنفسهم بكل أسباب المجد التى كان البراهمة يحيطون أنفسهم بها ، ولا عجب ، فأول المتحولين من البرهمية إلى البوذية ، إنما جاءوا من صفوف البراهمة أنفسهم ، ثم تحول إلى البوذية بعدئذ جماعة من أغنى الشباب فى بنارس والمدن المجاورة لها ، واصطنع

هؤلاء الرهبان فى حياة بوذا قاعدة بسيطة ، فكانوا يحيون بعضهم بعضاً ، كما يحيون كل من يتحدثون إليهم بعبارة جميلة هى : « السلام على الكائنات جميعاً »(*) فلم يكن يجوز لهم أن يقتلوا كائناً حياً ، ولم يكن يجوز لهم أن يأخذوا شيئاً لم يعطوه ؛ وكان واجباً عليهم أن يجتنبوا الكذب والنميمة ، وأن يصلحوا ما بين الناس من خصومة ويشجعوهم على الوفاق ، وكان حتما عليهم أن يظهروا الرحمة دائماً بالناس جميعاً والحيوان جميعاً ، وأن يجتنبوا كل لذائذ الحس والجسد ، فيجتنبوا الموسيقى ورقصات « ناوتش » والملاهى والألعاب وأسباب الترف واللغو فى الحديث والنقاش والتنبؤ بالغيب ، ولم يكن يجوز لهم أن يزاولوا شيئاً من التجارة بكل صنوف البيع والشراء ، وفوق هذا كله ، وكان لابد لهم أن يصونوا عفتهم ، وأن يجانبوا النساء ويعيشوا فى طهر كامل(٨٥) ، ولقد توجهت إلى بوذا التماسات كثيرة ناعمة ، فاستجاب لها وأذن للنساء أن يدخلن طائفته راهبات ، لكنه لم يوافق أبداً من صميم نفسه على هذا القرار ، وفى ذلك قال : « إذا لم تأذن يا أناندا للنساء بالدخول فى طائفتنا ، دامت العقيدة الخالصة حيناً أطول ، فالتشريع الصالح كان ليقاوم الفناء — بغير دخول النساء — ألف عام ؛ أما وقد أذن لهن بالانضمام إلينا ، فلن يدوم تشريعنا أكثر من خمسمائة عام »(٨٦) ، وكان فى ذلك على صواب ، فعلى الرغم من أن الطائفة العظيمة قد لبثت حتى عهدنا هذا ؛ إلا أنها قد أفسدت تعاليم الأستاذ منذ زمن طويل ، بما أدخلته عليها من سحر وتعدد للآلهة وخرافات لا تقع تحت الحصر .

ولما دنت حياته الطويلة من ختامها ، راح أتباعه يؤلهونه ، لم ينتظروا فى ذلك موته ، على الرغم من أنه كان دائماً يحفزهم على الشك فى صحة ما يقوله لهم ، حتى يفسح كل منهم مجال التفكير الحر أمام نفسه ؛ وورد فى محاورة من أواخر محاوراته :

(*) انظر أيضاً صيغة السلام الجميلة التى يستعملها اليهود والمسلمون] « السلام عليكم ؛ فالناس نهاية الأمر لا ينشدون السعادة ، ولكن ينشدون السلام .

وجاء « ساريپوتا » الوقور إلى حيث كان النبى المعظم ، وحياه وجلس إلى جانبه فى احترام وقال :

« مولاى ، إن إيمانى بالنبى العظيم ليبلغ من القوة بحيث لا أظن أن أحداً فيما مضى أو فيما هو آت ، أو أن أحداً فيمن يعاصروننا ، سواء أكان من طائفة المتجولين أو طائفة البراهمة ، أعظم وأحكم من النبى العظيم . . . فيما يخص الحكمة العليا » .

فأجابه الأستاذ : « كلماتك عظيمة جريئة يا « ساريپوتا » الحق أنك بعبارتك هذه قد رحت تنشد أغنية كما ينشد النشوان أغانيه ! وكأنى بك – إذن – قد عرفت كل الأنبياء المعظمين فيما مضى . . . وفهمت آراءهم بعقلك . فعلمت كيف كانوا يسلكون وفيم كانوا يفكرون . . . وأى ضروب التحرر قد بلغوا ؟ » .

« لا ياسيدى ، لم أبلغ من الأمر كل هذا » .

« وكأنى بك قد أدركت كل الأنبياء المعظمين الذين سيأتى بهم الزمان .. وفهمت كل آرائهم بعقلك ؟ » .

« لا يا مولاى ، لم أبلغ من الأمر هذا » .

« إذن فلا أقل يا « ساريپوتا » من أن تكون قد عرفتنى . . . وأن تكون قد تغلغلت فى ضمير عقلى ؟ » . . .

« حتى ولا هذا يا مولاى » .

« إذن فهأنت ذا ترى يا « ساريپوتا » أنك لا تعلم أفئدة الأنبياء القادرين المتيقظين الذين ظهروا فيما مضى ، والذين سيظهرون فى المستقبل ؛ فلماذا إذن تقول مثل هذه الكلمات العظيمة الجريئة ، لماذا تنطلق منشداً لأغنية النشوان ؟ »(87)

وكذلك لقن « أناندا » أعظم دروسه وأشرفها :

« وإن كل من صار لنفسه – يا أناندا – مصباحاً يهدى ، وكل من صار لنفسه ملاذاً يؤوى ، سواء فى حياتى أو بعد موتى ، فلن يلتمس لنفسه من غير

نفسه مأوى ، وسيستمسك بالحق مصباحاً .:. فلا يطلب من غير نفسه ملاذاً — أمثال هؤلاء ... هم الذين سيبلغون أعلى الذُّرى ! لكن ينبغى أن يكون بهم شغف بالمعرفة »[٨٨] .

ومات بوذا عام ٤٨٣ قبل الميلاد ، وهو فى عامه الثمانين ، وكانت آخر كلماته لرهبانه : « والآن أيها الرهبان ، ها أنذا أوجه إليكم الخطاب ؛ إن كل ما هو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجادّ »[٨٩] .

الباب السادس عشر
من الإسكندر إلى أورانجزيب

الفصل الأول

تشاندرا جوبتا

الإسكندر فى الهند – تشاندرا جوبتا محرر بلاده – الشمس – جامعة تاكسيلا – القصر الملكى – يوم فى حياة ملك – مكيافلى أسبق عهداً من مكيافلى الحديث – الإدارة – القانون – الصحة العامة – النقل والطرق – الحكومة البلدية

فى سنة ٣٢٧ قبل الميلاد ، عبر اسكندر الأكبر جبال هندوكوش آتياً فى طريقه من فارس ، وهبط على بلاد الهند ؛ ولبث عاماً يجول بجملته بين دول الشمال الغربى من الهند ، التى كانت جزءاً من أغنى أجزاء الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ يجمع منها المؤن لجنوده والذهب لخزانته ؛ وعبر السند فى الجزء الأول من سنة ٣٢٦ ق . م . وشق طريقه بالقتال بطيئاً ، متخللا « تاكسيلا » و « روالپندى » متجهاً نحو الجنوب والشرق ، والتقى بجيش الملك پورس حيث هزم من جيش المشاة ثلاثين ألفاً . ومن الفرسان أربعة آلاف ، ومن العربات الحربية ثلاثمائة ، ومن الفيلة مائتين ، وقتل اثنى عشر ألف رجل ؛ فلما أن أسلم « پورس » بعد أن قاتل حتى استنفد جهده ، أمره الإسكندر أن يقول على أى نحو يريده أن يعامله ، ذلك لأنه أعجب بشجاعته وقوامه وجمال قسماته ، فأجابه « پورس » ، « عاملنى يا اسكندر معاملة تليق بالملوك » فقال الإسكندر : وسأعاملك معاملة الملوك بالنسبة إلى نفسى ، وأما بالنسبة إليك أنت ، فَمُرْ بما تريد » ، لكن « پورس » أجاب بأن كل شيء يريده

متضمن فيما طلب أولا ؛ وأعجب الإسكندر بهذا الجواب إعجاباً شديداً ، ونصّب « پورس » ملكاً على الهند المفتوحة كلها ، باعتباره تابعاً خاضعاً لمقدونيا ، ولقد وجده بعدئذ حليفاً نشيطاً أميناً(١) ، وأراد الإسكندر أن يتقدم بجيوشه حتى يبلغ البحر من ناحية الشرق ، لكن جنوده احتجوا على ما أراد ، وكثر فى ذلك بينهم القول وازداد التجهم ، فخضع الإسكندر لمشيئتهم وقادهم خلال قبائل معادية له إشفاقاً على أوطانهم من اعتدائه ، مما اضطر جنود الإسكندر أن يحاربوا فى سيرهم عند كل قدم من الطريق ، أوكادوا — قادهم حذاء « هيداسب » وإلى جوار الساحل ؛ حتى اخترق بهم « جدروسيا » إلى بلوخستان ؛ فلما وصل « سوزا » بعد عشرين شهراً من عودته بعد فتوحه لم يعد جيشه أكثر من فلول منهوكة من الجيش الذى كان قد دخل به الهند قبل ذاك بثلاثة أعوام .

وبعد ذلك بسبعة أعوام كان كل أثر للسلطان المقدونى قد زال عن الهند زوالا تاماً(٢) ، وكان العامل الأول فى زوال ذلك السلطان ، رجل هو من أروع من يثير الخيال فى تاريخ الهند من رجال ؛ فهو وإن يكن أقل منزلة فى صفاته العسكرية من الإسكندر ، إلا أنه أعظم منه حاكماً ؛ ذلك هو « تشاندرا جوپتا » الشريف الشاب الذى ينتمى إلى طبقة الكشاترية المقاتلة ، وقد نفته من « مجاذا » أسرة « ناندا » الحاكمة التى كان هو من أبنائها ، وكان إلى جانبه ناصح مكيافيلىُّ ماكر ، هو « كوتيلا تشاناكيا » الذى أعانه على تنظيم جيش صغير اكتسح به الحاميات المقدونية ، وأعلن الهند حرة من الغازى ثم تقدم إلى « پاتاليپوترا(*) » عاصمة مملكة « مجاذا » وأثار فيها ثورة واستولى على عرشها ، وأسس بها « أسرة موريان الحاكمة » التى حكمت الهندستان وأفغانستان مدى مائة وسبعة وثلاثين عاماً ، ولما استسلم « تشاندرا جوپتا » بشجاعته لحكمة « كوتيلا » التى لم يكبح جماحها ضمير ، سرعان ما أصبحت

(*) هى ما يسمى الآن « پاتنا » .

حكومته أقوى حكومة كان يعرفها العالم عندئذ ، حتى أنه لما جاء المجسطى سفيراً فى « باتاليپوترا » عن « سلوكَس تكتار » ملك سوريا ، أدهشه أن يرى هناك مدنية وصفها لليونان المدققين المتشككين الذين كانوا عندئذ لم يزالوا فى موضع قريب من أوج حضارتهم ، فقال إنها مدنية مساوية للمدنية اليونانية مساواة تامة(٣) .

وصف لنا هذا الإغريقى الحياة الهندية فى عصره وصفاً ممتعاً ، ربما مال فيه نحو التهاون فى الدقة ليكون فى صالح الهنود ؛ وأول ما استوقف نظره هناك هو ألاّ رقّ فى الهند(*) على خلاف ما عهده فى أمته ، وهو اختلاف يجعل الأولى أعلى من الثانية منزلة فى هذه الناحية ، وأنه على الرغم من انقسام السكان إلى طبقات حسب ما يؤدونه من أعمال ، فقد قبل الناس هذه الأقسام على أنها طبيعية ومقبولة ؛ ويقول السفير عنهم فى تقريره إنهم كانوا « يعيشون عيشاً سعيداً » لأنهم :

« فى سلوكهم يتصفون بالبساطة ، وهم كذلك مقتصدون فهم لا يشربون الخمر قط إلا فى الاحتفال بتقديم القرابين ... والدليل على بساطة قوانينهم ومواثيقهم هو أنهم قلما يلجأون إلى القانون ، فهم لا يتقدمون إلى محاكمهم بقضايا عن خرق العهود أو نهب الودائع ، بل هم لا يحتاجون إلى أختام أو شهود ، لكنهم يودعون أشياءهم على ثقة بعضهم ببعض . . . إنهم يقدرون الحق والفضيلة قدراً عظيما .. والجزء الأعظم من أرضهم يزرع بالرى ، ولذلك ينتج محصولين فى العام ... ولهذا كان من الثابت أن الهند لم تعرف المجاعة قط ، ولم يكن بها قحط عام فى موارد الطعام اللازم للتغذية(*) .

وأقدم المدائن الألفين التى كانت فى الهند الشمالية فى عهد « تشاندراجوبتا » هى مدينة « تاكسيلا » التى تبعد عشرين ميلا — جهة الشمال الغربى — عن

(*) يقول « أريان » : « هذا شىء عظيم فى الهند ، أعنى أن يكون سكانها جميعاً أحراراً ، ليس بينهم هندى واحد من الرقيق »(٤) .

مدينة « روالپندى » الحديثة ، ويصفها « أريان » بأنها : « مدينة عظيمة مزدهرة » ؛ ويقول « سترابو » : « إنها كبيرة وبها أرقى القوانين » ، فقد كانت مدينة عسكرية ومدينة جامعية فى آن معاً ، إذ تقع من الوجهة العسكرية على الطريق الرئيسية المؤدية إلى آسيا الغربية ، وكان بها أشهر الجامعات الكثيرة التى كانت فى الهند إذ ذاك ، فكان يحج إليها الطلاب زرافات ، كما كانوا يحجون زرافات إلى باريس فى العصور الوسطى ، ففى وسع الطلاب أن يدرسوا بها ما شاءوا من فنون وعلوم على أيدى أساتذة أعلام ، وخصوصاً مدرستها للطب ، فقد ذاع اسمها فى العالم الشرقى كله مقروناً بالتقدير العظيم(*) .

ويصف الجسطى مدينة « پاليپوترا » عاصمة الملك « تشاندرا چوپتا » فيقول إنها تسعة أميال فى طولها وميلان تقريباً فى عرضها(١٠) وكان القصر الملكى بها من خشب ، لكن السفير الإغريقى وضعه فى منزلة أعلى من منزلة المساكن الملكية فى « سوزا » و « إكباتانا » ولا يفوقه إلا قصور « پرسوپوليس (أى مدينة الفرس) ؛ فأعمدته مطلية بالذهب ومزخرفة بنقوش من حياة الطير ومن ورق الشجر ، وهو من الداخل مؤثث تأثيثاً فاخراً ومزدان بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة(١١) ؛ وقد كان فى هذه الثقافة قسط من حب الشرقيين للتظاهر ، فمثلا ترى ذلك واضحاً فى استخدامهم لآنية من الذهب قطر الواحدة منها ست أقدام(١٢) ؛ لكن مؤرخاً إنجليزياً يبحث الآثار المادية والأدبية والتصويرية لتلك المدينة فيصـل إلى نتيجة ، هى أنه « فى القرنين الرابع والثالث قبل المسيح لم يكن ما يتمتع به ملك موريا من أسباب الترف بكل

(*) كشفت حفريات سير چون مارشال فى تاكسيلا عن أحجار منحوتة نحتاً دقيقاً ، وعن تماثيل مصقولة صقلا بلغ الغاية ، وعن نقود ترجع إلى سنة ٦٠٠ ق . م . وعن مصنوعات زجاجية دقيقة الصناعة لم تفقها أية صناعة من نوعها فى الهند بعدئذ(٨) ، ويقول ڤنسنت سمث : « إنه من الواضح أنهم بلغوا من الحضارة حداً بعيداً ، وأن كل الفنون والصناعات التى تصاحب حياة مدنية غنية مثقفة ، كانت معروفة لهم(٩) » .

ضروبها ، والصناعات اليدوية الماهرة بكل أنواعها ، أقل مما كان يتمتع به أباطرة المغول بعد ذلك بثمانية عشر قرناً »(١٣) .

أقام «تشاندرا جوبتا » فى هذا القصر ، بعد أن استولى على العرش بالقوة ، مدى أربعة وعشرين عاماً ، فكان كأنما يعيش منه فى سجن مطلى بالذهب ؛ وكان يظهر للشعب حيناً بعد حين ، مرتدياً ثوباً من الموصلى الموشّى بالأرجوان والذهب ، محمولا فى محفة ذهبية ، أو على فيل مطهم بأفخر الطهم ؛ وكان وقته مليئاً بأعمال مملكته المتزايدة ، إلا ساعات كان يقضيها فى الصيد أو فى غيره من أنواع التسلية ؛ فيومه ينقسم ستة عشر جزءاً طول الجزء منها تسعون دقيقة ، فكان يستيقظ فى الجزء الأول من يومه فيُعِدّ نفسه بشىء من التأمل ، وفى الثانى يقرأ التقارير التى يرفعها إليه موظفوه ، ويصدر فيها تعليمات سرية وفى الثالث يجتمع بمستشاريه فى قاعة المقابلات الخاصة ؛ وفى الرابع يبحث فى أمور المالية والدفاع القومى ؛ وفى الخامس يصغى إلى شكاوى رعيته وقضاياها ؛ وفى السادس يستحم ويتناول غداءه ويقرأ شيئاً من كتب الدين ، وفى السابع يتقبل الضرائب والجزية ويضرب المواعيد الرسمية ؛ وفى الثامن يلتقى بمستشاريه مرة ثانية ويستمع إلى ما يقرره له الجواسيس الذين كان يرصدهم ، وبين هؤلاء عاهرات استخدمهن لهذه الغاية(١٤) ؛ وخصص الجزء التاسع من يومه للاستحمام والصلاة ، والعاشر والحادى عشر للشئون العسكرية ؛ والثانى عشر للتقارير السرية مرة أخرى ؛ والثالث لحمام المساء ووجبته ؛ والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر للنوم(١٥) ؛ ويجوز أن يكون المؤرخ قد صور لنا بهذه الصورة ما كان يمكن أن تجرى عليه حياة « تشاندرا جوبتا » من نظام؛ أو هو يصور لنا بها ما أراد « كوتيلا » أن يتصوره الناس عن مليكه ؛ أكثر مما يصور لنا حقيقة ذلك الملك فى حياته ، فالحقيقة قلما تفلت من أجواف القصور .

كان زمام الحكم الحقيقى فى يد وزيره الماكر « كوتيلا » و « كوتيلا »

برهمى عرف القيمة السياسية للدين ، لكنه لم يتخذ من الدين هداية خلقية ؛ فهو شبيه بدكتاتورى هذا العصر ، فى إيمانه بأن كل الوسائل لها مبررات ما دامت تنتهى إلى صالح الدولة ؛ وكان غادراً لا يزجره من نفسه ضمير ، إلا إزاء مليكه ؛ فقد خدم « تشاندرا جوپتا » فى منفاه وفى هزيمته وفى مغامراته وفى دسائسه وفى اغتياله للناس وفى نصره ؛ واستطاع بفضل حكمته ودهائه أن يجعل ملك سيده أعظم ما عرفته الهند فى تاريخها كله ، ولقد رأى « كوتيلا » — كما رأى من بعده مؤلف « الأمير »(*) — أنه من المفيد أن يدون للأجيال القادمة آراءه التى عالج بها الأمور العسكرية والسياسية ؛ وإن الرواية لتنسب إليه كتاب « أرذاشاسترا » وهو أقدم كتاب مما بقى لنا من الأدب السنسكريتى(١٦) ولكن نسوق لك مثلا من واقعيته الدقيقة ، نذكر لك ما ذكره من الوسائل التى تتبع فى الاستيلاء على أحد الحصون ، وهى : « الدسائس والجواسيس واستمالة شعب الأعداء ، والحصار والهجوم »(١٧) — وفى هذه الدسائس اقتصاد حكيم للمجهود البدنى .

لم تزعم الحكومة لنفسها اصطناع الأساليب الديمقراطية ؛ والأرجح أنها كانت حكومة لم تشهد الهند طوال تاريخها حكومة أكفأ منها(١٨) ؛ فلم يكن لدى « أكبر » — وهو أعظم المغول — « ما يماثلها كفاءة ، ومما يدعو إلى الشك أن يكون بين المدن اليونانية القديمة ما يفوقها نظاماً »(١٩) ؛ كانت تقوم صراحة على القوة العسكرية ؛ فكان « لشاندرا جوپتا » جيش قوامه — إذا أخذنا برأى المجسطى (الذى يجب أن يكون موضع ريبة كأى مراسل أجنبى آخر) — ستمائة ألف من المشاة ، وثلاثون ألفاً من الركبان ، وتسعة آلاف من القيلة ، وعدد لم يحدد من العربات الحربية(٢٠) ؛ وكان البراهمة والفلاحون يعفون من الخدمة العسكرية ، فيصف لنا « سترابو » هؤلاء الفلاحين وهم

(*) مؤلف كتاب « الأمير » هو مكياڤلى صاحب السياسة الوصولية المشهور . (المعرب)

يحرثون الأرض فى هدوء وأمن وسط حومات تضطرب بالقتال(٢١) .

وكانت سلطة الملك مطلقة من الوجهة النظرية ، أما من الوجهة العملية فكان يحدُّها مجلس للشورى كان من شأنه التشريع - أحياناً فى حضور الملك وأحياناً فى غيابه - وتنظيم المالية القومية والشئون الخارجية ، وهو الذى كان يعين لكل المناصب الهامة فى الدولة رجالها ؛ ويشهد المجسطى بما كان لأعضاء ذلك المجلس من « خلق سام وحكمة عالية » كما يذكر ما كان لهم من نفوذ فعال(٢٢) .

كانت الحكومة مقسمة أقساماً لكل منها واجبات واضحة الحدود ، وموظفون يتدرجون فى درجاتهم تدرجاً أحسن تدبيره ؛ فتقوم هذه الأقسام بالإشراف على الدخل ، والجمارك ، والحـدود ، وجوازات السفر ، والمواصلات ، والضرائب ، والمناجم ، والزراعة ، والماشية ، والتجارة ، والمخازن ، والملاحة ، والغابات ، والألعاب العامة ، والدعارة ، وسك النقود - لكل من هذه قسم خاص ؛ وكان للمشرف على قسم ضريبة الإنتاج حق رقابة بيع العقاقير والمسكرات ، وكان يقيِّد عدد الحانات ومواضعها ، وكمية الخمور التى يجوز لها أن تبيعها ؛ وللمشرف على المناجم أن يؤجر مواقع الاستنجام لأفراد يدفعون للحكومة أجرا معلوما وجزءاً معينا من الربح ؛ وللإشراف على الزراعة نظام كهذا ، لأن الأرض كلها كانت ملكاً للدولة ؛ وللمشرف على الألعاب العامة الرقابة على قاعات القمار ، وأن يقدم الزهر (زهر اللعب) للاعبين ويتقاضاهم رسما على استخدامه ، كما كان يقتطع لخزانة الدولة خمسة فى كل مائة مما يدفعه اللاعبون ، وأما المشرف على الدعارة فكان من شأنه أن يراقب العاهرات ، ويضبط أجورهن ومصروفهن ، وكان يحدد لأعمالهن يومين من كل شهر ، ويأخذ منهن اثنتين للقصر الملكى ، تقومان هناك للمتعة من جهة وللجاسوسية من جهة أخرى ، وفرضت الضرائب على كل مهنة وكل عمل وكل صناعة ! أضف إلى ذلك ما كان الأغنياء يحملون على دفعه من « تبرعات » للملك ، وكانت الحكومة تراقب الأسعار ، وتراجع الموازين والمقاييس حيناً بعد حين ؛ ثم كان للدولة مصانع خاصة بها تقوم

فيها الحكومة بصناعة بعض الأشياء ، كما كانت تبيع الخضر وتحتكر المناجم والملح والخشب والمنسوجات الدقيقة والجياد والقيلة(٢٣) .

وكان يقوم على القانون فى الريف رؤساء محليون فى القرى ، أو مجالس قروية قوام الواحد منها خمسة رجال ؛ وأما فى المدن والأقاليم والمناطق فيعهد بأمره إلى محاكم دنيا ومحاكم عليا ، وفى العاصمة يتولاه المجلس الملكى باعتباره محكمة عليا ، ويتولاه الملك نفسه على أنه محكمة استئناف ، لا نقض لحكمها ؛ وكانت العقوبات صارمة ، منها بتر الأعضاء والتعذيب والموت ، وهى تقوم عادة على مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » أى مبدأ القصاص المتعادل ؛ لكن الحكومة لم تكن مجرد أداة للضغط على الشعب ، بل كانت كذلك تعنى بالصحة العامة ، فأقامت المستشفيات وملاجئ الفقراء ، وكانت توزع فى السنين العجاف ما قد يكون فى مخازن الدولة استعداداً لأمثال هذه الطوارئ ؛ وتضطر الأغنياء إلى المشاركة فى معاونة المعوزين ، وتنظم مشروعات عامة كبرى للعناية بالمتعطلين فى سنى الأزمات(٢٤) .

وأما قسم الملاحة فكان اختصاصه تنظيم النقل المائى ووقاية المسافرين فى الأنهار والبحار ؛ وكانت كذلك ترعى الجسور والموانى ، وتهيئ « معدّيات » حكومية تعمل جنباً إلى جنب مع « المعدّيات » الخاصة التى يملكها ويديرها أفراد(٢٥) — وهو نظام جميل يمكن الحكومة بدخولها فى المنافسة من الحد من إسراف الأفراد فى استغلال الجمهور ، كما تمكن المنافسة الحرة من الحد من إسراف الحكومة وبذخها ؛ وكان من واجب قسم المواصلات أن يشق الطرق ويعبدها ثم يقوم على صيانتها فى أرجاء الإمبراطورية ، من المدقّات الضيقة التى تُعدّ للعربات فى الريف ، إلى الطرق التجارية التى يبلغ عرض الواحد منها اثنتين وثلاثين قدماً ، ثم إلى الطرق الملكية التى يبلغ عرضها أربعاً وستين قدماً ،

وكان طريق من هذه الطرق الملكية يمتد ألفاً ومائتين من الأميال ، من « باتاليبترا » إلى الحدود الشمالية الغربية(٣٦) — وهي مسافة تساوى نصف الطريق من هاتيك الطرق الرئيسية التي تعبر الولايات المتحدة من شرقها إلى غربها ؛ وعند كل ميل تقريباً من هذه الطرق — فيما يقول المجسطي — كانت تقوم أعمدة تشير إلى الاتجاهات وتبين المسافات إلى مختلف البلدان(٣٧) ، وكنت تجد على طول الطريق أشجاراً ظليلة وآباراً ومراكز للشركة وفنادق ، أعدوها على مسافات دورية من الطريق(٣٨) ؛ وكانت وسائل النقل هي العربات والمحفات والعربات تجرها الثيران ، ثم الجياد والجمال والفيلة والحمير والناس ؛ وكانت الفيلة من ألوان الترف التي تقتصر عادة على الملك وكبار رجال الدولة ، وكانت من غلو القيمة عندهم بحيث عدُّوا عفة المرأة ثمناً متواضعاً للواحد منها(*) ؛

وكان يتبع في حكومات المدن مثل هذا النظام بعينه من حيث تقسيم الإدارة إلى أقسام ، فالعاصمة « باتاليپترا » كان يحكمها مجلس مؤلف من ثلاثين عضواً ، ينقسمون ستة أقسام ، يقوم قسم منها على تنظيم الصناعة ، وآخر يراقب الأجانب فيعدّ لهم المساكن ويعين لهم من يقوم بخدمتهم ويراقب حركاتهم ، وقسم ثالث يسجل المواليد والوفيات ، ورابع يرخص للتجار مباشرة تجارتهم وينظم بيع المحصول ، ويراجع المقاييس والموازين ، وخامس يراقب بيع المصنوعات ، وقسم سادس يجمع ضريبة قدرها عشرة في كل مائة عن المبيعات كلها ؛ وفي ذلك يقول « هافل » : « وصفوة القول إن پاليپترا في القرن الرابع قبل الميلاد ، فيما يظهر ، قد كانت مدينة على أتم ما تكون المدن نظاماً ، وتقوم عليها إدارة تتمشى مع أحسن المبادئ في علم الاجتماع »(٣٨ أ) ؛ وكذلك يقول « ڤنسنت سمث » : « إن الكمال الذي بلغته هذه النظم التي

(*) « إن نساءهم اللائي يحرصن كل الحرص على عفافهن ، ولا يغويهن بالفجور شيء كائناً ما كان ، كنّ إذا ما قدم لهن الرجل فيلا قبلت الواحدة منهن مضاجعة الواهب ؛ إذ ليس في عرف الهنود أنه مما يشين المرأة أن تسلم عرضها لقاء فيل ، بل إن المرأة عندهم لتراه مدعاة للفخار أن يكون جمالها مساوياً في قيمته لفيل » . (أريان)

أشرنا إليها ، ليثير العجب حتى إن اقتصرت فى ذكره على موجز مقتضب ؛ ثم تزداد عجباً — إذا ألممت بتفصيلات الإدارة — كيف أمكن لمثل هـــذا النظام أن تدبَّر قواعده ، وأن يُنفَّذ تنفيذاً دقيقاً فى الهند فى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد »(٢٨ب) .

والنقص الوحيد فى هذه الحكومة هو استبدادها ، وبالتالى اعتمادها اعتماداً متصلا على القوة وعلى الجواسيس ، فحاكمها « تشاندرا جوپتا » شأنه شأن كل حاكم مستبد آخر — كان قلقاً على عرشه ، لا ينقطع خوفه من الثورة والاغتيال ؛ فكان ينام كل ليلة فى مخدع يختلف عن مخدع الليلة السابقة ، ولم يخلُ قط من حراسة الحراس ؛ وتروى الرواية الهندية ، ويؤيدها المؤرخون الأوربيون ، أنه لمـــا أطبقت مجاعة طويلة على مملكة « تشاندرا جوپتا » (راجع المجسطى) حمله اليأس على النزول عن عرشه ، وعاش بعدئذ اثنى عشر عاماً زاهداً جانتياً ، ثم انتهى به الأمر أن فرض على نفسه الجوع حتى مات به ؛ يقول ڤولتير : « إنك لو وضعت كل الظروف موضع الاعتبار ، ألفيت حياة النوتى فى « جندوله » خيراً من حياة حاكم المدينة ، لكنى أعتقد أن الفرق بين حياتيهما أتفه من أن يستحق منا التدقيق فى أمره »(٢٩) .

الفصل الثانى

الملك الفيلسوف

أشوكا — مرسوم التسامح — أشوكا يرسل بعوثا دينية
فشله — نجاحه

كان الذى خَلَفَ « تشاندرا جوپتا » فى الحكم هو « بندوسارا » وهو رجل ذو نزعات عقلية لا تخفى ؛ فيقال إنه طلب إلى « أنتيخوس » ملك سوريا أن يبعث إليه بفيلسوف إغريقى ، وكتب إليه قائلا إنه على استعداد أن يدفع ثمناً عالياً لفيلسوف إغريقى من الطراز الصحيح[٣٠] ؛ ولكن « أنتيخوس » لم يستطع إلى إجابة الطلب سبيلا ، لأنه لم يجد فيلسوفاً يونانياً معروضاً للبيع ؛ ثم شاءت المصادفة أن تعوض « بندوسارا » خيراً . فجعلت له من ابنه فيلسوفاً ؛

وتولى « أشوكا ڤاردانا » العرش سنة ٢٧٣ ق . م . فوجد أنه يشمل بسلطانه إمبراطورية أوسع رقعة من أى قطر حكمه فى الهند حاكم من قبله : فهو يشمل أفغانستان وبلوخستان ، وكل الهند الحديثة إلا طرفها الجنوبى — وهو ما يسمى « بأرض تامِل » ولبث حيناً من الدهر يحكم على غرار جده « تشاندرا جوپتا » ، أى لبث يحكم بلاده فى قسوة ، لكنه يحكمها حكماً جيداً ، فيحدثنا « يوان تشوانج » الرحالة الصينى الذى أنفق أعواماً طوالا فى الهند إبان القرن السابع الميلادى ، بأن السجن الذى كان قائماً فى عهد « أشوكا » شمالى العاصمة ، لم يزل يذكره الناس فى الهند جيلا عن جيل باسم « جحيم أشوكا » ؛ إذ أنبأه المنبئون أن كل أنواع العذاب والتعذيب التى تشتمل عليها الجحيم الحقيقية ، قد استعملت فعلا فى ذلك السجن عقاباً للمجرمين ، بل إن الملك قد أضاف إلى تلك الأنواع التقليدية من عذاب الجحيم ، مرسوماً بأن كل من يدخل ذلك الجب المخيف ، لا يجوز له قط أن يخرج منه حياً ؛ ولكن حدث ذات يوم أن أُلقى فى ذلك

السجن قديس بوذى بغير أن يكون هناك ما يبرر ذلك السجن ، فقذفوا به فى إناء كبير فيه ماء ساخن ، فأبى الماء أن يغلى بما فيه ؛ فأرسل السجان بالنبأ إلى « أشوكا » ، وجاء « أشوكا » ورأى وأخذه العجب ؛ ولما استدار الملك ليأخذ طريقه إلى خارج السجن ؛ ذكّره السجان بأمره ، قائلا إنه لا يجوز له أن يغادر السجن حياً ؛ فحزّت هذه الملاحظة فى نفس الملك بقوتها ، وأمر بالسجان أن يقذف فى إناء الماء الساخن .

ويقال إن « أشوكا » لما وصل إلى قصره ، نال من نفسه انقلاب عجيب ؛ وأمر من فوره أن يُهْدَم السجن وأن يخفف قانون العقوبات ؛ وفى نفس الوقت جاءه النبأ بأن جنوده قد ظفروا بانتصار باهر على قبيلة « كالنجا » الثائرة ، وأنهم قد فتكوا بآلاف من الثائرين ، وأسروا منهم عدداً كبيراً ؛ فجعل أشوكا عندئذ يعانى لذعات ضميره كلما طاف برأسه كل هذا « العنف والتقتيل وإبعاد الأسرى عن ذويهم » فأمر أن يطلق سراح الأسرى ، وردّ إلى قبيلة « كالنجا » أرضها ، وأرسل إلى أهلها اعتذاراً لم يسبق له فى التاريخ مثيل ، ولم يقلده من بعده إلا القليل ؛ وبعدئذ التحق بالطائفة البوذية ، ولبس مسوح الرهبان حيناً ، وأبطل الصيد وأكل اللحم ، واصطنع « السبيل الشريفة ذات الإرشادات الثمانية »[٣١] .

وإنه ليستحيل علينا الآن أن نقول كم من هذه الأنباء قد اختلقه الخيال اختلاقاً ، وكم منها تاريخ صحيح ؛ كما يستحيل علينا — والشقة بيننا وبين ذلك العهد بهذا البعد — أن نرى الدوافع التى حفزت الملك إلى ما فعل ؛ فيجوز أنه رأى البوذية تتسع انتشاراً ، وظن أن تعاليمها من تسامح وهدوء تصلح تشريعاً مفيداً لشعبه ، فتوفر على الدولة عدداً لا يحصى من رجال الشرطة ؛ وفى العام الحادى عشر من حكمه ، أخذ يصدر مرسومات هى أعجب ما عرفناه فى تاريخ الحكومات ؛ وأمر أن تنقش هذه المرسومات على الصخور وعلى الأعمدة

فى عبارة بسيطة وباللهجات التى يفهمها الناس ، حتى يتسنى لكل هندى يعرف القراءة أن يفهم فحواها ؛ ولقد عثرنا على « مرسومات الصخور » فى كل جزء من أجزاء الهند تقريباً ، ولا تزال عشرة أعمدة باقية فى مكانها ؛ وعرفنا أماكن عشرين أخرى ؛ وتقرأ هذه المرسومات فتجد أن الإمبراطور يوافق على العقيدة البوذية بحذافيرها ، ويطبقها فى شأن من شئون الناس هو آخر ما تتوقع لها أن تطبق فيه وأعنى السياسة ؛ وشبيه بهذا أن تعلن إمبراطورية حديثة فجأة أنها صممت منذ الآن فصاعدا أن تتبع المسيحية فى سياستها .

وعلى الرغم من أن هذه المرسومات بوذية العقيدة ، فهى لا تبدو لنا دينية خالصة ؛ فهي تفرض وجود حياة آخرة ، وبهذا ترى كيف أنه لم يلبث تشكك بوذا أن زال ليحل محله عند أتباعه إيمان ، لكنها إلى جانب ذلك لا تورد فى نصوصها عبارة تدل على العقيدة بإله مشخّص ، بل لا تذكر الله فى نصوصها إطلاقاً(٤٢) ، كلا ، ولا هى تذكر كلمة واحدة عن بوذا فهذه المرسومات لا تعنى باللاهوت ؛ فمرسوم « سارنات » يطالب الناس بالسير على مقتضى قواعد للدين ، ويضع عقوبات لمن يشقّون عليها عصا الطاعة(٤٣) ، أما سائر المرسومات فهى لا تنى تذكر مرة بعد مرة ضرورة التسامح الدينى ؛ فعلى المرء أن يُحْسن إلى كهنة البراهمة كما يحسن إلى كهنة البوذيين سواء بسواء ؛ ولا ينبغى لأحد أن يسىء بالقول الى عقيدة من العقائد ؛ ويعلن الملك أن كل أفراد شعبه بمثابة أبنائه الذين يحنو عليهم ، فهو لن يفرق بينهم بسبب اختلافهم فى العقيدة(٤٣) ، فهذا هو « مرسوم الصخر » رقم ١٢ يتحدث بما يكاد أن يكون معاصراً لنا من حيث سداد رأيه :

« إن جلالة الملك المقدس الرحيم يقدم إجلاله للناس من شتى المذاهب ، سواء فى ذلك الزاهدون أو أصحاب الأسَر ، وهو يقدم إجلاله هذا بالهدايا وغيرها من مختلف ألوان التوقير .

على أن جلالة الملك المقدس لا تعنيه كثيراً هذه الهدايا وهذا التوقير الظاهر ، بقدر ما يعنيه أن ينمو فى كل هذه العقائد لبُّها وجوهرها ؛ ونمو هذا الجوهر وذلك اللب إنما يكون بطرائق شتى ، لكن أساسها جميعاً هو ضبط اللسان عن الكلام ، وأعنى بذلك ألا يبجل المرء عقيدته وألا يحط من شأن عقيدة غير عقيدته إلا بما يمليه العقل ؛ إن الحط من شأن العقائد الأخرى لا ينبغى أن يكون إلا لأسباب عقلية معينة ، ذلك لأن عقائد الناس على اختلافها جديرة بالاحترام لهذا السبب أو ذاك .

وبمثل هذا التصرف ، يرفع المرء من عقيدته ، وينفع فى الوقت نفسه سائر العقائد ؛ وبالتصرف المضاد لهذا ، يؤذى المرء عقيـــدته ويضر عقائد الناس . . . . إن انسجام الأفراد أمر عظيم » .

هذا إلى أن « مرسوم العمود الثانى » يلقى لنا ضوءاً أكثر على المقصود من « جوهر الموضوع » — وهى العبارة التى وردت فى المرسوم الذى ذكرناه الآن — إذ يقول : « إن قانون التقوى شىء جميل ، لكن مم يتكون قانون التقوى ؟ يتكون من هذه الأشياء : قليل من عدم التقوى ، وكثير من الأفعال الخيّـرة ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء » ؛ ولكن يضرب « أشوكا » المثال لما يريد ، أمر موظفيه فى كل مكان أن ينظروا إلى الناس نظرتهم إلى أبنائهم ، وأن يعاملوهم بالصبر والحسنى ، فلا يعذبوهم ولا يسجنوهم بغير مبرر معقول ؛ وأمر موظفيه أن يقرأوا هذه الإرشادات قراءة دورية على الشعب(٣٥) .

فهل كان لهذه المرسومات الخلقية أثر كائناً ما كان فى إصلاح سلوك الناس ؟ يجوز أنها ساعدت على نشر فكرة « الأَهِمْسا » — وهى عدم قتل الحيوان — كما شجعت على الامتناع عن أكل اللحم وشرب المسكرات بين الطبقات العليا من أهل الهند(٣٦) ؛ ويعتقد « أشوكا » اعتقاداً جازماً — شأنه فى ذلك شأن المصلحين — أن لوعظه المنقوش على الحجر أبلغ الأثر ؛ وهو يعلن فى « مرسوم الصخر » رقم ٤ ، أنه لمس بالفعل نتائج طيبة لمرسوماته ، وربما أعان ملخصه على توضيح أساس مذهبه :

أما وقد اصطنع صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة أسباب التقوى فى حياته ، فقد سكتت أصداء طبول الحروب ليهز الهواء بأصداء القانون ... لقد امتنع الناس اليوم ، بفضل قانون التقوى الذى سنه صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك ، عن ذبح الكائنات الحية ليقدموها فى قرابينهم ، أكثر من امتناعهم عن ذلك من قبل ، امتنعوا عن قتل الأحياء ، وسلكوا إزاء أقربائهم سلوكاً فاصلا ، وكذلك إزاء البراهمة ، وأصبحوا يستمعون لما يأمرهم به آباؤهم وأمهاتهم ومن هم أكبر منهم سناً ، على هذا النحو — وعلى غيره من الأنحاء الكثيرة — ازداد إقبال الناس فوق هذه الزيادة .

إن أبناء صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك، وأحفاده وأحفاد أحفاده، سيعملون على زيادة اصطناع الناس لقانون التقوى ، زيادة تطرد إلى يوم الدين » .

لكن الملك الصالح قد بالغ فى تقوى شعبه وولاء أبنائه ، أما هو نفسه فقد بذل مجهوداً عظيما فى سبيل الديانة الجديدة ، فجعل من نفسه رئيساً للطائفة البوذية ، وأجزل لها العطايا ، وشيد لها ثمانية وأربعين ألفاً من الأديرة لرجالها(٣٧) وبنى باسمها فى أرجاء مملكته كلها مستشفيات للإنسان والحيوان(٣٨) وأرسل مبشرين بالعقيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعاً وإلى جزيرة سيلان ، بل أرسل هاتيك البعوث إلى سوريا ومصر واليونان(٣٩) حيث يحتمل أن تكون قد هيأت الطريق هناك للأخلاق المسيحية(٤٠) ولم يمض بعد وفاته إلا زمن قصير حتى غادرت بعوث المبشرين بلاد الهند ليعظ رجالها بالتعاليم البوذية فى التبت والصين ومنغوليا واليابان ، وبالإضافة إلى هذا النشاط الدينى ، توجه « أشوكا » بحماسة نحو إدارة بلاده فى شئونها الدنيوية ، فكان يطيل من ساعات العمل فى يومه ، ولم تكن الحوائل لتحول بينه وبين معاونيه ، فلهؤلاء أن يتصلوا

يه فى شئون الدولة فى أى ساعة شاءوا(٤١) .

ونقيصته البارزة هى الأنانية ، فمن العسير أن تكون متواضعاً ومصلحاً فى آن معاً ، إن احترامه لنفسه يسطع فى كل مرسوم من مراسيمه ، مما يجعله أخاً « لمرقص أورليوس »(*) فى شتى الوجوه ، ولم يستطع أن يدرك أن البراهما كانوا يمقتونه ، ويتربصـــون به الدوائر ليفتكوا به ، كما فتك كهنة طيبة بأخناتون قبل ذاك بألف عام ، ولم يقتصر مقته على البراهمة الذين اعتادوا ذبح الحيوان من أجل أنفسهم ومن أجل آلهتهم ، بل جاوزهم إلى ألوف مؤلفة من الصيادين والسماكين الذين كرهوا المراسيم التى فرضت كل هذه القيود القاسية على قتل الحيوان ، حتى الفلاحون أخذوا يجأرون بالشكوى من الأمر الصادر « بألا يحرق قش الغلال خشية أن تحترق معه الكائنات الحية الكامنة فيه »(٤٢) ، فنصف الشعب فى الإمبراطورية كان ينتظر موت « أشوكا » كما يرقب الإنسان تحقيق الأمل .

ويروى لنا « يوان تشوانج » أن رواة البوذيين يتناقلون النبأ بأن « أشوكا » فى أخريات أعوامه ، أكره على النزول عن عرشه ، على يدى حفيده الذى فعل ما فعله بمعونة رجال البلاط ؛ وحرم الملك كل سلطانه شيئاً فشيئاً ، ووقف تيار الهدايا التى كان يمنحها للطائفة البوذية ، بل إن ما كان يسمح به « لأشوكا » من أشياء ، حتى الطعام ، نقص مقداره ، حتى بلغت به الحال أن أصبح نصيبه من الطعام فى اليوم نصف ثمره من ثمار « الأمالاكا » ؛ ونظر الملك إلى نصف الثمرة نظرة حزينة ، ثم أرسلها إلى إخوانه البوذيين قائلا إنها كل ما يملك مما يستطيع تقديمه إليهم(٤٣) ، لكن حقيقة الأمر هى أننا لا ندرى شيئاً عن أعوامه الأخيرة ، بل لا ندرى فى أى سنة وافته منيته ؛ ولم يمض بعد موته إلا مدى جيل واحد ، حتى كانت إمبراطوريته — كإمبراطورية أخناتون — قد تقوض بنيانها ، وذلك أنه لما تبين أن نفوذ العرش فى مملكة « مجاذا » كانت تسنده

(*) حاكم رومانى حكيم . (المعرب)

قوة الدفع القديمة أكثر مما تدعمه إدارة قائمة على قوة الحاكم ، فقد أخذت الدول التابعة له تعلن انسلاخها ، دولة فى إثر دولة ، عن ملك الملوك فى « پاتاليپترا » ؛ نعم إن سلالة « أشوكا » لبثت تحكم « مجازا » حتى القرن السابع الميلادى ، لكن أسرة « موريا » الحاكمة التى أنشأها « تشاندرا جوپتا » بلغت ختامها حين قتل الملك « برهادراذا » ، وإن ذلك لدليل على أن الدول لا تبنى على المثل العليا ، إنما ينهض بنيانها على طبائع الناس .

منى « أشوكا » بالفشل السياسي ، ولو أنه من ناحية أخرى قد أدى بمهمة من أعظم المهام فى التاريخ ، فنى القرنين التاليين لموته ، انتشرت البوذية فى أرجاء الهند ، وبدأت غزوها لآسيا غزواً لا تراق فيه الدماء ؛ فإذا رأيت إلى يومنا هذا وجه ، « جوتاما »(*) الهادئ يأمر الناس من « كاندى » فى سيلان إلى « كاما كورا » فى اليابان ، أن يعامل بعضهم بعضاً بالحسنى ، وأن يحبوا السلام ، فاعلم أنه مما أدى إلى ذلك أن حاكماً ، وإن شئت فقل قديساً ، كتب له يوماً أن يتربع على عرش الهند .

(*) هو بوذا . (المعرب)

الفصل الثالث

العصر الذهبي في الهند

عصر غزوات — ملوك كوشان — إمبراطورية جوبتا — رحلات « فا — هين » — نهضة الأدب — قبائل الهون في الهند — هرشا الكريم — رحلات يوانج تشوانج

منذ وفاة « أشوكا » إلى قيام إمبراطورية « جوبتا » — وهى مدة تكاد تبلغ ستمائة سنة — تقل النقوش والوثائق الهندية قلة تجعل تاريخ هذه الحقبة يضطرب بالغموض(٤٤) ؛ وليس هو بالضرورة عصراً مظلماً لقلة علمنا بتاريخه ، فقد ظلت به جامعات عظيمة مثل جامعات « تاكسيلا » قائمة تنشر العرفان ، كما أنه حدث فى الجزء الشمالى الغربى من الهند إبان تلك الفترة أن ازدهرت حضارة فى إثر غزوة الإسكندر ، بتأثير الفرس فى فن العمارة واليونان فى فن النحت ؛ ففى القرنين الأول والثانى قبل المسيح ، نزحت جموع من السوريين واليونان والسكيثت إلى البنجاب ، ففتحوه وأقاموا فيه هذه الثقافة « اليونانية البكترية » التى ظلت هناك ما يقرب من ثلاثمائة عام :

وفى القرن الأول مما تواضعنا فيما بيننا نحن الغربيين أن نسميه بالعصر المسيحى ، استولت قبيلة كوشان من قبائل أواسط آسيا ، وهى قبيلة تصلها وشائج القربى بالأتراك ، استولت هذه القبيلة على « كابل » ، واتخذتها عاصمة نشرت منها نفوذها فى أرجاء الجزء الشمالى الغربى من الهند ومعظم آسيا الوسطى ؛ فتقدمت الفنون والعلوم فى عهد أعظم ملوكها « كانشكا » ، فهاهنا أنتج النحت « اليونانى البوذى » مجموعة من أروع آياته ؛ كما أقيمت مبانى جميلة فى « بشاور » و « تاكسيلا » و « ماثورة » وكذلك تقدم « تشاراكا » بفن الطب ؛ ووضع « ناجارجونا » و « اشفاغوشا » الأسس التى قام عليها أحد المذاهب البوذية — هو مذهب

ماهايانا ، ومعناها العربة الكبرى – الذى ساعد « جوتاما »(*) (على كسب الصين واليابان فى صف مذهبه ؛ وكان « كانشكا » متسامحاً مع كثير من الديانات ، وجرّب بنفسه كثيراً من الآلهة يعبدها ، حتى انتهى به الأمر أخيراً إلى اختيار البوذية الجديدة الأسطورية التى جعلت من بوذا إلها ، والتى ملأت أجواز السماء ببوذوات منتظرة وقديسين من أشباه بوذا ؛ ودعا إلى انعقاد مجلس عظيم من رجال اللاهوت البوذى ، ليصوغوا هذه العقيدة فيتسنى نشرها فى بلاده ، وأوشك أن يكون « أشوكا » آخر فى عمله على نشر العقيدة البوذية ، ودوّن هذا المجلس قواعد بلغ عددها ثلاثمائة ألفاً ، وهبط بالفلسفة البوذية إلى حاجات العاطفة عند النفس العادية ، ورفع بوذا نفسه إلى منزلة الآلهة .

وكان « تشاندرا جوبتا الأول » (وهو غير تشاندرا جوبتا موريا على الرغم من اتفاقهما فى الاسم والعدد الترتيبى) قد أنشأ حينئذ أسرة « جوبتا » الحاكمة فى مجاذا ، التى قوامها ملوك من أهل البلد أنفسهم ؛ وأتيح لخلفه فى الحكم ، وهو « سامُدْرا جوبتا » أن يحكم خمسين عاماً فيجعل من نفسه ملكاً فى طليعة ملوك الهند فى تاريخها الطويل ؛ وكان مما فعله أن نقل عاصمة الحكم من « باتاليپترا » إلى « أيوذيا » – التى هى الموطن القديم لـ « راما » – ذلك الشخص الأسطورى – ثم بعث بجيوشه الفاتحة ومحصّلى ضرائبه إلى بلاد البنغال وأسام ونبال والهند الجنوبية ، وأنفق ماتدفق عليه من أموال تلك الأقطار التابعة له ، فى النهوض بالأدب والعلم والدين والفنون ؛ بل برع هو نفسه ، فيما تخلل الحروب من فترات السلم ، فى الشعر والموسيقى ؛ وجاء بعده ابنه « ڤِكْراماد َتْيا » (ومعناها شمس القوة) فوسّع من رقعة هذه الفتوحات الحربية والغزوات العقلية وأيد أديب المسرحية « كالداسا » وجمع حوله فى عاصمته « يوچين » طائفة ممتازة من الشعراء والفلاسفة والفنانين والعلماء والباحثين

(*) هو بوذا . (المعرب)

حتى لقد بلغت الهند من التقدم فى عهد هذين الملكين ذروة لم تكن قد جاوزتها إ منذ بوذا ، كما بلغت فى وحدتها السياسية مبلغاً لم تبلغ مثيله إلا فى عهد « أشوكا » وعهد « أكبر » .

ونستطيع أن نتتبع الخطوط الرئيسية فى مدنية « جوبتا » من الوصف الذى قدمه « فارهين » عن زيارته للهند فى مستهل القرن الخامس الميلادى ؛ وهو أحد البوذيين الكثيرين الذين جاءوا من الصين إلى الهند إبان هذا العصر الذهبى من تاريخها ؛ بل إن هؤلاء الحجاج الدينيين كانوا على الأرجح أقل عدداً من التجار والسفراء الذين طفقوا حينئذ — رغم ما يحيط بالهند من حواجز الجبال — يفــدون إليها وقد اشتملها السلام ، يفدون إليها من الشرق والغرب ، بل يفدون إليها من روما النائية ؛ وكانوا فى وفودهم إليها يجتلبون معهم عاداتهم وأفكارهم ، فسرعان ما تكون هذه الأفكار وتلك العادات الواردة من خارج حافزاً للبلاد على التغيير فى أوضاعها ؛ جاءها « فا — هين » فألفى نفسه ، بعد أن تعرضت حياته للخطر أثناء مروره فى الجزء الغربى من الصين ، آمنا فى الهند أمناً لا يأتيه الخطر من أية ناحية من نواحيه ، فجعل يتنقل فى طول البلاد وعرضها ، دون أن يصادفه من يعتدى عليه بالإيذاء أو بالسرقة[٤٥] ؛ وهو يحدثنا فى يومياته كيف استغرق فى طريقه إلى الهند ستة أعوام ، ثم عاد إلى وطنه فى الصين عن طريق سيلان وجاوه فى ثلاثة أعوام[٤٦] .

وإنه ليصف وصفاً يعبر به عن إعجابه بما كان للشعب الهندى من ثروة وازدهار وفضيلة وسعادة ، ومن حرية دينية واجتماعية ، ولقد أدهشته المدن الكبرى بكثرتها وحجمها وعدد سكانها ، كما أدهشته المستشفيات المجانية وغيرها من مؤسسات الإحسان التى امتلأت بها أرجاء البلاد(*) ؛ وعجب

(*) سبقت هــذه المستشفيات أول مستشفى شهدته أوروبا بثلاثة قرون ، وأعنى به « ميزون ديه Maison Dieu » الذى بنى فى باريس فى القرن السابع الميلادى[٤٧] .

تمجد الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات والأديرة ، والقصور الملكية الماثلة بعظمتها وفخامتها(٤٨) ؛ وإنك لتقرأ وصفه فلا تجد فيـــه إلا مدينة فاضلة (يوتوپيا) ، إذا استثنيت عاداتهم فى قطع الأيدى لبعض الآثمين .

« الناس كثيرون وسعداء ، فليس ثمة ما يلزمهم بتسجيل أفراد أسرهم ، ولا يضطرهم إلى المثول بين أيدى القضاة أو الاستماع إلى ما يسنّون من قوانين ؛ ولم يكن بينهم من يدفع شيئاً سوى زراع الأرض الملكية ، فهؤلاء يدفعون جزءاً من غلة الأرض ؛ ولمن شاء أن يسافر أو يقيم حيث شاء ؛ والملك يحكمهم لا يقتل منهم أحداً ولا ينزل بأحد منهم عقاباً ، ولا يطالب المجرمون بأكثر من غرامة . . . وحتى فى الحالات التى يتهم فيها الآثم بالثورة المتكررة التى يشق بها عصا الطاعة ، لم يكن يُحكم عليه بأكثر من قطع يده اليمنى . . . واذهب حيث شئت من أرجاء البلاد جميعاً فلن تجد أحداً يقتل كائناً حياً ، أو يأكل البصل أو الثوم ، إذا استثنيت قبيلة « شاندالا » ... إنهم فى تلك البلاد لا يربون الخنازير والطيور الداجنة ولا يبيعون الماشية حيّة ، فلست ترى فى أسواقهم دكاناً لقصّاب ولا حانوتاً لبيع المسكرات »(٤٩) .

ولم يكد « فا – هين » يلحظ أن البراهمة ، الذين كانوا من المغضوب عليهم لدى أسرة موريا الحاكمة منذ عهد « أشوكا » قد أخذوا يزدادون من جديد فى ثرائهم ونفوذهم ، فى ظل التسامح الذى أبداه ملوك أسرة « جوبتا » ، فأحيوا تقاليدهم الدينية والأدبية التى كانت قائمة قبل العهد البوذى ، وأنهم كانوا يُطورون اللغة السنسكريتية بحيث تصبح هى لغة التفاهم المشتركة بين العلماء فى أنحاء الهند كلها : فقد كتبت الملحمتان الهنديتان العظميان ، « ماهابهاراتا » و « رامايانا » فى صورتهما الحاضرة(٥٠) فى ظل هؤلاء الملوك وبرعايتهم ؛ وكذلك بلغ الفن البوذى فى عهد أسرتهم ذروة مجده فى النقوش الموجودة بكهوف « أجانتا » ، وفى رأى عالم هندى معاصر أن « مجرد هذه الأسماء : « كاليداسا » و « فاراهاميهرا » و « جناڤارمان » و « ڤاشوباندو » و « أريابهاتا »

و« براهما جوبتا » يكفى ليجعل عصرهم ذاك أوج الثقافة الهندية »(٥١) ويقول « هافِل » : « فى وسع المؤرخ المحايد أن يقول فى غير إجحاف إن أعظم فوز ظفرت به الإدارة البريطانية للهند هو أن تعيد لتلك البلاد كل ما كانت قد بلغته فى القرن الخامس الميلادى »(٥٢) .

لكن هذا العصر الزاهر للثقافة القومية قد اعترضته موجة من غزوات الهون التى كانوا يجتاحون بها إذ ذاك آسيا وأوروبا ، فيدمرون حضارة الهند وحضارة روما على السواء حيناً من الدهر ؛ ففى الوقت الذى كان يجتاح فيه « أتيلا » ربوع أوربا ، كان « تورامانا » يستولى على « مالْوَا » كما كان « مهيراجولا » الفظيع يُطَوِّح بملوك أسرة « جوبتا » من فوق عرشهم ؛ وهكذا لبثت الهند قرناً كاملا تتدهور إلى عبودية وفوضى ؛ وبعدئذ جاء فرع من سلالة أسرة « جوبتا » ، هو فرع « هارشا — فاردانا » ، وعاد فاستولى من جديد على الهند الشمالية ، وابتنى عاصمة له فى « كانوج » فأتاح لتلك المملكة الفسيحة سلاماً وأمناً مدى اثنين وأربعين عاماً ، ازدهرت فيها مرة أخرى فنون البلاد وآدابها ؛ وتستطيع أن تصور لنفسك عاصمتهم تلك « كانوج » من حيث اتساعها وفخامتها وازدهارها ، إذا علمت هذه الحقيقة الآتية التى تعز على التصديق ، وهى أن المسلمين حين أتوا عليها بالتخريب(*) (سنة ١٠١٨ ميلادية) دمروا عشرة آلاف معبد(٥٣) ، ولم تكن حدائقها العامة الجميلة وأحواش السباحة المجانية فيها ، إلا جزءاً ضئيلا من حسنات الأسرة الجديدة ؛ وكان « هارشا » نفسه أحد هؤلاء الملوك القلائل الذين يخلعون على الملكية مظهراً — ولو إلى حين — بحيث تبدو أفضل ألوان الحكم على اختلافها ؛ فقد كان رجلا له سحره وله جوانب كثيرة من الثقافة ، فقرض شعراً وأنشأ مسرحيات لا تزال تقرأ فى الهند حتى يومنا هذا ، على أنه لم يسمح لهذه الصغائر أن تتدخل فى إدارته الحازمة لمملكته ، وفى ذلك يقول « يوان تشوانج » : « كان لا يعرف الشعب ، ويرى اليوم أقصر من أن يسدّ له مطالبه ، حتى لقد نسى النوم فى إخلاصه لأعمال الخير التى كان يقوم بإنشائها »(٥٤) ولقد بدا فى ديانته عابداً

(*) هل كان ذلك « تخريبا » أم نشراً لدين جديد ؟ (المعرب)

لـ « شيفا » لكنه تحول بعدئذ إلى العقيدة البوذية ، وأصبح شبيهاً بـ « أشوكا » فى حسناته التى صدر فيها عن تقواه ؛ فحرم أكل الحيوان ، وأقام محطات ينزل بها المسافرون فى أرجاء ملكه جميعاً ، وأنشأ ألوف الأضرحة البوذية على ضفاف الكنج .

ويروى لنا « يوان تشوانج » - وهو أشهر البوذيين من أهل الصين - وقد زار الهند ، أن « هارشا » كان يعلن كل خمسة أعوام عن حفل عظيم لأعمال البر ، كان يدعو إليه كل رجال الديانات على اختلافها ، كما يدعو إليه كل الفقراء والمعوزين فى مملكته ، وكانت عادته فى هذا الاجتماع أن يحسن على ملأ من الناس بكل الفائض عن حاجته فى خزانة الدولة منذ الاحتفال الخمسى الماضى ؛ ولكم دهش « يوانج » لما رأى مقداراً كبيراً من الذهب والفضة والنقود والجواهر والأثواب الدقيقة النسج والغلالات الموشاة ، مكدساً أكواماً فى ميدان مكشوف يحيط به عشرات من الأروقة يضم كل منها ألف شخص ، وكانت الأيام الثلاثة الأولى تخصص للطقوس الدينية ، ثم يبدأ توزيع الصدقات فى اليوم الرابع (لو أخذنا بما يقوله هذا الحاج وإنه من العسير تصديقه) ، وكانوا فى ذلك الحفل يطعمون عشرة آلاف من الرهبان البوذيين ، ويقدمون لكل منهم لؤلؤة وثياباً وأزهاراً وعطوراً ومائة قطعة من الذهب ، وبعدئذ يعطون البراهمة من الصدقات ما يكاد يبلغ هذا المقدار ، ثم يعطون الجانتيين صدقاتهم ، ثم يعقبون على ذلك بسائر العقائد الدينيه وبعد ذلك يحسنون على الفقراء واليتامى الذين جاءوا من كل ركن من أركان المملكة من غير رجال الدين ، وكان التوزيع أحياناً يستغرق ثلاثة شهور أو أربعة ؛ وفى ختام الحفل يخلع « هارشا » عن نفسه أرديته الثمينة ومجوهراته ليضيفها إلى الصدقات (٥) .

وقدلنا مذكرات « يوان تشوانج » على أن الروح العقلى الذى ساد ذلك العصر كان روحاً من نشوة ذهلية ؛ وهو يرسم لنا بمذكراته صورة رائعة تنم عن شهرة الهند إذ ذاك فى سائر الأقطار ؛ فهذا الصينى الأرستقراطى يغادر حياته المترفة الهينة فى بلده النائى « تشانجان » ليعبر الصين الغربية التى لم تبلغ من الحضارة إلا مبلغاً ضئيلا ، ويمر بطشقند وسمرقند (التى كانت مدينة زاهره إذ ذاك) ، ثم يتسلق الهملايا ليدخل الهند ، يقيم ثلاثة أعوام يدرس دراسة المتحمس فى جامعة الدير بمدينة « نالأندا » ؛ ولما كان « يوان تشوانج » ذائع الصيت باعتباره عالماً وباعتبارة إنساناً له مكانته الاجتماعية ، فقد توجه إليه أمراء الهند بالدعوات ؛ وسمع « هارشا » أن « يوان » كان فى بلاط « كومارا » ملك أسام ؛ فدعا « كومارا » إلى زيارة « كالوج » مستصحباً « يوان » ؛ فرفض « كومارا » دعوته قائلا إن « هارشا » يستطيع أن يفصل رأسه لكنه لا يستطيع أن يأخذ منه ضيفه ؛ فأجابه « هارشا » قائلا : « إنى لا أقلقك إلا ساعياً فى سبيل رأسك » وتجاه « كومارا » وعندئذ أعجب « هارشا » بعلم « يوان » وأدبه ، وأمر بأعيان البوذيين فعقدوا اجتماعاً أنصتوا فيه إلى « يوان » وهو يعرض عليهم لمذهب « ماهايانا » ، وعلق « يوان » قائمة بآرائه على باب الرواق الذى أعد للاجتماع والنقاش ، وأضاف إلى تلك الآراء حاشية على طريقة ذلك العصر ، يقول فيها : « إذا وجد أحد من الحاضرين هنا غلطة فى تسلسل آرائى ، واستطاع تفنيد قول من أقوالى ، فله أن يبتر رأسى عن جسدى » ، ودامت المناقشة ثمانية عشر يوماً ، استطاع خلالها « يوان » (هكذا يقول يوان نفسه) أن يرد كل اعتراض ، وأن يصد كل الزنادقة (وهناك زواية أخرى تقول إن معارضيه ختموا الاجتماع بإشعال النار فى الرواق[٥٦]) ؛ وبعد مغامرات كثيرة التمس « يوان » طريقه عائداً إلى بلده « تشانجان » حيث عمل امبراطورها المستنير على صيانة الآثار البوذية فى معبد فاخر ، تلك الآثار البوذية التى أحضرها معه هذا الرحالة الورع ؛

الذى يشبه « ماركوپولو » فى رحلاته ؛ ثم عين له طائفة من العلماء يعاونونه على ترجمة المخطوطات التى اشتراها من الهند(٥٧) .

ومع ذلك كله ، فقد كان هذا المجد الذى ازدهر به حكم « هارشا » مصطنعاً زائلا ، لأنه كان يعتمد على ملك واحد بما له من قدرة وسخاء ، والملك يموت كما يموت البشر ؛ فلما مات ، اغتصب عرشه مغتصب وأبدى من الملكية وجهها الأقتم ، وجاءت فى إثره الفوضى ، ثم دامت ما يقرب من ألف عام عانت الهند خلالها عصورها الوسطى — كما حدث لأوروبا — واجتاحها البرابرة ، كما غزاها الغزاة ومزقوها وخربوها ، فما عرفت للسلم والاتحاد طعماً إلا حين أدركها « أكبر » العظيم .

الفصل الرابع

أبناء راچپوتانا

سامورای الهند – عصر الفروسية – سقوط شيتور

كانت ملحمة راچپوتانا بمثابة السراج الذى أضاء « العصر المظلم » أمداً قصيراً ؛ ففى ذاك العهد قام فى دويلات « موار » و « ماروار» و « عنبر » و « بيكانير » وكثير غيرها مما يرن بأسماء كهذه رنين النغمات ، قام فى هذه الدويلات شعب خليط ، هو نتيجة تزاوج الوطنيين بالسَّكَّيت والهون الغزاة ، وأقام مدينة إقطاعية تحت سلطان طائفة من الأمراء المقاتلين الذين جعلوا همهم فن الحياة أكثر مما جعلوه حياة الفن ، وقد بدأوا بالاعتراف بسلطة الأسرتين الحاكمتين « موريا » و « جوپتا » ، ثم انتهوا بعدئذ إلى الدفاع عن استقلالهم ، ثم الدفاع عن الهند بأسرها فى وجه الجموع المحتشدة من المسلمين الذين جاءوها زاحفين ؛ وكانت قبائل هؤلاء الأمراء تتميز بشهامة عسكرية وشجاعة لا نعهدهما عادة فى أهل الهند(*) ؛ فلو جاز لنا أن تأخذ بما يقوله عنهم مؤرخهم « تود » المعجب بهم ، فكل رجل من رجالهم كان « كشاترياً » جريئاً (الكشاترية هى طبقة المقاتلين) وكل امرأة من نسائهم كانت بطلة مقدامة ؛ بل إن اسم هذه القبائل ، وهو (اهل راچپوت) معناه « أبناء الملوك » ، فإن رأيتهم أحياناً يطلقون على بلادهم اسم « راچستان » فما ذاك إلا ليصفوها بأنها « مقر العنصر الملكى » .

ولو نظرت إلى أنباء هذه الدويلات الباسلة لرأيت فيها كل ما جرينا على نسبته إلى « عصر الفروسية » من صفات الشجاعة والولاء والجمال والخصومات

(*) لكن راجع ما يقوله « أريان » عن الهند القديمة ، إذ يقول : « إن الهنود فى الحروب كانوا أشجع بكثير من سائر الأجناس التى كانت تسكن آسيا فى ذلك الوقت »(٥٨) .

وقتل بعضهم بالسم والاغتيال والحروب وخضوع المرأة وما إلى ذلك كله من عبث القول وتفخيم الوصف ؛ فيقول « تود » : « إن رؤساء راچپوت يتحلون بكل الفضائل التى عُرف بها الرجل من فرسان الغرب ، ثم هم يفوقونه بكثير فى قدراتهم العقلية(٥٩) » وكان لهم نساء جميلات لم يترددوا فى الموت من أجلهن ، وكانت المجاملة وحدها تحمل هؤلاء النساء على أن يصحبن أزواجهن إلى القبر مصطنعات طقوس قومهم فى هذا الشأن ؛ ومن هؤلاء النسوة فريق كان له حظ من التربية والتهذيب ، كما كان بين الراچات شعراء وعلماء ، حتى لقد شاع بينهم حينا من الدهر ضرب رقيق من ضروب التصوير بألوان الماء على النمط الفارسىّ الوسيط . ولبثوا قروناً أربعة يزدادون فى ثرائهم حتى بلغوا منه حداً استطاعوا معه أن ينفقوا عشرين مليوناً من الريالات على تتويج ملك المواريين(٦٠) .

وكان موضع فخرهم هو نفسه مأساتهم ، وذلك أنهم كانوا يمارسون القتال على أنه أعلى ما تسمو إليه الفنون ، لأنه الفن الوحيد الذى يليق بالسيد من أهل راچپوت ولقد مكنتهم هذه الروح الحربية من الصمود للمسلمين فى بسالة يسجلها التاريخ(*) ، لكن هذه الروح الحربية نفسها جعلت دويلاتهم الصغيرة على حال من الانقسام والضعف الناشىء من مقاتلة بعضهم بعضاً ، بحيث لم تعد شجاعتهم كلها قادرة على صيانة كيانهم فى نهاية الأمر ؛ وتقرأ ما يقوله « تود » فى وصف سقوط شيتور — وهى إحدى عواصم الراچپوت — فتقرأ وصفاً لا يقل فى خياله الشعرى عن أية أسطورة من أساطير « أرثر » أو « شرلمان » . ولما كان هذا الوصف مستمداً من مصدر واحد ، وهو ما قاله المؤرخون الوطنيون الذين دفعهم إخلاصهم لوطنهم أن يحيدوا عن الصدق

(*) يقول الكونت كيسلرنج عن شيتور : « لن تجد على ظهر الأرض مكاناً شهد ما شهده هذا البلد من بطولة وفروسية وشهامة فى مواجهة الموت »(٦١) .

فيما رووا ، فلا شك أن هذه الأنباء العجيبة ، « أنباء راجستان » ، يجوز أن تكون ذات نزعة أسطورية تقربها من « موت أرثر »(*) أو « أنشودة رولان » وفى رواية هؤلاء المؤرخين أن الفاتح المسلم علاء الدين لم يطلب شيتور لذاتها ، بل سعياً للحصول على الأميرة « پودمينى »(**) — « وهذا لقب تلقب به من كانت فاتنة بجمالها فتنة ليس بعدها مزيد » — وقد عرض الرئيس المسلم أن يرفع الحصار عن شيتور إذا قبل القائم بالحكم فيها نيابة عن الملك أن يسلم له الأميرة ، فلما رفض طلبه هذا ، عاد علاء الدين فعرض أن ينسحب إذا أتيح له أن يرى « پودمينى » ، وأخيراً وافق على الرحيل إذا مكّن له من رؤية « پودمينى » فى مرآة ، لكنهم أبوا عليه حتى هذا ، وبدل أن يجيبوا له رجاءه تضافرت نساء شيتور وانضممن إلى صفوف الدفاع عن مدينتهن ، فلما رأى أهل راجپوت زوجاتهم وبناتهم يمتن إلى جوارهم ، لبثوا يقاتلون حتى فنى آخر رجل من رجالهم ، حتى إذا ما دخل علاء الدين المدينة ، لم يجد داخل أبوابها أثراً واحداً من آثار الحياة البشرية ، فقد مات رجالها جميعاً فى ميدان القتال ، وأحرق زوجاتهم أنفسهن مصطنعات تلك الطقوس المخيفة التى كانت تعرف عندهم باسم « جوهور »(٦٢) .

(*) هاتان قصيدتان مشهورتان من نتاج العصور الوسطى فى أوروبا . (المعرب)

(**) هذه القصة لم ترد إلا فى المصادر الهندية ، وإنه لمن الخطأ الادعاء أن مثل هذا الباعث المنحرف كان من دوافع فتح بعض أقاليم الهند . (الإدارة الثقافية)

الفصل الخامس

الجنوب في أوجه

ممالك الدكن – ڤيجايا ماجار – كرشنا رايا – مدينة
عظمى فى العصر الوسيط – القوانين – الفنون –
الدين – مأساة

كلما تقدم المسلمون فى الهند تراجعت الحضارة الهندية نحو الجنوب خطوة بعد خطوة ، حتى إذا ما دنت هذه العصور الوسطى من ختامها ، كانت الدكن قد باتت بين أرجاء الهند تنتج أسمى ما تنتجه الحضارة الهندية ؛ وكانت قبيلة « شاليوكا » قد استطاعت أن تكوّن نفسها مملكة مستقلة لبثت قائمة حيناً من الدهر ، تمتد عَبْرَ الهند الوسطى ، وكان لها من القوة والمجد فى عهد « پولاكشين الثانى » ما تمكنت به من أن تهزم « هارشا » وأن تجذب إليها « يوان تشوانج » وأن تظفر من « خسرو الثانى » ملك الفرس بسفارة محترمة ؛ وكذلك تمّت فى عهد « پولاكشين » وفى أرض مملكته أعظم التصاوير الهندية ، وأعنى بها نقوش أجانتا ؛ ثم أسقط « پولاكشين » عن عرشه ملكُ الفلاوبين الذى لبث حيناً قصيراً أعظم قوة فى الهند الوسطى ؛ وأما فى أقصى الجنوب فقد أقام « الپانداويون » ملكاً فى عهد مبكر يقع فى القرن الأول الميلادى ، ويشتمل على «مدراس» و«تينِڤلي» وبعض أجزاء «ترافانكور» ؛ وقد جعلوا من « مادورا » بلداً من أجمل بلدان الهند فى العصر الوسيط وزينوها بمعبد شامخ وبمئات من الآثار المعمارية الفنية الصغرى ؛ ودار الزمن دورته فإذا هم كذلك يُثَلُّ عروشهم على أيدى « الكوليين » أولا ثم على أيدى المسلمين بعد ذلك ؛ فأما « الكوليون » فقد بسطوا سلطانهم على الجزء الواقع بين « مادورا » و « مدراس » ومن ثم مدوا أرجاءه تجاه الغرب إلى « ميسور » ؛ ويمتد تاريخهم

إلى عهد بعيد فى القِدَم ، إذ ترى اسمهم مذكوراً فى مراسيم « أشوكا » لكننا لا ندرى عنهم شيئاً حتى القرن التاسع حين بدءوا شوطاً طويلا تملوه الغزوات التى جاءتهم بأموال الجزية من الهند الجنوبية كلها بما فى ذلك جزيرة سيلان ؛ ثم اضمحل سلطانهم وانطووا تحت حكم أعظم الدويلات الجنوبية ، وهى دولة « ڤيجايا ناجار »(*) .

إن « ڤيجايا ناجار » — وهو اسم يطلق على مملكة وعلى عاصمتها معاً — مَثَلٌ حزين يساق للمجد الذى يعفى عليه النسيان : وقد كانت فى أيام عزها تشتمل على الدويلات التى يحكمها الأهلون اليوم فى جنوبى شبه الجزيرة ، كما تشتمل على ميسور وعلى اتحاد مدراس بكل أجزائه ؛ وحسبك إذا أردت أن تتصور ما كان لها من سلطان وثراء ، أن تتذكر أن ملكها « كرشنارايا » زحف إلى موقعة تاليكونا بجيش قوامه ٧٠٣,٠٠٠ من المشاة و ٣٢,٦٠٠ من الفرسان ، و ٥٥١ فيلا يصحبهم ما يقرب من مائة ألف من التجار والبغايا وغير هؤلاء وأولئك ممن كانوا يصحبون معسكرات الجند فى ذلك العصر إذا ما زحف الجيش فى غزواته(٦٣) وقد حَدَّ من أوتقراطية الملك قَدْرٌ من الاستقلال الذاتى تمتعت به القرى ، كما حَدَّ منها كذلك ملوك كانوا يظهرون آناً بعد آن ، يتميزون من سواهم بعقولهم المستنيرة وقلوبهم الرحيمة .

ولك أن تقارن « كرشنارايا » الذى حكم « ڤيجايا ناجار » بمعاصره هنرى

(*) فى هذه المجموعة المتباينة من الممالك التى نكاد ننسى ذكرها اليوم ، ترى فترات من الخلق الأدبى والفنى ، ومن الخلق المعمارى بصفة خاصة ؛ فقد كان لها عواصم غنية وقصور فاخرة وملوك أقوياء ؛ لكننا إزاء الهند برقعتها الفسيحة وبتاريخها الطويل ، لا يسعنا فى هذه الفقرة المزدحمة بذكر الحوادث ، إلا أن نمر برجال كانوا يظنون فى عهودهم أنهم سادة الأرض كلها ، لا يسعنا إلا أن نمر برجال كهؤلاء دون أن نذكر أسماءهم ؛ خذ لذلك مثلا « وكراماديتيا » الذى حكم الشاليوكيين مدى نصف قرن (١٠٧٦ – ١١٢٦) فقد بلغ من التوفيق فى حروبه حداً جعله يفكر (مثل نيتشه) فى أن يضع العالم تاريخاً زمنياً جديداً يقسم التاريخ كله إلى ما قبل حكمه وما بعد حكمه ؛ ومثل هذا الرجل قد أصبح اليوم حاشية تذكر فى هامش الكتاب .

الثامن مقارنة ستكشف لك عن تفوقه على هنرى الثامن الذى ما فتىء محباً للنساء لأنك سترى فيه ملكاً أنفق حياته فى العدل والرحمة ، وبسط كفه بالإحسان الغزير ، وتسامح إزاء الديانات الهندية ، وكان له شغف بالآداب والفنون فأيدها ، وكان كريماً مع من سقط فى يديه من أعدائه فعفا عنهم ولم يمس مدنهم بسوء ، وانصرف بجهده كله حتى الإفراط ، إلى شئون الحكم ، ولقد كتب مبشّر برتغالى — هو دومنجوزپيز سنة ١٥٢٢ — فوصفه بقوله :

« إنه بلغ أقصى ما يمكن للملك أن يبلغه من الهيبة والكمال وهو ذو مزاج بهيج وشديد المرح ، ومن صفاته أنه لا يألو جهداً فى تكريم الأجانب وفى الحفاوة بهم ... إنه حاكم عظيم ورجل يغلب على أخلاقه العدل ، ولكنه يثور بالغضب فجأة حيناً بعد حين . . . وهو بحكم منزلته من أسمى منزلة من سائر الحاكمين ، لما له من جيوش وسعة سلطان ، لكنه فيما يبدو لم يكن فى واقع الأمر يحظى بما كان ينبغى لرجل فى مثل مكانته أن يحظى به ؛ فهو من الشهامة والكمال فى كل شىء بمكان »(٦٤)(*) .

وربما كانت العاصمة التى تأسست سنة ١٣٣٦ أغنى مدينة عرفتها الهند حتى ذلك الزمان ؛ زارها « نيكولوكونتى » حول سنة ١٤٢٠ فقدر محيطها بستين ميلا ، ووصفها « بيز » فقال إنها « فى اتساع روما وتراها العين فترى جمالا خلاباً » ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن بها أحراشاً كثيرة من الشجر وقنوات مائية عدة » ذلك لأن مهندسيها قد أقاموا سداً ضخماً على نهر تنجابادرا وأنشأوا بذلك خزاناً ينتقل الماء منه إلى المدينة بقناة طولها خمسة عشر ميلا ، وقد كان الخزان منحوتاً فى صخر أصم مدى عدة أميال ؛ وقال « عبد الرزاق » الذى شهد المدينة سنة ١٤٤٣ إن فيها « ما لم تر مثيله فى أى جزء من أجزاء العالم عين ولا سمعت بمثيله أذن » واعتبرها « بيز » « أوفر بلاد الدنيا مؤونة ... ففيها من كل شىء وفرة » ويروى لنا أن عدد دورها قد أربى على مائة ألف ،

(*) كان بين هذه المقتنيات المتواضعة اثنتا عشرة ألف زوجة(٦٥) .

يسكنها نصف مليون من البشر ؛ وتراه يدهش لقصر من قصورها كانت فيه غرفة بنيت كلها من العاج ؛ « إنها من الثراء والجمال بحيث يكاد يستحيل أن تجد لها ضريباً فى أى مكان آخر »(٦٦) .

ولما تزوج « فيروزشاه » سلطان دلهى من ابنة ملك « ڤيجاياناجار » فى عاصمة هذا الأخير ، فرشت الطرقات لمسافة ستة أميال بالمخمل والحرير ورقائق الذهب وغير ذلك من المواد النفيسة(٦٧) ، لكن أذكر مع ذلك أن كل رحَّالة كذاب .

وإذا ما نفَذْت ببصر وراء هذا الستار من الغنى ؛ وجدت شعباً من عبيد وفَعَلَة يعيشون فى مسغبة وخرافة ، ويخضعون لتشريع اصطنع القسوة الوحشية ليصون بين الناس ضرباً منشوداً من ضروب الأخلاق التجارية ، فكان العقاب يتراوح بين قطع الأيدى أو الأقدام وقذف المذنب إلى الفيلة وجذ رأسه ووضعه حياً على قضيب مدبب ينفذ خلال معدته ، أو تعليقه على مشبك من أسفل ذقنه وتركه هكذا حتى يموت(٦٨) ، وهذه العقوبة الأخيرة كانت تنزل بالمغتصب أو بالسارق الذى يمعن فى سرقته ؛ وكان البغاء مسموحاً به ، تنظمه القوانين بحيث تجعل منه مورداً من موارد العرش ، ويقول « عبد الرزاق » إنه رأى « أمام دار السكة ديوان عميد المدينة الذى قيل عنه إنه يهيمن على اثنى عشر ألفاً من رجال الشرطة ، الذين تدفع لهم رواتبهم . . . مما يجيء من مواخير البغاء ، وإنه لما يعز على الوصف تصوير فخامة هذه الدور وجمال آهلاتها من الفاتكات بالقلوب ، وما لهن من فتنة الحديث وحلاوة الغزل(٦٩) » ، وقد كان للمرأة عندهم منزلة دنيا ، وكان عليها أن تقتل نفسها عند وفاة زوجها ؛ فكانوا يحركونها أحياناً تلوى بنفسها حية فى القبر(٧٠) .

وازدهر الأدب فى عصر « ملوك الرايا » — أى ملوك ڤيجاياناجار —

ازدهر مكتوباً بالسنسكريتية القديمة وبلهجة « تلوجو » التى ينطق بها أهل الجنوب ؛ وكان « كرشنْاِرايا » نفسه شاعراً كما كان راعياً سخياً للآداب ، وإنهم ليضعون أمير شعرائه « آلاساني پدانا » في الرعيل الأول من شعراء الهند كلها ؛ وكذلك ازدهر التصوير وفن العمارة ، فشيدت المعابد الضخمة ، وزينت في كل جزء من أجزائها تقريباً بالتماثيل والنقوش البارزة ؛ وكانت البوذية قد فقدت سلطانها على الناس ، وحل محلها ضرب من البراهمة التى تجلس « فشنو » قبل تقديسها لغيره من الآلهة ، وكانت البقرة عندهم مقدسة فلا تمتد إليها أيديهم بالذبح ، ولهم أن يقدموا قرابين من ضروب الماشية الأخرى ومن الطيور الداجنة ، كما كان لهم أن يأكلوا لحوم هذه الصنوف ، وبالجملة كان الدِّين قاسي الأحكام على حين كانت أخلاق التعامل بين الناس على شيء من التهذيب .

لكن هذا السلطان كله وهذا الترف قد انمحى بين عشية وضحاها ، وأخذ المسلمون الغزاة يشقّون طريقهم رويداً رويداً صوب الجنوب ، وتحالف سلاطين « بيجاپور » و « أحمد ناجار » و « جولكوندا » و « بدار » فركزوا قواهم جميعاً ليخضعوا هذا المعقل الأخير الذى تحصَّن فيه ملوك الهند الوطنيون ، والتقت جيوشهم المتحالفة بجيش « راماراجا » الذى يبلغ عدده نصف المليون فى موقعة « تاليكوتا » وكان الغلب للمغيرين بسبب كثرة عددهم ، ووقع « راماراجا » فى الأسر وقطع رأسه من مرأى من أتباعه ، فدب الرعب فى أنفس هؤلاء الأتباع ولاذوا بالفرار ، ولكن عدداً يقرب من مائة ألف منهم قتل فى طريق الفرار حتى اصطبغت بدمائهم مجارى الماء ؛ وراح الجنود الفاتحون ينهبون العاصمة الغنية ، وكانت الغنائم من الكثرة بحيث « أصبح كل جندى بسيط من جنود الجيوش المتحالفة غنياً بما ظفر به من ذهب ومجوهرات ومتاع وخيام وسلاح وجياد ورقيق[٧١] » ودام النهب خمسة أشهر ، جعل الظافرون خلالها يفتكون بمن لا حول لهم من الأهالى فى وحشية لا تفرق بين إنسان وإنسان ، وراحوا يفرغون المخازن والدكاكين ، ويقوّضون المعابد

والقصور ، وبذلوا ما استطاعوا من جهد لإتلاف كل ما تحويه المدينة من تماثيل وتصاوير ؛ وبعدئذ جاسوا خلال الشوارع يحملون المشاعل الموقدة فيشعلون النار فى كل ما يصلح وقوداً للنار ، حتى إذا ما غادروا المدينة آخر الأمر ، كانت « فيجاياناجار » قد باتت خراباً بلقعاً كأنما زلزل زلزالها فما أبقى منها حجراً على حجر ؛ وهكذا كان الدمار قطيعاً لم يُبْقِ على شيء ، يصوّر أدق تصوير غزو المسلمين للهند ، ذلك الغزو الشنيع الذى كان قد بدأ قبل ذلك بألف عام ، وبلغ حينئذ ختام مراحله(*) .

(*) هذه صورة رسمها بالطبع كاتب لا ينظر إلى الموقف نظرة من يحسب حسابا لديانة جديدة تنشر ، فما هو فى رأيه فظاعة وبشاعة قد يكون فى حقيقته أشعة ضوء جديد ينفذ خلال الظلام فيقشعه . (المعرب)

الفصل السادس

الفتح الإسلامى (*)

إضعاف الهند – محمود الغزنوى – سلطنة دلهى –
انحرافاتها الثقافية ، سياستها الوحشية – عبرة التاريخ الهندى

لعل الفتح الإسلامى للهند أن يكون أكثر قصص التاريخ تلطخاً بالدماء (**) ؛ وإن حكاية الفتح لما يبعث اليأس فى النفوس لأن مغزاها الواضح هو أن المدنيَّة مضطربة الخطى ، وأن مُركَّبها الرقيق الذى قوامه النظام والحرية ، والثقافة والسلام ، قد يتحطم فى لحظة على أيدى جماعة من الهمج تأتى من الخارج غازية (†) ؛ أو تتكاثر فى الداخل متوالدة ، فهؤلاء هم الهندوسيون قد تركوا أنفسهم للانقسام والقتال الداخليين يفتَّان فى عضدهم ، واتخذوا لأنفسهم البوذية والجانتية ديناً ، فأخمد مثل هذا الدين جذوة الحياة فى قلوبهم بحيث عجزوا عن الصمود لمشاقِّها ؛ ولم يستطيعوا تنظيم قواهم لحماية حدودهم وعواصمهم وثروتهم وحريتهم من طوائف السِّكِّيت والهون والأفغان والأتراك الذين ما فتئوا يجوبون حول حدود البلاد يرقبون ضعف أهلها لينفذوا إلى جوفها ، فكأنما لبثت الهند أربعة قرون (من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ميلادية) تغرى الفاتحين بفتحها ، حتى جاءهم هذا الفتح حقيقة واقعة آخر الأمر .

وكانت أول هجمة للمسلمين إغارة عابرة منهم على « ملطان » التى تقع فى الجزء الغربى من البنجاب (سنة ٦٦٤ م) ثم وقعت من المسلمين إغارات أخرى شبيهة بهذه كان فيها النجاح حليفهم مدى الثلاثة القرون التالية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى توطيد سلطانهم فى وادى نهر السند فى نحو الوقت الذى

(*) فى هذا الفصل تحامل ظاهر على الفتح الإسلامى للهند ، لكننا مضطرون إلى تركه كما هو ليتناوله المؤرخون بالرد ، وليقرأه القارئون قراءة النقد لا قراءة التسليم . (المعرب)

(**) إن المنهج العلمى الأمين يرفض مثل هذه الإطلاقات ، ويرفض استعمال أفعل التفضيل بهذه البساطة ، وإلقاء القول على عواهنه دون بينة حاسمة أكيدة . . . وليس من المنتظر أن يكون هناك حرب دون دماء ، وقد شهد التاريخ فى أزمنة وأمكنة متعددة ، حتى فى العصر الحديث سفك دماء أكثر مما سفك فى الفتح الإسلامى للهند . . .

(†) إن حقائق التاريخ تعرف أن المسلمين حين فتحوا الهند لم يكونوا « جماعة من الهمج » ولو كانوا كذلك لما تركوا آثارهم الواضحة على حضارة الهند ، مما أوضحه كبار مفكرى الهنود من غير المسلمين مثل الزعيم نهرو فى كتاباته التاريخية . (الإدارة الثقافية)

كان زملاؤهم فى الدين يقاتلون فى الغرب موقعة « تور » (٧٣٢ م) ليخلصوا منها إلى فرض سيادتهم على أوربا ، على أن الفتح الإسلامى الحقيقى للهند لم يقع إلا بعد نهاية الأعوام الألف الأولى من التاريخ الميلادى .

ففى سنة ٩٩٧ تولى شيخ من شيوخ الأتراك يسمى محمود سلطنة دولة صغيرة ؛ تقع فى الجزء الشرقى من أفغانستان ، وهى دولة غزنة ؛ وأدرك محمود أن ملكه ناشىء وفقير ، ورأى الهند عبْرَ الحدود بلداً قديماً غنياً ، ونتيجة هاتين المقدمتين واضحة ؛ فزعم لنفسه حماسة دينية تدفعه إلى تحطيم الوثنية الهندوسية ، واجتاح الحدود بقوة من رجاله تشتعل حماسة بالتقوى التى تطمع فى الغنيمة ، والتقى بالهندوسيين آخذاً إياهم على غرة فى « بهمْناجار » فقتلهم ونهب مدائنهم وحطم معابدهم وحمل معهم كنوزاً تراكمت هناك على مر القرون ؛ حتى إذا ما عاد إلى غزنة ، أدهش سفراء الدول الأجنبية بما أطلعهم عليه من الجواهر واللآلىء غير المثقوبة والياقوت الذى يتلألأ كأنه الشرر ، أو كأنه النبيذ جمده الثلج ، والزمرد الذى أشبه غصون الريحان اليانعة ، والماس الذى ماثل حب الرمان حجماً ووزناً[٧٢] . وكان محمود كلما أقبل شتاء هبط على الهند وملأ خزائنه بالغنائم ، وأمتع رجاله بما أطلق لهم من حرية النهب والقتل ، حتى إذا ما جاء الربيع عاد إلى عاصمة بلاده أغنى مما كان ؛ وفى « ماثوره » (على جمْنه) أخذ من المعبد تماثيله الذهبية التى كانت تزدان بالأحجار الكريمة وأفرغ خزائنه من مكنونها الذى كان يتألف من مقادير كبيرة من الذهب والفضة والجوهر ؛ وأعجبه فن العمارة فى ذلك الضريح العظيم ، ثم قدر أن بناء مثله يكلف مائة مليون دينار وعملا متصلا مدى قرنين ، فأمر به أن يغمس فى النفط ، وأن يترك طعاماً للنار حتى أتت عليه[٧٣] ، وبعد ذلك بستة أعوام أغار على مدينة غنية أخرى تقع فى شمال الهند ، وهى مدينة « سمنة » فقتل سكانها جميعاً وعددهم خمسون ألف نسمة ، وحمل كنوزها إلى غزنة ؛ ولعله فى نهاية أمره قد أصبح أغنى ملك عرفه التاريخ ؛ وكان أحياناً يبقى على سكان المدن المنهوبة ليأخذهم معه إلى وطنه فيبيعهم هناك رقيقاً ، لكن هؤلاء

الأسرى بلغوا من الكثرة حداً أدى بهم إلى البوار بعد بضعة أعوام ، بحيث يتعذر أن تجد من يدفع أكثر من شلنات قليلة ثمناً للعبد من هؤلاء ؛ وكان محمود كلما هم بعمل حربى هام ، جثا على ركبتيه مصلياً يدعو الله أن يبارك له فى جيشه ، وظل يحكم ثلث قرن : فلما جاءته منيته ، كان قد أثقلته السنون ودواعى الفخار ، فوصفه المؤرخون المسلمون بأنه أعظم ملوك عصره ، ومن أعظم الملوك فى كل العصور(٧٤) .

فلما رأى سائر الحكام المسلمين ما خلعه التوفيق من جلال على هذا اللص(*) العظيم ، حذوا حذوه ، ولم يستطع أحد منهم أن يبزه فى خطته ، ففى عام ١١٨٦ قامت قبيلة تركية من الأفغانستان ، وهى قبيلة الغوريين ، بغزو الهند والاستيلاء على دلهى ، وخربوا معابدها وصادروا أموالها ونزلوا بقصورها ليؤسسوا لأنفسهم بذلك سلطنة دلهى — وهى سلطنة استبدادية وفدت إلى البلاد من خارج ، وجثمت على شمال الهند ثلاثة قرون ، لم يخفف من عبثها إلا حوادث الاغتيال والثورة ؛ وكان أول هؤلاء السلاطين الأشرار هو « قطب الدين أيبك » الذى يعد نموذجاً سوياً لنوعه — فهو متهوس فى تعصبه غليظ القلب لا يعرف الرحمة ؛ ويروى لنا عنه المؤرخ المسلم فيقول إن عطاياه « كانت توهب بمئات الألوف ، وقتلاه كانوا كذلك يعدون بمئات الألوف » ففى قصر واحد ظفر به هذا المحارب (الذى كان قد بيع عبداً) « وضع فى أغلال الرق خمسين ألف رجل واسودت بطاح الأرض بالهنود »(٧٥) ؛ وكان « بلبان » — وهو سلطان آخر — يعاقب الثائرين وقطاع الطرق برميهم تحت أقدام الفيلة ، أو ينزع عنهم جلودهم ، ثم يحشو هذه الجلود بالقش ويعلقها على أبواب دلهى ؛ ولما حاول بعض السكان المنغوليين الذين كانوا قد استوطنوا دلهى واعتنقوا الإسلام ، أن يقوموا بثورة ، أمر السلطان علاء الدين (فاتح شيتور) بالذكور جميعاً — ويقع عددهم بين خمسة عشر ألفاً وثلاثين ألفاً

(*) إن شريعة الحرب تجيز إضعاف العدو مادياً ومعنوياً بكل سبيل ، وليس من الإنصاف تلوين الفتح الإسلامى الهند بأنه كان سلباً ونهباً مثلما ورد فى هذا الموضع ، إن وصف السلطان الغزنوى بهذا الوصف هو غبن لهذا الفاتح العظيم . (الإدارة الثقافية)

ـ فقتلوا فى يوم واحد ؛ وجاء السلطان محمود بن طغلق فقتل أباه وتولى العرش من بعده ، وقد أصبح فى عداد العلماء الأعلام والأدباء أصحاب الأسلوب الرشيق ، فدرس الرياضة والطبيعة والفلسفة اليونانية ، ولكنه مع ذلك بز أسلافه فى سفك الدماء وارتكاب الفظائع ، من ذلك أنه جعل من ابن أخ له ثار عليه طعاماً أرغم زوجة القتيل وأبناءه على أكله ؛ وأحدث فى البلاد تضخماً مالياً باستهتاره فجلب الدمار إلى البلاد ، وتركها خراباً بما أجراه فيها من نهب وقتل ، حتى لقد لاذ سكانها بالفرار إلى الغابات ، ولقد أوغل فى قتل الهنود حتى قال عنه مؤرخ مسلم : « إن أمام رواقه الملكى وأمام محكمته المدنية لم يَخْلُ المكان قط من أكداس الجثث ، حتى لقد مل الكناسون والجلادون ، وأتعبهم جَرّ الأجساد ــ أجساد الضحايا ــ لأعمال القتل فيهم زرافات»(٧٦) ؛ ولما أراد أن ينشىء عاصمة جديدة فى « دولة أباد » أخرج سكان دلهى من بلدهم لم يُبْقِ منهم أحداً ، وخلف المدينة فقراً يباباً ، وسمع أن رجلا أعمى قد ظل مقيما فى دلهى . فأمر به أن يُجَرّ على الأرض من العاصمة القديمة إلى العاصمة الجديدة ، ولما بلغوا بالمسكين آخر رحلته لم يكن قد بقى من جسده إلا ساق واحدة(٧٧) وشكا السلطان من نفور الشعب منه وعدم اعترافهم بعدله الذى لم ينحرف عن جادة السبيل .

وظل يحكم الهند ربع قرن ثم وافته منيته وهو فى فراشه ، وتبعه « فيروز شاه » فغزا البنغال ، ووعد أن يكافئ كل من جاءه برأس هندىّ ، حتى لقد دفع فى ذلك مكافآت عن مائة وثمانين ألفاً من الرءوس ، وأغار على القرى الهندية طلباً للرقيق ، ومات وهو شيخ معمر ، بلغ من العمر ثمانين عاماً ، وجاء السلطان أحمد شاه ، فكان يقيم الحفلات ثلاثة أيام متوالية كلما بلغ القتلى فى حدود ملكه من الهنود العُزّل عشرين ألفاً فى يوم واحد(٧٨) .

وكثيراً ما كان هؤلاء الحكام رجالا ذوى قدرة ، كما كان أتباعهم يمتازون بسالةً جريئةً ونشاطاً ، وبغير هذا الفرض فيهم لا نستطيع أن نفهم كيف أتيح

لهم أن يصونوا ملكهم وسط شعب مُعَاد لهم ويفوقهم عدداً بنسبة كبيرة ، وكانوا جميعاً مسلحين بعقيدة حربية النزعة لكنها أسمى بكثير فى توحيدها الحادّ من كل المذاهب الدينية الشائعة إذ ذاك فى الهند ؛ ولقد عملوا على طمس ما لعقيدتهم تلك من ظاهر جذاب ، بأن أرغموا الهنود على عدم القيام بشعائر دينهم علناً ، وبهذا مهدوا للهنود طريق الانغماس فى صميم الروح الهندية إلى أعماقها ؛ وكان لبعض هؤلاء الحكام المستبدين العطشى للطغيان ثقافة إلى جانب ما كان لهم من قدرة ، فرَعَوا الفنون وهيئوا سبل العيش لرجال الفن والصناعة — وهؤلاء عادة من أصل هندى — بأن استخدموهم فى بناء المساجد والأضرحة الفخمة ؛ وكذلك كان بعضهم علماء يمتعهم أن يحاوروا المؤرخين والشعراء ورجال العلوم ، ولقد صحب محموداً الغزنوى إلى الهند عالم من أعظم علماء آسيا وهو البيرونى ، وهناك كتب استعراضاً علمياً عن الهند قريب الشبه بكتاب « التاريخ الطبيعى » لمؤلفه (پلِنى) . وكتاب « الكون » « الهمبولت » وكان للمسلمين مؤرخون يكادون يبلغون عدد ما كان لهم من قادة الجيش ، ولم يقلوا عنهم فى حبهم لسفك الدماء والحرب ؛ وأما السلاطين فقد ابتزوا من الشعب كل ما فى مستطاع الناس أن يدفعوه من مال على سبيل الجزية ، واصطنعوا فى ذلك الوسائل العتيقة فى فرض الضرائب ، كما لجأوا أيضاً إلى السرقة الصريحة ، لكنهم كانوا يقيمون فى الهند وينفقون غنائمهم تلك فى الهند ، فأعادوا إلى الحياة الاقتصادية فى الهند ما استلبوه منها ؛ ومهما يكن من أمر فقد كانت وسائلهم الإرهابية واستغلالهم للناس مما زاد من إضعاف البنية الهندية وإضعاف الروح المعنوية بين الهنود ، وهو إضعاف عمل عليه قبل ذلك مناخ البلاد المنهك للقوى وقلة ما يأكلونه من طعام ، وتمزق البلاد من الوجهة السياسية والنظرة المتشائمة التى توحى بها دياناتهم .

وقد رسم علاء الدين تخطيطاً واضحاً للسياسة التى جرى عليها السلاطين فى

معظم الأحيان . وذلك أنه طلب إلى مستشاريه أن يسنوا « قواعد وقوانين يكون من شأنها أن تسحق الهنود سحقاً ، وأن تسلبهم تلك الثروة وهاتيك الكنوز التي كانت تولد فى نفوسهم البغضاء والثورة »(٨٠) ؛ فكانت الحكومة تستولى على نصف مجموع المحصول الزراعى ، بعد أن كان الحكام الوطنيون قبل ذلك يستولون من ذلك المحصول على سدسه فقط ؛ يقول مؤرخ مسلم : « لم يستطع هندى أن يرفع رأسه ، ولم تكن لترى فى دورهم أثراً لذهب أو لفضة ... بل لم تكن لترى هناك شيئاً مما يزيد عن ضرورات الحياة ... وكانوا يجبرون على دفع الضريبة باللطمات وتقييد الأقدام والشد بالأغلال والزج فى السجن » ، وكان علاء الدين إذا ما احتج أحد مستشاريه على سياسته هذه أجابه بقوله : « أيها الفقيه ، إنك متبحر فى العلم لكنك خلو من الخبرة ، أما أنا فلا علم عندى لكنى رجل محنك ؛ فكن على يقين أن الهنود لن يذلوا أو يطيعوا حتى تنزل بهم الفقر ، ولهذا أصدرت أمرى بألا يترك فى أيديهم إلا الضرورى لحفظ الحياة مما يجمعونه عاماً بعد عام من محصول الغلال واللبن والجبن ، وألا يسمح لهم قط بادخار الأموال والأملاك »(٨١) .

وفى هذا سر التاريخ السياسى للهند الحديثة ؛ فقد مزقها الانقسام حتى جثت أمام الغزاة ثم أفقرها هؤلاء الغزاة فأفقدوها قوة المقاومة ، فاستجارت من هذا البلاء بعزاء فى الحياة الآخرة ، ومن هنا راحوا يؤمنون بأن السيادة والعبودية كلاهما وهم زائل ، ويعتقدون بأن حرية البدن أو حرية الأمة لا تكادان تستحقان الجهاد فى مثل هـــذه الحياة القصيرة ، والعبرة المرة التى نستخلصها من هذه المأساة هى أن اليقظة الساهرة أبداً هى ضمان دوام المدنية ؛ فالأمة ينبغى أن تحب السلام ، لكنها يجب أن تكون دواماً على أهبة الاستعداد للقتال .

الفصل السابع

أكبر العظيم (*)

تيمورلنك ، بابور – هيون ، أكبر ، حكومته – شخصيته – رعايته للفنون – تحمسه للفلسفة – حسن علاقته بالهندوسية والمسيحية – ديانته الجديدة – أكبر فى أخريات أيامه

إن من طبيعة الحكومات أن يصيبها الانحلال ، لأن القوة – كما قال شلى – تسمم كل يد تمسها(٨٢) فقد أدى إسراف سلاطين دلهى إلى فقدانهم تأييد الهنود لهم ، بل فقدانهم تأييد أتباعهم من المسلمين كذلك ؛ حتى إذا ما أغارت على البلاد جيوش مغيرة جديدة من الشمال ، منى هؤلاء السلاطين بالهزيمة بغير عناء كما كانوا هم أنفسهم قد كسبوا الهند بغير عناء .

وأول من انتصر عليهم فى ذلك هو « تيمورلنك » الذى كان قد اعتنق الإسلام ليتخذ منه سلاحاً ماضياً ، كما قد أعد لنفسه قائمة أنساب تردُّه إلى « جنكيز خان » لكى يعينه ذلك على كسب طائفة المغول إلى جانبه ؛ فلما أن فرغ من استيلائه على عرش سمرقند ، ولم يزل يحسُّ الرغبة فى مزيد من الذهب ، أشرقت عليه فكرة مؤداها أن الهند لم تزل حينئذ مليئة بالكفار ، لكن قواده كانوا يعلمون بسالة المسلمين ، فلم يذهبوا معه فى الرأى ، موضحين له أن الكفار الذين يمكن الوصول إليهم من سمرقند ، كانوا بالفعل تحت الحكم الإسلامى ، ثم أفتى له الفقهاء العلماء بالقرآن بآية تبعث الحماسة فى الصدور وهى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »(٨٣) فما هو إلا أن عبر تيمور نهر السند (١٣٩٨) وقتل أو استعبد كل من وقعت عليهم يداه من السكان فلم يستطيعوا الفرار منه ، وهزم جيوش السلطان محمود طغلق

(*) فى الوقت الذى اشتط فيه المؤلف بتجنيه على المسلمين – فيما تقدم – بغير سند وحجة ، نراه هنا – وهو فى معرض الحديث عن « سلاطين دلهى » يقصر تقصيراً معيباً فى بيان آثارهم الإصلاحية ، ويكتفى بالإشارة العابرة إليهم وإلى أتباعهم ، دون أن يسعف القارئ بكلمة عن هؤلاء السلاطين وكيف قاموا ، وعن هؤلاء الأتباع المسلمين وكيف ظهروا !!!

(الإدارة الثقافية)

واحتل دلهى ، وذبح مائة ألف من الأسرى ذبحاً متعمداً ، وسلب من المدينة كل أموالها التى كانت الأسرة الأفغانية المالكة قد كدستها هناك ، وحملها معه إلى سمرقند ، مستصحبا كذلك عدداً كبيراً من النساء والعبيد ، تاركا وراءه الفوضى والمجاعة والوباء(٨٤) .

وعاد سلاطين دلهى فاعتلوا عرشهم ، واستغلوا الهند قرنا آخر من الزمان ، حتى جاءهم الفاتح الحقيقى ، وهو « بابور » الذى أسس أسرة المغول(*) العظيمة وهو يشبه الإسكندر كل الشبه فى شجاعته وجاذبيته ، ولما كان سليل تيمور وجنكيز خان معاً ، فقد ورث كل ما اتصف به هذان الحاكمان — اللذان ألهبا آسيا — من قدرة ، دون أن يرث ما كان لها من غلظة القلب ؛ وكان يعانى من فيض نشاط جسده وعقله ، فطفق يقاتل ويخرج للصيد وللرحلة دون أن يروى بذلك غلته ، ولم يكن عليه عسيراً أن يقتل بمفرده خمسة أعداء فى خمس دقائق(٨٧) ، وحدث أن قطع فى يومين مائة وستين ميلا وهو راكب على ظهر جواده ، ثم واصل مجهوده ذاك فسبح نهر الكنج مرتين كأن الرحلة لم تكفه دليلا على نشاطه ؛ ولقد قال وهو فى أواخر سنيه إنه منذ عامه الحادى عشر لم يصم رمضان مرتين فى مكان واحد(٨٨) .

وله « ذكريات » يستهلها بقوله : « لما بلغت من العمر اثنى عشر عاماً أصبحت حاكماً على فرغانة »(٨٩) ولما بلغ الخامسة عشرة حاصر سمرقند واستولى عليها ، ثم ضاعت من يده لعجزه عن دفع رواتب جنده ؛ واعتلّت صحته حتى أوشك على الموت ، واعتصم بالجبال حيناً ، ثم عاد إلى المدينة فاستولى عليها بقوة قوامها مائتان وأربعون رجلا ، وعاد من جديد ففقدها بخيانة غادر ، فاختبأ فى غمرة من الفقر عامين ، حتى لقد فكر فى نفض يده

(*) « المغول » و « المنغول » اسمان على مسمى واحد ، والمغول فى حقيقة أمرهم أتراك ، لكن الهنود كانوا يسمون — ولا يزالون يسمون — المسلمين الشماليين (ما عدا الأفغان) بالمغول(٨٥) وكلمة « بابور » كنية منغولية معناها أسد ، أما الاسم الحقيقى لأول إمبراطور مغولى سيطر على الهند فهو زهير الدين محمد(٨٦) .

من حياة الجهاد مكتفياً بحياة الفلاحة فى حقول الصين ؛ لكنه عاود نفسه فنظم جيشاً جديداً وأبدى من الشجاعة ما ألهب الشجاعة فى نفوس جنده واستولى على كابل وهو فى عامه الثانى والعشرين من عمره ، بعد أن أنزل الهزيمة الساحقة بجيش السلطان إبراهيم فى موقعة پانيپات ، وقوامه مائة ألف جندى ، مع أن جيشه لم يزد على اثنى عشر ألفاً ، ومعهم عدد من حر الجياد ، وقتل الأسرى ألوفاً ألوفاً ، واستولى على دلهى ، وأسس بها أعظم وأكرم أسرة أجنبية مما حكم الهند من أجانب ؛ وأخيراً نعم بحياة وادعة أربعة أعوام ، كان يقرض فيها الشعر ويكتب ذكرياته ، ومات فى سن السابعة والأربعين بعد أن عاش قرناً كاملا إذا عدت السنون بما فيها من نشاط وتجربة .

وكان ابنه « هميون » من الضعف والتردد والإدمان فى الأفيون بحيث لم يستطع أن يتابع السير فى طريق أبيه « بابور » فهزمه « شرشاه » وهو من شيوخ الأفغان ، فى موقعتين دمويتين ، واستعاد حيناً من الدهر سلطة الأفغان فى الهند ؛ ولئن كان « شرشاه » قديراً على القتل فى أحسن صُوَرِه الإسلامية ، إلا أنه كذلك أعاد بناء دلهى فى ذوق معمارى جميل ، وأقام فى إدارة الحكم اصطلاحات مهدت السبيل للحكم المستنير الذى تم على يدى « أكبر » ؛ وبعد أن تولى الملك شاهان الشأن مدى عشرة أعوام ، نظم « هميون » قوة فى فارس ، بعد اثنى عشر عاماً قضاها فى صعاب وتجواب ، ثم عاد إلى الهند واستعاد العرش ، لكنه لم يلبث بعد ذلك إلا ثمانية أشهر ، إذ سقط من شرفة مكتبته فقضى نحبه .

وكانت زوجته قد أنجبت له أثناء نفيه وفقره ولداً أسماه (محمداً) تبركاً بهذا الاسم ، لكن الهند أطلقت عليه « أكبر » — ومعناها « البالغ فى عظمته حداً بعيداً » — ولم يدخروا من وسعهم شيئاً لتنشئته رجلا عظيما ، بل إن أسلافه قد تعاونوا على اتخاذ التدابير كلها ليبلغوا به قمة العظمة ، ففى عروقه تجرى دماء « بابور » و « تيمور » و « جنكيزخان » وأعد له المربون فى كثرة ، لكنه رفضهم جميعاً وأبى أن يتعلم القراءة ، وأخذ يُعِدّ نفسه بدل ذلك لتولى

الملك بالرياضة الخطرة التى ما فتئ يرتاضها ، فأصبح فارساً يتقن ركوب الخيل إلى حد الكمال ، وكان يلعب بالكرة والصولجان لعب الملوك ، ومهر فى فن سياسة الفيلة مهما بلغت من حدة الافتراس ، ولم يتردد قط فى ارتياد الغابة لصيد الأُسْد والنمور وفى تحمل المشاق مهما بلغ عناؤها ، وفى مواجهة المخاطر كلها بشخصه ؛ ولكى يكون تركيا أصيلا ، لم يضعف ضعف الإناث فيمج طعم الدماء البشرية ؛ من ذلك أنه لما كان فى عامه الرابع عشر ، دعى ليظفر بلقب « غازى » — ومعناها قاتل الكفار — بأن قدموا له أسيراً هندياً ليقتله ، فبتر رأس الرجل بتراً فى لمحة سريعة وبضربة واحدة من حسامه ؛ تلك كانت البدايات الوحشية لرجل كتب له أن يكون من أحكم وأرحم وأعلم من عرفهم تاريخ الدنيا من ملوك(*) .

لما بلغ الثامنة عشرة من عمره تسلم مقاليد الأمور من يد الوصى على عرشه ، وكانت رقعة ملكه تمتد فتشمل أكثر من ثُمْن مساحة الهند كلها — فهى شريط من الأرض يبلغ عرضه نحو ثلاثمائة ميل ، ويمتد من الحدود الشمالية الغربية عند ملطان إلى بنارس فى الجانب الشرقى ؛ وامتلأ بما كان يمتلىء به جده من حماسة وجشع ، فشرع يوسع هذه الحدود ، واستطاع بسلسلة من الحروب التى لم تعرف الرحمة أن يبسط سلطانه على الهندستان كلها ، ما عدا مملكة راجبوت التى تخضع لأسرة موار ، فلما عاد إلى دلهى نزع عن نفسه السلاح ، وكرس جهده لإعادة تنظيم حكومة ملكه ، وكان سلطانه مطلقاً فهو الذى يعين الرجال للمناصب الهامة كلها ، حتى ما يقع منها فى الأقاليم النائية ، وكان معاونوه الأساسيون أربعة : رئيس الوزراء ويسمى « فقيراً » ، ووزير المالية ويسمى « وزيراً » أحياناً ، وأحياناً يسمى « ديوانا » ،

(*) عرف قيمة الكتب فى مرحلة متأخرة من حياته ، ولما لم يكن قد تعلم القراءة فقد كان ينصت لغيره ساعات وهو يقرأ له ، وكثيراً ما كانوا يقرءون له كتباً صعبة معقدة ، حتى أصبح فى نهاية الأمر عالماً لا يقرأ ، يحب الآداب والفنون ، ويؤيدهما بسخاء الملوك .

ورئيس للقضاء ويسمى « بخشى » ورئيس للديانة الإسلامية ويسمى « صدراً » ؛ وكان كلما ازداد حكمه استقراراً ورسوخاً فى القلوب ، قل اعتماده على القوة الحربية ، مكتفياً بجيش دائم من خمسة وعشرين ألفاً ، فإذا ما نشبت حرب ، زادت هذه القوة المتواضعة بمن يجندهم الحكام العسكريون فى الأقاليم — وهو نظام متصدع الأساس كان من عوامل سقوط الإمبراطورية المغولية فى حكم « أورنجزيب(*) » وفشت الرشوة والاختلاس بين هؤلاء الحكام ومعاونيهم ، حتى لقد أنفق « أكبر » كثيراً من وقته فى مقاومة هذا الفساد : واصطنع الإقتصاد الدقيق فى ضبط نفقات حاشيته وأهل أسرته ، فحدد أسعار الطعام وسائر الأشياء التى كانت تُشترَى لهم ، كما حدد الأجور التى تدفع لمن تستخدمهم الدولة فى شئونها ؛ ولما مات ، ترك فى خزينة الدولة ما يعادل بليون ريال ، وكانت إمبراطوريته أقوى دولة على وجه الأرض طرّاً(٩٠) ؛

كانت القوانين والضرائب كلاهما قاسياً ، لكنهما كانا مع ذلك أقل قسوة منهما قبل ذلك العهد ، فقد كان مفروضاً على الفلاحين أن يعطوا الحكومة مقداراً من مجموع المحصول يتراوح بين السدس والثلث ، حتى لقد بلغت ضريبة الأراضى فى العام ما يساوى مائة مليون ريال ؛ وكان الإمبراطور يجمع فى شخصه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ وكان إذا ما جلس فى كرسى القضاء الأعلى ، أنفق الساعات الطوال ينصت إلى أقوال المتخاصمين فى القضايا الهامة ؛ وكان من قوانينه تحريم زواج الأطفال وتحريم إرغام الزوجة على قتل نفسها عند موت زوجها ، وأجاز زواج الأرامل ، ومنع استرقاق الأسرى وذبح الحيوان للقرابين ، وأطلق حرية العقيدة للديانات كلها ، وفتح المناصب

(*) كان الجيش معداً بخير سلاح عرفته الهند حتى ذلك الحين ، لكنه كان فى هذه الناحية أقل إعداداً من جيوش أوروبا إذ ذاك ، وفشل « أكبر » فى محاولته الحصول على بنادق خير من بنادق جيشه ، فتضافر سوء معدات القتال فى جيشه مع انحلال خلفه من بعده ، على تيسير الفتح الأوروبى الهند .

لذوى الكفاءة مهما يكن من أمر عقيدتهم أو جنسهم ، ومنع ضريبة الرؤوس التى كان الحكام الأفغان يفرضونها على الهندوسيين الذين يأبون الدخول فى الإسلام(٩١) ، وكان تشريعه فى بداية حكمه يبيح عقوبات من قبيل بتر الأعضاء ، أما فى نهاية عهده فربما بلغ التشريع فى بلاده من الرقى ما لم تبلغه أية حكومة أخرى فى القرن السادس عشر ، إن كل دولة تبدأ بالعنف ثم تأخذ فى طريق المدنية الذى ينتهى إلى الحرية (ذلك إن أمنت على نفسها الخطر) .

لكن قوة الحاكم كثيراً ما تكون ضعفاً فى حكومته ، فقد كان بناء الحكم قائماً إلى حد كبير على « أكبر » بما كان له صفات عقلية وخلقية ممتازة . ولذلك كان من البديهى أن يتعرض كل ذلك للإنهيار بعد موته ؛ وبالطبع قد تحلّى بمعظم الفضائل ما دام قد استأجر معظم أقلام المؤرخين : فكان خير رياضى وخير فارس وخير محارب بالسيف ، ومن خير المهندسين فى فن العمارة ، وكان كذلك أجمل رجل فى البلاد كلها ، أما الواقع فإنه كان طويل الذراعين ، مقوس الساقين ، ضيق العينين كسائر المنغوليين ، رأسه يميل نحو اليسار ، وفى أنفه ثؤلول (زائدة جلدية(٩٢) ، لكنه كان يكتسب شكلا محترماً بنظافته ووقاره وهدوئه وعينيه اللامعتين اللتين كانتا تتلألآن (كما يقول أحد معاصريه) : « تلألأ البحر فى ضوء الشمس » أو كانتا تشتعلان على نحو ترتعد له فرائص المعتدى كما حدث لفاندام أمام نابليون ، كان ساذج الثياب يغطى رأسه بغطاء مزركش ، ويرتدى صدراً وسراويل ، ويرصع نفسه بالجواهر ، ويترك قدميه عاريتين ؛ وكان لا يميل كثيراً إلى أكل اللحم ، ثم امتنع عنه امتناعاً تاماً تقريباً فى أواخر سنيه قائلا « إنه لا يجمل بالإنسان أن يجعل من معدته مقبرة للحيوان » ومع ذلك فقد كان قوى الجسد قوى الإرادة ، وبرع فى كثير من أنواع الرياضة التى تحتاج إلى حركة ونشاط ، واستخف بستة وثلاثين ميلا يمشيها فى يوم واحد ، وكان يحب اللعب بالكرة والصولجان.

حباً حدا به أن يخترع كرة منيرة ليتمكن اللاعبون من القيام بلعبتهم هذه فى ظلمة الليل ؛ وورث من أسلافه فى أسرته ميولها الاندفاعية القوية ، وكان فى شبابه (مثله فى ذلك مثل معاصريه من المسيحيين) قادراً على مشكلاته بالاغتيال ؛ لكنه راض نفسه شيئاً فشيئاً على أن يجلس على بركان نفسه — على حد تعبير وودروولسن — وامتاز من عصره امتيازاً بعيد المدى فى ميله إلى العدل ، وهو صفة لا يتميز بها حكام الشرق دائماً ؛ يقول « فرشْتا » : « إن رحمته لم تعرف حدوداً بل إنه كثيراً ما ذهب فى هذه الفضيلة حتى جاوز بها حدود الحكمة(٩٣)» وكان كريماً ينفق الأموال الطائلة إحساناً ، أحبه الناس جميعاً ، وخصوصاً الطبقات الدنيا ، فيقول عنه مبشِّرٌ جوويتىّ : « إنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا عطاياهم الحقيرة بوجه باسم ، فيتناولها بيديه ويضمها إلى صدره ، مع أنه لم يكن يفعل مثل ذلك مع أفخر الهدايا التى كان يقدمها له الأشراف » ، وقال عنه أحد معاصريه إنه كان مصاباً بالصرع ، وروى عنه كثيرون أن داء السوداء كثيراً ما كان يستولى عليه إلى درجة تسود معها نظرته إلى الحياة اسوداداً مخيفاً وكان يشرب الخمر ويأكل الأفيون فى اعتدال ، ولعله فعل ذلك ليُكْسِبَ واقع حياته المظلم شيئاً من البريق ، ولقد كان أبوه كما كان أبناؤه يشربون الخمر كما شربها ويأكلون الأفيون كما فعل ، لكنهم لم يكونوا يشبهونه فى ضبطه لنفسه(*) وكان له حريم يتناسب مع سعة ملكه ، فيروى لنا أحد الرواة « إن له فى « أجرا » وفى « فتحبور — سيكْرى » — هكذا يروون بصيغة الصدق — ألف فيل وثلاثون حصاناً وألف وأربعمائة غزال وثمانمائة خليلة » لكنه لم يكن له فيها يظهر شهوات حسيَّة ولا ميول تدفعه إلى الانغماس فيها ، نعم إنه أكثر من زوجاته ، لكنه كان زواجاً سياسياً ، فكان يتودد إلى أمراء الراجبوت بزواج بناتهم ، وبهذا كسبهم فى تعضيد عرشه ،

(*) مات اثنان من أبنائه فى شبابهما بسبب الإدمان فى الخمر(٩٦) .

وأصبحت الأسرة الحاكمة المغولية منذ ذلك الحين نصف وطنية فيما يجرى فى عروقها من دماء ؛ ولقد أعلى رجلا من أسرة راجپوت حتى نصَّبَهُ قائداً أعلى لجيشه ، كما رفع أحد الراجات إلى منصب كبير وزرائه ؛ وكانت أمنيته التى يحلم بها أن يوحّد الهند[٩٤] .

لم يكن ذا عقل واقعى دقيق له برودة المنطق كما كان لقيصر أو نابليون بل كان ينزع بعاطفته نحو دراسة الميتافيزيقا ، ولو أنه خلع عن عرشه لكان من الجائز أن يصبح صوفياً معتزلا ؛ كان لا يكف عن التفكير ولا ينقطع عن اختراع الجديد واقتراح الإصلاح لما هو قائم[٩٥] ؛ وكان من عاداته مثل هارون الرشيد أن يمسّ بالليل متنكراً ، ثم يعود إلى مأواه وهو جياش الصدر برغبة الإصلاح ، واستطاع وسط هذه المناشط الكثيرة أن يفسح بعض الوقت لجمع مكتبة عظيمة تتألف كلها مخطوطات جميلة الخط والنقش ، دبجها له نساخون بارعون كانت لهم عنده منزلة الفنانين ، فهم فى عينه لا يقلون مكانة عن المصورين والمهندسين المعماريين الذين كانوا يزينون مُلكه ؛ وكان يزدرى الطباعة باعتبارها آلية لا تتجلى فيها شخصية الكاتب ، ولم يلبث أن استغنى عن العينات المختارة من الرسوم الأوروبية المطلوعة التى قدمها له أصدقاؤه من الجزويت ، ولم تزد مكتبته على أربعة وعشرين ألف كتاب ، لكن قيمتها بلغت ما يساوى ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ريال[٩٧] عند أولئك الذين حسبوا أن أمثال هذه الكنوز الروحية يمكن تقديرها بأرقام مادية ، وأجزل العطاء للشعراء بغير حساب ، وقرّب أحدهم من نفسه — هو بربال الهندى — تقريباً جعله ذا حظوة كبرى فى حاشية قصره ، وأخيراً نصَّبه فى الجيش قائداً ، فكان من نتيجة ذلك أن قام « بربال » بحملة حربية أظهر فيها عجزاً شديداً ، وقتل فى جو أبعد ما يكون الجو عن خيال الشعراء[٩٨](*) ؛

(*) كان « بربال » بغيضاً لدى المسلمين ، ولذا فرح هؤلاء لموته ، حتى لقد سجل أحدهم —

وأمر « أكبر » أعوانه من الأدباء أن يترجموا إلى الفارسية — وقد كانت لغة قصره — آيات الأدب والتاريخ والعلم فى الهند ، وراجع بنفسه ترجمة الملحمة الخالدة « ماهابهاراتا »[١٠٠] وازدهرت الفنون كلها فى ظله وبتشجيعه ، فشهدت الموسيقى الهندية والشعر الهندى فى عهده عصراً من أعظم عصورهما وبلغ التصوير — الفارسى منه والهندى — مرتبة تالية فى ارتفاعها للأوج بفضل تشجيعه[١٠١] وأشرف فى « أجرا » على بناء « الحصن » المشهور ، وأمر أن يبنى بداخله خمسمائة بناء ، عدّها معاصروه من أجمل ما تراه العين فى العالم كله ؛ لكن هذه المبانى قد تحطمت تحطيما على يدى « شاه جهان » الأرعن ، وليس فى مقدورنا أن نحكم عليها استنتاجاً من آثار العمارة الباقية من عهد « أكبر » مثل مقبرة « هميون » فى دلهى ، والآثار الباقية فى « فتحبور — سيكرى » حيث أقيم ضريح لصديق « أكبر » المحبوب ، الزاهد الشيخ سليم شستى ، وهو بناء من أجمل ما فى الهند من بناء .

ثم كان له اتجاه آخر أعمق من هذه الاتجاهات كلها ، وهو ميله إلى التأمل ، فهذا الإمبراطور أوشك أن يكون قادراً على كل شىء ، تحرق فؤاده شوقاً إلى أن يكون فيلسوفاً — كما يشتهى الفلاسفة أن يكونوا أباطرة ، ولا يستطيعون ، أن يسيغوا حمق القدر فى حرمانه إياهم ما هم جديرون به من عروش ، فبعد أن فتح « أكبر » العالم ، أحسّ شقاء نفسه لأنه لم يستطع فهماً لهذا العالم الذى فتحه وقد قال : « على الرغم من أنى أسُود هذا المُلك الفسيح ، وزمام الحكومة كلها فى يدى ، فلست مطمئن الفؤاد لهذه العقائد الكثيرة والمذاهب المختلفة من حولى ، مادامت العظمة الحقيقية كائنة فى تنفيذ إرادة الله ؛ فدع عنك هذه الأبهة الظاهرة المحيطة بى ، وقل لى كيف أطيب بالا ، فى مثل هذا اليأس ، إذا

= وهو المؤرخ بادونى — حادثه موته بنشوة وحشية فقال . « إن بربال الذى فـ خوفاً من حياته ، قد قتل ودخل جهنم منخرطاً فى صف الكلاب »[٩٩]

ما حملت عبء الإمبراطورية ؟ إنى لأرقب ظهور رجل حصيف ذى مبدأ لبزيح عن ضميرى هذه المشكلات التى يتعذّر علىّ حلها ... إن الحديث فى الفلسفة يفتنى فتنة تصرفنى عن كل ما عداها ، وإنى لأنصرف عن سماعها رغم أنفى حتى لا أهمل واجباتى التى تقتضيها أمور الساعة »(١٠٢) ويقول بادونى : « كان يحجّ إلى قصره طوائف العلماء من كل أمة ، والحكماء من كل ملة ومذهب ، وكانوا يظفرون لديه بشرف استماعه إليهم ؛ وإذا ما فرغوا من بحثهم وتقصيهم اللذين كانا شغلهم الشاغل ومهمتهم الأولى ليلا ونهاراً تحدثوا فى مسائل عميقة فى العلم ، ونقط دقيقة فى الوحى ، وأعاجيب التاريخ وغرائب الطبيعة(١٠٣) ؛ ويقول « أكبر » : « إن سيادة الإنسان تعتمد على جوهرة العقل »(١٠٤) .

ولما كان فيلسوفاً فلا عجب أن يأخذه شغف شديد بالدين ؛ فقد أغرته قراءته الدقيقة لملحمة « ماهابهاراتا » ودراسته الوثيقة لشعراء الهنود وحكمائهم بدراسة العقائد الهندية ، ولبث حيناً – على الأقل – يؤمن بمذهب التناسخ ، وخيّب فيه ظن أتباعه من المسلمين حين ظهر على الملأ بعلامات دينية هندية على جبهته ؛ فقد كان له شغف بملاطفة أصحاب العقائد كلها ، لذلك تودد إلى الزرادشتيين بأن لبس ما يلبسونه من قميص ومنطقة مقدسين تحت ثيابه ، وانصاع للجانتيين حين طلبوا إليه أن يمتنع عن الصيد ؛ وأن يحرم قتل الحيوان فى أيام معلومة ، ولما سمع بالديانة الجديدة المسماة بالمسيحية ، التى جاءت إلى الهند مع بعثة « جوا » البرتغالية ، أرسل خطاباً إلى هؤلاء المبشرين التابعين لمذهب بولس ، يدعوهم أن يبعثوا له باثنين من علمائهم ، وحدث بعد ذلك أن قدِم جماعةٌ من الجزويت مدينة دلهى ، وحبّبوه فى المسيح حتى أمر كتّابه أن يترجموا له العهد الجديد(١٠٥) وأباح لهؤلاء الجزويت كل حرية فى أن يُنَصِّروا من شاءوا بل عهد إليهم بتربية أحد أبنائه ؛ وفى الوقت الذى كان الكاثوليك يفتكون بالبروتستنت فى فرنسا ، والبروتستنت – فى عهد اليصابات – يفتكون بالكاثوليك فى إنجلترا ، ومحاكم التفتيش تقتل اليهود فى أسبانيا

وتسلبهم أملاكهم و « برونو » يقذف به فى النار فى إيطاليا ، كان « أكبر » يوجه الدعوة إلى ممثلى الديانات كلها فى إمبراطوريته ليعقدوا مؤتمراً ، وتعهد لهم بحفظ السلام بينهم وأصدر المراسيم بوجوب التسامح مع المذاهب كلها والعقائد كلها ، ولكى يقيم الدليل على حياده ، تزوج من نساء البراهمة ومن نساء البوذية ، ومن نساء المسلمين جميعاً .

وكان ألذ ما يمتعه بعد أن بردت فى نفسه جذوة الشباب المضطرمة ، المناقشات الحرة فى العقائد الدينية ، ولقد ترك تعاليم الإسلام الجامدة تركاً تاماً(*) حتى أغضب بحياده هذا فى الحكم رعيته من المسلمين ؛ يقول عنه . سانت « فرانسس زاڤير » فى شىء من المغالاة : « لقد حطم هذا الملك مذهب محمد ، وهاجمه هجوماً بحيث لم يبق له فضيلة واحـــدة ، ولم يعد فى هذه المدينة مسجد أو قرآن — هو كتاب شريعتهم — وأما ما كان هناك من مساجد فقد اتخذوا منها حظائر للخيل أو مخازن » ، ولم يؤمن الملك أقل إيمان بالوحى ، ولم يكن ليصدق شيئاً لا يقوم على صحته برهان من العلم والفلسفة ، وكثيراً ما كان يجمع طائفة من أصدقائه ومن رجال العقائد الدينية المختلفة ثم يأخذ فى مناقشة الدين معهم من مساء الخميس إلى ظهر الجمعة : فإذا ما اعترك فقهاء المسلمين مع قساوسة المسيحيين ، زجرهم قائلا إن الله ينبغى أن يعبد بالعقل لا بالتمسك بوحى مزعوم ، وكان مما قاله ، فجاء شبيهاً بروح كتاب « اليوپانشاد » ، بل ربما كان فى قوله هذا متأثراً « باليوپانشاد » و « كابر » : « كل إنسان يسمى الكائن الأسمى باسم يلائم وجهة نظره ، والواقع أن تسميتنا لما يستحيل علينا إدراكه ضرب من العبث » واقترح بعض المسلمين أن تُختَبَر المسيحية إزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك أن يمسك شيخ من شيوخ المسلمين بالقرآن ، وأن يمسك قسيس بالإنجيل ، ثم يخوضان معاً فى النار ، فمن خرج منهما سالماً من الأذى ، اعترف له منادياً فى الأرض بصوت الحق ،

(١) إذا كان المؤلف أن يعجب ما شاء له الإعجاب بنشاط السلطان (أكبر) العقلى ومحاوراته ومحاولاته فى مجال العقيدة فليس من الإنصاف أن يصف ببساطة تعاليم الإسلام بالجمود . (الإدارة الثقافية)

وتصادف أن « أكبر » لم يكن يحب الشيخ المسلم الذى اقترحوه لهذه التجربة فتحمس للاقتراح ، لكن الجزويت رفضوه لأنه إفك وخروج على الدين ، لا لأنه خطر على حياة من تقع عليه التجربة ، وجعل اللاهوتيون المتنافسون يجتنبون أمثال هذه الاجتماعات شيئاً فشيئاً ، حتى لم يعد يحضرها إلا « أكبر » نفسه مع أصدقائه من أصحاب النظرة العقلية(١٠٦) »

وضاق أكبر ذرعاً بالانقسامات الدينية فى مملكته . وأفزعه الاحتمال بأن تؤدى هذه الديانات المتنافسة إلى تمزيق المملكة بعد موته ، فاستقر رأيه آخر الأمر على أن يكوِّن منها ديانة جديدة ، تضم أهم تعاليم العقائد المختلفة فى صورة بسيطة ويحكى لنا المبشر الجزويتى هذا النبأ كما يأتى :

« عقد اجتماعاً دعا إليه كل رجال العلم البارزين والقواد العسكريين فى المدن المجاورة ، لم يستثن أحداً إلا الأب « رِدُلْفو » الذى كان من العبث أن ترجو منه شيئاً غير مناصبة هذه الدعوة الدينية العداء ؛ فلما أن اجتمعوا جميعاً أمامه ، خطبهم بأسلوب سياسى ماهر ماكر قائلا :

« إنه لمن الشر فى إمبراطورية يحكمها رأس واحد أن ينقسم الأعضاء بعضهم على بعض وأن يتباينوا فى الرأى . . . ومن ثم نشأ فى البلاد أحزاب بمقدار ما فيها من عقائد دينية ، وإذن فلزام علينا أن ندمج هذه العقائد كلها فى دين واحد ، على نحو يجعلها كلها ممثلة فى هذا الواحد ، وتكون الفائدة الكبرى التى يجنيها كل من هذه الديانات ، أنه لن يخسر شيئاً من جوانبه الحسنة . ثم يكسب كل ما هو حسن فى سائر الديانات ، وبهذا وحده تمجد الله وتهيء للناس سلامة وللإمبراطورية أمناً(١٠٧) » .

ووافق المجلس مرغماً ، فأصدر « أكبر » مرسوماً يعلن نفسه رئيساً دينياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذه الرئاسة الدينية هى أهم
١٠ أثرت به المسيحية على الديانة الجديدة ؛ وكانت هذه العقيدة الجديدة توحيداً يمثل التقاليد الهندية فى التوحيد خير تمثيل ، مضافاً إليه قبس من عبادة

الشمس والنار مأخوذاً من العقيدة الزردشتية ، وفيه عنصر شبيه بالمذهب الجانتى فى إيثاره للامتناع عن أكل اللحوم ، وعُدّ ذبح الأبقار كبيرة من الكبائر ، فما أشد ما اغتبط لذلك الهندوس ، وما أقل ما اغتبط له المسلمون ؛ وصدر بعدئذ مرسوم يجعل الاقتصار على أكل النبات إلزاماً على الناس جميعاً مدى مائة يوم على الأقل كل عام ، ثم سار مع ميول الوطنيين خطوة أخرى فحرم الثوم والبصل ، وحرم تشييد المساجد وصيام رمضان والحج إلى مكة وغير ذلك من شعائر المسلمين ؛ ولما أراد المسلمون مناهضة هذه المراسيم ، نفى كثير منهم(١٠٨) ، وأقيم وسط «محكمة السلام» فى « فتحبور – سيكْرى – » معبد للديانة المتحدة الجديدة (ولا يزال هذا المعبد قائماً) رمزاً للأمل الذى كان يضطرم فى صدر الإمبراطور ، وهو أن يكون أهل البلاد جميعاً – بفضل العقيدة الجديدة – إخواناً يعبدون إلهاً لا يختلف من طائفة إلى طائفة .

ولم يكن النجاح حليف « الدين الإلهى » باعتباره دينا ووجد « أكبر أن التقاليد أقوى من أن يهدمها بقوله إنه يجل عن الخطأ ؛ نعم إن بضعة آلاف من الناس التفّوا حول الدين الجديد ، كان معظمهم ممن يريدون من وراء ذلك اكتساب حظوة عند الدولة ، لكن الأغلبية العظمى ما زالت مستمسكة بآلهتها الموروثة ؛ وأما من الوجهة السياسية فقد كان لخطته الدينية بعض النتائج المعينة ؛ فلئن كان « أكبر » بوحيه الدينى الجديد قد أبدى شيئاً من الأنانية ومن الإسراف ، فقد عوّض عن ذلك خير العوض بإلغائه لضريبة الرؤوس وضريبة الحج المفروضتين على الهندوس ، وبإطلاقه الحرية للعقائد الدينية كلها(*) ، وبإضعافه لروح التعصب الدينى والجنسى وما يتبع ذلك من جمود الرأى وانقسام الطوائف ؛ ولقد كسب إلى جانبه بفضل دينه الجديد ولاء الهندوس ، حتى أولئك الذين لم يعتنقوا منهم تلك العقيدة الجديدة ، فاستطاع بذلك أن يحقق غايته الرئيسية إلى حد بعيد ، وأعنى بها الوحدة السياسية للبلاد .

(*) إذا استثنينا اضطهاد الإسلام لفترة من الزمن (١٥٨٢ – ٥) .

لكن هذا « الدين الإلهى » كان مصدر كراهية شديدة له فى نفوس إخوانه فى الإسلام ، حتى لقد انتهى الأمر بهم مرة إلى شق عصا الطاعة علناً ، وإثارة الأمير « جهان كير » على أبيه بحيث أخذ يدبر له المكائد خفية ؛ وكان مما أثار القلق فى نفس الأمر أن « أكبر » قد ظل يحكم البلاد أربعين عاماً ، وأن بنيته لم تزل من القوة بحيث لا أمل فى موت قريب يصيبه ، لهذا حشد « جهان كير » جيشاً من ثلاثين ألف فارس ، وقتل « أبا الفضل » مؤرخ القصر وأحبَّ الأصدقاء إلى نفس الملك ، ثم أعلن نفسه إمبراطوراً ، لكن « أكبر » حمل الأمير الشاب على التسليم ، وعفا عنه بعد يوم واحد ، غير أن خيانة الابن لأبيه عملت على قتل أمه وقتل صديقه ، وحطمت قوته النفسية ، وتركته فريسة هينة « للعدو الأعظم » حتى لقد تنكر له أبناؤه فى أواخر أيامه وبذلوا جهدهم كله فى النزاع على العرش ، ومات « أكبر » فلم يكن إلى جانبه إلا طائفة قليلة من أصدقائه المقربين — مات بمرض الديسنتاريا ، أو مات مسموماً بتدبير « جهان كير » على اختلاف الآراء فى ذلك ، وجاء الشيوخ الدينيون إلى فراش الموت يحاولون أن يردوه إلى الإسلام ، لكنهم منوا بالفشل ، وهكذا « قضى الملك دون أن يجد من يصلى على روحه بين أنصار أية عقيدة أو مذهب »(١٠٩) ولم يشيّع جنازته عدد كبير من الناس ، فكانت جنازته متواضعة ولبس أبناؤه ورجال حاشيته ثياب الحداد بمناسبة موته ، لكنهم خلعوها فى مساء اليوم نفسه ، فرحين بوراثتهم للملك من بعده فكان موته موتاً مريراً ، مع أنه أعدل وأحكم حاكم شهدته آسيا فى كل عصورها .

الفصل الثامن

تدهور المغول

بناء العظماء – جهان كير – شاه جهان – عظمته – سقوطه –
أورنجزيب – تعصبه – موته – قدوم البريطانيين

عزّ على الأبناء الذين ظلوا يرقبون موته فى صبر نافذ أن يبقوا للإمبراطورية على وحدتها ، تلك الإمبراطورية التى خلقها نبوغه خلقاً ، فلماذا يحدث غالباً أن ينسل عظماء الرجال سلالة متوسطة القدرات والمواهب ؟ أيكون ذلك لأن البذور التى كانت قد أنتجت هؤلاء العظماء – أعنى امتزاج عناصر الأسلاف وممكنات البيئة الحيوية – إنما سارت مدفوعة بالمصادفة وحدها ، فمن الشطط أن نتوقع لها عودة إلى الظهور من جديد ؟ أم يكون ذلك لأن العبقرى يستنفد فى تفكيره وفى جهوده قوة كان يمكن أن يوجهها نحو رعاية أبنائه ، وذلك لا يبقى لورثته من بعده من دمه إلا أضعفه ؟ أم يكون ذلك لأن الأبناء ينحلون فى ظل النعمة واليسار ، فتحرمهم بحبوحة العيش فى سنهم الباكر الحوافز نحو الطموح والرقى ؟

على أن « جهان كير » لم يكن متوسط القدرات والمواهب بقدر ما كان منحلاً قادراً ؛ فقد ولد لأب تركى وأميرة هندية ، وانفتحت الفرص كلها التى تسنح لولى العهد ، فانغمس فى الخمر والدعارة ، وأطلق لنفسه العنان فى التمتع السادىّ بالقسوة على الآخرين ، وقد كان هذا الميل مجبولا فى فطرة أسلافه « بابور » و« همايون » و « أكبر » لكنهم دسّوه دساً فى دمائهم التترية ، فكان يمتعه أن يرى الناس يُسْلَخونَ أحياء ، أو تنْفَذُ فيهم « الخوازيق » أو يقذفون إلى الفيلة تمزّقهم تمزيقاً : وهو يروى لنا فى « مذكراته » أن سائسه

وطائفة من الخدم قدموا ذات يوم إلى ساحة صيده ، وكانوا من عدم الحذر بحيث أدى ظهورهم هناك إلى فزع الطرائد التى كان يتربص لها فى صيده ، حتى أفلتت منه تلك الطرائد ؛ فأمر بالسائس أن يقتل ، وبخدم السائس أن تخلخل رُكبهُم فيعيشوا أعمارهم كساحاً ؛ وهو يقول إنه بعد أن أشرف على تنفيذ أمره هذا « مضى صيده(١١٠) » ، ولما تآمر عليه ابنه « خسرو » جاء بسبعمائة من أنصار الثائر وأنفذ فيهم « الخوازيق » وصفّهم صفاً على امتداد الشوارع فى لاهور ، وهو يذكر لنا فى نشوة من السرور كم انقضى على هؤلاء الرجال من زمن حتى فاضت أرواحهم(١١١) ، وكان له حريم من ستة آلاف امرأة يرعين له حياته الجنسية(١١٢) لكنه فيما بعد انصرف إلى زوجة مفضلة ، هى « نورجهان »(*) ، التى ظفر بها بقتل زوجها ؛ وكان يسود حكومته عدل محايد لكنه قاس ؛ غير أنه إلى جانب ذلك قد أسرف فى نفقاته إسرافاً أبهظ أمة كانت قد أصبحت أغنى أمم الأرض طرا بفضل ما أبداه « أكبر » فى سياسته لها من حكمة ، وما أسداه عليها أمن طال أمده أعواماً كثيرة .

ولما دنا عهد « جهان كير » من ختامه ، زاد الرجل انغماساً فى خمره ، وأهمل واجباته الرسمية فى الحكومة ، فكان من الطبيعى أن تنشأ المؤامرات لملء مكانه ، وحدث فعلا سنة ١٦٢٢ أن حاول ابنه « جهان » أن يعتلى العرش ، ثم لما فاضت روح « جهان كير » جاء « جهان » هذا مسرعاً من الدكن حيث كان مختفياً ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ، وقتل كل إخوته ليضمن لنفسه راحة البال ؛ وقد ورث عن أبيه صفات الإسراف وضيق الصدر والقسوة ؛ فأخذت نفقات قصره والرواتب العالية التى كان يتقضاها موظفوه الكثيرون تزداد نسبتها بالقياس إلى دخل الأمة التى كانت تنتجه لها صناعة مزدهرة وتجارة نافقة ؛ وبعد التسامح الدينى الذى أبداه « أكبر » وعدم المبالاة التى

(*) معناها « نور العالم » وهى تسمى كذلك نور محل ومعناها « نور القصر » جهان جير معناها « فاتح العالم » وشاه جهان بالطبع معناها « ملك العالم » .

أظهرها « جهان كير » جاء « جهان » فعاد إلى العقيدة الإسلامية ، واضطهد المسيحيين ، وراح يحطم أضرحة الهندوس تحطيما واسع النطاق لا يعرف إلى الرحمة سبيلا .

وعوّض شاه جهان بعض نقائصه بسخائه لأصدقائه ، وكرمه للفقراء ، وبذوقه وتحمسه للفن مما حفزه إلى تزيين الهند بأجمل فن معمارى شهدته فى تاريخها السابق كله ، ثم بإخلاصه لزوجته « ممتاز محل » — ومعناها « زينة القصر » — ولقد تزوج منها وهو فى سن الحادية والعشرين ، بعد أن أنجب طفلين من خليلة أخرى ، وأنجبت « ممتاز » لزوجها الذى لم يعرف الكلل أربعة عشر طفلا فى ثمانية عشر عاماً ، ثم قضت نحبها فى سن التاسعة والثلاثين ، وهى تلد آخر هؤلاء الأبناء ، فأقام شاه « جهان » « تاج محل » وهو آية بلغت حد الكمال ، أقامه تخليداً لذكراها وذكرى خصوبتها ، ثم انتكس بعدئذ إلى دعارة مخجلة[١١٣] ، وهذا القبر الذى هو أجمل قبور الدنيا جميعاً ، إن هو إلا واحد من مائة آية فنية شيدها « جهان » ، خصوصاً ما شيده منها فى « أجرا » وفى « دلهى الجديدة » التى تمّتْ تحت إشرافه ، وإن ما كلّفته هذه القصور من مال ، وما غرقت فيه حاشية القصر من بذخ ، وما استنفده « عرش الطاووس » من أحجار كريمة(*) ليدل بعض الدلالة على ما فرض على الناس فى سبيل ذلك من ضريبة جاءت على الهند خراباً ، ومع ذلك كله ، ورغم ما شهدته الهند إبان عهد « شاه جهان » من مجاعة هى أسوأ ما مرّ بها فى تاريخها من مجاعات ، فقد كانت أعوامه الثلاثون التى قضاها فى الحكم بمثابة الأوج

(*) يتألف هذا العرش الذى تطلبت صناعته سبعة أعوام ، من جواهر ومعادن ثمينة وأحجار كريمة ، ولا شيء غير هذه ، فقوائمه الأربع من ذهب ، ويحمل سقفه المطلى بالميناء اثنا عشر عموداً من الزمرد ، وعلى كل عمود طاووسان مغطيان بالجواهر ، وبين كل طاووسين شجرة يغطيها الماس والزمرد والياقوت واللآلئ ، وبلغ مجموع التكاليف أكثر من سبعة ملايين ريال ، ولقد استولى « نادر شاه » على هذا العرش ونقله إلى فارس (١٧٣٩) وهناك أخذت أجزاؤه تنتزع شيئاً فشيئاً لتسد نفقات الأسرة المالكة فى فارس[١١٤] .

فى ازدهار الهند وعلو مكانتها ، لقد كان هذا الملك الشامخ بأنفه حاكماً قديراً ، ولئن أهلك أنفساً كثيرة فى حروبه الخارجية ، فقد هيأ لبلاده جيلا كاملا من السلام ، كتب حاكم بريطانى عظيم لبمباى ، هو « مونتستيوارت إلْفِنْسْتُون » يقول :

« إن من ينظر إلى الهند فى حالتها الراهنة قد يميل إلى الظن بأن الكتّاب الوطنيين إنما يسرفون فى وصف ثراء البلاد قديماً ؛ لكن المدن المهجورة والقصور الخاوية والقنوات المسدودة التى لا نزال نراها ، بما هناك من خزانات كبرى وجسور فى وسط الغابات ، والطرق المتهدمة والآبار ومحطات القوافل التى كانت على امتداد الطرق الملكية ؛ كل ذلك يؤيد شهادة الرحالة المعاصرين بحيث يميل بنا إلى العقيدة بأن هؤلاء المؤرخين كانوا يقيمون أقوالهم على سند صحيح »(٩١٥)

كان « جهان » قد بدأ حكمه بقتل إخوته ، لكن فاته أن يقتل أبناءه كذلك فكتب لأحد هؤلاء الأبناء أن يخلعه عن العرش وذلك هو « أورنجزيب » الذى أثار ثورة سنة ١٦٥٧ وجاء زاحفاً من الدكن ؛ فأمر الشاه — شأنه فى هذا شأن داود — أمر قواده أن يهزموا الجيش الثائر على أن يقتلوا ابنه إن وجدوا إلى إنقاذ حياته من سبيل ؛ لكن « أورنجزيب » غلب جميع الجيوش التى أرسلت لمحاربته ، وألقى القبض على أبيه وسجنه فى « حصن أجرا » حيث لبث الملك المخلوع تسعة أعوام يعانى مُرَّ العذاب ، لم يزره ابنه فى سجنه قط ، ولم يكن فى جواره من يرعاه سوى ابنته المخلصة « جهانارا » ، وكان ينفق أيامه جالساً فى برج الياسمين » مرسلا بصره عَبْرَ « جمنة » إلى حيث ترقد زوجته الحبيبة « ممتاز » فى قبرها المزدان بالجواهر .

على أن هذا الابن الذى خلع أباه على هذا النحو القاسى ، من أعظم القديسين فى تاريخ الإسلام ، بل ربما كان أمير الأباطرة المغول جميعاً بما كان ينفرد به من صفات ؛ فشيوخ الدين الذين تولوا تنشئته صبغوه بدين صبغاً حتى لقد فكر هذا الأمير الشاب يوماً فى أن ينفض يده من الإمبراطورية

بل من العالم كله ، ليعتزل الدنيا راهباً متعبداً ؛ ولبث حياته كلها - رغم طغيانه ودهاء سياسته وتوهمه بأن الأخلاق لا تكون إلا فى مذهبه الدينى - لبث حياته كلها رغم ذلك مسلماً ورعاً ، يقيم الصلاة وينفق فيها وقتاً طويلا ، ويحفظ القرآن كله ، ويجاهد فى قتال الكفار ؛ وما أكثر ما قضى من ساعات يومه فى عبادته ، وما قضى من أيام حياته صائماً ؛ وكان فى معظم الأحيان يخلص فى أداء شعائر دينه إخلاصه فى الدعوة إليها ؛ نعم لقد كان فى السياسة بارداً يقدر عواقب الأمور تقديراً دقيقاً ، وله قدرة على الكذب الماهر فى سبيل بلاده وربه ؛ لكنه مع ذلك كان أقل المغول قسوة وألطفهم مزاجاً ؛ قل القتل فى عهده ، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب فى محاكمة المجرمين ؛ وكانت شخصيته متسقة الجوانب فتواضع فى عزة وصبر فى وجه المعتدى ، وهدوء نفس فى أوقات المحنة ؛ وامتنع عن كل ما يحرمه دينه من ألوان الطعام والشراب وأسباب الترف امتناعاً كان يرقبه فيه ضميره ؛ وعلى الرغم من براعته فى عزف الموسيقى ، أقلع عنها لأنها ضرب من اللذة الحسية والظاهر أنه نفـــذ ما صمم عليه وهو ألا ينفق على نفسه إلا ما كسبت يداه بالعمل(١١٦) فكأنه كان بمثابة القديس أوغسطين أجلس على العرش .

كان « شاه جهان » قد خصص نصف دخله لترقية العمارة وغيرها من الفنون ، أما « أورنجزيب » فلم يعبأ بالفنون ، وهدم ما فيها من آثار « الكفر » مدفوعاً بتعصب دينى ساذج ، وظل خلال نصف القرن الذى حكم البلاد فيه ، يحارب فى سبيل محو الديانات كلها من الهند إلا ديانته ؛ وأمر عماله فى الأقاليم وغيرهم من أتباعه أن يقوضوا كل المعابد التى تتبع الهندوس أو المسيحيين ، وأن يحطموا الأصنام جميعاً ، وأن يغلقوا مدارس الهندوس بغير استثناء ، فكان من جراء ذلك أنه فى عام واحد (١٦٧٩ - ٨٠) هدم ستة وستين معبداً فى « عنبر » وحدها ، وثلاثة وستين معبداً فى « شيتور » ، ومائة وثلاثة وعشرين معبداً فى « أودايبور(١١٧) وأقام مسجداً إسلامياً(١١٨) فى مكان

معبد كان قائماً فى بنارس وكان موضع قدسية خاصة عند الهندوس ، بغية الإساءة المتعمدة إليهم ، وحرم إقامة الشعائر الهندوسية علناً ، وفرض ضريبة فادحة على كل هندى لم يعتنق الإسلام(١١٩) ، فكان من نتيجة هذا التعصب الدينى أن خربت ألوف المعابد التى كان يتمثل فى بنائها ، أو تحتوى داخل جدرانها فنون الهند مدى ألف عام ، فيستحيل علينا اليوم إذا ما أرسلنا الأبصار فى جنبات الهند ، أن نعلم شيئاً مما كان لها من جلال وجمال .

استطاع « أورنجزيب » أن يحول حفنة من جبناء الهندوسيين إلى الإسلام لكنه حطم أسرته وبلاده معاً ، ولئن عده بعض المسلمين على أنه من القديسين ، فقد عده ملايين الشعب الهندى الذى أخرست ألسنتهم وأرعبت قلوبهم ، شيطاناً رجيما ، وفروا من جباة ضرائبه وتضرعوا إلى الله داعين له بالموت ، نعم بلغت الإمبراطورية المغولية فى الهند أثناء حكمه أوج رفعتها ، إذ امتدت رقعتها إلى بطاح الدكن ، لكنها كانت قوية لا تقيم أساسها على حب الشعب ، وكان لا بد لها أن تنهار عند أول لمسة معادية قوية ، حتى لقد بدأ الإمبراطور نفسه فى أواخر سنيه يتبين أنه قد جلب الدمار إلى تراث آبائه بورعه الضيق الأفق ، وإن ما كتبه فى فراش موته من خطابات ، ليعد وثائق تساق لمأساتها ، يقول فيها :

« لست أدرى من أنا ، ولا إلى أين يكون مصيرى ولا أعلم ماذا عساه أن يصيب هذا الآثم الملىء بالذنوب ... لقد انقضت أعوامى بغير غناء ، كان الله ماثلا فى قلبى ، لكن عينى المظلمتين لم يشهدا نوره . . ليس لى فى المستقبل رجاء ، لقد ذهبت عنى الحمى ، لكن لم يعد لى من الجسد إلا إهابه لقــد كنت كبير الإثم ولست أدرى أى عذاب أنا ملاقيه . . . . . وعليك سلام الله(١٢٠) » .

وأمر قبل موته أن تكون جنازته بسيطة إلى حد الزهد ، وألا ينفق فى كفنه إلا الروبيات الأربع التى كسبها بحياكة الطواقى ، وأن يغطى نعشه بقطعة

من « الحيش » الساذج ؛ وترك للفقراء ثلاثمائة روبية كسبها بنسْخِه صورةً من القرآن(١٢١)، ومات وعمره تسعة وثمانون عاماً ، بعد أن عُمِّر على الأرض أمداً أكثر جداً مما أراد له أهل الأرض أن يعيش .

ولم تمض بعد موته سبعة عشر عاماً حتى تحطمت إمبراطوريته إرباً إرباً ؛ وكان ما كسبه « أكبر » بحكمته من مناصرة الناس للحكومة ، قد أضاعه « جهان كير » بقسوته ، و« جهان » بإسرافه و« أورنجزيب» بتعصبه؛ وكانت الأقلية المسلمة قد انهدمت قواها بحرارة الهند ، وفقدت النخوة العسكرية والقوة الجسدية التى كانت لها أيام شبابها ، ولم تأت إليها حملات جديدة من الشمال تشد أزر قواها المنهارة ، ثم حدث فى الوقت نفسه أن بعثت جزيرة صغيرة نائية فى الغرب بطائفة من تجارها لتحصد ما فى الهند من كنوز ، ولم تلبث بعدئذ أن أرسلت مدافعها لتستولى على هذه الإمبراطورية الفسيحة الأرجاء ، التى تعاون فيها الهندوس والمسلمون على بنيان حضارة من حضارات التاريخ الكبرى .

الباب السابع عشر

حياة الشعب (*)

الفصل الأول

منتجو الثروة

البداية فى الغابة — الزراعة — التعدين — الصناعات اليدوية — التجارة — المـال — الضرائب — المجاعات — الفقر والغنى

لم تتلق تربة الهند بذور المدنية عن رضى ، فقد كان شطر عظيم منها تغطيه الغابات التى تسكنها وتذود عنها سباع ونمور وفيلة وثعابين وغيرها من الكائنات الفردية غير الاجتماعية التى تزدرى المدنية على مذهب روسو ؛ فقام صراع حيوى لانتزاع الأرض من هذه الأعداء ، ودام الصراع متخفيا وراء ستار الحركات الاقتصادية والسياسية جميعاً ؛ فقد كان « أكبر » يصيد النمور بالقرب من « مأثوره » ويمسك بالفيلة المتوحشة فى أماكن كثيرة تخلو منها اليوم خلو تاماً ؛ وقد كنت تصادف الأسد إبان العصور الفيدية أينما سرت فى الشمال الغربى من الهند أو فى أجزائها الوسطى ، أما اليوم فلا يكاد يوجد فى شبه الجزيرة كلها ؛ ولكن الثعبان وصنوف الحشرات لا تزال هناك ماضية فى حربها ؛ ففى سنة ١٩٢٦ فتكت الحيوانات المفترسة من الهنود بما يقرب من ألفين (من بين هؤلاء ٨٧٥ قتلتهم النمور الضارية فى أرجاء البلاد ، أما سم الأفاعى فقد أودى بعشرين ألفاً من الهنود ذلك العام(1) .

(*) ينطبق التحليل الآتى إلى حد كبير جداً على الهند بعد عصر الفيدا وقبل الحكم البريطانى ؛ وليذكر القارىء أن الهند اليوم فى تغير دائم ، وأن النظم والأخلاق وأساليب العيش التى كانت تميزها فيما مضى ، قد تكون فى طريقها إلى الزوال اليوم .

ولما خلصت الأرض على مر الزمن من الكواسر ، تحولت إلى حقول يزرع فيها الأرز والقطانى والذرة والخضر والفواكه ؛ فلقد رضيت الكثرة الغالبة من السكان خلال الشطر الأعظم من تاريخ الهند بعيش متواضع قوامه هذه الأغذية الطبيعيـــة ، وكانوا يخففون اللحم والسمك والطيور لطائفتى المنبوذين والأغنياء(*)(٤) ، ولكى يجعلوا طعامهم أشهى — أو ربما أرادوا معونة أفروديت(٣) — زرعوا وأكلوا مقداراً غير مألوف فى سائر البلاد من التوابل ، مثل البهار الهندى والزنجبيل والقرنفل والقرفة ، ولقد صادفت هذه التوابل تقديراً عظيما عند الأوروبيين حتى لقد انطلقوا فى البحار سعياً وراءها فوقعوا على نصف الكرة الأرضية الذى كان مجهولا ، مع أننا جميعاً نظن أن أمريكا قد كشفت لتكون للحب مسرحاً ، كانت الأرض فى العصور الڤيدية ملكاً للشعب فى الهند(٤) ومنذ أيام « شاندرا جوبتا موريا » أصبح العرف بين الملاك أن يطالبوا لأنفسهم بملكية الأرض كلها ، ثم يؤجرونها للزراع مقابل أجر وضريبة يدفعان كل عام(٦) وكان الرى فى العادة من واجبات الحكومة ، ولقد ظل أحد السدود التى شيدها « شاندرا جوبتا » حتى سنة ١٥٠ ميلادية ، ولا نزال نشاهد آثار القنوات القديمة فى شتى أرجاء الهند ، كما تشاهد أثار البحيرة التى احتفرها احتفاراً « راج سنج » — راجپوت رانا فى موار — لتكون خزاناً لمياه الرى (١٦٦١) وأحاطها بحائط من المرمر طوله اثنا عشر ميلا(٧) .

والظاهر أن قد كان الهنود أول شعب استنجم الذهب(٨) فيحدثنا هيرودوت(٩) والمجسطى(١٠٤) عن « النمل الكبير الذى يحفر الأرض طلباً للذهب ، وهو أصغر قليلا فى حجمه من الكلاب ؛ لكنه أكبر من الثعالب » وقد عاون هذا النمل عمال المناجم فى إخراجهم للذهب ، وذلك حين يخدش

(*) كانت ڤيجايا ناجار شذوذاً فى القاعدة ، لأن أهلها كانوا يأكلون لحوم الطير والحيوان (ويحرمون منها البقرة والأبقار) كما يأكلون الضب والفئران والقطط(٤) .

الرمل فيظهر الذهب الدفين (*) ولقد كانت الهند مصدراً لكثير من الذهب الذى استخدم فى إمبراطورية فارس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كذلك استنجمت هناك الفضة والنحاس والرصاص والقصدير والزنك والحديد - وكان استنجام الحديد فى وقت باكر من التاريخ إذ كان فى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد(١١) ؛ وارتقت صناعة طرق الحديد وصبه فى الهند قبل ظهورها المعروف لنا فى أوربا بزمن طويل ؛ فمثلا أقام « فكرامادتيا » (حوالى سنة ٣٨٠ ميلادية) فى دلهى عموداً من حديد لا يزال محتفظاً ببريقه حتى اليوم ، بعد أن انقضى عليه خمسة عشر قرناً ؛ ولا يزال سر احتفاظه ببريقه من عوامل الصدأ والتآكل ، الذى يرجع إلى نوع المعدن ذاته أو إلى طريقة طرقه وصبه ، لا يزال ذلك لغزاً يحير علم المعادن الحديث(١٢) : وقد كان صهر الحديد فى أفران صغيرة توقد بالفحم من كبرى صناعات الهند قبل الغزو الأوربى لتلك البلاد (١٣) لكن هذه الصناعة الهندية لم تصمد لمقاومة مثيلتها فى أوربا ، لأن الثورة الصناعية فى أوربا علمتها كيف تؤدى هذه الصناعة بنفقات قليلة وعلى نطاق واسع ، ولم يعد الناس من جديد إلى استغلال الموارد المعدنية الغنية فى الهند واستكشافها إلا فى يومنا هذا(١٤) .

وظهرت زراعة القطن فى الهند فى عصر سابق لظهوره فى أى بلد آخر ، والأرجح أنه كان ينسج قماشاً فى « موهنجو دارو »(١٥) يقول هيرودوت نص هو أقدم ما بين أيدينا من مراجع عن القطن ، يقول فى جهل ممتع : « وهناك أشجار حوشية تثمر الصوف بدل الفاكهة ، وصوفها يفوق صوف الأغنام جودة وجمالا ؛ ويصنع الهنود ثيابهم من هذه الأشجار »(١٦) ، فلما شن الرومان حروبهم فى الشرق الأدنى ؛ عرفوا هذا « الصوف » الذى تثمره الأشجار(١٧) ؛ وروى لنا الرحالة العرب الذين زاروا الهند فى القرن التاسع بأنه « فى هذه البلاد يصنع الناس أثواباً يبلغون بها درجة من الكمال لا تصادف

(*) لسنا ندرى ما قصة هذا النمل ، لكن الأرجح عندنا أن المقصود حيوانات آكلة النمل ، لا النمل ذاته .

لها مثيلا فى أى مكان آخر — فهى من الحياكة والغزل على درجة من الرقة تسمح لك أن تُنْفذ الثوب من خاتم متوسط الحجم »(١٨) ، ونقل العرب فى العصر الوسيط هذا الفن عن الهند ، ومن الكلمة العربية « قطن » أخذنا نحن كلمتنا الإنجليزية(١٩) وكلمة « موسلين » أطلقت بادئ ذى بدء على الغزل الرقيق الذى كان يصنع فى الموصل على غرار النماذج الهندية ، وكذلك كلمة « كالكو » (أى البَفْتة) أطلقت على مسماها لأن هذا الصنف من القماش جاءنا لأول مرة (١٦٣١) من مدينة كلكتا الواقعة على شواطىء الهند الجنوبية الغربية ؛ ويحدثنا « ماركوپولو » عن « جوچارات » فى سنة ١٢٩٣ ميلادية فيقول : « إنهم هنا يطرزون بالوشى على نحو من الدقة لا يبلغه أى بلد من بلاد العالم »(٢٠) وما تزال « شيلان » كشمير و « سجاجيد » الهند شاهدة حتى اليوم على براعة النسج الهندى من حيث حبك الديباجة وتصميم الزخارف(*) ، على أن النسج لا يعدو أن يكون واحداً من صناعات يدوية كثيرة فى الهند ، والنساجون إن هم إلا فئة واحدة من فئات الصناعة والتجارة التى أشرفت على تنظيم الصناعة فى الهند وإخضاعها لقواعد وأصول ، ونظرت أوربا إلى الهنود نظرتها إلى الخبراء فى كل ضروب الصناعة اليدوية تقريبا — صناعة الخشب وصناعة العاج وصناعة المعادن وتبييض القماش والصباغة والدبغ وصناعة الصابون ونفخ الزجاج والبارود والصواريخ النارية والأسمنت ؛ وغيرها(٢١) واستوردت الصين من الهند مناظير سنة ١٢٦٠ ميلادية ويصف لنا ، « برتييه » الرحالة الذى جاب الهند فى القرن السابع عشر يصف لنا الهند بأنها تطِنُّ بأصوات الصناعة طنيناً ؛ وكذلك رأى « فِنْشى » سنة ١٥٨٥ أسطولا من مائة وثمانين مركباً تحمل متنوعات شتى من السلع على نهر جمنة .

(*) راجع السجادة الحمراء التى ترجع إلى القرن السابع عشر فى الهند ، والتى أهداها مستر چ . ب مورجن لمتحف الفن العاصمى (غرفة د ٣)

وازدهرت التجارة الداخلية ، حتى لقد كانت جوانب الطرقات — وما تزال — أسواقاً للبيع والشراء ؛ أما تجارة الهند الخارجية فهي من القدم مثل تاريخها[٢٢] فهناك آثار وجدناها في سومر وفي مصر تدل على تبادل تجاري بين هذين القطرين والهند ، في عهد ليس أحدث تاريخاً من سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد[٢٣] ؛ وازدهرت التجارة بين بابل والهند عن طريق الخليج الفارسي بين عامي ٧٠٠ ، ٤٨٠ قبل الميلاد ؛ ومن يدري فلعل « العاج والقردة والطواويس » التي جاء بها سليمان ، إنما جاءت من المورد نفسه وعن نفس الطريق ؛ وأخذت سفن الهند تشق البحار إلى بورما والصين في عهد « شاندرا جوبتا » وازدحمت أسواق الهند « الدراڤيدية » بالتجار اليونان الذين أطلق عليهم الهنود اسم « ياڤانا » (أي الأيونيين) ، وكان ذلك في القرون التي سبقت والتي لحقت مولد المسيح[٢٤] ؛ وكذلك اعتمدت روما في أيام ترفها المادي ، على الهند في استيراد التوابل والعطور والدهون ، ودفعت أثماناً عالية فيما ابتاعته من الهند من حرير ووشي وموصلي وأثواب الذهب ، حتى لقد اتهم « پلني » روما بالإسراف لأنها كانت تنفق كل عام خمسة ملايين دولار على ما تستورده من الهند من أسباب الترف ؛ وكانت روما تستعين كذلك بالفهود والنمور والفيلة التي تأتي بها من الهند، على إقامة ألعابها في المصارعة ، وتأدية طقوس القرابين عند الكولوسيوم[٢٥] ؛ وما حاربت روما الحرب البارثية إلا ليظل لها طريق التجارة إلى الهند مفتوحاً ؛ ثم حدث في القرن السابع أن استولى العرب على فارس ومصر ، ومنذ ذلك الحين أخذت التجارة بين أوروبا وآسيا تمر خلال أيدي المسلمين ، ومن ثم قامت الحروب الصليبية ، وظهر كولمبس ، وانتعشت التجارة الخارجية من جديد في ظل المغول ؛ ولهذا ازدهرت بالغنى مدينة البندقية ومدينة جنوا وغيرهما من المدن الإيطالية ، بسبب قيامها بما تقوم به الموانى للتجارة الأوروبية مع الهند والشرق ؛ وإن النهضة الأوروبية لتدين للثروة التي جاءت بها هذه التجارة ، أكثر مما تدين للمخطوطات التي جاء بها اليونان إلى إيطاليا ؛ وكان

« لأكبر » إدارة بحرية تشرف على بناء السفن وتنظم حركة الملاحة فى المحيطات فاشتهرت موانى بنغال والسند ببناء السفن ، وبلغت تلك الموانى بهذه الصناعة حداً من الإتقان حدا بسلطان القسطنطينية أن يصنع سفنه هناك بدل صناعتها فى الإسكندرية ، لقلة النفقات هناك ؛ بل إن « شركة الهند الشرقية » ذاتها بنت كثيراً من سفنها فى موانى البنغال(٢٦) .

واستغرق تطور النقد الضرورى لتيسير هذه التجارة عدة قرون ؛ ففى أيام بوذا كانت قطع النقد مستطيلة الشكل غليظة الصنعة ، وكانت تصدرها سلطات اقتصادية وسياسية مختلفة ، ولم تصل إلى الهند مرحلة النقد الذى تضمن الحكومة قيمته إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد ، بتأثير فارس واليونان(٢٧) فأصدر « شرشاه » قطعاً نقدية جميلة الشكل من النحاس والفضة والذهب ، جعل الروبية العملة الأساسية فى أرجاء المملكة(٢٨) .

وفى عهد « أكبر » و « جهان كير » كانت قطع النقود فى الهند أرقى من مثيلاتها فى أية دولة أوربية حديثة من حيث تصميم شكلها من الوجهة الفنية ، وصفاء معدنها(٢٩) ، وكما كانت الحال فى أوروبا فى العصور الوسطى ، كذلك كانت فى الهند فى تلك العصور ، من أن نمو الصناعة والتجارة قد عاقته هنا وهناك كراهة دينية للربا .

يقول المجسطى : « إن الهنود لا يقرضون مالهم بالربا ولا هم يعرفون كيف يقترضون ؛ وإنه لما يجافى الأوضاع المقررة عند الهندى أن يقترف الخطأ فى حق غيره أو أن يحتمل الإيذاء من غيره ، ولهذا تراهم لا يبرمون عقوداً ولا يطلبون الضمانات(٣٠) » :

فإذا ما عجز الهندى عن استغلال ما ادخره فى مشروعاته التى يقوم بها بنفسه ، آثر أن يخفيه أو أن يشترى به جواهر لكونها ثروة يسهل إخفاؤها(٣١) ، ولعل عجزهم هذا عن اصطناع نظام ييسر القروض كان مما عاون « الثورة الصناعية » أن تمهيد سبيل السيطرة الأوروبية على آسيا ؛ ومع ذلك فعلى الرغم

من كراهة البراهمة للاقتراض ، أخذت عمليات الاقتراض تزداد شيئاً فشيئاً ، وكانت نسبة الربح تختلف باختلاف الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المقترض من اثني عشرة إلى ستين في المائة ، وكان المتوسط في جملته عشرين في المائة[٣٢] ، ولم يكن الإفلاس يتخذ وسيلة لتصفية الديون ، وإذا مات مدين عن دين ، كان على أبنائه وأبناء أبنائه إلى الجيل السادس أن ينوبوا عنه في الوفاء بذلك الدين[٣٣] :

وفرضت ضرائب باهظة على الزراعة والتجارة تدعيماً لأركان الحكومة ، وكان على الفلاح أن يتنازل من محصوله عن مقدار يتراوح بين سدسه ونصفه ، وكذلك فرضت ضرائب كثيرة على تبادل السلع وإنتاجها كما كانت الحال في أوروبا في عصورها الوسطى ، وفي أوروبا في عصرنا القائم[٣٤] ، وجاء « أكبر » فرفع ضريبة الأراضي إلى ثلث المحصول ، لكنه لقاء ذلك ألغى كل صنوف الضرائب الأخرى[٣٥] ، ولئن كانت هذه الضريبة على الأرض باهظة ، إلا أن من حسناتها أنها كانت ترتفع مع ازدهار المحصول وتهبط مع الأزمات ، وإذا ما أصيبت البلاد بمجاعة ، فقد كان الفقراء — على الأقل — يموتون دون أن تفرض عليهم الضرائب ، ولم تخلُ البلاد من سني المجاعة حتى في أيام « أكبر » ذات الرخاء (١٥٩٥—٨) ، والظاهر أن مجاعة سنة ١٥٥٦ أدت بالناس إلى أكل اللحوم البشرية وإلى الخراب الشامل ، إذ كانت الطرق رديئة والمواصلات بطيئة الحركة ، فلم يكن يسيراً على فائض منطقة من المناطق أن يطعم أخرى مما أصيب بالقحط .

وكما هي الحال في كل أرجاء العالم ، كان في الهند إذ ذاك تفاوت واسع بين الفقر والغنى ، ولكنه لم يبلغ ما يبلغه اليوم في الهند أو أمريكا ، ففي أسفل السلَّم كانت هناك أقلية صغيرة من العبيد ، ويتلوهم صعوداً فئة « الشودرا » الذين لم يكونوا عبيداً بقدر ما كانوا مأجورين على عملهم ، ولو أن منزلتهم الاجتماعية كأجراء ، كانت تورث ، كما هي الحال في سائر المنازل الاجتماعية

بين الهنود ؛ وكان الفقر الذى وصفه « الأب دِبْوَا » (١٨٢٠)[٣٦] نتيجة الخمسين عاماً من الفوضى السياسية ؛ ولو أن حالة الشعب فى ظل المغول كانت مزدهرة نسبياً[٣٧] ، فلئن كانت الأجور متواضعة تتراوح بين ما يساوى ثلاث سنتات (السنت عملة أمريكية تساوى أربع مليمات) وتسعاً كل يوم فى عهد « أكبر » إلا أن الأثمان كانت بخسة بما يقابل تلك الأجور القليلة ؛ ففى سنة ١٦٠٠ كانت الروبية (وهى تساوى فى المتوسط ٣٢٫٥ سنت (تشترى ١٩٤ رطلا من القمح أو ٢٨٧ رطلا من الشعير ؛ وأما فى سنة ١٩٠١ فلم تكن الروبية تشترى إلا ٢٩ رطلا من القمح أو ٤٤ رطلا من الشعير[٣٨] ؛ ولقد وصَفَ الحالة إنجليزى سكن الهند سنة ١٦١٦ فوصف « وفرة المواد كلها » بأنها « وفرة عظيمة جداً فى طول البلاد وعرضها » .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن كل إنسان هناك فى مستطاعه أن يجد زاده من الخبز فى وفرة لا تعرف قحطا[٣٩] » . وقال إنجليزى آخر طاف بالهند فى القرن السابع عشر : « إن نفقاته كانت تبلغ فى المتوسط أربع سنتات كل يوم[٤٠] » .

بلغت ثروة البلاد ذروتها فى عهد « شاندرا جوبتا موريا » و « شاه جهان » فقد ضربت الأمثال فى أرجاء العالم كله بثروة الهند فى ظل ملوك « جوبتا » ؛ وصور « يوان شوانج » مدينة هندية بقوله إنها جميلة تزينها الحدائق وأحواض الماء ، ومعاهد الآداب والفنون ، « وسكانها من ذوى اليسار وبينهم أُسَرٌ على ثراء عظيم ؛ وتكثر بالمدينة الفاكهة والأزهار ... وللناس مظهر رقيق يلبسون أردية الحرير اللامعة ، وحديثهم ... واضح يوحى بالمعانى ، وهم منقسمون نصفين متعادلين ، نصف يتبع الأرثوذكسية فى الدين ، ونصف آخر يمقت هذه الرجعية الدينية »[٤١] ، ويقول « إلفِنْستون » : « إن الممالك الهندية التى ثل المسلمون عروشها كانت من الثراء بحيث كلَّ المؤرخون عن ذكر ما غنمه الغزاة هناك من جواهر هائلة المقدار ونقود كثيرة »[٤٢] ، ووصف « نِكُولو كونتى » ضفاف الكنج (حوالى سنة ١٤٢٠) فقال إنها تمتلىء بصف من

المدن الزاهرة واحدة فى إثر أخرى ، وكلها حسن التخطيط غنى بالحدائق والبساتين والفضة والذهب والتجارة والصناعة[٤٣] ، وكانت خزينة «شاه جهان» مفعمة بما فيها حتى لقد احتفر تحت الأرض غرفتين قويتين ، سعة كل منهما ١٥٠,٠٠٠ قدما مكعبة ، وتكاد تمتلىء بالفضة والذهب[٤٤] ويقول « ڤنسنت سمث » : « إن الشواهد المعاصرة لذلك الزمن لتقطع باليقين الذى لا يعرف الشك أن سكان الحضر الذين كانوا يسكنون أهم المدن ، كانوا من ذوى اليسار »[٤٥] ، ووصف الرحالة مدينتى « أجرا » و « فتحبور سكرى » بأن كلا منهما أعظم من لندن وأعرض منها ثراء[٤٦] ؛ ولقد ألفى « أنكتيل دُوپرون » نفسه حين طاف بأقاليم « الماهاراتا » سنة ١٧٦٠ « وسط العصر الذهبى ببساطته وسعادته ... فقد كان الناس باسمين أقوياء فى صحة جيدة[٤٧] » ، وزار « كلايف » مرشد أباد سنة ١٧٥٩ فقال إن تلك العاصمة القديمة للبنغال تساوى لندن التى عرفها فى عصره مساحة وعدد سكان وثراء ، وفيها من القصور ما لا تقاس إليه قصور أوربا . ومن الأغنياء رجال لا يدنو منهم غنىٌ فى لندن[٤٨] ، ويقول « كلايف » : كانت الهند قطراً لا ينفد ثراؤه»[٤٩] ، ولقد حاكمه مجلس النواب على الإسراف فى الأموال التى اغتصبها لنفسه ، فدافع كلايف عن نفسه فى براعة ، إذ جعل يصف الغنى الذى وجد نفسه محاطاً به فى الهند — فمدنٌ غنية تعرض عليه أى مبلغ أراد لينجيها من فوضى النهب ، وأغنياء يفتحون له أسرابا تكدس فيها الذهب والجواهر أكداساً أكداساً ليأخذ منها ما أراد ، ثم ختم دفاعه قائلا : « إننى فى هذه اللحظة أقف هاهنا دهشاً كيف قنعت بالقليل الذى أخذت »[٥٠] .

الفصل الثانى

تنظيم المجتمع

الملكية – القانون – تشريع مانو – تطور نظام الطبقات – نشأة البراهمة – امتيازاتهم ونفوذهم – واجباتهم – دفاع عن نظام الطبقات

لما كانت الطرق رديئة والمواصلات عسيرة ، كان غزو الهند أيسر من حكمها ؛ فلقد حتّمت طبيعة سطحها أن تظل هذه البلاد الشبيهة بأن تكون قارة بأسرها ، خليطاً من دويلات مستقل بعضها عن بعض ، حتى جاءتها السكك الحديدية فوصلت ما تفرق من أجزائها ؛ وفى مثل هذه الظروف لا يمكن لحكومة أن تضمن لنفسها البقاء إلا بجيش قوى ؛ ولما كان الجيش بحاجة إلى قائد مستبد الرأى ليحكمه بكلمة منه دون التأثر بفصاحة الكلام يقوله غيره فى شئون السياسة ، فإن صورة الحكومة التى تكونت فى الهند هى الملكية بطبيعة الحال ؛ ولقد تمتع الناس بقدر كبير من الحرية فى ظل الأسرات الحاكمة الوطنية ، وذلك من جهة يرجع إلى الاستقلال الذاتى الذى كانت تتمتع به القرى فى الريف ونقابات العمال فى المدن ، كما يرجع من جهة أخرى إلى القيود التى فرضتها الطبقة الارستقراطية البرهمية على سلطة الملك[٥١] ؛ وإنك لتجد فى قوانين « مانو » تعبيراً عن الأفكار الرئيسية فى الهند عن الملكية ، على الرغم من أن تلك القوانين أقرب إلى التشريع الخلقى منها إلى التشريع القانونى لأوضاع الحياة الجارية ؛ فعندهم أن الملكية ينبغى أن تكون قوية الشكيمة فى حياد ، وأن ترعى مصالح الناس رعاية الوالد لولده[٥٢] ؛ غير أن الحكام المسلمين كانوا أقل مبالاة من أسلافهم الهنود بهذه المثل العليا وهذه القيود ، لأنهم كانوا أقلية فاتحة ، فأقامت حكمها صراحة على تفوقها العسكرى ؛ فيقول مؤرخ مسلم فى وضوح جميل : إن

الجيش هو عدة الحكومة وعتادها(٥٣) » ، وقد كان « أكبر » شذوذاً في هؤلاء الحكام المسلمين ، لأنه اعتمد قبل كل شيء على رضى الشعب لازدهاره ، تحت حكومته المستبدة في اعتدال ورحمة ؛ ولعل حكومته في ظروفها كانت خير حكومة يمكن قيامها ؛ وأهم عيوبها — كما أسلفنا — هو اعتمادها على شخصية الملك ، لأن السلطة العليا المرتكزة في يد الحاكم كانت خيراً في عهد « أكبر » لكنها كانت شراً مستطيراً في عهد « أورنجزيب » ؛ ولما كان الحكام الأفغان والمغول قد ارتفعوا إلى سلطانهم بالعنف ، فقد كانوا دائماً عرضة إلى الهبوط عن سلطانهم بالاغتيال ، وكادت الحروب التي تُشَنّ ليحلّ ملك مكان آخر ، تكلف من النفقات ما تكلفه الانتخابات في عصرنا الحديث ، ولو أن تلك الحروب لم تكن عقبة في سبيل اطراد الحياة الاقتصادية كما هي الحال مع انتخاباتنا اليوم(*) .

لم يكن القانون في ظل الحكام المسلمين إلا إرادة الإمبراطور أو السلطان ؛ أما في ظل الملوك الهنود فقد كان مزيجاً مضطرباً من الأوامر الملكية ومن تقاليد القرى وقواعد الطبقات وكان الذي يتولى القضاء رئيس

(*) إن قصة اغتيال ناصر الدين لأبيه غياث الدين سلطان دلهي بالسم (١٥٠١) توضح الفكرة الإسلامية عن الاستيلاء على العرش بطريقة سلمية ، وها هو ذا « جهان كير » الذي لم يدخر وسعاً في إنزال أبيه « أكبر » عن عرشه ، يقص القصة :

« وبعد ذلك ذهبت إلى البناء الذي يحتوي على أضرحة الحكام الخالجيين ، وكان بينهما قبر ناصر الدين الذي وصم وصمة العار إلى الأبد ، فكلنا يعرف أن هذا المنكود قد ارتقى إلى العرش باغتيال أبيه ، فجرّعه السم مرتين ، واستطاع أبوه في كلتا الحالتين أن يطهر آثار السم بترياق كان يحمله على ذراعه ؛ وفي المرة الثالثة مزج الإبن قطرات السم بكوب من الشراب وقدمه إلى أبيه بنفسه ... ولما كان أبوه يعلم ما يبذله ابنه من جهود في سبيل التخلص منه ، فقد نزع عن ذراعه التميمة وقذف بها أمامه ، ثم أدار وجهه في خضوع وخشوع إلى عرش الخالق وقال : اللهم إني قد بلغت من العمر ثمانين عاماً أنفقتها في ازدهار وسعادة لم يتمتع بمثلهما ملك قبلي ؛ ولما كانت هذه آخر لحظات حياتي ، فأضرع إليك اللهم ألا تحول بين ناصر وبين قتلي ، وأن تعد موتي أمراً من أمرك فلا تنتقم لي منه » ؛ وبعد أن فاه بهذه الكلمات جرع ذلك الكوب من الشراب المسموم بجرعة واحدة وأسلم روحه إلى ربه .

ويضيف « جهان كير » الفاضل إلى ذلك قوله . « ولما ذهبت إلى قبره (أي قبر ناصر) ، ركلته عدة ركلات »(٥٤) .

الأسرة ، أو رئيس القرية ، أو شيوخ الطبقة ، أو محكمة النقابة ، أو مدير الإقليم أو وزير الملك أو الملك نفسه(٥٥) على أن المحاكمة كانت سريعة الإجراء سريعة الحكم ، ولم تعرف البلاد نظام المحاماة فى القضايا على أيدى رجال القانون إلا بعد قدوم البريطانيين(٥٦) وكان التعذيب مألوفاً فى عهود الأسرات الحاكمة كلها حتى ألغاه « فيروزشاه »(٥٧) والموت هو العقوبة فى عدد كبير جداً من الجرائم ، فقد كانوا يعاقبون به سرقة المنازل وإتلاف أملاك الملك الخاصة ، أو السرقة على النطاق الذى نراه اليوم يجعل من السارق عموداً من عمدان المجتمع وكانت سائر ألوان العقاب قاسية تشمل بين أنواعها بتر الأيدى والأقدام والأنوف والآذان وفقء الأعين وصب الرصاص المصهور فى الحلوق وتهشيم عظام الأيدى والأقدام بمطرقة خشبية وإحراق الجسم بالنار وإنفاذ المسامير فى الكفوف والأقدام والصدور ، وقطع أعصاب المفاصل ونشر الناس بمناشير الخشب ثم قطع جسومهم أجزاء وإنفاذ القضبان المسنونة فيهم وشَيّهم على النار أحياء وقذفهم تحت أقدام الفيلة لتدقهم دقاً حتى يموتوا أو رميهم فريسة للكلاب المتوحشة الجائعة(*)(٥٨) .

ولم يكن هناك تشريع قانونى واحد يشتمل الهند بأسرها ، فكان يحل محل القانون فى شئون الحياة اليومية ما يسمونه « ذارماشاسترا » أى النصوص العرفية التى تفصل ما للطبقات من نظم وواجبات ، والذى كتب هذه النصوص رجال من البراهمة ، كتبوها من وجهة نظر برهمية خالصة ، وأقدم هذه النصوص ما يسمى « بتشريع مانو » ، ومانو هذا هو السلف الأسطورى الذى تسلسلت عنه جماعة المانوية (أو مدرستها الفكرية) المؤلفة من براهمة بالقرب من دلهى ؛ وقد صورته هذه النصوص ابناً لله يتلقى القوانين من براهما نفسه(٥٩) وهذا التشريع مؤلف من ٢٦٨٥ بيتاً من الشعر ، كانوا يرجعونه إلى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد . لكن الباحثين اليوم يردونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح(٦٠)

(*) وتجد فى كتاب ديبوا ص ٦٥٩ أنواعاً من العقاب أدق من هذه فى إظهار روح الشر .

ولقد أريد بهذا التشريع بادئ الأمر أن يكون بمثابة الدليل أو الكتاب الصغير الذى يرشد براهمة المانوية هؤلاء إلى أوضاع السلوك الصحيح ، لكنه أخذ على التدريج يتطور فيصبح تشريعاً يحدّد قواعد السلوك للمجتمع الهندى كله ، وعلى الرغم من أن ملوك المسلمين لم يعترفوا به قط ، إلا أنه اكتسب كل ما للقانون من قوة داخل حدود نظام الطبقات ، وستتبين خصائص هذا التشريع إلى حدما خلال الصفحات الآتية بما أوردناه فيها من تحليل للمجتمع الهندى وأخلاقه ، لكنه على وجه العموم كان يتسم بمظهر خرافى من حيث قبوله لمبدأ المحاكمة بالمحنة(*) وتطبيقه تطبيقاً متزمتاً لقانون العين بالعين والسن بالسن ، وإشادته مرة بعد مرة بطبقة البراهمة فى فضائلها وحقوقها ونفوذها(٣٦) وكان من تأثير هذا الكتاب أن زاد زيادة عظيمة من سيطرة نظام الطبقات على المجتمع الهندى .

كان هذا النظام الطبقى قد ازداد تزمتاً وتعقيداً منذ العصر الفيدى ، لأن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها أن تزيد تلك النظم صلابة على مر الزمن ، ولأن اجتياح الهند — من جهة أخرى — بالشعوب الأجنبية والعقائد الخارجية قد زاد من صلابة نظام الطبقات ليقوم سداً قوياً يحول دون امتزاج دم المسلمين بدم الهنود ، فقد كان أساس الطبقات فى العصر الفيدى هو اللون ، ثم أصبح الأساس فى العصور الوسطى الهندية هو المولد ، وكان معنى التقسيم الطبقى شيئين ،

(*) « الأب ديبوا » صادق على الجملة ، على الرغم من عدم عطفه على الهنود ، وهو يصور لنا المحن التى كانوا ينزلونها بالمتهمين فى عصره (١٨٢٠) فيقول : « وهناك أنواع أخرى كثيرة للمحاكمة بالمحن ، منها أن يغلى الزيت ممزوجاً بروث البقرة وعلى المتهم أن يدس فيه ذراعه حتى المرفق ؛ ومنها محنة الثعبان ، وتفصيلها أن يوضع ثعبان من أخطر الثعابين سما فى سلة مقفلة ، ويضعون فى السلة خاتماً أو قطعة من النقود ، وعلى المتهم أن يخرج هذه القطعة أو ذاك الخاتم وعيناه معصوبتان ؛ فإذا لم يُصب جلده بحروق فى الحالة الأولى ، أو إذا لم يعضه الثعبان فى الحالة الثانية ، عد ذلك برهان براءته القاطع »(٦٢) .

معناه من جهة وراثة الوضع الاجتماعى ، ومعناه من جهة أخرى قبول كتاب « ذارما » — أى قبول ما تفرضه التقاليد على أفراد كل طبقة من التزامات وصنوف أعمال .

وعلى رأس الطبقات وأكبر المستفيدين من نظامها ، هم الثمانية الملايين من ذكور طبقة البراهمة[٦٤] ؛ وكانت طبقة البراهمة هذه قد أصابها الضعف حيناً من الزمن بسبب نهضة البوذية فى عهد « أشوكا » لكن البراهمة بما كان لهم من دأب وصبر يتصف بهما الكهنة على اختلاف أوطانهم ، مالوا للحوادث ، ثم استعادوا نفوذهم وسيادتهم فى ظل ملوك « جوبتا » وما نزال نرى وثائق منذ القرن الثانى بعد الميلاد بمنح عظيمة — خصوصاً إقطاعيات من الأرض — تُوهَبُ لطبقة البراهمة[٦٥](*) وكانت هذه المنح — شأنها شأن أملاك البراهمة كلها معفاة من الضرائب حتى جاء البريطانيون[٦٦] فتشريع مانو يحذر الملك من فرض ضريبة على برهمى ، حتى إن نضبت كل موارد المال الأخرى ، لأن البرهمى إذا ما ثار غضبه يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً بتلاوة لعنات ونصوص سحرية[٦٧] ؛ ولم يكن من عادة الهنود أن يوصوا بشىء قبل موتهم فيما يختص بميراثهم ، لأن من تقاليدهم أن أملاك الأسرة لا بد أن تظل ملكاً مشاعا للأسرة كلها وهى تنتقل انتقالا آليا من موتى الذكور فى الأسرة إلى أحيائهم[٦٨](**) لكن الأرربيين بما يسودهم من نزعة نحو الفردية ، لم يكادوا يدخلون فى الهند نظام الوصايا ، حتى رحب به البراهمة ترحيباً عظيما ، ليتخذوا منه حيناً بعد حين وسيلة للاستيلاء على الأراضى لأغراض كهنوتية[٧٠] وكان أهم عنصر فى تقديم القرابين الآلهة هو الرسوم التى تدفع للكاهن المشرف على إقامة الطقوس الخاصة بذلك ، ورأس التقوى كلها هو السخاء فى دفع تلك الرسوم[٧١] وكذلك كان من موارد الكهنة الخصبة الإتيان بالمعجزات

(*) يعتقد « تود » أن بعض هذه الوثائق مزَوَّر تزويراً دفعت إليه التقوى الدينية[٦٦] .

(**) لكن جماعة الدرافيديين تنقل الإرث إلى طبقات إناثهم[٦٩] .

وغير ذلك من ألوف الخرافات : فلقاء رسم معين يستطيع البرهمى أن يجعل من العاقر ولوداً ، ونظير أجر معلوم ينبىء البرهمىّ بما خُطّ فى لوح القدر ؛ وكان البراهمة يستخدمون رجالا يطلبون إليهم أن يتظاهروا بالجنون وأن يعترفوا بأن هذا المس الذى أصابهم إنما جاءهم جزاء وفاقاً لما قتروا فى العطاء للكهنة ، وكان الرجل من البراهمة يُقصد فى كل حالات المرض أو المحاكمات أو حالات التشاؤم ببعض النذر السيئة أو الأحلام المزعجة أو البدء فى مشروع جديد ، كان الرجل من البراهمة يُقْصد فى كل تلك الحالات طلباً لمشورته ، وللمشير أجر مشورته(٧٢) .

وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ، فهم القائمون على صيانة التقاليد وهم الذين يدخلون على تلك التقاليد ما شاءوا من تعديل ، وهم الذين يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب منه ، وهم الخبراء بكتب الفيدا التى هبط بها الوحى ولا يأتيها الباطل ، ولو أنصت رجل من طبقة « الشودرا » إلى تلاوة الكتب المقدسة ، امتلأت أذناه بالرصاص المصهور (هكذا تقول كتب القانون البرهمية) ، وإن تلاها هو انشقّ لسانه ، ولو حفظ شيئاً منها قُطع جسده نصفين(٧٣) . هذه النذُر وأمثالها — التى لم تُوَقّع فعلا إلا فى حالات نادرة — هى التى كان يلجأ إليها الكهنة ليصونوا لأنفسهم العلم فلا يشاركهم فيه مُعْتَد ؛ وهكذا أصبحت البرهمية مذهباً خاصاً بفئة معينة تحيط نفسها بسياج ، لا تأذن لأحد من غير أفرادها أن يسهم فى العلم به(٧٥) وينص تشريع مانو على أن يكون من حق البرهمى سيادته على سائر الكائنات(٧٦) على أن الفرد منهم لم يكن ليتمتع بكل ما للبراهمة من نفوذ وامتيازات حتى ينفق فى مرحلة الاستعداد أعواماً كثيرة ، وبعدئذ « يولد ولادة جديدة » وتُجْرى له طقوس الخيط الثلاثى(٧٧) ، فإذا ما تم له ذلك ، أصبح منذ هذه اللحظة كائناً مقدساً ، وأصبح شخصه ومِلْكه مما لا يجوز عليه الاعتداء ؛ بل يذهب « مانو » فى ذلك بعيداً فيقرر أن « كل

ما هو كائن فى الوجود ملك البراهمة »[٧٨] ؛ وكان لا بد لصيانة الطبقة البرهمية من مِنَح عامة وخاصة — وهى لا توهب لهم على سبيل الإحسان ، بل من باب الواجب المقدس[٧٩] وكان السخاء فى العطاء للبرهمى من أسمى الواجبات الدينية ؛ ويستطيع البرهمى الذى لا يجد ترحيباً كريماً فى أحد المنازل أن يذهب عن صاحب البيت كل ما كان استحقه من جزاء عن حسناته السابقة جميعاً[٨٠](*) ولو اقترف البرهمى كل جريمة ممكنة ، لما حَقَّ عليه القتل ، فللملك أن ينفيه ، لكن لا بد له أن يأذن بالاحتفاظ بِملْكه[٨٣] ومن حاول أن يضرب برهميا ، كان لزاماً عليه أن يصلى عذاب النار مائة عام ، وأما من ضرب برهمياً بالفعل ، فقد حَقَّتْ عليه الجحيم ألف عام[٨٥] وإذا اعتدى رجل من الشودرا على عفاف زوجة رجل من البراهمة ، صودرت أملاكه وحكم عليه بالخصى[٨٦] وإذا قتل رجل من الشودرا زميلا له من الشودرا ، كان له أن يكفّر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة ، فإذا قتل أحداً من « الڤيزيا » كانت كفارته للبراهمة مائة بقرة ، وإذا قتل أحداً من « الكشاترية » ارتفعت كفارته إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة ، أما إن قتل برهمياً فلا بد من قتله ، ذلك لأن جريمة القتل عندهم لم تكن إلا بقتل برهمى[٨٧] .

وكان على البرهمى فى مقابل هذه الامتيازات أعمال والتزامات كثيرة وفادحة ؛ فلم يكن يقوم بواجبات الكاهن العملية وكفى (**) ، لكنه كان إلى جانب ذلك يُعِدُّ نفسه للمهن الكتابية والتربوية والأدبية ، وكان ينتظر منه

(*) يظهر أن بعض فئات البراهمة كان من حقهم بعض الأجور الإضافية يتقاضونها على هيئة متعة جنسية ، فبراهمة نامبوردى كانوا يتمتعون « بحق الليلة الأولى » عند كل عروس تزف فى منطقة نفوذهم ، وكهنة پوشتيمارْجيا فى بمباى ظلوا يحتفظون بهذا الحق حتى العصور الحديثة[٨١] ولو أخذنا بما يقوله (الأب ِدْيبوا) فإن كهنة معبد تيروپاتى (فى جنوب الهند الشرقى) كانوا على استعداد لمعالجة العقم فى المرأة إذا ما قضت ليلة فى المعبد[٨٢] .

(**) لم يكن الكهنة كلهم من البراهمة ، وأخيراً لم يكن كثير من البراهمة كهنة ؛ ففى « الأقاليم المتحدة » تجد عدداً كبيراً منهم يشتغل بالطهى .

أن يدرس القانون وأن يحفظ كتب الفيدا وكل واجب آخر من واجباته ، إنما يأتي بعد ذلك في الأهمية(٨٩) ، ولو لم يستطع البرهمي سوى أن يتلو كتب الفيدا ، فإنه بذلك وحده يصبح جديراً بطمأنينة النفس بغض النظر عما قام به غير ذلك من طقوس أو إنتاج(٩٠) ، أما إن حفظ عن ظهر قلب كتاب « رج° فيدا » ، فإنه يستطيع بعد ذلك أن يحطم العالم تحطيما دون أن يُعَدّ ذلك منه اقترافاً لجريمة(٩١) ، وليس من حقه أن يتزوج من خارج طبقته ، فإن تزوج امرأة من طبقة الشودرا ، عُدّ أبناؤه من الطبقة الدنيا ، طبقة « الپاريا » ؛ وفي ذلك جاء في كتاب مانو : إن الرجل الطيب العنصر بمولده إنما يفسد عنصره بصحبة الأد°نين ، أما من كان دنيا بمولده فيستحيل أن يسمو بصحبة الأعلين »(٩٢) ، وكان على البرهمي أن يستحم كل يوم ؛ وأن يعود فيستحم مرة أخرى إذا حلق له حلاق من الطبقة الدنيا ؛ وعليه أن يطهر المكان الذي أعده لنومه بروث البقر ، ولا بد له أن يراعي طقوساً دقيقة في مباشرته لضرورات طبيعته(٩٣) ، ومحتوم عليه أن يمتنع عن أكل الحيوان بكافة أنواعه ، بما في ذلك البيض ، وأن يمتنع كذلك عن أكل البصل والثوم ونبات الفُطْر ونبات الكُرّات ، ولم يكن يجوز له أي ضرب من ضروب الشراب غير الماء ، ويشترط أن يستخرجها وأن يحملها برهمي(٩٤) ، وتحرم عليه صنوف الدهون والعطور واللذة الحسية والجشع والغضب(٩٥) ، وإذا مس شيئاً نجساً ، أو لمس أجنبياً (حتى إن كان ذلك الأجنبي هو الحاكم العام للهند) كان لابد له من أن يطهر نفسه بالوضوء الذي تحدده الطقوس ، ولو اقترف إثماً ، كان لزاماً عليه أن يتقبل عقاباً أعنف مما يقع على مرتكب الإثم نفسه من طبقة دنيا ؛ فمثلا لو سرق رجل من طبقة الشودرا شيئاً ، حكم عليه أن يدفع غرامة قدرها ثمانية أمثال قيمة الشيء المسروق ، وإذا سرق رجل من طبقة « الڤيزيا » شيئاً دفع غرامة تساوي ستة عشر مِثْلا ، والرجل من « الكشاترية » يدفع اثنين وثلاثين مِثْلا ، وأما البرهمي فيدفع غرامة

قدرها أربعة وستين ميثلا ؛ وكان يستحيل على البرهمى أن يؤذى كائناً حياً(٩٧) .

وأخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحوا أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاءً على وجه الدهر ، وذلك لاعتدالهم فى مراعاة هذه القواعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم وجدوا شعباً أثقلته فلاحة الأرض فأخضعته لتقلبات الجو التى بدت لهم كأنها تقلبات أهواء شخصية ، فشغلهم ذلك كله عن النهوض بأنفسهم من الخرافة إلى نور العرفان ؛ فيستحيل أن تجد هذه الظواهر العجيبة فى أى مكان آخر غير الهند - وهى ظاهرة نموذجية تمثل بطء التغير فى الهند - وأعنى بها أن تظل طبقة عليا محتفظة بامتيازاتها وعلو مكانتها على مر العصور بكل ما شهدته من غزوات وأسرٍ حاكمة وحكومات مدى ٢٥٠٠ عام ؛ ولا ينافسهم طولَ البقاء إلا « الشاندالا » طريدة الطبقات ؛ أما فئة « الكشاترية » القديمة التى كان لها السلطان على الميدان الفكرى والسياسى فى عهد بوذا ، فقد توارت بعد عصر جوپتا ، وعلى الرغم من أن البراهمة اعترفوا بمحاربى « راچپوت » واعتبروهم بمثابة تطور طرأ على الطبقة المحاربة القديمة ، إلا أن الكشاترية - بعد سقوط راچپوتانا - لم يلبثوا أن دالت دولتهم ، وأخيراً لم يبق إلا طائفتان كبيرتان ، وهما طائفة البراهمة التى كانت طبقة الحكام فى الهند من الناحية الاجتماعية والفكرية ، ثم يأتى تحتهم ثلاث آلاف طبقة هى فى حقيقة الأمر عبارة عن النقابات الصناعية(*) .

ولو استثنيت نظام الزوجة الواحدة من حيث إساءة تطبيقه ، لجاز لك أن تقول إن نظام الطبقات أكثر النظم الاجتماعية سوء تطبيق ، ولولا ذلك لوجدت ما تقوله فى الدفاع عن هذا النظام ، فله حسنة التصفية الاجتماعية التى تصون ما تزعم أنه دم نقى من الشوائب ومن الانقراض اللذين ينتجان حتماً عن فكّ

(*) راجع الفصل التاسع ، فى قسمه الرابع لتلم بنظام الطبقات فى عصرنا .

قيود الإمتزاج بالزواج : وكذلك لنظام الطبقات حسنة أخرى ، وهى تدعيمه لطائفة من عادات الطعام والنظافة التى كان يتحتم على كل إنسان أن يراعيها وأن يسمو إليها صوناً لكرامته ؛ وكذلك خلع ثوب النظام على ما بين الناس من تفاوت وفروق، لولاه لأصبحت فوضى بغير ضابط ، ووفر على الناس هذه الحمى التى تطغى عليهم فى عصرنا الحديث ، حمَّى الصعود فى سُلّم المجتمع والزيادة من كسب المال ، ونظم الحياة لكل إنسان بأن حدد له تشريعاً معيناً للسلوك فى طبقته ، كما أعطى أفراد الطبقة الواحدة وسائل تعينهم على الاتحاد فى العمل ضد كل استغلال أو استبداد ، ثم هيأ نظام الطبقات أيضاً مهرباً من الطغيان أو الدكتاتورية العسكرية اللذان لا محيص عن أحدهما بديلا للأرستقراطية وأتاح لبلد حرم الاستقرار السياسى بسبب ما قاساه من مئات الغزوات والثورات ، أتاح له نظاماً واستقراراً فى شئونه الاجتماعية والخلقية والثقافية ، لم ينافسه فيهما بلد آخر إلا الصين ، ولقد طرأ على الدولة مئات التغييرات الفوضوية ، لكن البراهمة احتفظوا باستقرار المجتمع بفضل نظام الطبقات ، وبهذا احتفظوا بالمدنيّة وازدادوا منها ونقلوها إلى الخلَف ، واحتملتهم الأمة صابرة ، بل احتملتهم فخورة بهم ، لأنه لم يغب عن إنسان واحد أنهم فى النهاية هم القوة الحاكمة التى ليس للهند عنها محيص .

الفصل الثالث

الأخلاق والزواج

« ذارما » – الأطفال – زواج الأطفال – فن الحب – الزنا – الحب الشعرى – الزواج – الأسرة – المرأة – حياتها العقلية – حقوقها – « البردة » – السوتى (أى موت الزوجة لموت زوجها) – الأرملة

إذا ما انقرض من الهند نظام الطبقات ، تحتم أن يطرأ على الحياة الخلقية فيها طور طويل الأمد تسوده الفوضى ، لأن التشريع الخلقى فى هذه البلاد قد ارتبط بنظام الطبقات ارتباطاً يكاد لا يكون له انفصام ، والأخلاق عندهم هى « ذارما » — أى أنها هى قواعد السلوك فى الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته ؛ فلأن تكون هندوسيّ المذهب ، فليس معنى ذلك اعتناقك لعقيدة بقدر ما هو اتخاذك مكاناً معيناً فى نظام الطبقات ، وقبولك « الذارما » أى الواجبات التى تترتب على مكانك ذاك ، وفق ما تقضى به التقاليد والقوانين » ولكل مكان من ذلك النظام التزاماته وقيوده وحقوقه ، ولا مندوحة للهندوسيّ الورع أن يسلك حياته ملتزماً تلك الالتزامات والقيود والحقوق ، واجداً فيها قناعة الراضى بالطريق الذى مُهِّد له لكى يسير فيه ، ولا يطوف بباله قط أن يجاوز حدود طبقته إلى طبقة أخرى ؛ جاء فى كتاب « بها جاڤاد جيتا[٩٨] » « خير لك أن تؤدى عملك المقسوم لك أداء سيئاً من أن تؤدى عملا مقسوماً لغيرك أداء حسناً » إذ « ذارما » للفرد من الناس هى بمثابة النمو الطبيعى للبذرة — تحقيق مرسوم الطريق لطبيعته كامنة فيها وقضاء مكتوب عليها[٩٩] ، ولقد بلغ هذا التصور للأخلاق من الرسوخ فى القِدم مبلغاً جعل من المتعذر على الهندوس جميعاً ومن المستحيل على الكثرة الغالبة منهم أن ينظروا إلى أنفسهم نظرة لا تجعلهم أعضاء طبقة معينة ، تهديهم وتقيدهم قوانينها ؛ وفى ذلك يقول

مؤرخ إنجليزى : « يستحيل تصور المجتمع الهندى بغير نظام الطبقات(١٠٠) » .

وإلى جانب « الذارما » الخاصة بكل طبقة على حدة ، نرى الهندوسيين يعترفون « بذارما » عامة ، أى التزامات تلتزم بها جميع الطبقات ، وتتضمن قبل كل شىء احتراماً للبراهمة وتقديساً للبقر(١٠١) ، ويأتى بعد ذلك فى الأهمية واجب النسل ، فنى تشريع « مانو » مايلى(١٠٢) : « بالنسل وحده يكمل الرجل ، فهو يكمل إذا ما أصبح ثلاثة — شخصه وزوجه وابنه » ، فليس الأبناء حسنة اقتصادية لآبائهم فحسب ، يعولونهم فى شيخوختهم بغير أدنى تردد فى هذا الواجب ، بل هم إلى جانب ذلك سيمضون فى عبادة الأسرة لأسلافها ، ويقدمون لأرواح هؤلاء الأسلاف طعاماً آناً بعد آن ؛ حتى لا تفنى أرواحهم إذا امتنع عنها الطعام(١٠٣) ، وبناء على ذلك لم يعرف الهنود ضبط النسل ، وعُدَّ الإجهاض جريمة تساوى فى فداحتها جريمة قتل برهمى(١٠٤) ، نعم كان يحدث أحياناً أن تقضى الأمهات على الأجنة(١٠٥) ، لكن ذلك كان نادر الوقوع ، لأن الوالد كان يسره أن ينسل الأبناء ، ويفخر إذا كان له منهم عدد كبير ، وإن حنان الشيوخ على الصغار بين الهنود لمن أجمل ظواهر المدنية الهندية(١٠٦) .

ولم يكد الطفل عندهم يشهد النور حتى كان يأخذ أبواه فى التفكير فى زواجه ، لأن الزواج — فى النظام الهندى — إجبارىٌّ للجميع ، والرجل الأعزب طريد الطبقات ، ليس له فى المجتمع مكانة ولا اعتبار ، وكذلك بالنسبة للفتاة إن طال بها الأمد عذراء بغير زواج ، فذلك عار أى عار(١٠٧) على أن الزواج لم يكن يترك لأهواء الفرد يختار من يشاء ، أو لدفعة الحب تدفع العاشق إلى زواج من يهوى ، بل كان الزواج عندهم أمراً حيوياً تهتم له الجماعة كلها والجنس كله ، فيستحيل أن يوكل أمره إلى العاطفة بما لها من قصر النظر بعواقب الأمور ، أو إلى المصادفة تجمع من شاءت(١٠٨) ، فلا بد أن يتولى الوالدان أمر زواج الوليد قبل أن تستولى عليه حمّى الرغبة

الجنسية فتقذف به إلى زواج مصيره – فى نظر الهنود – إلى خيبة الرجاء واليأس المرير : ولقد أطلق « مانو » اسم « زواج الجاندارڤا » على الزيجات التى تتم باتفاق الزوجين ، ووصف أمثال هؤلاء وصفاً شائناً إذ وصفهم بأنهم وليدو الشهوة ؛ نعم إن التشريع يبيح مثل هذا الزواج ، لكن الزوجين عندئذ يوشكان ألا يجدا عند الناس شيئاً من الاحترام .

ولقد أدى النضوج المبكر بين الهنود ، الذى يجعل البنت فى سن الثانية عشرة مساوية لزميلتها فى أمريكا فى سن الرابعة عشرة ، أو الخامسة عشرة ، إلى خلق مشكلة عويصة فى النظام الاجتماعى والخلقى(*) فهل الأفضـــل أن يدبَّر الزواج بحيث يطابق سن النضوج الجنسى ، أم الأفضل أن يرجأ – كما فى أمريكا – حتى يبلغ الرجل نضوجه الاقتصادى ؟ والظاهر أن الحل الأول للمشكلة يؤدى إلى ضعف البنية فى أبناء الأمة(١١٠) ويزيد من عدد السكان زيادة سريعة لا تتمشى مع مقتضيات الظروف ، ويضحى بالمرأة تضحية تكاد تكون تامة فى سبيل النسل ؛ وأما الحل الثانى فيؤدى إلى مشكلة أخرى وهى التأخير الذى تأباه الطبيعة ، وإلى كبح الرغبة الجنسية كبحاً يؤدى إلى حبوطها ، كما يؤدى إلى الدعارة والأمراض السرية ؛ ولقد آثر الهنود لأنفسهم زواج الأطفال على اعتبار أنه أهون الشرين ، وحاولوا أن يخففوا من أخطاره بأن يجعلوا بين الزواج وبين إتمامه فترة تبقى فيها العروس مع والديها حتى يتم نضجها(١١١) ، هذا عندهم نظام اجتماعى قديم ، ومن قدمه جاءت قداسته ، وإنما نبتت جذوره بادئ ذى بدء من رغبة الناس فى منع التزاوج بين الطبقات تزاوجاً قد تسببه مجرد الجاذبية الجنسية العابرة(١١٢) ثم ازداد فى نفوس الناس

(*) يجب أن نضيف هنا أن غاندى ينكر أن يكون هذا التبكير فى النضوج قائماً على أساس جثمانى ، فهو يقول : « إنى أمقت وأكره زواج الأطفال ، ويهتز كيانى إن رأيت أرملة طفلة ، ولست أرى أمعن فى التخريف من خرافة تقول إن مناخ الهند يسبب التبكير فى النضوج الجنسى ؛ فالذى يسبب النضوج قبل أوانه هو الجو الفكرى والخلقى الذى يحيط بالأسرة فى حياتها »(١٠٩) .

قوة فيما بعد ، بسبب أن المسلمين الغزاة ، الذين لاتعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا حتى لو لم يكونوا غزاة فاتحين ؛ كانت دياناتهم لا تحرم عليهم أن يسبوا النساء المتزوجات ليكنّ لهم إماء(١١٣) ، وأخيراً اتخذ النظام شكله الجامد الذى جعله تصميما عند الأبوين على وقاية ابنتهما من استثارة الذكور لحساسيتها الجنسية .

والدليل على أن هذه الحساسية عند البنت كانت مرهفة إلى حدما ، وعلى أن الذكر قد يعهد إليه أداء وظيفته البيولوجية لأقل مثير يثير شهوته ، ظاهر فى أدب العشق عند الهنود ، فكتاب « كاما سُوترا » ومعناها « مذهب الشهوة » هو أشهر كتاب من بين مجموعة كبرى كلها يعبر عن اشتغال عقولهم إلى حد ملحوظ بفنون العلاقة الجنسية فى صورتها الجسدية والعقلية ؛ ويؤكد لنا مؤلف الكتاب أنه كتبه « وفق المبادئ التى جاءت فى الكتاب المقدس لفائدة العالم ؛ وكاتبه هو ڤاتسياپانا ، كتبه عند ما كان يحيا حياة طالب دينى فى بنارس ، ولا يعنيه شىء فى الدنيا سوى التأمل فى ذات الله »(١١٤) ويقول هذا الناسك : « إن من يهمل فتاة ، ظناً منه أنها أكثر حياء من أن تكون موضع صلة جنسية ، تزدريه هذه الفتاة نفسها وتعده حيواناً يجهل طبيعة ما يدور فى عقل المرأة »(١١٥) ويصور لنا « ڤاتسياپانا » صورة جميلة لفتاة عاشقة(١١٦) لكنه يتجه بمعظم حكمته إلى تصوير فن الأبوين فى التخلص منها بالزواج ، وفن الزوج فى إشباع رغبات جسدها .

ولا يجوز لنا أن نفرض بأن الحساسية الجنسية عند الهنود قد انتهت بهم إلى إباحية أكثر من الحد المألوف عند غيرهم ؛ فقد أقام زواج الأطفال سداً فى وجه العلاقات الجنسية السابقة للزواج ؛ والعقوبات الدينية الصارمة التى كانوا ينذرون بوقوعها ليحملوا الزوجة على الوفاء لزوجها ، جعلت الزنا أصعب جداً وأندر جداً مما هو عليه فى أوربا أو أمريكا ؛ وكان الزنا فى الأعم الأغلب مقصوراً على المعابد ؛ ففى الأصقاع الجنوبية كانت رغبات الرجل الشهوانى

تشبعها له من كُنّ يطلق عليهن « خادمات الله » طائعات فى ذلك أوامر السماء ، وما خادمات الله — أو « دڤاداس » كما يسمونهن — إلا العاهرات ؛ وفى كل معبد فى « تامِلْ » مجموعة من « النساء المقدسات » اللاتى يستخدمهن المعبد أول الأمر فى الرقص والغناء أمام الأوثان ، ثم من الجائز أن يُستخدمن بعد ذلك فى إمتاع الكهنة البراهمة ؛ وبعض هؤلاء النسوة — فيما يظهر — قد قصرن حياتهن على عزلة المعابد وكُهّانها ، وبعضهن الآخر قد وسّع من نطاق خدماته بحيث يشمل كل من يدفع أجراً لمتعته ، على شريطة أن يدفعن لرجال الدين جزءاً من كسبهن عن هذا الطريق ، وكان كثير من زانيات المعابد — أو فتيات الرقص — يقمن بالرقص والغناء فى الحفلات العامة والاجتماعات الخاصة ، على نحو ما يفعل فتيات « الجيشا » فى اليابان ؛ وكان بعضهن يتعلم القراءة ، فيكنّ وسيلة أحاديث ثقافة فى المنازل حيث لا تجد الزوجة ما يشجعها على القراءة ، ولا يسمح لها بمخالطة الأضياف ، وهؤلاء الفتيات القارئات شبيهات بمن كنّ يُسمين hetairai عند اليونان : ويحدثنا نص مقدس أنه فى سنة ١٠٠٤ ميلادية كان فى معبد الملك الكوليّ « راجا راجا » فى تانجور أربعمائة امرأة من « خادمات الله » ؛ وأكسب الزمان هذه العادة صبغة الجلال ، فلم ير فيها أحد ما يتنافى مع الأخلاق ، حتى إن السيدات المحترمات كن آناً بعد آن يهبن ابنة إلى مهنة العُهر فى المعابد ، بنفس الروح التى يوهب بها الابن إلى الكهنوت(١١٧) ، ويصف « ديبوا » — فى أول القرن التاسع عشر — معابد الجنوب بأنها كانت فى بعض الحالات كانت « تتحول إلى بيوت للدعارة ولا شيء غير هذا » ، وكانت عامة الناس تطلق على « خادمات الله » — بغض النظر عن مهمتهن فى بداية الأمر — اسم الزانيات ، ويستخدمونهنّ على هذا الأساس ؛ ولو أخذنا بقول هذا « الأب » الكهل ، الذى لم يكن أمامه ما يبرر أن يتعصب للهند فيما يكتب ، علمنا أن :

« واجباتهن الرسمية تتألف من الرقص والغناء داخل المعابد مرتين كل يوم ... وكذلك فى الاحتفالات العامة كلها ؛ وهن يؤدين الرقص أداء رشيقا إلى درجة مرضية ، على الرغم من أن طريقة الرقص تثير الشهوة وليس فى إشاراتهن شىء من الوقار ؛ وأما غناؤهن فيكاد كله يتألف من أشعار فاحشة تصف ما مرّ فى تاريخ آلهتهم من حوادث الإباحية الجنسية »(١١٨) .

فى هذه الظروف التى يسودها عُهْر المعابد وزواج الأطفال ، لم يبق أمام ما نسميه « بالحبّ الشعرى » إلا أضيق الفرص ، نعم إن التفانى المثالى الذى يبديه أحد الجنسين تجاه الآخر ، له آثاره الظاهرة فى الأدب الهندى — مثال ذلك ما نراه فى أشعار « شاندى داس » و « چاباديڤا » — لكنه فى الأغلب يُتَّخذ رمزاً للروح تسلم زمامها لله ؛ أما فى الحياة الواقعة ، فأكثر ما تظهر فيه هذه الروح هو تفانى الزوجة فى زوجها تفانياً كاملا ؛ وأحيانا ترى شعرهم الغزلى من الطراز الخيالى السامى كالذى يصوره شعراؤنا المحافظون على تقاليد الأخلاق المتزمتة من أمثال « تنِسُنْ » و « لُنْجفِلُو » وأحيانا أخرى تراه من الطراز الجسدى الحسى كالذى نعرفه فى عصر اليصابات(١١٩) ؛ فهذا أديب منهم يوحّد بين الدين والحب ، ويرى الجانبين معاً متمثلين فى نشوة الدين وفى نشوة الحب ، وهذا أديب آخر يذكر قائمة من ثلاثمائة وستين عاطفة مختلفة تملأ قلب المحب ، ويَعُدّ الأشكال التى رسمتها أسنانه على جسد حبيبته ، أو يصف كيف أخذ يزين نهدىْ حبيبته برسوم أزهار من معجون الصندل العبق ؛ وكذلك يصف لنا مؤلف قصتى « نالا » و « دامايانتى » فى ملحمة « ماهابهاراتا » آهات المحبين الحزينة وشحوبهم كأحسن ما تراه عند الشعراء الجوالين فى فرنسا(١٢٠) .

لكن أمثال هذه الأهواء المتقلبة لم يُرْكن إليها إلا ناداً فى تقرير الزواج فى الهند ؛ ولقد أباح « مانو » ثمانية صنوف من الزواج ، كان أدناها فى القيمة الخلقية هو الزواج بالاغتصاب والزواج « بالحب » ؛ وأما الزواج بالشراء فهو

الصورة المقبولة على أنها الطريق المعقولة لتدبير الزواج بين رجل وامرأة ، فالمشرّع الهندى من رأيه أن صور الزواج التى تنبنى على أسس اقتصادية هى فى نهاية الأمر أسلم الصنوف عاقبة[١٢١] ، وفى أيام « دبْوا » كانت العبارة الهندية التى تعنى « يتزوج » ، والعبارة التى تعنى « يشترى زوجة » « عبارتين مترادفتين[١٢٢] »[*] :

وأحكم الزواج زواجٌ يدبره الوالدون مراعين فيه كل قواعد الزواج من داخل أو خارج ، فالشاب ينبغى أن يتزوج داخل طبقته الاجتماعية ، لكنه يختار زوجته من خارج مجموعته العائلية[١٢٣] ، وله أن يتزوج من زوجات كثيرات لكن واحدة منهن فقط يكون لها السيادة على الأخريات ، ويشترط فيها أن تكون من طبقته الاجتماعية ، على أن الأفضل — فى رأى مانو — أن يقتصر الزوج على زوجة واحدة[**][١٢٤] وكان على الزوجة أن تحب زوجها فى تفان يصبر على المكاره ، وأما الزوج فلم يكن ينتظر منه أن يبدى لزوجته حباً شعرياً ، بل حماية أبوية[١٢٦] .

كانت الأسرة الهندية من الطراز الأبوى الصميم ، فالوالد هو السيد الكامل السيادة على الزوجة والأبناء والعبيد[١٢٧] وكانت المرأة مخلوقاً جميلا يُحسَب ،

(*) يصف لنا سترابو (حوالى ٢٠ ميلادية) معتمداً على أرستوبولس « بعض العادات الجديدة غير المألوفة فى تاكسيلا فأولئك الذين يعجزون عن تزويج بناتهم بسبب الفقر يسوقونهن إلى ساحة السوق وهن فى عنفوان شبابهن ، فيسرن على صوت الأبواق والطبول (وهى الآلات نفسها التى كانوا يستخدمونها فى نداء المقاتلين إلى حومة القتال) وبهذا يجمعون حشداً من الناس ، فإذا ما أقبل رجل كائناً من كان أخذ الفتيات فى عرض ظهورهن حتى العواتق ، وبعدئذ كن يعرضن أجزاء هن الأمامية ، فإذا أعجبت واحدة منهن رجلا ، ثم قبلت هى ذلك الرجل على شروط حتفق عليها ، فإنه يتزوج منها »[١٢٨] .

(**) لو أخذنا برأى « تود » فمن المألوف فى أسرة راجبوت المالكة أن يختار الأمير مجموعة من الزوجات لكل يوم من أيام الأسبوع تختلف عن مجموعات سائر الأيام[١٢٩] .

لكنها أحط منزلة من الرجل ؛ تقول أسطورة هندية : إن « تواشترى » المبدع الإلهى ، حين أراد فى البداية أن يخلق المرأة وجد أن مواد الخلق قد نفدت كلها فى صياغة الرجل ، ولم يبق لديه من العناصر الصلبة بقية ، فإزاء هذه المشكلة طفق يصوغ المرأة من القصاصات والجذاذات التى تناثرت من عمليات الخلق السابقة ، يختار قصاصة من هنا وجذاذة من هناك :

« فأخذ استدارة القمر ، وتثنى الزواحف وتعلق المحلاق وارتعاش الكلأ ودقة قصبة الغاب وازدهار الزهور وخفة أوراق الشجر وانخراط خرطوم الفيل ونظرات الغزال وتجمع النحل فى خلاياه ، وبهجة أشعة الشمس المرحة وبكاء السحاب ، وتقلب الريح وجبن الأرنب وزهو الطاووس وطراوة صدر البيغاء ، وصلابة جلمود الصخر ، وحلاوة العسل ، وقسوة النمر ، ووهج النار الدافىء وبرودة الثلج وثرثرة أبى زريق ، وهديل الحمام ، ونفاق الكركى ووفاء الشكراقاكا ، ومزج كل هذه العناصر مزجاً صنع منه المرأة ثم وهبها الرجل »(١٣٦) لكن على الرغم من هذه العدة كلها ، لم يكن للمرأة فى الهند إلا أسوأ الحظوظ ؛ فكانتها العالية التى بلغتها فى العصور الفيدية ، زالت عنها بتأثير نفوذ الكهنة وبفعل المثل الذى رسمه المسلمون ، فترى الروح العامة فى « تشريع مانو » موجهة ضدها فى عبارات تذكرنا بمرحلة أولى من مراحل اللاهوت المسيحى : « إن مصدر العار هو المرأة ، ومصدر العناء فى الجهاد هو المرأة ، ومصدر الوجود الدنيوى هو المرأة ، وإذاً فإياك والمرأة »(١٣٠) وفى فقرة أخرى تقرأ : « إن المرأة لا تقتصر قدرتها على تضليل الأحمق عن جادة السبيل فى هـــذه الحياة ، بل هى كذلك قادرة على تضليل الحكيم ، فهى تستطيع أن تمسك بزمامه وأن تخضعه لشهوته أو لغضبته »(١٣١) ولقد نص التشريع على أن المرأة طوال حياتها ينبغى أن تكون تحت إشراف الرجل فأبوها أولا وزوجها ثانياً وابنها ثالثاً(١٣٢) ، وكانت الزوجة تخاطب زوجها فى خشوع قائلة له : « يا مولاى » و « يا سيدى » بل « يا إلهى » وهى تمشى خلفه

بمسافة إن مشيا على مرأى من الناس ، وقلما يوجه إليها هو كلمة واحدة(١٣٣) وينتظر من المرأة أن تبدى إخلاصها بخدماتها فى كل المواقف ، بإعدادها للطعام ، وبأكلها لما يتبقى بعد أكل زوجها وأولادها ، ويضمها لقدمى زوجها إذا حانت ساعة النوم(١٣٤) يقول مانو : « إن الزوجة الوفية ينبغى أن تخدم .. سيدها كما لو كان إلها ، وألا تأتى شيئاً من شأنه أن يؤلمه ، مهما تكن حالته ، حتى إن خلا من كل الفضائل »(١٣٥) أما الزوجة التى تعصى زوجها فمآلها أن تتقمص روحها جسدَ ابن آوى فى خلقها التالى(١٣٦) ؛

ولم يكن نساء الهند يتلقين تعليما — كأخواتهن فى أوروبا وأمريكا قبل عصرنا هذا الحديث — إلا إن كنّ من سيدات الطبقة الراقية أو زانيات المعبد(١٣٧). ففن القراءة كان فى عرفهم لا يليق بامرأة ؛ ذلك لأن سلطانها على الرجال لا يقوى به ، ثم هو يؤدى إلى نقص فتنتها ؛ يقول « طاغور » على لسان « شِتْرا » فى إحدى مسرحياته : « إن المرأة يسعدها أن تكون امرأة فقط — أن تلف نفسها حول قلوب الرجال بابتساماتها وتنهداتها وخدماتها وملاطفاتها ؛ فماذا يجدى عليها العلم وجليل الأعمال(١٣٨) » ؟ وليس من حقها أن تلم بكتب الفيدا (١٣٩)، ففى الماهابهاراتا : « إذا درست المرأة كتب الفيدا كانت هذه علامة الفساد فى المملكة(١٤٠) »(*) ، ويروى المجسطى عن أيام « شاندراجوبتا » : « أن البراهمة يحولون بين زوجاتهم — ولهم زوجات كثيرات — وبين دراسة الفلسفة ؛ لأن النساء إن عرفن كيف ينظرن إلى اللذة والألم ، والحياة والموت ، نظرة فلسفية ، أصابهن مسٌّ من جنون ، أو أبيْنَ بعد ذلك أن يظْلَلْن على خضوعهن(١٤١) » .

(*) لا يجوز لنا أن نقارن هذه الحالة بآرائنا فى أوربا وأمريكا اليوم ، بل ينبغى أن نوازنها بكراهة رجال الدين فى العصور الوسطى لقراءة عامة الناس الإنجيل ، ولتربية المرأة تربية عقلية .

ثلاثة أشخاص فى تشريع مانو لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً : الزوجة والابن والعبد ، فكل ما يكسبه هؤلاء يصبح ملكاً لسيد الأسرة(١٤٢) ؛ على أنه يجوز للزوجة أن تحتفظ بملكية المهر والهدايا التى جاءتها عند زواجها ، وكذلك يجوز لأم الأمير أن تحكم البلاد فى مكان ابنها حتى يبلغ الرشد(١٤٣) ؛ ومن حق الرجل أن يطلق زوجته لخيانتها الزوجية ، لكن الزوجة لا تستطيع أن تطلق زوجها لأى سبب من الأسباب(١٤٤)، وفى مقدور الزوج إذا ما شربت زوجته الخمر أو إذا مرضت أو إذا شقت عليه عصا الطاعة أو كانت مسرفة أو شكسة ، أن يتزوج من غيرها فى أى وقت شاء (لا أن يطلقها) ؛ على أن فى « التشريع » فقرات توحى بالرفق المستنير فى معاملة المرأة : فلا يجوز ضربهن « حتى بزهرة » ولا يجوز مراقبتهن مراقبة تجاوز الحدود فى صرامتها ، لأن دهاء مكرهن عندئذ يجد سبيلا للشر ، وإذا أحببن جميل الثياب فمن الحكمة أن تشبع فيهن ما أحببن « لأن الزوجة إذا حرمت أنيق الثياب فلن تثير فى صدر زوجها ميلا إليها » على حين أنه « إذا زينت الزوجة زينة بهيجة ، اكتسب المنزل كله مسحة الجمال(١٤٥) » ، ويجب أن تخلى الطريق للمرأة كما تخليه للكهول الكهنة ، والواجب أن يطعم « الحاملات والعرائس والكواعب قبل سائر الأضياف(١٤٦) » ولئن فات المرأة أن تحكم باعتبارها زوجة ، فلها أن تحكم بوصفها أماً ، وإن كانت المرأة أماً لأطفال كثيرين ، استحقت عند الناس أعظم العطف والتقدير ؛ فحتى تشريع مانو الذى يؤيد سيطرة الوالد فى الأسرة ينص على أن « الأم أولى بالتوقير من ألف والد(١٤٧) » .

ولا شك أن دخول الأفكار الإسلامية كان عاملا على تدهور مكانة المرأة فى الهند بعد العصر الڤيدى ؛ فقد جاءت إليها عادة « البردة » (أى الستار) — وهى عزل النساء المتزوجات — مع الفرس والمسلمين ، ولذلك فهى أقوى جذوراً فى شمال البلاد منها فى الجنوب ؛ ولكى يحمى الأزواج الهنود

زوجاتهم من المسلمين – وهذا عامل من عدة عوامل – فقد اصطنعوا نظام « البردة وتمسكوا به فى تزمت بلغ من شدته أن المرأة المحترمة لا تستطيع أن تبدى نفسها لغير زوجها وأبنائها ، ولا يمكنها الانتقال خارج دارها إلا مستورة بقناع سميك ؛ حتى الطبيب الذى يعالجها ويجس نبضها ، لا مندوحة له عن أداء واجبه ذاك خلال ستار(١٤٨) ؛ وإنه لمن الخروج على القواعد الخلقية فى بعض الأوساط أن تسأل عن زوجة غيرك أو أن تتحدث وأنت ضيف إلى سيدات البيت الذى يضيفك »(١٤٩) .

كذلك عادة إحراق الأرامل على الكومة التى احترق فيها أزواجهن جاءت إلى الهند من خارج ، ويقول عنها « هيرودوت » إنها كانت عادة جارية بين السكيت القدماء وأهل تراقيا؛ ولو كان لنا أن نصدقه فى روايته ، إذن لعلمنا أن زوجات الرجل من أهل تراقيا كن يقتتلن تسابقاً على امتياز القتل على قبر الزوج»(١٥٠) ، ولعل هذه الشعيرة قد هبطت إلى الهنود من عادة قديمة كادت تشمل شعوب العالم البدائية كلها ، وهى التضحية بواحدة أو أكثر من زوجات الأمير أو الغنى ، أو من خليلاته ، والتضحية معها بطائفة من عبيده ، وغير ذلك مما لابد من تقديمه قرباناً إثر وفاته ، وذلك ليُعنى هؤلاء بالميت فى الحياة الآخرة(١٥١) ؛ ويذكرها كتاب « أتارفافيدا » على أنها عادة قديمة ؛ أما « رج فيدا » فيذكر لنا أن هذه العادة فى العصر الفيدى كانت قد خف شأنها حتى أصبحت محصورة فى مطالبة الأرملة بالرقاد على كومة الحطب التى أعدت لزوجها لحظة قبل إحراق جثته(١٥٢) .

ثم تعود قصيدة « ماهابهاراتا » فتصف هذه العادة الاجتماعية وصفاً يدل على عودتها كاملة بغير شعور من الناس بفداحة ما يفعلون ، وهى تذكر أمثلة

كثيرة لهذه العادة(*) ثم تضع للناس قاعدة عامة مؤداها أن الأرملة الطاهرة لا تحب أن تحيا بعد زوجها بل تراها تدخل النار فخورة بصنيعها(١٥٣) ، وكانوا فى هذه المناسبات يحرقون جسد الزوجة فى حفرة من الأرض ، أو يدفنونها حية ، كما كان يحدث بين قبيلة « تلوج » فى الجنوب(١٥٤) ، ويروى لنا سترابو أن عادة قتل الزوجة بعد موت زوجها كانت شائعة فى الهند أيام الإسكندر ، وأن قبيلة « كاثى » — وهى قبيلة تسكن البنجاب — اتخذت من هذه العادة قانوناً حتى لا تدس زوجة لزوجها السم فتقتله(١٥٥) ولا يذكر « مانو » عن هذه العادة شيئاً ، ولقد عارضها البراهمة أول الأمر ، لكنهم عادوا فقبلوها ، وأخيراً خلعوا عليها قداسة دينية تحميها من العبث ، وذلك بأن جعلوها مرتبطة بأبدية الرابطة الزوجية : فالمرأة إذا ما تزوجت رجلا كان عليها أن تظل زوجته إلى الأبد ؛ وستعود إلى الارتباط الزوجى به فى حيواته المقبلة(١٥٦) ، وهذه الملكية المطلقة من الزوج لزوجته ، اتخذت فى « راجستان » صورة ما يسمونه « جوهور » وهى عادة تقضى على الرجل من أهل راجبوت ، إذا ما أصابه نوع معين من الهزيمة ، أن يضحى بزوجاته قبل أن يتقدم هو إلى الموت فى ساحة القتال(١٥٧) ، وانتشرت العادة فى حكم المغول انتشاراً واسعاً على الرغم من كراهية المسلمين لها ، ولقد فشل ملوك المسلمين ، حتى « أكبر » بكل نفوذه ؛ فى زحزحة هذه العادة من النفوس ، وحاول « أكبر » ذات مرة أن يثنى عروساً هندية عن تقديم نفسها طعاماً للنار على كومة الحطب التى أحرقت خطيبها الميت ، وتوسل إليها البراهمة بما يؤيد رجاء الملك ، لكن العروس أصرت على التضحية فلما دنت منها ألسنة اللهب ، وكان « دانيال » — ابن « أكبر » — عندئذ ماضياً فى إقناعها بالعدول ، أجابته قائلة : « كفى » كفى » ؛ وحدث كذلك لأرملة أخرى أن رفضت مثل هذه التوسلات بالإقلاع عن التضحية بنفسها ، ووضعت إصبعها فى شعلة مصباح حتى التهمتها النار ،

(*) تسمى « سوتى » Suttee ومعناها « الزوجة المخلصة لزوجها » .

ولكونها أمسكت عن إظهار ألمها بأية علامة من علاماته ، فقد عبَّرت عن ازدرائها لأولئك الذين نصحوها بالإقلاع عن إحراق نفسها جرياً مع الطقوس(١٨٥) وفى « ڤيجايانا جار » كان قتل الزوجة هذا يتخذ صورةً جمعية ، فلا يكتفى فيه بقتل زوجة واحدة أو عدد قليل من زوجات الأمير أو القائد بعد موته ، بل كان لا بد لكل زوجاته أن يَتْبَعْنَهُ إلى الموت ؛ ويروى لنا « كونتى » إن (الرايا) أو الملك قد اختار ثلاثة آلاف من زوجاته البالغ عددهن اثنى عشر ألفاً ، ليكنَّ مُقَرَّبات له « على شرط أن يحرقن أنفسهن مختارات عند موته ، وإن ذلك ليعد شرفاً عظيما لهن »(١٥٩) وإنه من العسير علينا أن نحكم إلى أى حد كانت الأرملة الهندية فى عصور الهند الوسطى راضية النفس عن هذه العادة بقوة التأثير الدينى والعقيدة ، وبقوة الرجاء فى أن تعود إلى الاتحاد بزوجها فى الحياة الآخرة .

وأخذت « السوتى » — قتل الزوجة بعد موت زوجها — تقل شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الهند اتصالا بأوروبا ، ولو أن الأرملة لم تزل تعانى صعاباً كثيرة ؛ فما دام الزواج قد ربط المرأة بزوجها رباطاً أبدياً ، فإن زواجها مرة ثانية بعد موت زوجها كان يعد جريمة فادحة ، ومن نتائجه المحتومة أن يُحدث للزوج اضطراباً فى حيواته المقبلة ؛ وعلى ذلك كان لا بد للأرملة وفق القانون البرهمى أن تظل بغير زواج وأن تحلق شعرها وتحيا حياتها (إذا لم تُؤْثر لنفسها القتل فى نار زوجها) معنية بأطفالها ومشتغلة بأعمال البر والإحسان(١٦٠) ولم يكن يحكم على الأرملة بالفقر ، بل الأمر على عكس ذلك ، إذ كان لها الحق الأول فى أملاك زوجها(١٦١) غير أن هذه القواعد لم تجد قبولا إلا عند النساء المحافظات على التقاليد من نساء الطبقتين العليا والوسطى — وهؤلاء نسبتهن ثلاثون فى المائة من مجموع السكان — وأما المسلمون والسيخ والطبقات الدنيا فقد أهملوا تلك القواعد إهمالا تاماً(١٦٢) والرأى عند الهنود هو أن هذه العذرية الثانية التى تصطنعها الأرملة عندهم شبيهة بامتناع الراهبات فى المسيحية عن الزواج

١٨٤ .

فني كلتا الحالتين ترى طائفة من النساء يرفضْنَ الزواج ويكرسْنَ حياتهن لأعمال الإحسان(*) .

(*) عند النظر في عادات الشعوب الأخرى ، يجب أن نذكر أنفسنا تذكيراً لا ينقطع بأن تقاليد الشعوب الأخرى لا يمكن الحكم عليها حكماً يقبله العقل ، وفي تشريعنا الخلقي ؛ يقول تود . « فالباحث السطحي النظر ، الذي يطبق معياره هو على عادات الأمم كلها يرثي لحالة المرأة الهندية في تدهورها رثاء يدفعه إليه عطف إنساني مصطنع ، لأنه سيجد تلك المرأة قليلة الرغبة في مشاركته تلك العاطفة »(١٦٣) .

راجع الفصل التاسع « الثاني والعشرين في الأصل » لتعلم ما طرأ في عصرنا من تغيرات في هذه العادات .

الفصل الرابع

آداب السلوك والعادات والأخلاق

الاحتشام الجنسي – الصحة – الملبس – المظهر – رقة الفن
عند الهنود – سيئات وحسنات – الألعاب – الأعياد – الموت

إن العقل الساذج قد يصعب عليه التصور بأن هؤلاء الناس الذين قبلوا نظما اجتماعية مثل زواج الأطفال وعُهْر المعابد وقتل الزوجة بعد موت زوجها، هم كذلك غاية في رقة الحاشية والاحتشام والمجاملة؛ فلو غضت النظر عن عدد قليل من زانيات المعابد، لوجدت البغاء نادراً في الهند، وألفيت العفة الجنسية مصونة إلى حد يستوقف النظر؛ يقول «دبْوَا» الذي لا يعطف على الهنود في كتابته: «لا بد من الاعتراف بأن آداب السلوك واحترام المعاملة الاجتماعية أوضح في قواعدها وأكثر اتباعاً لدى طبقات الهنود كلها، حتى أدنى هذه الطبقات منزلة، منها عند أي شعب أوربي له ما للهنود من مكانة اجتماعية»[١٦٤]؛ فالدور الرئيسي الذي يلعبه الجنس في الحديث وفي النكات عند الغربيين، لا تعرفه آداب السلوك بين الهنود، فهذه الآداب تحرم تحريما قاطعاً كل علاقة علنية بين الرجال والنساء من شأنها أن تعبر عما بينهم من ارتفاع الكلفة، وهي تعتبر التلاصق البدني بين الجنسين في الرقص شيئاً مرذولا قبيحاً[١٦٥]؛ وتستطيع المرأة الهندية أن تذهب خارج دارها أنى شاءت دون أن تخشى من أحد اعتداء أو إساءة[١٦٦]؛ بل إن الوضع في عين الشرق على عكس ذلك، إذ يرى الخطر في ذلك واقعاً كله على الجنس الآخر، فترى «مانو» يحذر الرجال: «إن المرأة نزاعة بطبعها دائماً أن تغرى الرجل، ومن ثم كان واجباً على الرجل ألا يجلس في عزلة مع امرأة حتى إن كانت من أقرب ذوات قرباه» ولا ينبغي لرجل أن ينظر إلى أعلى من عَقِبَيْ فتاة عابرة[١٦٧].

وتأتى النظافة فى منزلة بعد العبادة مباشرة ؛ فليست القواعد الصحية « بالخُلُق الأوحد » كما ظن أناتول فرانس ، بل هى عندهم جزء حيوىّ من العبادة ؛ ولقد سنّ « مانو » منذ عدة قرون تشريعاً يستلزم تهذيب البدن ، ففى تعليماته مثلا : « يجب على البرهمى أن يستحم فى الصباح الباكر وأن يزيّن جسده وينظف أسنانه ، ويغسل عينيه ويعبد الآلهة »(١٦٨) والمدارس الأهلية تجعل أولى المواد فى برامجها آداب السلوك الطيب والنظافة الشخصية ؛ فعلى الهندى ذى المكانة المحترمة أن يغسل جسده كل يوم وأن يغسل ثوبه الذى سيرتديه ، وإنه ، ليقشعر تقززاً إذا ما لبس الثوب — بغير غسل — أكثر من يوم واحد(١٦٩) ويقول سير « وليم هُيوبَرْ » : « إن الهنود يضربون المثل لنظافة الأجسام بين القبائل الآسيوية كلها ، بل لعلهم يضربونه بين أجناس العالم بأسره ، ولقد أصبح وضوء الهنود يجرى مجرى الأمثال(١٧٠)(*) .

وفيما يلى وصف عادات الأكل عند الهنود كما وصفها يوان شوانج منذ ألف وثلاثمائة عام :

« إنهم يندفعون إلى التطهر بدافع من أنفسهم ، لا يجبرهم عليه أحد ، فحتم عندهم أن يغتسل الآكل قبل وجبته ؛ ويستحيل أن تُقدَّم الفتات والبقايا لوجبة أخرى ؛ ولا تستعمل أوعية الطعام لأكثر من أكلة واحدة ، فما كان منها مصنوعاً من الخزف أو من الخشب يجب رميه بعد استعماله ، وأما ما كان منها مصنوعاً من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد ، وجب إعادة صقله ؛ ولا يلبث الهنود بعد فراغهم من طعامهم أن يلوكوا مساويكهم لتنظيف أسنانهم ، ولا يلمس أحد منهم أحداً إلا إذا اغتسلوا متوضئين »(١٧٢)

(*) قال هندى كبير — هو لاجبات راى — مخاطباً أوروبا : « قبل أن تعرف الشعوب الأوروبية شيئاً من قواعد الصحة بزمن طويل . وقبل أن تتبين فوائد فرجون الأسنان والاستحمام اليومى بزمن طويل ، كان الهنود بصفة عامة يتبعون العادتين ، فلم يكن فى منازل لندن أحواض للاستحمام حتى عشرين سنة مضت ، وكان فرجون الأسنان من أسباب الترف الكمالى(١٧١) .

فمن عادة البرهمى أن يغسل يديه وقدميه وأسنانه قبل كل وجبة وبعدها وهو يأكل بأصابعه من الطعام الذى يُقدم على ورقة من أوراق الشجر اعتقاداً منه أنه مما يتنافى وقواعد النظافة أن يأكل مرتين من طبق واحد ، بسكين واحدة أو شوكة واحدة ، حتى إذا ما فرغ من طعامه ، غسل أسنانه سبع مرات(١٧٣) وفرجون أسنانه جديدة دائماً ، لأنها غصن شجرة يقطعه لتوه لأن الهندى يعتقد أنه مما يسىء إلى سمعته أن ينظف أسنانه بفرجون من شعر الحيوان ، أو أن يستعمل الفرجون الواحد مرتين(١٧٤) ، فما أكثر السبل التى يستطيع بها الناس أن يحتقروا بعضهم بعضا ؛ ولا ينفك الهندى يمضغ ورقة من أوراق نبات الفلفل التى تصبغ الأسنان صبغة قاتمة لا يرضاها لنفسه الأوروبى ؛ بل لا يرضاها الهندى نفسه ، لكن هذه المضغة مضافة إلى الأفيون الذى يأكله حيناً بعد حين ، يعوضانه عن امتناعه المألوف عن تدخين التبغ واحتساء المسكرات :

فى كتب القانون الهندى نصوص صريحة على ما ينبغى اتباعه من القواعد الصحية فى حيض المرأة(١٧٥) ، وفى تلبية نداء الطبيعة ؛ فلن تجد من القوانين ما هو أدق فى ذكر التفصيلات وأرْصَنُ فى طريقة التعبير ، من تلك التى تذكر طقوس التبرز عند البراهمة(١٧٦) فالبرهمى إذا ما انخرط فى سلك الكهنوت وجب ألا يستعمل فى هذه الطقوس إلا يده اليسرى ، ويجب أن يستخدم الماء فى تنظيف هذه الأجزاء ، وإنه ليعيد بيته نجساً إذا دخله الأوروبيون ، لأنهم يكتفون فى هذه العملية بالورق(١٧٧) ، وأما المنبوذون وكثيرون من طبقة الشوادرا فهم أقل من ذلك مراعاة للدقة ، وقد يزيلون هذه الضرورة الطبيعية فى أى مكان ، من جانب الطريق(١٧٨) ، ولذا فإن الأحياء التى تسكنها هذه الطوائف يُكتفى فيها من أجل الصحة العامة « بمجرور » مفتوح يشق فى وسط الطريق(١٧٩) .

وفى مناخ حار كمناخ تلك البلاد ، تكون الثياب نافلة ، فكنت ترى السائلين والأولياء الصالحين عراة الأجسام ، وبذلك العرى أكملوا درجات

السلم الاجتماعى ؛ ولقد تهددت إحدى طوائف الجنوب – كما فعلت قبيلة دوخوبور فى كندا – بالهجرة إلى مكان آخر لو اضطر أفرادها إلى لبس الثياب(١٨٠) ، وكانت العادة فى أواخر القرن الثامن عشر – على الأرجح – أن يسير الجنسان فى الهند الجنوبية (ولا يزال الناس على هذه الحال فى بالى) عراة فيما يعلو أوساطهم(١٨١) ، وكان الأطفال يكتسون فى الأغلب بخرزات وحلقات ؛ ومعظم الناس يمشون حفاة الأقدام ؛ وإن لبس الهندى الأصيل حذاء اتخذه من القماش ، لأنه لا يجوز تحت أى ظرف أن ينتعل حذاء من الجلد ؛ وعدد كبير من الرجال كان يكفيه من الثياب خرقة على ردفيه ، فإذا أرادوا الزيادة من الغطاء لفوا أوساطهم بثوب ، وطرحوا طرفه المرسل على الكتف اليسرى ؛ وأما أهل راجپوت فكانوا يلبسون السراويل من كل لون وشكل ، وصداراً مخروماً بمنطقة فى أسفله ، ولفاعاً حول الرقبة ، وخفّاً أو حذاء فى القدم ، وعمامة على الرأس ؛ جاءتهم هذه العمامة مع المسلمين ، ثم أخذها الهنود ، وجعلوا من عادتهم أن يلفّوها لفّاً متقناً حول رؤوسهم فى أشكال مختلفة تدل على طبقة لابسها ، لكنها فى جميع الحالات تتألف من قماش حريرى لا ينتهى طوله ، تظل تفكه بغير نهاية كأنه مسحور ، فقد يبلغ طول القماش فى العمامة الواحدة – إذا ما نشرته – سبعين قدماً(١٨٢) ؛ ونساؤهم يلبسن أثواباً فضفاضة من حرير يسمونها «سارى» أو يلبسن «خداراً» من نسيج البلاد ، يتلفعن به على أكتافهن ، ويربطنه عند الوسط ربطاً وثيقاً ، ثم يرسلنه على القدمين ، وهن يتركن أحياناً جزءاً من أجسادهن البرونزية عارياً تحت الثديين ؛ ومن عاداتهم كذلك أن يطلوا شعورهم بالزيت ليقيهم حرارة الشمس اللافحة ؛ أما الرجال فيفرقون شعورهم فى الوسط ، ثم يجمعون أطرافه فى حزمة خلف الأذن اليسرى ، وأما النساء فيضفرن بعض شعرهن حويّةً فوق الرأس ، ثم يرسلن بقية الشعر إرسالا ، وكثيراً ما يزيننه بالزهور ، أو يغطينه بلفاع ؛ فكان لرجالهم هندام لطيف ، ولفتياتهم جمال ، وجميعهم

ذوو قوام رائع(١٨٣) ، وكثيراً ما يكون الهندى من عامة الناس بقماشة ثوبه على ردفيه أكثر فى طلعته جلالا من دبلوماسى أوروبى كامل الثياب الرسمية .

ومن رأى « پيير لوتى » : « أنه مما لا يحتمل جدالا أن جمال الجنس الآرى يبلغ ذروة كماله ورقته فى الطبقة العليا فى الهند(١٨٤) » وكلا الجنسين ماهر فى استخدام الدهون للتجمل . ونساؤهم يشعرن كأنما هن عراة إذا كن بغير حلى ؛ وعندهم أن خاتماً يوضع فى جانب الأنف الأيسر يدل على الزواج ، وفى معظم الحالات ، تراهم يرسمون على الجبهة رمزاً يدل على العقيدة الدينية .

وإنه لمن العسير أن تنفذ خلال هذه الظواهر الخارجية لتصف أخلاق الهنود ، لأن كل شعب فيه خليط من فضائل ورذائل ، وترى الزائرين يختارون من هذه ما يروقهم بحيث يؤيدون وجهة نظرهم أو يزينون رواياتهم بما يمتع : يقول « الأب دبوا » : « أظن أن أبشع رذائلهم هو الخيانة والخداع والغش ... وهى صفات شائعة بين الهنود جميعاً . . . . ويقيناً أنك لن تجد على الأرض شعباً يستخف بحلف اليمين أو شهادة الزور كما يستخفون(١٨٥) » . ويقول « وسترمارك » : « لقد قيل إن الكذب هو الرذيلة القومية عند الهنود »(١٨٦) ويقول ماكولى : « الهنود مخادعون متلونون(١٨٧) » فالكذب إذا اقترف بنية حسنة كان مغتفراً فى رأى « مانو » وفى مواضعات الحياة العملية ؛ فمثلا إن كان قول الصدق سيؤدى إلى موت كاهن ، فالكذب عندئذ له ما يبرره(١٨٨) لكن « يوان شوانج » يروى لنا فيقول « إنهم لا يعرفون الخداع ويرعون التزاماتهم التى أقسموا عليها ... وهم لا يعتدون على ما ليس لهم مستعمدين ، ويتنازلون عن حقوقهم أكثر مما تقتضى العدالة(١٨٩) » . ويقول « أبو الفضل » الذى لا يذهب بهواه مع الهنود ، يقول عن هنود القرن السادس عشر : « إنهم متدينون ، محبون إلى النفوس ، مرحون ، محبون للعدل ، زاهدون فى الحياة ، قادرون فى التجارة ، يدعون للصدق ، ويعترفون بالجميل ، ويتصفون بالوفاء

الذى لا حد له(١٩٠) » . ويقول عنهم «كير هاردى» الأمين : « إن أمانتهم مضرب الأمثال ، فهم يقترضون ويقرضون ، لا تلزمهم فى ذلك إلا كلمة غير مكتوبة ، ويكادون لا يعرفون عدم الوفاء للدين(١٩١) . ويقول قاض بريطانى فى الهند : « لقد عرضت أمامى مئات القضايا حيث كانت أملاك الفرد منهم وحريته وحياته متوقفة كلها على كذبة يقولها ، ومع ذلك يأبى على نفسه الكذب(١٩٢) . فكيف لنا أن نوفق بين هذه الشهادات المتضاربة؟ يجوز أن يكون التوفيق بينها غاية فى البساطة ، وهو أن بعض الهنود أمين وبعضهم خائن .

وكذلك قل إن الهنود غاية فى القسوة وغاية فى الرقة فى آن معاً ؛ فلقد استحدثت اللغة الانجليزية لفظة قصيرة قبيحة ، استعارتها من تلك الجمعية السرية العجيبة — التى تكاد تكون طبقة اجتماعية — جمعية « الغادرين » التى ارتكبت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر آلاف الجرائم الشنيعة ، وذلك — كما قالوا — بغية تقديم هؤلاء الضحايا قرابين للإلاهة «كالى»(١٩٢) ، وأما الكلمة التى استحدثتها اللغة الإنجليزية لتدل على هؤلاء الغادرين فهى Jhugs وقد كتب عنهم « فنسنت سمث » بلغة ليست غريبة عن عصرنا هذا ، فقـــال :

« هذه العصابات توشك ألا تخشى أحداً ، وتكاد تتمتع بحصانة تامة ... ، فلها دائما حُماةٌ أقوياء ، ولقد هبط الشعور الخلقى عند الناس هبوطا بحيث لا تشهد فيهم أثراً للجزع من هذه الجرائم المدبّرة التى يقترفها هؤلاء « الغادرون » . ذلك أن هذه الفئة المجرمة قد انخرطت فى مجرى أمور الحياة جزءاً منها لا يتجزأ ؛ وقبل أن يفتضح سر هذه الجمعية ، ... كان يستحيل عادة أن تظفر بدليل يثبت الجريمة على هؤلاء الغادرين ، حتى الذين اشتهروا منهم بين الناس(١٩٣) .

ورغم ذلك فالجرائم فى الهند قليلة نسبياً ، وحوادث الاعتداء نادرة ، فالعالم كله مُجمِع على أن الهنود من الوداعة بما أوشك أن يكون جُبناً وضعفاً(١٩٤)»

فهم يجاوزون الحدود فى التزلف وحسن الطوية ، وقد طحنتهم رحى الغزو والحكومات المستبدة الأجنبية زمناً امتد وطال إلى حدٍّ أفقدهم القدرة على أن يكونوا من المقاتلين الأشداء ، إلا إذا فهمنا القتال بمعنى احتمال الألم ، عندئذ ترى لديهم من الشجاعة ما لا يشق لهم فيه غبار(١٩٥) ولعل أبشع سيئاتهم عدم المبالاة والكسل ، ولو أن هاتين الصفتين فى أعين الهنود ليستا من السيئات ، بل هما ضرورتان للمناخ ومواءمة أنفسهم لجوّ بلادهم ، مثل حلاوة الطبع ، التى تتصف بها الشعوب اللاتينية ، والحمى الاقتصادية التى جُنّ بها الأمريكيون والهنود حساسون ، عاطفيون ، وذوو أهواء وأصحاب خيال ؛ ولذلك تراهم أبرع فى الفن والشعر منهم فى الحكم والتنفيذ ، فلئن وجدتهم يستغلون بعضهم بعضاً استغلالا فيه من الشدة والعنف ما تلمسه فى المستغلين لسواهم فى أى بلد من بلاد العالم ، فقد كانوا كذلك يتصفون بسخاء لا يقف عند حدٍ ، وهم أكرم أهل الأرض للضيف ، إذا ماغضضت النظر عن الشعوب الهمجية الأولى(١٩٦) فحتى أعداؤهم لا يسعهم إلا الاعتراف بحسن مجاملتهم(١٩٧) ، وهـذا هو إنجليزىّ سمح الأخلاق يلخص لنا تجاربه الطويلة فيعزو للطبقات العليا من أهل كلكتا « آداب السلوك المهذبة ووضوح التفكير وكماله وشعور التسامح والتمسك بالمبدأ ، مما يطبعهم بطابع السادة المهذبين فى أى بلد من بلاد العالم »(١٩٨).

والعبقرية الهندية فى عين الغريب عن البـلاد تبدو حزينة سوداء ، لا شك فى أن الهنود لم يصادفهم فى الحياة كثير مما يبرر لهم المرح ، وتشير محاورات بوذا إلى أنواع كثيرة مختلفة فى اللعب ، بينها لعبة شديدة الشبه جداً بلعبة الشطرنج(١٩٩)(*) ، لكن لا هذه الألعاب ولا التى أعقبتها تدل على فرح

(*) الشطرنج من القدم بحيث ترى نصف الشعوب القديمة تدعيه لنفسها لكن الرأى السائد بين الباحثين فى منشأ هـذه اللعبة هو أنها نشأت فى الهند ، ويقينا أننا نجد هناك أقدم شبيه لها مما لا يحتمل الجدل (حوالى سـنة ٧٥٠ ميلادية) ، وكلمة شطرنج بالإنجليزية chess جاءت اشتقاقاً من الكلمة الفارسية شاه ومعناها ملك ، وكلمة « كش الملك » بالإنجليزية Checkmate =

ومرح كاللذين تراهما فى ألعاب الغربيين ، وأدخل « أكبر » لعبة « البولو »(*) فى الهند فى القرن السادس عشر ، التى جاءت على الأرجح من بلاد فارس ثم شقت طريقها عَبْر التبت إلى الصين واليابان(٢٠٢) وكان يمنعه أن يلعب لعبة « باشيسى » (وهى تسمى اليوم پارشيسى) فى مربعات تحفر فى أرض فناء القصر فى « أجْرا » ، وكان يتخذ للعبة قطعاً حية من الإماء الجميلات(٢٠٣).

وكانت الأعياد الدينية الكثيرة تخلع لوناً زاهياً على حياة الشعب ، وأعظم هذه الأعياد « دورجا — بوچا » الذى يقام تكريماً للإلهة الكبرى أم الآلهات « كالى » ، فيأخذ الهنود فى الاحتفال والغناء عدة أسابيع قبل قدوم ذلك العيد ، ثم يأتى يوم الحفل العظيم ، فيسير موكب تحمل فيه كل أسرة تمثالا للإلهة ، ويتجه صوب الكنج حيث يلقون فى النهر بتلك التماثيل الصغيرة ، ثم يعود الجميع إلى ديارهم ليس على وجوههم شىء من علائم المسرح السابق .

— هى فى الأصل « شاه مات » أى « مات الملك » ويسميه العرس « شطرنج » ولقد أخذوا الكلمة واللعبة كلتيهما من الهند عن طريق العرب ، وكانت اللعبة فى الهند يطلق عليها اسم « شاطورنجا » ومعناها « الزوايا الأربع » — الفيلة والجياد والعربات الحربية والمشاة ؛ ولا يزال العرب يسمون القطعة التى هى بالإنجليزية **Bishop** بالفيل(٢٠٠) .

ويروى لنا الهنود أسطورة ممتعة يعللون بها نشأة اللعبة ، فتقول هذه الأسطورة إنه فى بداية القرن الخامس من التاريخ الميلادى ، أساء ملك هندى إلى أعوانه المعجبين به من طبقتى البراهمة والكشاترية ، وذلك بأن أهمل مشورتهم ناسياً أن حب الشعب له أرسخ دعامة لعرشه ، فأخذ برهمى — يدعى سيسا . على نفسه أن يفتح عينى الملك الشاب باختراعه لعبة تكون فيها القطعة التى تمثل الملك — رغم سموها عما عداها فى الجلال والقيمة (كما هى الحال فى حروب الشرق) — إذ تركت وحدها تكاد تتجرد من كل حول وقوة ، ومن ثم جاءت لعبة الشطرنج ؛ ولقد أعجب الملك باللعبة إعجاباً دعاه إلى أن يطلب إلى سيسا أن يحدد لنفسه ما شاء من جزاء ، فطلب سيسا فى تواضع حفنة من أرز ، وإنما يحدد مقدارها بأن توضع حبة واحدة من الأرز فى المربع الأول من مربعات رقعة الشطرنج ، وعددها أربعة وستون ؛ ثم يضاعف فى كل مربع لاحق عدد حبات الأرز فى المربع السابق . فوافق الملك من فوره ، لكنه سرعان ما دهش إذا رأى أن وعده ذاك يقتضى أن يدفع كل ما فى ملكه ، فانتهز « سيسا » هذه الفرصة السانحة ، وأشار إلى مولاه كيف يمكن للملك أن يضل عن جادة السبيل إذا ازدرى رأى مستشاريه(٢٠١) .

(*) وهى من كلمة فى التبت تنطق **Pulu** ، وجعلتها اللهجة الهندية البالتية **Polo** ومعناها كرة **Ball** راجع علاقة الكلمة باللاتينية **Pila** .

وأما الاحتفال « المقدّس » الذى كانوا يقيمونه تكريماً للإلهة « فاسانتى » فقد كان يصطبغ بشىء من المجون ، إذ يحملون – وهم مشاة فى صف – رموزاً للعلاقة الجنسية يهزونها هزات تمثل حركات العملية الجنسية(٢٠٥) وكان وقت الحصاد فى « شرتاناجيور » إيذاناً بإباحية خلقية « حيث يطرّح الرجال جانباً كل أوضاع التقاليد ، ويخلع النساء عن أنفسهن كل حياء ، ويترك للفتيات الحبل على الغارب يفعلن ما شئن بغير قيود » ؛ وهناك قبيلة تدعى « پارجانى » – وهى طبقة من الفلاحين تسكن تلال « راج محل » – تقيم احتفالا زراعياً كل عام ، يباح فيه لغير المتزوجات أن ينغمسن فى علاقات جنسية حرة من كل ضابط أو نظام(٢٠٦) .

ولا شك أن فى هذه الحفلات آثاراً من السحر الزراعى القديم الذى كان مراده أن يزيد الأسر والحقول خصوبة ؛ وأما حفلات الزواج التى تتمثل فيها أكبر حادثة فى حياة الهندى ، فقد كانت أكثر احتشاماً ، وكم من أب جلب على نفسه الخراب فى إعداد وليمة فاخرة بمناسبة زواج ابنته أو ابنه(٢٠٧) .

وفى ختام الحياة يقام حفل ختامى . هو الاحتفال بإحراق جثمان الميت ؛ فقد كانت الطريقة المألوفة فى أيام بوذا هى الطريقة الزرادشتية فى تعريض الجثة لسباع الطير ، إلا إن كان الميت من الأعلام البارزين ، فعندئذ تحرق جثته بعد موته ، على كومة من الحطب ، ثم يدفن رماده فى ضريح يحفظ ذكراه(٢٠٨) لكن هذه الطريقة فى إحراق الجثة عمت الناس جميعاً فيما بعد ، حتى لترى كل ليلة حطباً يجمع ويكوَّم لإحراق الموتى ؛ وفى عصر « يوان شوانج » لم يكن من الحوادث النادرة أن يُقْبِل الكهول المتقدمون فى السن على الموت راضين ، فيطلبوا إلى أبنائهم أن يسبحوا فى زورق على نهر الكنج إلى منتصفه حيث يقذفون بأنفسهم فى نهر الخلاص(٢٠٩) . ومثل هذا الانتحار فى ظروف معينة قد صادف فى الشرق قبولا أكثر مما صادف فى الغرب ؛ فكان مباحاً فى عهد « أكبر » للكهول وللمرضى الذين لا رجاء

فى شفائهم ؛ ولأولئك الذين ابتغوا بقديم أنفسهم قرباناً للآلهة ؛ وإن بين الهنود آلافاً كان آخر عبادتهم أن يُجيعوا أنفسهم حتى الفناء ، أو أن يدفنوا أنفسهم فى الثلج ، أو يهيلوا على أنفسهم روث البقر ثم يشعلوا فيه النار ، أو أن يتركوا أنفسهم للتماسيح تلتهمهم عند مصب الكنج ؛ ولقد نشأ بين البراهمة نوع من « الهاراكيرى » (وهو اسم للانتحار عند اليابانيين يأتونه تخلصاً من عار) فينتحر المنتحر ليردّ عن نفسه أذى أو يحتج على إهانة ؛ وحدث أن فرض أحد ملوك راجپوت ضريبة على طبقة الكهنة ، فطعن عدد كبير من أغنى البراهمة أنفسهم انتحاراً بين يديه ، وهم يستنزلون عليه لعنة هى فى زعمهم أبشع اللعنات وأشدها أثراً — ألا وهى لعنة يستنزلها كاهن وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ؛ وتنص كتب التشريع البرهمى على أن من أراد أن ينتزع روحه بيده ، عليه صيام ثلاثة أيام ، وأما من حاول الانتحار وفشل فى إنجازه فعليه أن يؤدى أقسى ما عرفوه من كفّارة وتوبة(٢١٠)، ألا إن الحياة مسرح له مدخل واحد ومخارج عدة .

الباب الثامن عشر

فردوس الآلهة

لم تبلغ العقيدة الدينية من القوة أو الأهمية فى أى قطر من أقطار الأرض ما بلغته فى الهند ؛ فلئن أباح الهنود لحكومات أجنبية أن تقوم عليهم مرة بعد مرة ، فبعض السبب فى ذلك هو أنهم لم يأبهوا كثيراً من ذا عسى أن يحكمهم أو أن يستغلهم ــ فسواء أكان هؤلاء من بنى وطنهم أم من الأجانب ــ ذلك لأن الأمر الخطير فى رأيهم هو الدين ، لا السياسة ؛ الروح لا البدن ، هو الحيوات الآتية التى لا نهاية لعددها ، لا هذه الحياة العابرة ؛ وإن قوة الدين وتمكنها من أقوى الرجال بأساً لتظهر جلية فى اصطناع « أشــوكا » حياة القديسين ، وفى إقبال « أكبر » على الديانة الهندية إقبالا كاد يكون تاماً ؛ وها نحن أولاء فى عصرنا هذا نرى أن من وَحَّد أجزاء الهند أمة واحدة رجل أقرب إلى القديسين منه إلى رجال السياسة .

الفصل الأول

الشطر الثانى من تاريخ البوذية

البوذية فى أوجها – البلاغان – « ماهايانا » – البوذية
والرواقية والمسيحية – تدهور البوذية – انتشارها فى سيلان
وبورما ، وتركستان ، وتبت ، وكبوديا ، والصين ، واليابان

بلغت البوذية أوج رفعتها فى الهند بعد موت « أشوكا » بمائتى عام ؛ وقد كانت الفترة التى ارتفعت فيها البوذية من « أشوكا » إلى « هارشا » فترة صعود بمعان كثيرة ، صعود فى الدين والتعليم والفن : غير أن البوذية التى سادت لم تكن بوذية بوذا ؛ والأقرب إلى الصواب أن نقول فى وصفها إنها بوذية تلميذه الثائر « ضجاذا » الذى قال للرهبان عند سماعه بموت أستاذه : « كفى ياسادة ! كفّوا عن البكاء ، هذا يجدر بكم وهذا لا يجدر ، أما الآن ففى مقدورنا أن نصنع ما شاء لنا هوانا ، وأما ما لا يصادف من نفوسنا هوى ، فلن يلزمنا أحد على أدائه »(١) .

وأول ما أوحت لهم حريتهم أن يصنعوه هو أن ينشقوا أحزاباً ؛ فلم يمض على موت بوذا قرنان من الزمان ، حتى انقسم تراثه ثمانية عشر مذهباً متبايناً فأما أتباع البوذية فى جنوب الهند وجزيرة سيلان ، فقد استمسكوا حيناً بمذهب صاحب العقيدة فى بساطته وصفائه ؛ وقد أطلق على هذه الشعبة من مذهبه فيما بعد اسم « هنايانا » ومعناها « البلاغ الأصغر » ؛ فقد عبدوا بوذا باعتباره معلماً عظيماً ، لا إلهاً ؛ وكان كتابهم المقدس هو النصوص المكتوبة باللغة « اليالية » التى تبسط العقيدة فى صورتها القديمة ؛ وأما فى الأرجاء الشمالية من الهند والتبت ومنغوليا والصين واليابان ، فالبوذية التى سادت هى التى يطلق عليها اسم « ماهايانا » ومعناها « البلاغ الأكبر » الذى رسم حدوده ونشر

دعوته « مجلس كانيشكا » ؛ فأعضاء هذا المجلس ، وهم من اللاهوتيين الموهوبين (من الوجهة السياسية) قد أعلنوا ألوهية بوذا وأحاطوه بالملائكة والقديسين ، واصطنعوا تقشف « اليوجا » الذى عُرف فى « باتانجالى » وأصدروا باللغة السنسكريتية مجموعة جديدة من المراسيم المقدسة التى على الرغم من قبولها بعد حين قصير للشقشقة الميتافيزيقية والاسكولاتية إلا أنها قد أعلنت وأيدت عقيدة دينية أقرب إلى نفوس الناس من الصورة السوداء المتشائمة المتزمتة التى عُرفت فى « شاكيا مونى » .

كان مذهب « ماهايانا » بوذية خففت من حدتها آلهة وطقوس وأساطير برهمية ، ولاءمت بين نفسها وبين حاجات قبائل التتار فى « كوش » والمنغول فى التبت ، الذين بسط عليهم « كانشكا » سلطانه ، فقد صور ذلك المذهب جنة فيها بوذيون كثيرون ، كان أحبهم إلى عامة الناس « أميدا بوذا » المخلص ؛ وهذه الجنة وجهنم التى تقابلها كانتا ثواباً أو عقاباً لما يأتيه الناس على هذه الأرض من خير أو شر ، وهذان العاملان الوادعان كان لهما أثر فى تحويل بعض جنود الملك من رقابة سلوك الناس إلى خدمات أخرى ؛ وأعظم القديسين فى هذا اللاهوت الجديد هى فئة « بوذا بساتوا » ومعناها « بوذا المستقبل » الذين امتنعوا باختيارهم عن القيام بالنرفانا (ومعناها هنا التخلص من العودة إلى ولادة جديدة) التى كانت من حقهم وفى مقدورهم ، وذلك لكى يولدوا فى حياة بعد حياة ، فيساعدوا غيرهم من الناس فى هذه الدنيا فى الاهتداء إلى سواء السبيل(*) وهؤلاء القديسون — مثلهم مثل نظائرهم فى مسيحية البحر الأبيض المتوسط — سرعان ما ظفروا بحب الناس لهم حتى كان عبادهم والمعجبون بهم من رجال الفن يزحمون بهم وبتماثيلهم مدافن العظماء ؛ وازدهرت فى البوذية كما ازدهرت فى مسيحية العصور الوسطى — بل لعلها ظهرت فى

---

(١) فى كتاب من «البورانا» أسطورة نموذجية عن ملك كان جديراً بالجنة لكنه آثر البقاء فى جهنم ليواسى المعذبين ، وأبى أن يغادرها حتى أطلق سراح المعضوب عليهم جميعاً(٢) .

البوذية فى تاريخ أسبق (*) — قدسية الآثار الباقية من السلف ، واستخدام الماء المقدس ، والشموع ، والبخور والمسبحة ، والثياب الكهنوتية ، ولغة الكهنوت الميتة ، والرهبان والراهبات وقص الشعر والفردية مما تقتضيه حياة الأديرة والاعتراف والصيام أياماً معينة ، وتدشين القديسين والتطهير والصلاة والدعاء للموتى : ولقد أصبح كتاب « ماهايانا » بالقياس إلى « هنايانا » أى البوذية الأولى ما كانت الكاثوليكية بالنسبة إلى الرواقية والمسيحية الأولى ، فقد أخطأ بوذا — كما أخطأ لوثر — فى ظنه أن شعائر الطقوس الدينية العلمية يمكن أن تحل محلها المواعظ والدروس الأخلاقية ، وما أقرب الشبه بين نجاح البوذية حين امتلأت بالأساطير والمعجزات والاحتفالات والقديسين الذين يتوسطون بين الأرض والسماء بالنجاح الذى لقيته الكاثوليكية قديماً وحاضراً ، لما فيها من زخرف وتمثيل ، وانتصارها على المسيحية الأولى والبروتستنتية الحديثة فى بساطتها الخالية من كل زخرف .

وإيثار عامة الناس لتعدد الآلهة والمعجزات والأساطير ، هذا الإيثار نفسه الذى قضى على بوذية بوذا ، قضى كذلك فى نهاية الأمر على بوذية « البلاغ الأكبر » نفسها فى الهند ، ذلك لأن البوذية — ودعنا هاهنا نتحدث بحكمة المؤرخ التى تشرق بعد فوات الحوادث — إذا كانت لا تأخذ كل هذا الذى أخذته من الديانة الهندية ومن أساطيرها وطقوسها وآلهتها ، فما كان ليمضى طويل وقت قبل أن تنمحى الفوارق بين الديانتين ولا يبقى من مميزات الواحدة من الأخرى إلا قليل جد قليل ؛ وإذن تمتص إحداهما الأخرى شيئاً فشيئاً ، والتى يتاح لها أن تطغى على الأخرى هى التى تكون أعمق الديانتين جذوراً

(*) يقول برجسون : « كانت البوذية أسبق من الكنيسة الرومانية بخمسة قرون فى ابتكار واصطناع الحفلات والمراسم المشتركة بين الديانتين »(٣) وقد بين « إدمندز » بالتفصيل ما بين كتب البوذية المقدسة وإنجيل المسيحية من شبه عجيب(٤) ، ومع ذلك ، فعلمنا بنشأة هذه العادات والعقائد يبلغ من الإبهام حداً لا يجيز لنا أن نصل إلى نتائج إيجابية فيما يختص بأسبقية فريق على فريق .

وأقربهما إلى نفوس الناس وأكثرهما مالا وأعزهما سنداً سياسياً ؛ لهذا أخذت الخرافة — ولعلها أن تكون من جنسنا البشرى بمثابة دماء الحياة — أخذت تتدفق من العقيدة الأقدم إلى العقيدة الأحدث تدفقاً سريعاً ، حتى رأينا الظواهر الجنسية الانفعالية نفسها التى كانت من طقوس العقائد « الشاكتية » تلتمس لنفسها مكاناً فى طقوس البوذية ، واستعاد البراهمة فى صبر ودأب نفوذهم ورعاية السلطان لهم شيئاً فشيئاً ، وأخيراً جاء نجاح الفيلسوف الشاب « شانكارا » فى استعادة الكلمة العليا لكتب الڤيدا ، وجعلها أساساً للتفكير الهندى ، بمثابة الخاتمة لزعامة البوذيين العقلية فى الهند .

وجاءت الضربة القاضية من خارج ، وكانت البوذية نفسها هى التى هيأت لهذه الضربة سبيلها ، على وجه من الوجوه ، ذلك أن حسن السمعة التى كان يتمتع بها أتباع بوذا ، واسمهم « سانفا » ، قد اجتذب إلى تلك الفئة — بعد عهد أشوكا — صفوة أهل « مجازا » وبهذا قضى على خيرة دماء القوم أن تفنى فى طائفة من رجال الدين لا تتزوج ولا تجاهد فى الحياة ، فشكا بعض المحبين لوطنهم ، حتى فى أيام بوذا نفسه، عن أن الراهب «جوتاما» لا يسمح للآباء أن ينسلوا الأبناء ، ويؤدى بالأسَر إلى الانقراض(٥) ؛ وكان من نتائج انتشار البوذية ونظام الأديرة فى السنة الأولى من التاريخ المسيحى ، أن امتصت من الهند عصارة الرجولة ، وتآمر ذلك العامل مع عامل الانقسام فأدى العاملان إلى فتح أبواب الهند للغزو الخارجى بغير عناء ؛ ولما جاء العرب وأخذوا على أنفسهم أن ينشروا وحدانية بسيطة رواقية النزعة ، نظروا فى ازدراء إلى الرهبان البوذيين الكسالى الذين يفتحون أيديهم للرشوة ويتجرون بالمعجزات ، وحطموا الأديرة وقتلوا ألوف الرهبان ، ونَفّروا كلَّ حريص على حياته من نظام الرهبنة فى الدير ، فأما من أفلتوا من يد القتل من هؤلاء الرهبان ، فقد عادوا واندمجوا فى الديانة الهندية التى كانت الأرومة الأولى

لهم ؛ وفتحت هذه الديانة القديمة الأصيلة صدرها تستقبل هؤلاء الزنادقة التائبين، وهكذا « قتلت البرهمية البوذية بضمة أخوية »(٦) :

ولا عجب فقد كانت البرهمية دائماً متسامحة ، تجادل البوذية وغيرها من مئات المذاهب إبان ارتفاعها وسقوطها ، بل قد تطيل معها الجدال ، لكنك لن تجد فى تاريخها كله مثلا واحداً للاضطهاد ؛ بل الأمر على نقيض ذلك ، إذ ترى البرهمية قد يسَّرت سبيل العودة لهؤلاء الخارجين عليها بأن اعترفت ببوذا إلها (اعتبرته مجسداً للإله فشنو) وأقلعت عن التضحية بالحيوان ، وقبلت فى صميم طقوسها مذهب البوذيين فى تقديس حياة الحيوان بأسره ، وهكذا أخذت البوذية تختفى فى هدوء وسلام من الهند ، إبان خمسة قرون كانت خلالها نهباً لعوامل التدهور البطىء(*) .

لكنها فى ذلك الوقت نفسه كانت تكسب لنفسها كل ما عدا الهند من العالم الأسيوى تقريباً ، فانتشرت أفكارها وآدبها وفنها فى سيلان وشبه جزيرة الملايو فى الجنوب ، وفى التبت وتركستان فى الشمال ، وفى بورما وسيام وكمبوديا والصين وكوريا واليابان فى الشرق ، وعلى هذا النحو امتصت كل هذه الأصقاع — ما عدا الشرق الأقصى — ما استطاعت امتصاصه وهضمه من المدنيَّة ، بنفس الطريقة التى امتصت بها أوروبا وروسيا الحضارة من الرهبان الرومانيين والبيزنطيين فى العصور الوسطى ؛ فمعظم هذه الأمم قد بلغ ذروة ثقافته بحافز من البوذية ، ولقد لبثت « أنورا ذابورا » فى سيلان منذ عهد أشوكا حتى انحلال البوذية فى القرن التاسع ، إحدى المدن الكبرى فى العالم الشرقى ، وظل الناس هناك ألفى عام يعبدون شجرة التين المقدسة عند

(*) عدد البوذيين اليوم فى الهند نفسها ثلاثة ملايين ، أى واحد فى المائة من السكان .

البوذيين ، وكان المعبد القائم على قمة جبال كاندى كعبة يحج إليها مائة وخمسون مليوناً من البوذيين فى آسيا(*) .

ولعل البوذية فى بورما أخلص ما بقى من ألوان البوذية من الشوائب الدخيلة وكثيراً ما يدنو رهبانها من المثل الأعلى الذى ضربه بوذا ؛ واستطاع أهل بورما البالغ عددهم ثلاثة عشر مليوناً من الأنفس أن يبلغوا بفضل تعاليم أولئك الرهبان مستوى من العيش أعلى مما فى الهند بدرجة ملحوظة(٧)؛ وكشف « سفن هيدن » و « أورل شتاين » و « پيلوت » من جوف الرمال فى بلاد التركستان مئات من المخطوطات البوذية وغيرها من شواهد الثقافة التى ازدهرت هناك منذ عهد « كانشكا » حتى القرن الثالث عشر الميلادى .

وحدث فى القرن السابع من تاريخنا المسيحى أن أقام المحارب المتنوّر « سترونج — تسان جامپو » حكومة قادرة فى التبت وضم إليها نيپال ، وبنى مدينة « لهاسا » لتكون عاصمة له ، وهيأ لها طريق الغنى بجعلها محطاً وسطاً فى التجارة بين الصين والهند ، ودعا طائفة من الرهبان البوذيين من الهند لينشروا البوذية والتعليم فى شعبه ، وعندئذ ترك الحكم أربعة أعوام أنفقها فى تعلم القراءة والكتابة ؛ فكأنما كان فاتحة عهد ذهبى فى بلاد التبت ، فأقيمت آلاف الأديرة فى الجبال وعلى النجد الفسيح ، ونُشر كتابٌ تشريعىٌّ يضم الكتب البوذية ، ويقع فى ثلاثة وثلاثين وثمانمائة مجلد ، حفظت للعلم الحديث كثيراً من أحوال هذه الكتب التى كانت قد ضاعت أصولها الهندية منذ زمن طويل(٨) ، وهاهنا فى هذه الصومعة التى أغلقت أبوابها دون العالم بأسره ، راحت البوذية تتطور فى شبكة معقدة من الخرافات والرهبنة والكهنوت ، لا ينافسها فى ذلك سوى

(*) يحتوى كاندى على « ناب بوذا » المشهور — وطوله بوصتان ، وقطره بوصة — وهو محفوظ فى وعاء مرصع بالجواهر ، ومستور عن أعين الناس فى حرص شديد ، وله موسم يحملونه فيه فى موكب رصين يجتذب البوذيين من كل بقاع الشرق ، وعلى جدران المعبد تصاوير تمثل بوذا الوديع وهو يقتل الأشرار فى جهنم ؛ وهكذا تذكرنا حيوات العظماء كيف تتحول طبائعهم بعد موتهم تحولا ليس لهم يد فيه .

أوربا فى أوائل عصورها الوسطى : ولا يزال « دالاى لاما » (أى الكاهن الشامل لكل شيء) الذى اختفى فى دير بوتالا العظيم الذى يطل على مدينة لهاسا ، موضع عقيدة عند أهل التبت ، بما تنطوى عليه نفوسهم من السذاجة الطيبة ، بأنه تجسيد حى « لبوذا المستقبل » (بوذا المنتظر[٩]) ؛ وفى كمبوديا والهند الصينية تعاونت البوذية مع الديانة الهندية فى تخطيط الإطار الذى قامت عليه روائع الفن فى عصر هو من أغنى العصور فى تاريخ الفن الشرقى ؛ وهكذا ترى البوذية — مثل المسيحية — قد ظفرت بأعظم انتصاراتها خارج الأرض التى أنبتتها ، وإنما ظفرت بتلك الانتصارات دون أن تريق نقطة واحدة من دماء .

الفصل الثانى

الآلهة الجديدة

الديانة الهندية – براهما ، ڤشنو ، شيڤا – كرشنا – كالى
الآلهة الحيوانية – البقرة المقدسة – تعدد الآلهة والوحدانية

لم تكن الديانة الهندية التى حلت محل البوذية ديانة واحدة ، كلا ولا كانت مقتصرة على كونها عقيدة دينية ، بل كانت خليطاً من عقائد وطقوس لا يشترك القائمون بها فى أكثر من أربع صفات ؛ فهم يعترفون بنظام الطبقات وبزعامة البراهمة ، وهم يقدسون البقرة باعتبارها تمثل الألوهية على نحو تمتاز به من سواها ، وهم يقبلون قانون «كارما» وتناسخ الأرواح ، وهم يضيفون إلى آلهتهم الجديدة آلهة الڤيدات ؛ ولقد كان بعض هذه العقائد أسبق من عبادة الطبيعة التى جاءت بها الڤيدا ، كما ظلت قائمة بعد زوال تلك العبادة ، وأما بعضها الآخر فقد نشأ من أن البراهمة كانوا يغضون أبصارهم عن ضروب من الطقوس والآلهة والعقائد لم ينص عليها كتابهم المقدس ، بل تناقضه روح الڤيدا مناقضة ليست باليسيرة ؛ فأتيحت الفرصة لتلك العقائد أن تنضج فى وعاء الفكر الدينى عند الهنود ، ومضت فى نضجها ذاك حتى فى الفترة العابرة التى ارتقت فيها البوذية إلى مكان السيادة العقلية فى البلاد ؛

كان آلهة العقيدة الهندية يتميزون بكثرة أعضائهم الجسدية التى يمثلون بها على نحو غامض قدرتهم الخارقة فى العلم والنشاط والقوة ؛ «فبراهما» الجديد كان له أربعة وجوه ، وكان لـ «كارتكيا» ستة وجوه ، ولـ «شيڤا» ثلاثة أعين ولـ «هندرا» ألف عين ، وكل إله عندهم تقريباً كان له أربع أذرعة(١٠) وعلى رأس هذه المجموعة الجديدة من الآلهة «براهما» الذى كان له من الشهامة ما أبعده عن الميل مع الهوى ، وهو سيد الآلهة المعترف له بتلك السيادة ، على الرغم

من أنه مُهمَلٌ فى شعائر العبادة الفعلية إهمال الملك الدستورى فى أوربا الحديثة ؛ و « براهما » و « شيڤا » و « ڤشنو » هم الثلاثة الآلهة (لا الثالوث) الذين يسيطرون على الكون ، وأما « ڤشنو » فهو إله الحب الذى كثيراً ما [illegible] ، إنساناً ليتقدم بالعون إلى بنى الإنسان ؛ وأعظم من يتجسد فيه « ڤشنو » هو « كِرِشْنا » ، وهو فى صورته « الكرشنية » هذه ، قد ولد فى سجن وأتى بكثير من أعاجيب البطولة والغرام ، وشفى الصُّم والعمى ، وعاون المصابين بداء البرص ، وذاد عن الفقراء ، وبعث الموتى من قبورهم ؛ وكان له تلميذ محبب إلى نفسه ، وهو « أرْچونا » ، وأمام « أرچونا » تبدلت خِلقة « ڤشنو » حالا بعد حال ؛ ويزعم بعض الرواة أنه مات مطعوناً بسهم ، ويزعم آخرون أنه قُتل مصلوباً على شجرة ؛ وهبط إلى جهنّم ثم صعد إلى السماء ، على أن يعود فى اليوم الآخر ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم(١١) .

الحياة ، بل الكون كله ، لها فى رأى الهندى ثلاثة وجوه رئيسية : الخلق ، والاحتفاظ بالمخلوق ، ثم الفناء ؛ ومن ثمّ كان للألوهية عنده ثلاث صور : براهما الخالق ، وڤشنو الحافظ . وشيڤا المدمِّر ؛ تلك هى « الأشكال الثلاثة » ، التى يقدسها الهنود أجمعين ما عدا الجانتيين منهم(*) ، والناس منقسمون بحبّهم طائفتين : إحداهما تميل إلى ديانة ڤشنو ، والأخرى إلى ديانة شيڤا ؛ وكلتا العقيدتين بمثابة الجارتين المسالمتين ، بل قد تتقدم كلتاهما بالقرابين فى معبد واحد(١٣) ، والحكماء من البراهمة ــ تتبعهم الأكثرية العظمى من سواد الناس ــ تكرم الإلهين معاً بغير تمييز لأحدهما ، أما الفشنيون الأتقياء فيرسمون

(*) فى تعداد سنة ١٩٢١ ، ينقسم الناس من حيث دياناتهم كما يلى :
الديانة الهندوسية ٢١٦,٢٦١,٠٠٠ ؛ والسيخ ٣,١٣٩,٠٠٠ ؛ والجانتيون ١,١٧٨,٠٠٠ والبوذية ١١,٥٧١,٠٠٠ (تقريبا كلهم من أهل بورما وسيلان) ؛ والزرادشتية (أو الفارسية) ١٠٢,٠٠٠ ؛ والمسلمون ٦٨,٧٣٥,٠٠٠ ، واليهود ٢٢,٠٠٠ ؛ والمسيحيون ٤,٧٥٤,٠٠٠ (أغلبهم أوروبيون)(١٢) .

على جباههم كل صباح بالطين الأحمر علامة ﻗﺸﻨﻮ ، وهى شوكة ذات أسنان ثلاث ، وأما الشيفيون المخلصون لعقيدتهم فيرسمون ثلاثة خطوط أفقية على جباههم برماد من روث البقر ، أو يلبسون « اللنجا » — رمز عضو الذكورة — ويربطونه إلى أذرعتهم أو يعلقونه حول أعناقهم[١٤] .

وعبادة « شيفا » هى من أقدم وأعمق وأبشع العناصر التى منها تتألف الديانة الهندية ؛ فيقدم لنا « سير چون مارشل » « دليلا لا يأتيه الباطل » على أن عقيدة « شيفا » كانت موجودة فى « مُوهِنْجُو . دارو » ، متخذة أحياناً صورة شيفا ذى الرؤوس الثلاثة ، وأحياناً أخرى صورة أعمدة حجرية صغيرة ، يزعم لنا أنها ترمز لعضو الذكورة على نحو ما ترمز له عندهم بدائلُها فى العصر الحديث ؛ وهو يخلص من ذلك إلى نتيجة هى أن « العقيدة الشيفية أقدم عقيدة حية فى العالم كله[١٥] »(*) .

واسم الإله — أعنى كلمة « شيفا » — لفظة أريد بها التخفيف من بشاعة الإله ، فالكلمة شيفا معناها الحرفى « العطوف » مع أن شيفا فى حقيقة الأمر إله القسوة والتدمير قبل كل شىء آخر ؛ هو تجسيد لتلك القوة الكونية التى تعمل واحدة بعد أخرى ، على تخريب جميع الصور التى تتبدى فيها حقيقة الكون — جميع الخلايا الحية وجميع الكائنات العضوية ، وكل الأنواع ، وكل الأفكار وكل ما أبدعته يد الإنسان ، وكل الكواكب ، وكل شىء ؛ ولم يسبق الهنود شعب قط فى شجاعتهم فى مواجهة الحقيقة التى هى عدم ثبات الأشياء على صورها ووقوف الطبيعة من كل شىء موقف الحياد، مواجهة صريحة ؛ ولم يسبقهم شعب قط فى اعترافهم اعترافاً واضحاً بأن الشر يتوازن مع الخير ، والهدم

(*) ومع ذلك فلا تجد اسم « شيفا » — كما لا تجد اسم براهما نفسه — فى كتاب (رج-فيدا) ويذكر لنا « پاتانجالى » النحوى صوراً شيفية ومريدين شيفيين حوالى سنة ١٥٠ قبل الميلاد[١٦] .

يساير الخلق خطوة خطوة ، وأن ولادة الأحياء بأسرها جريمة كبرى عقابها الموت ؛ فالهندى الذى تعذبه آلاف العوامل من عثرة الحظ والآلام ، يرى فى تلك الألوان من التعذيب أثراً ينم عن قوة نشيطة يمتعها — فيما يظهر — أن تحطم كل ما أنتجه براها ، وهو القوة الخالقة الطبيعية ؛ إن « شيفا » ليطرب راقصاً إذا ما سمع نغمة العالم فأدرك منها عالماً لا ينى يتكون وينحل ويعود إلى التكون من جديد .

ولكن كما أن الموت عقوبة الولادة ، فكذلك الولادة تخيب لرجاء الموت ؛ فالإله نفسه الذى يرمز للتدمير ، يمثل كذلك للعقل الهندى تلك الدفعة الجارفة نحو التناسل الذى يتغلب على موت الفرد باستمرار الجنس ؛ وهذه الحيوية الخلاقة الناسلة (شاكتى) التى يبديها شيفا — أو الطبيعة — تتمثل فى بعض جهات الهند ، وخصوصاً فى البنغال ، فى صورة زوجة شيفا ، واسمها « كالى » (بارفاتى ، أو أوما أو درجا) وهى موضع عبادة فى عقيدة من لعقائد الكثيرة التى تأخذ بمذهب « الشاكتى » هذا ؛ ولقد كانت هذه العبادة — حتى القرن الماضى — وحشية الطقوس كثيراً ما تتضمن فى شعائرها تضحية بشرية ، ولكن الإلاهة اكتفت بعدئذ بضحايا الماعز(١٧) : وهذه الإلاهة صورتها عند عامة الناس شبح أسود بفم مفغور ولسان متدل ، تزدان بالأفاعى وترقص على جثة ميتة ؛ وأقراطها رجال موتى ، وعقدها سلسلة من جماجم ، ووجهها وثدياها تلطخها الدماء(١٨) ومن أيديها الأربعة يدان تحملان سيفاً ورأساً مبتوراً ، وأما اليدان الأخريان فممدودتان رحمة وحماية : لأن « كالى — بارفالى » هى كذلك إلاهة الأمومة كما أنها عروس الدمار والموت ؛ وفى وسعها أن تكون رقيقة الحاشية كما فى وسعها أن تكون قاسية ، وفى مقدورها أن تبسم كما فى مقدورها أن تقتل ؛ ولعلها كانت ذات يوم إلهة أما فى سومر ، ومن ثم جاءت إلى الهند قبل أن تتخذ هذا الجانب البشع من جانبيها(١٩) ولا شك أنها هى وزوجها قد اتخذا أبشع صورة ممكنة لكى يلقيا الرعب فى نفوس الرعاديد من

عبادهما فيحتشموا ، أو قد تكون هذه البشاعة كلها قد أريد بها أن يلقى الرعب في نفوس العباد فيجودوا بالعطاء للكهنة(*) .

تلك هي أعظم آلهة الهندوسيين ، لكننا لم نذكر إلا خمسة من ثلاثين مليوناً من الآلهة تزدحم بها مقبرة العظماء في الهند ؛ ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى ذلك مائة مجلد ؛ وبعضها أقرب في طبيعته إلى الملائكة ، وبعضها هو ما قد نسميه نحن بالشياطين ، وطائفة منها أجرام سماوية مثل الشمس ، وطائفة منها تمائم مثل « لاكشمى » (الهة الحظ الحسن) ، وكثير منها هي حيوانات الحقل أو طيور السماء ؛ فالهندي لا يرى فارقاً بعيداً بين الحيوان والإنسان ، فللحيوان روح كما للإنسان ، والأرواح تمضي دواماً متنقلة من بني الإنسان إلى بني الحيوان ، ثم تعود إلى بني الإنسان مرة أخرى ؛ وكل هذه الصنوف الإلهية قد نسجت خيوطها في شبكة واحدة لا نهاية لحدودها ، هي « كارما » وتناسخ الأرواح ؛ فالفيل مثلا قد أصبح الإله « جانيشا » واعتبروه ابن شيفا(٢١) ، وفيه تتجسد طبيعة الإنسان الحيوانية ، وكانت صورته في الوقت نفسه تتخذ طلسما يقي حامله من الحظ السيء : كذلك كانت القردة والأفاعي مصدر رعب ، فكانت لذلك من طبيعة الآلهة ؛ فالأفعى التي تودي عضةُ واحدة منها إلى موت سريع ، واسمها « ناجا » كان لها عندهم قدسية خاصة ؛ وترى الناس في كثير من أجزاء الهند يقيمون كل عام حفلا دينياً تكريماً للأفاعي ، ويقدمون العطايا من اللبن والموز لأفاعي « الناجا » عند مداخل جحورها(٢٢) ؛ كذلك أقيمت المعابد تمجيداً للأفاعي كما هي الحال في شرق ميسور ، وهناك في هذه المعابد تسكن جموع زاخرة من الزاحف ، ويقوم

(*) ومع ذلك فكهنة العقيدة الشيفية يندر أن يكونوا من البراهمة ، ومعظم البراهمة ينظرون نظرة ازدراء وأسف إلى المذهب « الشاكتى »(٢٠) .

الكهنة على إطعامها والعنـــاية بها[٢٣] ؛ وللتماسيح والنمور والطواويس والببغاوات ، بل والفئران حقها من العبادة[٢٤] .

وأكثر الحيوان قدسية عند الهندى هى البقرة ، فترى تماثيل الثيرة مصنوعة من كل مادة وفى شتى الأحجام ، تراها فى المعابد والمنازل وميادين المدن ؛ وأما البقرة نفسها فأحب الكائنات الحية جميعاً إلى الهنود ، ولها مطلق الحرية فى ارتياد الطرقات كيف شاءت ، وروثها يستخدم وقوداً أو مادة مقدسة يتبركون بها ، وبولها خمر مقدس يطهر كل ما فى الجسم من نجاسة فى الظاهر والباطن ؛ ولا يجوز للهنـــدى تحت أى ظرف أن يأكل لحمها أو أن يصطنع من جلدها لباساً يرتديه — فلا يصنع منه غطاء للرأس ولا قفازاً ولا حذاء ؛ وإذا ماتت البقرة وجب دفنها بجلال الطقوس الدينية[٢٥] ، ولعل السياسة الحكيمة هى التى رسمت فيما مضى هذا التحريم احتفاظاً للزراعة بحيوان الجر حتى يسد حاجة السكان الذين يتكاثرون[٢٦] ، وقد بلغ عدد البقر اليوم ربع عدد السكان[٢٧] ووجهة نظر الهندى فى ذلك هى أنه ليس أبعد عن المعقول أن تشعر بالحب العميق للبقرة والمقت الشديد لفكرة أكلها ، من أن تكنّ أمثال هذه المشاعر للحيوانات المستأنسة من قطط وكلاب ، لكن الذى يبعث على السخرية المرة فى الأمر هو عقيدة البراهمة بأن الأبقار لا يجوز ذبحها قط ، وأن الحشرات لا يحل إيذاؤها قط ، وأن الأرامل من النساء ينبغى أن يحرقن أحياء ؛ فحقيقة الأمر هى أن عبادة الحيوان قد ظهرت فى تاريخ الشعوب كلها ، فإن جاز للإنسان أن يؤله الحيوان إطلاقاً ، فللبقرة الرحيمة الهادئة حقها فى هذا التقديس ؛ ولا يجوز لنا أن نغلو فى كبريائنا حين تأخذنا الدهشة لهذه المعارض الحيوانية من آلهة الهنود ، فلنا كذلك إبليس عدن فى صورة الحية ، والثور الذهبى فى العهد القديم من الإنجيل ، والسمك المقدس فى سراديب الموتى ، وحَمَل الله الوديع .

إن سر تعدد الآلهة هو عجز العقل الساذج عن التفكير فيما ليس

مشخصاً ، فأيسر عليه أن يفهم الأشخاص من أن يعقل القُوَى ، وأن يفهم الإرادات من أن يتصور القوانين(٢٨) ، والظن عند الهندى هو أن حواسنا البشرية لا ترى من الحوادث التى تدركها سوى ظاهرها ، ويعتقد أن وراء هذه الظواهر كائنات روحية لاحصر لعددها ، يمكن إدراكها بالعقل لا بالحواس — على حد تعبير « كانْت » ؛ ولقد أدى تسامح البراهمة ذو المسحة الفلسفية ، إلى الزيادة من ذخيرة آلهتهم حتى ازدادت كثرة على كثرة ، وذلك أن الآلهة المحليين وآلهة القبائل المختلفة قد صادفت عند الهندى سهلا ومرحباً ، فقبَّلها وفسَّرها بأنها جميعاً تصور جوانب من آلهته الأصلية ؛ فكل عقيدة يُسمح لها بالدخول عندهم إن كان فى مستطاعها أن تدفع الضريبة على ذلك ، حتى كاد كل إله آخر الأمر أن يكون صورة أو صفة أو تجسيداً لإله آخر ، ثم تناول العقل الهندى الرشيد كل هذه الآلهة فدمجها فى إله واحد ، وهكذا تحول تعدد الآلهة إلى عقيدة بوحدة الوجود ، أوشكت عندهم أن تكون توحيداً ، والتوحيد بدوره أوشك أن يكون عندهم واحدية فلسفية ، فكما يتوجه المسيحى الورع بالدعاء إلى العذراء ، أو إلى قديس من آلاف القديسين ، ومع ذلك لا يتحول عن توحيده لله ، بمعنى أنه لا يعترف إلا بإله واحد على أنه ذو الجلال الأسمى ، فكذلك الهندى يتوجه بالدعاء إلى « كالى » أو « راما » أو « كرشْنا » أو « جانيشا » دون أن يتطرق إلى ذهنه لحظة واحدة أن هذه آلهة لها السيادة العليا(*) فترى بعض الهنود يتخذ من « فشنو » إلها أعلى ، وبعضهم يتخذ من « شيفا » إلها أعلى ، ويجعل فشنو أحد ملائكته ، وإذا وجدت بين الهنود أقلية تعبد « براهما » فما ذلك إلا لأنه مجرد عن التشخص ، ممتنع على الحواس ، بعيد عن الشر ، ولهذا السبب عينه ترى معظم الكنائس فى البلاد المسيحية قد أقيمت تكريماً لمارية أو لأحـــد القديسين ، وكان على المسيحية أن تنتظر حتى يجيئها فولتير فيقيم معبداً لله .

(*) فيما يلى عبارة مقتبسة من التقرير عن تعداد سنة ١٩١٠ ، المرفوع إلى الحكومة البريطانية فى الهند : « إن النتيجة العامة التى انتهيت إليها من البحث هى أن كثرة الهنود الغالبة تعتقد عقيدة راسخة فى كائن واحد أعلى »(٢٩) .

الفصل الثالث

العقـــائد

كتب « بيورانا » — عودة الكون بالتناسخ مرة بعد مرة
تقمص الروح فى عدة أجساد — « كارما » — جوانبها
الفلسفية — الحياة باعتبارها شراً — الخلاص

ويمتزج بهذا اللاهوت المعقد ، مجموعة معقدة من الأساطير فيها التخريف وفيها عمق الفكرة فى آن معاً ، فلما كانت كتب الڤيدا قد دفنت فى اللغة التى كتبت بها ، ثم لما كانت فلسفة البراهمة الميتافيزيقية تجاوز حدود أفهام الناس ، فقد نهض « ڤياسا » وآخرون فى مدة تطاولت إلى ألف عام (من ٥٠٠ ق . م إلى ٥٠٠ ب . م) وأنشأوا كتب « پيورانا » — ومعناها القصص القديمة — أنشأوها شعراً فى أربعمائة ألف دوبيت (الدوبيت بيتان من الشعر) يعرضون فيها لعامة الناس حقيقة خلق العالم بصورتها الدقيقة ، وما يطرأ عليه من مراحل الكون والفساد المتعاقبة على فترات دورية ، ونسبَ الآلهة ، وتاريخ عصر البطولة ؛ وليست تدعى هذه الكتب لنفسها غالباً أدبياً ولا نظاماً منطقياً ، ولا اعتدالا فى تقدير الأشياء بالأعداد ، من ذلك مثلا أنها تذكر عن الحبيبين « إرڤاشى » و « پورورافاس » أنهما قضيا واحداً وستين ألف عام فى سرور وغبطة[٣٠] ؛ لكنها مع ذلك أصبحت للديانة الهندية إنجيلا ثانياً لوضوح لغتها وروعة قصصها وسلامة العقيدة التى تشرحها ، كما أصبحت تلك الكتب للديانة الهندية مستودعاً عظيما لخرافاتها وأساطيرها ، بل وفلسفتها ؛ فهاك على سبيل المثال قطعة من « ڤشنوپورانا » تعبر عن أقدم فكرة جالت برأس الهندى وما فتئت تعاوده على طول الزمن — وأعنى بها الفكرة القائلة بأن استقلال الأفراد فى ذوات منفصلٌ بعضها عن بعض ، وهمٌ ، وأن الحياة كلها حقيقة واحدة :

« جاء « ربهو » بعد ألف عام .
إلى « نداغا » فى مدينته ليزيده عاماً .
فرآه خارج المدينة .
فى نفس اللحظة التى كان الملك فيها على وشك الدخول بحشد كبير من الأتباع ،
رآه واقفاً على مبعدة ، معتزلا بنفسه عن الزحام ،
ذاوى العنق من أثر الصيام ، وكان فى طريقه عائداً من الغابة ومعه بعض الوقود والكلأ
لما رآه « ربهو » قصد إليه وحيّاه قائلا :
« أيها البرهمى ! فيم وقوفك هاهنا وحيداً ؟ »
فقال « نداغا » : « انظرْ إلى الحشد محيطاً بالملك
الذى يوشك أن يدخل المدينة ، هذا هو علة وقوفى وحيداً »
فقال « ربهو » : « أى هؤلاء يكون الملك ؟
ومن عسى أن يكون الآخرون ؟
أنبئنى فيبدو عليك أنك بالأمر عليم »
فقال « نداغا » : « إن من يركب الفيل الأحمر ، عالياً برأسه كأنه قمة الجبل
هذ هو الملك ، والآخرون هم تابعوه » .
فقال « ربهو » : « إنك تشير إلى هذين ، إلى الملك والفيل
دون أن تميز بينهما بفاصل
قل لى أين أجد الفاصل بين هذا وذاك ؟
أريد أن أعلم أى هذين هو الملك ، وأيهما يكون الفيل ؟ »
فقال « نداغا » : الفيل أسفل ، والملك من فوقه ،

من ذا الذى لا يعلم علاقة الحامل بالمحمول ؟ »

فقال « ربهو » : « علمنى ذلك فقد أستطيع تعلمه » :

ما هذا الذى تشير إليه بقولك « أسفل » وبقولك « فوقه » ؟

فوثب نداغا من فوره على المعلم وخاطبه قائلا :

« هأنذا أعلمك ما أردت أن تتعلمه منى ،

أنا « أعلى » مثل الملك وأنت « أسفل » مثل الفيل ،

وإنما أسوق لك هذا المثل لأعلمك »

فقال ربهو : « إذاكنت فى موضع الملك ، وأنا فى موضع الفيل

فما أزال أطلب منك أن تنبئنى : أيّنا أنت أيّنا أنا ؟ »

فما لبث نداغا أن جثا أمامه وأمسك بقدميه وقال :

حقاً إنك « ربهو » أستاذى ...

بجوابك هذا عرفت أنك أنت شيخى قد أتى »

فقال « ربهو » : « نعم ، جئت لأعلمك

لأنك فيما سبق أبديت استعداداً لخدمتى ،

أنا هو « ربهو » قد جئت إليك

وهذا الذى علمتك إياه اختصاراً —

وهو صميم الحقيقة العليا — يتلخص فى نفى الثنائية من الوجود »(*)

وبعد أن فرغ الشيخ « ربهو » من حديثه هذا مع نداغا ، مضى لسبيله

ومن ثم أدار نداغا فكره — مهتدياً بهذا الدرس الرمزى الذى تعلمه —

فركزه كله فى اللاثنائية

(*) وهم يسمون عدم الثنائية بكلمة **Advaitam** ، وتعتبر هذه الكلمة مركز الفلسفة الهندية كلها ، وسنعود إلى ذلك فى فصل تال .

ومنذ ذلك الحين أخذ ينظر فى الكائنات كلها فلا يجد فيها ما يفرق
شيئاً منها عن نفسه
وبهذا شاهد براهما ، وحقق الخلاص الأعظم(٣١) .

فى كتب « پيورانا » هذه ، وفى أمثالها من آثار الهند فى عصورها الوسطى ، تقرأ نظرية عن الكون هى بعينها النظرية التى يقول بها العصر الحديث ؛ فليس هناك خلق بمعنى التكوين بعد العدم ، إنما هو كون يعقبه فساد أبد الدهر ، هو نماء يعقبه ذبول ، دورة بعد دورة ؛ كهذا الذى تراه متمثلا فى كل نبات فى العالم وكل حيوان ؛ والذى يحفظ مراحل هذه السيرة فلا تقف دورتها ، هو براهما – أو إن شئت فقل پراچاپاتى كما يسمى الخالق فى هذه الكتب التى نحن الآن بصددها – براهما هو القوة الروحية التى تفعل ذلك ، ولسنا ندرى كيف بدأ العالم ، إن كانت للعالم بداية ؛ يجوز أن يكون براهما – كما تذهب كتب پيورانا – قد جعل بداية العالم بيضة ثم احتضنها حتى أفرخت ؛ ويجوز أن يكون هذا العالم غلطة عابرة من الصانع ، أو فكاهة رأى فيها قليلا من تسلية(٣٢) ؛ وكل دورة – أو كالپا كما يسمونها – فى تاريخ الكون منقسمة إلى عصور كبرى – ويسمون كل عصر منها ماهايوجا – طول الواحد منها ٤,٣٢٠,٠٠٠ عام ، ثم ينقسم كل « ماهايوجا » إلى أربعة « يوجات » – أى عصور – يطرأ على الجنس البشرى خلالها تدهور تدريجى ؛ ولقد مضت ثلاثة أعصر من « الماهايوجا » – أى العصر الأعظم – الحاضر ، بلغ مداها ٣,٨٨٨,٨٨٨ عام ونحن الآن نعيش فى العصر الرابع – ويسمونه « اليوجا الكالى – ومعناها عصر الشقاء ؛ ومن هذه المرحلة انسلخ ٥٠٣٥ عام ، وبقى منها ٤٢٦,٩٦٥ عام ، وعندئذ يصيب العالم موت من ميتاته الدورية ، بعدها يبدأ براهما يوماً آخر من « أيام براهما » وما يومه إلا « كالپا » أى دورة طولها ٤,٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠ عام ؛ وفى كل دورة « كالپية » من هذه الدورات يتطور الكون بفعل العوامل الطبيعية ماراً بالخطوات الطبيعية ، وبفعل العوامل

الطبيعية مارا بالخطوات الطبيعية يعود إلى الانحلال ، وفناء العالم كله لا يقل فى يقينه عن موت فأر ، وليس فناء العالم كله فى نظر الفيلسوف بأخطر من موت الفأر ، وليس هناك غاية نهائية يتحرك نحوها الكون ، أى ليس هناك « تقدم » بل كل ما هناك تكرار لا ينتهى(٣٣) .

وحدث إبان هذه العصور صُغراها وكُبراها أن تحولت بلايين الأنفس من نوع إلى نوع ومن جسم إلى جسم ومن حياة إلى حياة فى دورات من التناسخ تبعث الملل لتكرارها ، فليس الفرد فرداً فى حقيقة أمره ، إنما هو حلقة فى سلسلة الحياة ، وصفحة واحدة من تاريخ نفس من الأنفس ، والنوع من الأحياء ليس فى حقيقة أمره نوعاً قائماً بذاته ، لأن الأنفس الحالّة فى هذه الزهور أو هذه البراغيث ربما كانت أمس ، أو ربما تكون غداً ، أرواحاً من أرواح البشر ، فالحياة كلها واحدة ، وإذن فالإنسان إن هو إلا إنسان إلى حدٍّ مّا ، لأنه كذلك حيوان ، ولا تزال عالقة به نتف وأصداء من حيواته الدنيا الماضية ، مما يجعله أقرب صلة بالحيوان منه إلى الحكيم من الناس ، إن الإنسان جزء من الطبيعة لا أكثر ، فليس هو من هذه الطبيعة مركزها ولا سيدها(٣٤) ، والحياة الواحدة فى الفرد ليست إلا فصلا واحداً من سيرة نفس واحدة ، وليست هى كل ما تتألف منه هذه النفس ، فكل صورة من صور الأحياء مصيرها التغير ، أما الحقيقة فدائمة وواحدة ، والأبدان الكثيرة التى تحل فيها النفس واحداً بعد واحد ، شبيهة بالأعوام أو بالأيام فى حياة الفرد الواحد ، وقد تعلو بالنفس نحو النماء حيناً أو قد تهبط بها نحو الذبول حيناً آخر ، فكيف يمكن لحياة الفرد الواحد ، وهى على هذه الحالة من القِصَر فى تيار الأجيال المتعاقبة العنيف الجارف ، كيف يمكن أن تشمل على كل ما للنفس الفردة من تاريخ ، أو أن تهيء لها ما هى جديرة به من

عقاب أو ثواب على شرّها أو خيرها ؟ وإذا فرضنا للنفس خلوداً ، فكيف يجوز لحياة واحدة قصيرة أن تقرر مصيرها إلى الأبد(*) ؟

يقول الهندى إن الحياة لا يمكن فهمها إلا على افتراض أن كل مرحلة من مراحل وجود النفس تعانى العذاب أو تتمتع بالثواب ، جزاء وفاقاً لما وقع من النفس فى حياة ماضية من رذيلة أو فضيلة ؛ إذ يستحيل على فعل صغير أو كبير ، خيِّر أو شرير ، أن يمضى بغير أثر ؛ إن كل شىء لا بد له من أثر يظهر ذات يوم ، ذلك هو قانون « كارما » — ومعناها قانون الفعل — أو قانون السببية فى دنيا الروح ، وهو أسمى قوانين العالم وأبشعها ، فإذا أقام إنسانٌ العدلَ ، وكان رحيما دون أن يقترف خطيئة ، فيستحيل أن يجىء جزاؤه فى مرحلة واحدة فانية من مراحل الحياة ، بل يمتد نطاقه إلى حيوات أخرى يولد فيها ليكون ذا مكانة أعلى وحظ أوفر ، لو ظل على فضيلته الأولى ؛ أما إن عاش حياته عيش الرذيلة ، أعيدت ولادته فى حياة تالية منبوذاً أو ابن عِرْس أو كلباً (٣٥)(**) ، وقانون « كارما » هذا — مثل قانون القَدَر عند اليونان — هو فوق الآلهة والبشر معاً لأن الآلهة أنفسهم لا يستطيعون تغيير سننه التى يطّرد فعلها ؛ أو إن شئت فقل ما قاله رجال اللاهوت ، وهو أن « كارما » وإرادة الآلهة أو فعلها ، شىء واحد بذاته(٣٨) ، لكن ليس « كارما » و « القَدَر » بشىء واحد ، لأن « القدر » يتضمن عجز الإنسان عن تقرير مصير نفسه ، أما « كارما » فتجعل الإنسان (إذا أخذنا كل حيواته جملة واحدة) خالق مصير نفسه ؛ ليست الجنة والجحيم بخاتمة ينتهى عندها فعل « كارما » وهو سلسلة الولادات والميتات ؛ نعم إن الروح بعد موت جسدها ، يجوز

(*) إذا سئل الهندى : لماذا لا نتذكر ما مر بنفوسنا وهى فى أبدانها السابقة ، أجاب بأننا كذلك لا نتذكر حوادث الطفولة الأولى ، فكما أننا لا نعلل مرحلة رشدنا إلا على أساس مرحلة الطفولة ، فكذلك لا يمكن تفسير موضعنا ونصيبنا من هذه الحياة الحاضرة إلا على أساس حيوات النفس الماضية .

(**) قد علل أحد الرهبان شهيته بأنه فى حياة سابقة لروحه كان فيلا ، ثم دبر « كارما » أن ينير شهيته لما غير بدنه(٣٦) ، ويعتقدون أن المرأة ذات الرائحة القوية كانت فيما مضى سمكة(٣٧) .

أن ترسل إلى الجحيم لتلاقى عذابها على جرم بعينه ، أو أن ترسل إلى الجنة لتنعم بجزاء سريع على فضيلة بذاتها ، لكن يستحيل على روح أن يقيم فى الجحيم ، وقليل من الأرواح هى التى يُسمح لها بالإقامة فى الجنة إلى الأبد ؛ ذلك لأن الروح لا بد لها بعد فترة تقضيها فى الجنة أو الجحيم ، أن تعود إلى الأرض من جديد ، لتنفذ بحياة جديدة ما يقضى به عليها « كارما »(*)

كان هذا المذهب صادقاً من الوجهة البيولوجية إلى حد كبير ، فلا ريب فى أننا حقاً تجسيد جديد لأسلافنا ، وسنعود بدورنا فنتجسد من جديد فى أبنائنا ، وعيوب الآباء تهبط على الأبناء إلى حد ما (ولو أنها لا تهبط بالمقدار الذى يفرضه الجامدون الخبرون) حتى ولو بعد أجيال كثيرة ؛ فقد كان « كارما » أسطورة بارعة فى صرف الحيون البشرى عن القتل والسرقة والمماطلة والتقتير فى العطايا ، فضلا عن أنها وسّعت من نطاق الوحدة الخلقية والشعور بالواجب حتى شمل ذلك النطاق مراحل الحياة كلها ، ومهدت أمام التشريع الخلقى سبيل التطبيق على نطاق أوسع رقعة وأكثر منطقاً مما وجده فى أية حضارة

(*) يعتقد الهنود فى سبع سموات ، إحداها على الأرض ، وبقيتها ترتفع عن الأرض ، على تفاوت الدرجات بينها ؛ وهناك فى عقيدتهم إحدى وعشرون جحيما مقسمة سبعة أقسام ؛ وليس العقاب أبديا ، لكنه أنواع ؛ وإن الوصف الذى يصف به « الأب دبوا » جحيمات الهنود ، لينافس فى بشاعته جحيم دانتى ، وهو – مثله – يصور ما يضطرب به صدر الإنسانية من مخاوف كثيرة وخيال ينزع بالناس نحو إيقاع الأذى . « فن ألوان العذاب النار والحديد والثعابين والحشرات السامة والحيوانات الكاسرة وسباع الطير ، ومر الشراب والسم والروائح الكريهة ؛ واختصاراً ، تستخدم كل وسيلة ممكنة فى تعذيب المغضوب عليهم ؛ بعضهم ينفذ فى مناخيرهم حبل يظلون يساقون به إلى الأبد فوق نصال سكاكين غاية فى الإرهاف وبعضهم يحكم عليهم بالمرور خلال سم الخياط ، وبعضهم يوضعون بين صخرتين مستويتين تضمانهم ضماً فتسحقانهم دون أن تقتلاهم ؛ وبعضهم تطلق عليهم طيور العقاب الجائعة فتظل تنقر عيونهم بغير انقطاع ؛ وملايين منهم يقضى عليهم بالسباحة الدائمة فى بركة مليئة ببول الكلاب أو مخاط الآدميين »(٤٠)، ويجوز أن تكون هذه العقائد قاصرة على أدنى طبقات الهنود وعلى المتزمتين من رجال اللاهوت ؛ ويسهل علينا التسامح إذا تذكرنا أن جهنمنا – على اختلافها من جهنم الهنود – ليست منوعة العذاب فحسب ، بل هى أبدية فوق ذلك .

أخرى ، فالهنود الأخيار لا يقتلون الحشرات إذا وسعهم ذلك ، « وحتى أولئك الذين يتواضعون منهم فى طموحهم الخلقى يعاملون الحيوان معاملتهم لأخوة لهم أدنى شأناً ، لا معاملتهم لكائنات أحط نوعاً سلطهم الله عليها(٤١) » ، وقد فسرت « كارما » للهنود — من الوجهة الفلسفية — كثيراً من الحقائق التى كانت تكون بغيرها غامضة المعنى أو مجحفة إجحافاً بوغر الصـــدور ، فهذه الفوارق الأزلية التى تفرّق بين أقدار الناس والتى تخيب آمال الناس منذ الأزل فى المساواة والعـــدل ، وهذه الشرور فى صورها المختلفات التى تُسوِّد وجه الأرض وتصبغ بحمرة الدماء مجرى التاريخ ؛ وهذه الآلام التى تدخل حياة الإنسان مع ولادته ثم تصاحبه حتى وفاته ؛ كل هذه وهذه وتلك بدت معقولة للهندى إذا ما اعتقد فى « كارما » ؛ ذلك لأن هذه الشرور وهذا الظلم وهذه الفوارق المتدرّجة من الخَبَل العقلى إلى النبوغ ، وهذه الدرجات من الفقر والغنى ، كل هذه نتيجة للحيوات الماضية وهى نتيجة لازمة تترتب على فعل قانون ، إن رأيته ظالماً مدى حياة واحدة أو لحظة واحدة ، فستراه أعدل ما تكون القوانين فى نهاية الأمر كله(*) ، فكارما إحدى الوسائل الكثيرة التى ابتكرها الإنسان لنفسه لتعينه على تحمل الشر صابراً ، وعلى مواجهة الحياة متفائلا ، فالمهمة التى اضطلعت بها معظم الديانات وحاولت أداءها هى أن تفسر الشر وأن تشرح للناس نظاماً كونياً يبرر لهم أن يقبلوا الشر جزءاً منه ، قبولا إلا يكن مليئاً بالبِشْر ، فحسبه أن يكون مصحوباً بسكينة الفؤاد ، ولما كانت مشكلة الحياة الحقيقية ليست هى آلامها ، لكنها الآلام التى تصادف من لا يستحقونها ، فإن ديانة الهند تخفف من هذه المأساة البشرية بأن تخلع

(*) الاعتقاد فى « كارما » وفى التناسخ هو أعظم عقبة من الوجهة النظرية تحول دون محو نظام الطبقات فى الهند ، لأن الهندى المتمسك بعقيدته يرى أن الفوارق الطبقية قد تقررت نتيجة لسلوك النفس فى حيواتها الماضية ، وأنها جزء من تدبير الله ، ومن الكفر أن تغير فيما دبر الله .

على الحزن والألم شيئاً من المعنى وقدراً من القيمة ؛ فالروح –بناء على اللاهوت الهندى – هذا العزاء على الأقل ، وهو أنها لابد لها أن تتحمل نتائج فعلها وحدها دون أفعال سواها ، فما لم تضجر الروح من الوجود كله جملة واحدة ، فستجد نفسها راضية عن الشر باعتباره عقاباً عابراً موقتاً ، وسترقب تحقيق آمالها فى ثوابها على ما أتت من فضيلة .

لكن الهنود فى حقيقة الأمر يرتابون فى قيمة الوجود كله جملة واحدة ، ذلك أنه لما كانت البيئة ترهق قواهم إرهاقاً ، ولما كان الحاكم يذل قوميتهم إذلالا ، ويستغل مواردهم استغلالا ، فقد مالوا إلى النظر إلى الحياة على أنها عقوبة مرة أكثر منها فرصة سانحة أو ثواباً يرتجى ؛ فكتب الفيدا التى كتبها القوم وهم أشداء عند قدومهم من الشمال ، كانت فى تفاؤلها لا تقل عما يكتبه اليوم أديبنا « وِتْمَنْ » ؛ ومضت خمسمائة عام ، وظهر بوذا من هؤلاء القوم أنفسهم ، لكنه أنكر قيمة الحياة ؛ ثم مضت خمسة قرون أخرى ؛ وظهرت كتب « پيورانا » فعبرت عن نظرة بلغت فى تشاؤمها حداً لم يبلغه متشائم فى الغرب ، إذا استثنينا لحظات شروداً من الشك الفلسفى(*) ؛ لقد تعذر على الشرق – حتى تناولته أطراف الثورة الصناعية – أن يفهم هذه الحماسة التى يقبل بها الغرب على الحياة ، ولم يجد إلا سذاجة وطفولة فى مشاغلنا التى لا تعرف الرحمة ، ومطامعنا التى لا تقنع ، ووسائلنا التى تحطم الأعصاب وتوفر العمل ؛

(*) أرجع شوبنهور – مثل بوذا – كل آلام الحياة والنسل ، وبشر بانتحار الجنس كله انتحاراً تكون وسيلته العقم تصطنعه اختياراً ؛ كذلك « هينى » لم يكد يكتب مقطوعة واحدة من شعره دون أن يتحدث فيها عن الموت ؛ واستطاع أن يكتب فى روح هندية هذين السطرين :

النعاس حلو ، لكن الموت أحلى ،
وأحلى من كل حلو ألا يولد الإنسان أبداً

وازدرى « كانت » تفاؤل ليبنتز ، وكتب متسائلا : « هل يمكن لأى إنسان سليم العقل عاش من أعوامه ما يكفى ليفهم ويتأمل فى قيمة الحياة البشرية ، هل يمكن لمثل هذا الإنسان أن يرضى أن تعاد عليه فصول الحياة فى روايتها المزيلة ، لا أقول بنفس ظروفها التى شهدها هو فى حياته ، بل بأى ظروف يشاء ؟ »(٤٣) .

وتقدمنا وسرعة سيرنا ؛ لم يفهم الشرق من الغرب هذا الانغماس العميق فى سطوح الأشياء دون لبابها ، ولا هذا الرفض الماكر منه أن يواجه حقائق الوجود مواجهة صريحة ؛ لكن الغرب فى الوقت نفسه لم يستطع أن يسبر فى الشرق التقليدى أغوار هذا السكون الهامد ، ولا هذا « الركود » و « اليأس » ؛ ألا إن الحرارة لا تفهم البرودة .

« ياما » يوجه السؤال إلى « يودشترا » قائلا : « ما أعجب شىء فى العالم »؟ فيجيبه « يودشترا » : « أن يموت الإنسان فى إثر الإنسان ، وأن يرى الناس ذلك ثم يظلون فى سعيهم كأنهم من الخالدين »(٤٤) وجاء فى « الماهابهاراتا » : « العـــالم مصاب بكارثة الموت ، ومقيد فى نشاطه بالشيخوخة ، والليالى متتابعات ، تأتى ثم تمضى ، لا تتخلف أبداً ، فإذا ما أيقنت أن الموت يستحيل عليه الوقوف ، فماذا أرتجى من السير تحت غطاء من الحكمة »(٤٥) ، وتدعو « سيتا » فى « رامايانا » لما رأت أن ثوابها على وفائها رغم ما يصادفها من إغراء ومحنة هو الموت ولا شىء غير الموت ، تدعو قائلة :

لو كنت بوفائى لزوجى قد برهنت على أنى زوجة أمينة ،

فيا أمنا الأرض أريحى ابنتك « سيتا » من أعباء هذه الحياة(٤٦) .

وهكذا ترى الكلمة الأخيرة فى التفكير الدينى عند الهنود هى ما يسمونه « فكشا » ومعناها الخلاص ــ الخلاص أولا من الشهوة ، ثم الخلاص من الحياة ، والنرفانا هى هذا الخلاص أو ذاك ، لكنها لا تبلغ غاية أمدها إلا إذا تحقق الخلاصان معاً ، ولقد عبر الحكيم « بهارترى ــ هارى » عن الخلاص الأول فقال :

« إن كل شىء على الأرض يبرر الخوف ، والطريق الوحيدة للخلاص من الخوف هى فى إنكار الشهوات إنكاراً تاماً ..: لقد مضى على عهد كانت تطول فيه أيامى حين كان سؤال الحسنة من الأغنياء يثخن فى قلبى ألم الجراح ، ثم بدت أيامى قصيرة كل القصر حين جعلت أسعى نحو تحقيق كل رغباتى وغاياتى

الدنيوية ، أما الآن فقد تفلسفت وجلست على حجر صلب فى كهف على سفح الجبل ، وترانى لا أنفك عن الضحك كلما فكرت فى حياتى الماضية »(٤٧) .

ويعبر غاندى عن الصورة الثانية من صورتى الخلاص فيقول :

« لست أريد عودة إلى ولادة جديدة »(٤٨) إن أسمى وآخر ما يتمناه الهندى هو أن ينجو من العودة إلى الحياة فى جسد آخر . وأن تزول عنه هذه الحمى التى تلتهب بها الذات كلما عاودتها الحياة فى بدن جديد وولادة جديدة ؛ وليس طريق الخلاص إيماناً ، كلا ولا نتاجا ، إنما طريق الخلاص إنكار للذات إنكاراً متصلا ، ونفاذ بالبصيرة إلى الكل الذى يبتلع فى جوفه الأجزاء ، حتى ينتهى الأمر بالنفس إلى الموت الذى يفنيها ولا يبقى منها ما يولد مرة أخرى ؛ وهكذا تتحول جحيم الفردية إلى سكينة الاتحاد مع سائر الوجود وفردوسه المقيم ؛ هكذا تتحول الفردية إلى فناء تام فى « براهما » الذى هو من العالم روحه أو قوته .

الفصل الرابع

غرائب الدين

الخرافات — التنجيم — عبادة العلاقة الجنسية —
الطقوس — الضحية — التطهير — المياه المقدسة

فى هذا الجو اللاهوتى المفعم بالخوف والألم ، ازدهرت الخرافة — وهى أول معونة ترسلها القوة الكامنة فوق الطبيعة لتعالج بها الأدواء الصغرى فى الحياة — ازدهاراً خصيباً ، حتى أصبحت القرابين ، والتمائم . وإخراج الشياطين الحالة فى الأبدان ، والتنجيم ، والنبوءة بالغيب ، والتعزيم ،والنذور ، وقراءة الكف ، والعرافة ، وطائفة الكهان التى بلغت ٢,٧٢٨,٨١٢ ، و « فاتحو البخت » الذين يبلغون المليون ، ومروضو الثعابين بالسحر وعددهم مائة ألف ، و « الفقراء » وهم مليون ، ومن يمارسون « اليوجا » وغيرهم من الأولياء — أصبح ذلك كله جانباً واحداً من الصورة التاريخية التى تمثل الهند ؛ فقد كان للهنود منذ ألف ومائتى عام عدد كبير من الكتب التى تشرح أصول التصوف والسحر والعرافة وتذكر الصيغ السحرية التى تهيئ السبيل لتحقيق أية غاية شئت ؛ وأما البراهمة فقد نظروا نظرة ازدراء صامت إلى هذه الديانة التى يملؤها السحر ، واحتملوا وجودها لأنهم من جهة خشوا أن تكون الخرافة بين عامة الناس عاملا ضروريا لصيانة قوة البراهمة أنفسهم ، ولأنهم من جهة خرى ربما ظنوا أن الخرافة يستحيل فناؤها ، فإن ماتت إحدى صورها ، فما ذاك إلا لكى تعود إلى الوجود فى صورة أخرى ، وأحس البراهمة أن أقل الحكمة يقتضى ألا تقاوم مثل هذه القوة التى فى وسعها أن تجسد نفسها فى كل هذه الصورة .

اعتقد الهندى الساذج — كما يعتقد كثيرون من الأمريكان المثقفين — فى

التنجيم ، وسلموا تسليما بأن كل نجمة لها تأثير خاص على أولئك الذين ولدوا وهى فى أوجها(٥٠) ، فالنساء إبان الحيض كنّ – مثل أوفيليا – يتقين ضوء الشمس ، فذلك قد يسبب لهن الحمل(٥١) ، وجاء كتاب «كاوشيتاكى يوبانشاد» أن سر النجاح المادى هو تقديس الهلال كلما ظهر ، وكان العرافون والسحرة والمنبئون بالغيب ، إذا ما أجزتهم أجراً زهيداً ، يعلنون لك ماضى الحوادث ومقبلها بدراستهم للأكف أو للبراز ، أو للأحلام ، أو لعلامات فى السماء ، أو للخروق التى أحدثتها الفئران فى الثياب ، ويزعمون بترتيلهم لعبارات السحر التى لم يكن ترتيلها فى مقدور أحد سواهم ، أنهم يخمدون الشياطين ويسحرون الثعابين ، ويستعبدون الطيور ، ويلزمون الآلهة أنفسهم بمعاونة من دفع لهم أجر ما يصنعون ، وكذلك كان السحرة نظير أجر معلوم سلطون الشيطان على العدو ، أو يطردونه من هذا الذى يؤجرهم ، كانوا ينزلون الموت المفاجىء على العدو أو يلحقوا به علة ليس لها شفاء ، حتى البراهمى إذا ما تثاءب ، جعل يفرقع بأصابعه ذات اليمين وذات الشمال حتى يطرد الأرواح الشريرة فلا يسمح لها بالدخول من فمه المفتوح(*) ، وكان الهندى فى شتى عصوره – مثل كثيرين من الفلاحين الأوروبيين – يتحوط من عين الحسد ، فأعداؤه قد يستخدمون السحر فى أية لحظة شاءوا لينزلوا به تعاسة الحظ أو ليقضوا على حياته ، ويستطيع الساحر فوق هذا كله أن يجدد الحيوية الجنسية أو أن يخلق الحب فى أى إنسان لأى إنسان ، أو أن يهيئ سبيل الولادة للعاقرات من النساء(٥٢) .

لم يكن يعدل رغبة الهنود فى الأطفال شىء حتى النرفانا ، ومن ثم إلى حدما كانت رغبة الهندى الشديدة فى القوة الجنسية ، وكان تقديسه الدينى للرموز التى تشير إلى النسل والخصوبة ، فعبادة العلاقة الجنسية التى سادت

(*) وكذلك يتمتم الأوروبيون الأتقياء بعبارات يستنزلون بها البركة عقب العطاس ، والأصل فيها صيانة الروح حتى لا تخرج بقوة الزفير .

معظم الأقطار فى هذا العصر أو ذاك ، قد لبثت قائمة فى الهند من العصور القديمة إلى القرن العشرين ؛ وكان إلهها هو شيفا ، ورمزها هو عضو التذكير ، وكتابها المقدس هو « أجزاء من التانترا » (ومعناها كتب للنصوص) ؛ و « شاكتى » (ومعناها القوة التى تبعث النشاط) بالنسبة إلى شيفا هى — كما كانوا يتصورونها أحياناً — زوجته كالى ، وأحياناً أخرى يتصورون تلك القوة الباعثة شيفا على نشاطه الجنسى ، عنصراً تسوياً فى طبيعة شيفا نفسه ، وبهذا تكون طبيعته مشتملة على قوتى الذكورة والأنوثة فى آن معاً ؛ وهاتان القوتان يمثلهما الهنود بأوثان يطلقون عليها اسم « لنجا » أو « يونى » ، وهى تصور عضوى التناسل عند الرجل والمرأة(٥٣) وأينما سرت فى الهند ألفيت آثاراً لهذه العبادة للعلاقة الجنسية : تراها فى التماثيل الرمزية لأعضاء التناسل فى معبد نيبالبز ، وغيره من المعابد فى بنارس ، وتراها فى أوثان « اللنجا » الهائلة التى تزين أو تحيط بمعابد شيفا فى الجنوب ، وتراها فى المواكب والاحتفالات التى يرمزون بها إلى العملية الجنسية ؛ ثم تراها فى تمائم ترمز إلى تلك العلاقة الجنسية أيضاً ، ويلبسونها على الذراع أو حول العنق ؛ بل قد تصادف أحجار « اللنجا » ملقاة فى عرض الطريق ، ومن عادة الهنود أن يكسروا على هاتيك الأحجار جوز الهند الذى ينوون تقديمه فى قرابينهم(٥٤) ، وهم يغسلون حجر « اللنجا » فى معبد « رامشفارام » كل يوم بماء الكنج ، ثم يباع ذلك فيما بعد للمتدينين(٥٥) كما كان يباع الماء المقدس فى أوروبا ، وطقوس هذه العبادة الجنسية فى العادة تكون بسيطة وملتزمة حدود الاحتشام ، فقوامها أن يصب على الحجر ماء مقدس أو زيت مقدس ، ويزين بأوراق الشجر(٥٦).

ولا ريب فى أن الطبقات الدنيا من الهنود تستمد بعض المتعة الداعرة من مواكب العلاقة الجنسية(٥٧) لكن الكثرة الغالبة من الناس — فيما يظهر — لا يجدون حافزاً إلى الفاحشة فى « اللنجا » أو « اليورى » أكثر مما يجد المسيحيون.

مثل هذا الحافز فى تأملهم للعذراء وهى ترضع طفلها ، إن العادة تزيل الفحش عن أى شىء ، والزمن يخلع القداسة على أى شىء ، ويظهر أن الناس قد نسوا الرمزية الجنسية فى هذه الأشياء منذ زمن طويل ، ولم تعد هذه الأوثان الآن إلا وسائل تقليدية مقدمة تمثل لهم قوة شيفا(٥٨) ، ولعل الفرق بين تصور الأوروبى وتصور الهندى للأمر منشؤه الفارق بين سن الزواج فى أوروبا وسن الزواج فى الهند ، فالزواج المبكر ينفس عن تلك الدوافع الطبيعية التى إن طال أمد كبحها ، دارت على نفسها وأنتجت إما دعارة وإما حباً عذرياً ، وعلى وجه الجملة تجد الأخلاق والعادات الخاصة بالعلاقات الجنسية فى الهند أعلى منها فى أوروبا وأمريكا ، وهى هناك أكثر منها هنا احتشاماً وعفة بدرجة كبيرة ، وعبادة شيفا هى من أكثر العبادات فى الهند تزمتاً وتقشفاً ، وأخلص عُبَّاد « اللنجا » عقيدةً هم « اللنجايات » ، وهم يمثلون أشد مذاهب الهند تزمتاً وطهراً(٥٩) ، يقول غاندى : « جاءنا أضيافنا الغربيون آخر الأمر يفتحون أعيننا لجوانب الفحش التى فى طقوسنا ، بعد أن كنا نمارسها حتى عهدهم ممارسة بريئة ، لقد عرفتُ لأول مرة أن « شيفا لنجام » ترمز إلى فاحشة ، من كتاب لمبشّر مسيحى »(٦٠) .

إن استخدام الهنود « للّنجا » و « اليونى » ليس إلا صورة واحدة من ألوف الصور فى طقوسهم التى تبدو للعين العابرة الغريبة عن البلاد ، لا مجرد صورة للديانة الهندية ، بل جزءاً أساسياً من صميم لبابها ؛ ذلك لأن كل فعل من أفعال الحياة ، حتى الغسل ولبس الثياب ، له عندهم طقوسه الدينية ، وفى كل دار يسكنها متدينون ترى آلهة خاصة بأهل تلك الدار ، تمثل لهم أشياء معينة كما ترى أسلافاً يضعونها موضع التكريم كل يوم ، والواقع أن الديانة للهندى واجب يؤدى فى الدار أكثر مما يؤدى فى مراسم المعابد التى يحتفظون بها لأيام الأعياد ؛ ومع ذلك فالناس يمرحون مرحاً عظيما فى الأعياد الدينية الكثيرة التى تملأ السنة الكهنوتية ، فكانوا يسيرون مواكب عظيمة أو أفواجاً من

الحجاج ، قاصدين إلى الأضرحة القديمة ؛ ولم يكونوا ليفهموا ما يقال من عبارات الصلاة فى تلك المعابد ، لأنها كانت تقال بالسنسكريتية ، لكنهم كانوا يفهمون الأوثان ، فيزينونها بالحلى ويطلونها بالطلاء ويرصعونها بكريم الأحجار ؛ وكانوا أحياناً يعاملونها كأنها كائنات بشرية فيوقظونها ويغسلونها ويلبسونها الثياب ، ويطعمونها ويؤنبونها وينيمونها فى مخادعها عند خاتمة النهار(٦١) .

وأعظم الطقوس الجماعية هى تقديم القرابين ، وأعظم الطقوس الخاصة الفردية هى التطهير ، فالقربان عند الهندى ليس مجرد صورة خاوية ، لأنه يعتقد أنه إذا لم يقدمه للآلهة طعاماً تموت جوعاً (٦٢) ولما كان الإنسان فى مرحلة أكل اللحوم البشرية ، كانت القرابين فى الهند كما فى غيرها من بلاد العالم ضحية بشرية ؛ وكانت « كالى » تحب أن يكون قربانها رجالا ، ثم فسر البراهمة هذا بأنها إنما تحب أن تأكل رجالا من أهل الطبقات الدنيا وحدها(٦٣)(*) فلما تقدمت الأخلاق أخذ الآلهة يكتفون بالحيوان قربانا ، فكان الناس يضحون لهم بكثير منه : على أن الماعز كان ذا منزلة خاصة فى هذه الاحتفالات ثم جاءت البوذية والجانتية و « أهمسا » فحرمت التضحية بالحيوان فى بلاد الهندستان(٦٧) ثم عادت العادة مجراها القديم حين حلت الديانة الهندية محل البوذية ؛ ولبثت قائمة على نطاق يثير الدهشة باتساعه ، حتى يومنا هذا ؛ وإنه لمن حسنات البراهمة أنهم رفضوا أن يسهموا بنصيب فى أية تضحية فيها إراقة للدماء(٦٨) .

وأما طقوس التطهير فقد كانت تستغرق من حياة الهندى ساعات كثيرة ؛ لأن مخاوف النجاسة كانت من الكثرة فى الديانة الهندية كما هى فى قواعد

(*) يسجل التاريخ هذه القرابين البشرية حتى سنة ١٨٥٤(٦٤) وكان المعتقد سابقاً أن المخلصين لدينهم كانوا يتخذون أنفسهم قرابين ، مثل الذى يروى عن المتهوسين الدينيين الذين كانوا يلقون بأنفسهم تحت عجلات عربة « ججرنوت »(٦٥) ؛ لكن الرأى مجمع الآن على أن الحالات النادرة التى حدثت فيها التضحية بالنفس كانت على الأرجح من قبيل المصادفات(٦٦) .

الصحة الحديثة ؛ فما أكثر ما قد يصاب الهندى بما يردّه نجساً — إن أكل طعاماً حراماً ، وإن لمس قمامة أو مس إنساناً من طبقـة الشودرا ، أو منبوذاً أو جثة أو امرأة فى فترة حيضها ، وغير ذلك مئات الحالات ؛ وبالطبع كانت المرأة نفسها ينجسها حيضها أو وضعها وليداً ؛ ولذا تطالب القانون البرهمى عزل المرأة فى مثل هذه الحالات ، واشترط تحوطات صحية معقدة(٦٩) وبعد كل هذه النجاسات — أو احتمال العدوى على حد تعبيرنا الحديث — كان من واجب الهندى أن يؤدى طقوساً تطهيرية معينة ؛ فأما الحالات الصغرى فتكفيها طقوس بسيطة كأن يرش من أصابته النجاسة بالماء المقدس(٧٠) وأما الحالات الكبرى فلا بد لها من طرائق معقدة تبلغ أقصى مداها فى بشاعة ما يسمونه « پانشاجاڤيا » وهو ضرب من التطهير كان يحكم به عقابا لمن انتهك قوانين الطبقات على خطورتها (مثال ذلك أن يغادر الهند) ويتألف ذلك التطهير من شُرْب مزيج فيه « خمسة عناصر » من البقرة المقدسة : اللبن ، والخثارة ، والسمن ، والبول ، والروث(٧١)(*) .

وأقرب من ذلك قليلا إلى ذوقنا ما يوجبه عليهم دينهم من استحمام كل يوم ؛ فهاهنا كذلك ترى تدبيراً صحياً تمس إليه الحاجة مساً شديداً فى مناخ شبه استوائى ؛ وترى هذا التدبير الصحى مصبوباً فى قالب من الدين حتى يكون أقوى تأثيراً فى النفوس ؛ ولهذا بنيت برَكٌ وأحواض « مقدسة » ، وجعلت أنهاراً كثيرة أنهاراً مقدسة ، وقيل للقوم إنهم إذا استحموا فى هذه الأماكن تطهروا جسما وروحاً ؛ وقد كان ملايين الناس فى أيام الرحالة « يوان شوانج » يستحمون فى نهر الكنج كل صباح(٧٣) ، ومنذ ذلك العهد إلى يومنا لم تشهد تلك الأمواه شروقاً للشمس دون أن تسمع صلوات المستحمين الذين جاءوها

(*) السمن هو زبد مصفى ، ويقول « الأب دبوا » (١٨٢٠) عن البول « إنه فى نظرهم أفعل وسائل التطهير من أى ضرب من ضروب النجاسة ، فكثيراً ما شاهدت هنوداً ممن يؤمنون بالخرافة ، وهم يتبعون البقر إلى مرعاه ، ينتظرون اللحظة التى يستطيعون فيها الحصول على هذا السائل الثمين فى أوعية من نحاس أصفر ، ويسرعون به إلى دورهم وهو ما يزال دافئاً ، وكذلك شاهدتهم يرقبون أخذه فى حفاف أيديهم ، فيشربون بعضه ثم يمسحون وجوههم ورءوسهم ببقيته »(٧٢) .

سعياً وراء الطهر والخلاص ، يرفعون أذرعهم نحو السماء المقدسة ، ويصيحون في نغمة الصابرين : « أوم ، أوم ، أوم » وأصبحت بنارس هي المدينة المقدسة للهند ، إذا باتت كعبة لملايين الحجاج ، يؤمها الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء ، جاءوا من كل أرجاء البلاد ليستحموا في النهر ، حتى يستقبلوا الموتى برآء من كل إثم أطهاراً من كل رجس ؛ إن الإنسان ليأخذه الخشوع ، بل يأخذه الفزع ، حين يتذكر أن أمثال هؤلاء الناس قد حجوا إلى بنارس مدى ألفي عام ، وغمسوا أنفسهم في مياهها وهم يرتعشون من لذعة البرد في فجر الشتاء ، وشموا بنفس متقززة لحم الموتى وهو يحترق ، فعلوا كل ذلك وهم يفوهون بنفس الدعوات التي كان يقينهم أن تجاب ، فعلوا ذلك قرناً بعد قرن ، وتوجهوا بالدعاء إلى نفس الآلهة التي لبثت على صمتها ، لكن عدم استجابة إله من الآلهة لا يحول دون تعلق القلوب به ؛ فلا تزال الهند تعتقد اليوم بنفس القوة التي كانت تعتقد بها في أي عصر مضى في الآلهة الذين لبثوا كل هذا الزمن ينظرون إلى فقرها وبؤسها فلا تأخذهم من أجلها رحمة .

الفصل الخامس

القديسون والزاهدون

أساليب التقديس – الزنادقة – التسامح – نظرة عامة فى ديانة الهنود

يظهر أن القديسين فى الهند أكثر منهم فى أى بلد آخر ، حتى ليشعر الزائر فى تلك البلاد أنهم نتاج طبيعى لها كالخشخاش والثعبان ، وللقداسة فى رأى المتدين الهندى ثلاث وسائل : الأولى طريق « چنانا – يوجا » أى طريق التأمل ، والثانية « كارما–يوجا » أىّ طريق العمل ، والثالثة « بهاكتى – يوجا » أى طريق الحب ؛ ولا يمانع للبرهمىّ فى أى من هذه الطرق الثلاث ، بما يقضى به قانون « الأَشْرامات » الأربع ، أى مراحل القداسة فعلى البرهمى الناشئ أن يبدأ الطريق بأن يكون « براهما شارى » يقسم على صيانته لعفته قبل زواجه ، وعلى أن يلتزم التقوى ويواصل الدرس ، وأن يكون صادقاً ، خدوماً « لشيخه » أى لأستاذه الذى يعلمه ، فإذا ما تزوج – ولا ينبغى أن يتأخر زواجه عن الثامنة عشرة من عمره – كان عليه أن يدخل المرحلة الثانية من الحياة البرهمية ، وهى مرحلة « جريها ستا » أى رب الأسرة ، التى ينسل فيها الأبناء ليعبدوه ويعنوا به وبأسلافه ؛ وفى المرحلة الثالثة (وقلما يمارسها الآن أحد) ينسحب الطامع فى القداسة مع زوجته ليعيش كـ « ڤانا پراستا » أى ساكن الغابات ، فيتقبل عُسْر الحياة مطمئناً راضياً ، ويحصر العلاقة الزوجية فى نسل الأطفال ، وأخيراً إذا أراد البرهمى أن يبلغ أعلى المراحل ، كان له فى شيخوخته أن يهجر حتى زوجته ، فيصبح « سانياسى » أى « الهاجر للعالم » ، مستغنياً عن كل أملاكه وكل أمواله وكل ما يربطه بغيره من علاقات ، فلا يحتفظ إلا بجلد وعل يغطى به جسده ، وعكازة يتوكأ عليها ، وقرعة ماء لظمئه ، ويجب عليه أن يلطخ جسده بالرماد كل يوم ، وأن يشرب « العناصر

الخمسة » مراراً متقاربة ، وأن يعيش معتمداً على صدقات المحسنين ، وتنص القاعدة البرهمية على أنه « لا بد أن ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، فلا يتأثر بأى شىء مما يحدث ، وأن تكون له القدرة على النظر إلى الأشياء نظرة هادئة لا يعرف هدوءها معنى الاضطراب ، حتى إن بلغ الأمر حد الثورات التى تثل العروش ؛ وغايته الوحيدة ينبغى أن تكون حصوله على ذلك القدر من الحكمة ومن الروحانية الذى يمكّنه فى نهاية الأمر من الاتحاد بالربوبية العليا ، تلك الربوبية التى تفصلنا عنها شهواتنا العاطفية وبيئاتنا المادية(٧٤)(*) .

وإنك لتصادف أحياناً وسط هذا التدين صوتاً شكاكاً يرتفع كصرير النشاز فى نغمات الحياة الهندية التى تسودها استكانة التسليم؛لا شك أن الشكاك كانوا كثيرين حينما كانت الهند غنية ، لأن الإنسانية تزداد تشككاً فى آلهتها ازدياداً يبلغ أقصاه فى حالات ازدهارها المادى ، وتزداد لها تعبداً ازدياداً يبلغ غاية مداه حين يعمها البؤس ، وقد أسلفنا القول فى فئة « شارفاكا » وغيرهم من زنادقة العصر البوذى ؛ وهنالك مؤلّف يسارى فى قِدَمه ذلك العصر ، وهو يسمى — على طريقة الهنود فى تطويل الأسماء — « شواسامْڤِديِنُوپانشاد » الذى يبسّط اللاهوت فى أربع قضايا :

(١) أن ليس هناك عودة للروح إلى تجسد جديد ، ولا إله ولا جنة ولا نار ولا عالم .

(٢) وأن كل الكتب الدينية التقليدية من تأليف جماعة من الحمقى المغرورين .

(*) ويضيف إلى ذلك « دبوا » الذى يرتاب فى كل شىء إلا فيما يعتقد هو فيه : « أن أغلب هؤلاء الزاهدين ينظر إليهم على أنهم نصابون ، وذلك هو ما يراه فيهم أكثر مواطنيهم تنوراً »(٧٥) .

(٣) وأن ما يحكم الأشياء كلها هو « الطبيعة » التى تبدع ، و« الزمان » الذى يهدم ؛ وهما لا يأبهان بفضيلة أو برذيلة حين يقسمون بين الناس أنصبتهم من السعادة والشقاء .

(٤) وأن الناس تخدعهم حلاوة الكلام فيعتنقون الاعتقاد فى الآلهة والمعابد والكهنة ، مع أنه فى الواقع لا فرق بين فشنو وكلب(٦٧) ؛

وهناك قانون بوذى مكتوب باللغة البالية ، تراه يضم المتناقضات ، شأنه فى ذلك شأن أى كتاب مقدس يحمى مصالح الكهنوت ، وفى هذا القانون رسالة تستوقف النظر لعلها قديمة قدم المسيحية ، وتسمى « أسئلة الملك مِلِنْدا » وفيها المعلم البوذى « نجاسينا » يجيب إجابات جد مثيرة للأسئلة الدينية التى يوجهها إليه « الملك مناندر » الإغريقى الباكترىّ الذى حكم شمالى الهند فى مستهل القرن الأول قبل المسيح ؛ يقول « نجاسينا » إن الدين لا ينبغى أن يتخذ مجرد وسيلة فرار يلوذ بها المعذبون ، بل يجب أن يكون سعى الزاهد حتى يبلغ مرحلة القداسة والحكمة دون أن يزعم وجود جنة أو إله ، لأن هذا القديس يؤكد لنا أنه لا وجود لجنة أو إله(٧٧) .

وتهاجم ملحمة « المهابهاراتا » هؤلاء الشكاك والملاحدة الذين — كما تزعم لنا — ينكرون حقيقة الأرواح ويحتقرون الخلود ، وهى تقول إن أمثال هؤلاء الناس « يضربون فى فجاج الأرض كلها » ؛ وهى تنذرهم بعقابهم المقبل ، ضاربة لهم مثلا ابن آوى الذى يعلل وجوده ووجود نوعه بقوله إنه كان فى حياته الماضية « باحثاً عقلياً ، وناقداً لكتب الفيدا ... مهيناً للكهنة معارضاً لهم ... كافراً بكل شىء شكاكاً فى كل شىء »(٧٨) ، ويشير « بهاجافاد — جيتا » إلى الزنادقة الذين ينكرون وجود الله ويصفون الدنيا بأنها « لا تزيد عن كونها منزلا للشهوات »(٧٩) وكثيراً ما كان البراهمة أنفسهم شكاكين لكنهم كانوا يذهبون فى الشك إلى غاية مداه بحيث لا يسمحون لأنفسهم أن يهاجموا عقيدة الناس ؛ وعلى الرغم من أن شعراء الهند بصفة عامة يتميزون بالورع الشديد

نرى بعضهم ، مثل « كابر » و « ڤيمانا » يدافعون عن نوع من العقيدة فى الله متحلل من كثير جداً من القيود ، فقد كتب « ڤيمانا » — وهو شاعر ظهر فى جنوبى الهند فى القرن السابع عشر — بروح السخرية من الرهبان الزاهدين ومن حجاج المعابد ، ونظام الطبقات ، يقول :

« عزلة الكلب ، تأمل الكركىّ ، ترتيل الحمار ، استحمام الضفدعة » ؛ ؛ ؛ كيف تكون أحسن حالا إذا لطخت جسمك بالرماد ؟ إنه ينبغى أن تركز فكرك فى الله وحده ، أما عن بقية ما تصنعه ، فالحمار فى وسعه أن يتمرغ فى الوسخ كما تفعل . . . إن كتب « الڤيدا » أشبه ما تكون بالفاجرات اللائى يخدعن الرجال وليس لهن أغوار تُسْبَر ؛ وأما علم الله الخبىء فهو شبيه بالزوجة الشريفة . . . أيمكن لتلطيخ الجسم بالرماد الأبيض أن يذهب برائحة وعاء الخمر ؟ أيمكن لحبل تلفه حول عنقك أن يجعل منك إنساناً آخر ؟ . . . لماذا ترى واجباً علينا أن نسىء إلى طبقة الپاريا إساءة لا تنقطع ؟ أليس المنبوذ مثلنا فى لحمه ودمه ؟ ومن أى طبقة عسى أن يكون الإله الذى يحلّ جسد الپاريا ؟ . . . إن من يقول « إنى لا أعلم شيئاً » هو أبلغ الناس حكمة »(٨٠) ؛

وإنه لمما يجدر ملاحظته فى هذا الصدد أن تذاع أقوال كهذه بغير مؤاخذة قائليها ، فى مجتمع تتحكم فى عقوله طبقة من الكهان ، فلو استثنينا كبح الحكم الأجنبى للهنود (بل ربما جاز أن نقول إنه بسبب وجود الحكام الأجانب الذين لم يكونوا يأبهون للعقائد الدينية الأهلية) فقد تمتعت الهند بقدر من حرية الفكر أعظم جداً مما تمتعت به أوروبا فى عصورها الوسطى ، وهى الفترة التى تقابلها مدنية الهند ، ولقد باشر البراهمة نفوذهم فى تدبر ورفق ، وكان اعتمادهم فى صيانة العقيدة الأصلية على الفقراء وما يتصفون به من جمود على القديم ، وكان هؤلاء الفقراء فى ذلك عند حسن ظن البراهمة بهم ، فإذا ما شاعت فى الناس ضروب من الزندقة أو الآلهة الغريبة شيوعاً يعد خطراً على العقيدة ، تسامح البراهمة إزاءها حتى يمتصوها امتصاصاً فى ذلك الغور

الفسيح الأبعاد الذى منه تتكون العقيدة الهندية ، فإذا أضفت إلى تلك العقيدة إلهاً أو حذفت منها إلهاً ، فلايكون لهذا أثر كبير ، ومن ثم قلت الحزازات المذهبية قلة نسبة فى المجتمع الهندى ، ولم تشتد بين الهندوس والمسلمين ، كذلك لم تسفح على أرض الهند دماء من أجل الدين ، اللهم إلا دماء سفحها الفاتحون(٨١) ، وجاء التعصب الدينى إلى البلاد مع الإسلام والمسيحية ، أما المسلمون فقد كانوا يبغون شراء الجنة بدم « الكفار » وأما البرتغاليون حين استولوا على « جوا » فقد أدخلوا فيها محاكم التفتيش(٨٢) .

وإذا بحثنا فى هذا الخليط من العقائد عن عناصر مشتركة تعرف بها الهنود فستجدها فيما يوشك أن يكون إجماعاً بين الهندوس على عبادة ڤشنو وشيڤا معاً ، وعلى تبجيل الڤيدات والبراهمة والبقرة ، وعلى اعتبار ملحمتى « ماهابهاراتا » و « رامايانا » لا مجرد ملحمتين أدبيتين ، بل اعتبارهما آيات مُنَزَّلة تأتى فى التقديس بعـــد الڤيدات(٨٣) ، وإنه لمما ينم عن مغزى : أن نرى آلهة الهند وتقاليدها الدينية اليوم مختلفة عما قررته كتب الڤيدا ، فإلى حد ما يمكن القول بأن الديانة الهندية تمثل انتصار الهند الدراڤيدية الأصلية على آريى العصر الڤيدى ؛ فقد كان من نتائج الغزو والنهب والفقر ، أن أوذيت الهند جسماً وروحاً ، والتمست ملاذاً من الهزيمة الأرضية النكراء ، فى انتصارات سهلة ظفرت بها فى الأساطير والخيال ؛ فالبوذية رغم ما فيها من عناصر الشمم ، هى — كالرواقية — فلسفة للعبيد ؛ ولا يغير الموقف أن ينطق بها أمير ، لأنها ترمى إلى وجوب الزهد فى كل شهوة وفى كل كفاح حتى ولو كانت الشهوة وكان الكفاح من أجل الحرية الفردية أو الحرية القوميـــة ؛ مثلها الأعلى هو حالة جمود لا يعرف الرغبات ، وواضح أن حرارة الهند التى تنهك الأجسام ، هى التى نطقت بهذا اللسان الذى يعبر عن التعب تعبيراً يلتمس سنداً من العقل ؛ إن الديانة الهندية ما انفكت تفت فى عضد الهند ، بأن غلّت نفسها عن طريق

نظام الطبقات بأغلال العبودية الدائمة للكهنوت : وتصورت آلهتها تصوراً لا تراعى فيه حدود الأخلاق ، واحتفظت خلال القرون بعادات وحشية مثل التضحية بأفراد من الإنسان وإحراق الأرملة عند وفاة زوجها ؛ تلك العادات التى كان كثير من الأمم قد نبذها منذ زمن طويل ؛ وصورت الحياة على أنها شر لا مفر منه . وعملت على تثبيط الهمة عند أتباعها وإشاعة الكآبة فى نفوسهم ؛ واستحالت الظواهر الدنيوية على يديها أوهاماً ، فمحت بذلك الفوارق بين الحرية والعبودية ، بين الخير والشر ، بين الإفساد والإصلاح ؛ ولقد قال فى ذلك هندى جرىء « إن الديانة الهندية . . . قد استحالت الآن إلى عبادة أوثان وطقوس تقليدية ، تعتـــبر الظواهر الشكلية كل شىء ، واللباب لا شىء »[٨٤] ولما كانت الأمة يمسك الكهنة بزمامها ، وينخر القديسون عظامها ، فإن الهند لترقب فى شغف لم يجد اللسان المعبر به : ترقب النهوض والإصلاح الدينى وحركة التنوير .

ومع ذلك فلا ينبغى أن نفكر فى الهند بغير أن تكون صورتنا التاريخية ماثلة أمام أعيننا ؛ فقد كان لنا كذلك فترة كانت لنا عصورنا الوسطى ، حيث آثرنا التصوف على العلم وحكومة الكهنة على حكومة الأغنياء — ولعلنا نعود إلى ذلك مرة أخرى ، إننا لا نستطيع أن نحكم على هؤلاء المتصوفة ، لأن أحكامنا فى الغرب مبنية على خبرة جسدية ونتائج مادية ، وهى فيما يظهر أمور لا تمس الموضوع الذى نحكم عليه ولا تتعمق الأشياء فى رأى القديس الهندى ؛ فماذا لو تبين أن الثروة والقوة والحرب والفتح كلها أوهام تجرى على السطح لا أكثر ، وليست جديرة بالتفكير عند العقل الناضج ؟ ماذا لو كان هذا العلم الذى يقيم نفسه على ذرات وعوامل وراثة كلها فروض ، وعلى كهارب وخلايا ، وغازات يتولد منها عباقرة مثل شكسبير ، وعناصر كيماوية يتمخض عنها المسيح ، ماذا لو كان كل هذا لا يزيد على عقيدة لا أكثر ، سبقتها عقائد ، بل إنها لعقيدة من أغرب العقائد ، وأبعدها عن التصديق

وأكثرها ميلا نحو التغير والزوال ؟ إن الشرق فى مقاومته لما هو فيه من ذل ومرض ، قد يغمس نفسه فى العلم والصناعة فى نفس اللحظة التى ينظر فيها أبناء الغرب إلى آلاتهم التى أفقرتهم وإلى علومهم التى أزالت عن أعينهم غلالة الخيال ، فينزلون بعدائهم وآلاتهم الخراب بما يثيرونه من ثورات فوضوية أو حروب ؛ ثم هم قد يعودون بعد ذلك مهزومين مكلودين جائعين ، إلى الزراعة حيث يصوغون لأنفسهم إيماناً صوفياً جديداً يبث فيهم الشجاعة فى وجه الجوع والقسوة والظلم والموت : فإنك لن تجد بين المتفكهين من يتفكه كما يتفكه التاريخ .

الباب التاسع عشر
الحياة العقلية

الفصل الأول
العلم الهندى

أصوله الدينية – الفلكيون – التفكير الرياضى – الأعداد « العربية » – النظام العشرى – الجبر – الهندسة – الطبيعة – الكيمياء – علم وظائف الأعضاء – الطب الفيدى – الأطباء – الجراحون – البنج – التطعيم – التنويم

جهود الهند فى العلم قديمة جداً وحديثة جداً فى آن معاً ؛ فهى حديثة إذا نظرنا إلى العلم باعتباره بحثاً مستقلا دنيوياً ، وهى قديمة إذا نظرنا إليه باعتباره مشغلة فرعية من مشاغل الكهنة ، ولما كان الدين هو لب الحياة الهندية وصميمها ، فإن العلوم التى كان من شأنها أن تعاون الدين هى التى سبقت غيرها بالرعاية والنمو : فالفلك قد نشأ عن عبادة الأجرام السماوية ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابين ، ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية ، صحيحة فى تركيبها وفى مخارج أصواتها ، على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة[1] فقد كان علماء الهند كما كانت الحال فى عصورنا الوسطى – هم كهنتها ، بكل ما فى ذلك من خير ومن شر .

نشأ علم الفلك عن التنجيم نشأة غير مقصودة ، ثم أخذ رويداً رويداً ينفض عن نفسه الأغلال فى ظل اليونان ، وأقدم الرسائل الفلكية – وهى السدهانتا حوالى ٤٢٥ قبل الميلاد – كانت قائمة على أساس العلم اليونانى[2] حتى لقد اعترف « ڤاراهاميرا » الذى أطلق على مؤلفه الموسوعى اسماً له مغزاه إذ أطلق

عليه « مجموعة كاملة للتنجيم الطبيعي » – اعترف صراحة باعتماده على اليونان ، وبحث « آريابهاتا » – وهو أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود – في قصائد منظومة موضوعات مثل المعادلات الرباعية والجيب (في حساب المثلثات) وقيمة النسبة التقريبية المستعملة في استخراج مساحة الدائرة . كما علل الكسوف والخسوف والاعتدالين والانقلابين (في حركة الأرض حول الشمس) وأعلن عن كروية الأرض ودورتها اليومية حول محورها ، وجاء ما يأتي فيما كتبه سابقاً لعلم النهضة الأوربية سبقاً جريئاً : « إن عالم النجوم ثابت ، والأرض في دورانها هي التي تحدث كل يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق واختفاءها في الغرب[٤] » وجاء بعده خلفه المشهور « براهما جوبتا » فنسّق المعلومات الفلكية في الهند ، ولو أنه عاق تقدم الفلك هناك برفضه لنظرية « آريابهاتا » الخاصة بدوران الأرض ، هؤلاء الرجال وأتباعهم هم الذين لاءموا بين حاجات الهنود وبين التقسيم البابلي للسماء إلى أبراج ، وهم الذين قسموا العام اثنى عشر شهراً ، كل شهر منها ثلاثون يوماً ، وكل يوم ثلاثون ساعة ، وكانوا يضيفون شهرا زائداً كل خمسة أعوام ، وحسبوا بدقة تستوقف النظر قطر القمر وخسوف القمر وكسوف الشمس ، وموضع القطبين ومواضع النجوم الرئيسية ودورانها[٥] ، وشرحوا نظرية الجاذبية – ولو أنهم لم يصلوا إلى قانونها – عندما كتبوا في « سدّذانتا » : « إن الأرض تجذب إليها كل شيء بما لها من قوة جاذبة[٦] » –

ولكي يحسبوا هذه العمليات المعقدة ، فكّر الهنود في حساب رياضي يفوق ما كان لليونان في كل شيء إلا الهندسة[٧] ، ولذا فإن من أهم ما ورثناه عن الشرق الأعداد « العربية » والنظام العشري ، وقد جاءنا كلاهما من الهند على أيدي العرب ، فإن ما يسمى خطأ بالأعداد « العربية » نراها منقوشة على « صخرة المراسيم » التي خلفها « أشوكا » (٢٥٦ ق . م) ، أي قبل استخدامها

فى الكتابات العربية بألف عام ؛ يقول « لابلاس » العظيم النابغ :

« إنها الهند هى التى علمتنا الطريقة العبقرية فى التعبير عن كافة الأعداد برموز عشرة ، لكل منها قيمة تستمد من مكانه فى العدد فضلا عن قيمته الذاتية المطلقة ؛ وإنها لفكرة عميقة هامة تبدو لنا اليوم من البساطة بحيث ننسى ما هى جديرة به من خطر ؛ لكن بساطتها هذه ، والسهولة العظيمة التى أدخلتها فى العمليات الحسابية كلها ، قد جعلنا من علم الحساب عندنا مخترعاً مفيداً هو فى الصف الأول بين سائر المخترعات النافعة ؛ وإننا لنزداد تقديراً لعظمة هذا الابتكار إذا ما تذكرنا أنه غاب عن عبقرية أرشميدس وأپولونيوس ، وهما من أعظم من أنجبت العصور القديمة من رجال »(٨).

وعرف « آرياباهاتا » و « براهما جوپتا » النظام العشرى قبل ظهوره فى كتابات العرب والسوريين بزمن طويل ؛ وأخذته الصين عن المبشرين البوذيين ويظهر أن محمداً بن موسى الخوارزمى — وهو أعظم رياضى فى عصره (مات حوالى ٨٥٠ بعد الميلاد) — قد أدخله فى بغداد ؛ أما الصفر فأقدم استخدام له معروف لنا فى آسيا وأوروبا(*) هو فى وثيقة عربية تاريخها ٨٧٣ م . أى قبل أول ظهور له — فيما نعلم — فى الهند بثلاثة أعوام ؛ لكن الرأى مجمع على أن العرب قد استعاروا الصفر أيضاً من الهند(٩) ، وهكذا ترى أكثر الأعداد تواضعاً وأكبرها نفعاً كان هدية من الهدايا الرقيقة التى قدمتها الهند لسائر البشر .

وتقدم الجبر عند الهنود وعند اليونان دون أن يأخذ فريق عن فريق فيما يظهر(**) لكن احتفاظنا باسمه العربى (الجبر كلمة عربية معناها ملاءمة

(*) كان الصفر مستعملا عند الماياويين فى أمريكا فى القرن الأول الميلادى(٨١) ، ويعزو الدكتور « برستد » للبابليين القدماء علماً بقيمة الأرقام المستمدة من مواضعها فى الأعداد (راجع مجلة السبت الأدبية ، الصادرة فى نيويورك فى ١٣ يوليو سنة ١٩٣٥ ص ١٥)

(**) أقدم عالم فى الجبر معروف لدينا هو « ديوفانتوس » اليونانى (سنة ٣٦٠) وهو أقدم من آرياباهاتا بقرن ، لكن « كاچورى » يعتقد بأنه أخذ الوحى من الهند

التركيب) يدل على أن العلم به قد أتى إلى أوروبا الغربية من العرب — وهذا معناه أنه جاء إليها من الهند لا من اليونان[١١] ، وأبطال هذا الميدان من الهنود هم — كما فى علم الفلك — آريا بهاتا وبراهما جوبتا وبهاسكارا ؛ ويظهر أن أخيرهم (ولد سنة ١١٤ بعد الميلاد) قد ابتكر العلامة الجذرية وكثيراً غيرها من الرموز الجبرية[١٢] ، وهؤلاء الرجال هم الذين ابتكروا فكرة الكمية السلبية التى كان يستحيل الجبر بغيرها[١٣] ، وصاغوا القواعد التى يمكن بها إيجاد التباديل والتوافيق ، وحسبوا الجذر التربيعى للعـــدد ٢ ، وحلوا فى القرن الثامن الميلادى معادلات غير متعينة من الدرجة الثانية ، كانت تجهلها أوروبا حتى أيام « يولر » بعد ذلك بألف عام[١٤] ، ولقـــد صاغوا علمهم هذا فى قالب شعرى ، وخلعوا على مسائل الرياضة رشاقة تميز العصر الذهبى فى تاريخ الهند ، وهاك مثلين يوضحان الجبر فى صوره البسيطة عند الهنود .

« هناك خلية من النحل ، استقر خمسها على زهرة كادامبا ، وهبط ثلثها على زهرة سلندرة ، وطار ثلاثة أمثال الفرق بين هذين العددين إلى زهر الكوتاجا ، وظلت نحلة واحدة — وهى كل ما تبقى — حائمة فى الهواء ؛ فأنبئينى أيتها المرأة الفاتنة عدد النحل كله ... لقد اشتريت لك ياحبيبتى هذه الياقوتات الثمان ، والزمردات العشر ، واللؤلؤات المائة ، التى ترينها فى قرطك ، واشتريتها بأثمان متساوية ، وكان مجموع أثمان الأنواع الثلاثة من الأحجار الكريمة أقل من نصف المائة بثلاثة ، فأنبئينى ثمن كل منها أيتها المرأة المجدودة »[١٥] .

غير أن الهنود لم يكونوا على هذه الدرجة من التوفيق فى الهندسة ؛ ولو أن الكهنة استطاعوا فى قياس مذابح القرابين وبنائها أن يصوغوا النظرية الفيثاغورية (التى مؤداها أن المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين) قبل ميلاد المسيح ببضع مئات من السنين[١٦] وكذلك استطاع « اريابهاتا » — وقد يكون متأثراً باليونان فى ذلك —

ـ أن يحسب مساحة المثلث والمعين والدائرة وأن يقدر قيمة النسبة التقريبية (فى حساب النسبة بين طول قطر الدائرة ومحيطها) بـ ٣,١٤١٦ ــ وهو رقم لم يعادله فى دقة الحساب رقم آخر حتى عهد «پيرباخ» (١٤٢٣ــ ٦١) فى أوروبا[١٧]؛ وكان «بهاسكارا» سباقاً إلى حساب التفاضل، إذ فكر فيه على نحو تقريبى، وأعد «أريابهاتا» قائمة بحساب الجيب، وجاء فى كتاب «سورياسِدْ ذانتا» مجموعة منسقة فى حساب المثلثات، كانت أرفع مستوى من كل ما عرفه اليونان فى هذا الباب[١٨].

ولدى الهنود مدرستان فكريتان لكل منهما نظرية فيزيائية شبيهة بما كان اليونان فى ذلك شبها يوحى بما كان بين البلدين من اتصال؛ فذهب «كاناد» مؤسسة الفلسفة الفايشيشيكية، إلى أن العالم مؤلف من ذرات يبلغ عدد أنواعها عدد العناصر المختلفة؛ وأما الجانتيون فقد ازدادوا شبهاً بديمقريطس فى مذهبهم بأن كافة الذرات من نوع واحد، تحدث آثاراً مختلفة بسبب الاختلاف فى طريقة تركيبها[١٩]؛ ويرى «كانادا» أن الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر واحد؛ ويذهب «يودايانا» إلى أن جميع الحرارة مصدرها الشمس؛ ويفسر «ڤاشاسپاتى» ــ مثل «نيوتن» ــ الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة تنبعث من الأشياء وتطرق العين[٢٠]؛ وتجد فى رسائل الهنود التى ألفوها فى الموسيقى تحليلا وحسابا رياضياً للنغمات الموسيقية وأطوال موجاتها(*). وكذلك صاغوا «قانون فيثاغورس» الذى مؤداه أن عدد الذبذبات، وبالتالى درجة ارتفاع النغمة، يتناسب تناسباً عكسياً مع طول الوتر فيما بين نقطة اتصاله ونقطة لمسه؛ وهنالك ما يدل على أن البحارة الهنود فى القرون الأولى

(*) مثال ذلك ما تراه فى رسالة «محيط الموسيقى» لشارام جاديفا (١٢١٠ – ٤٧)

بعد الميلاد ، قد استعملوا بوصلة صنعوها من سمكة حديدية تسبح فى إناء من الزيت وتشير إلى الشمال(٢١) .

وتقدمت الكيمياء بادئة طريقها من مصدرين : الطب والصناعة ؛ فقد أسلفنا بعض القول فى براعتهم الكيماوية فى صبّ الحديد فى الهند القديمة ، وفى الرقىّ الصناعى العظيم فى عصور « چوبتا » ، حينما كان يُنْظر إلى الهند — حتى من روما القيصرية — على أنها أمهر الأمم جميعاً فى صناعات كيماوية مثل الصباغة والدبغ وصناعة الصابون والزجاج والأسمنت ، وفى تاريخ بلغ من القِدَم القرن الثانى قبل الميلاد ، خصص « ناجارچونا » كتاباً بأكمله للبحث فى الزئبق ، فلما أن كان القرن السادس كان الهنود أسبق بشوط طويل من أوروبا فى الكيمياء الصناعية ، فكانوا أساتذة فى التكليس والتقطير والتصفية والتبخير واللحام وإنتاج الضوء بغير حرارة ، وخلط المساحيق المنوّمة والمخدرة ، وتحضير الأملاح المعدنية ، والمركّبات والمخلوطات من مختلف المعادن ، وبلغ طرق الصلب فى الهند القديمة حداً من الكمال لم تعرفه أوروبا إلا فى أيامنا هذه ، ويقال إن الملك يورَس ْ ، قد اختار هدية نفيسة نادرة يقدمها للإسكندر ثلاثين رطلا من الصلب(٢٢) ، إذ آثرها على هدية من الذهب أو الفضة ، ونقل المسلمون كثيراً مما كان للهنود من علم الكيمياء والصناعة الكيماوية إلى الشرق الأدنى وأوروبا ، فمثلا نقل العرب عن الفرس ، وكان الفرس قد نقلوا بدورهم عن الهند سر صناعة السيوف « الدمشقية »(٢٢) .

وكان التشريح وعلم وظائف الأعضاء — مثل بعض جوانب الكيمياء — نتيجتين عرضيتين للطب الهندى ، ففى القرن السادس قبل الميلاد — رغم أنه عهد يغوص فى القِدَم ، كان الأطباء الهنود يعرفون خصائص الأربطة العضلية ورتق العظام والجهاز اللمفاوى ، والضفائر العصبية واللفائف والأنسجة

الدهنية والأوعية الدموية والأغشية المخاطية والمفصلية وأنواع من العضلات أكثر مما نستطيع أن نتبينه من جثة حديثة(٢٣).

وقد زلّ أطباء الهند في العصر السابق لميلاد المسيح في نفس الخطأ الذي وقع فيه أرسطو حين تصور القلب مركز الشعور وأداته، وظنوا أن الأعصاب تصعد من القلب وتهبط إليه، لكنهم فهموا عمليات الهضم فهماً يستوقف النظر بدقته — أعني الوظائف المختلفة للعصارات المعدية، وتحول الكيموس إلى كيلوس، ثم تحوّل الكيلوس إلى دم(٢٤)، وسبق «أتريا».، «وايزمان» بألفين وأربعمائة عام حين ذهب (حوالى ٥٠٠ ق . م) إلى أن نطفة الوالد مستقلة عن جسمه، وأنها تحتوى فى نفسها بنسبة مصغرة كل الكائن العضوى للوالد(٢٥) وكانوا يحبذون فحص الرجال للتحقق من توافر عناصر الرجولة فيهم قبل إقدامهم على الزواج؛ وجاء فى تشريع «مانو» تحذيراً من عقد الزواج بين أشخاص مصابين بالسل أو الصرع أو البرص أو سوء الهضم المزمن أو البواسير أو شقشقة اللسان(٢٦) وكان مما فكرت فيه مدارس الطب الهندية سنة ٥٠٠ قبل الميلاد، ضبط النسل على آخر طراز يأخذ به رجال اللاهوت، وهو يقوم على نظرية هى أن الحمل مستحيل فى مدى اثنى عشر يوماً من موعد الحيض(٢٧)؛ ووصفوا تطور الجنين وصفاً فيه كثير جداً من الدقة، وكان مما لوحظ فى هذا الصدد أن جنس الجنين لا يتعين إلا بعد مدة، وزعموا أن جنس الجنين فى بعض الحالات يمكن التأثير فيه بفعل الطعام أو العقاقير(٢٨).

وتبدأ مدوَّنات الطب الهندى بكتاب «أترافا — ڤيدا»، فى هذا الكتاب نجد قائمة بأمراض مقرونة بأعراضها، لكنك تجدها محاطة بكثير جداً من السحر والتعزيم؛ فقد نشأ الطب ذيلاً للسحر، فالقائم بالعلاج كان يدرس ويستخدم وسائل جثمانية لشفاء المريض، على أساس أن هذه تساعده على نجاح ما يكتبه له من صيغ روحانية؛ ثم أخذ على مرّ الزمن يزيد من اعتماده على

الوسائل الدنيوية ، ماضياً إلى جوار ذلك فى تعاويذه السحرية لتكون هذه معينة لتلك من الوجهة النفسية ، كما نفعل اليوم بتشجيعنا للمريض .

وفى ذيل كتاب « أترافا — ڤيدا » ملحق يسمى « أجور — ڤيدا » (ومعناها علم إطالة العمر) ؛ ويذهب هذا الطب الهندى القديم إلى أن المرض يسببه اضطراب فى واحد من العناصر الأربعة (الهواء والماء والبلغم والدم) وطرائق العلاج هى الأعشاب والتمائم السحرية ؛ ولا يزال كثير من طرائق الطب القديم فى وصف الأمراض وعلاجها مأخوذاً به فى الهند اليوم ، وإن ذلك ليصيب من النجاح أحياناً ما يثير الغيرة فى صدور الأطباء الغربيين : وتجد فى كتاب « رجْ — ڤيدا » نحو ألف اسم من أسماء هذه الأعشاب ، وهو يحبذ الماء على أنه خير علاج لمعظم الأمراض ؛ على أن الأطباء والجراحين حتى فى العهد الڤيدى كانوا يتميزون بما يفرق بينهم وبين المعالجين بالسحر ، وكانوا يسكون منازل تحيط بها حدائق يستنبتون فيها الأعشاب الطبية[٢٩] .

وأعظم اسمين فى الطب الهندى هما « سوشروتا » فى القرن الخامس قبل الميلاد و « شاراكا » فى القرن الثانى بعد الميلاد ؛ فقد كتب « سوشروتا » — وكان أستاذاً للطب فى جامعة بنارس — باللغة السنسكريتية مجموعة من أوصاف الأمراض وطرائق علاجها ، وكان قد ورث العلم بها من معلمه « ذانوانْتارى » فبحث فى كتابه بإطناب فى الجراحة والتوليد والطعام الصحى والاستحمام والعقاقير وتغذية الرُّضَّع والعناية بهم والتربية الطبية[٣٠] ، وأما « شاراكا » فقد أنشأ « سامهيتا » (ومعناها موسوعة) تشمل علم الطب ، وهى ما تزال مأخوذاً بها فى الهند[٣١] ؛ وبث فى أتباعه فكرة عن مهنتهم كادت تقرب من فكرة أبقراط ، « لا ينبغى أن تعالجوا مرضاكم ابتغاء منفعة لأنفسكم ، ولا إشباعاً لشهوة كائنة ما كانت من شهوات الكسب الدنيوية ، بل عالجوهم من أجل غاية واحدة هى التخفيف عن الإنسانية المعذبة ، بهذا تفوقون سائر الناس »[٣٢] ويتلو هذين الاسمين التماعاً فى تاريخ الطب الهندى اسم « ڤاجبهاتا »

(٦٢٥ ميلادية) الذى أعدّ موسوعة طبية نثرا ونظما ، ثم اسم « بهاڤاميسْرا » (١٥٥٠ ميلادية) الذى جاء فى كتابه الضخم عن التشريح ووظائف الأعضاء والطب ، ذكر الدورة الدموية قبل أن يذكرها « هارڤى » بمائة عام ، ووصف الزئبق علاجاً لذلك المرض الجديد — مرض الزهرى — الذى كان قد دخل الهند منذ عهد قريب مع البرتغاليين ، جزءاً من التراث الذى خلَّفته أوربا للهند(٣٣) .

وصف « سوشروتا » كثيراً من العمليات الجراحية — الماء فى العين ، والفتق وإخراج الحصاة من المثانة ، وبتْر الأمهات عن الأجنة وغير ذلك ، كما ذكر إحدى وعشرين ومائة أداة من أدوات الجراحة منها المشارط والمسابر والملاقط والقثاطير ومناظير القُبُل والدُّبُر(٣٤) ، وعلى الرغم من تحريم البراهمة لتشريح حثث الموتى ، جعل يدافع عن ضرورة ذلك فى تدريب الجراحين ؛ وكان أول من رقع أذناً جريحة بقطع من الجلد اقتطعها من أجزاء أخرى من الجسم ، وعنه وعن أتباعه من الهنود أخذ الطب الحديث عملية تقويم الأنف(٣٥) يقول « جارسُنْ » : « لقد أجرى قدماء الهود كل العمليات الجراحية الكبرى تقريباً ، ما عدا عملية ربط الشرايين »(٣٦) ، فقد بتروا الأطراف ، وأجروا الجراحات فى البطن ، وجبروا كسور العظام ، وأزالوا البواسير ، وقعَّدَ « سوشوترا » القواعد الدقيقة لإجراء الجراحة ، ويعدُّ اقتراحه بتعقيم الجرح بالتبخير أول ما نعرفه من جهود فى وسائل التطهير أثناء الجراحة(٣٧) ، ويذكر لنا « سوشوترا » و « شاراكا » كلاهما فوائد أنواع من الشراب الطبى فى تخدير الجسم عن الألم ، وحدث فى سنة ٩٢٧ ميلادية أن قام جراحان بتربنة الجمجمة لملك هندى ، فخدَّروه عن الجراحة بفعل عقار يسمى « ساموهينى »(*)(٣٨)

(*) أقيمت المستشفيات فى سيلان منذ سنة ٤٢٧ قبل الميلاد ، وفى شمال الهند منذ ٢٢٦ قبل الميلاد(٣٩) .

وأوصى « سوشوترا » بأن تتبع فى تشخيص الأمراض التى أحصى منها ألفاً ومائة وعشرين ، طريقةُ النظر بالمنظار وطريقتا جس النبض والتسمع بالأذن(٤٠) وقد جاء وصف لجسّ النبض فى رسالة تاريخها ١٣٠٠ بعد الميلاد(٤١) ؛ وكان تحليل البول طريقة مستحسنة فى تشخيص الأمراض ؛ حتى لقد اشتهر أطباء التبت بقدرتهم على شفاء أى مريض دون النظر فى أى شيء يتعلق به ما عدا بوله(٤٢) ، وكان العلاج الطبى فى الهند فى عهد يوان شوانج ، يبدأ بصيام مداه سبعة أيام ، وكثيراً ما كان يشفى المريض فى هذه الفترة ، فإذا بقى المرض لجأوا بعدئذ إلى استخدام العقاقير(٤٣) لكنهم لم يكونوا يسرفون فى استخدام العقاقير حتى فى أمثال هذه الحالات ، إذ كان معظم اعتمادهم على تدبير الطعام الملائم والاستحمام والحقن الشرجية والاستنشاق والحقن فى مجارى البول وإخراج الدم بدود العلق أو بالكؤوس(٤٤) ، وكان لأطباء الهنود شهرة خاصة فى تكوين ترياقات السموم ، ولا يزالون يفوقون الأطباء الأوربيين فى علاج عضة الثعبان(٤٥) ؛ وقد عرفت الهند التطعيم منذ سنة ٥٥٠ ميلادية ، مع أن أوروبا لم تعرفه إلا فى القرن الثامن عشر ، ذلك لو حكمنا من نصٍّ يعزى إلى (ذانوانتارى) وهو طبيب من أقدم أطباء الهنود ، وهذا هو : « خذ السائل من البثور التى تراها على ضرع البقرة ... خذه على سنان المشرط ، ثم طعِّم به الأذرعة بين الأكتاف والمرافق ، حتى يظهر الدم ؛ عندئذ يختلط السائل بالدم فتنشأ عن اختلاطه حمى الجدرى »(٤٦) ويعتقد الأطباء الأوروبيين المحدثون أن التفرقة بين الطبقات تفرقة تعزل بعضها عن بعضها ، منشؤها إيمان عند البراهمة بوجود عوامل خفية فى نقل الأمراض ؛ وكثير من قوانين الصحة التى أوصى بها « سوشوترا » و « مانو » تسلم تسليما – فيما يظهر – بما نسميه نحن المحدثون الذين نحب الأسماء الجديدة نطلقها على ما هو قديم ، أقول إنها تسلم بما نسميه نحن المحدثون بنظرية المرض عن طريق الجراثيم(٤٧) ؛ ويبدو لنا أن التنويم كوسيلة للعلاج قد نشأ عند

الهنود الذين كثيراً ما كانوا ينقلون مرضاهم إلى المعابد لمعالجتهم بالإيحاء التنويمي أو « نعاس المعبد » كما كان يحدث فى مصر واليونان(٤٨) والأطباء الإنجليز الذين أدخلوا طريقة العلاج بالتنويم فى إنجلترا — وهم « بريد » و « ازديل » و « إليوتسن » « لا شك فى أن ما أوحى لهم بآرائهم تلك ، وببعض خبرتهم ، هو اتصالهم بالهند »(٤٩) .

فالطب الهندى بصفة عامة قد تطور تطوراً سريعاً فى العهدين الفيدى والبوذى ، ثم أعقب ذلك قرون سار فيها التقدم بخطوات الوئيد الحذر ، ولسنا ندرى كم يدين « أتريا » و « ذانوانتارى » و « سوشوترا » لليونان ، وكم تدين اليونان لهم ؛ يقول « جارسن » إنه فى أيام الاسكندر « كان لأطباء الهنود وجراحيهم شهرة — هم جديرون بها — بما يتميزون به من تفوق فى العلم ومهارة فى العمل » ، وحتى أرسطو نفسه — فى رأى طائفة من الباحثين — مدين لهم(٥٠) وكذلك قل فى الفرس والعرب ، فمن العسير أن تقطع برأى فى مدى ما أخذه الطب الهندى من بغداد ، ومن الطب البابلى فى الشرق الأدنى عن طريق بغداد ؛ فمن جهة ترى بعض طرائق العلاج مثل الأفيون والزئبق ، وبعض وسائل الكشف عن حقيقة المرض مثل جس النبض ، قد جاءت إلى الهند من فارس فيما يظهر ؛ لكنك من جهة أخرى ترى الفرس والعرب قد ترجموا إلى لغتهما فى القرن الثامن الميلادى موسوعتى « سوشوترا » و « شاراكا » اللتين كانتا قد مضى عليهما ألف عام(٥١) ولقد اعترف الخليفة العظيم هارون الرشيد بالتفوق العلمى والطبى للهنود ، واستدعى الأطباء الهنود لتنظيم المستشفيات ومدارس الطب فى بغداد(٥٢) ؛ وينتهى « لورد آمبهل » إلى نتيجة هى أن أوروبا الوسيطة والحديثة مدينة بعلمها الطبى للعرب بطريق مباشر ، وللهند عن طريق العرب(٥٣) ؛ ولعل هذا العلم الذى هو أشرف العلوم وأبعدها عن اليقين ، قد نشأ فى بلاد مختلفة فى وقت واحد تقريباً ، ثم جعل يتطور بما كان بين الأمم المتعاصرة فى سومر ومصر والهند من صلات وتبادل فكرى .

الفصل الثاني

الفلسفة البرهمية ومذاهبها الستّة

قدم الفلسفة الهندية — أهميّتها — أعلامها — ألوانها —
مذهب القدماء — مزاعم الفلسفة الهندية

إن تفوق الهند أوضح فى الفلسفة منه فى الطب ؛ ولو أن أصول الأشياء هاهنا أيضاً ، ينسدل عليها ستار يخفيها وكل نتيجة تصل إليها إن هى إلا ضرب من الفروض ؛ فبعض كتب « يوپانشاد » أقدم من كل ما بقى لنا من الفلسفة اليونانية ؛ ويظهر أن فيثاغورس وبارمنيدس وأفلاطون قد تأثروا بالميتافيزيقا الهنــدية ؛ أما آراء طاليس وأنكسمندر وأنكسمينس ، وهرقليطس ، وأنا كسجوراس وأمبادقليس ، فهى لا تسبق فلسفة الهنود الدنيوية فحسب ، بل يطبعها طابع من الشك ومن البحث فى الطبيعة المادية ، يميل بنا إلى ردها إلى ما شئت من أصول ما عدا الهند ، ويعتقد « ڤكتوركوزان » أننا «مضطرون اضطراراً أن نلتمس فى هذا المهد الذى درجت فيه الإنسانية ، منشأ الفلسفة العليا »(٥٤) والأرجح عندنا أنه ليس بين المدنيات المعروفة لنا جميعاً ، مدنية واحدة كانت أصلا لكل عناصر المدنية .

لكنك لن تجد بين بلاد العالمين بلداً اشتدت فيه الرغبة فى الفلسفة شدتها فى الهند : فهى عند الهنود لا تقتصر على كونها حلية للإنسان أو تفكهة يسرّى بها عن نفسه ، بل هى جانب هام لا غنى لنا عنه فى تعلقنا بالحياة نفسها وفى معيشتنا لتلك الحياة ؛ وإنك لتجد حكماء الهند يتلقون من أمارات التكريم ما يتلقاه فى الغرب رجال المال والأعمال ؛ فأى أمة سوى الأمة الهندية قد فكرت فى الإحتفال بأعيادها بمناظرات ينازل فيها زعماء المدارس الفلسفية المتنافسة بعضهم بعضاً ؟ فتقرأ فى اليوپانشاد كيف خصص ملك الڤيديهيين يوماً

لمناقشة فلسفية باعتبارها جزءاً من الاحتفال الديني ، بين «ياجناڤالكيا» و « أسڤالا» و« أرتابهاجا » و « جارجي» ؛ ووعد الملك أن يثيب الظافر منهم – وكان عند وعده – بمكافأة قدرها ألف بقرة ومائة قطعة من الذهب[٥٦] ، وكان المألوف للمعلم الفيلسوف في الهند أن يتحدث أكثر مما يكتب ؛ فبدل أن يهاجم معارضيه عن طريق المطبعة المأمون الجانب ، كانوا يطالبونه بملاقاتهم في مناظرة حية ، وبالذهاب إلى مقارّ المدارس الأخرى ليضع نفسه هناك تحت تصرف أتباعها في جداله وسؤاله ، ولقد أنفق أعلام الفلاسفة ، مثل « شانكارا » شطراً عظيما من أعوامهم في أمثال تلك الرحلات الفكرية[٥٧] ، وكان الملوك أحياناً يسهمون في هذه المجادلات ، في تواضع يليق بالملك وهو في حضرة الفيلسوف – ذلك إن أخذنا بما يرويه لنا الفلاسفة أنفسهم عن ذلك ؛ وينزل الظافر في مناظرة هامة من تلك المناظرات ، منزلة عالية من البطولة في أعين الناس ، كهذه المنزلة التي يحتلها قائد عسكري عاد من انتصاراته الدامية في ميادين الحروب[٥٨] .

وترى في صورة راچپوتية من القرن الثامن عشر[٥٩] نموذجاً « لمدرسة فلسفية » هندية – فالمعلم جالس على حصير تحت شجرة ، وتلاميذه جالسون القرفصاء أمامه على نجيل الأرض ؛ وكنت تستطيع أن ترى مثل هذا المنظر أينما سرت في الهند ، لأن معلمي الفلسفة هناك كانوا في كثرة التجار في بابل ، ولن تجد في بلد آخر غير الهند عدداً من المدارس الفكرية بمقدار ما تجده منها هناك ؛ ففي إحدى محاورات بوذا ما يدلنا على أنه قد كان في الهند في عصره اثنان وستون رأياً في النفس يأخذ بها الفلاسفة المختلفون[٦٠] ، يقول « الكونت كسرلنج» : « إن هذه الأمة الفلسفية قبل كل شيء ، لديها من الألفاظ السنسكريتية التي تعبر بها عن الفكر الفلسفي والديني ، أكثر مما في اليونانية واللاتينية والجرمانية مجتمعة »[٦١] .

لما كان الفكر الهندى قد انتقل بالحديث الشفوى أكثر منه بالكتابة ، فأقدم صورة هبطت إلينا عن مذاهب المدارس المختلفة ، هى الحكم ويسمونها « سُتْرات » — ومعناها « خيوط » — يكتبها المعلم أو الطالب ، لا لتكون وسيلة لشرح رأيه لغيره ، بل لتعينه على وعيها فى ذاكرته ؛ وهذه « السترات » ترجع إلى عصور مختلفة ، فبعضها قديم يرجع تاريخه إلى سنة ٢٠٠ ميلادية ، وبعضها حديث يرجع إلى سنة ١٤٠٠ ؛ وهى جميعاً على كل حال أحدث جداً من التراث الفكرى الذى تلخصه ، والذى تناقلته العصور بالشفاه ، ذلك لأن نشأة هذه المدارس الفلسفية قديمة قدم بوذا ، بل لعل بعضها — مثل السانْخيا — ان قد ثبت أساسه عند ما ولد بوذا(٦٣) .

يبوِّب الهنود مذاهبهم الفلسفية كلها فى صنفين : المذاهب الأستيكية التى تثبت ، والمذاهب الناستيكية التى تنفى(*) .

وقد فرغنا فيما مضى من دراسة المذاهب الناستيكية التى أخذ بها على وجه التخصيص أتباع « شارفاكا » وأنصار بوذا والجانتيون ؛ والعجيب أن هذه المذاهب إنما سميت « ناستيكا » أى الكافرة الهدامة ، لا لأنها شكت أو أنكرت وجود الله (ولو أنهم فعلوا ذلك) بل لأنها شكت وأنكرت أو تجاهلت أحكام الفيدات ؛ وكثير من مذاهب « آستيكا » شكت فى وجود الله كذلك أو أنكرت وجوده ، لكنها مع ذلك سميت بالمذاهب المؤمنة بأصول الدين ، لأنها سلمت بصواب الكتب المقدسة صواباً لا يأتيه الباطل ، كما قبلت نظام الطبقات ؛ ولم يفكر أحد فى تقييد الحرية الفكرية ، مهما بلغت من الإلحاد ، عند تلك المذاهب التى اعترفت بهذه الأسس الجوهرية التى تقوم عليها الجماعة الهندية الأصيلة ؛ ولما كان تفسير الكتب المقدسة يفسح مجالا واسعاً لاختلاف الرأى ، بحيث استطاع مهرة المفسرين أن يجدوا فى الفيدات أى مذهب شاءوا ، فقد

(*) آستى معناها موجود ، وناستى معناها معدوم .

أصبح الشرط الوحيد فى واقع الأمر . الذى لابد من تحققه إذا ما أراد الإنسان أن يكون ذا مكانة عقلية فى نفوس الناس هو أن يعترف بالطبقات ؛ حتى لقد أصبح هذا النظام هو مصدر السلطان الحقيقى فى البلاد ؛ معارضته تعد خيانة كبرى ، وقبوله يغفر عن كثير من السيئات ؛ وإذن فالواقع هو أن فلاسفة الهند تمتعوا بحرية أكبر جداً مما أتيح لزملائهم فى أوروبا الوسطة حين سادت الفلسفة الاسكولائية (أى المدرسية) ، لكن ربما كان هؤلاء الهنود الفلاسفة أقل حرية من مفكرى الدولة المسيحية فى ظل البابوات المتنورين الذين سادوا أيام النهضة الأوروبية .

وآلت السيادة لستة من المذاهب « الأصيلة » — المؤمنة بأصول الفيدات — أو « الدارشانات » (ومعناها البراهين) ، حتى لقد أصبح لزاماً على كل مفكر هندى ممن يعترفون بسلطان البراهمة ، أن يعتنق هذا المذهب أو ذاك من تلك المذاهب الستة ، وهى كلها مجمعة على طائفة معينة من الآراء تعتبر ركائز التفكير الهندى : وهى أن الفيدات قد هبط بها الوحى ، وأن التدليل العقلى أقل جدارة بالركون إليه فى هدايتنا إلى الحقيقة والصواب ، من إدراك الفرد وشعوره المباشرين إذا ما أعد الفرد إعداداً صحيحاً لاستقبال العوامل الروحية ، وأرهفت نفسه إرهافاً باصطناع الزهد والتزام الطاعة مدى أعوام لمن يقومون على تهذيب نفسه ؛ وأن الغاية من المعرفة ومن الفلسفة ليست هى السيطرة على العالم بقدر ما هى الخلاص منه ؛ وأن هدف الفكر هو التماس الحرية من الألم المصاحب لخيبة الشهوات فى أن نجد إشباعها . وذلك التحرر من الشهوات نفسها ؛ تلك هى الفلسفات التى ينتهى إليها الناس إذا ما أتعب نفوسهم للطموح والكفاح والثراء و « التقدم » و « النجاح » .

١ — مذهب نيايا

منطيق هنـــدى

أول المذاهب « البرهمية » بالترتيب المنطقى للتفكير الهندى (لأننا لاندرى في يقين ترتيبه الزمنى ، وكل المذاهب فى أجزائها الجوهرية متعاصرة) مجموعة من النظريات المنطقية تمتد على ألفى عام ؛ فكلمة « نيايا » معناها تدليل ، أو طريقة لهداية العقل حتى ينتهى إلى نتيجة ، وأهم نصوصه هو النص المسمى « سوترا نيايا » الذى يعزى فى غير تأكيد الواثق إلى رجل يسمى « جوتاما » عاش فى زمن يختلف فيه المؤرخون ، وتتراوح تقديراتهم بين القرن الثالث قبل المسيح والقرن الأول بعده(٦٣) ، ويفصح جوتاما عن الغاية من مؤلفه فيقول — كما يقول كل مفكرى الهنود — إنها تحقيق النرفانا ، أو الخلاص من طغيان الشهوات ، وإنما تتحقق هذه الغاية فى مجال المنطق بالتفكير الواضح المتسق ؛ لكننا نشك فى أن غايته المباشرة كانت هداية الحائرين فى الصراع الذى كان يقوم بين المتناظرين من فلاسفة الهنود ؛ فهو يصوغ لهم مبادئ الحِجَاج ، ويعرض عليهم أحابيل النقاش ، ويحصر المغالطات الشائعة فى التفكير ؛ وتراه — كأنما هو أرسطو آخر — يلتمس بناء التدليل العقلى فى طريقة القياس ، ويجد عقدة كل تدليل فى الحد الأوسط من حدود القياس(*) وكذلك تراه — كأنما هو چيمس آخر أو ديوى آخر ، يعتبر المعرفة والفكر أداتين عمليتين ووسيلتين فعالتين يستخدمها الإنسان فى إشباع حاجاته وقضاء إرادته . ومقياس صحتهما هو قدرتهما على الوصول إلى فعل ناجح(٦٤) فهو

(*) يلاحظ أن القياس فى « نيايا » قوامه خمس قضايا : النظرية ، والعلة ، والمقدمة الكبرى ، والمقدمة الصغرى ، والنتيجة ، مثال ذلك . (١) سقراط فان ، (٢) لأنه إنسان ؛ (٣) وكل إنسان فان ؛ (٤) وسقراط فان ؛ (٥) وإذن فسقراط فان .

واقعى ، ولا شأن له قط بالفكرة السامية التى تزعم أن العالم ينعدم وجوده إذا لم يعد هناك من يدركه ، والظاهر أن أسلاف جوتاما فى مذهب نيايا كانوا ملاحدة ، وأما أتباعه فقد شغلوا أنفسهم بنظرية المعرفة(٦٥) وكانت مهمته أن يقدم للهندى دستوراً جديا للبحث والتفكير ، وقاموساً غنياً بالألفاظ الفلسفية .

٢ — مذهب ڤايشيشيكا

ديمقريطس فى الهند

وكما أن جوتاما هو فى الهند بمثابة أرسطو ، فكذلك « كانادا » هناك بمثابة ديمقريطس ؛ وأن اسمه الذى معناه « آكل الذرات » ليدل بعض الدلالة على احتمال أن يكون شخصاً أسطورياً خلقه خيال المؤرخين ؛ ولم يتحدد بالدقة تاريخ صياغة هذا المذهب الفايشيشيكى ، فيقال إنه لم تتم صياغته قبل سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ولا بعد سنة ٨٠٠ ميلادية ، واسمه مشتق من كلمة « فيشيشا » ومعناها « الجزئية » : فالعالم فى مذهب « كانادا » ملىء بطائفة من الأشياء ، لكنها جميعا لا تزيد عن كونها تركيبات مختلفة من الذرات ، صيغت فى هذا القالب أو ذاك ، وتتغير القوالب ، لكن الذرات يستحيل عليها الفناء ؛ ويذهب « كانادا » — على أتم شبه بديمقريطس فيما يذهب إليه — يذهب إلى أنه ليس فى العالم إلا « ذرات وفراغ » وأن الذرات لا تتحرك وفق إرادة إلهية عاقلة ، بل بدافع من قوة غير مشخصة ، هى القانون — أو « أدرشتا » ومعناها « الخفىّ » ولما كان الثائر فى تفكيره لا ينسل إلا خَلَفاً جامداً ، فكذلك كان الأنصار المتأخرون لمذهب فايشيشيكا يعجبون كيف يمكن لقوة عمياء أن تخلع على الكون نظاماً ووحدة ، فوضعوا عالماً من أنفس دقيقة جنباً إلى جنب مع عالم الذرات ، ثم جعلوا فوق العالمين إلهاً عاقلاً(٦٦) وهكذا ترى نظرية ليبنتز فى « التناسق الأزلى » موغلة فى القدم .

٣ — مذهب سانخيا

شهرته الذائعة — الميتافيزيقا — التطور — الإلحاد — المثالية — الروح — الجسد والعقل والنفس — غاية الفلسفة — تأثير سانخيا

يقول مؤرخ هندى عن هذا المذهب « إنه أبعد المذاهب الفلسفية التى أنتجتها الهند دلالة »(٦٧) ولقد وجد الأستاذ « جاربْ » الذى كرس شطراً كبيراً من حياته لدراسة سانخيا ، عزاء لنفسه إذ وجد أن مذهب « كاپيلا قد اشتمل لأول مرة فى تاريخ العالم استقلال العقل الإنسانى وحريته الكاملتين ، وثقته التامة بقدراته »(٦٨) وهو أقدم المذاهب الستة(٦٩) ولعله أقدم مذهب فلسفى(*) ولسنا ندرى شيئاً عن « كاپيلا » نفسه ، سوى أن الرواية الهندية تزعم — فى استهتار بدقة التواريخ كالذى تراه عند التلميذ الناشئ — تمجيداً له ، أنه مؤسس فلسفة سانخيا فى القرن السادس قبل الميلاد(٧١) .

يجمع « كاپيلا » فى شخصه الواقعية والاسكلائية ، وهو يبدأ كلامه بما يكاد يشبه أقوال الأطباء ، إذ يضع قاعدة فى أول حكمة يسوقها ، وهى « أن انعدام الألم انعداماً تاماً ... هو أكمل غاية ينشدها الإنسان » ، وهو يرفض الاكتفاء بمحاولة الإنسان اجتناب الألم بوسائل جسمانية ؛ ويدحض بشعوذة منطقية آراء الباحثين فى الموضوع واحداً واحداً ، ثم يأخذ بعد ذلك فى تكوين مذهبه الميتافيزيقى الخاص به ، فى سلسلة من « السوترات » المقتضبة الغامضة ؛ وهو يسرد فى سانخيا أنواع الحقائق وهى خمس وعشرون ومن هذا السَّرْد للأنواع جاءت كلمة سانخيا (لأن معناها السرد) وهو يسمى هذه الحقائق

(*) أقدم ما بقى لنا من مدوَّناته ، وهو « سانخيا — كاريكا » الذى كتبه الشارح « إشفارا كرشنا » لا يرجع تاريخه إلا إلى القرن الخامس الميلادى ، و « سانخيا سوترا » الذى كان ينسب إلى « كاپيلا » لا يرجع تاريخه إلى ما قبل القرن الخامس عشر غير أن أصول المذهب يرجح أنها أسبق من البوذية نفسها(٧٠) « فالنصوص البوذية وماهابهاراتا(٧٠ أ) كثيراً ما تشيران إليه ، ويقول « ونترْنتز » إنه يرى آثاره فى فيثاغورس(٧٠ب) .

« تاتّوات » (أى الذلكات ، جمع ذلك) ومنها يتألف العالم فى رأى « كاپيلا وهو يرتب هذه الحقائق فى علاقة مركّبة ترتبط بعضها ببعض ، ويمكن توضيحها بالقائمة التالية :

(١) أ — العنصر (پراكريتى ، أى المنتج) وهو مبدأ فيزيقى عام ينتج بما له من قُوًى تطورية (واسمها جونات) .

(٢) أ — الذكاء (بوذى) وهو قوة الإدراك الحسى ، وهذا بدوره ينتج بما له من قوًى تطورية .

(٣) أ — العناصر الخمسة الدقاق ، أو القوى الحاسة للعالم الداخلى ، وهى :

(٤) ١ — البصر

(٥) ٢ — السمع

(٦) ٣ — الشم

(٧) ٤ — الذوق

(٨) ٥ — اللمس والحقائق المرقومة من (١) إلى (٨) تتعاون على إنتاج الحقائق المرقومة (١٠) إلى (٢٤)

(٩) ب — العقل (واسمه ماناس) وهو الإدراك الفكرى :

ج — أعضاء الحس الخمسة ، وهى التى تقابل الحقائق المرقومة (٤) إلى (٨)

(١٠) ١ — العين

(١١) ٢ — الأذن

(١٢) ٣ — الأنف

(١٣) ٤ — اللسان

(١٤) ٥ — الجلد

د — أعضاء الفعل الخمسة

(١٥) ١ ـ الحنجرة

(١٦) ٢ ـ اليدان

(١٧) ٣ ـ القدمان

(١٨) ٤ ـ أعضاء الإفراز

(١٩) ٥ ـ أعضاء النسل

هـ ـ عناصر العالم الخارجي الخمسة الغلاظ .

(٢٠) ١ ـ الأثير .

(٢١) ٢ ـ الهواء

(٢٢) ٣ ـ النار والضوء .

(٢٣) ٤ ـ الماء

(٢٤) ٥ ـ التراب

(٢٥) ب ـ الروح (بوروشا أي « الشخص ») وهو مبدأ نفسي عام وهو الذي يحرك ويحيي « براكريتي » على الرغم من أنه عاجز عن فعل شيء بذاته ، وهو يستثير كل ما في « براكريتي » من قوى تطورية لتباشر أوجه نشاطها .

وإن هذا ليبدو في أوله مذهباً مادياً خالصاً ، فعالم العقل والنفس ، مثل عالم الجسم والمادة ، عبارة ـ فيما يظهر ـ عن حركة تطورية تتأثر بالعوامل الطبيعية ، ومعنى ذلك أنه يسير في حركة مستمرة التكوين والفساد ، بادئاً من أدنى الدرجات ومنتهياً إلى أعلاها ، ثم يعود إلى أدناها من جديد ، كل ذلك والعالم هو هو من حيث عناصره في وحدتها واستمرارها ؛ فكأنما كان « كابيلا » يشق الطريق أمام « لامارك » حين يقول إن حاجة الكائن العضوي (النفس) تولد الوظيفة (البصر والسمع والشم والذوق واللمس) ثم تنتج الوظيفة عضوها (العين والأذن والأنف واللسان والجلد) ؛ وليس في هذا

المذهب فجوة ، بل ليس فى أية فلسفة هندية تمييز بين اللاعضوى والعضوى من الكائنات ، أو بين عالم النبات وعالم الحيوان ، أو بين الحيوان وبين الإنسان ؛ فهذه كلها حلقات من سلسلة الحياة الواحدة ، أو قل إنها قضبان عجلة التطور والانحلال ، أى عجلة الولادة والموت ثم الولادة من جديد ؛ وإنما يتحدد مجرى التطور اعتباطاً بتأثير الخصائص أو القوى (الجونات) الثلاث الفاعلة فى « العنصر » : ألا وهى الطهر والفاعلية والجهل الأعمى ، وليست هذه القوى بذات هوى نحو التقدم مناهضة للانحلال ، بل إنها تنتج الواحد فى إثر الآخر على دورات لا تنتهى ، مثلها مثل ساحر عابث يظل يخرج أشياء لا تنتهى صنوفها من قبعة ، ثم يعيد وضعها فى القبعة ، ماضياً فى هذه العملية إلى الأبد : فالأمر كما يقول هربرت سبنسر فى عصر متأخر هو أن كل مرحلة من مراحل التطور تحتوى فى ذاتها ميلا إلى الانحلال باعتباره مكملا لها ونهاية لا محيص عنها .

وكان « كاپيلا » شبيها بلاپلاس حين لم ير ضرورة لفرض قوة إلهية يفسر بها الخلق أو التطور(٧٢) وليس من الغرابة فى شىء أن تجد ديانات أو فلسفات بغير إله فى هذه الأمة التى هى أكثر الأمم إمعاناً فى الدين والفلسفة : وإنك لتجد فى كثير من نصوص « سانخيا » إنكاراً صريحاً لوجود خالق مشخص ، والخالق عندهم شىء لا يمكن للعقل أن يتصوره لأن « الشىء لا يخرج من لا شىء »(٧٣) والخالق والمخلوق جانبان لشىء واحد (٧٤) ، وترى « كاپيلا » يكفيه اطمئناناً أن يكتب (كأنه عمانوئيل كانْت على وجه الدقة) بأن الخالق المشخص يستحيل أن يقيم عليه الدليل عقل بشرى ، لأن كل ما هو موجود — فى رأى هذا الشكاك الدقيق — لا يخرج على أحد فرضين ، فإما أن يكون مقيداً وإما أن يكون حراً ، ولا يمكن لله أن يكون هذا أو ذاك ولو كان الله كاملا لما مست به الحاجة إلى خلق العالم ، ثم لو كان ناقصاً لما كان إلهاً ؛ ولو كان الله خيراً وله قدرات إلهية ، لما أمكن قط أن يخلق عالماً على هذا النقص الذى نراه فى العالم

القائم ، الذى يغص بكثرة ما فيه من آلام ، ولا يأخذه التردد فى الموت(٧٥) ؛ وإنه لمما يفيدنا أن نرى كيف يناقش مفكرو الهنود هذه المسائل فى هدوء ، وقل أن يلجأوا فيها إلى اضطهاد أو إهانة ، فقد كانوا يرتفعون بالنقاش إلى مستوى لا يسمو إليه فى عصرنا الحاضر إلا ما يدور بين أنضج العلماء من جدل ؛ وإنما ضمن « كاپيلا » الوقاية لنفسه من الأذى باعترافه بصحة الڤيدات وهو يقول « إن الڤيدات مرجع صحيح ما دام مؤلفها كان يعرف الحقيقة الثابتة »(٧٦) وبعد أن أرسل هذا القول إرسالا راح يفكر كما يشاء دون أن يأبه بالڤيدات فى شىء .

لكنه ليس بالفيلسوف المادى ، بل عكس ذلك هو الصحيح ، لأنه مثالى وروحى على طريقته الخاصة به ، فهو يجعل إدراكنا الحسى مصدراً للعالم الواقع كله ، فما لدينا من أعضاء الحس ومن تفكير يخلع على العالم حقيقته وصورته ومغزاه ، ويستحيل عليه أن تكون له حقيقة أو صورة أو مغزى بالنسبة لنا إلا هذه ؛ أما ماذا يمكن للعالم أن يكون فى حقيقته بغض النظر عن حواسنا وأفكارنا فسؤال أخرق ليس له معنى ولا يمكن أن يكون له جواب(٧٧) ؛ ثم هو بعد أن يسرد قائمة بأربعة وعشرين عنصراً « تاتْوات » تنطوى — فى مذهبه الفلسفى — تحت حركة التطور الفيزيقى ، قَـلَـبَ ماديته هذه التى بدأ بها ، وأضاف جانباً جديداً على أنه الحقيقة النهائية ، وهو أغرب العناصر كلها ، بل لعله أهمها ، وأعنى به « بوروشا » (أى الشخص) أو النفس ؛ وليست النفس على غرار ثلاثة وعشرين من العناصر الأخرى ، تأتى نتيجة للمادة (پراكريتى) أو نتيجة للقوة الفيزيقية ، بل هى مبدأ نفسى قائم بذاته ، موجود فى كل الوجود ، أزلى أبدى ، عاجز عن الفعل بذاته لكنه رغم ذلك لا يُستغنى عنه فى أى فعل ؛ لأن « براكريتى » (المادة) يستحيل أن تتغير فى سيرها نحو الترقى ، والقُوى (وتسمى الجونات) يستحيل أن تفعل فعلها ، إلا عن طريق الوحى يأتيها من « پوروشا » ؛ وهكذا ترى ما هو فيزيقى تدب فيه الحركة والحياة والفاعلية بحيث يتطور ، بدافع هذا المبدأ النفسى أينما وجهت للنظر

فى جنبات الوجود(٧٨) وهاهنا يتحدث « كاپيلا » على غرار أرسطو فيقول : « هنالك فى الروح تأثير فعال (على پراكريتى أى العالم المتطور) سببه ما بينهما من تجاور ، على نحو ما يفعل الحجر المغطس (يجذب الحديد إليه) أعنى أن تجاور « پوروشا » و « پراكريتى » يَتَجَبَّرُ هذه الأخيرة على السير فى خطوات معلومة للإنتاج : وهذا اللون من التجاذب بين الجانبين يؤدى إلى الخلق ؛ وبغير هذا المعنى لا تكون الروح عاملا فعالا ولا يكون لها شأن بالخلق إطلاقاً »(٧٩)(*) .

والروح متعددة بمعنى أنها موجودة فى كل كائن عضوى ، لكنها متشابهة فى هذه الكائنات جميعاً ، ولذا فهى لا تكون عنصراً فى تكوين الشخصية الفردية ، فالفردية فيزيقية ، ونحن ما نحن لا بسبب ما فينا من روح ، بل بسبب الأصل الذى عنه نشأنا ، أعنى التطور والخبرة التى تطرأ على أجسامنا وعقولنا ، وفى « سانخيا » « يعتبر العقل جزءاً من الجسم كأى عضو آخر : فلئن كانت الروح المعتزلة بنفسها البعيدة عن التأثير بغيرها ، والتى تكمن فينا ، لئن كانت هذه الروح حرة ، فإن العقل والجسم مقيدان بقوانين و « جونات » (أى خصائص) العالم الفيزيقى(٨١) وإذن فليست الروح هى الفاعلة وهى المجبرة ، بل الفاعل المجبر هو اتحاد الجسم والعقل ؛ كلا ولا هى تتعرض للانحلال والتحول اللذين يصيبان الجسد والشخصية ، بل هى محصنة عن تيار الولادة والموت ؛ فيقول « كاپيلا » : « العقل يجوز عليه الفساد ، أما الروح فلا »(٨٢) والنفس الجزئية التى ترتبط بالمادة وبالجسم هى وحدها التى تولد وتموت وتعود إلى الولادة من جديد ، فى هذه الذبذبات التى لا تنتهى

(*) يقول أحد الشراح الهنود لفلسفة كاپيلا : « ليس لتطور پراكريتى من غاية سوى أن يهيىء مجالا لمتعة الروح »(٨٠) فيحدور أن تكون خير طريقة فى النظر إلى العالم — كما يقترح «نيتشه» — هو أن نعده مشهداً فنياً مسرحياً .

ولا تنفك تتناول بالتغيير صور المادة التي منها يتألف تاريخ العالم الخارجي[٨٣].
وإذا استطاع « كاپيلا » أن يشك في كل شيء ، فإنه لم يشك قط في انتقال الروح من جسد إلى جسد .

وهو كسائر المفكرين الهنود ينظر إلى الحياة على أنها خير مشكوك فيه إلى حد كبير ، إن كانت خيراً على الإطلاق ؛ فقليلة هي أيام المرح ، وكثيرة هي أيام الأسى ، والثروة شبيهة بنهر طافح بالماء ، والشباب شبيه بجسر متهدم لذلك النهر الطافح بمائه ، والحياة شبيهة بشجرة على ذلك الجسر المتهدم »[٨٤].
والألم نتيجة لكون النفس والعقل الفرديين مقيدين بالمادة وفريستين لقُوى التطور العمياء ، فأين المفر من هذا الألم ؟ يجيب فيلسوفنا ألا فرار إلا بالفلسفة : لا فرار إلا بإدراكنا أن كل هذه الآلام والأحزان ، وكل هذا الانقسام وهذا الفوران بين الأنفس المكافحة ، إن هو إلا « مايا » أي وهم ، هو زينة خادعة تصفُّها أمام عيوننا الحياة والزمن ؛ « والعبودية تنشأ من غلطة عدم التمييز »[٨٥] — بين النفس التي تعاني الآلام وبين الروح المحصنة ، بين السطح المضطوب وبين الأعماق التي تظل ممتنعة على كل اضطراب وتغير ؛ فلكي تسمو على هذه الآلام ، لا يقتضيك إلا أن تتبين أن جوهر الإنسان ، وهو روحه ، يجاوز حدود الخير والشر والسرور والألم والولادة والموت ، هذه الضروب من النشاط والكفاح ، وهذه الألوان من النجاح والهزيمة : لا تغمنا إلا بمقدار ما يفوتنا أن ندرك أنها لا تؤثر في الروح ولا تصدر عنها ، والإنسان المستنير إنما ينظر إليها كأنما ينصرها من خارج حدودها فكأنه متفرج على الحياة ينظر إلى مسرحية تمثل ؛ فلتتبين الروح استقلالها عن الأشياء ، وستظفر بالحرية من فورها ؛ فعملية إدراكها لهذه الحقيقة كافية في حد ذاتها أن تهيء لها الفرار من سجن المكان والزمان والألم والعودة إلى التجسيد من جديد[٨٦] ، يقول كاپيلا : « إن التحرر الذي يظفر به الإنسان من إلمامه بالحقائق الخمسة والعشرين ، يعلمه العلم الذي لا علم سواه — وهو أنني لست موجوداً ، ولا شيء يتعلق بي »[٨٧] ومعنى ذلك أن انفصال

الأفراد وهم » ، وكل الموجود هو هذا الزَّبد المتطور المتحلل من مادة وعقل ، وأجسام ونفوس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هنالك الروح التى لا تتغير ولا تضطرب فى خلودها الساكن .

مثل هذه الفلسفة لايجدى فى إراحة الإنسان إذا ما وجد عسراً فى فصل نفسه عن بدنه المتألم وذكرياته المعذبة ، لكنها فلسفة — فيما يظهر — قد عبرت تعبيراً صادقاً عن الحالة النفسية التى سادت الهند فى تأملها الفلسفى ؛ وليس هناك من المذاهب الفلسفية الأخرى — إذا استثنينا فيدانتا — ما أثر فى العقل الهندى بمثل الأثر العميق الذى كان لهذه الفلسفة فيه ؛ وإنا لنلمس أثر « كاپيلا » فى مثالية بوذا المصطبغة بالإلحاد وبالبحث عن كيفية وصول الإنسان إلى معرفته بالعالم ، كما نلمس أثره فى فكرة بوذا عن النرفانا ؛ وكذلك نلمس أثر « كاپيلا » فى الماهابهاراتا وفى تشريع مانو ، وفى أشعار « البوراتا » وفى « التانترات » — وهى التى تُحَوِّرُ « بوروشا » و براكريتى » فتجعلهما مبدأى الذكورة والأنوثة اللذين جاءا بالخلق(٨٨) ، ثم نلمس أثره فوق هذا كله فى مذهب « اليوجا » الذى لا يزيد على كونه تفريعاً لسانخيا من الناحية العملية ، فهو يقوم على ما فى سانخيا من آراء ، ويستخدم ما فيها من عبارات ؛ وليس لكاپيلا أتباع مباشرون اليوم لأن العقل الهندى قد أسره « شانكارا » والفيدانتا » لكن حكمة قديمة ما تزال ترفع صوتها فى الهند حيناً بعد حين ، ألا وهى « ليس فى ضروب العلم ما يوازى سانخيا من آراء ، وليس فى صنوف القوة ما يساوى اليوجا »(٨٩) .

٤ — مذهب اليوجا

القديسون — قِدَم عهد « اليوجا » — معناها ، مراحل الرياضة الروحية الثمان — غاية « اليوجا » — معجزات الآخذين « باليوجا » — إخلاص « اليوجا »

في مكان ساكن جميل
ألقى عصاه ليستقر ، ولم يكن المكان موغلا فى الارتفاع
ولا كان موغلا فى الانخفاض ؛ وهناك فليسكن ؛ متاعه
قماشة وجلد غزال وحشيشة « الكوشا » ؛
هناك ركّز فكره تركيزاً فى « الواحد »
ممسكاً بزمام قلبه وحواسه ، صامتاً ، هادئاً ،
هناك فليمارس « اليوجا » ليخلص إلى طهارة الروح ،
ويضبط جسمه فلا يتحرك
منه عنق ولا رأس ؛ ونظرته مستغرقة كلها
فى طرف أنفه ، محجوباً عن كل ما حوله ،
هادئاً فى روحه ، خالياً من الخوف ،
مفكراً فى نذر « البراهما كاريا » الذى نذره على نفسه ،
مخلصاً ، مفكراً « فىّ » تائهاً فى تفكيره « عنى »(*) .

على سُلّم المستحمين ، ترى « القديسين » جالسين هنا وهناك ، يحيط بهم هنود ينظرون إليهم نظرة الإجلال ، ومسلمون ينظرون فى عدم اكتراث ، وسائحون يحدقونهم بالأبصار ؛ ويسمى هؤلاء القديسون باليوجيين ؛ وهم بمثابة

(*) راجع كتاب « بهاجادفادجيتا » الذى ترجمه سير إدون آرنلد بعنوان « الأنشودة السماوية » وطبع فى لندن سنة ١٩٢٥ ، الكتاب الرابع ص ٣٥ ؛ وبراهما كاريا هو نذر العفة الذى يتعهد به طالب الزهد ؛ والمقصود بكلمتى « فىّ » و « عنى » هو كرشنا .

المعبّر عن الديانة الهندية والفلسفة الهندية تعبيراً ليس بعد وضوحه وغرابته وضوح أو غرابة ؛ ثم تراهم كذلك فى عدد أقل ، فى الغابات وعلى جنبات الطرق ، لا يتحركون ويستغرقون فى تفكيرهم ، منهم الكهول ومنهم الشباب ، منهم من يلبس خرقة بالية على كتفيه ومنهم من يضع قاشاً على ردفيه ، ومنهم من لا يستره إلا تراب الرماد ينثره على جسده وخلال شعره المزركش ؛ تراهم جالسين القرفصاء وقد لفوا ساقاً على ساق ، لا يتحركون ، ويركزون أبصارهم فى أنوفهم أو سُرَرِهم ، بعضهم يحدقون فى الشمس ساعات متواليات بل أياماً متعاقبة ، فيفقدوا إبصارهم شيئاً فشيئاً ، وبعضهم يحيطون أنفسهم بألسنة حامية من اللهب فى قيظ النهار ، وبعضهم يمشون حفاة على جمرات النار ، أو يصبون الجمرات على رءوسهم ؛ وبعضهم يرقدون عرايا الأجساد مدى خمسة وثلاثين عاماً على أسرّة من حراب الحـــديد ، وبعضهم يدحرجون أجسامهم على الأرض آلاف الأميال حتى يصلوا مكاناً يحجون إليه ، وبعضهم يصفدون أنفسهم بالأغلال فى جذوع الشجر ، أو يزجون بأنفسهم فى أقفاص مغلقة حتى يأتيهم الموت ، وبعضهم يدفنون أنفسهم فى الأرض حتى الأعناق ويظلون على هذا النحو أعواماً طوالا ، أو طول الحياة ، وبعضهم يُنفذون سلكاً خلال الأصداغ ، حتى يمر من الصدغين ، فيستحيل عليهم فتح الفكّيْن . وبهذا يحكمون على أنفسهم بالعيش على السوائل وحدها ، وبعضهم يحتفظون بأيديهم مقبوضة حتى تنفذ أظافرهم من ظهور أكفّهم ، وبعضهم يرفعون ذراعاً أو ساقاً حتى تذبل وتموت ، وكثير منهم يجلسون صامتين فى وضع واحد ، وربما ظلوا فى وضعهم أعواماً ، يأكلون أوراق الشجر وأنواع البندق التى يأتيهم بها الناس ؛ وهم فى ذلك كله يتعمدون قتل إحساسهم ويركزون كل تفكيرهم بغية أن يزدادوا علماً ، وأغلبهم يجتنبون هذه الطرائق التى تستوقف الأنظار ، ويبحثون عن الحقيقة فى سكينة ديارهم .

لقد كان لنا رجال كهؤلاء فى عصورنا الوسطى ، أما اليوم فإذا أردت أن تصادف أشباههم فى أوروبا وأمريكا فعليك أن تبحث فى زوايا البــلاد وأركانها ؛ لكن الهند عرفت هؤلاء الناس مدى ألفين وخمسمائة عام — ويجوز أن يرجع عهدهم إلى ما قبل التاريخ ، حين كانوا للقبائل الهمجية — فيم نظن — بمثابة الأولياء ؛ وهذه الطريقة فى التأمل الزاهد التى تعرف باسم « يوجا » كانت موجودة أيام « الفيدات »(٩٠) ؛ و« يوپانشاد » و« الماهابهاراتا » كلاهما اعترفتا بهذه الطريقة التى ازدهرت فى عصر بوذا(٩١) ؛ حتى الإسكندر قد استوقف انتباهه قدرة هؤلاء الناس على رياضة أنفسهم فى تحمل الألم صامتين ، فوقف يفكر فى أمرهم ، ثم دعا أحدهم أن يصحبه ليعيش معه ، لكن « اليوجى » رفض فى عزم وثبات — كما رفض « ديوجنيس » — قائلا إنه لا يريد شيئاً من الإسكندر ، مقتنعاً بخلاء وفاضه ؛ وكذلك ضحكت جماعة الزاهدين بأسرها سخرية من الرغبة الصبيانية التى جاشت فى صدر ذلك المقدونى أن يفتح العالم ، على حين أن مساحة لا تتجاوز أقداماً قليلة من الأرض — كما قالوا له — تكفى الإنسان كائناً من كان ، حياً كان أو ميتاً ، وحكيم آخر صحب الإسكندر إلى فارس ، وهو « كالانَس » (سنة ٣٢٦ ق . م) فمرض هناك ، واستأذن الإسكندر فى أن يموت ، قائلا إنه يؤثر الموت على المرض ؛ وصعد على كومة من حطب مشتعل ، هادئاً ، واحترق لم يبعث صوتاً ، فأدهش اليونان الذين لم يكونوا قد رأوا قط هذا الضرب من الشجاعة التى تقذف بالنفس فى الموت دون أن يكون فى الأمر عنصر الاغتيال الإجرامى(٩٢) ، ومضى بعد ذلك قرنان (حوالى ١٥٠ قبل الميلاد) وعندئذ جمع « پاتانجالى » أجزاء المذهب من أقوال وأفعال فى كتابه المشهور « قواعد اليوجا » الذى لا يزال يتخذ مرجعاً فى جماعات اليوجيين من بنارس إلى لوس أنجلس(٩٣) ؛ وقد ذكر يوان شوانج الذى زار البلاد فى القرن السابع الميلادى ، أن هذا المذهب كان عندئذ كثير

الأتباع (٩٤) ووصفه « ماركوبولو » حوالى سنة ١٢٩٦ وصفاً حياً (٩٥) ، وبعد كل هذه القرون ، لا نزال اليوم نرى المتطرفين من أتباعه ، وعددهم يتراوح من مليون إلى ثلاثة ملايين فى الهند (٩٦) يعذبون أنفسهم بغية أن يظفروا بسكينة المعرفة ؛ إن « اليوجا » لتعدُّ من أقوى الظواهر تأثيراً وأوقعها فى النفس فى تاريخ الإنسان بشتّى ظواهره .

وبعد ، فما هى « يوجا » ؟ معنى الكلمة الحرفى هو النير ، وليس المقصود أن يخضع الإنسان نفسه ؛ أى يدمجها فى الكائن الأسمى (٩٧) ، بمقدار ما يقصدون بالكلمة إخضاع الإنسان لنير النظام التقشفى المتزهد الذى يلتزمه الطالب ليبلغ ما يريده لنفسه من طهارة الروح من كل أدران المادة وقيودها ، ويحقق ما يسمو على الطبيعة من ذكاء وقوة (٩٨) ؛ إن المادة هى أس الآلام والجهل ، ومن ثم كانت غاية اليوجا أن تحرر النفس من كل ظواهر الحس وكل ارتباطات الجسد بشهواته ؛ فهى محاولة أن يبلغ الإنسان التنوير الأعلى والخلاص الأسمى فى حياة واحدة ، بأن يكفر فى وجود واحد عن كل الخطايا التى اقترفها فى تجسدات روحه الماضية كلها (٩٩) .

ومثل هذا التنوير لا يأتى بضربة واحدة ، بل يجب على المريد أن يخطو إلى غايته خطوة خطوة ؛ وليس فى الطريق مرحلة واحدة يمكن فهمها لأى انسان إذا لم يكن قد مر على المراحل السابقة كلها ، فلا سبيل إلى بلوغ اليوجا إلا بعد درس ورياضة للنفس طويلين صابرين ، ومراحل اليوجا ثمان :

١ ــ « ياما » أو موت الشهوة ، وها هنا ترضى النفس بقيود « أشما » و « براهما كاريا » وتمتنع عن كل سعى وراء مصالحها وتحرر نفسها من كل رغباتها وجهادها الماديين ، وتتمنى الخير للكائنات جميعاً (١٠٠) .

٢ ــ « نياما » وهى اتباع أمين لبعض القواعد المبدئية للوصول إلى اليوجا ، كالنظافة والقناعة والتطهير والدراسة والتقوى .

٣ ــ « أسانا » ومعناها وضع معين للجسد ، والغرض منه إيقاف كل

إحساس ؛ وأفضل « أسانا » لهذه الغاية هى أن تضع القدم اليمنى على الفخذ اليسرى ، والقدم اليسرى على الفخذ اليمنى ، وأن يتصالب الذراعان وأن تمسك بالإصبعين الكبيرين فى القدمين وأن تحنى الذقن على الصدر وتوجه النظر إلى طرف الأنف(١٠١) .

٤ — « پراناياما » ومعناها تنظيم التنفس ، فهذه الرياضة قد تعين صاحبها على نسيان كل شىء ما عدا حركة التنفس ، وبهذا يفرغ عقله من شواغله استعداداً للخلاء القابل الذى يجب أن يسبق استغراق تفكيره فى تأملاته ؛ وفى الوقت نفسه قد يتعلم الإنسان بهذه الرياضة طريقة الحياة على الحد الأدنى من الهواء ، فيستطيع أن يدفن نفسه فى التراب أياماً كثيرة دون أن يختنق .

٥ — « پراتياكارا » ومعناها التجريد ، وها هنا يسيطر العقل على جميع الحواس ويباعد بين نفسه وبين كل المُحَسَّات .

٦ — « ذارانا » أو التركيز ، وهو أن يملأ العقل والحواس بفكرة واحدة أو موضوع واحد بحيث يصرف النظر عن كل ما عداه(*) فتركز الانتباه فى موضوع واحد كائناً ما كان مدة كافية من شأنه أن يحرر النفس من كل إحساس ، وكل تفكير فى موضوع وكل شهوة أنانية ، وما دام العقل قد تجرد عن الأشياء فقد يصبح حراً بحيث يحس الجوهر الروحى للوجود على حقيقته(**) .

(*) راجع هبز : إذا أحسست بشىء واحد دائماً ، كان ذلك بمثابة عدم إحساسك بشىء .

(**) يقارن « إلّيَت » بهذه الفقرة — لكى يوضح هذه المرحلة — فقرة من شوبهور ، كانت لا شك من وحى دراسته للفلسفة الهندية وهى : « إذا ما حدث لنا بسبب مفاجىء أو انحراف داخلى ، أن ارتفعنا عن تيار الإرادة الذى لا ينتهى ، فإن الانتباه لا يعود منصباً على دوافع الإرادة ، بل يفهم الأشياء مستقلة عن علاقتها بالإرادة ، وبهذا يلاحظها بغير النظرة الذاتية ، أى يلاحظها من حيث هى فى موضوعيتها الخالصة ، ويصرف الانتباه نفسه صرفاً تاماً للنظر إليها باعتبارها أفكاراً ، لا باعتبارها دوافع لإرادته ، عندئذ ترى السكينة التى طالما نشدناها ، والتى ما انفكت تفلت منا حين كنا نتابع طريق إشباع الشهوات ، ترى هذه السكينة قد هبطت إلينا من تلقاء نفسها ، فنحس بذلك حالا »(١٠٢) .

٧ – « ذيانا » أو التأمل ، وهو حالة تكاد تكون تنويماً مغناطيسياً تنتج عن « ذارانا » ، ويقول « پاتانجالى » إنها يمكن استحداثها من الدأب على تكرار المقطع المقدس « أوم » ؛ وأخيراً يصل الزاهد إلى المرحلة التالية التى تعد خاتمة المطاف فى سبيل اليوجا .

٨ – « ساماذى » أو تأمل الغيبوبة ؛ فهاهنا يمحى من الذهن كل تفكير ، فإذا ما فرغ العقل من مكنونه ، فقد الشعور بنفسه على أنه كائن مستقل بذاته(١٠٣) وينغمس فى مجموعة الوجود ، ويجمع كل الأشياء فى كائن واحد ، وهو تصوُّرٌ إلهى مبارك ؛ ويستحيل وصف هذه الحالة بكلمات لمن لم يمارسها ، وليس فى وسع الذكاء الإنسانى أو التدليل المنطقى أن يجد لها صيغة تعبر عنها « فلا سبيل إلى معرفة اليوجا إلا عن طريق اليوجا »(١٠٤) .

ومع ذلك فليس ما ينشده « اليوجىُّ » هو الله أو الاتحاد بالله ؛ ففى فلسفة اليوجا ليس الله (واسمه إشفارا) هو خالق الكون أو حافظه ؛ وليس هو من يثيب الناس أو يعاقبهم ؛ بل هو لايزيد على كونه فكرة من فكرات كثيرة مما يجوز لنفس أن تركز فيها تأملها وتتخذها وسيلة لمعرفة الحقيقة ، الغاية المنشودة فى صراحة هى فصل العقل عن الجسد ، هى إزاحة كل العوائق المادية عن الروح ، حتى يتسنى لها – فى مذهب اليوجا – أن تكسب إدراكاً وقدرة خارقتين للطبيعة(١٠٥) لأنه إذا نفضت عن الروح كل آثار خضوعها للجسد واشتباكها فيه ، فإنها لا تتحد مع براهما وكفى ، بل تصبح براهما نفسه ؛ إذ أن براهما ليس إلا ذلك الأساس الروحى الخفىء ، ذلك الروح اللامادى الذى لا يتفرد بنفس ، والذى يبقى بعد أن تطرد بالرياضة كل أعلاق الحواس ؛ فإلى الحد الذى تستطيع عنده الروح أن تحرر نفسها من بيئتها وسجنها الماديين ، إلى هذا الحد تستطيع أن تكون براهما بحيث تمارس ذكاء برهميا وقوة برهمية : ؛ وهنا يظهر الأساس السحرى للدين من جديد ، حتى ليكاد يتهدد الدين نفسه بالخطر – وهو عبادة القوى التى هى أسمى من الإنسان .

كانت « اليوجا » فى أيام « اليوپانشاد » صوفية خالصة — أعنى محاولة تحقيق اتحاد الروح بالله ؛ وتروى الأساطير الهندية أنه فى سالف الأيام قد أتيح « لحكماء » سبعة (واسمهم اورشاء) أن يظفروا بالتوبة والتأمل بمعرفة تامة بكافة الأشياء(١٠٦) : ثم اختلطت « اليوجا » بالسحر حتى أفسدها فى العهود المتأخرة من تاريخ الهند ؛ وأخذت تشغل نفسها بالتفكير فى المعجزات أكثر مما تفكر فى سكينة المعرفة ؛ ويعتقد « اليوجى » أنه بوساطة « اليوجا » يستطيع أن يخدر أى جزء من أجزاء جسمه بتركيز فكره فيه ، وبذلك يجعله تحت سلطانه(١٠٧) فيمكنه إن أراد أن يخفى عن الأبصار ، أو أن يحول بين جسده وبين الحركة مهما كان الدافع إليها ، أو أن يمر فى أية لحظة شاء من أى جزء شاء من أجزاء الأرض جميعاً ، أو أن يحيا من العمر ما شاء أن يحيا ، أو أن يعرف الماضى والمستقبل كما يعرف أبعد النجوم(١٠٨) .

ولزاماً على المتشكك أن يعترف بأنه ليس فى هذه الأشياء كلها ما هو مستحيل ؛ ففى وسع المجانين أن يبتكروا من الفروض ما يستحيل على الفلاسفة أن يدحضوه ، وكثيراً ما يشترك الفلاسفة وإياهم فى مثل هذا الابتكار للفروض الغريبة ؛ فشدة النشوة والتخليط الذهنى يمكن إحداثهما بالصوم وتعذيب النفس ؛ والتركيز يمكن أن يميت شعور الإنسان بالألم فى موضع معين ، أو بصفة عامة ، وليس فى وسعنا أن نجزم بألوان الطاقة الكامنة والقدرات المدخرة فى العقل المجهول ؛ ومع ذلك فكثير من « اليوجيين » لا يزيدون على كونهم سائلين الناس مالا ، يتحملون هاتيك الكفارات الأليمة طمعاً فى الذهب ، الذى يُتَّهم العربيون وحدهم بالطمع فيه ، أو هم يتحملونها سعياً وراء ما يسعى إليه الإنسان مدفوعاً بطبيعته الفطرية ، من لفت الأنظار واستثارة الإعجاب(*) ؛ إن الزهد هو ما يقابل الانغماس فى شهوات الحس ، أو هو

(*) يصفهم « دبوا » بما له من برود فى الحس ، بقوله إنهم « جماعة من المتشردين(١٠٩) وكلمة « فقير » التى تطلق أحياناً على أصحاب اليوجا ، كلمة عربية معناها فى الأصل « فقر من المال » وهى لا تنطبق انطباقاً صحيحاً إلا على أعضاء الجمعيات الإسلامية الدينية الذين يسلمون أنفسهم للزهد فى حطام الدنيا .

على أحسن تقدير محاولة التحكم فى زمام تلك الشهوات ؛ لكن هذه المحاولة نفسها تدنو من شهوة أخرى هى رغبة إيقاع الأذى ، مما يجعل الزاهد يكاد ينتشى من الغبطة كلما أنزل بنفسه الألم ؛ ولقد كان البراهمة من الحكمة بحيث حرموا على أنفسهم مثل هذه الرياضيات ، ووعظوا أتباعهم بأن ينشدوا القداسة فى أداء الواجبات المألوفة فى شئون الحياة ، أداءً يرضى ضمائرهم (١١٠).

٥ — پيرڤا — ميمانسا

انتقالنا من « اليوجا » إلى « پيرڤا — ميمانسا » هو انتقال من أشهر المذاهب الستة للفلسفة البرهمية إلى أقلها شهرة وأهمية ؛ وكما أن « اليوجا » أدخل فى السحر والتصوف منها فى الفلسفة ، فكذلك هذا المذهب أقرب إلى الدين منه إلى الفلسفة ، بل هو بمثابة رد الفعل من جانب المتمسكين بأصول الدين ليناهضوا به مذاهب الزندقة التى قال بها الفلاسفة ؛ فصاحب هذا المذهب ، وهو « چيمينى » يحتج على « كاپيلا » و « كانادا » فى إنكارهما لحجة الڤيدات ، مع اعترافهما بهذه الكتب المقدسة ، ويقول « چيمينى » إن العقل الإنسانى أضعف من أن يحل مشكلات الميتافيزيقا واللاهوت ، فالعقل مستهتر يقدم نفسه لخدمة الأهواء كائنة ما كانت ، فهو لا يعطينا « علما » و « حقيقة » بل يكتفى بصبغ ميولنا الحسية وزهونا بصبغة المنطق ؛ إن الطريق إلى الحكمة والسلام لا يمتد فى المنطق والتواءاته الفارغة ، بل تراه فى التسليم المتواضع بما جاء عن طريق الوحى ونقله الخلف عن السلف ، وفى الأداء المتواضع للشعائر كما فصلتها الكتب المقدسة ، وهذه وجهة من النظر لا تعدم وجهاً للدفاع .

٦ — مذهب الأڤيدانتا

أصله — شانكارا — المنطق — نظرية المعرفة — « مايا » — علم النفس — اللاهوت — الله — الأخلاق — مشكلات المذهب — موت شانكارا

كلمة « ڤيدانتا » معناها في الأصل ختام الڤيدات — أعني اليوپانشاد ؛ أما اليوم فيطلقها الهنود على المذهب الفلسفي الذي حاول أن يدعم بالمنطق بناء الفكرة الأساسية التي وردت في كتب اليوپانشاد — تلك الفكرة التي تسود نغمتها جوانب الفكر الهندي بأسره — وهي أن الله (براهما) والروح (أتمان) شيء واحد ، وأقدم صورة وصلتنا لهذه الفلسفة التي هي أوسع الفلسفات الهندية شيوعاً ، هي كتاب « براهما — سوترا » لصاحبه « بدارايانا » (حوالى ٢٠٠ ق . م) وقوام الكتاب خمسمائة وخمسة وخمسون حكمة ، تعلن أولاها الغاية من الكتاب كله ، وهي : « لنفرغ الآن إلى الرغبة في معرفة براهما » ؛ وكادت تمضي بعد ذلك ألف عام ، حين كتب « جودابادا » تعليقاً على هذه « السوترات » (أي الحكم) ثم علم « جوڤندا » أسرار المذهب ، وهذا بدوره لقّنها لشانكارا ، الذي ألف أشهر ما كتب عن الڤيدانتا من شروح ، وكان بما ألف أعظم الفلاسفة الهنود جميعاً .

استطاع « شانكارا » في حياته القصيرة البالغة اثنين وثلاثين عاماً ، أن يحقق الاتحاد بين شخصيتي الحكيم والقديس ، بين صفتي الحكمة والرحمة ، وهو اتحاد يتصف به أسمى ما أنجبتهم الهند من صنوف الإنسان ، ولد بين جماعة نشيطة في البحث العقلي من براهمة ملبار ، وهم المعروفون باسم البراهمة النمبرديين ، وزهد في ترف الدنيا ، وانخرط في سلك « الساميَاسيين » وهو لم يزل يافعاً ، يعبد الآلهة الهندية على اختلافها دون أن يزعم لنفسه القدرة على فهمها ، على الرغم من أنه كان مغموراً في موجة من التصوف تكشف له عن فكرة « براهما » الواحد الذي يضم الآلهة جميعاً ؛ وخيل إليه أن ما ورد في

كتب اليوپانشاد ، هو أعمق الدين وأعمق الفلسفة فى آن معاً ، فهو يستطيع أن يعفو عن عامة الناس فى عبادتهم لآلهة متعددة ، لكنه لا يجد ما يغفر به عن الإلحاد فى « سانخيا » أو عن لا أدرية « بوذا » ، سافر إلى الشمال ليمثل الجنوب فيه فاكتسب هناك شهرة فى جامعة بنارس ، حدت بالجامعة أن تخلع عليه أسمى ما عندها من أسباب التكريم ، وبعثت به مصحوباً بطائفة كبيرة من الأتباع ، ليذود عن البرهمية فى كل ساحات المناظرة فى الهند ؛ ولعله كتب وهو فى بنارس شرحه المشهور لليوپانشاد ، وألف « مهاجاڤاد — جيتا » الذى هاجم فيه بحماسة دينية ودقة اسكولائية طوائف الزنادقة فى الهند ، وأعاد للبرهمية زعامتها الفكرية التى سلبها إياها « بوذا » و « كاپيلا » .

يشيع فى هذه الأبحاث الجدلية كثير من الميتافيزيقا ، وفيها أقفار يباب من نصوص معروضة ، لكننا نغفر ذلك كله لرجل استطاع وهو فى سن الثلاثين أن يكون للهند « أكويناس » و « كانْت » معاً ؛ فهو مثل « أكويناس » يسلم بكل ما للكتب المقدسة فى بلده من حجة على أنها وحى سماوى ثم يطوف باحثاً عن أدلة من خبرته ومن منطق العقل يؤيد بها كل تعاليم تلك الكتب المنزلة ؛ لكنه مع ذلك يختلف عن « أكويناس » فى أنه ينكر على العقل وحده قدرته على القيام بهذه المهمة ؛ بل هو على عكس ذلك ، يتساءل قائلا ألم نبالغ فى قوة العقل وما يقوم به ، وفى وضوحه وجدارته بالركون إليه ؟(١١١) فقد أصاب « چيمينى » حين قال إن العقل محام مستعد للبرهنة على كل ما نريد البرهنة عليه ؛ لأن العقل يستطيع أن يجد لكل حجة حجة تدحضها وتكون مساوية لها ؛ والنتيجة التى ينتهى إليها هى الشك يزعزع كل ما فى أخلاقنا من قوة ، ويزلزل كل ما فى حياتنا من قيم ؛ ويقول « شانكارا » : ليس المنطق هو الذى يعوزنا إنما تعوزنا البصيرة النافذة ؛ وهى ملكة (شبيهة بملكة الفنون) تدرك بها دفعة واحدة ما هو حيوى فى الأمر الذى نحن بصدده ، فنميزه مما ليس

بذى خطر ، وتفرق بها بين ما هو أبدى وما هو زمنى عابر ، ونخرج بها الكل من الجزء ؛ تلك هى أول ما يلزم للفلسفة من شروط ، والشرط الثانى هو أن تقبل إقبالا عن طواعية على الملاحظة والبحث والتفكير ؛ لا نبتغى من ذلك كله غاية وراء المعرفة لذاتها ، لا نريد من ورائه اختراعاً أو ثراء أو قوة ؛ إنه بمثابة انسحاب الروح حتى لا تتعرض لكل ما يصاحب العمل من استثارة وميل مع الهوى واستمتاع بالثمرة ؛ وثالث الشروط هو أن يكتسب الفيلسوف ضبطاً لنفسه وصبراً وهدوءاً ، ولا بد له أن يروض نفسه على الحياة المترفعة عن الإغراء الجسدى والمشاغل المادية وأخيراً يجب أن تشتعل فى أعماق نفسه رغبة فى « الموكشا » ومعناها التحرر من الجهل ، والقضاء على كل الشعور بنفسه الفردية المنفصلة عن سواها ، والاندماج السعيد فى براهما الذى هو المعرفة الكاملة والاتحاد اللانهائى(١١٢) واختصاراً ، ليس الطالب بحاجة إلى منطق العقل بقدر ما هو بحاجة إلى تطهير الروح ورياضتها رياضة تزيد أغوارها عمقاً ؛ ولعل فى ذلك سر التربية الحقيقية فى شتى صورها .

أقام « شانكارا » أساس فلسفته عند نقطة عميقة دقيقة ، لم يستطع احد بعده أن يدركها إدراكاً واضحاً ، حتى قيض الله لها بعد ألف عام (عمانوئيل كانت » فكتب كتابه « نقد العقل الخالص » ، ذلك أنه ألقى على نفسه سؤالا هو : كيف تمكن المعرفة ؟ إن كل علمنا فيما يبدو آت من الحواس ، فهو لا يكشف عن الواقع الخارجى كما هو فى ذاته ، بل يكشف عن طريقة تشكيلنا لذلك الواقع بحواسنا — وربما بلغ التشكيل حد التغيير من الصورة الأصلية تغييراً أساسياً — وإذن فبالحس وحده يستحيل أن نعرف « الحقيقى » معرفة تامة ؛ وكل ما قد نعرفه عنه هو العلم به وهو فى ثوب المكان والزمان والسببية ، وقد يكون ذلك الثوب نسيجاً خلقته حواسنا وعقولنا ، فصوّرته أو طوّرته على نحو يتيح له أن يتصيد ثباتاً من هذا الواقع السيال المفلات ، وأن يمسك بهذه الصورة الثابتة عنه ، مع أننا إن استطعنا

أن نحدس بوجود ذلك الواقع الخارجى ، فيستحيل علينا أبداً أن نصف خصائصه الموضوعية كما تقع فى ذاتها ؛ ذلك لأن أسلوبنا فى الإدراك سيظل إلى الأبد ممتزجاً بالشىء المدرك امتزاجاً لا سبيل إلى عزل الواحد عن الآخر .

وليس هذا بالذاتية الجوفاء التى يقول بها من يريد أن يُغْلَقَ على طويته دون أن يجد سبيلا لاتصاله بالعالم الخارجى ، والذى يظن أنه مستطيع أن يحطم العالم تحطيما إذا تركه واسترسل فى النعاس؛ إن العالم موجود ، لكنه « مايا » وليس معنى الكلمة أنه وهم ، بل هو ظواهر ، هو مظهر اشتراك عقل الإنسان فى تكوينه ، وعجزنا عن إدراك الأشياء إلا فى صورها التى تعرض علينا وهى فى الزمان والمكان ، ثم عَجزَنا عن التفكير فيها إلا على أساس السببية والتغير ، إن هو إلا قصور فطرى فى طبائعنا ، هو « أفيديا » أو جهل مرتبط ارتباطاً شديداً بطريقة إدراكنا نفسها ، وعلى ذلك فهو جهل كتب على الجسد أن يصاب به ؛ إن « مايا » و « أفيديا » هما الجانبان الذاتى والموضوعى للوهم الأعظم الذى يحمل العقل على الظن بأنه يعرف حقيقة العالم ؛ إننا نرى كثرة فى الأشياء وتياراً من التغير ، بسبب « مايا وأفيديا » أعنى بسبب ما ورثناه منذ الولادة من جهل محتوم . وحقيقة الأمر هى أن ثمت كائنا واحداً ، وما التغير إلا « مجرد اسم » نطلقه على تغير صورة الأشياء فى سطوحها الظاهرة ووراء « المايا » أى النقاب الذى يحجب عنا الحقيقة ، والذى قوامه تغير الأشياء ، تستطيع أن تنفذ إلى الحقيقة الكلية الواحدة ، براهما ، لا بطريق الحواس ولا بقوة العقل ، بل بالبصيرة النافذة والإدراك الفطرى المباشر من روح مرنت على ذلك الضرب من الإدراك .

هذا القصور الطبيعى للحس والعقل ، الذى تسببه لها أعضاء الحس وصور التفكير العقلى ، يحول كذلك بيننا وبين إدراك الروح الواحد الصمد الذى يكمن وراء الأرواح والعقول الجزئية الفردية ؛ فنفوسنا المنعزل بعضها عن بعض ، والتى نراها بالإدراك الحسى والتفكير العقلى ، لا تقل بطلاناً عن خيالات الزمان والمكان؛ إن الفروق بين الأفراد ، والتمييز بين الشخصيات

مرتبطان بالجسم والمادة ، وهما من خصائص عالم التغير الذى يشبه فى تغيره تصاوير الكاليدوسكوب وهذه النفوس التى لا تزيد على مجرد ظواهر زائلة ، ستمضى بانقضاء الظروف المادية التى هى جزء منها ، أما الحياة الكامنة وراءها والتى نحسها فى دخائلنا حين ننسى المكان والزمان والسببية والتغير هى جوهرنا الصميم وحقيقتنا الأصيلة ، تلك هى « أتمان » التى نشترك فيها مع سائر النفوس والأشياء ، والتى لا تتجزأ ولا يخلو منها مكان ، وهى وبراهما ، أى الله ، شىء واحد بعينه(١١٣) .

ولكن ما الله ؟ إنه كما أن النفس نفسان : الذات و « أتمان » ، والعالم عالمان : عالم الظواهر وعالم الحقائق فكذلك الرب ربان : إشفارا ، أى الخالق ، وهو الذى تعبده عامة الناس لما يتبدى لهم من مكان وزمان وسببية وتغير ، وبراهما أى الكائن الخالص ، وهو الذى يعبده المتدينون المتفلسفون الذين يبحثون — ويجدون — حقيقة واحدة عامة وراء الأشياء والنفوس المستقل بعضها عن بعض ، وتلك الحقيقة الوحدة لا تتغير وسط هذه التغيرات كلها ، ولا تتجزأ رغم هذه الانقسامات كلها . أبدية رغم تغير الأشياء فى صورها ورغم كل ما نشاهده من ولادة وموت ، فتعدد الآلهة — بل العقيدة فى وجود الله نفسها — نتيجة تتفرع عن عالم « المايا » و « الأفيديا » ؛ وهى صور تعبدية تقابل صور الإدراك الحسى والتفكير ، وهى ضرورية لحياتنا الخلقية على نحو ما يكون المكان والزمان والسببية عناصر ضرورية لحياتنا الفكرية ، لكن حقيقتها ليست مطلقة ، وليس لها صدق موضوعى فى واقع الوجود(١١٤) .

وليس وجود الله معضلة فى رأى شانكارا ، لأنه يُعَرِّف الله بالوجود ، ويجعل الكون الحقيقى كله والله شيئاً واحداً بعينه ، أما عن وجود إله مشخص يكون خالقاً ومُخَلِّصاً ، فقد يكون هناك — فى رأيه — موضع للشك ، مثل هذا الإله فى مذهب هذا الفكر الذى سبق « كانت » فى تفكيره ، لا تمكن البرهنة عليه بالعقل ، وكل ما نستطيعه إزاءه هو أن نفرض وجوده فرضاً باعتباره ضرورة عملية(١١٥) . يهب الطمأنينة لعقولنا القاصرة والتشجيع

لأخلاقنا المتهافتة ؛ قد يجوز للفيلسوف أن يعبد الله فى أى معبد شاء ، ويركع أمام أى إله بغير تفريق ، لكنه سيجاوز هذه الصور العامية فى العقيدة الدينية ، التى تُغْتَفَر للعوام ، وسيشعر بما فى هذا التعدد من وهم خادع ، مدركاً ما بين الأشياء كلها من وحدة لا تعرف التعدد(*) ، إنه سيقدس الكون نفسه على أنه الكائن الأعلى — هذا الكائن الذى يعز على الوصف ، لا تحده الحدود ، ولا يحصره المكان أو الزمان ، ولا يخضع للسببية ، ولا يطرأ عليه التغير ؛ إنه مصدر الحقيقة كلها ومادتها(**) ، ويجوز لنا أن نصف براهما بأنه « شاعر بذاته » و« عاقل » بل و« سعيد » مادام براهما يشتمل على النفوس كلها ، ويمكن أن تتصف النفوس بأمثال هذه الصفات(١١٦) لكن إلى جانب ذلك أيضاً يمكن أن نصف براهما بسائر الصفات جميعاً ، مادام مشتملا على خصائص الأشياء كلها ، وبراهما فى جوهره محايد يرتفع عن كونه مشخصاً أو مذكراً أو مؤنثاً ، وهو يسمو على الخير والشر ، وهو فوق كل الفوارق الخلقية ، وكل أوجه الاختلاف بين الأشياء وكل الخصائص والصفات وكل الشهوات والغايات ؛ إن براهما هو السبب والمسبب معاً ، هو جوهر العالم الخفى الذى لا تحدده قيود الزمان .

وهدف الفلسفة هو أن تجد ذلك السر بحيث يذوب الواجد فيما وجد من سر ؛ ففى رأى شانكارا أن اندماج الإنسان بالله معناه أن يسمو على — أو يغوص إلى ما هو دون — انفصال النفس عن سائر النفوس ، وقِصَر أمدها فى الحياة ، وكل ما لها من مصالح وأغراض توافه ؛ وأن يصبح على غير شعور بالأجزاء

(*) ومن ثم كثيراً ما يطلق اسم « أدفيتا » أى اللاثنائية على فلسفة الفيدانتا .

(**) شانكارا والفيدانتا لا يذهبان إلى وحدة الوجود بكل معنى الكلمة ؛ فالأشياء ليست براهما إذا نظرت إليها من جهة تميزها بعضها من بعض ، وهى براهما فى جوهرها وحقيقتها الأساسية التى لا تعرف انقساماً أو تغيراً ، يقول شانكارا : « إن براهما لا يشبه العالم ، (ومع ذلك) ليس ثمت شىء ما عدا براهما ؛ وكل ما يبدو أنه موجود خارج حدوده يستحيل أن يكون له وجود (خارج عنه) اللهم إلا وجوداً وهمياً ، كالسراب الذى يبدو فى الصحراء ماء »(١١٥)

والأقسام والأشياء جميعاً ، وأن يكون مندمجاً فى سكينة ، وفى اتحاد نرفانى خال من كل شهوة ، بذلك المحيط الكونى العظيم الذى لا تصطرع فيه الغايات ولا تتنافس النفوس ، وليس فيه أجزاء ولا تغير ولا مكان ولا زمان(*) ؛ ولكى يظفر الإنسان بهذه السكينة السعيدة (التى تسمى أناندا) فلا يكفى الإنسان أن ينكر العالم ، بل يجب إلى جانب ذلك أن ينكر ذاته ، لا ينبغى أن يأبه لأملاك أو أدوات للمتاع ، بل لا ينبغى أن يأبه حتى بخير أو شر ، يجب أن ينظر إلى الألم والموت نظرته إلى « مايا » ، أى حوادث تقع على سطح الجسم والمادة والزمان والتغير ؛ ولا يجوز له أن يفكر فيما يصيب شخصه من قضاء أو أن يفكر فيما له من خصائص ، فلحظة واحدة يعنى فيها بمصلحة ذاته أو يزهى فيها بنفسه ، كافية لهدم طريق الخلاص الذى يرجوه(١١٩) ، إن أعمال الخير لا تهيئ للإنسان خلاصاً ، لأن أعمال الخير إنما تكون ذات قيمة أو معنى فى عالم « المايا » وحده ، أى عالم المكان والزمان ؛ ولا يأتى بالخلاص إلا معرفة القديس ، وما الخلاص إلا فى إدراك الاتحاد بين النفس والكون ، « أتمان »

(*) راجع « بليك » فى قوله :

" سأغوص إلى حيث هلاك النفس والموت الأبدى
حتى لا يحين يوم الحساب فيجدنى قائماً غير منعدم
وعندئذ يمسكون بى ويناولوننى إلى « نفسى » من جديد "(١١٧) .

أو راجع قصيدة تنسن « الحكيم القديم » :

" لأكثر من مرة حين
جلست وحيداً ، أدير فى نفسى
كلمة هى رمز لنفسى
فكت عنى حدود « النفس » التى تقضى عليها بالفناء
وانقضت عنى إلى « المجهول » كما تذوب السحابة
فى السماء ؛ ومسست أطرافى ، فكانت الأطراف
غريبة عنى ، لم تكن أطرافى — ومع ذلك فليس ثمة من شك ،
وكل ما هنالك وضوح جلى : وعن طريق فقدانى لنفسى —
كسبت حياة فسيحة الأرجاء تضارع هذه الحياة القائمة
إذا أشرقت فى جنباتها الشمس — لا تطمسها ظلال الألفاظ ،
التى إن هى إلا ظلال فى عالم من ظلال "(١١٨) .

و « براهما » ، أى الروح والله ، وامتصاص الجزء فى الكل(١٢٠) ؛ ويستحيل أن تقف دورة حلول الروح فى أجساد جديدة إلا إذا تم هذا الامتصاص ؛ لأنه عندئذ سيتبين أن الروح الجزئية والشخصية المفردة ، التى تصيبها عودة التجسد ، وهم ليس له وجود(١٢١) وأن الذى يعيد الولادة للنفس على سبيل العقاب أو الثواب هو « إشڤارا » أى إله « مايا » ؛ ويقول شانكارا « إنه إذا ما عرفت وحدة أتمان وبراهما : اختفت على الفور الروح الجزئية واختفى براهما باعتباره خالقاً (أى باعتباره إشڤارا)»(١٢٢) وتنتمى « إشڤارا » و « كارما » — كما تنتمى الأشياء والأنفس — إلى مذهب ڤيدانتا المعروف ، فى صورته المحوَّرة تحويراً يناسب حاجات الرجل من عامة الناس ؛ أما الجانب الخفى السرى من المذهب ، فيعتبر الروح وبراهما شيئاً واحداً ، لايتجزأ ولا يموت ولايتغير(١٢٣) وإنها لحكمة من شانكارا أن يحصر الجانب الخفى من مذهبه فى الفلاسفة وحدهم لأنه — كما رأى ڤولتير — كما أنه لا يمكن لمجتمع أن يعيش بغير قانون إلا مجتمع من فلاسفة ، فكذلك لا يستطيع أن يعيش فوق الخير والشر إلا مجتمع من الإنسان الأعلى ؛ ولقد توجه الناقدون بنقد ، هو أنه إذا كان الخير والشر جانبين من « مايا » أى من العالم الزائف ، إذن فلا يعود للفوارق الخلقية وجود ، وتصبح الشياطين والقديسون فى منزلة واحدة ، وهاهنا يجيب شانكارا فى ذكاء ، بأن هذه الفوارق الخلقية حقيقة داخل عالم المكان والزمان ، وهى ملزمة لهؤلاء الذين يعيشون فى هذه الدنيا ، وليس فيها إلزام على الروح التى دمجت نفسها ببراهما ، فمثل هذه الروح لا تقترف الإثم ، لأن الإثم يتضمن الشهوة وتحقيقها بالعمل ، والروح التى تحررت — بحكم تعريفها — لاتتحرك فى دنيا الشهوات والعمل ، (الذى يحقق لها شهواتها) ، إن من يُنْزِل الأذى بغيره عامداً ، يعيش فى مستوى « مايا » ، ويخضع لما فيها من فوارق ومن أخلاق وقوانين ، فلا حُرَّ إلا الفيلسوف ، ولا حرية إلا الحكمة(*)

(*) لسنا ندرى كم يكون الحاح بارميدس فى أن « الكثرة » زائفة وأنه لا وجود إلا —

لقد كانت هذه الفلسفة أدق وأعمق مما ينتظر من صبى فى العقد الثالث من عمره ؛ ولم يكتف شانكارا أن يفصّل أجزاءها فيما كتب ، وأن يوفق فى الدفاع عنها فى نقاشه مع الناس ، لكنه كذلك عبَّر عن أجزاء منها فى شعر هو من أرهف الشعر الهندى الدينى إحساساً ، ولما أن فرغ شانكارا من رد كل اعتراض وجّه إليه ، انتبذ صومعة فى الهملايا ، وتقول الرواية الهندية إنه مات فى سن الثانية والثلاثين(١٢٤) ، ونشأت عشر جماعات دينية تحمل اسمه ، واعتنق فلسفته كثير من الأتباع ، ثم ارتقوا بها ، وقد كتب أحد هؤلاء الأتباع — وبعضهم يقول : إن شانكارا نفسه هو الذى كتب — عرضاً شعبياً للفيدانتا ، وأسماه « موهامود جارا » ومعناها « مطرقة الحماقة » — عرض أسس المذهب عرضاً موجزاً فى وضوح وقوة :

« أيها الأحمق ، امح من نفسك هذا الظمأ للمال ، واقتلع من قلبك كل الشهوات ، واقنع نفساً بما تكسبه بما لك من « كارما » . . . لا يأخذنك زهو بمال أو أصدقاء أو شباب ، إن الزمن يقضى عليها جميعاً فى لحظة واحدة ، فإذا ما أسرعت وتركت كل هذا — وإنه لملىء بالأوهام — فادخل حيث براهما . . . إن الحياة رجراجة مثل قطرة الماء على ورقة اللوتس . . . إن الزمن لاه والحياة زائلة — ومع ذلك فأنفاس الأمل لا تنقطع ، إن الجسد قد أصابه التجعيد والشعر قد شاب ، والفم قد خلا من أسنانه ، والعصا ترتعش فى قبضة اليد ، ومع ذلك فالإنسان لا ينى متشبثاً بمواضع الرجاء . . . احتفظ باتزانك دائماً . . . إن فشنو وحده يسكن فيك وفىّ وفى الآخرين ؛ ومن العبث أن تغضب أو تثور انظر إلى نفسك جزئية فى النفس الكلية الشاملة ، ولا تعد تفكر فيما بيننا من فوارق(١٢٥) » .

= « الواحد » مدينا لليوبانشاد ، أو كم يكون رأيه داك ذا فضل على مذهب شانكارا ؛ كما أننا لا نستطيع أن نؤكد وجود علاقة سببية أو إيجابية بين شانكارا وبين فلسفة عمانويل كانت التى تشبهها شبها يثير العجب .

الفصل الثالث

نتائج الفلسفة الهندية

الانهيار – ملخص – نقد – أثرها

جاءت الفتوح الإسلامية فختمت على عصر الفلسفة الهندية ؛ وأدت هجمات المسلمين – ثم هجمات المسيحيين فيما بعد – على الديانة القومية إلى انكماش هذه العقيدة القومية على نفسها دفاعاً عن نفسها ، فوحّدت أجزاءها وحرّمت كل جدل فى الدين ، وألجمت حركة الزندقة مع أنها مصدر التجديد ، بحيث لم يبق إلا اطّراد راكد فى التفكير ، ولما جاء القرن الثانى عشر ، وجد مذهب « الفيدانتا » – الذى حاول على يدى شانكارا أن يكون ديناً للفلاسفة – من يفسره من القديسين ، مثل « رامانوجا (حوالى ١٠٥٠) – تفسيراً لا يجعل فرقاً بينه وبين العبادة الأصلية القديمة لفشنو ، وراما ، وكرشْنا ؛ ولما حرم على الفلسفة أن تفكر فكراً جديداً ، لم يكفها أن تنحدر إلى اسكولائية ، بل باتت عقيما ، وجعلت تتلقى العقائد من الكهنوت ، وراحت تتعب نفسها فى البرهنة عليها ، بحيث تبين ما بينها من مميزات للواحدة عن الأخرى دون أن تدل تلك المميزات على فروق حقيقية ، مصطنعة فى ذلك منطقاً بغير عقل(٢٦) .

ومع ذلك فالبراهمة قد استطاعوا فى عزلتهم التى أووا إليها وتحت درع واقية اتخذوها من إلغاز عباراتهم إلغازاً لا يفهمه أحد سواهم ، استطاعوا أن يصونوا المذاهب القديمة من العبث ، بأن صبوها فى « سُوتْرات » (أى حِكَم أو عبارات موجزة) غامضة ، وتعليقات ملغزة ، وبهذا نقلوا نتائج الفلسفة الهندية عبر الأجيال والقرون ؛ وقد كانت كل هاتيك المذاهب ، برهمية كانت أو غير برهميّة ، تعتبر ملكات العقل ضعيفة لا حول لها ، أو خادعة إزاء

حقيقة الكون التي يراها الإنسان أو يحسها رؤية وإحساساً مباشرين(*) .

وكل اتجاهاتنا العقلية التي ظهرت في القرن الثامن عشر ، إن هي في رأى الميتافيزيقي الهندى إلا محاولة سطحية عابثة لإخضاع الكون الذى يستحيل حساب دقائقه ، لتصورات سيدة رقيقة ممن يرتدن « الصالونات الأدبية » ؛ « في ظلام دامس يمضي أولئك الذين يعبدون الجهل ، وفي ظلام أشد دماسة يتخبط أولئك الذين يطمئنون نفساً بما لهم من علم »(١٢٩) ؛ إن الفلسفة الهندية تبدأ حيث تنتهي الفلسفة الأوربية — وهو البحث في طبيعة المعرفة وفي حدود العقل ؛ فهي لا تبدأ بمثل فزيقا « طاليس » و « ديمقريطس » ولكن بمثل نظرية المعرفة عند « لُكْ » و « كانْت » والعقل عندها هو ذلك الذى ندركه إدراكاً مباشراً ، ولذا فهي تأبى أن تحلله إلى معلوم عرفناه بطريق غير مباشر ، أي عرفناه بالعقل ؛ وهي تسلّم بالعالم الخارجي ، لكنها لا تؤمن بأن حواسنا في مقدورها أن تعرفه على حقيقته الواقعة ؛ إن العلوم كلها جهل « رسميّ » وهو ينتمي إلى دنيا الظواهر « مايا » فهي تصوغ في ألفاظ وعبارات لا تنفكّ متغيرة الجانبَ العقلي من عالم ليس العقل فيه إلا جزءاً يسيراً — إن العقل في هذا العالم تيار واحد متنقل في بحر ليس له حدود ؛ بل إن الشخص نفسه الذى يقوم بالتدليل العقلي لا يزيد على ظاهرة « مايا » أي أنه وهم من الأوهام ؛ فماذا عسى أن يكون سوى التقاء موقت لطائفة من حوادث ، أو سوى عُقْدة عابرة في مسارات المادة والعقل خلال المكان والزمان ؟ — وماذا عسى أن تكون أفعاله وأفكاره سوى نتيجة لطائفة من القُوى التي سبقت بوجودها وجوده بعهد بعيد ؟ ليس ثمة من حقيقة إلا براهما ، ذلك المحيط الكوني الفسيح الذى

(*) « ليس هنالك قديس هندى واحد نظر إلى المعرفة المكسوبة بالعقل أو بالحواس بغير احتقار »(١٢٧) « إن حكماء الهنود لم يقعوا أبداً في الخطأ الذى يمثلنا أصدق تمثيل ، وهو أن نأخذ أي شيء مما يركبه العقل أخذاً جاداً بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة ، فهذه التركيبات العقلية لا تزيد جوهراً على أي تركيب آخر مما تعرضه علينا « مايا » (أي عالم الظواهر) »(١٢٨) .

لا تكون صورة أى شىء إلا بمثابة موجة عابرة فيه ، أو إن شئت فقل لا تكون صورة الشىء إلا نقطة زبد على موجة من موجاته ؛ فليست الفضيلة هى ما فى أعمال الخير من بطولة صامتة ، كلا ولا هى نشوة من التقوى ينتشيها من يوصف بها ؛ بل هى مجرد الاعتراف بوحدة النفس مع كل نفس أخرى فى حقيقة واحدة هى براهما ؛ والحياة الخلقية إن هى إلا ضرب من الحياة يكون أساسه الشعور بما بين الأشياء كلها من اتحاد(*) ، « إن من يدرك كل الكائنات فى نفسه ، ويدرك نفسه فى كل الكائنات ، لن يصيبه شىء من القلق بعدئذ ، إذ كيف يمكن أن يصاحبه بعد ذلك وهم أو أسى ؟ »(١٣٠) .

إن ما حال دون أن توسع هذه الفلسفة نطاقها بحيث تؤثر فى المدنيات الأخرى ، هو بعض الخصائص المميزة لها ، التى لا يرى فيها الهندى من وجهة نظره شيئاً يعاب ، فمنهجها ، واصطلاحاتها الاسكولائية ، ومزاعمها الفيدية تحول بينها وبين أن تجد إقبالا فى أمم لها مزاعم أخرى ، أو تثقفت بثقافات أكثر اتصالا بهذا العالم الذى تعيش فيه ؛ فمذهبها الخاص « بالمايا » - أى الظواهر - لا يبعث إلا قليلا على الحياة الخلقية وفعل الفضيلة ، وتشاؤمها هو بمثابة الاعتراف منها بأنها لم تفسر الشر ، على الرغم من نظرية « الكارما » التى تحتوى عليها ؛ وقد كان بعض تأثير هذه المذاهب الفلسفية ، أن تزيد فى حمل الناس على السكينة الهامدة فى وجه الشرور التى كان يمكن عقلا أن تصحح ، أو إزاء عمل كان كأنما يصبح منادياً لعله يجد من يؤديه ؛ ومع ذلك ففى هذه التأملات عمق ، إذا ما قارنته بالفلسفات التى تحض على النشاط ، والتى نشأت فى مناطق أبعث على الفاعلية ، أقول إن فى هذه الفلسفات عمقاً يصبغ الفلسفات الأخرى الباعثة على النشاط بلون التفاهة ؛ فيجوز أن تكون

(*) راجع سبينوزا : « إن أعظم الخير هو معرفة الاتحاد بين العقل وسائر الطبيعة »(١٣١) « فالحب » هو ما يلخص الفلسفة الهندية .

مذاهبنا الغربية التي وثقت وثوقاً شديداً بأن « المعرفة قوة » بمثابة أصوات شباب مضى ، كان فيه شهوة تُضَخِّم له قدرة الإنسان ومستطاعه ؛ حتى إذا ما أنهكت قوانا في كفاحنا اليومي ضد الطبيعة التي لا تعبأ بنا ، والزمن الذي يناصبنا العداء ، ازددنا عندئذ رحابة صدر حين ننظر إلى الفلسفات الشرقية التي توصي بالاستسلام والسلام ؛ ومن ثم كان أثر الفكر الهندي على الثقافات الأخرى أشد ما يكون ، في العهود التي تتعرض فيها تلك الثقافات لعوامل الضعف أو الانهيار ؛ فلما كانت اليونان تحرز نصراً بعد نصر ، لم تصرف إلا قليلا من سمعها لما يقوله فيثاغورس أو بارمنيدس ، ثم لما أخذت اليونان في التدهور ، ذهب أفلاطون وذهب معه الكهنة الأورفيون مذهب تناسخ الأرواح ، وطفق زينون الشرقي يبشر بما أوشك أن يكون استسلاماً للقضاء والقدر ، وتسليما للدهر وصروفه ، ولما كانت اليونان تحتضر ، ارتاد أنصار الأفلاطونية الجديدة والغنوسطيون (الذين يأخذون بإمكان معرفة الله) حياض الهند يعبون من أعماقها ؛ والظاهر أن ما أصاب أوروبا من فقر بسقوط روما وفتوح المسلمين للطرق الموصلة بين أوروبا والهند ، قد كان حجر عثرة مدى ألف عام ، يعرقل تبادل الأفكار بين الشرق والغرب تبادلا مباشراً ؛ لكن لم يكد البريطانيون يثبتون أقدامهم في الهند حتى جعلت كتب اليوبانشاد تحرك الفكر الغربي بإعادة نشرها ، أو بترجمتها ، فتصور فخته مذهباً مثالياً على شبه شديد بمثالية شانكارا(١٣٢) وأوشك شوبنهور أن يدخل في فلسفته مذاهب البوذية واليوپانشاد والفيدانتا ، إدخالا يجعلها جزءاً من فلسفته لا يتجزأ ، وكانت اليوپانشاد في رأى شلنج وهو في شيخوخته أنضج ما وصل إليه الإنسان من حكمة ، أما نيتشه فقد خالط بسمارك واليونان أمداً أطول من أن يتيح له الفرصة للعناية بثقافة الهند ، ومع ذلك فقد اعتنق آخر الأمر فكرة آثرها على كل فكرة سواها ، وهي فكرة ظلت متشبثة بعقله لا تبرحه ، ألا وهي فكرة دورة الحياة دورة أبدية تظل فيها تعيد ما مضى من مراحل — وما تلك

الفكرة إلا صورة من مذهب عودة الروح إلى التقمص فى أجساد كثيرة .

إن أوروبا فى عصرنا هذا تزداد أخذاً من فلسفة الشرق(*) كما يزداد الشرق أخذاً من علوم الغرب ؛ ويجوز أن تنشب حرب عالمية أخرى فتفتح أبواب أوروبا (كما انفتحت اليونان عند تحطم إمبراطورية الإسكندرية ، وكما انفتحت روما عند سقوط الجمهورية الرومانية) بحيث تتدفق فيها فلسفات الشرق وعقائده ؛ فثورة الشرق على الغرب ثورة متزايدة ، وفقدان الأسواق الأسيوية التى كان من شأنها أن تقيم صناعة الغرب وازدهاره ، وضعف أوروبا لما يصيبها من فقر وانقسام وثورة ، كل ذلك قد يجعل من هذه القارة المنقسمة على بعضها غنيمة سهلة لديانة جديدة تجعل الناس يعقدون رجاءهم فى السماء ، ويفقدون الأمل فى الأرض ، ويجوز جداً أن يكون الهوى وحده هو الذى يجعل مثل هذا المصير مستحيلا فى رأى الناس فى أمريكا ، لأن السكينة والاستسلام ، لا تتلاءم مع الجو الكهربائى الذى نعيش فيه ، أو مع الحيوية التى تنشأ عن مصادر الثروة الغزيرة والأرض الفسيحة الأرجاء ؛ ولا شك فى أن مناخنا سيكون لنا فى نهاية الأمر درعاً واقية .

(*) راجع برجسون ، وكسلرنج ، والتطبيب بالعقيدة ، والفلسفة الدينية .

الباب العشرون

أدب الهنـــد

الفصل الأول

لغات الهند

السنسكريتية – اللهجات القومية – النحو

كما أن الفلسفة وكثيراً من الأدب فى أوروبا الوسيطة كانا يكتبان بلغة ميتة لا يفهمها الشعب ، فكذلك كانت الفلسفة والأدب الكلاسيكى فى الهند يكتبان بسنسكريتية كانت قد أهملت بين الناس كأداة للتفاهم منذ زمن طويل ، لكنها عاشت لتكون لغة للعلماء الذين لا تربطهم لغة مشتركة أخرى ، كأنها فى ذلك لغة « الإسبرانتو » (التى يحاولون صناعتها لتكون أداة تفاهم بين الشعوب المختلفة الآن) .

ولما كانت هذه اللغة الأدبية بعيدة عن الاتصال بحياة الأمة ، فقد أصبحت نموذجاً يحتذيه من أراد أن يكون اسكولائىَّ التفكير أو مهذب اللسان ؛ وكانت الكلمات الجديدة تصاغ – لا بخَلْق تلقائى يصدر من عامة الناس – بل تبعاً لحاجات المدارس فى بحوثها الفنية ؛ حتى انتهى الأمر بالسنسكريتية التى كتبت بها الفلسفة إلى فقدانها للبساطة القوية التى نلمسها فى الترانيم الڤيدية ، وأصبحت أفعواناً صناعياً تزحف كلماتها على الصفحات زحفاً كأنها شرائط الدود(*) .

(*) خذ هذه الأمثلة لكلمات سنسكريتية رقمت من عدة أجزاء :

(citerapratisamkvamayastadakavapattau)

(upadanavisvsmasattakakaruapatlih) (١)

ولكن عامة الناس فى الوقت نفسه كانوا — فى شمال الهند حول القرن الخامس قبل الميلاد — قد حوروا السنسكريتية إلى پراكريتية ، وما أشبه ذلك بإيطاليا حين غيرت اللاتينية إلى الإيطالية ؛ فأصبحت اللغة البراكريتية حيناً من الدهر لغة البوذية والجانتية . ولبثت كذلك حتى تطورت بدورها إلى الپالية — وهى اللغة التى كتب بها أقدم ما هبط إلينا من الأدب البوذى[٢] ؛ فلما أن كان ختام القرن العاشر من تاريخنا المسيحى ، كان قد تولّد عن هذه اللغات التى شهدتها « الهند الوسيطة » لهجات مختلفة كان أهمها اللغة « الهندية » ثم ولّدت هذه بدورها فى القرن الثانى عشر اللغة الهندستانية التى باتت لغة النصف الشمالى من الهند ، وأخيراً جاء الغزاة المسلمون وملأوا الهندستانية بألفاظ فارسية فكونوا بذلك لهجة جديدة هى اللهجه الأردية ؛ وهذه كلها لغات « هندية جرمانية » انحصرت فى الهندستان : أما الدكن فقد احتفظت بلغاتها الدراڤيدية القديمة وهى : لغات « تامِل » و« تلوجو » «كاناريس » و « ملايالام » وأصبحت لغة « تامل » من بينها هى الأداة الأدبية الرئيسة فى الجنوب ؛ ولما كان القرن التاسع عشر حلت الپالية محل السنسكريتية لغة أدبية فى البنغال وكان الكاتب القصصى (« شاتَرْجى » لهذه اللغة بمثابة « بوكاتشو » للإيطالية الحديثة) كما كان لها الشاعر طاغور بمثابة « پترارك » ؛ وإنك لترى مائة لغة فى الهند . حتى فى يومنا هذا ، على أن أدب الحركة الاستقلالية يستخدم لغة الفاتحين أداة للتعبير .

ولقد أخذت الهند منذ تاريخ عريق فى القدَم تتعقّب جذور الألفاظ وتاريخها وعلاقاتها وتركيبها ولم يظللها القرن الرابع قبل الميلاد حتى كانت قد اصطنعت لنفسها(*) علم النحو ، وأنجبت من يجوز أن يكون أعظم النُّحاة جميعاً ممن نعرف وهو پانينى ؛ وكانت دراسات پانينى ، وپاتانجالى (حوالى ١٥٠م) وبهارْترِيهارى (حوالى ٦٥٠) هى الأسس التى قام عليها علم اللغات ؛

(*) ولقد حدث للبابليين مثل هذا ، راجع الجزء الخاص ببابل من هذه السلسلة .

كما أن هذا العلم الشائق الذى يبحث فى ولادة الألفاظ اللغوية ، مدين بكل حياته تقريباً فى العصور الحديثة لإعادة كشف الغطاء عن السنسكريتية .

ولم تكن الكتابة – كما رأينا – شائعة فى الهند الفيدية ، فحوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، اقتبست الكتابة الخاروشتية من أصول سامية ، وبدأنا نسمع عن كاتبين فى أدب الملاحم والأدب البوذى[٣] ؛ وكانت أوراق النخيل ولحاء الشجر يستخدمان أداة للكتابة ، كما كان القلم شبيهاً بمسمار من حديد ؛ وكانوا يدبغون لحاء الشجر دبغاً يجعله أصلب ديباجة ، ثم يحفرون عليه الأحرف بالقلم ، ويلطخون اللحاء بالحبر ، فيبقى فى فجوات الحروف المحفورة ثم تمحى بقيته[٤] . ولما جاء المسلمون أدخلوا معهم الورق (حوالى ١٠٠٠ ميلادية) لكن الورق لم يحل محل اللحاء تماماً إلا فى القرن السابع عشر ، وكانوا يُنْفذون خيطاً سميكاً فى صفحات اللحاء لتربطها معاً على الترتيب المطلوب ، على أن تجمع الكتب المكونة من أمثال هذه الصفحات فى مكتبات أطلق الهنود عليها اسم « خزائن إلهة الكلام » ، وقد بقيت لنا مجموعات ضخمة من هذا الأدب الخشبي على الرغم مما تعاورها من تدميرات الزمن والحروب(*) .

(*) ليس هناك أثر للطباعة قبل القرن التاسع عشر – وقد يكون ذلك راجعاً – كما هى الحال أيضاً فى الصين وقد يرجع ذلك إلى أن تكاليف الحروف المفككة بحيث تلائم أنواع الكتابة الأهلية أكثر نفقة مما يحتمل أو قد يكون ذلك راجعاً إلى أنهم نظروا إلى الطباعة على أنها سليل مبتذل يخالف فن الخط ، وكان الإنجليز هم الذين جاءوا إلى الهنود بالصحف والكتب المطبوعة ، لكن الهنود أدخلوا تحسينات على ما تعلموه من الإنجليز فى هذا الصدد ، واليوم ترى فى الهند ١٠١٧ ١٥ جريدة و ٣٦٢٧ مجلة ، وأكثر من ١٧٠٠٠ كتاب جديد تنشر فى المتوسط كل عام(٥) .

الفصل الثانى

التعليم

المدارس – الطرق – الجامعات – التعليم الإسلامى – إمبراطور يتحكم فى التعليم

لبثت الكتابة ضئيلة القدر جداً فى التعليم الهندى حتى القرن التاسع عشر؛ ويجوز أن يكون مرجع ذلك إلى أن الكهنة لم يكن فى صالحهم أن يجعلوا النصوص المقدسة أو الإسكولائية سراً مكشوفاً للجميع(٦)؛ أما التعليم فقد كان له نظام قائم تراه فى تاريخهم مهما أوغلت فى ماضيه(٧)، وكان يتولاه رجال الدين ويفسحون مجاله فى أول الأمر لأبناء البراهمة وحدهم، ثم أخذوا على مرّ الزمن يوسّعون من نطاقه بحيث يشمل طبقة بعد طبقة، حتى نراه اليوم لا يستثنى من الناس أحداً فيما عدا طبقة المنبوذين، ولكل قرية هندية معلمها يُنْفَق عليه من الرصيد العام، وكان فى البنغال وحدها – قبل مجىء البريطانيين – حوالى ثمانين ألفاً من المدارس الأهلية – مدرسة لكل أربعمائة نفس من السكان(٨). وربما كانت نسبة التعليم فى ظل «أشوكا» أعلى منها اليوم فى الهند(٩).

كان الأطفال يذهبون إلى مدرسة القرية من سبتمبر إلى فبراير، ويدخلونها فى سن الخامسة ليتموّها فى سن الثامنة(١٠) وكان التعليم ذا صبغة دينية غالبة، كائناً ما كان موضوع الدراسة، وكانت الطريقة المألوفة هى الحفظ عن ظهر قلب، ولم يكن لأحد مفرٌ من حفظ نصوص الفيدات؛ ويشتمل منهج التعليم على القراءة والكتابة والحساب، لكنها لم تكن الهدف الأساسى للتعليم، وكان الخلق أجدر عندهم بالاعتبار من الذكاء، والنظام هو جوهر التعليم فى المدارس، نعم إننا لا نسمع فى تاريخهم شيئاً عن ضرب التلاميذ أو ما شابه ذلك من صارم الوسائل التأديبية، لكننا نجد أكثر اهتمامهم منصباً قبل كل

شيء على تكوين عادات السلوك فى الحياة بحيث تكون سليمة من المآخذ والشوائب[١١] ، وفى سن الثامنة ينتقل التلميذ إلى « شيخ » يتولاه بعناية أكثر مراعاة للقواعد ، و« الشيخ » هو معلم خاص أو رائد يعيش معه التلميذ ، ويحسن أن يظل فى صحبته تلك حتى سن العشرين ، وكان يطلب إلى التلميذ أن يؤدى له بعض الخدمات ، منها أحياناً ما كان حقيراً ؛ كما يطالب بالتزام العفة والتواضع والنظافة والامتناع عن أكل اللحم فى وجباته[١٢] ، وقوام التعليم « الشاستْرات الخمس » أى العلوم الخمسة وهى : النحو ، والفنون والصناعات ، والطب ، والمنطق ، والفلسفة ؛ وبعدئذ يطلق فى الحياة مزوّداً بنصح حكيم هو أن التعليم يأتى ربعه فقط من المعلم ، وربعه من الدراسة الخاصة ، وربعه من الزملاء ، وربعه من الحياة[١٣] .

وللطالب فى نحو السادسة عشرة أن ينتقل من « شيخ » إلى إحــــدى الجامعات الكبرى التى كانت مفخرة الهند القديمة والوسيطة ؛ بنارس وتاكسيلا وفدارها وأوجانتا ويوجين ونالاندا ؛ وكانت جامعة بنارس حصناً حصيناً للتعاليم البرهمية الأصيلة فى أيام بوذا ، كما لا تزال كذلك إلى يومنا هذا ، وكانت جامعة تاكسيلا فى عهد غزوة الإسكندر معروفة فى آسيا كلها على أنها مقر الزعامة فى البحث العلمى فى الهند ، وأشهر ما اشتهرت به مدرسة الطب فيها ؛ واحتلت جامعة « يوجين » مكانة عالية فى أسماع الناس بما فيها من علماء الفلك ، كما اشتهرت جامعة أجانتا بتعليم الفنون ؛ وإن واجهة أحد المبانى المخربة فى أجانتا لتدل بعض الدلالة على فخامة هذه الجامعات القديمة[١٤] وأنشئت جامعة « نالاندا » — وهى أشهر الجامعات بالمعاهد البوذية العالية — بعد موت منشئ العقيدة البوذية بزمن قصير وخصصت لها الدولة دخل مائة قرية لينفق عليها منه ، وكان بها عشرة آلاف طالب ، ومائة قاعة للمحاضرات ومكتبات ضخمة ، وست بناءات كبيرة للسكنى ، وارتفاعها أربعة طوابق

يقول يوانج شوانج أن مراصدها «كانت تنهم معالمها فى ضباب الصباح ، وتعلو غرفاتها العليا على السحاب »[١٥] ، ولقد أحبَّ هذا الحاج الصينى الكهل رهبان « نالاند » العلماء وأحراشها الظليلة حباً جعله يقيم هناك خمسة أعوام ؛ وهو يروى لنا أن الكثرة الغالبة من أولئك الذين أرادوا الدخول فى حلقات المناقشة من النزلاء الأجانب « فى نالاندا » كانت تنسحب أمام ما تلاقيه من صعوبة المشكلات ؛ وكان يسمح بالدخول لأولئك الذين تعمقوا العلوم القديمة والحديثة ، لكن لم ينجح من كل عشرة أكثر من اثنين أو ثلاثة »[١٦] .

وكان الطلاب الذين يساعدهم الحظ فى الدخول يتعلمون مجاناً بما فى ذلك أيضاً المسكن والغذاء ، لكنهم لقاء ذلك كانوا يخضعون لنظام أوشك أن يكون كنظام الأديرة ، ولم يكن الطالب يسمح له بالتحدث إلى امرأة ، أو برؤية امرأة بل إن مجرد الرغبة فى النظر إلى امرأة كان يعد عندهم خطيئة كبرى على نحو ما جاءَ فى العهد الجديد من قول هو أشد ما فيه من أقوال ؛ وإذا اقترف طالب إثماً جنسياً ، كان عليه أن يلبس جلد حمار مدة عام كامل ، على أن يظل الذيل مرفوعاً إلى أعلا ، وأن يجوب الآثم الطرقات ، يطلب الصدقات ويعلن عن خطيئته ؛ وكان الطلبة جميعاً يطالبون كل صباح بالاستحمام فى أحواض السباحة العشرة الكبرى التابعة للجامعة ؛ ومدة الدراسة اثنا عشر عاماً ، ولو أن بعض الطلبة كان يقيم بالجامعة ثلاثين عاماً ، وبعضهم يقيم بها حتى المات[١٧] .

وجاء المسلمون فهدموا الأديرة (فى شمال الهند) كلها تقريباً . بوذيها وبرهميها على السواء ، وأحرقت جامعة « نالاندا » إحراقاً أتى عليها سنة ١١٩٧ وقتل كل رهبانها ، وإنه ليستحيل علينا أبد الدهر أن نقدر ما كان فى حياة الهند القديمة من خصوبة مسترشدين بما أتى عليه هؤلاء المسلمون المتعصبون ؛ ومع ذلك فلم يكن هؤلاء المخربون من الهمج بل كان لهم ذوق فى الجمال كما كان لهم براعة تشبه العصر الحديث فى استخدام التقوى لتحقيق ما يشاءون من

نهب وسلب ، فلما اعتلى المغول عرش الحكم ، جاءوا معهم بمستوى عال — ولو أنه ضيق الأفق — من الثقافة ، فقد أحبوا الأدب حبهم للسيف ، وعرفوا كيف يمزجون حصاراً ظافراً بقصائد الشعر ؛ وكان التعليم عند المسلمين فردياً في أغلبه فيستخدم أغنياء الآباء لأبنائهم المعلمين الخواص ؛ وكانت نظرتهم إلى التعليم نظرة أرستقراطية تجعله شيئاً للزينة — وقليلا ما اتخذوا التعليم وسيلة لغاية — يزدان به رجل الأعمال أو صاحب السلطان ، كما تجعله عنصراً من عناصر الثورة والخطر العام إذا ما لقّن لرجل قضى عليه بالفقر وضعة المنزلة ؛ ويمكننا أن نتبين طرائق المعلمين من خطاب هو من رسائل التاريخ العظمى — وهو ما أجاب به أورنجزيب — وهو ملك — على معلمه السابق ، وقد طلب إليه ذلك المعلم أن يخلع عليه منصباً وراتباً :

« ماذا تريد مني أيها المعلم ؟ أيمكن في حدود العقل أن تطلب مني أن أجعلك أحد كبراء الأمراء في حاشيتي ؟ دعني أقلها لك قولة صريحة ، لو أنك علمتني كما كان ينبغي لك أن تفعل ، لما كان ثمت أعدل من مثل هذا الطلب ؛ لأنني أعتقد بأن الناشئ الذي أحسنت تربيته وتعليمه ، مدين لأستاذه على الأقل بمقدار ما هو مدين لأبيه ؛ ولكن أين عساى أن أجد مثل هذا التعليم الجيد مما لقنتني ، فقد علمتني أولا أن الفرنجة جميعاً (هكذا يسمون الأوروبيين فيما يظهر) لم يكونوا إلا جزيرة صغيرة ، الله أعلم بضآلة قدرها ، وأن ملك البرتغال هو أعظم ملوكها ثم يتلوه ملك هولندة ، فملك انجلترة ، أما عن الملوك الآخرين كملك فرنسا وملك الأندلس ، فقد صورتهم لي مثل صغار الراجات عندنا ، قائلا لي إن ملوك الهندستان يبزونهم جميعاً ، وأنهم (ملوك الهندستان) . . . هم الأعلون بين الملوك وهم غزاة العالم وحاكموه ؛ وأن ملوك فارس وأزبك وكشغر والتتر وكاثي وپيجو والصين وماشينا يرتعشون خوفاً عند ذكر أسماء ملوك الهندستان ؛ ألا ما أجمل ذلك من علم بأقطار العالمين ! لقد كان أوجب عليك أن تعلمني علماً دقيقاً بهذه الدول كلها ، بحيث أميز

بعضها من بعض ، وأفهم جيد الفهم ما هى عليه من قوة وأساليب حرب وعادات وديانات وحكومات ومصالح ؛ وكان أوجب عليك أن تطلعنى على صحيح التاريخ حتى أعلم نشأة تلك الدول وتقدمها وانهيارها ، ومن ثم كنت أعلم كيف وبأى سبب من الأحداث والأخطاء حدثت تلك التطورات الكبرى والثورات العظمى فى الإمبراطوريات والممالك ؛ لقد كدت لا أعلم منك أسماء أجدادى ، بناة هذه الإمبراطورية الأعلام ، بَلْهَ أن تعلّمنى تاريخ حياتهم وما صنعوه حتى تم لهم مثل هذا الفتح العظيم ؛ كنت منكباً على تعليمى اللغة العربية قراءة وكتابة ؛ والحق أنى شاكر لك ما سببته لى من مضيعة لوقتى فى لغة تتطلب عشرة أعوام أو اثنى عشر عاماً لكى يجيدها الطالب ، كأنما ابن الملك يرى شرفاً له أن يكون عالماً نحوياً أو متضلعاً فى القانون وأن يتعلم لغات غير لغات جيرانه ، مع أنه يستطيع أن يحيا بغيرها خير حياة ، ذلك الذى يحرص على وقته الثمين لكثير من مهام الأمور ، وهـذه الأمور هى التى كان ينبغى أن يتعلمها ؛ ودع عنك ابن الملك ، وقل لى أين تلك الروح التى نستعبد نفسها — بغير شيء من النفور ، بل بغير شيء من الشعور بالمهانة — فى دراسة كئيبة جافة طويلة مملة ، مثل هذه الدراسة لألفاظ اللغة »(١٨)

ويقول « بيرنْيِيرْ » المعاصر : « هكذا كان أورنجزيب يمقت التحذلق فى التعليم الذى كان يصطنعه معلموه ، وبعض الدلائل فى بلاطه تدل على أنه ... أضاف إلى قوله ذاك قولا آخر(*) وهو :

« ألا تعلم أن الطفولة إذا أُحْكِمَ الإشراف عليها ، وهى كما نعلم حالة مصحوبة عادة بالذاكرة الجيدة ، فى مستطاعها أن تتلقى آلاف المبادئ السليمة

(*) لا نستطيع الجزم كم من العبارة المقتبسة الآتية (بل قد لا نستطيع ذلك أيضاً بالنسبة للعبارة السالفة) من كلام « بيرنيير » ، وكم منها من كلام أورنجزيب ، وكل ما نعلمه عنها هو أن فيها علامات تدل على أنها نسخة وليست أصلا .

والتعاليم بحيث تنقش فيها نقشاً عميقاً ما بقى الإنسان حياً ، وتحفز عقل الإنسان دائماً إلى جليل الأعمال ؟ أليس يمكن تعلم القانون والصلاة والعلوم بلغتنا القومية كما نتعلمها بالعربية ؟ لقد أنبأت أبى « شاه جهان » أنك ستعلمنى الفلسفة نعم إنى أذكر جيداً أنك لبثت أعواماً طوالا تسلينى بمشكلات فارغة عن أشياء لا ترضى العقل فى شىء على الإطلاق ، وليست هى بذات نفع فى المجتمع الإنسانى ، وهى أفكار خاوية ومجرد سبحات فى الخيال ، ليس فيها ما يميزها سوى أنها شديدة الصعوبة على الفهم ، شديدة السهولة فى النسيان ... إنى لا أزال أذكر أنك بعد أن أمتعتنى — ولست أذكر كم طال أمد تلك المتعة — بفلسفتك الدقيقة ، كان كل ما وعيته منها طائفة كبيرة من ألفاظ حوشية معقدة تصلح لإيقاع الربكة والحيرة والملل فى أحسن العقول ؛ ولعلها لم توجد إلا لتستر غرور أمثالك من الرجال وجهلهم ، هؤلاء الذين يحاولون إيهامنا بأنهم يعلمون كل شىء وأن وراء هذه الألفاظ الغامضة المبهمة تختفى أسرار عظيمة لا يستطيع فهمها سواهم ، فلو أنك أنضجتنى بتلك الفلسفة التى تهيئ العقل للاستدلال المنطقى ، وتعده شيئاً فشيئاً ، الإعداد الذى يجعله لا يرضى بشىء إلا الحجج القوية ؛ لو أنك زودتنى بتلك المبادئ السامية والمذاهب الرفيعة التى تعلو بالروح على نكبات الزمن وتركزها فى حالة نفسية لا يزعزعها شىء ولا يثيرها مثير ، وتجنبها الغرور بالنجاح فى الحياة والانهيار أمام المحن ؛ لو أنك حرصت على أن تمدنى بمعرفة أنفسنا ومعرفة المبادئ الأولى للأشياء ، وساعدتنى على تكوين فكرة طيبة فى عقلى عن عظمة الكون ، وعما فيه من نظام عجيب وحركة فى أجزائه ؛ أقول لو أنك غرزت فى نفسى هذا الضرب من الفلسفة ، لرأيت نفسى مديناً لك أكثر مما كان الإسكندر مديناً لأرسطو كثرة لا تدع مجالا للمقارنة بين الحالتين ، ولأيقنت أن من واجبى أن أعوضك على نحو يختلف عما جزاه هو به ، ألم يكن واجباً عليك — بدل ريائك لى — أن تعلمنى شيئاً

عن ذلك الموضوع البالغ الأهمية للملك ، ألا وهو الواجبات المتبادلة بين الملك وشعبه ، ماذا يجب على الملك إزاء الرعية ، وماذا يجب على الرعية إزاء الملك ؟ ألم يكن ينبغى عليك أن تذكر أننى لا بد يوماً مضطر إلى استخدام السيف فى نزاعى مع إخوتى على حياتى وتاجى ؟ ... هل عنيت قط بأن تعلمنى كيف أحاصر مدينة أو أن أُجَيِّش جيشاً ؟ إننى مدين بهذه الأشياء لغيرك لا لك ، اذهب وعُدْ إلى القرية التى منها أتيت ، ولا تدع أحداً يَعْلَم من أنت ، ولا ماذا صار من أمرك »(١٩) .

الفصل الثالث

الملاحم

« الماهابهاراتا » – قصتها – قالبها – « البهاجافاد – جيتا » – ميتافيزيقا الحرب – ثمن الحرية ، « الرامايانا » – ترنيمة الغابة – اغتصاب سيتا – الملاحم الهندية والملاحم اليونانية

لم تكن المدارس والجامعات إلا جزءاً من النظام التعليمى فى الهند : فلما كانت الكتابة أقل قيمة هناك منها فى سائر المدنيات ، وكان التعليم الشفوى هو وسيلة الاحتفاظ بتاريخ الأمة وشعرها ، ووسيلة نشرها فى النفوس ، فقد نشرت الرواية الشفوية العلنية بين الناس أنفَسَ ما فى تراثهم الثقافى من أجزاء ؛ فكما قام رواة مجهولون بين اليونان بنقل الإلياذة والأوذيسية ، وتوسيعهما على مرّ الأجيال ، كذلك فعل الرواة فى الهند بنقل الملاحم من جيل إلى جيل ، ومن بلاط السلطان إلى عامة الشعب ، تلك الملاحم التى ركز فيها البراهمة أساطيرهم الشعبية ،

وفى رأى عالم هندى أن « الماهابهاراتا » هى « أعظم آية من آيات الخيال التى أنتجتها آسيا »[٢٠] وقال عنها سير تشارلز إليَت إنها : « قصيدة أعظم من الإلياذة »[٢١] ولا ارتياب فى صدق هذا الحكم الأخير بمعنى من معانيه ؛ بدأت الماهابهاراتا (حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد) قصيدة قصصية قصيرة ، لا يتجاوز طولها حداً معقولا ، ثم أخـذت تضيف إلى نفسها فى كل قرن من القرون المتعاقبة حكايات ومقطوعات ، وامتصت فى جسمها قصيدة « بهاجافادجيتا » كما ضمت بعض أجزاء من قصة راما ، حتى بلغ طولها فى نهاية الأمر ١٠٧,٠٠٠ زوج من أبيات الشعر الثمانية المقاطع – أى ما يساوى الإلياذة والأوذيسية مجتمعتين سبع مرات ، واسم مؤلفها أسطورى ، إذ ينسبها الرواة

لمن يسمونه « ڤياسا » وهى كلمة معناها « المنظم »[٢٢] فقد كتبها مائة شاعر ، وصاغها ألف منشد ، ثم جاء البراهمة فى عهد ملوك جوپتا (حوالى ٤٠٠ ميلادية) فصبوا أفكارهم الدينية والخلقية فى هذا المؤلف الذى بدأ على أيدى أفراد طبقة الكشاترية ، وبهذا خلعوا على القصيدة تلك الصورة الجبارة التى نراها عليها اليوم :

لم يكن موضوع القصيدة الأساسى مقصوداً به الإرشاد الدينى بمعنى الكلمة الدقيق ، لأنها تقص قصة عنف ومقامرة وحروب ، فيقدم الجزء الأول من القصيدة « شاكونتالا » الجميلة (التى أريد لها أن تكون بطلة فى أشهر مسرحية هندية) وابنها القوى « بهارثا » ؛ الذى من أصلابه جاءت قبائل « بهاراتا العظيم » (أى الماهابهاراتا) وقبائل كورو وپانداڤا التى تتألف من حروبهما الدموية سلسلة الحكاية ولو أنه كثيراً ما تخرج الحكاية عن موضوعها لتعرج على موضوعات أخرى ؛ فالملك « يوذسشيرا » — ملك الپنداڤين — يقامر بثروته حتى تضيع كلها ، ثم بجيشه وبمملكته وبإخوته وأخيراً بزوجته « دراوپادى » وكان فى هذه المقامرة يلاعب عدواً له من قبيلة كورو ، كان يلعب بزهرات مغشوشة ، وتم الاتفاق على أن يسترد الپانداڤيون مملكتهم بعد اثنى عشر عاماً يتحملون فيها النفى من أرض وطنهم وتمضى الاثنتا عشر عاماً ، ويطالب الپانداڤيون أعداءهم الكوريين برد أرضهم ، ولكن لا جواب ، فتعلن الحرب بين الفريقين ، ويضيف كل فريق إلى نفسه حلفاء حتى تشتبك الهند الشمالية كلها تقريباً فى القتال(*) وتظل الحرب ناشبة ثمانية عشر يوماً ، وتملأ من الملحمة خمسة أجزاء ، وفيها يلاقى الكوريون جميعاً مناياهم ، كما يقتل معظم الپنداڤين فالبطل « بهيشما » وحده يقتل مائة ألف رجل فى عشرة أيام ، ويروى لنا الشاعر الإحصائى أن عدد من سقط فى القتال قد بلغ عدة مئات من ملايين الرجال[٢٣] ؛ وتسمع « جانذارى » —

(*) تدل إشارات فى الڤيدا إلى بعض شخصيات الماهابهاراتا ، على أن حرباً حقيقية عنيفة بين القبائل وقعت فى الألف الثانى من السنين قبل الميلاد .

الملكة زوجة ملك كورو الأعمى واسمه « ذريتا راشترا » — تسمعها وسط هذا المشهد الدامى المترع بمناظر الموت ، تصرخ جازعة عندما تبصر العقبان محومة فى لهفة الشره فوق جثة ابنها الأمير « دريوذان » :

ملكة طاهرة وامرأة طاهرة ، فاضلة أبداً خيِّرة أبداً .
هى « جانذارا » التى وقفت وسط الميدان شامخة فى حزنها العميق
والميدان ملىء بالجماجم ، وجدائل الشعر انعقدت عليها الدماء ، وقد
اسود وجهه بأنهار من دم متجمد ؛
والميدان الأحمر ملىء بأطراف من لا يحصيهم العد من المقاتلين ...
وعواء أبناء آوى الطويل المديد يرن فوق منبطح الأشلاء
والعقاب والغراب الأسحم يرفرفان أجنحة كريهة سوداء
وسباع الطير تملأ السماء طاعمة من دماء المحاربين
وجماعات الوحش البغيضة تمزق الأجساد الملقاة شلوا شلوا

سيق الملك الكهل فى هذه الساحة ، ساحة الأشلاء والموت
ونساء كورو بخطوات مرتعشة خطون وسط أكداس القتلى
فدوّت فى أرجاء المكان صرخات عالية من جزع
عند ما رأين بين القتلى أبناءهن وآباءهن وإخوتهن وأزواجهن
عند ما رأين ذئاب الغابة تَطْعَمُ بما هيأ لها القدرُ من فرائس
عند ما رأين جَوَّابات الليل السود ساعيات فى ضوء النهار
ورنت أرجاء الميدان المخيف بصرخات الألم وولولة الجزع .
فخارت منهن الأقدام الضعيفة ، وسقطن على الأرض
وفقد أولئك الراثيات كلّ حس وكل حياة ، إذ هن فى إغماءة من
حزن مشترك .

ألا إن الإغماءة الشبيهة بالموت ، التي تعقب الحزن ، فيها لحظة قصيرة من راحة للمحزون ؛

ثم انبعثت من صدر « جانذارى » آهة عميقة من قلب مكروب ونظرت إلى بناتها المحزونات ، وخاطبت كرشنا قائلة :

« انظرى إلى بناتى اللاتى ليس لهن عزاء ، انظرى إليهن وهن ملكاتٌ أرامل لبيت كورو .

انظرى إليهن باكيات على أعزائهن الراحلين ، كما تبكى إناث النسور ما فقدت من نسور

انظرى كيف يُثير فى قلوبهن حُبٌّ المرأة كلٌّ قَسْمة من هاتيك القسمات البارزة الذاوية

انظرى كيف يَتجَنَّبن بخطوات قلقة وسط أجساد المقاتلين وقد أخمدها الموت

وكيف تضم الأمهات قتلى أبنائهن إذ هم فى نومهم لا يشعرون

وكيف تنثنى الأرامل على أزواجهن فيبكين فى حزن لا ينقطع

هكذا جاهدتْ الملكةُ « جانذارى » لتبلّغ « كرِشْنا » حزين أفكارها ؛

وعندئذ — واحسرتاه — وقع بصرها الحائر على ابنها « دريوذان » فأكل صدرها غمٌّ مفاجىء ، وكأنما زاغت حواسُّها عن مقاصدها كأنها شجرة هزتهـــا العاصفة ، فسقطت لا تحس الأرض التى سقطت عليها ؛

ثم صَحَتْ فى أساها من جديد ، وأرسلت بصرها من جديد إلى حيث رقد ابنها مخضباً بدمائه يلتحف السماء

وضمت عزيزها دريوذان ، ضمته قريباً من صدرها

وإذ هي تضم جثمانه الهامد اهتز صدرها بنهنهة البكاء

وانهمرت دموعها كأنها مطر الصيف ، فغسلت بها رأسه النبيل

الذى لم يزل مزداناً بأكاليله ، لم يزل تكلله أزاهير المشكا ناصعة حمراء

« لقد قال لى ابنى العزيز دريوذان حين ذهب إلى القتال ، قال :

« أماه ادعى لى بالغبطة والنصر إذا ما اعتليتُ عجلة المعمعة »

فأجبت : عزيزى دريوذان : « اللهم — يا بنىّ — اصرف عنه الأذى

ألا إن النصر آت دائماً فى ذيل الفضيلة »

ثم انصرف بقلبه كله إلى المعركة ، ومحا بشجاعته كلّ خطاياه

وهو الآن يسكن أقطار السماء حيث ينتصر المحارب الأمين

ولست الآن أبكى دريوذان ، فقد حارب أميراً وسقط أميراً

إنما أبكى زوجى الذى هدّه الحزن ، فمن يدرى ماذا هو ملاقيه من نكبات ؟

« اسمع الصيحة الكريهة يبعثها أبناء آوى وانظر كيف يرقب الذئاب الفريسة —

رادت العذارى الفاتنات بما لهن من غناء وجمال أن يحرسنه فى رقدته

اسمع هاتيك العقبان البغيضة المخضبة بمناقيرها بالدماء ، تصفق بأجنحتها على أجسام الموتى —

العذارى يُلَوِّحْنَ بمراوح الريش حول دريوذان فى مخدعه الملكى

انظر إلى أرملة دريوذان النبيلة ، الأم الفخور بابنها الباسل لاكشمان

إنها فى جلال الملكة شباباً وجمالا ، كأنها قُدّت من ذهب خالص

انتزعوها من أحضان زوجها الحلوة ، ومن ذراعى ابنها يطوّقانها

كُتب عليها أن تقضى حياتها كاسفة حزينة ، رغم شبابها وفتنتها

ألا مزّق اللهم قلبى الصلب المتحجر ، واسحقه بهذا الألم المرير
هل تعيش « جانذارى » لتشهد ابنها وحفيدها النبيلين مقتولين ؟

انظر مرة أخرى إلى أرملة ذريوذان ، كيف تحتضن رأسه الملطخ بدمه الخاثر
انظر كيف تمسك به على سريره فى رفق بيدين رقيقتين رحيمتين
انظر كيف تدير بصرها من زوجها العزيز الراحل إلى ابنها الحبيب
فتختنق عبرات الأم فيها أنّةَ الأرملة وهى أنّةٌ مريرة .
وإن جسدها الذهبى رقيق كأنه من زهرة اللوتس
أواه يا زهرتى ، أواه يا ابنتى ، يا فخر « بهارات » ، وعز « كورو »
ألا إن صدقتْ كتب الڤيدا ، « فدريوذان » الباسل حى فى السماء
ففيم بقاؤنا على هذا الحزن ، لا ننعم بحبه العزيز ؟
إن صدقت آيات « الشاسترا » ، فابنى البطل مقيم فى السماء
ففيم بقاؤنا فى حزن ما دام واجبهما الأرضى قد تأدّى(١٣) .

فالموضوع موضوع حب وحرب ، لكن آلاف الإضافات زيدت عليه فى شتى مواضعه ؛ فالإله « كرشْنا » يوقف مجرى القتل حيناً بقصيدة منه يتحدث فيها عن شرف الحرب « وكرِشنا » و « بهشْما » وهو يُحتضر ، يؤجل موته قليلا حتى يدافع عن قوانين الطبقات والميراث والزواج والمنح وطقوس الجنائز ، ويشرح فلسفة كتب « السانخيا » و « يوپانشاد » ويروى طائفة من الأساطير والأحاديث المنقولة والخرافات ، ويأتى درساً مفصّلا على « يودشيرا » فى واجبات الملك ؛ وكذلك ترى أجزاء معفَّرَة جدباء فى سياق الملحمة تقص شيئاً عن الأنساب وعن جغرافية البلاد وعن اللاهوت والميتافيزيقا ، فتفصل بين ما فى الملحمة من رياض نضرة فيها أدب مسرحىٌّ وحركة ، وفى ملحمة

« الماهابهاراتا » حكايات جامحة الخيال ، وقصص خرافية ، وغرامية ، وتراجم للقديسين ، فيتعاون كل هذا على جعل الملحمة أقل قيمة فى صورتها الفنية ، وأخصب فكراً من الإلياذة أو الأوذيسية ؛ فهذه القصيدة التى كانت فى بادئ أمرها معبرة عن طبقة الكشاترية (المحاربين) من حيث تبجيلها للحركة والنشاط والبطولة والقتال ، قد أصبحت على أيدى البراهمة أداة لتعلم الناس قوانين « مانو » ومبادئ « اليوجا » وقواعد الأخلاق وجمال النرڤانا ؛ وترى « القاعدة الذهبية » معبَّراً عنها فى صور كثيرة(*) وتكثر فى القصيدة الحِكَم الخلقية ذات الجمال وصدق النظر(**) وفيها قصص جميلة عن الوفاء الروحى (« نالا » و « دامايانتى » و « ساڤترى ») تصوّر للنساء اللائى يستمعن لها ، المثل العليا البرهمية للزوجة الوفية الصابرة .

وفى غضون الرواية عن هذه المعركة الكبرى ، بُثَّت قصيدة هى أسمى قصيدة فلسفية يعرفها الشعر العالمى جميعاً ؛ وهى المسماة « بهاجاڤاد - جيتا » ومعناها : (أنشودة المولى) ، وهى بمثابة « العهد الجديد » فى الهند ، يبجلونها بعد كتب الڤيدا نفسها ، ثم يستعملونها لحلف الأيمان فى المحاكم كما يستعمل الإنجيل أو القرآن(٢٨) ؛ ويقرر « ولهلم ڤون همبولت » أنها « أجمل أنشودة فلسفية موجودة فى أى لغة من اللغات المعروفة ، وربما كانت الأنشودة الوحيدة الصادقة فى معناها ... ويجوز أن تكون أعمق وأسمى ما يستطيع العالم كله أن يبديه من آيات »(٢٩) ؛ وقد هبطت إلينا (الجيتا) بغير اسم ناظمها أو تاريخ

(*) مثال ذلك « لا تصنع مع غيرك ما لو صُنع معك ألحق بك الألم »(٢٤) « حتى العدو إذا طلب النجدة ، فإن الرجل الخيِّر يكون على استعداد لنجدته »(٢٥) « اقهر الغضب بالتذلل ، واغلب الشر بالرحمة ، واعط البخلاء تنتصر عليهم ، وقابل الأكاذيب بالحق تمحها »(٢٦) .

(**) مثال ذلك « كما تتلاقى قطعة الخشب بقطعة الخشب فى المحيط العظيم ثم تفترق عنها ، كذلك تتلاقى المخلوقات لتفترق »(٢٧) .

نظمها ، وهى ذلك تشاطر سائر ما للهند من آيات الإبداع فى الجهل بأصحابها ، وعلة ذلك أن الهند لا تعنى بما هو فردى وجزئى ؛ وربما يرجع تاريخها إلى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد[٣٠] أو ربما كانت أحدث من ذلك بحيث ترجع إلى سنة ٢٠٠ م[٣١] .

ومشهد القصيدة هو المعركة التى نشبت بين الكوريين والباندافيين ؛ والموقف الذى قيلت فيه هو ما أبداه « أرجونا » المحارب الباندافى من رغبة من قتال ذوى قرباه فى صفوف الأعداء قتالا مميتاً ؛ فاسمع «أرجونا » وهو يوجّه الخطاب إلى « المولى كرشْنا » الذى كان يحارب إلى جواره كأنه إله من آلهة هومر ، لترى كيف يعبر بخطابه عن فلسفة غاندى والمسيح :

« إن الأمر كما أراه هو أن هذا الحشد من ذوى قربانا
قد تجمع هاهنا ليسفك دماً مشتركاً بيننا ؛
ألا إن جسدى ليخور وَهَناً ، ولسانى يجف فى فمى ...
ليس هذا من الخير يا « كِشَاف » ، يستحيل أن ينشأ خير
من فريق يفتك كل منهما بالآخر ، انظر ،
إنى أمقت النصر والسيادة ، وأكره الثروة والترف
إن كان كسبهما عن هذا الطريق المحزن ، وا أسفاه ،
أى نصر يسرّ يا « جوفندا » وأى الغنائم النفيسة ينفع ،
وأى سيادة تعوض ، وأى أمد من الحياة نفسها يحلو ،
إن كان شيء من هذا كله قد اشتريناه بمثل هذه الدماء ؟ ...
فإذا ما قتلنا
أقرباءنا وأصدقاءنا حباً فى قوة دنيوية
فيالها من غلطة تنضح شراً ،
إنه لخير فى رأيى ؛ إذا ما ضرب أهلى ضربتهم ،
أن أواجههم أعزل من السلاح ، وأن أُعَرِّى لهم صدرى ،

فيتلقى منهم الرماح والسهام ، ذلك فى رأيى خير من مبادلتهم ضربة بضربة »(٣٢) .

وهاهنا يأخذ « كرشْنا » – الذى لم تحمله ربوبيته على الحد من نشوته بالمعركة – فى بسط وجهة نظره واثقاً من صحة ما يقول ثقة استمدها من كونه ابن ڤشنو ، وهى أن الكتب المنزلة ، والرأى عند خبرة الراسخين فى العلم ، هو أنه من الخير والعدل أن يقتل الإنسان ذوى قرباه فى حالة الحرب ؛ وأن واجب « أرجونا » هو أن يتبع قواعد طبقته الكشاترية ، وأن يقاتل ويقتل أعداءه بضمير خالص وإرادة طيبة ، لأنه على كل حال لا يقتل إلا الجسد ، وأما الروح فباقية ؛ وهنا تراه يشرح ما جاء فى « سانخيا » عن « پوروشا » التى لا يأتيها العطب ، وما جاء فى « يوپانشاد » عن « أتمان » التى لا تفنى :

« أعلم أن الحياة لا تفنى ، فتظل تبثُّ حياةً فى الكون كله ؛
يستحيل على الحياة فى أى مكان ، وبأية وسيلة ،
أن يصيبها نقص بأى وجه من الوجوه ، ولا أن يصيبها خمود أو تغير
أما هذه الهياكل الجسدية العابرة ، التى تبث فيها الحياة
روحاً لا تموت ولا تنتهى ولا تحدها الحدود –
ففانية ؛ فدعها – أيها الأمير – تَفْنَ ، وامض فى قتالك !
إن من يقول : « انظر ، لقد قتلت إنساناً ! »
وإن من يظن لنفسه : « هاأنذا قد قُتِلْت »
فكلا هذين لا يعلم شيئاً ؛ إن الحياة لا تَقْتُل
وإن الحياة لا تُقْتَل ، إن الروح لم تولد قط ، وان تفنى
إن الزمان لم يشهد لحظة خلت من الروح ، إن النهاية والبداية أحلام ،
إن الروح باقية إلى الأبد بغير مولد وبغير موت وبلا تغير

إن الموت لم يمسسها قط ، وإن خيل لنا أن وعاءها الجسدى قد مات »(٣٣)

ويمضى « كرشنا » فى إرشاد « أرجونا » فى الميتافيزيقا ، مازجاً فى تعليمه كتاب « سانخيا » بكتاب « ڤيدانتا » بحيث يحصل منها على مركب فريد يقبله أنصار مذهب « ڤايشناڤيت » ؛ فهو يقول عن الأشياء كلها » موحداً بين ذاته والكائن الأسمى ، يقول عن الأشياء كلها إنها :

« تتعلق بى

كما تتعلق مجموعة من الخرزات على خيط ؛
أنا من الماء طعمه العذب
وأنا من القمر فضته ومن الشمس ذهبها ؛
أنا موضع العبادة فى الڤيدا ، والهزة التى
تشق أجواز الأثير ، والقوة
التى تكمن فى نطفة الرجل ؛ أنا الرائحة الطيبة الحلوة
التى تعبق من الأرض البليلة ؟ وأنا من النار وهجها الاحمر
وأنا الهواء باعث الحياة ، يتحرك فى كل ما هو متحرك
أنا القدسية فيما هو مقدس من الأرواح ، أنا الجذر
الذى لا يذوى ، والذى انبثق منه كل ما هو كائن ،
أنا حكمة الحكيم ، وذكاء
العليم ، وعظمة العظيم ،
وفخامة الفخيم . . .
إن من بر الأشياء رؤية الحكيم ،
بر أن براهما بما له من كتب وقداسه ،
والبقرة ، والفيل ، والكلب النجس ،

والمنبوذ وهو يلتهم لحم الكلب ، كلها كائن واحد »(٣٤)

هذه قصيدة زاخرة بألوانها المتباينة ومتناقضاتها الميتافيزيقية والخلقية التى تصور أضداد الحياة وتعقيدها؛ وإنه ليأخذنا شىء من الدهشة أن نرى الإنسان متمسكاً بما يبدو لنا موقفاً أسمى من الوجهة الخلقية ، بينما الإله يدافع عن الحرب والقتل ، معتمداً على أساس متهافت وهو أن الحياة غير قابلة للقتل والفردية وهم لا حقيقة فيه ، ولعل ما اراد المؤلف أن يحققه بقصيدته هو أن ينقذ الروح الهندية من الهمود المميت الذى فرضته العقيدة البوذية ، وأن يوقظها لتحارب من أجل الهند ؛ فهى بمثابة ثورة رجل من الكشاترية أحس أن الدين يوهن أمته ، وارتأى فى زهو أن هنالك أشياء كثيرة أنفس من السلام ؛ وقبل كل شىء كانت هذه القصيدة درساً لو حفظته الهند لجاز أن يصون لها حريتها .

وأما ثانية الملاحم الهندية فهى أشهر الأسفار الهندية وأحبها إلى النفوس(٣٥) وهى أقرب إلى أفهام الغربيين من « الماهابهاراتا » ؛ وأعنى بها « رامايانا » ، وهى أقصر من زميلتها الأولى ، إذ لا يزيد طولها على ألف صفحة قوام الصفحة منها ثمانية وأربعون سطراً ؛ وعلى الرغم من أنها كذلك أخذت تزداد بالإضافات من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثانى بعد الميلاد ، فان تلك الإضافات فيها أقل عدداً مما فى زميلتها ، ولا تهوش الموضوع الأصلى كثيراً ، ويعزو الرواة هذه القصيدة إلى رجل يسمى « ڤالميكى » ، وهو كنظيره المؤلف المزعوم للملحمة الأخرى الأكبر منها، يظهر فى الحكاية شخصية من شخصياتها ولكن الأرجح أن القصيدة من إنشاء عدد كبير من المنشدين العابرين ، أمثال أولئك الذين لا يزالون ينشدون هاتين الملحمتين ، وقد يظلون يتابعون إنشادهما تسعين ليلة متعاقبة ، على مستمعين مأخوذين بما فيها من سحر(٣٦) .

وكما أن « الماهابهاراتا » تشبه « الإلياذة » فى كونها قصة حرب عظيمة

أنشبتها الآلهة والناس ، وكان بعض سببها استلاب أمة لامرأة جميلة من أمة أخرى ؛ فكذلك تشبه « رامايانا » « الأوذيسية » وتقصُّ عما لاقاه أحد الأبطال من صعاب وأسفار ، وعن انتظار زوجته صابرة حتى يعود إليها فيلتئم شملهما من جديد(٣٧)، وترى فى فاتحة الملحمة صورة لعصر ذهبى ، كان فيه « دازا — راذا » يحكم مملكته « كوسالا » (وهى ما يسمى الآن أوذ) من عاصمته « أيوذيا » :

مزداناً بما تزدان به الملوك من كرامة وبسالة ، وزاخراً بترانيم الڤيدا المقدسة

أخذ « دازا — راذا » يحكم مُلكه فى أيام الماضى السعيد ..
إذ عاش الشعب التقىُّ مسالما ، كثير المال رفيعَ المقام(٣٨)
لا يأكل الحسدُ قلوبهم ، ولا يعرفون الكذب فيما ينطقون ؛
فالآباء بأسراتهم السعيدة يملكون ما لديهم من ماشية وغلة وذهب
ولم يكن للفقر المدقع والمجاعة فى « أيوذيا » مُقام .

وكان على مقربة من تلك البلاد مملكة أخرى سعيدة ، هى « ڤيدها » التى كان يحكمها الملك «چاناك» ، وقد كان هذا الملك « يسوق المحراث ويحرث الأرض » بنفسه ، فهو فى ذلك شبيه ببطل يسمى « سِنْسِنَاتَس » ؛ وحدث ذات يوم أنه لم يكد يلمس المحراث بيده ، حتى انبثقت من مجرى المحراث فى الأرض ابنة جميلة ، هى « سيتا » ، وما أسرع ما حان حين زواجها ، فعقد « چاناك » مباراة بين خطّابها ، فمن استطاع منهم أن يقوّم اعوجاج قوس « چاناك » الذى يقاتل به ، كانت العروس نصيبه ؛ وجاء إلى المباراة أكبر أبناء « دازا — راذا » وهو « راما » : « صدره كصدر الليث ، وذراعاه قويتان ، وعيناه ذهبيتان ، مهيب كفيل الغابة ، وقد عقد على ناصيته من شعره تاجاً »(٣٩) ولم يستطع أن يلوى القوس إلا « راما » فقدم إليه « چاناك » ابنته بالصيغة المعروفة فى مراسم الزواج فى الهند :

هذه سيتا ابنة جاناك وهى أعز عليه من الحياة
فلتقاسمك منذ الآن فضيلتك ، ولتكن أيها الأمير زوجتك الوفية
هى لك فى كل بلد ، تشاركك عزاً وبؤساً
فأعِزَّها فى سرّائك وضرائك ، واقبض على يدها بيدك
والزوجة الوفية لمولاها كالظل يتبع الجسد
وابنتى سيتا — زين النساء — تابعتك فى الموت والحياة(٤٠)

وهكذا يعود « راما » إلى بلده « أيوذيا » بعروسه الأميرة — : « جبين من عاج ، وشفة من المرجان ، وأسنان تسطع بلمعة اللآلئ » — وقد كسب حُب أهل كوسالا بتقواه ووداعته وسخائه ؛ وما هو إلا أن دخل الشرّ هذه الفردوس حين دخلتْها الزوجة الثانية « لدازا — راذا » وهى « كايكيى » ؛ وقد وعدها « دازا — راذا » أن يجيبها إلى طلبها كائناً مًا كان ؛ فحملتْها الغيرة من الزوجة الأولى التى أنجبت « راما » ولياً للعهد ، أن تطلب من « دازا — راذا » نفى « راما » من المملكة أربعة عشر عاماً ؛ فلم يسع « دازا — راذا » إلا أن يكون عند وعده ، مدفوعاً إلى ذلك بشرف لا يفهم معناه إلا شاعر لم يعرف شيئاً من السياسة ، ونفى ابنه الحبيب ، بقلب كسير ، ويعفو « راما » عن أبيه عفو الكريم ، ويأخذ الأهبة للرحيل إلى الغابة حيث يقيم وحيداً ، لكن « سيتا » تصر على الذهاب معه ، وكلامها فى هذا الموقف تكاد تحفظه عن ظهر قلب كل عروس هندية ، إذ قالت :

« العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب ، كلها عبث فى حياة المرأة
فالزوجة الحبيبة المحبة تؤثر على كل ذلك ظِلَّ زوجها ...
إن « سيتا » ستهيم فى الغابة ، فذلك عندها أسعدُ مقاماً من قصور أبيها
إنها لن تفكر لحظة فى بيتها أو فى أهلها ، ما دامت ناعمة فى حب زوجها . . .

وستجمع الثمار الحوشية من الغابة اليانعة العبقة

فطعام (يذوقه « راما » هو أحب طعام عند « سيتا »)[٤١]

حتى أخوه « لاكشمان » يستأذن فى الرحيل ليصحب « راما » فيقول :

« ستسلك طريقك المظلم وحيداً مع « سيتا » الوديعة ،

هلاّ أذنتَ لأخيك الوفىّ « لاكشمان » بحمايتها ليلا ونهاراً ،

هلاّ أذنت « للاكشمان » بقوسه ورمحه أن يجوب الغابات جميعاً

فيُسقط بفأسه أشجارها ، ويبنى لك الدار بيديه ؟ »[٤٢] .

وعند هذا الموضع تصبح الملحمة نشيداً من أنشاد الغابات ، إذ تقص كيف ارتحل « راما » و« سيتا » و « لاكشمان » إلى الغابات ، وكيف سافر معهم عامر « أيوذيا » جميعاً طوال اليوم الأول ، حزناً عليهم ؛ وكيف يتسلل المنفيّون من أصحابهم الودودين خلسة فى ظلمة الليل ، مخلّفين وراءهم كل نفائسهم وثيابهم الفاخرة ، وارتدوا لحاء الشجر ونسيجاً من كلأ ، وأخذوا يشقون لأنفسهم طريقاً فى أشجار الغابة بسيوفهم ، ويقتاتون بثمار الشجر وبندقها

« وطالما التفتت إلى « راما » حليلتَه ، فى غبطة وتساؤل تزدادان

على مرّ الأيام

تسأل ما اسم هذه الشجرة وهذا الزاحف وتلك الزهرة وهاتيك الثمرة

مما لم تره من قبل . .

والطواويس ترفّ حولهم مرحة ، والقردة تقفز على محنى الغصون .

كان « راما » يثب فى النهر تظلله أشعة الصبح القرمزية

وأما « سيتا » فكانت تسعى إلى النهر فى رفق كما تسعى السوسنة إلى

الجدول »[٤٣]

ويبنون كوخاً إلى جانب النهر ، ويروضون أنفسهم على حب حياتهم فى

الغابة لكن حدث أن كانت أميرة من الجنوب ، هى « سوريا — ناخا » تجوب الغابة فتلتقى « براما » وتغرم به ، وتضيق صدراً بالفضيلة التى يبديها لها ، وتستثير أخاها « راڤان » على المجىء ليختطف « سيتا » ، وينجح أخوها فى خطفها والفرار بها إلى قلعته البعيدة ، ويحاول عبثاً أن يغويها بالضلال ، ولما لم يكن ثمة مستحيل على الآلهة والمؤلفين ، فقد حشد « راما » جيشاً جراراً ، فتح به مملكة « راڤان » وهزمه فى القتال ، وأنقذ « سيتا » وبعدئذ (وكانت أعوام نفيه قد كملت) فر معها قافلا بها إلى بلده « أريوذا . حيث وجد أخاً له آخر وفيًّا ، فتنازل له مسروراً عن عرش كوسالا .

وللملحمة ذيل يرجح أنه أضيف إليها متأخراً ، وفيه يُروى أن « راما » آمن آخر الأمر بأقوال المتشككين الذين لم يصدقوا أن تكون « سيتا » قد أقامت تلك المدة الطويلة كلها فى قصر راڤان بغير أن تقع فى أحضانه آنا بعد آن ؛ وعلى الرغم من أنها اجتازت « محنة النار » لتدل على براءتها ، فقدت بعثه بها إلى غابة بعيدة حيث تقيم فى صومعة هناك ، مزوَّدة بالعوبة الوراثة المرة التى تقضى على كل جيل من الناس أن يورِّث خلفه تلك الخطايا والأغلاط التى ورثها هو من شيوخه فى شبابه ؛ وتلتقى « سيتا » فى الغابة بڤالميكى ، وتلد طفلين « لراما » ؛ وتمضى السنون ، ويصبح الولدان مُنْشِدين جوَّالين ، يغنيان أمام «راما» المتكود الملحمة التى أنشأها عليه « ڤالميكى » مستمداً إياها من ذكريات « سيتا » ، فيدرك أن الولدين ابناه ، ويبعث برسالة إلى « سيتا » يرجوها الرجوع ؛ لكن « سيتا » كانت قد تحطم قلبها بما أثير حولها من رِيَب ، فغاصت فى الأرض التى كانت فى بادئ الأمر أمها ؛ ويظل « راما » يحكم أعواماً طوالا فى وحشة وأسى ، وتبلغ « أريوذا » فى عهده الرحيم عصرها الذهبى من جديد ، ذلك الذى ذاقت طعمه فى عهد « دازا — راذا » :

يروى شيوخ الحكماء إبان عهد راما السعيد

أن رعيته لم تعرف الموت قبل أوانه ولا الأمراض الفاتكة .
ولم تبك الأرامل حزناً على أزواجهن لأن هؤلاء لم يموتوا عن زوجاتهم
قبل اكتمال العمر
ولم تبك الأمهات هلعاً على الرضع ففقدنهن فى نعومة الأظفار
ولم يحاول اللصوص والغشاشون والخادعون المرِحُون بالكذب سرقة
أو غشاً أو خداعاً
وكل جار أحب جاره التقىّ ، وأحب الشعب مولاه
وآتت الأشجار أكلها كاملة كلما حانت فصولها
ولم تتوان الأرض عاماً عن إخراج غلتها فى غبطة المعترف بالجميل
وأمطرت السماء فى أوان المطر ، ولم تعصف قط بالبلاد عاصفة تأتى
على زرعها
فكان كل واد يانعٍ باسمٍ غنياً بمحصوله غنياً بمرعاه
وأخرج المِنْسَجُ السَّندان صناعتهما ، كما أخرجت الأرض الخصيبة
المحروثة نَبْتَتَها
وعاشت الأمة فرحة بعمل أجدادها الأولين(٤٤)

ألا ما أمتعها من قصة ، يستطيع حتى المتشائم فى عصرنا الحديث أن يستمتع بها ، إذ كان من الحكمة بحيث يترك زمام نفسه آنا بعد آن لروعة الخيال ونعمة الغناء ؛ فهذه الأشعار التى ربما كانت أحط قدراً من ملحمتى هومر من الوجهة الأدبية — فى بنائها المنطقى وفخامة اللغة وعمق التصوير والصدق فى وصف الأشياء على حقائقها — تمتاز بدقة الشعور ، وبإعلائها من شأن المرأة والرجل إعلاء مثالياً ، وبتصوير الحياة تصويراً قوياً — وهو تصوير واقعى أحياناً ؛ فلئن كان « راما » و « سيتا » أسمى خلقاً من أن يكونا شخصين حقيقيين ، فغيرهما من الأشخاص مثل « دروپادى » و « يودشترا » و « ذريتا — راشترا » و « جاندارى » يكادون يكونون فى قوة الحياة التى تراها

فى « أخيل » و « هيلانة » و « يوليسيز » و « پنلوپ » ؛ ويستطيع الهندى أن يحتج فى حق قائلا إن الأجنبى لا يمكنه قط أن يحكم على هاتين الملحمتين ، بل لا يمكنه قط أن يفهمهما ؛ فهما للهندىّ ليستا مجرد قصتين بل هما فى رأيه سهو من أسماء الصور ، يشاهد فيه أشخاصاً مثاليين يمكنه أن ينسج فى سلوكه على غزارهم ، هما مستودع تستقر فيه التقاليد ، كما تستقر فلسفة أمته ولاهوتها فيهما — بوجه من الوجوه — كتب مقدسة يقرؤها الهندى على نحو ما يقرأ المسيحى « محاكاة المسيح » أو « تراجم القديسين » ؛ إذ يعتقد الهندى الورع أن « كرشْنا » و « راما » صورتان مجسدتان للألوهية ، ولا يزال يتوجه إليهما بالصلاة ؛ وهو حين يقرأ أخبارهما فى هاتين الملحمتين ، يشعر بأنه يستمد من قراءته سمواً دينياً ، كما يستمد متعة أدبية وارتفاعاً خلقياً ؛ وهو يؤمن أن قراءته لـ « رامايانا » يطهره من أوزاره جميعاً ويجعله ينجب ولداً [٤٥] ، كما أنه يقبل النتيجة المزهوّة التى تنتهى إليها « الماهابهاراتا » قبولَ الإيمان الساذج ، وهى :

« إذا قرأ المرء « الماهابهاراتا » وآمن بتعاليمها ، تطهر من كل خطاياه ، وصعد إلى السماء بعد موته . . . فالبراهمة بالقياس إلى سائر الناس ، والزبد بالقياس إلى سائر ألوان الطعام . . . والمحيط بالقياس إلى بركة الماء ، والبقرة بالقياس إلى سائر ذوات الأربع — كل ذلك يصور « الماهابهاراتا » بالقياس إلى سائر كتب التاريخ ... إن من يصغى فى انتباه إلى أشعار « الماهابهاراتا » المزدوجة الأبيات ويؤمن بما فيها ، يتمتع بحياة طويلة وسمعة طيبة فى هذه الحياة الدنيا ، كما يتمتع فى الآخرة بمقام أبدى فى السماء » [٤٦] .

الفصل الرابع

المسرحية

الأصول – « عربة الطين » – خصائص المسرحية الهندية –
كاليداسا – قصة « شاكنتالا » – تقدير المسرحية الهندية

المسرحية فى الهند قديمة قدم الفيدات ، بوجه من الوجوه ، ذلك لأن بذورها الأولى موجودة فى كتب « يوپانشاد » ولا شك أن للمسرحية بداية اقدم من هذه الكتب المقدسة ، بداية أكثر فاعلية من ذلك – وأعنى بها الاحتفالات والمواكب الدينية التى كانت تقام للقرابين وأعياد الطقوس ؛ وكان للمسرحية مصدر ثالث غير هذين ، وهو الرقص – فلم يكن الرقص مجرد وسيلة لإخراج الطاقة المدخرة ، وأبعد من ذلك عن الحقيقة أن نقول إنه كان بديلا للعملية الجنسية ، لكنه كان شعيرة جدية يُقصد بها أن يحاكى ويوحى بالأعمال والحوادث الحيوية بالنسبة للقبيلة ؛ وربما التمسنا مصدراً رابعاً للمسرحية وهو تلاوة شعر الملاحم تلاوة علنية تدبُّ فيها الحياة ؛ فهذه العوامل كلها تعاونت على تكوين المسرح الهندى ، وطبعته بطابع دينى ظل عالقاً به خلال العصر القديم كله(*) من حيث بناء المسرحية ذاتها ، ومصادر موضوعاتها الفيدية والملحمية ، والمقدمة التى كانت تتلى دائماً قبل البدء فى التمثيل استنزالا للبركة :

وربما كان آخر البواعث التى حفزتهم على إنشاء المسرحية ، هو اتصال الهند باليونان اتصالا جاء نتيجة لغزو الإسكندر ؛ فليس لدينا شاهد يدل على وجود المسرحية قبل « أشوكا » ، كما أنه ليس بين أيدينا إلا دليل مشكوك فى قوته ، على أنها وجدت فى عهده ، واقدم ما يبقى لنا من المسرحيات الهندية

(*) ونعنى به العصر الذى استخدم فيه الأدب اللغة السنسكريتية أداة التعبير .

مخطوطات أوراق النخيل التى كُشف عنها حديثاً فى التركستان الصينية ، وبينها ثلاث مسرحيات ، تذكر إحداها أن اسم مؤلفها هو « أشفاغوشا » العالم اللاهوتى فى بلاط « كانشكا » ؛ لكن القالب الفنى لهذه المسرحية ، والشبه الذى بين شخصية « المضحك » فيها وبين النمط الذى عرفناه لمثل هذه الشخصية فى المسرح الهندى على مرّ العصور ، قد يدلان على أن المسرحية كانت قائمة بالفعل فى الهند قبل مولد « اشفاغوشا »(٤٧) ، وحدث فى سنة ١٩١٠ أن وجدت فى « ترافانكور » ثلاث عشرة مسرحية سنسكريتية ، تُنسب فى شىء من الشك إلى « بهازا » (حوالى سنة ٣٥٠ ميلادية) وهو فى الأدب المسرحى سلفٌ ظفر بكثير من التكريم من « كاليداسا » فى مقدمة روايته « مالافيكا » توضيح جيد لنسبية الزمن والصفات ؛ أثبته (أى كاليداسا) فى تلك المقدمة عن غير وعى منه ، فتراه يسأل : « هل يليق بنا أن نهمل مؤلفات رجال مشهورين مثل « بهازا » و « ساوميلا » و « كافيپوتّرا » ؟ هل يمكن للنظارة أن يحسّوا بأقل احترام لما ينشئه شاعر حديث يسمى كاليداسا ؟ »(٤٨) .

وإلى عهد قريب كانت أقدم مسرحية هندية معروفة للباحثين العلميين هى « عربة الطين » ، وفى النص — الذى ليس تصديقه حتما علينا — ذكرٌ لاسم مؤلفها ، وهو رجل مغمور معروف باسم « الملك شودراكا » يوصف بأنه خبير بكتب الڤيدا وبالرياضة وترويض الفيلة وفن الحب(٤٩) ومهما يكن من أمر فقد كان خبيراً بالمسرح ، ومسرحيته هذه أمتع ما جاءنا من الهند ، ليس فى ذلك سبيل إلى الشك فهى مزيج — يدل على براعة — من الغناء والفكاهة ، وفيها فقرات رائعة لها ما للشعر من حرارة وخصائص .

ولعل خلاصة موجزة لحوادثها أنفع فى توضيح مميزات المسرحية الهندية من مجلد بأسره يكتب فى شرحها والتعليق عليها ؛ ففى الفصل الأول نلتقى بـ « شارو — داتا » الذى كان ذات يوم من الأغنياء ، ثم أفقر لجوده

وسوء حظه ؛ ويلعب صديقه «مايتريا» — وهو برهميّ قدّم — دور المضحك في المسرحية ؛ ويطلب «شارو» من «مايتريا» أن يهب الآلهة قرباناً، لكن البرهميّ يرفض الطلب قائلا : «ما غناء القربان للآلهة التي عبدتها ما دمت لم تصنع لك شيئاً ؟» وفجأة دخلت امرأة هندية شابة ، من أسرة رفيعة ولها ثراء عريض، دخلت مندفعة في فناء دار «شارو» تلتمس فيه ملاذاً من رجل يتعقبها وإذا بهذا المتعقب أخو الملك ، واسمه «سامزثاناكا» وهو شرّير إلى درجة بلغت غاية لم تدع فيه أدنى مجال للخير ، حتى ليتعذر على الإنسان أن يصدق وجود مثل هذا الشر الخالص ، على نحو ما كان «شارو» خيراً خالصاً لا سبيل إلى دخول الشر في نفسه ؛ فيحمي «شارو» الفتاة اللائذة بداره ، ويطرد «سامزثاناكا» الذي يتوعده بالانتقام ، فيزدري منه هذا الوعيد وتطلب الفتاة — واسمها «فاسانتا — سينا» — من «شارو» أن يحفظ لها وعاء فيه جواهر كريمة تحت حراسته الآمنة ، خشية أن يسرقه منها الأعداء ، وخشية ألا تجد عذراً تتذرع به للعودة إلى زيادة منقذها ؛ فيجيبها إلى ما طلبت ، ويحفظ لها الوعاء ، ويحرسها حتى يبلغ بها إلى دارها الفخمة .

ويأتي الفصل الثاني بمثابة فاصل هزلي ؛ فهذا مقامر هارب من مقامرين آخرين ، يلوذ بأحد المعابد ، فلما دخل هذان ، تخلص منهما بأن وقف وقفة التمثال كأنه وثن الضريح ، ويقرصه المتعقبان ليريا إن كان حقيقة وثناً من الحجر ، فلا يتحرك ؛ فيتخليان عن البحث ، ويتسليان بلعبة يلعبانها بالزهر (زهر القمار) بجوار المذبح ؛ ويبلغ اللعب من إثارته للنفس مبلغاً تعذر معه على التمثال أن يضبط زمام نفسه ، فوثب من على قاعدته ، واستأذن ليشترك في اللعب ؛ ويهزمه اللاعبان الآخران ، فيجد في ساقيه السريعتين وسيلة للفرار مرة أخرى ، وتنجيه «فاسانتا — سينا» التي عرفت رجلا كان فيما مضى خادماً عند «شارو — داتا» .

ونرى في الفصل الثالث «شارو» و «مايتريا» عائدين من حفلة موسيقية

ويسطو على الدار لص فيسرق وعاء الجواهر الكريمة ، فلما كشف « شارو » عن السرقة ، أحسّ بالعار ، وبعث إلى « ڤاسانتا — سينا » آخر ما يملكه من عقود اللؤلؤ ، عوضاً لها .

ونرى فى الفصل الرابع « شارڤيلاكا » يقدم الوعاء المسروق إلى خادمة « ڤاسانتا — سينا » ابتغاء حُبِّها ؛ فلما عرفت أنه وعاء سيدتها ، ازدرت « شارڤيلاكا » لأنه لص ، فيجيبها فى مرارة نعرفها فى شوپنهاور ، قائلا :

إن المرأة — إذا ما بذلتَ لها المال — ابتسمتْ أو بكتْ
ما أردتَ لها الابتسام أو البكاء ؛ إنها تحمل الرجل
على الثقة فيها ، لكنها هى لا تثق فيه ،
إن النساء متقلبات الأهواء كموج
المحيط ؛ إن حبهن مقبلات هَروب
كأنه شعاع من ضوء الشمس الغاربة فوق السحاب ،
إنهن يرتمين بميل شديد على الرجل
الذى يعطيهن مالا ، وما زلن يعتصرون ماله
اعتصارهن لعصارة النبات الملىء ، ثم ينبذونه نبذا

لكن الخادمة تدحض كلامه هذا بعفوها عنه كما تدحضه « ڤاسانتا — سينا » بالإذن لها بالزواج .

وفى فاتحة الفصل الخامس تأتى « ڤاسانتا — سينا » إلى بيت « شارو » لكى تعيد له جواهره ، وتعيد كذلك وعاءها ؛ وبينما هى هناك ، عصفت عاصفة تصفها بالسنسكريتية وصفاً رائعاً (*) ، وتتفضّل عليها العاصفة بالزيادة من ثورة غضبها ، إذ اضطرتها بذلك — اضطراراً وجاء وفق ما تشاء وتهوى — أن تبيت ليلتها تحت سقف شارو :

(*) هذه حالة شاذة ، لأن العادة فى المسرحيات الهندية أن تتكلم النساء باللغة البراكريتية ، على أساس أنه لا يليق بسيدة أن تلمّ بلغة ميتة .

ونرى فى الفصل السادس « ڤاسانتا » وهى تغادر بيت « شارو » فى الصباح التالى ، وبدل أن تدخل العربة التى أعدها لها ، أخطأت فدخلت عربة يملكها « سامز ثاناكا » الشرير ؛ وفى الفصل السابع حبكة فرعية ليست بذات أثر كبير على موضوع المسرحية ؛ ونرى « ڤاسانتا » فى الفصل الثامن ملقاة — لا فى قصرها كما توقعت — بل فى بيت عدوها ، بل توشك أن تكون فى أحضان ذلك العدو ؛ فلما عاودته بازدراء حبه إياها ، خنقها ودفنها ، ثم ذهب إلى المحكمة واتهم شارو بقتل « ڤاسانتا » بغية الحصول على أحجارها الكريمة .

وفى الفصل التاسع وصف للمحاكمة ، حيث يخون « مايتريا » سيده خيانة غير مقصودة ، وذلك بأن أسقط من جيبه جواهر « ڤاسانتا » ، فحكم على « شارو » بالموت ؛ ونراه فى الفصل العاشر فى طريقه إلى حيث ينفذ فيه الإعدام ، ويلتمس ابنه من الجلادين أن يضعوه مكان أبيه ، لكنهم يرفضون ؛ ثم تظهر « ڤاسانتا » فى اللحظة الأخيرة ، فقد شاهد « شارڤيلاكا » « سامز ثاناكا » وهو يدفنها ، فأسرع إلى إخراج جسدها قبل فوات الأوان ، أعادها إلى الحياة ؛ وانقلب الوضع ، فقد أنقذت « ڤاسانتا » « شارو » من الموت ، واتّهم « شارڤيلاكا » أخا الملك بتهمة القتل ، لكن « شارو » أبى أن يؤيد الاتهام ، فأطلق سراح « سامز ثاناكا » وعاش الجميع عيشاً سعيداً(٥٠) .

لما كان الوقت فى الشرق ، حيث يكاد العمل كله يتمّ أداؤه بأيد بشرية ، أوسع منه فى الغرب ، حيث وسائل توفير الوقت كثيرة جداً كانت المسرحيات الهندية ضِعْفَ المسرحيات الأوروبية فى عصرنا هذا ؛ فيتراوح عدد الفصول من خمسة إلى عشرة ، وكل فصل منها ينقسم فى غير إزعاج للنظارة إلى مناظر بحيث يكون أساس الانقسام خروج شخصية ودخول أخرى ، وليس فى المسرحية الهندية وحدة للمكان ووحدة للزمان ، وليس فيها ما يجد سرحات الخيال ، والمناظر على المسرح قليلة ، لكن الثياب زاهية الألوان ، وأحيانا

يدخلون على المسرح حيوانات حية فتزيد من حركة المسرحية نشاطاً(٥١) وتبث روحاً فيما هو صناعي بما هو طبيعي فترة من الزمن ، ويبدأ التمثيل بمقدمة يناقش فيها أحد الممثلين أو مدير المسرح موضوع الرواية ، والظاهر أن « جيته » أخذ عن « كاليداسا » فكرة المقدمة لرواية « فاوست » ، ثم تختم المقدمة بتقديم أول شخصية من الممثلين ، فيأتي هذا ويخوض في قلب الموضوع والمصادفات لا عدد لها ، وكثيراً ما ترسم العوامل الخارقة للطبيعة خط السير للحوادث ؛ ولا تخلو مسرحية من قصة غرامية ؛ كما لابد لها من « مضحك » ؛ وليس في الأدب المسرحي الهندي مأساة ، إذ لا مندوحة لهم عن اختتام الحوادث بخاتمة سعيدة ؛ وحتم في المسرحية أن ينتصر الحب الوفي دائماً ، وأن تكافأ الفضيلة دائماً ، وأقل ما يدعوهم إلى فعل ذلك أن يجيء بمثابة الموازنة مع الواقع ؛ وتخلو المسرحية الهندية من المناقشات الفلسفية التي كثيراً جداً ما تعترض مجرى الشعر الهندي ، فالمسرحية مثل الحياة ، لابد أن تعلّم بالفعل وحده ، وألا تلجأ أبداً في ذلك إلى مجرد الكلام(*) ، ويتعاقب في سياق المسرحية الشعر الغنائي والنثر ، حسب جلال الموضوع والشخصية والعمل ؛ والسنسكريتية هي لغة الحديث لأفراد الطبقات العالية في الرواية ، والبراكريتية هي لغة النساء والطبقات الدنيا ؛ والفقرات الوصفية في تلك المسرحيات بارعة ، وأما تصوير الشخصيات فضعيف ؛ والممثلون — وفيهم نساء — يجيدون أداء التمثيل ، فلا هم يتسرعون كما هي الحال في الغرب ، ولا هم يسرفون في البطء كما يفعل أهل الشرق الأقصى ؛ وتنتهي الرواية بخاتمة يُتوجّه فيها بالدعاء إلى الإله المحبب عند المؤلف أو عند أهل الإقليم المحلي ، ليهيء أسباب السعادة للبلاد .

(*) يقول الناقد المسرحي الهندي العظيم «دانانجايا» (حوالي ١٠٠٠ ميلادية) وتحيتنا إلى الرجل الساذج ذي الذكاء المحدود الذي يقول إن المسرحيات — التي تبعث الغبطة في النفوس — فائدتها الوحيدة هي اكتساب المعرفة ؛ لأنه بهذا القول قد أشاح بوجهه عما يبعث البهجة في النفس »(٥٢).

وأشهر المسرحيات الهندية هي « شاكونتالا » لـ « كاليداسا » لم يزاحمها في ذلك مزاحم منذ ترجمها « سروليم جونز » وامتدحها « جيته » ؛ ومع ذلك فكل ما نعرفه لكاليداسا ثلاث مسرحيات ، مضافاً إليها الأساطير التي أدارتها حول اسمه ذاكرات المعجبين ، والظاهر أن قد كان أحد « الجواهر التسع » - من الشعراء والفنانين والفلاسفة - الذين قربهم الملك « فكراماديتيا » إليه (٣٨٠ - ٤١٣ ميلادية) في عاصمة چوپتا ، وهي « يوچين » .

تقع « شاكونتالا » في سبعة فصول ، بعضها نثر ، وبعضها شعر ينبض بالحياة ، فبعد مقدمة يدعو فيها مدير المسرح النظارة أن يتأملوا روائع الطبيعة ، تبدأ الرواية بمنظر طريق في غابة ، حيث يقيم راهب مع ابنة تبناها ، تسمى « شاكونتالا » وما هو إلا أن يضطرب سكون المكان بصوت عربة حربية ، يخرج منها راكبها وهو الملك « دشيانتا » فيُغرمُ « بشاكونتالا » في سرعة نعهدها في خيال الأدباء ، ويتزوج منها في الفصل الأول ، لكنه يُستدعى فجأة للعودة إلى عاصمته ؛ فيتركها واعداً إياها أن يعود إليها في أقرب فرصة ممكنة كما هو مألوف في مثل هذا الموقف ؛ وينبيء رجل زاهد فتاتنا الحزينة بأن الملك سيظل يذكرها ما دامت محتفظة بالخاتم الذي أعطاه لها ، لكنها تفقد الخاتم وهي تستحم ؛ ولما كانت على وشك أن تكون أماً ، فقد ارتحلت إلى قصر الملك ، لتعلم هناك أن الملك قد نسيها على غرار ما هو معهود في الرجال الذين نسخو معهم النساء ، وتحاول أن تذكّره بنفسها .

- شاكونتالا : ألا تذكر في عريشة الياسمين
ذات يوم حين صَبَبْتُ ماء المطر
الذي تجمع في كأس زهرة اللوتس
في تجويفة راحتك ؟
- الملك : امضي في قصتك إني أسمع .

— شاكونتالا : وعندئذ فى تلك اللحظة عينها ، جاء نحونا يعدو
طفلى الذى تَبَنَّيْتَهُ ، أعنى الغزال الصغير ، جاء بعينيه الطويلتين
الناعستين ؛ فقبل أن تطفئ ظمأك .
مددت يدك بالماء لذلك المخلوق الصغير ، قائلا
« اشرب أنت أولا أيها الغزال الوديع »
لكن الغزال لم يشرب من أيد لم يألفها
وأسرعتُ أنا فمددت إليه ماء فى راحتى فشرب
فى ثقة لا يشوبها فزع ، فقلت أنت مبتسما :
« إن كل مخلوق يثق فى بنى جنسه
كلا كما وليد غابة حوشية واحدة
وكلا كما يثق فى زميله ، يعرف أين يجد أمانه »
— الملك : ما أحلاك وما ألطفك وما أكذبك ! أمثال هؤلاء النساء
يخدعن الحمقى . . .
إنك لتلحظ دهاء الإناث
فى شتى أنواع المخلوقات ، لكنها فى النساء أكثر منها فى غيرهن
إن أنثى الوقوق تترك بيضها للأقدام تفقسها لها
وتطير هى آمنة ظافرة(٥٢)

هكذا لقيت « شاكونتالا » الهون ، وتحطم رجاؤها ، فرفعتها معجزة إلى أجواز الفضاء حيث طارت إلى غابة أخرى فولدت هناك طفلها ، وهو « بهاراتا » العظيم الذى كُتِب على أبنائه من بعده أن يخوضوا معارك « الماهابهاراتا » وفى ذلك الحين ، وجد سَمَّاك خاتمها المفقود ، ورأى عليه اسم الملك ، فأحضره إلى « دشيانتا » (الملك) ، وعندئذ عادت إليه ذاكرته « بشاكونتالا » ، وأخذ يبحث عنها فى كل مكان ، وطار بطائرة فوق قمم الهملايا ، وهبط بتوفيق من

السماء عجيب على الصومعة التى كانت « شاكونتالا » تلوى فى جوفها ، ورأى الصبى « بهاراتا » يلعب أمام الكوخ ، فحسد والديه قائلا :

« آه ، ما أسعده من أب وما أسعدها من أم
يحملان وليدهما ، فيصيبهما القذر
من جسده المعفر ، إنه يكن آمناً مطمئنا
فى حجرهما ، وهو الملاذ الذى يرنو إليه —
إن براعم أسنانه البيضاء تتبدى صغيرة
حين يفتح فمه باسماً لغير ما سبب ؛
وهو يلغو بأصوات حلوة لم تتشكل بعد كلاماً . . .
لكنها تذيب الفؤاد أكثر مما تذيبه الألفاظ كائنة ما كانت »(٥٤)

وتخرج « شاكونتالا » من كوخها ، فليتمس الملك عفوها ، وتعفو عنه ، فيتخذها ملكة له ، وتنتهى المسرحية بدعاء غريب لكنه يمثل النمط الهندى المألوف :

« الا فليعش الملوك لسعادة رعاياهم دون سواها ،
اللهم أكرم « سارسفاتى » المقدسة — منبع
الكلام والاهة الفن المسرحى ،
أكرمها دوماً بما هو عظيم وحكيم !
اللهم يا إلهنا الأرجوانى الموجود بذاتك
يا من يملأ المكان كله بنشاط حيويته ،
أنقذ روحى من عودة مقبلة إلى جسد ! »(٥٥)

لم تتدهور المسرحية بعد « كاليداسا » لكنها لم تستطع بعدئذ أن تنتج رواية فى قوة « شاكونتالا » أو « عربة الطين » ؛ فقد كتب الملك « هارشا » ثلاث مسرحيات شغلت المسرح قروناً — ذلك لو أخذنا رواية تقليدية ربما

أوحى بها فى أول أمرها إيحاء ؛ وبعده بمائة عام ، كتب « بهافابهوتى » — وهو برهمىٌّ من برار — ثلاث مسرحيات غرامية ، لا يفوقها جودة إلا مسرحيات « كاليداسا » فى تاريخ المسرح الهندى ؛ وكان أسلوبه — رغم ذلك — مزخرفاً غامضاً ، فكان لزاماً عليه أن يقنع بنظارة محدودة العدد ، وبالطبع قد ادعى أن تلك النظارة القليلة ترضيه ؛ وقد كتب يقول :

« ألا ما أقل ما يدريه أولئك الذين يقرعوننا باللوم ؛ إن مسرحياتى لم تكتب لتسليتهم ، فليس بعيداً أن يكون بين الناس شخص ، أو ربما يوجد شخص فى مقبل الأيام ، له ذوق شبيه بذوقى ، لأن الزمان مديد والعالم فسيح الأرجاء »(٥٦)

يستحيل علينا أن نضع الأدب المسرحى فى الهند ، فى منزلة واحدة مع مثيله فى اليونان أو فى إنجلترا أيام اليصابات ؛ لكنه يقارن مع المسرح فى الصين أو اليابان فيكون له التفوق ؛ كلا ولا يجوز لنا أن نبحث فى أدب الهند عما يطبع المسرح الحديث من ألوان الفن الدقيق ، فهذه الألوان عرض من أعراض الزمن ، أكثر منها حقيقة أبدية ، وربما زالت ، بل ربما تحولت إلى ضدها ؛ إن الكائنات الخوارق للطبيعة ، فى المسرحية الهندية غريبة على أذواقنا ، مثل « القدر » فى أدب « يوربيديز » المتنور ؛ لكن هذا الجانب أيضاً عرض من أعراض التاريخ ؛ أما أوجه الضعف فى المسرحية الهندية (إذا جاز لأجنبى أن يذكرها فى تردد) فهى التكلف فى الصيغة اللفظية التى يشوهها تكرار الحرف الواحـــد ليمثل الصوت المعبَّر عنه وتفسدها الألاعيب اللفظية ، وتصوير الأشخاص بلون واحد للشخص الواحد ، فإما أن يكون الشخص خيراً صرفاً ، أو أن يكون شراً صرفاً ، وحبكةُ الحوادث حبكةً لا يقبلها العقل ، مستندة إلى مصادفات لا يمكن تصديقها ؛ وإسرافٌ فى الوصف وفى النقاش حول الفعل الذى يكاد يكون بحكم التعريف الوسيلة الفريدة التى تتميز بها المسرحية فى نقل ما تريد أن تنقله ؛ وأما حسنات للمسرحية الهندية فما فيها من خيال

بديع ، وعاطفة رقيقة ، وشعر مرهف ، ونداء عاطفى لما فى الطبيعة من ألوان الجمال والفزع ، إنه لاسبيل إلى النزاع حول صور الفن القومية ، ذلك لأننا لا نستطيع أن نحكم عليها إلا من وجهة نظرنا بما لها من لون خاص ، ثم لانستطيع أن نراها غالباً إلا خلال منظار الترجمة ؛ ويكفينا أن نقول إن « جيته » وهو أقدر الأوربيين على التسامى فوق حدود الإقليم وحواجز القومية ، قد عَدّ قراءة « شاكونتالا » بين ما صادفه فى حياته من عميق التجارب ، وكتب عنها معترفاً بفضلها :

« أتريدنى أن أجمع لك فى اسم واحد زهرات العالم وهو فى ربيعه ناشىء ،
وثماره وهو فى خريفه ينحدر إلى فناء

وأن أجمع كل ما عساه أن يسحر الروح ويهزها ويغذوها ويطعمها
بل أن أجمع الأرض والسماء نفسيهما فى اسم واحد ؟

إذن لذكرت اسمك يا « شاكونتالا » وبذكره أذكر كل شىء دفعة واحدة »(٥٧) .

الفصل الخامس

النثر والشعر

اتجاههما فى الهند – الحكايات الخرافية – التاريخ – الحكايات – صغار الشعراء – نهضة الأدب باللغة الدارجة فى الحديث – شاندى داس – تولسى داس – شعراء الجنوب – كابر

النثر ظاهرة مستحدثة فى الأدب الهندى إلى حد كبير ، ويمكن اعتباره ضرباً من الفساد جاءه من الخارج بفعل الاتصال مع الأوروبيين ؛ فروح الهندى الشاعرة بطبعها ترى أنه لا بد لكل شىء جدير بالكتابة عنه أن يكون شعرىَّ المضمون ، يستثير فى الكاتب رغبة فى أن يخلع عليه صورة شعرية ؛ فما دام الهندى قد أحسَّ بأن الأدب تنبغى قراءته بصوت مرتفع ، وأدرك أن نتاجه الأدبى سينتشر فى الناس ويدوم بقاؤه – ذلك إن انتشر ودام – بالرواية الشفوية لا بالكتابة فقد آثر أن يصبَّ إنشاءه فى قالب موزون أو مضغوط فى صورة الحكمة ، بحيث تسهل تلاوته ويسهل حفظه فى الذاكرة ؛ ولهذا كان أدب الهند كله تقريباً أدباً منظوماً ؛ فالبحوث العلمية والطبية والقانونية والفنية أغلبها مكتوب بالوزن أو بالقافية أو بكليهما ، حتى قواعد النحو ومعانى القاموس قد صيغت فى قالب الشعر ، والحكايات الخرافية والتاريخ ، وهما فى الغرب يكتفيان بالنثر ، تراهما فى الهند قد اتخذا قالبا شعرياً مُنَغَّماً .

الأدب الهندى خصيب بالحكايات الخرافية بصفة خاصة ؛ والأرجح أن تكون الهند مصدراً لمعظم الحكايات الخرافية التى عبرت الحدود بين أقطار العالم كأنها عملة دولية(*) فالبوذية لقيت أوسع انتشارها لها حين كانت أساطير

(*) يقول « سير وليم چونز » إن الهنود ينسبون لأنفسهم ثلاثة ابتكارات : الشطرنج ، والنظام العشرى ، والتعليم بالحكايات الخرافية .

« جاتاكا » عن مولد بوذا ونشأته شائعة فى الناس ؛ وأشهر كتاب فى الهند هو المعروف باسم « پان كاتانترا » أى « العنوانات الخمسة » (حوالى ٥٠٠ ميلادية) وهو مصدر كثير من الحكايات الخرافية التى أمتعت أوروبا كما أمتعت آسيا ؛ وكتاب « هيتوپاديشا » أو « النصيحة الطيبة » فيه مختارات ومقتبسات من الحكايات الموجودة فى « پان كاتانترا » ، والعجيب أن كلا الكتابين ينزلان عند الهنود — إذا ما صنفوا كتبهم — فى قسم « نيتى شاسترا » ومعناها إرشادات فى السياسة والأخلاق ، فكل حكاية تروى لكى تبرز عبرة خلقية ، ومبدأ من مبادئ السلوك أو الحُكْم ، وفى معظم الحالات يقال فى هذه القصص إنها من إنشاء برهمى ابتكرها ليعلّم بها أبناء ملك من الملوك ، وكثيراً ما تستخدم هذه الحكاياتُ أحطَّ الحيوانات للتعبير عن ألطف معانى الفلسفة ؛ فحكاية القرد الذى حاول أن يدفئ نفسه ببراعة (وهى حشرة تضيء بالليل) وقتل الطائر الذى بصَّرَه بخطئه فى ذلك ، تصويرٌ بديع دقيق لما يصيب العالِم الذى يتصدى لإرشاد الناس إلى مواضع الخطأ فى عقائدهم(*) .

ولم تنجح كتابة التاريخ هناك فى أن ترتفع عن مستوى سرد الحقائق عارية ، أو مستوى الخيال المزخرف ، ويجوز أن يكون الهنود قد أهملوا العناية بكتابة التاريخ بحيث ينافسون بها هيرودوت ، أو ثيوسيديد ، أو فلوطرخس ، أو تاسِتَس أو جِبُن ، أو ڤولتير ، إما لازدرائهم لحوادث المكان والزمان المتغيرة (وهو ما يسمونه مايا) وإما لإيثارهم النقل بالرواية الشفوية على المدوّنات المكتوبة ، فالتفصيلات الخاصة بتحديد الزمان أو المكان قليلة

(*) هنالك حرب حامية ناشبة فى ميدان البحث العلمى فى شئون الشرق ، فيما إذا كانت هذه الحكايات الخرافية قد جاءت إلى أوروبا من الهند ، أو العكس ؛ وإنا نترك هذا النزاع إلى أصحاب الفراغ ، ولعلها انتقلت إلى الهند وأوروبا كليهما من مصر عن طريق بلاد ما بين النهرين (العراق) وإقريطش (كريت) ؛ وعلى كل حال فتأثير كتاب « بان كاتانترا » على « ألف ليلة وليلة » لا ينازعه منازع(٥٨)

جداً فى وثائقهم ، حتى فى حالة الكتابة عن رجالهم المشهورين ، لدرجة أن علماء الهنود قد تفاوتوا فى تحديد تاريخ أعظم شعرائهم «كاليداسا» تفاوتاً تراوح بين فترة طولها ألف عام(٥٩) ؛ إن الهنود يعيشون – وما زالوا كذلك إلى يومنا هذا – فى عالم لا يكاد يتغير فيه شىء من عادات وأخلاق وعقائد ، حتى ليوشك الهندىّ ألا يفكر قط فى تقدم ، ويستحيل عليه أن يعنى بالآثار القديمة ؛ فقد كانت تكفيه الملاحم تاريخاً صحيح الرواية ، كما تكفيه الأساطير فى تراجم الأسلاف ؛ فلما كتب «أشفاغوشا» كتابه عن حياة بوذا (بوذا – شارِتا) كان أقرب إلى الأساطير منه إلى التاريخ ، وكذلك لما كتب «بانا» بعد ذلك بخمسمائة عام كتابه عن حياة «هارشا» (هارشا – شارِتا) كان أقرب إلى رسم صورة مثالية للملك العظيم منه إلى تقديم صورة يعتمد على صدقها؛ وتواريخ «راجپوتانا» القومية ليست فيما يظهر إلا تمرينات فى الوطنية ، والظاهر أنه لم يكن بين الهنود إلا كاتب واحد هو الذى أدرك عمل المؤرخ بمعناه الصحيح ؛ وهو «كالهانا» مؤلف كتاب «راجات آرانجينى» ومعناه «تيار الملوك» ، ولقد عبر عن نفسه بقوله : «ليس جديراً بالاحترام إلا الشاعر الشريف العقل الذى يجعل الكلمة منه كحكم القاضى – خالية من الحب والكراهية فى تسجيل الماضى» ويسميه «ونْتَرنِتْز» : «المؤرخ العظيم الوحيد الذى أنتجته الهند»(٦٠) .

أما المسلمون فقد كانوا أدق شعوراً بكتابة التاريخ ، وخلّفوا لنا مدوّنات نثرية تدعو إلى الإعجاب لما صنعوه فى الهند ، وقد أسلفنا ذكر «البيرونى» ودراسته البشرية وذكْر «مذكرات» «بابور» ، وكان يعاصر «أكبر» مؤرخ ممتاز هو «محمد قاسم فِرِشْتا» وكتابه «تاريخ الهند» هو أصح دليل تستدل به على حوادث الفترة الإسلامية ؛ وأقل منه حياداً «أبو الفضل» كبير وزراء «أكبر» أو الرجل الذى كان يؤدى كل شئون السياسة فى البلاد ؛ وقد خلّف

لأجيال المستقبل وصفاً لأساليب مولاه فى إدارة البلاد ، وذلك فى كتابه « عين أكبر » أو « مؤسسات أكبر الاجتماعية » وروى لنا حياة مولاه رواية تدل على حبه له حبا تغفره له ، وأطلق على كتابه هذا اسم « أكبر ناما » وقد ردّ له الإمبراطور حبّه هذا حباً مثله ، ولما جاءت الأخبار بأن « جهان كير » قد قتل الوزير ، أخذ « أكبرَ » حزنٌ عميق وصاح قائلا :

« إذا أراد سالم (جهان كير) أن يكون حاكماً ، فقد كان يجوز له أن يقتلنى ويُبقى على أبى الفضل »(٦١) .

وبين الحكايات الخرافية والتاريخ تقع مجموعة كبيرة فى منتصف الطريق من حكايات شعرية جمعها ناظمون دءوبون ، وأرادوا بها أن تكون متاعاً للروح الهندية المحبة للخيال ؛ ففى القرن الأول الميلادى ، نظم ناظم يدعى « جناذيا » مائة ألف زوج من الشعر أطلق عليها « برهاتكاذا » أى « مسرح الخيال العظيم » ثم أنشأ « سوماديفا » بعد ذلك بألف عام « كاذا سارتزا جارا » أى « المحيط الجامع لأنهار القصص » ، وهى قصيدة تتدفق حتى يبلغ طولها ٢١,٥٠٠ زوج من الشعر ؛ وفى هذا القرن الحادى عشر نفسه ظهر قصّاص بارع مجهول الاسم ، وابتكر هيكلا يبنى على أعواده قصيدته « فتالا پانكا فنكاتيكا » ومعناها « القصص الخمس والعشرون عن الخفاش الجارح » ، وذلك بأن صور الملك « فكرا مادتيا » يتلقى كل عام ثمرة من أحد الزاهدين فى جوفها حجر نفيس ، ويسأل الملك كيف يمكنه أن يعبّر عن عرفانه بالجميل فيُطلب إليه أن يحضر « لليوجىّ » (الزاهد) جثة رجل يتدلى من المشنقة ، مع إنذاره بألا يتكلم إذا ما توجهت إليه الجثة بالخطاب ؛ لكن الجثة كان يسكنها خفاشٌ جارح أخذ يقص على الملك قصة ذهبت بلبّ الملك فلم يشعر بنفسه وهو يتعثر فى طريقه . وفى نهاية القصة توجه الخفاش بسؤال ، فأجابه الملك ناسياً ما أنذربه من التزام الصمت ؛ وحاول الملك خمساً وعشرين مرة أن يحضر الجثة للزاهد مع التزامه

الصمت إزاء ما يصدر له منها من حديث ، ومن هذه المرات أربع وعشرون مرة كان الملك فيها مأخوذاً بالقصة التي يرويها له الخفاش الجارح حتى ليسهو ويجيب عن السؤال الذى يوجَّه إليه فى الختام(٦٢) ؛ فيالها من مشنقة بارعة أنزل منها الكاتب أكثر من عشرين قصة .

لكنا فى الوقت نفسه لا نقول إن الهند قد عَدِمتْ الشعراء الذين يقرضون الشعر بمعنى الكلمة كما نفهمه نحن ؛ فأبو الفضل يصف لنا « آلاف الشعراء » فى بلاط « أكبر » ؛ وكان منهم مئات فى صغرى العواصم ، ولا شك أن كل بيت كان يحتوى منهم على عشرات(*) . ومن أقدم الشعراء وأعظمهم « بهارتر بهارى » وهو راهب ونحوىّ وعاشق ، غذّى نفسه بألوان الغزل قبل أن يرتمى فى أحضان الدين ، ولقد خلّف لنا مُدَوَّناً بها من كتابه المسمى « قرن من الحب » — وهو سلسلة من مائة قصيدة تتتابع على نحو ما تتتابع القصائد عند « هينى » ، ومما كتبه لإحدى معشوقاته : « ظنَنَّا معاً قبل اليوم أنك كنتِ إياى ، وكنتُ أنا إياكِ ؛ فكيف حدث الآن أن أصبحتِ أنتِ هو أنتِ ، وأنا هو أنا ؟ » ؛ ولم يكن يأبه لرجال النقد قائلا لهم : « إنه من العسير أن تُقْنِع خبيراً ، لكن « الخالق نفسه » لا يستطيع أن يُرى رجلا ليس له من المعرفة إلا نزر يسير »(٦٣) ؛ وفى كتاب « جيتا — جوفندا » لصاحبه « چاياديڤا » ، — وعنوان الكتاب معناه « أنشودة قطيع البقر المقدس » — يتحول غَزَل الهندىّ إلى دين ، ويصْبغ ذلك الغزل بصبغته الحب الجسدىّ

(*) فى ذلك الحين اتجه الشعر إلى أن يكون أقل موضوعية منه فى أيام الملاحم ، وازداد إقبالا على المزاوجة فى نسيجه بين الدين والحب ؛ والوزن الذى كان مطلقاً فى الملاحم ، يختلف فى طول البيت الواحد ، ولا يتطلب اطراداً فى المقاطع الأربعة أو الخمسة الأخيرة من البيت ، قد أصبح الآن أدق التزاماً للقاعدة أو أكثر تنوعاً فى آن واحد ؛ ودخلت آلاف القواعد المعقدة فى العروض ، التى تختفى فى الترجمة : وكثرت أساليب الصناعة فى صياغة العبارة وفى ألفاظها ، وظهرت القافية ، لا فى نهاية البيت فحسب ، بل كثيراً ما التزموها فى أواسط الأبيات كذلك ؛ وسنت قواعد صارمة لفن الشعر وازدادت الصورة دقة كلما هزل المعنى .

لـ « راذا » و « كرشْنا » وهى قصيدة مليئة بالعاطفة الحية الجسدية ، لكن الهند تؤوِّلها تأويلا مدفوعة فيه بالشعور الدينى : إذ تفسرها بأنها قصيدة صوفية رمزية تعبر عن عشق الروح لله — وهو تأويل يفهمه أولئك القديسون الذين لا يهتزون للعواطف البشرية ، والذين أنشأوا من عندهم مثل هـذه العنوانات التقية لـ « نشيد الأنشاد » .

وفى القرن الحادى عشر تسللت لهجات الحديث حتى احتلَّتْ مكانها بدل اللغة الميتة ، لتكون أداة التعبير الأدبى ، كما فعلت فى أوروبا بعد ذلك بقرن ؛ وأول شاعر عظيم استخدم اللغة الحية التى يتحدث بها الناس فى نظمه هو « شاند بارْداى » الذى نظم باللغة الهندية (الجارية فى الحديث) قصيدة تاريخية طويلة تتألف من ستين جزءاً ، ولم يمنعه من متابعة عمله هذا إلا نداء الموت ، ونظم « سورداس » شاعر « أجرا » الضرير ، ٦٠٫٠٠٠ بيت من الشعر فى حياة « كرشْنا » ومغامراته ، ولقد قيل إن هذا الإله نفسه قد عاونه على نظمها ؛ بل أصبح له كاتباً يكتب ما يمليه عليه الشاعر ، لكنه كان أسرع فى كتابته من الشاعر فى إملائه(٦٤) ، وفى ذلك الوقت عينه كان « شاندى داس » — وهو كاهن فقير — يهز البنغال هزاً بما ينشد لها من أغان شبيهة بما أنشده دانتى : يخاطب بها معشوقة ريفيـــة على نحو ما خاطب دانتى فتاته « بياترِسْ » ، يصورها تصويراً مثالياً بعاطفة خيالية ، ويعلو بها حتى يجعلها رمزاً للألوهية . ويجعل حبه تمثيلا لرغبته فى الاندماج فى الله ؛ وهو فى الوقت نفسه كان الشاعر الذى شق الطريق لأول مرة للغة البنغالية فكانت بعدئذ أداة التعبير الأدبى « لقد لذت بمأمن عند قدميك يا حبيبتى ، وإذا لم أرك ، ظل عقلى فى قلق ... وليس فى وسعى نسيان رشاقتك وفتنتك — ومع ذلك ليس فى نفسى شهوة إليك » ؛ ولقد حكم عليه زملاؤه البراهمة بالطرد من طائفـــة الكهنوت على أساس أنه كان يجلب العار لعامة الناس . فقَبِل أن ينكر حبه لـ « رامى » فى

احتفال علنى ؛ لكنه وهو يباشر الطقوس الخاصـة بذلك الإنكار ، رأى « رامى » بين الحشد المجتمع ، فعاد إلى نقض إنكاره ذاك ، وسار نحوهما وركع أمامها مُشَبِّكَ اليدين إعجاباً (٦٤) .

وأنبغ شعراء الأدب المكتوب باللهجة الهندية (المتداولة فى الحديث) هو « تُولْسى » الذى يوشك أن يكون معاصراً لشيكسبير ، وقد ألقاه أبواه فى العراء لأنه وُلِدَ لهم تحت نجمة منحوسة ؛ فتبنّاه متصوف فى الغابة وعلمه أغانى « راما » الأسطورية ، وتزوج ، ومات ابنه ، فانسحب إلى الغابات حيث عاش عيش التوبة والتأمل ، وهناك وكذلك فى بنارس كتب ملحمته الدينية « راما شارِتا — ماناسا » ومعناها « بُحيرةٌ من أعمال راما » أخذ فيها يقص قصة « راما » مرة أخرى ، وقدّمه للهند باعتباره الإله الأسمى الذى لا إله إلا هو ، يقول « تولْسى داس » : « ثمت إله واحد وهو راما خالق السماء والأرض ومخلص الإنسانية . . . ومن أجل عبّاده المخلصين ، جسَّد الله نفسه فى إنسان ، فبعد أن كان « راما » إلهاً صار مِلكاً من البشر ، ثم من أجل تطهيرنا عاش بيننا عيش رجل من عامة الناس » (٦٥) .

ولم يستطع إلا قليل من الأوروبيين قراءة ملحمته فى أصلها الهندى (المقصود هو الهندية التى كانت جارية فى الحديث) لأنه بات اليوم قديماً مهجوراً ، ولكن أحد هؤلاء القليلين الذين استطاعوا قراءة الأصل ، من رأيه أن تلك الملحمة تجعل « تولْسى داس » « أهم شخصية فى الأدب الهندى كله (٦٦) » ؛ وهذه القصيدة لأهل الهندستان بمثابة إنجيل شعبى فيه ما يرجع إليه الناس من لاهوت وأخلاق ؛ ويقول غاندى : « إننى أعد الـ « رامايانا » التى نظمها « تولْسى داس » أعظم كتاب فى الأدب الدينى كله (٦٧) » .

وكانت بلاد الدكن فى ذلك الوقت نفسه تنتج كذلك شعراً فنظم « توكارام »

باللغة الماهراتية ٤٦٠٠ نشيد ديني تراها متداولة على الألسن فى الهند اليوم تداول مزامير « داود » فى اليهودية أو المسيحية ؛ ولما ماتت زوجته الأولى تزوج ثانية من امرأة سليطة فأصبح فيلسوفاً ، وكتب يقول :

« ليس من العسير أن تظفر بالخلاص ، لأنك تجد الخلاص قريباً منك فى الحزمة التى تحملها على ظهرك »(٦٨) ؛ وفى القرن الثانى الميلادى أصبحت « مادورا » عاصمة الآداب « التاملية » وأقيمت بها «سانجام» أى جمعية قوامها الشعراء والنقاد تحت رعاية ملوك « پانديا » فاستطاعت — مثل المجمع العلمى الفرنسى — أن تضبط تطور اللغة ، وأن تخلع الألقاب وتمنح الهدايا(٦٩) .

وأنشأ « تيروڤا لاڤار » — وهو نساجٌ من المنبوذين — أثراً أدبياً أفكاره دينية وفلسفية ، أنشأه فى بحر من أعسر البحور « التاملية » وأطلق عليه اسم « كورال » فضمَّنه مثُلاً عليا أخلاقية وسياسية ، ويؤكد لنا الرواة أنه لما رأى أعضاء مجلس « سانجام » — وكلهم من البراهمة — مدى توفيق هذا المنبوذ فى قرض الشعر ، أغرقوا أنفسهم عن آخرهم(٧٠) ، لكنا لا نصدق هذه الرواية إن قيلت من أى مجمع علمى مهما يكن أمره .

وقد أرجأنا الحديث عن « كابر » — أعظم شاعر غنائى فى الهند الوسيطة ، أرجأناه لنختم به الحديث ، ولو أن مكانه الزمنى يأتى قبل ذلك ، « وكابر » نساجٌ ساذج من بنارس ، أعدّته الطبيعة للمهمة التى أراد القيام بها ، وهى توحيد الإسلام والهندوسية ، وذلك لأنه — كما يقال — من أب مسلم وأم من عذارى البراهمة(٧١) ؛ فلما أخذ عليه لُبَّه « راماناند » الواعظ ، أخلص العبادة لـ « راما » ووسع من نطاق « راما » (كما كان تولسى داس ليفعل) حتى جعله إلهاً عالمياً ، وطفق يقرض شعراً بلغة الحديث الهندية ، بلغ الغاية فى الجمال ، ليشرح به عقيدة دينية لا يكون فيها معابد ، ولا مساجد ، ولا أوثان ،

ولا طبقات ، ولا ختان ، ثم لا يكون فيها من الآلهة إلا إله واحد(*) ، يقول عن نفسه إن كابر :

" ابن « رام » و « الله » ويقبل ما يقوله الشيوخ جميعاً ... يا إلهى ، سواء كنت « رام » أو « الله » (المقصود إله المسلمين) فأنا أحيا بقوة اسمك .... إن أوثان الآلهة كلها لا خير فيها ، إنها لا تنطق ، لست فى ذلك على شك ، لأنى ناديتها بصوت عال ... ماذا يجدى عليك أن تمضمض فاك ، أو أن تسبح بمسبحتك ، أو أن تستحم فى مجارى الماء المقدسة ، وأن تركع فى المعابد ، إذا كنت تملأ قلبك بنية الخداع وأنت تتمتم بصلاتك ، أو تسر فى طريقك إلى أماكن الحج ؟ "(٧٢) .

جاء هذا القول منه صدمة قوية للبراهمة ، فلكى يدحضوه (هكذا تقول الرواية) أرسلوا إليه زانية تغويه ، لكنه حوّلها إلى عقيدته ، ولم يكن ذلك عسيراً عليه ، لأن عقيدته لم تكن مجموعة من قواعد جامدة ، بل كانت شعوراً دينياً عميقاً فحسب :

هنالك يا أخى عالم لا تحده الحدود
وهنالك « كائن » لا اسم له ، ولا يوصف بوصف ،
ولا يعلم عنه شيئاً إلا من استطاع أن يصل إلى سمائه ؛
وإنه لعلمٌ يختلف عن كل ما يسمع وما يقال ؛
هنالك لا ترى صورة ، ولا جسداً ، ولا طولا ، ولا عرضاً
فكيف لى أن أنبئك مَن هوَ ؟
إن كابر يقول : « يستحيل أن نعبر عنه بألفاظ الشفاه ،
ويستحيل أن يكتب وصفه على الورق

(*) ترجم رابندرانات طاغور مائة نشيد من أناشيد كابر (طبعة نيويورك ١٩١٥) ، فبلغ بها ما نعهده فيه من كمال .

إن الأمر هنا كالأخرس الذى يذوق طعاماً حلواً ــ كيف يصف لك حلاوته ؟ »(٧٣) .

واعتنق «كابر» نظرية التناسخ التى ملأت الجو من حوله ، ولذلك أخذ يدعو الله ــ كما يفعل الهندوسى ــ ليخلصه من أغلال العــودة إلى الولادة والعودة إلى الموت ، وكانت مبادئه الخلقية أبسط ما يمكن أن تصادف فى هذه الدنيا من مبادئ : عش عيشة العدل ، وابحث عن السعادة عند مرفقك

إنى ليضحكنى أن أسمع أن السمك فى الماء ظمآن

إنكم لا ترون « الحق » فى دياركم ، فتضربون من غابة إلى غابة هائمين على وجوهكم !

هاكم الحقيقة ! اذهبوا أين شئتم ، إلى بنارس أو إلى مأثوره

فإذا لم تجدوا أرواحكم ، فالعالم زائف فى أعينكم ...

إلى أى الشطئان أنت سابح يا قلبى ؟ ليس قبلك مسافر، كلا بل ليس أمامك طريق ...

ليس هنالك جسم ولا عقل ، فأين المكان الذى سيطفئ غلة روحك ؟

إنك لن تجد شيئاً فى الخلاء

تذرع بالقوة وادخل إلى باطن جسدك أنت ،

فقدمك هناك تكون على موطئ ثابت

فكر فى الأمر ملياً يا قلبى ! لا تغادر هذا الجسد إلى مكان آخر

إن « كابر » يقول : اطرد كل صنوف الخيال من نفسك ،

وثبت قدميك فيما هو أنت(٧٤)

ويقول الرواة إنه بعد موته اعترك الهندوس والمسلمون على جســده ، وتنازعوا الرأى ، أيدفن ذلك الجسد أم يحرق ؛ وبينما هم فى تنازعهم ذاك ، رفع أحد الحاضرين الغطاء عن الجثة ، فإذا بهم لا يرون تحته إلا كومة من

من الزهر ، فأحرق الهندوس بعض ذلك الزهر فى بنارس ، ودفن المسلمون بقيته[٧٥]، وأخذت أناشيده تتناقلها الأفواه بين عامة الناس بعد موته ، ولقد أوحت تلك الأناشيد إلى « ناناك » — وهو من طبقة السيخ — فأنشأ مذهبه القوىّ ، ورفع آخرون « كابر » إلى مصاف الآلهة[٧٦] ؛ وإنك لتجد اليوم طائفتين صغيرتين متنافستين تتبعان مذهب هذا الشاعر وتعبد اسمه ؛ هذا الشاعر الذى حاول أن يوحد المسلمين والهندوس ؛ والطائفتان إحداهما من الهندوس والأخرى من المسلمين .

الباب الحادي والعشرون

الفن الهندي

الفصل الأول

الفنون الصغرى

الفن الهندى فى عصره الزاهر – مميزاته الفذة – اتصاله بالصناعة –
صناعة الخزف – المعادن – الخشب – العاج – الأحجار
الكريمة – النسيج

إنا نقف إزاء الفن الهندى ، كما نقف إزاء كل جانب من جوانب المدنية الهندية ، وقفة الدهشة المتواضعة لما نرى من رسوخ فى القِدم واستمرار بين المراحل المتعاقبة ؛ فليست كل الآثار التى وجدناها فى « موهنجو – دارو » مما ينفع فى الحياة العملية ، فبينها تماثيل من حجر الجير لرجال ذوى لحى (تشبه التماثيل السومرية شبهاً له دلالته) وتماثيل من الطين لنساء وحيوان ، وكذلك بينها خرزات وغيرها من أدوات الزينة المصنوعة من عقيق ، وحلىٌ من ذهب رقيق الصناعة مصقولها(1) ؛ وبين تلك الآثار أيضاً ختم(2) نقش فيه بالبارز ثور ، رسم رسماً قوياً ثابت الحفْر ، على نحو يغرى الرائى بالوثوب إلى نتيجة يؤمن بها ، وهى أن الفن لا يتقدم ، لكنه يغيّر صورته وكفى .

ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا ، جعلت الهند خلال الخمسة الآلاف عام التى توسطت العهدين بما فيها من تغيرات ، جعلت تبرز مثلها الأعلى فى الجمال كما تتصوره تصوراً يطبعها بميسم خاص ، فى عشرات الفنون المختلفة ؛ لكن ما خلّفته لنا من تلك الفنون ، لا يقدم لنا صورة كاملة ، إذ ترى فيها جانباً

منقوصاً ، لا لأن الهند قد تراخت عن الإبداع الفنى فى أى عهد من عهودها ، بل لأن الحروب والنزوات المسلمين فى تحطيم الأوثان ، قد عملت على تحطيم ما ليس يقع تحت الحصر من آيات الفن فى العمارة والنحت ؛ ثم عمل الفقر على إهمال البقية الباقية من تلك الآيات ؛ وسنجد الأمر عسيراً علينا بادئ ذى بدء ، إذا ما أردنا أن نقدر هذا الفن ، فموسيقاهم غريبة على أسماعنا ، وسيبدو تصويرهم لأعيننا غامضاً ، وفنهم فى العمارة مضطرباً ، ونحتهم للتماثيل خشناً غليظاً ؛ فعلينا فى كل خطوة نخطوها أن نذكر أنفسنا بأن أذواقنا معرضة للخطأ فى أحكامها ، إذ هى نتيجة لتقاليدنا وبيئتنا المحلية المحدودة ؛ وإنا لنظلم أنفسنا ونظلم الأمم الأخرى ، إذا ما حكمنا عليهم أو على فنونهم بمعايير وغايات تتفق وطبيعة حياتنا ، لكنها غريبة بالقياس إلى الحياة عندهم .

فالفنان فى الهند لم يكن بعد قد تميز من الصانع ، إذا كان الفن صناعة والعمل اليدوى مهانة ؛ فكما كان الحال فى عصورنا الوسطى ، كذلك كانت فى الهند التى انقضى عهدها فى موقعة « پلاسى » ، وهى أن كل صانع ماهر فى صناعته كان فناناً فى تلك الصناعة ، يخلع على نتاج مهارته وذوقه قالباً خاصاً وشخصية متميزة ؛ وحتى اليوم ، حيث حلّت المصانع محل الصناعات اليدوية ، وانحدر الصناع اليدويون إلى « أيدٍ عاملة » ، لا تزال ترى فى المتاجر والدكاكين فى كل مدينة هندية ، صناعاً متربعين فى جلستهم على الأرض ، يطرقون المعادن أو يصوغون الحلى ، أو يرسمون الرسوم الزخرفية ، أو ينسجون الشيلان الدقيقة أو يوشّون الوشى الرقيق ، أو ينحتون فى العاج أو الخشب ، ومن الراجح ألا تكون بين الأمم كلها أمة أخرى كان لها ما للهند من تنوّع خصيب فى ألوان الفنون(٣) .

ومن العجيب أن صناعة الخزف لم تستطع أن ترتفع من مستوى الصناعة إلى مستوى الفنون فى الهند ؛ فقد فرضت قواعد الطبقات كثيراً من القيود على

بإمكان استخدام الطبق الواحد عدة مرات(*) حتى لقد ضعف الحافز إلى تجميل هذه الآنية الفخارية الهزيلة المؤقتة ، التى كانت يد الخزاف تسرع فى إنتاجها(٤) ؛ أما إن كان الإناء ليُصنع من معدن نفيس ، عندئذ ينصرف إليه الفن بمجهوده بغير ندم على ذلك المجهود مهما بلغ ، فانظر إلى الإناء الفضى الذى يُنْسَبُ إلى « تانجور » فى معهد فكتوريا فى مدراس ، أو انظر إلى صفحة « بتِلْ » الذهبية التى تنسب إلى « كاندى »(٥) ، أما النحاس الأصفر فقد صنعوا منه مجموعة منوعة لا تنتهى أصنافها من المصابيح والأوعية والأوانى ؛ وكانوا يحصلون على مزيج أسود من الزنك (يسمونه بدرى) ويستخدمونه عادة فى صناعة الصناديق والأحواض و « الصوانى » ؛ كذلك كانوا يطعّمون معدناً بمعدن آخر ، تطعيما بارزاً أو محفوراً ، أو كانوا يطلون معدناً ما بطلاء من الفضة أو الذهب(٦) .

وكان الخشب ينقش بحفر صور كثيرة جداً من النبات والحيوان ، وأما العاج فيصوغونه ليمثل أى شىء بادئين بالآلهة فهابطين إلى زهرات اللعب ، كما كانوا يطعّمون به الأبواب وغيرها من مصنوعات الخشب ، ويصنعون منه آنية صغيرة لطيفة لحفظ الدهون والعطور ؛ وكثرت عندهم أدوات الزينة يلبسها الأغنياء والفقراء إما للتزين أو للادخار ؛ وامتازت « چايپور » فى طلى مسطحات الذهب بألوان الميناء ، وعرف صائغوهم بحسن الذوق فى صناعة المشابك والخرزات والعقود والمدى والأمشاط ، فكانوا يزخرفونها بصور الأزهار أو الحيوان أو موضوعات الدين ، فهنالك عقد برهمى نقشت فى واسطته الصغيرة خمسون صورة من صور الآلهة(٧) ، ونسجوا الأقمشة ببراعة فنية لم يبذهم فيها أحد من اللاحقين ، فمنذ عهد قيصر إلى يومنا هذا ، امتدح العالم كله دقة الصناعة فى المنسوجات الهندية(**) فقد كانوا أحياناً يصبغون

(*) انظر القسم الرابع من الفصل الرابع من هذا الجزء .

(**) ربما كانت الهند أول بلد طبّع على المنسوجات زخارف بواسطة ضربها بقوالب كالأختام(٨) ، ولو أن الهنود لم يطوّروا هذه الطريقة فى بلادهم بحيث يستخدمونها فى طباعة الكتب .

كل خيط من خيوط اللُّحمة أو السُّدى قبل وضعها فى المنسج ، فكان يقتضيهم ذلك مقاييس دقيقة متعبة قبل البدء فى العمل ؛ وكان الزخرف المرسوم يتبدَّى شيئاً فشيئاً كلما مضى النسَّاج فى نسجه ، بحيث يكون هذا الزخرف واحداً فى جانبى القماشة المنسوجة(٩) ، إن كل ثوب تم نسجه فى الهند ــ من « الخدَّار » المنسوج من الغزل البلدى إلى الوشى المعقد الذى يتلألأ بالذهب ، ومن السراويل(*) الآخذة بالعين إلى الشيلان(**) الكشميرية التى تخاط أجزاؤها على نحو يخفى مواضع الحياكة ــ أقول إن كل ثوب نسجته الهند له جمال لا يصدر إلا عن فن بالغ فى القدم ، وكاد اليوم أن يكون غريزة فى فطرتهم .

(*) كلمة « بيچاما » الإفرنجية مأخوذة من كلمة تطابقها نطقاً فى الهندية معناها غطاء الســاقين .

(**) تصنع هذه الشيلان الصوفية الدقيقة من قصاصات كثيرة ، يوصل بعضها ببعض فى مهارة حتى لتبدو قطعة واحدة من القماش(١٠) .

الفصل الثانى

الموسيقى

حفلة موسيقية فى الهند – الموسيقى والرقص – الموسيقيون – السلم والصور الموسيقية – الموضوعات – الموسيقى والفلسفة

أتيح لسائح أمريكى أن يحضر حفلة موسيقية فى « مدراس » فوجد حشد السامعين يبلغ نحو مائتى هندوسى ، يظهر أن قد كانوا جميعاً من البراهمة ، يجلس بعضهم على مقاعد خشبية ، ويجلس بعضهم الآخر، على الأرض المفروشة بالبُسُط ، وكانوا يسمعون فى إصغاء شديد لجوقة صغيرة لو قيست إليها حشود جوقاتنا لخيّل إليك أن جوقاتنا هذه المعربدة إنما أريد بها أن تُسْمع سكان القمر ، ولم تكن الآلات الموسيقية مألوفة لذلك السائح الأمريكى ، بحيث أشبهت فى عينيه التى تنظر إلى الأشياء من وجهة نظر إقليمية ، نباتاً غريباً شاذاً فى حديقة مهجورة ؛ فقد كان لديهم طبول كثيرة ذات أشكال وأحجام مختلفة ؛ ومزامير مزخرفة وأبواق ملتوية كأنها الثعابين ، ومجموعة منوّعة من ذوات الأوتار ؛ وكانت علامات الإتقان فى الصناعة بادية فى معظم تلك الآلات ، كما كان بعضها مرصعاً بالجواهر ؛ وكانت إحدى الطبول – وهى ما تسمى مريدانجا – شبيهة ببرميل صغير ، فى كل من طرفيها غشاء جلدى رقيق يمكن تغيير درجة صوته المبعوث بجذبه أو بإرخائه بواسطة مفاتيح صغيرة من الجلد ؛ وبين غشاوات الطبول غشاء أضافوا إليه شيئاً من مسحوق المنغنيز ومرق الأرز وعصير التمر الهندى لكى يحدث نغمة فذة غريبة فى نوعها ؛ ولم يستعمل الطبال إلا يديه . فأحياناً يخبط براحته ، وأحياناً بأصابعه ، وأحياناً ينقر بأطراف أنامله ؛ وكان عازف آخر يحمل « تمبورة » أو قيثارة لها أوتار أربعة طويلة جعلت تبعث نغماتها موصولة بغير انقطاع ، فكانت بمثابة البطانة

العميقة الهادئة لموضوع القطعة الموسيقية ؛ وبين الآلات آلة – اسمها ڤينا – كانت مرهفة الحساسية لدرجة تميزها من سواها فى ذلك ، كما كانت محددة الأصوات تحديداً واضحاً ؛ وكانت أوتارها مشدودة فوق عارضة رقيقة من المعدن ، فى إحدى طرفيها طبلة خشبية يغطيها غشاء من الجلد ، وفى طرفها الآخر قرعة جوفاء تردد الأصداء ؛ وكانت تلك الأوتار دائمة الذبذبة بواسطة مضرب فى يمين العازف ، بينما جعلت يسراه تغير فى النغمات بأصابع تتحرك فى براعة من وتر إلى وتر ؛ ولبث زائرانا ينصت فى خشوع ، ولم يفهم من كل ذلك شيئاً .

للموسيقى فى الهند تاريخ يمتد ثلاثة آلاف عام على أقل تقدير ؛ فالترانيم الڤيدية – مثلها مثل الشعر الهندى كله – إنما نظمت لتنشد ؛ ولم يكن فى الطقوس القديمة فرق بين الشعر والغناء ، والموسيقى والرقص ، فكل هذه عندها فن واحد ؛ وإن الرقص الهندى ليبدو لعين الغربى اللامعة بالشهوة ، شهوانياً فاجراً . كما يبدو الرقص الغربى للهنود شهوانياً فاجراً ، كان هذا الرقص الهندى خلال الشطر الأعظم من التاريخ الهندى ، لوناً من ألوان العبادة ، وعرضاً لجمال الحركة والتوقيع تكريماً وإجلالا للآلهة ، ولم يحدث لراقصات المعبد أن يغادرن معابدهن زرافات يمتعن أصحاب الدنيا وطلاب الشهوة الجسدية إلا فى العصور الحديثة ، لم تكن هذه الراقصات للهندى مجرد عرض للجسد ، بل كانت فى وجه من وجوهها محاكاة للكون فى دوراته التوقيعية ومجرى التغير فى ظواهره ، وقد كان « شيڤا » نفسه إله الرقص ، ورقصة « شيڤا » كانت ترمز لحركة العالم نفسها(*) .

(*) لم يعرف الأوروبى والأمريكى رقصة الهند الدفيوية ، فى صورتها الأصيلة التى خلت من كل الشوائب الدخيلة ، والتى هى فن شانكارا ، الذى تدل فيه كل حركة جسدية وكل حركة باليدين والأصابع والأعين ، على معنى لطيف دقيق يفهمه المتفرج الموهوب ، كما تدل على رشاقة فى التثنى وعلى شعر جسدى محكم مما لا يعرفه الرقص الغربى ، مد دعتنا الديموقراطية إلى العودة إلى أفريقيا لنستمد منها الفنون .

وينتمي الموسيقيون والمنشدون والراقصون — كسائر أصحاب الفن في الهند — إلى أحط الطبقات ؛ فقد يحلو للبرهمي أن يغني في خلوته ، وأن يسرّي عن نفسه بنغمات يعزفها على « الڤينا » أو غيرها من ذوات الأوتار ؛ بل قد يعلّم غيره التمثيل أو الغناء أو الرقص ، لكنه يستحيل أن يفكر في التمثيل مأجوراً ، أو في النفخ في آلة موسيقية ، وكانت الحفلات الموسيقية العلنية — إلى عهد قريب — نادرة في الهند ، فكانت الموسيقى العلمانية إما غناء تلقائياً أو نشيداً جمعياً يقوم به الناس ، وإما عزفاً أمام جماعات صغيرة في بيوت العِلْية ، كما هي الحال فيما يعرف في أوربا بموسيقى الحجرات ؛ وكان لـ « أكبر » — الذي كان هو نفسه ماهراً في العزف الموسيقي — عدد كبير من الموسيقيين في بلاطه ، وأصاب أحد مغنّيه — واسمه تانْسن — شهرة وثروة ، ومات بالشراب وسنه أربعة وثلاثون عاماً(١١) ؛ ولم يكن ثمة هواة ، بل كان كل المشتغلين بالعزف محترفين لفنهم ، ولم تكن الموسيقى تُعلم على أنها لون من ألوان التهذيب الاجتماعي ، كلا ولا أرغم الأطفال على عزف بيتهوفن ، فمهمة الشعب لم تكن أن يعزف الناس عزفاً رديئاً ، بل أن يعرفوا كيف ينصتون إنصاتاً جيداً(١٢).

ذلك لأن الاستماع للموسيقى في الهند فن في ذاته ويتطلب تدريباً طويلا للأذن والروح ؛ وقد لا تكون الألفاظ نفسها مفهومة المعنى للغربي أكثر من ألفاظ المسرحيات الغنائية التي يشعر أن من واجبه التي تمليه عليه طبقته الاجتماعية ، أن يستمتع بها ؛ وهي تدور — كشأنها في سائر أنحاء العالم — حول موضوعي الدين والحب ؛ لكن الألفاظ قليلة الأهمية في الموسيقى الهندية ، وكثيراً ما يستبدل بها المنشد — كما يفعل الأديب عندنا في أرقى ألوان الأدب — مقاطع لا تعني شيئاً ؛ والسلم الموسيقي عندهم ألطف مما هو عندنا وأدق ، إذ يضيف إلى سلمنا ذي الإثنتي عشرة نغمة ، عشر نغمات أخرى غاية في الدقة ؛ وبذلك يصبح سُلَّمهم مؤلفاً من اثنتين وعشرين « من أرباع النغمات » ؛ وعلى

الرغم من أن الموسيقى الهندية يمكن كتابتها بترقيم مأخوذ من الأحرف السنسكريتية إلا أن الأغلب ألا تكتب ولا تقرأ ، بل تنتقل من جيل إلى جيل أو من المنشئ الموسيقى إلى من يأخذ عنه « بالأذن » وحدها ؛ وليست موسيقاهم مقسّمة إلى أجزاء توقيعية تفصل الضربات بينها ، بل ترى النغم فيها ينساب انسياباً متصلا يؤذى أذن السامع الذى تعود سماع ضربات دورية فى الموسيقى ، وليس لموسيقاهم إيقاع ولا تناغم ، بل كل ما تعنى به هو النغم الواحد ، وربما جعلوا وراءه بطانة من نغمات صغيرة ، ولذا كانت فى هذه الناحية أبسط وأقل فى رقيها من الموسيقى الأوروبية ، ولو أنها أكثر منها تركيباً فى السُّلَّم والدورات التوقيعية ؛ وأنغامها محدودة وغير محدودة فى آن واحد ، فهى من جهة مضطرة اضطراراً أن تستمد من هذا اللون أو ذاك فى معين تقليدى قوامه ستة وثلاثون لوناً ، لكن العازفين — فى الوقت نفسه — يستطيعون أن ينسجوا حول هذا الهيكل التقليدى نسيجاً لا نهاية لخيوطه ولا صلات تصل أجزاءه المنوعة تنوعاً شديداً ، وفى كل موضوع موسيقى — أو « راجا »(*) موسيقية كما يسمونه — خمس نغمات أو ست أو سبع ، يرجع الموسيقى إلى أحدها — يختارها ولا يغيرها — من حين إلى حين ؛ ولكل « راجا » اسم مشتق من الحالة النفسية التى تريد الإيحاء بها — « الفجر » ، « الربيع » ، « جمال المساء » ، « السُّكْر » الخ — وكل « راجا » مرتبطة بزمن معين من اليوم أو من العام ، وتذهب الأساطير الهندية إلى أن لهذه الراجات قوة روحانية ، حتى ليقال إن راقصة بنغالية أزالت قحطاً بغنائها إحدى الراجات وهى المسماة « منع مالار » — أى نغمة استنزال المطر [١٣] .

ولقد خلع الأسلاف على « الراجات » صبغة مقدسة فمن يعزفها وجب عليه أن يراعى حرماتها ، لأنها صور من الغناء أداها « شيفا » نفسه ، ويحكى أن

(*) إذا أردنا أن نكون أكثر دقة ، فهناك ست « راجات » أو موضوعات أساسية لكل منها خمس صور تسمى « راجنى » وكلمة « راجا » معناها لون وعاطفة وحالة نفسية ، وكلمة راجنى هى مؤنثها .

عازفاً اسمه « نارادا » أنشد تلك الراجات فى إهمال لشأنها ، فزجّ به « فشنو » فى نار الجحيم ، حيث شاهد رجالا ونساء يبكون على ما تكسّر من جوارحهم وقال له الإله إن هؤلاء الرجال والنساء هى الراجات والراجينات التى شوّهها ومزّقها عزفه المستهتر ، فلما شاهد « نارادا » ذلك — هكذا تروى الأسطورة — حاول أن يكون فى فنه أكثر إتقاناً ، إذ أخذته بعدئذ خشيةُ الخاشع (١٤).

والعازف الهندى لا يلتزم « الراجا » التى اختارها لبرنامجه الموسيقى التزاماً يضيق من حريته تضييقاً خطيراً ، أكثر مما يلتزم المنشئُ الموسيقى فى الغرب ، إذا ما أنشأنا « سوناتا » أو « سمفونية » ، موضوعه الموسيقىّ التزاماً يعرقله ؛ فى كلتا الحالتين ، ما يفقده العازف من حرية ، يعوضه بما يتاح له من تماسك البناء واتزان الصورة ؛ فالموسيقى الهندى شبيه بالفيلسوف الهندى ، كلاهما يبدأ بالجزئى المحدود « ويرسل روحه إلى اللامحدود » ؛ إنه يظل يمعن فى وَشْى موضوعه وشياً دقيق الأجزاء ، حتى يتمكن فى نهاية الأمر ، بفعل تيار متموج من دورات التوقيع وتكرار النغمة ، بل بفعل اطراد الأنغام اطراداً رتيباً مملا ، أن يخلق نوعاً من «اليوجا» الموسيقية ، أعنى ضرباً من الذهول الذى يشل الإرادة ويطمس الفردية اللتين ننسبهما للمادة والمكان والزمان ، وبهذا ترتفع الروح إلى ما يوشك أن يكون اتحاداً صوفياً بشىء «عميق الاتصال فى نفوسنا بجذوره» أو قُلْ « بكائن » عميق عظيم ساكن ، أو بحقيقة سابقة لهذا العالم ومنبثة فى كل أجزائه ، تبتسم ساخرة من كافة الإرادات المكافحة ومن التغير والموت بشتى ما لها من صور .

والأرجح أننا لن نستسيغ الموسيقى الهندية ، ولن نفهمها ، إلا إذا استبدلنا بالكفاح كينونة ساكنة ، وبالترقى ثباتا ، وبالشهوة استسلاماً ، وبالحركة استقراراً ؛ وربما اصطنعنا لأنفسنا هذه الحالة إذا عادت أوروبا من جديد خاضعة ، وعادت آسيا مرة أخرى للسيادة ، لكن آسيا عندئذ ستمل السكينة والثبات والاستسلام والقرار .

الفصل الثالث

التصوير

ما قبل التاريخ – نقوش أجانتا – مصغرات راجبوت –
مدرسة المغول – المصورون – أصحاب النظريات

إننا نسمي الرجل إقليمياً ، إذا حكم على العالم على أساس الأنظمة السائدة في الإقليم الذي يعيش فيه ، واعتبر كل ما لم يألفه من أوضاع ضرباً من الجاهلية فيقال عن الإمبراطور « جهان كبر » وهو رجل ذواقة علاّمة في الفنون — إنه حين أطّلع على صورة أوروبية ، امتعض لها من فوره ، و« لم يستسغها لأنها مرسومة بالزيت »(١٥) ، وإنه ليسرنا أن نعلم أنه حتى الإمبراطور يجوز عليه أن يكون إقليمي النظرة ، وأنه كان من العسير على « جهان كبر » أن يستمتع بالتصوير الزيتي الذي ترسمه أوروبا ، كما أنه من العسير علينا أن نتذوّق دقائق التحف في الهند :

ويتبين من الرسوم الحمراء التي نراها لبعض الحيوانات ولمطاردة وحيد القرن ، على جدران الكهوف في سنجانبور » و« مرزابور » أن قد كان للتصوير الهندي تاريخ طال أمده عدة آلاف من السنين ، وتكثر لوحات المصورين (التي يضعون عليها ألوانهم) بين آثار العهد الحجري الجديد في الهند ، مستعدة للاستعمال بما لايزال عليها من بقايا الألوان(١٦) ؛ وإننا نلحظ فجوات واسعة في تسلسل تاريخ الفن في الهند ، لأن معظم الآثار الفنية الأولى قد أتت عليها عوامل المناخ ، ثم فسد كثير مما تبقى بعد ذلك على أيد المسلمين « محطمي الأوثان » من محمود إلى أورنجزيب(١٧) ؛ ويشير الـ « فنايابتاكا » (حوالي ٣٠٠ قبل الميلاد) إلى قصر الملك « بازنادا » فيقول عنه إنه كان يحتوي على أبهاء للصور الفنية ؛ وكذلك يصف « فا — هين » و« يوان شوانج » أبنية

كثيرة فيقولان عنها بأنها اشتهرت بروعة ما عرض على جدرانها[١٨] ، لكنه لم يبق لنا أثر واحد من هذه الأبنية وتبين صورة من أقدم الصور فى التبت فناناً وهو يصور بوذا[١٩] فلم يشك المصورون فيما بعد ذلك التاريخ فى أن فن التصوير كان ثابت الأساس فى عهد بوذا .

وأقدم صورة هندية يمكن تحقيق تاريخها ، مجموعة من الزخارف الجدارية البوذية (حوالى ١٠٠ قبل الميلاد) وجدت على جدران كهف فى « سرجيا » فى المقاطعات الوسطى ، ومنذ ذلك الحين ، جعل فن التصوير الجدارى – وأعنى به تصويراً يرسم على معجون طرى قبل أن يجف – يتقدم خطوة فخطوة ، حتى بلغ على جدر كهف « أجانتا »(*) درجة من الكمال لم يجاوزها أحد بعد حتى « جيوتو » و « ليوناردو » ؛ وكانت تلك المعابد تنحت فى واجهة صخرية من سفح الجبل ؛ وحدث ذلك فى فترات مختلفة تقع بين القرن الأول الميلادى والقرن السابع ؛ ولبثت قروناً لا يعرفها التاريخ ولا تعيها ذاكرة الإنسان بعد انهيار البوذية ، فاكتنفتها أشجار الغابة حتى كادت تخفيها ، وسكنتها الخفافيش والأفاعى وغيرها من صنوف الحيوان ، وأتلفت صنوف الطير والحشرات التى تعد بالمئات ، تلك التصاوير بفضلاتها ؛ ثم حدث سنة ١٨١٩ أن عثر الأوروبيون على الآثار ، وأدهشهم أن يروا على الجدران تلك الصور التى تعد الآن بين آيات الفن فى العالم كله[٢٠] .

وأطلق على المعابد اسم الكهوف ؛ لأنها فى معظم الحالات منحوتة فى الجبال فمثلا كهف نمرة ١٦ عبارة عن حفرة طول كل جهة من جهاتها خمس وستون قدماً ، يدعمها عشرون عموداً ، وترى على طول القاعة الوسطى ست عشرة مقصورة من مقاصير الدير ، ولها شرفة ذات فتحة للباب تزخرف واجهتها ، وفى مؤخرتها جلود مقدسة ، وكل الحيطان مزدانة بالتصاوير الجدارية ؛ ومن

(*) بالقرب من قرية فاردابور ، فى الولاية المستقلة حيدر أباد .



صورة فى أجانتا

المعابد التسعة والعشرين ، ستة عشر كانت فى سنة ١٨٧٩ تحتوى على تصاوير ، فلما أن كانت سنة ١٩١٠ أتلف التعرض للجو تصاوير عشرة معابد منها ، ثم أصيبت الستة الباقية بخدوش بفعل محاولات غشوم فى سبيل تجديدها(٢١) ، وقد

كانت هذه التصاوير يوماً متلألئة بالأحمر والأخضر والأزرق والأرجوانى ؛ ولم يبق اليوم من هذه الألوان شيء ما عدا الأجزاء ذات الألوان الخافتة أو القاتمة ؛ وإن بعض الصور التى أفسدها الزمن والجهل ليبدو غليظاً خشناً فى أعيننا ، نحن الذين لا يستطيعون قراءة الأساطير البوذية بقلوب بوذية ، وبعضها الآخر فيه قوة ورشاقة فى آن معاً ، تنبئان عن مهارة الصناع الذين ضاعت أسماؤهم قبل أن تفنى آثارهم بزمن طويل .

وعلى الرغم من كل هذه النائبات ، لا يزال كهف رقم (١) غنياً بآياته الفنية فهاهنا ترى على أحد الجدران (ما يرجح أن يكون) صورة «بوذيساتاوا» ؛ أى قديس بوذى يستحق النرفانا ، لكنه آثر على النرفانا التى هو جدير بها أن يعاد إلى الحياة فى ولادات جديدة لكى يصلح الناس ؛ ولن تجد صورة تصور حزن التفكير البصير أعمق مما تصوره هذه الصورة[٢٢] ، وإن الإنسان لتأخذه الحيرة أى الصورتين ألطف وأعمق — هذه الصورة أو صورة ليوناردو التى رسمها يدرس بها موضوعاً شبيها بموضوع هذه الصورة ، وهو رأس المسيح(*) وعلى جدار آخر من نفس المعبد صورة لـ « شيفا » وزوجته «پارفاتى» وقد ازّينت بالحلى[٢٣] ، وعلى مقربة منها صورة لأربعة غزلان ، أشاع فيها الحساسية الرقيقة ذلك العطف البوذىّ على الحيوان ، وعلى السقف زخرف لا يزال ناصع الألوان بما فيه من زهور وطيور دقيقة الرسم[٢٤] ، وعلى أحد جدران الكهف رقم (١٧) تصوير رشيق — قد تلف الآن بعض التلف — للإله مصحوباً بحاشيته ، وهو هابط من السماء إلى الأرض ليتعهد شيئاً ما مما وقع فى حياة بوذا[٢٥] ، وعلى جدار آخر صورة تخطيطية ، لكنها زاهية الألوان ، لأميرة مع وصيفتها[٢٦] ؛ وترى مختلطاً بهذه الآيات الفنية حشداً متداخلا من التصاوير الجدارية يظهر فيها ضعف الصناعة وفيها وصف لنشأة بوذا وفراره وإغرائه[٢٧] .

(*) وهى بين تخطيطاته الابتدائية لصورة (العشاء الأخير) .

لكننا لا نستطيع أن نحكم على هذه الآثار الفنية فى صورتها الأصلية بما بقى منها اليوم ، ولا شك أن هناك مفاتيح طرائق تقدير قيمتها الفنية ، لا يمكن الكشف عنها لمن لا يحمل بين جنبيه روحاً بوذية ؛ ومع ذلك فحتى الغربى فى مستطاعه أن يُعجب بفخامة الموضوع ، وعظمة المدى صُممت الصورة على أساسه ، ووحدة التأليف ، ووضوح الخطوط وبساطتها وثباتها ، وبتفصيلات كثيرة بينها هذا الكمال العجيب الذى بلغوه فى رسم الأيدى التى هى آفة المصورين جميعاً ؛ وإن الخيال ليصوّر لنا هؤلاء الفنانين الكهنة(*) الذين كانوا يؤدون الصلاة فى هذه المقصورات وربما زينوا هذه الجدران والسقوف بفن التقىّ والورع ، بينما أوروبا دفينة فى ظلام أوائل عصورها الوسطى ؛ فهاهنا فى « أجانتا » أدْمَجَ الدينُ مختلف الفنون : فن العمارة والنحت والتصوير فى وحدة متسقة ، فأنتج أثراً من أعظم آثار الفن الهندى .

فلما أغلقت معابدهم أو خُرِّبت على أيدي الهون والمسلمين ، أدار الهنود مهارتهم التصويرية تجاه الفنون الصغرى ؛ فنشأت بين « الراچبوت » مدرسة من المصورين سجلوا فى تماثيل صغيرة قصص « الماهابهاراتا » و « رامايانا » وأعمال البطولة التى قام بها رؤساء « الراچپوتانا » ؛ وكثيراً ما كانت تكتفى تلك الآثار الفنية بمجرد تخطيط أوّلى للموضوع ، لكنها كانت دائماً تنبض بالحياة وتبلغ من جمال الزخرف حد الكمال ؛ وإنك لترى فى متحف الفنون الجميلة فى « بوستن » ، مثلا جميلا لهذا الأسلوب الفنى ، إذ تراه يرمز إلى إحدى « راجات » الموسيقى بنساء رشيقات وبرج شامخ وسماء دانية[٢٩] ، وكذلك ترى مثلا آخر فى معهد الفنون فى « دترْوا » يمثل برشاقة فريدة فى بابها منظراً مأخوذاً من « جيتا جوفندا »[٣٠] ، وصور النساء فى هذه التصاوير الهندية وغيرها لم تكن تُرْسَم من نماذج بشرية إلا نادراً ؛ فكان على الفنان أن يتصورها بخياله ويستمدها من ذاكرته ، والأغلب أن يصور المصور بألوانه

(*) هذه مجرد فرض ، فلسنا ندرى من رسم هذه التصاوير الجدارية

زاهية على سطح من ورق ، ويستخدم فى الرسم فراجين مصنوعة من أرق



صورة مغولية لدربار فى ظل أكبر فى مدينة أكبر أباد

الشعر ، يأخذونه من السنجاب أو الحجل أو الماعز أو النمس(٣١) ، واستطاع رسّامهم أن يبلغ من رقة خطوطه وزخارفه حداً يمتع العين ، حتى إن كان المشاهد أجنبياً لم يمهر فى تقدير الفنون .

وقد أبدعت أجزاء أخرى من الهند آثاراً فنية شبيهة بهذه الاثار ، وبخاصة فى دولة «كانجرا »(٣٢) ، وتطوّر فرع من فروع هذه الدوحة الفنية عينها فى ظل المغول بمدينة دلهى ، ولما كان هذا الفن المتفرع ناشئاً عن فن الخط الفارسى وفن زخرفة المخطوطات ، فقد آل أمره إلى أن يكون تصويراً أرستقراطياً يقابل من حيث رقته وانحصاره فى دائرة ضيقة ، موسيقى الحجرات التى ازدهرت فى قصور الملوك ؛ ولقد جاهدت هذه المدرسة المغولية — كما جاهدت مدرسة راجبوت — لتحقق لنفسها رشاقة التخطيط ، كان المصورون أحياناً يستخدمون فرجوناً مؤلفاً من شعرة واحدة ، وتنافس مصورو هذه المدرسة أيضاً فى إجادة تصوير اليدين ؛ لكنهم بالقياس إلى المدرسة الفنية السالفة أكثروا من الألوان وقللوا من جوّ الألغاز والغموض ، وقلما مسُّوا بفنهم الدين أو الأساطير بل حصروا أنفسهم فى حدود هذه الدنيا ، فكانوا واقعيين بمقدار ما سمح لهم الحذر به من الواقعية ؛ وقد اتخذوا موضوعات لرسومهم رجالا ونساء من الأحياء ذوى المنزلة الرفيعة والمزاج الشامخ بأنفه ، فلم يكن أشخاصهم ممن يُعرفون فى الناس بِضعة نفوسهم ، وأخذ هؤلاء الأشراف يجلسون واحداً فى إثر واحد أمام المصور ، حتى امتلأت أبهاء الصور عند «جهان كير» — ذلك الملك الأنيق — بصور أعلام الحكام ورجال البلاط جميعاً منذ اعتلاء «أكبر» عرش البلاد ، وكان «أكبر» أول حاكم من أفراد أسرته المالكة شجع التصوير ، ولو أخذنا بما يقوله «أبو الفضل» فقد كان فى دلهى فى أواخر حكمه ، مائة أستاذ من محترفى هذا الفن ، وألف من هواته(٣٣) .

وكان من أثر رعاية « جهان كير » لفن التصوير أن تطور هذا الفن واتسع نطاقه من تصوير الأشخاص فحسب إلى تمثيل مناظر الصيد وغيرها من البطانات التى تؤخذ من الطبيعة لتكون مجالا لتصوير أشخاص من الناس على أساسها — على أن هذه الأشخاص مازالت لها السيادة فى الصورة ؛ فهنالك صورة صغيرة تمثل الإمبراطور نفسه وقد أوشك أن تنال منه مخالب أسد واثب على مؤخرة الفيل الذى كان يركبه ، محاولا أن يمسك بجسده ، بينما ترى تابعاً من الأتباع يفر هارباً كما تقتضى النظرة الواقعية لحقيقة ما يحدث فى الحياة(٣٤) ، وبلغ الفن فى حكم « جهان » أعلى ذروته ؛ ثم أخذ بعدئذ فى التدهور ؛ وكما حدث فى التصوير اليابانى حدث فى الهند ، وهو أن شيوع القالب الفنى فى دائرة واسعة من الناس ، كان له نتيجتان فى وقت واحد ، فقد زاد عدد المهتمين بالفن من جهة ، وقلل من دقة الذوق من جهة أخرى(٣٥) ، وأخيراً تمت مراحل التدهور حين جاء « أورنجزيب » فأعاد حكم الإسلام فى مقاومة التصوير بغير هوادة .

وقد لقى المصورون فى دلهى من الازدهار ما لم يعرفوا له مثيلا خلال عدة قرون ، وذلك بفضل الرعاية الكريمة التى أسداها إليهم ملوك المغول ؛ فجددت طائفة المصورين عندئذ شبابها ، وهى تلك الطائفة التى احتفظت بنفسها حية منذ العصر البوذى ؛ ونفض بعض أعضائها عن نفسه ذلك التخفى الذى كان يدعوهم إلى تكرار أسمائهم ، والذى يسود الكثرة الغالبة من آثار الفن الهندى ، بفعل الزمان الذى يبتلع الأسماء فى جوف النسيان من جهة ، وإنكار الهنود لذاتيات الأفراد من جهة أخرى ، وكان من السبعة عشر فناناً الذين يعدون أعلاماً فى حكم « أكبر » ثلاثة عشر هندوسياً(٣٦) ، وكان أقرب المصورين إلى الحظوة فى بلاد المغولى العظيم هو « دازفانت » الذى لم يؤثر أصله الوضيع — إذ كان ابن حامل المحفَّات التى تنقل الراكبين — فى نظرة الإمبراطور إليه أقل تأثير ؛ وكان هذا الشاب شاذ الأطوار ، فكنت تراه

مصراً أينما حل على رسم صوره ، يرسمها على أية مادة أتيحت له ؛ واعترف « أكبر » بعبقريته ، وطلب إلى الأستاذ الذى يتلقى عنه هو نفسه فن الرسم ، أن يتعهد تعليمه ، حتى إذا ما شبّ الغلام ، أصبح أعظم رجال الفن فى عصره . لكنه وهو فى أوج شهرته طعن نفسه طعنة قاضية(٣٧) .

إنه حيثما وجدت ناساً يصنعون هذا الشىء أو ذاك ، وجدت إلى جانبهم ناساً آخرين يأخذون أنفسهم بشرح الطريقة التى يجب أن يتبعها أولئك فى صناعة ما يصنعون ؛ فالهنود الذين لم تكن فلسفتهم تعلى من شأن المنطق ، قد أحبوا المنطق مع ذلك ، وأغرموا بصياغة قواعد دقيقة لكل فن من الفنون ، كأدق ما تكون القواعد دقة ، وأشد ما تكون انطباقاً على حكم العقل ؛ ومن ثم وضعوا فى أوائل تاريخنا المسيحى « الساندانجا » أى « الأطراف الستة للتصوير الهندى » وهى شبيهة بما وضعه صينىٌ(*) بعد ذلك ، وربما كان الصينىُّ فى ذلك مقلِّداً ، وهو ستة قوانين لإتقان فن التصوير : (١) معرفة ظواهر الأشياء . (٢) صحة الإدراك الحسى والقياس البناء . (٣) فعل المشاعر فى القوالب الفنية . (٤) إدخال عنصر الرشاقة ، أو التمثيل الفنى . (٥) مشابهة الطبيعة . (٦) استخدام الفرجون والألوان استخداماً فنياً ؛ وظهر بعد ذلك تشريع جمالى مفصل . واسمه « شلبا — شاسترا » ؛ صيغت فيه قواعد كل فن وتقاليده صياغة تصلح ما مرّ الزمان ، وهم يزعمون لنا أن الفنان لا بد له من دراسة الڤيدات دراسة متقنة « وأن يغتبط بعبادة الله ، ويخلص لزوجته ويجتنب غيرها من النساء ويحصل معرفة بمختلف العلوم تحصيلا تحدوه التقوى »(٣٨) .

ويسهل علينا بعض الشىء فهم التصوير الشرقى ؛ لو وضعنا نصب أعيننا

(*) هو « هزيه هو » — راجع ما جاء عنه فى الجزء الخاص بالصين من هذه السلسلة ؛ وتاريخ « الساندانجا » مجهول لأننا عرفناه من شرح كتبه لشارح فى القرن الثالث عشر .

أولا ، أنه لا يحاول تصوير الأشياء بل تصوير العواطف ، وأنه لا يحاول مطابقة الأصل بل يكتفى بالإيحاء به ، وأنه لا يعتمد على اللون بل على التخطيط وأن غايته أقرب إلى أن تكون إثارة عاطفة جمالية ودينية منها إلى أن تكون محاكاة للواقع ، وأنه مهتم بما فى الناس والأشياء من « أنفس » أو « أرواح » أكثر من اهتمامه بصورتها المادية ، ومع ذلك فهما حاولنا ، فنوشك ألا نجد فى التصوير الهندى ذلك الرقى الفنى ، أو ذلك البعد فى المدى والعمق فى المعنى ، الذى يميز فن التصوير فى الصين أو فى اليابان ؛ وترى بعض الهنود يعللون لك تعليلا مغاليا فى شطحته مع الخيال ، فيزعمون أن التصوير قد تدهور عندهم لأنه أيسر من أن يتقدم به المتقرب إلى الآلهة ، إذ ليس فى إخراجه من العناء ما يشرف ذلك المتقرب[٣٩] ، ويجوز ألا تكون الصور بما تتصف به من سرعة التعرض للزوال والفناء ، مما يشبع فى نفس الهندى ذلك التعطش الذى يحسه نحو تجسيد إلهه المختار تجسيداً يبقى على وجه الزمان ؛ فلما لاءمت البوذية بين نفسها وبين التصوير الفنى للأشياء ، ولما كثرت وازدادت الأضرحة البرهمية : أخذ النحت يحل محل التصوير شيئاً فشيئاً ، ليأخذ الحجر الدائم مكان اللون والتخطيط .

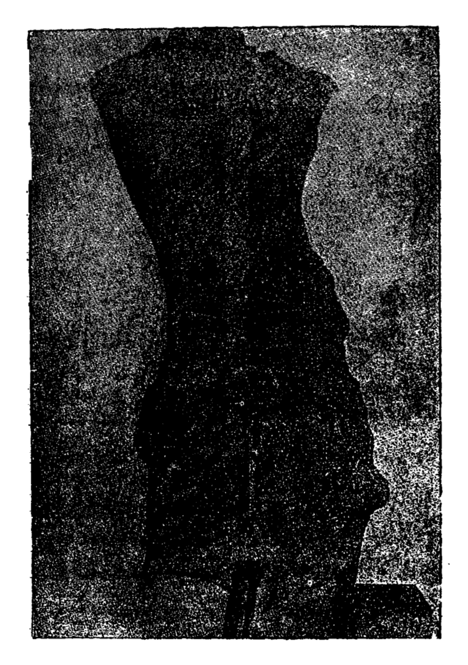
الفصل الرابع

النحت

النحت البدائى – النحت البوذى – جاندهارا –
جوبتا – تأثره بالمستعمرين – تقدير

ليس فى مقدورنا أن نتعقب مراحل النحت التاريخية فى الهند بادئين بالتماثيل الصغرى التى وجدت فى « موهنجو – دارو » ومنتهين بعصر « أشوكا » لكن يجوز لنا أن نشك فى أن هذه الفجوة التى تعترض تطور تلك المراحل ، ليست فجوة فى تقدم الفن نفسه بمقدار ما هى فجوة فى علمنا به ؛ وربما أفقرت الغزوات الآرية الهند حيناً من الدهر ، فانتكست بفعل الفقر من الحجر إلى الخشب فى صناعة تماثيلها ؛ أو ربما كان الآريون أكثر انصرافاً إلى الحروب من أن يجدوا الفرصة للعناية بالفنون ، فأقدم التماثيل الحجرية التى بقيت لنا فى الهند ، لا يرجع إلى عهد أقدم من « أشوكا » لكن هذه التماثيل تدل على مهارة بلغت من الرقى حداً رفيعاً لا يدع لنا مجالا للشك فى أن الفن كان قبل ذلك آخذاً فى نموه عدة قرون[40] ؛ وجاءت البوذية فوضعت حوائل معروفة تقوم فى وجه التصوير والنحت معاً ، وذلك بمقتها للأوثان وللتصاوير الدنيوية : إن بوذا يحرم « تصاوير الخيال فى رسم أشخاص الرجال والنساء »[41] وبحكم هذا التحريم الذى يوشك أن يكون صادراً من موسى لقى التصوير والنحت من الحوائل فى الهند مثل ما لقياه فى عهود اليهود ، ومثل ما سيلقيانه بعدئذ فى ظل الإسلام ، لكن هذا « التزمت » – فيما يظهر – أخذ يتراخى شيئاً فشيئاً كلما تهاونت البوذية فى تشددها وازدادت مشاطرة للروح الدراڤيدية التى تميل إلى الرمز والأساطير ، فلما عاد فن النحت إلى الظهور من جديد (حوالى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد) فى التماثيل الحجرية البارزة القائمة على « السور » الذى يحيط بأكمات

المدافن البوذية فى « بوذا – جايا » و « بهارهوت » كانت هذه التماثيل أقرب إلى



جذع شاب من سانكى

أن تكون جزءاً لا يتجزأ من التصميم المعمارى للبناء منها إلى أن تكون فناً مستقلا مقصوداً لذاته ؛ ولبث الجزء الأكبر من النحت الهندى حتى ختام مراحله التاريخية تابعاً لفن العمارة، وكان طوال الوقت يؤثر النحت البارز على الحفر(*)؛



ملك ناجا — واجهة بارزة فى أجانتا

التمثال الجالس لبراهما — القرن العاشر

وقد بلغ هذا النحت البارز ذروة رفيعة من الكمال فى المعابد الجانتية «مأثورة» ، وفى الأضرحة البوذية فى «أماراڤاتى» و «أجانتا» ؛ ويقول أحد الثقات الراسخين فى العلم إن السور المنحوت فى «أماراڤاتى» : «أرق زهرة فى النحت الهندى وأوغلها فى أسباب الترف»(٤٣).

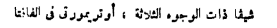
(*) لهذا التعميم استثناء ضخم بفسله ، هو التمثال النحاسى الكبير لبوذا ، الذى يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً ، والذى شهده «يوان شوانج» فى «ڤاتالى پوترا» ؛ وقد يكون هذا التمثال — بفضل «يوان» وغيره ممن حجوا إلى الهند من أهل الصين — أحد الأسلاف التى نتج عنها تماثيل بوذا العظيمة فى «نارا» و «كاماكورر» من بلاد اليابان .

فى ذلك الوقت عينه ، كان نمط آخر من أنماط النحت فى سبيله إلى الرقى فى إقليم « جاندهارا » الواقع فى شمال غربى الهند ؛ وذلك فى رعاية الملوك « الكوشيين » ، وهم أبناء أسرة يحيط بها الغموض ، انبثقت بغتة من الشمال — ومن الجائز أن يكون فى أصولها جذور هلينية — فظهر بظهورها ميل نحو إدخال التوالب الفنية اليونانية ، وكانت بوذية « ماهايانا » التى استولت على مجلس « كانِشْكا » هى التى شقت الطريق إلى ذلك الفن اليونانى ، بإلغائها تحريم التصوير والنحت ، فاستطاع بعض المعلمين اليونان أن يوجهوا النحت الهندى وجهة اصطنع فيها لفترة من الزمن وجهاً « هلينيا » طليقاً ، فتحول بوذا



بوذا سارنات — القرن الخامس

إلى ما يشبه أبولو ، وأخذ يطمح إلى بلوغ الأولمب ، وأصبحنا نرى الثياب تنساب أذيالها على آلهة الهندوس وقديسيهم على نحو ما ترى فى نحت « فيدياس »



شيفا ذات الوجوه الثلاثة ، أوتريمورتى فى الفانتا

كما نرى تماثيل تصور « بوذيساتاوا » التي وهو بصاحب « سيلبني » الطروب



بوذا أنورا ذابورا – في سيلان

المخمور(٤٣)، ومثلوا مولاهم بوذا وتلاميذه تماثيل جمَّلوا أجسادها وكادوا يجعلونها مُخَنَّثة الأجزاء، إذ أخرجوها على غرار نماذج يونانية بشعة تمثل اليونان وهم فى مرحلة واقعية تميل بهم نحو الانهيار؛ ومن ذلك تمثال بوذا الذى يتضور جوعاً، ففى هـذا التمثال ترى كل ضلع وكل عصب من أضلاع جسده وأعصابه، ثم تراهم ركبوا على هذا الجسد وجه امرأة، ورتّب شعر الرأس على نحو ما يُرتَّبُ الشعر فى رءوس السيدات، ولو أنهم جعلوا فى ذلك الوجه لحية الرجال(٤٤)؛ وقد تأثر «يوان شوانج» لهذا الفن الذى يمزج بين اليونانية والبوذية والذى انتقل إلى الصين وكوريا واليابان(٤٥) بفضل «يوان شوانج» هذا وغيره ممن حجوا إلى الهند فيما بعد؛ لكن هذا الفن لم يكن له إلا قليل أثر فى قوالب النحت وطرائقه فى الهند ذاتها؛ فلما انقضى عهد مدرسة جاندهارا بعد بضعة قرون قضتها فى نشاط مزدهر، عاد الفن الهندى من جديد إلى الحياة فى ظل حكام من الهندوس، واستأنف التقاليد التى خلّفها الفنانون الوطنيون فى «بهارهوت» و «أماراڤاتى» و «مأثورة»، ولم ينظر إلا بطرف عينه إلى آثار الفترة اليونانية القصيرة التى ظهرت فى جاندهارا.

وازدهر النحت — كما ازدهر كل شيء تقريباً فى الهند — تحت حكم أسرة جوپتا؛ وكانت البوذية عندئذ قد نسيت عداوتها لتصوير الأشخاص، ونهضت البرهمية وقد تجدد نشاطها، فشجعت الرمزية وزخرفة الدين بكل أنواع الفنون؛ فترى فى متحف «مأثورة» تمثالا حجرياً لبوذا أتقنت صناعته، بعينين تنمان عن تأمل عميق، وشفتين حساستين، وجسد بولغ فى رشاقته، وقدمين قبيحتين مستقيمتى الخطوط؛ وترى فى متحف «سارنات» تمثالا حجرياً آخر لبوذا فى جلسة القرفصاء التى كتب لها أن تسود النحت البوذى، وفى هذا التمثال تصوير بارع لآثار التأمل الهادئ والرقة القلبية الصادرة عن ورع؛ وفى «كاراتشى» تمثال برنزى صغير لبراهما، يشبه صورة «ڤولتير» شبهاً واضحاً(٤٦).

واذهب حيث شئت فى أرجاء الهند ، تر فن النحت فى الألف عام التى



شيفا الراقصة ، فى جنوبى الهند – القرن السابع عشر

سبقت قدوم المسلمين ، قد أنتج آيات روائع على الرغم من أن خضوعه لفن العمارة وللدين قد حَدَّد خطاه ، وإن يكن مصدر وحى له فى الوقت عينه ، فالتمثال الجميل الذى يصور « فشنو » والذى جاء من سلطانپور(٤٧) وتمثال « پادماپانى » الذى أجيدت صناعته بأزميل الفنان(٤٨) وتمثال « شيفا » الضخم ذو الوجوه الثلاثة (الذى يسمى عادة تريمورتى) (الذى نحت نحتاً عميقاً فى كهوف « إلفانتا »(٤٩) والتمثال الحجرى الذى تكاد تحسبه من صنع « پراكسيتى » والذى يعبده الناس فى « نوكاس » باعتباره الإلهة « روكمينى »(٥٠) و« شيفا » الراقص الرشيق — أو ناتاراجا — المصنوع من البرونز بأيدى الصناع الفنانين فى تانچور(٥١) وتمثال الغزال الجميل المنحوت من الحجر ، وفى «مامالاپورام»(٥٢) و« شيفا » الوسيم فى « پرور »(٥٣)— هذه كلها شواهد على انتشار فن النحت فى كل إقليم من أقاليم الهند .

واجتازت هذه البواعث نفسها وهذه الأساليب نفسها ، حدود الهند الأصلية حيث كان من أثرها أن نتجت آيات فنية فى تركستان وكمبوديا وجاوه وسيلان وغيرها ؛ ويستطيع طالب الفن أن يجد أمثلة لذلك ، هذا الرأس الحجرى — ويظهر أنه رأس غلام — الذى احتفره من رمال خوتال « سير أورل شتاين » وصحبه(٥٤) ورأس بوذا الذى جاء من سيام(٥٥) وتمثال « هاريهارا » فى كمبوديا الذى يتميز بدقة تشبه دقة المصريين فى تماثيلهم(٥٦) والتماثيل البرونزية الرائعة فى جاوة(٥٧) ورأس «شيفا» الذى جاء من « پرامبانام » والذى يشبه الفن فى جاندهارا(٥٨) ؛ وتمثال المرأة البالغ حداً بعيداً فى جماله واسمه (پراچناپارامينا) وهو الآن فى متحف ليدن ؛ وتمثال « بوذيساتاوا » الذى بلغ ذروة الكمال وهو فى متحف « جلبتوتك » فى « كوبنهاجن »(٥٩) وتمثال بوذا الهادئ القوى(٦٠) وتمثال « أڤالوكتشڤارا » (ومعناها السيد الذى يصوب نظره إلى الناس مستصغراً مشفقاً) وهو تمثال أجيدت صناعته بالإزميل(٦١) وكلا هذين الأخيرين من المعبد العظيم فى جاوه الذى يسمى « بوروبودور »

وكذلك تمثال بوذا الضخم الغليظ(٦٢) والعتبة المرمرية البديعة(٦٣) في بناء «آنورا ذابورا» في سيلان؛ هذه القائمة المملة، التي ذكرنا فيها آثاراً فنية لابد أن تكون قد كلفت دماء كثير من الرجال في عدة قرون من الزمان، تدل بعض الدلالة على أثر العبقرية الهندية في مستعمرات الهند الثقافية.

إنه ليتعذر علينا للوهلة الأولى أن نقدر هذا النحت؛ فليس يستطيع أحد من الناس أن يطرح وراء ظهره بيئته الخاصة حين يرتحل في غير بلاده إلا ذو العقل العميق المتواضع؛ إنه لا مناص لنا من أن ننقلب هنوداً أو أبناء هذا البلد أو ذاك مما أخذ بزعامة الهند الثقافية، لنفهم الرمزية الكامنة في هذه التماثيل، وندرك ما تدل عليه هذه الأذرع والسيقان الكثيرة من وظائف وقوى خارقة، ونسيغ الواقعية البشعة التي تمثلها هذه التماثيل الشاطحة بخيالها، المعبرة عن رأي الهندوس في القوى الخارقة للحدود الطبيعية، التي تبدع في خلقها بما يجاوز حدود العقل، وتخصب إخصاباً يجاوز حدود العقل، وتخرب تخريباً يجاوز حدود العقل، إنه ليروعنا أن نرى كل شخص في قرى الهند نحيل الجسم، بينما نرى كل شخص في تماثيل الهند بديناً، لأننا ننسى أن التماثيل تصور الآلهة قبل كل شيء، والآلهة هم الذين يتلقون زبدة ما تثمره البلاد من خيرات؛ وإن أنفسنا لتضطرب حين نعلم أن الهنود صبغوا تماثيلهم بالألوان، ومن ثمّ ينكشف لنا الغطاء عن حقيقة نسهو عن إدراكها، وهي أن اليونان فعلوا ذلك أيضاً، وأن الجلال الذي في آلهة فيديا يرجع بعضه إلى زوال الصبغة عن تماثيلهم زوال جاء عرضاً؛ وإنه كذلك ليسوءنا أن نرى قلة تماثيل النساء قلة نسبية في معارض الفن الهندي، ونرثي لإذلال النساء الذي قد تدل عليه هذه الظاهرة، ولا نذكر أبداً أن مذهب العري في المرأة ليس أساساً لفن النحت يستحيل الاستغناء عن وجوده، وأن أعمق جمال للمرأة قد يتبدى في الأمومة أكثر مما يتبدى في الشباب، قد تدل عليه «ديميتر» أكثر

مما تدل عليه « أفروديت » ؛ أو قد ننسى أن النحات لم ينحت ما تتعلق به أحلامه بقدر ما يحب ما أذن به الكهنة ، وأن كل فن فى الهند كان يتبع الدين أكثر مما يتبع الفن نفسه ، إذ كان خادماً للاهوت أو قد نفسر بالجد ما لم يقصد به النحات إلى الجد ، وإنما قصد به تصويراً كاريكاتورياً أو فكاهة أو بشائع يخيف بها الأرواح الشريرة فيطردها ، فإذا ما رأينا أنفسنا نزور عنها فى امتعاض فقد أقمنا بذلك الدليل على تأديتها لما أريد لها أن تؤديه .

ومع ذلك فلم يبلغ فن النحت فى الهند كل ما بلغه أدبها من رشاقة ، أو ما بلغه فن العمارة فيها من فخامة ، أو ما بلغته فلسفتها من عمق ؛ فكان أول ما صوره النحت فى الهند هو مكنون عقائدها الدينية على خلطه واضطرابه ، ولئن بزّت الهند بفن النحت فيها نظائره فى الصين واليابان ، إلا أنها لم تبلغ قط مستوى التماثيل المصرية فى برود كمالها ، ولا مستوى التماثيل المرمرية اليونانية فى جمالها الحي المغرى ؟ وإذا أردنا أن نقف من النحت الهندى عند مجرد الفهم لما ينطوى عليه من مزاعم ، كان لا مندوحة لنا عن استعادة الشعور بالتقوى فى قلوبنا ، ذلك الشعور الذى ساد فى العصور الوسطى بجده وإيمانه ، والحق أننا نسرف فيما نطالب به فن النحت أو فن التصوير فى الهند ، فترانا نحكم عليهما كما لو كانا فى تلك البلاد — كما هما فى بلادنا — فنين مستقلا أحدهما عن الآخر ، مع أن حقيقة الأمر هى أننا فصلناهما لتسهل دراستهما حسب ما جرت به التقاليد فى تقسيم الفنون أقساماً مختلفة الأسماء مختلفة المعايير ، فلو استطعنا أن ننظر إليهما كما هما فى رأى الهندى ، أى على اعتبار أنهما جزآن من عدة أجزاء يتألف منها فن العمارة عندهم ، الذى لا يفوقهم فيه شعب آخر ، كان ذلك منا بمثابة البداية المتواضعة التى قد تؤدى بنا إلى فهم الفن الهندى :

الفصل الخامس

فن العمارة

(١) العمارة الهندوسية

العهد السابق لأشوكا – العمارة فى عهد أشوكا – العمارة البوذية – العمارة الجانتية – آيات العمارة فى الشمال – هدمها – النمط فى الجنوب المعابد المقامة من حجر واحد – المعابد المقامة من أحجار عدة

لم يبق لنا شيء من العمارة الهندية قبل « أشوكا » فلدينا آثار من اللبن فى « موهنجو – دارو » ، لكن أبنية الهند فى العهدين الفيدى والبوذى كانت فيما يظهر من الخشب ، والأغلب أن « أشوكا » كان أول من استخدم الحجر لأغراض البناء[٦٤] وإننا لنصادف فى أدبهم ما يدل على أن قد كان لهم أبنية ذات سبعة طوابق[٦٥] كما قد كان لهم قصور فخمة ، لكن لم يبق من كل هذا أثر واحد ، ويصف المجسطى قصور الملوك من أسرة « شاندراجوبتا » فيقول إنها أعظم من أى شيء مما عساك أن تراه فى فارس ما عدا « فرسوبولس » (أى مدينة الفرس) التى اتخذت نموذجاً احتذاه هؤلاء الملوك الهنود فيما يظهر[٦٦]، ولبث هذا التأثير الفارسى حتى عهد « أشوكا » ، لأنك تراه ظاهراً فى تصميم قصره ، إذ تجد هذا القصر مطابقاً « للقاعة ذات الأعمدة المائة » فى « فرسوبولس »[٦٧] كما ترى تأثير الفرس أيضاً ظاهراً فى عمود « أشوكا » البالغ فى « لوريا » متوجا فى قمته العليا بتمثال الأسد .

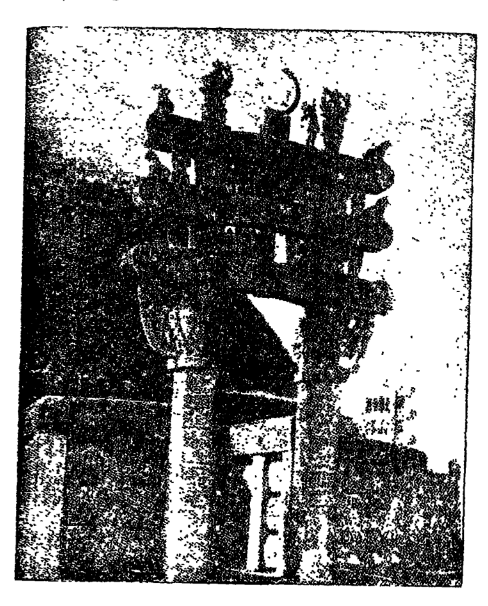
فلما تحول « أشوكا » إلى البوذية ، أخذت العمارة الهندية تلقى عن كاهلها هذا التأثير الأجنبى ، وتستمد روحها ورموزها من الديانة الجديدة ، ومرحلة الانتقال ظاهرة فى رأس عمود كبير ، هو كل ما بقى لنا الآن من عمود آخر

يرجع إلى عهد أشوكا ، فى « سارنات »(٦٨) فها هنا نشهد آية بلغت من الكمال



قمة عمود أشوكا ، على صورة الأسد

حداً يستوقف النظر حتى لقد قال عنه «سير جون مارشال» إنه يضارع «أي شيء من نوعه في العالم القديم» (٦٩) ، إذ ترى أربعة أسود قوية وقفت ظهراً لظهر حارسة ، وهي فارسية خالصة من حيث الصورة والملامح . لكنك ترى أسفل هذه الأسود إفريزاً نحتت فيه بعض الشخوص نحتاً جيداً ، من ذلك تمثال لحيوان قريب إلى نفوس الهنود وهو الفيل ، ورمز مطوع بطابعهم وهو

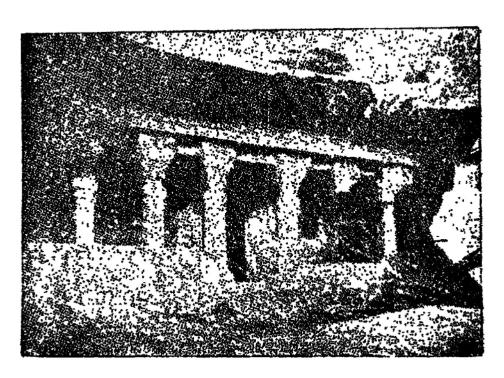


سانكي توب ، في البوابة الشمالية

« العجلة البوذية التي ترمز للقانون » ، ثم ترى تحت الإفريز صورة حجرية لزهرة كبيرة من زهرات اللوتس ، أخطأ الباحثون من قبل فظنوها رأس عمود على صورة جرس مما يدل على تأثير الفرس ، أما الآن فقد أجمع الرأى على أنها بين رموز الفن الهندى أقدمها وأوسعها انتشاراً وأخصها انطباعاً بالروح الهندية(٧٠) والزهرة قائمة عمودية ، وأوراقها منحنية إلى أسفل بحيث يظهر عضو التأنيث فى الزهرة ، الذى يحتوى على البذور ، وهم يمثلون به رحم العالم ، أو يصورون به عرش الله ، باعتباره من أجمل ما تبديه من الطبيعة من ظواهر ؛ وقد انتقلت زهرة اللوتس — أو سوسنة الماء — بما ترمز إليه ، مع البوذية ، حيث تغلغلت فى ثنايا الفن الصينى واليابانى ، وقد اصطنعوا فى عهد « أشوكا » صورة شبيهة بزهرة اللوتس فى بناء النوافذ والأبواب ، هى التى أصبحت « قوس حدوة الفرس » الذى نشاهده فى الأبهاء والقباب التى ترجع إلى « أشوكا » ، وهو فى بادئ أمره مستمد من تقويس السقوف المصنوعة من القش فى منازل البنغال ، والتى تشبه « العربة المُغَطَّاة » تلك السقوف التى كانت تسندها دعائم من قضبان الخيزران المثنى(٧١) .

ولم تخلّف لنا العمارة الدينية فى العصور البوذية إلا قليلا من المعابد المخربة وعدداً كبيراً من « أكمات المقابر » وما يحيط بها من « أسوار » ، وقد كانت « أكمة المقابر » فى الأيام الأولى مكاناً للدفن ، ثم أصبحت فى عهد البوذية ضريحاً تذكارياً يضم عادة آثار قديس بوذى ؛ وتتخذ « أكمة المقابر » فى معظم الأحيان صورة قبة من اللبن المجفف ، فى رأسها برج مدبب الطرف ، وحولها سور حجرى منحوت بالشخوص البارزة ، ومن أقدم هذه « الأكمات » أكمة فى « بهارهوت » غير أن الشخوص البارزة هناك غليظة الفن إلى درجة تجعلها بدائية الصناعة ، وأرقى ما بقى لنا من هذه الأسوار فى زخرفه هو السور الموجود

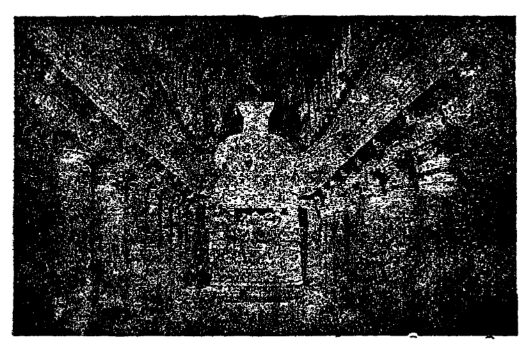
فى « أماراڤاتى » ، ففيه ترى مسطحاً مساحته سبعة عشر ألفاً من الأقدام المربعة ، تغطيها شخوص صغيرة بارزة ، تدل على دقة فى الصناعة بلغت من الروعة حداً جعل « فرجسون » يشهد لهذا السور بأنه « على الأرجح أبدع أثر فى الهند كلها » ؛ وأجمل ما نعرفه من « أكمات المقابر » أكمة « سانكى » ، وهى واحدة من مجموعة فى « بهلسا » من بلدان « بهوپال » ؛ والظاهر أن البوابات الحجرية تحاكى نماذج خشبية قديمة ، وهى التى رسمت الطريق للبوابات التى تراها عند مداخل المعابد فى الشرق الأقصى ؛ فكل قدم مربعة من الأعمدة أو تيجانها أو القطع المستعرضة أو الدعائم ، محفورة بما لا يقع تحت الحصر من صور النبات والحيوان وأشخاص الإنسان وصور الأرباب ؛ ونرى على عمود من أعمدة البوابة الشرقية نحتاً رقيقاً يمثل رمز البوذية الدائم — وهو « شجرة بوذى » أى المكان الذى أشرقت فيه على صاحب العقيدة أنوار الحقيقة ؛ وعلى نفس البوابة كذلك تجد تمثالا لإلهة على هيئة قوس رشيق ،



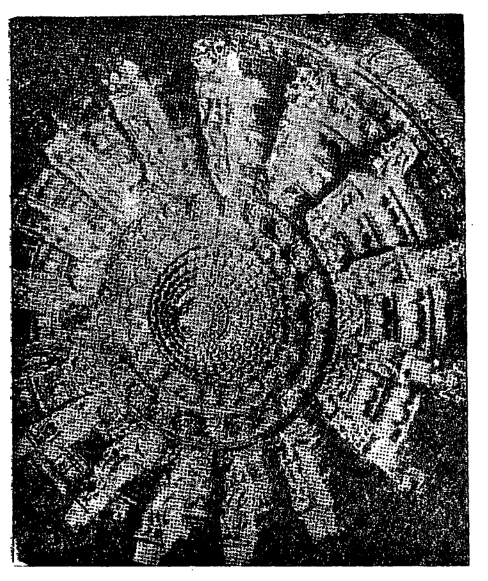
واجهة دير جواتاما پوترا — فى ناسك

وهى « ياكشى » ولها أطراف بدينة وشفاه مليئة وخصر نحيل وثديان ممتلئان »

وبينما كان الموتى من القديسين يرقدون فى « الأكمات » كان أحياء الرهبان يحتفرون لأنفسهم فى صخور الجبل معابد يعتزلون فيها الدنيا ويعيشون فى تراخ وسلام، بمنجاة من عوامل الجو ومن لفحة الشمس ووهجها ؛ وتستطيع أن تتبين مدى قوة الحافز الدينى فى الهند إذا لحظنا أنه قد بقى لنا أكثر من ألف ومائتى معبد من هذه المعابد الكهفية ، بقى هذا العدد لنا من عدة ألوف بنيت فى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح ، بعضها للجانتيين والبراهمة ، لكن معظمها للجماعات البوذية ، وفى معظم الحالات ترى مداخل هذه الأديرة (أو الفهارات كما يسمونها) بوابة ساذجة على هيئة حدوة الفرس أو قوس زهرة اللوتس ؛ وأحياناً — كما هى الحال فى « ناسيك » — يكون المدخل واجهة مزخرفة ، قوامها أعمدة قوية ورءوس حيوان وعَتَبٌ منجوت نحتاً تتطلب صبراً لا ينفد ،

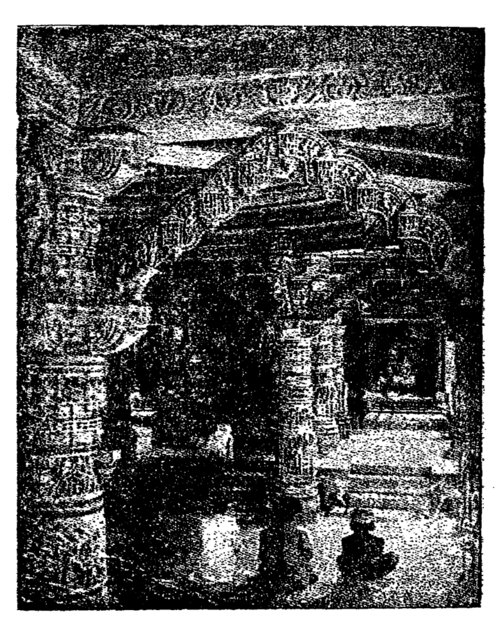


بهو شايتيا من الداخل — كهف ٢٦ فى اجانتا



القبة من الداخل فى معبد تجاهبالا – فى جبل آبو

وكثيراً ما كانوا يزينون المدخل بأعمدة وأستار حجرية وبوابات غاية فى جمال التصوير(٧٤) ، وأما الداخل ففيه « شايتيا » أى قاعة للاجتماع بأعمدة تفصل الوسط عن الجانبين ، وعلى كلا الجانبين حجيرات للرهبان ، وفى الطرف



معبد فيمالا صاح فى جبل أبو

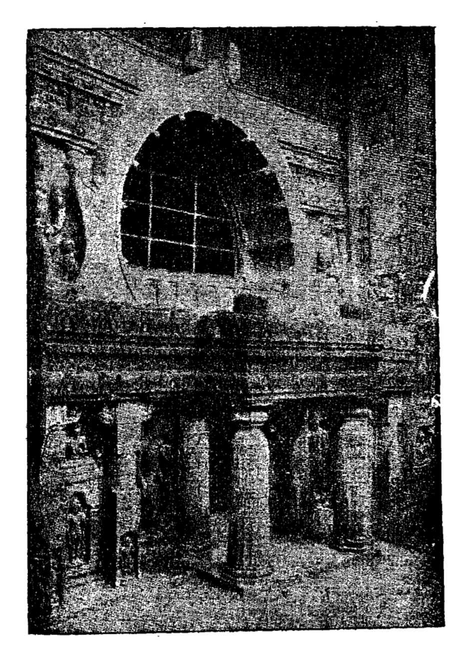
الثانى من الداخل مذبح عليه بعض الآثار القديمة(*) ومن أقدم هذه المعابد الكهفية ، وقد يكون أجملها جميعاً ، معبد فى «كارل» الواقعة بين «پونا» و «بمباى» ، ففى هذا المعبد أنتجت بوذية «هنايانا» أروع آياتها الفنية .

وأما كهوف «أجانتا» ففضلا عن كونها مخابئ لأعظم الصور البوذية ، فهى كذلك تضارع «كارل» فى كونها أمثلة لذلك الفن المركب من جانبين : فنصفه عمارة ونصفه نحت ، وهو ما يميز معابد الهند ؛ ففى الكهفين رقم (١) ورقم (٢) قاعات فسيحة للاجتماع ، سقوفها — المنحوتة والمرسومة بزخارف رصينة لكنها رشيقة — قائمة على عمد منقوشة بخطوط محفورة ، مربعة عند أسفلها مستديرة عند قمتها ، مزخرفة برسوم من الزهر ومتوجة برءوس لها فخامتها(٧٥) ويتميز الكهف رقم (١٩) بواجهة أتقنت زخرفتها بتماثيل بديعة ورسوم بارزة مشتبكة الأجزاء(٧٦) ، وفى الكهف رقم (٢٦) تنهض أعمدة إلى إفريز متوج بتماثيل منحوتة فى دقة تفصيلية يستحيل أن تتم إلا إن توفرت لها الحماسة الدينية والفنية فى آن معاً(٧٧) ؛ فلا تكاد تجد ما يبرر لك أن تسلب «أجانتا» الحق فى أن تعد واحدة من أعظم ما خلف تاريخ الفن من آثار .

وأفخم المعابد البوذية الأخرى التى لا تزال قائمة فى الهند ، البرج العظيم فى «بوذ — جايا» ، وقيمته فى أقواسه المصطبغة بصبغة قوطية خالصة ، ومع ذلك فتاريخها يرجع — فيما يظهر — إلى القرن الأول الميلادى(٧٨) .

وأهم ما تتميز به العمارة البوذية على وجه الجملة هو أنها مفككة ، وجلالها فى تماثيلها قبل أن يكون فى بنائها ؛ ويجوز أن تكون روح التزمت الدينى العالقة بها هى التى جعلتها فى ظاهرها منفرة للعين عارية عما يجذب النظر ؛ وأما الجانتيون فقد توجهوا بعناية أكبر من عناية البوذيين ، إلى فن العمارة ، وكانت

(*) تطابق هذا الداخل مع داخل الكنائس المسيحية قد أوحى بإمكان أن يكون الفن الهندى أثر فى فن العمارة المسيحية(٧٤) .



كهف « ١٩ » فى أچانتا

وهم فى بادئ أمرهم لم يخلقوا لأنفسهم نمطاً فى العمارة خاصاً بهم ، واكتفوا فى البداية بمحاكاة الطريقة البوذية (مثال ذلك ما نراه فى إكوار) التى تحتفر المعابد فى صخور الجبل ، ثم بمحاكاة معابد ڤشنو وشيڤا ، وهى على نمط يتميز بأنه يقوم على مجموعة من الجدر فوق نشز من الأرض ؛ هذه المعابد كانت بسيطة الظاهر ، لكنها كانت كثيرة التفصيلات غنية الفن من الباطن - ولعلها فى ذلك أن تكون رمزاً موفقاً للحياة المتواضعة ، وأخذ الناس يندفعون بروح التقوى فيضيفون إلى هذه المعابد تمثالا فى إثر تمثال مما يخلد أبطال الجانتيَّة ، حتى لقد بلغ عددها فى « شاترونجايا » - حسب إحصاء فيرجسون - ستة آلاف وأربعمائة وتسعة وأربعين تمثالا(٧٩) .

وأما المعبد الجانتىُّ فى « أبهول » فيكاد يكون إغريقى النمط ، بصورته الرباعية الأضلاع ، وأعمدته الخارجية ، ومدخله ، والغرفة الداخلية ، أو إن شئت فقل الحجيرة التى تتوسطه من الداخل(٨٠) ؛ وقد أقام الجانتيون والڤشناويون والشيڤاريون فى « خاجوراهو » ما يقرب من ثمانية وعشرين معبد قريباً بعضها إلى بعض ، كأنما أرادوا بها أن يضربوا مثلا لروح التسامح الدينى فى الهند ؛ وبين تلك المعابد معبد « پارشوانات »(٨١) الذى يبلغ درجة الكمال ، وهو ينهض مخروطاً فوق مخروط حتى يبلغ ارتفاعاً هائلا ، ويؤوى فى جدرانه المحفورة مدينة حقيقية من القديسين الجانتيين ؛ وقد أقام الجانتيون على جبل « أبُو » وارتفاعه فوق صدر الصحراء أربع آلاف قدم ، معابد كثيرة منها اثنان باقيان ، هما معبد « ڤيالا » ومعبد « تجاه پالا » ، يعدّان أعظم ما أبدعته هذه الطائفة فى مجال الفنون ؛ فقبة الضريح « تجاه پالا » من الأشياء التى توقع فى نفس الرائى أثراً عميقاً يتضاءل أمامه كل ما يكتب عن الفنون بحيث يصبح تافهاً عاجزاً(٨٢) ؛ وأما معبد « ڤيالا » المبنى كله من المرمر الأبيض فمؤلف من خليط من أعمدة لا يطرد فيها نظام ، ترتبط بأقواس أبدعها الخيال

العجيب بمصاطب منحوتة نحتاً أميل إلى البساطة ، وفوق الأعمدة قبة من المرمر يولع فى حفرها بالتماثيل الكثيرة لكن حفرها بلغ من الرقة حداً يروعك جلاله وأنت تستعرضه ؛ ويقول فيه « فيرجسون » : « إن النحت قد أتقنت تفصيلاته وأجيدت زخرفته ؛ حتى ليجوز لنا أن نقول إنه ليس فى العالم كله ما يفوقه فى ذلك ؛ إذ النقوش التى زخرف بها المعماريون مُصَلَّى هنرى السابع فى وستمنستر أو فى أكسفورد ، تعتبر غليظة بغيضة إذا قورنت بنقوش ذلك المعبد(٨٣) .

ونستطيع أن نلحظ فى هذه المعابد الجانتيّة ومعاصراتها ، مرحلة الانتقال من صورة الضريح البوذى المستديرة إلى نمط البرج الذى ساد فى عصور الهند الوسطى فقاعة الاجتماع المحاطة بأعمدة من الداخل جاءوا بها إلى الخارج حيث تحولت إلى ممشى عند المدخل ، ثم تقع الحجيرة خلف هذا المشى ، ويرتفع فوقها البرج المعقد المنحوت فى مستويات تقل مساحة كلما ازدادت ارتفاعاً ؛ وعلى هذا التصميم بنيت معابد الهندوس فى الشمال ، وأوقع مجموعة من هذه المعابد فى نفس الرائى ، هى المجموعة المسماة (بهوڤانشوارا) فى إقليم « أوريسا » وأجمل معبد فى هذه المجموعة هو معبد « راجارانى » الذى أقيم للإله « ڤشنو » فى القرن الحادى عشر الميلادى وهو عبارة عن برج شامخ يتألف من أعمدة نصف دائرية ملاصق بعضها لبعض تغطيها التماثيل وتعلوها طبقات من الحجر تتناقص حجماً كلما ازددنا معها صعوداً ، وبهذا يكون البرج منحنياً إلى الداخل ومنتهياً بتاج دائرى كبير ومسلة ؛ وبالقرب منه يقع معبد « لنجاراجا » وهو أكبر من معبد « راجارانى » لكنه لا يبلغ فى الجمال مبلغه ، ومع ذلك فكل نقطة من مسطح البناء قد مرّت عليها يد النحات بإزميلها ، حتى لقد قدرت تكاليف النحت ثلاثة أمثال تكاليف البناء ذاته(٨٤) فالهندوسى لم يعبّر عن تقواه بضخامة معابده الجبارة وحدها ، بل أضاف إلى الضخامة تفصيلات فنية احتاجت فى إخراجها إلى صبر طويل ، فلم يكن عنده شىء يَضِنّ به على الإله مهما بلغت نفاسته :



«كهوف إلفانتا» بالقرب من بمباى

وإنه لمن البغيض إلى النفس أن نذكر قائمة آيات البناء الهندوسي في الشمال غير التي ذكرناها ، دون أن نذكر أوصافها التي تتميز بها . وأن نمثلها بصورها الفوتوغرافية ؛ ومع ذلك فيستحيل على من يسجل المدنيّة الهندية أن يغض الطرف عن معابد « سوريا » في « كاناراك » و « موزيرا » ، وعن برج « چاجانات پورى » ، وعن البوابة الجميلة في ڤادناجار »(٨٥) والمعبدين الضخمين « ساس — باهو » و « تلي — كار — مانديرا » في « جواليور »(٨٦) وقصر « راجا مان سنج » وهي أيضاً في « جواليور »(٨٧) « وبرج النصر » في شيتور (٨٨) ، ولا تستطيع العين أن تخطئ معابد الشيڤاويين في « خاجوراهو » ؛ وفي المدينة نفسها ترى القبة الكائنة عند دهليز المدخل في معبد « خانوارمات » وهي تدل دلالة جديدة على قوة الفتوة السارية في العمارة الهندية ، وعلى ما في النحت الهندي من غزارة تفصيلات وصبر في الصناعة (٨٩) ؛ وعلى الرغم من أن معبد شيڤا في « إلفانتا » لم يبق منه إلا أنقاض ، فهو دليل بأعمدته الضخمة المحفورة ، ورءوس الأعمدة التي على شكل نبات الفُطْر ، ونقوشه البارزة التي لا يفوقها شيء في بابها ، وتماثيله القوية(٩٠) هو بهذا كله دليل على عصر قويت فيه الروح القومية ، وازدادت المهارة الفنية على نحو لا يكاد يعلق منه بالذاكرة شيء ؛

إنه ليستحيل علينا إلى الأبد أن نقدر الفن الهندي حق قدره ، لأن الجهل والتعصب قد قضيا على أعظم آثاره ، ثم كادت تدمر البقية الباقية منه ؛ ففي « إلفانتا » أثبت البرتغاليون تقواهم بتحطيم التماثيل والنقوش البارزة على نحو من الهمجية لم يعرف حدوداً يقف عندها ؛ وتكاد لا تجد مكاناً في الشمال لم يقوض فيه المسلمون تلك الروائع الباهرة التي يجمع رأي الرواة على أنها كانت أرفع قدراً من آيات العهد الذي تلا عهدها ، مع أن هذه الأخيرة تثير فينا اليوم شعور العجب والإعجاب ؛ لقد أطاح المسلمون برءوس التماثيل ، ثم حطموها عضواً عضواً ، وعدلوا من الأعمدة الرشيقة التي كانت في معابد الجانتيين(٩١)

بحيث تصلح لمساجدهم ، ثم قلدوها إلى حد كبير فيما صنعوه لأنفسهم ؛ لقد تعاون الزمن والتعصب على عملية الهدم ، ذلك لأن الهندوس المتمسكين بأصول عقيدتهم هجروا وأهملوا المعابد التي دنستها أيدى الأجانب حين مستها(٩٢) .

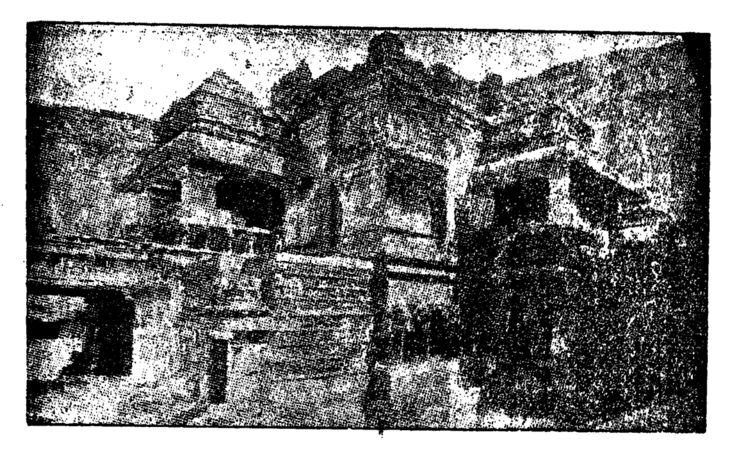
لكنه فى مقدورنا أن نحدس كم بلغت العمارة الهندية فى الشمال من عظمة مفقودة ، وذلك استدلالا من الأبنية القوية التى لا تزال قائمة فى الجنوب ، حيث الحكم الإسلامى لم يتوغل إلا إلى حد ضئيل ، وحيث أدى إلف المسلمين بالأوضاع فى الهند إلى الحد من كراهيتهم لأساليب الحياة عند الهندوس ؛ زد على ذلك أن العصر الزاهر لعمارة المعابد فى الجنوب ، جاء فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بعد أن راض « آكبر » المسلمين وعلمهم بعض الشىء كيف يقدرون الفن الهندى ؛ فنتج عن ذلك أن أصبح الجنوب غنياً بمعابده ، التى تسمو عادة على قريناتها التى ما زالت قائمة فى الشمال ، وتزيد عليها ضخامة وروعة ؛ ولقد أحصى « فيرجسون » نحو ثلاثين معبداً « دراڤيديا » أى كائناً فى الجنوب — كل معبد منها فى رأيه لا بد أن يكون قد كلف ما تكلفه كاتدرائية إنجليزية من النفقات(٩٣) ؛ واصطنع الجنوب أنماط الشمال بأن جعلوا أمام الدهليز (ويسمونه ماندا پام) (بوابة واسمها جوپورام) ودعموا الدهليز بأعمدة أسرفوا فى كثرتها ، وراح هذا الجنوب يستخدم فى غير تحفظ عشرات من الرموز ، من الصليب المعقوف « السواستكا »(*) ورمز الشمس وعجلة الحياة ، إلى شتى ضروب الحيوان المقدس ؛ فالثعبان رمز لعودة الروح بالتناسخ لما له من قدرة على تبديل جلده ؛ والثور هو المثل الأعلى المرموق باعتباره رمزاً للقوة التناسلية ، وعضو الذكورة يمثل تفوق « شيفا » فى التناسل ، وكثيراً ما كانوا يخلعون صورته على المعبد كله .

(*) « سواستكا » كلمة سنسكريتية ، مركبة من « سو » ومعناها طيب « وآستى » ومعناها حياة ؛ وهذا الرمز لم يزل يظهر فى عصور التاريخ فى صنوف من الشعوب مختلفة ، منها البدائى ومنها الحديث ، إذ يتخذه الناس عادة رمزاً للحياة الطيبة أو الحظ السعيد .

ويتألف تصميم البناء فى هذه المعابد الجنوبية من ثلاث عناصر : هى البوابة ، والدهليز ذو الأعمدة والبرج (ڤيمانا) الذى يحتوى على قاعة الاجتماع السياسية أو الحجرة ؛ ولو استثنينا حالات قليلة مثل قصر « تيرومالانايالك » فى « مادورا » وجدنا كل العمارة فى جنوب الهند كهنوتية ، ذلك لأن الناس لم يُعنَهم كثيراً أن يبنوا دوراً فخمة لأنفسهم فتوجهوا بفنهم إلى الكهنة والآلهة ؛ ولن نجد مثلاً أوضح من هذا نبين به كيف كانت الحكومة الحقيقة فى الهند كهنوتية بطبعها ؛ فلم يبق لنا إلا معابد من الأبنية الكثيرة التى أقامها الملوك الشالوكيون وشعبهم ؛ ولا يستطيع أن يصف التناسق الجميل الذى تراه فى ضريح « إتاجى » فى حيدر أباد(٩٤)(*) أو المعبد القائم فى « سمنانپور » فى إقليم « ميسور »(٩٦) الذى نقشت فى صخوره الضخمة الجبارة نقوش رقيقة كأنها الوشى ، أو معبد « هويشا ليشوارا » فى « هاليبيدا »(٧٩) وهى أيضاً فى إقليم « ميسور » — أقول لا يستطيع أن يصف التناسق البديع فى هذا كله ، سوى هندوسى ورع طلق اللسان ؛ ويقول « فرجسون » عن هذا المعبد الأخير « إنه أحد الأبنية التى يتخذها المدافع عن العمارة الهندية حجة تؤيد دفاعه » ثم يضيف إلى ذلك قوله : إن فى هذا المعبد « ترى الفن فى مزج الخطوط الأفقية بالخطوط الرأسية ، وترى تصرف الفنان فى التخطيط وفى النور والظل » مما يفوق بكثير أى أثر من آثار الفن القوطى ؛ فوقع هذا المعبد فى نفس الرائى هو بالضبط ما كان يصبو إليه مهندسو العمارة فى القرون الوسطى ، لكنهم لم يبلغوا منه قط هذه الدرجة من الكمال التى تراها فى هاليبيدا »(٩٨) .

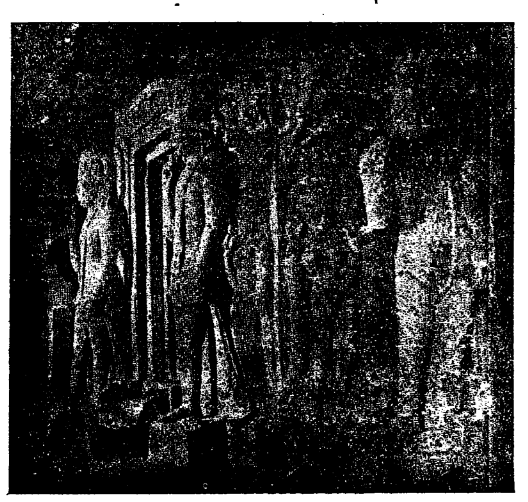
ولقد عجبنا لهذا الورع الدءوب الذى فى مستطاعه أن يحفر ألفاً وثمانمائة

(*) فهاهنا — كما يقول « مِدُوز تيلر » — « ترى النحت على بعض العُمُد والنقوش فى عتبات الأبواب وسقوفها ، يعز عن الوصف ، فيستحيل أن تجد زخرفة فى فضة أو ذهب أجمل من هذه النقوش : ولسنا ندرى اليوم أبداً بأى الآلات أمكن لهذا الصخر الشديد الصلابة ، القوة أن يصاغ ويصقل بحيث يكون كما هو الآن » (٩٥) .



المعبد المنحوت فى الصخر فى كايلاشا

قدم من إفريز فى معبد « هاليبيد » وأن يصور فيها ألفى فيل ، كل فيل منها يختلف عن كل ما عداه(٩٩) فماذا تقول فى الصبر والشجاعة اللذين استطاعا أن يضطلعا بحفر معبد بأسره من الحجر الأصم ؟ ومع ذلك فقد كان هذا عملا شائعاً لدى صنّاع الهنود ، فقد نحتوا فى « ممالاپورام » على الساحل الشرقى بالقرب من « مدراس » عدة معابد (مما يسمى پادوجا) أجملها معبد « ذارما — راجا — راذا » ومعناها دير لأسمى الطوائف الدينية ، وفى « إلورا » — وهو مكان يحج إليه المتعبدون فى حيدر أباد — تنافس البوذيون والجانتيون والهندوس المتمسكون بعقيدتهم الأصلية ، فى احتقار معابد كبيرة ذات حجر واحد ،



الآلهة الحارسة بمعبد إلورا

من صخور الجبال؛ وأفخم هذه المعابد هو الضريح الهندوسي في « كايلاشا »[١٠٠] وقد أطلق عليه هذا الاسم نقلا عن اسم الجنة الأسطورية التي تتبع « شيفا » في جبال الهملايا ؛ فها هنا ترى البنائين قد حفروا في غبر كلل مائة قدم في جوف الصخر ، ليفرغوا المكان حول الجلمود المطلوب — وكتلته مائتان وخمسون قدماً في الطول ومائة وستون قدماً في العرض — لتحويله إلى معبد ، وبعدئذ حفروا الجدران فصبروها أعمدة قوية وتماثيل ونقشاً بارزاً ، ثم نقروا جوف الحجر نقراً بالأزميل حتى أفرغوه ، وأسرفوا في زخرفة ذلك الداخل بأعجب ألوان الفنون ، وليكن النقش الجداري الثابت الخطوط ، والذي يطلق عليه اسم « المحبين »[١٠١] مثلا لها ، وأخيراً عمدوا إلى حفر سلسلة من المُصلَّيات والأديرة عميقة في الصخر على ثلاثة من جوانب المعبد المحفور[١٠٢] ، كأن ما صنعوه لم يكْفِ لاستنفاد كل ما يختلج في صدورهم من رغبة في البناء ؛ وفي رأي بعض الهندوس[١٠٣] أن معبد « كايلاشا » يضارع آية آية من آيات الفن في تاريخه كله .

ومع ذلك فقد كان هذا البناء سخرة كما كانت الإهرامات من قبل ، ولا بد أن يكون قد كلف طائفة كبيرة من الناس عرقهم ودماءهم ، وأما الذي دأب بإرادته على هذه الأبنية دأباً لم يعرف الفتور ، فالنقابات العمالية ، أو أصحاب السلطان ، لأنهم نثروا في كل إقليم من أقاليم الهند الجنوبية أضرحة جبارة بلغت من كثرة العدد حداً يوقع الحيرة في نفس الدارس أو السائح ، حتى لينسى الخصائص القروية التي تميز كل معبد على حدة ، إزاء كثرتها وقوتها ؛ ففي « پاتاداكال » أهدت « الملكة لوكاما هاديڤى » — إحدى زوجات « الملك الشالوكيّ فكراماديتيا الثاني » — أهدت إلى « شيفا » « معبد ڤيروپاكشا » الذي يعد من أسمى المعابد العظيمة في الهند[١٠٤] : وفي « تانچور » جنوبي « مدراس » اقتسم « الملك الكوليّ » « راجا راجا العظيم » — بعد أن فتح جنوبي الهند كله وجزيرة سيلان — اقتسم ما ظفر به من غنائم مع الآلهة « شيفا » بأن

أقام له معبداً جليلا صُمِّم بناؤه على أساس أن يمثل الرمز التناسلى لذلك الإله(١٠٥)(*)؛ وبالقرب من « تريكبنوپولى » إلى الغرب من تانچور — أقام عُبّاد « ڤشنو » معبد « شِيرِى رانجام » على تل عال ، أخص خصائصه المميزة « مانداپام » (قاعة ذات أعمدة كثيرة) على هيئة « قاعة من ذوات الألف عمود » وكل عمود منها كتلة واحدة من الجرانيت ، حفر بالنقوش المعقدة ؛ وكان الصناع الهندوس لا يزالون ماضين فى عملهم ليتمموا بناء هذا المعبد ، حين جاءت رصاصات الفرنسيين والإنجليز الذين كانوا يقاتلون فى سبيل امتلاك الهند فَفَرّقَتْهم ، وانتهى بذلك عماهم(١٠٦)؛ وعلى مقربة من ذلك المكان — فى مادورا — أقام الشقيقان « موتو » و « تيرومالا ناياك » ضريحاً فسيحاً لشيڤا ، فيه قاعة أخرى بألف عمود وحوض مقدس ، وعشر بوابات ، منها أربع ترتفع ارتفاعاً هائلا ، وقد نحتت بعدد كبير متشابك من التماثيل ؛ وهذه الأجزاء مجتمعة تؤلف منظراً من أشد المناظر وقعاً فى النفس مما عساك أن تصادفه فى الهند ؛ ويحق لنا أن نحكم استدلالا من هذه النتف الباقية ما كانت عليه العمارة أيام ملوك « ڤيچاياناجار » من خصوبة فنية واتساع ؛ وأخيراً ترى فى « رامش ڤارام » وسط مجموعة الجزائر التى يتكون منها « جسر آدم » الواقع بين الهند وسيلان ، أقام براهمة الجنوب خلال خمسة قرون (١٢٠٠ — ١٧٦٩ ميلادية) معبداً زُخْرِف محيطه بأروع ما قد تصادفه من أبهاء أو ممَاشٍ — وطول هذا البهو أربعة آلاف قدم من العُمُد المزدوجة ، نحتت نحتاً غاية فى الجلال وأريد بها فى تصميمها أن تنوء بظل بارد ، وأن تمكن من مشاهدة مناظر رائعة للشمس والبحر ، لملايين الحجاج الذين يلتمسون سبلهم إليها من مدن بعيدة حتى يومنا هذا لكى يتقدموا بآمالهم وآلامهم خشّعاً أمام آلهة لا تعبأ مما لهم من آمال وآلام .

(*) قمة المعبد جلمود صخرى واحد مساحته خمس وعشرون قدماً ويزن حوالى ثمانين طناً ؛ ويقول الرواة الهندوس إنهم رفعوا الحجر إلى مكانه بسحبه على سفح مائل مسافة طولها أربعة أميال إلى أعلى : والأرجح أن تكون الصخرة قد فرضت على من قام بهذا وأمثاله بدل الآلات « التى تستعبد الإنسان » .

٢ — العمارة فى « المستعمرات »

سيلان — جاوه — كبوديا — الخمارسة — ديانهم —
أنكور — سقوط الخمارسة — سيام — بورما

على أن الفن الهندى قد صحب الديانة الهندية فى عبورها للمضايق والحدود ، حتى بلغا معاً سيلان وجاوه وكمبوديا وسيام وبورما والتبت وخوتان وتركستان ومنغوليا والصين وكوريا واليابان ؛ فنى آسيا تخرج الطرق كلها من الهند »(١٠٧) فقد استقرت جماعات هندوسية جاءت من وادى الكنج ، فى جزيرة سيلان فى القرن الخامس قبل المسيح ؛ وبعد ذلك التاريخ بمائتى عام أرسل أشوكا بابنه وابنته ليحولا أهل تلك الجزيرة إلى البوذية ، وعلى الرغم من أن هذه الجزيرة الغاصة بسكانها اضطرت إلى مقاومة الغزوات « التاملية » خمسة عشر قرنا ، فقد استطاعت أن تحتفظ بثقافة خصبة حتى جاء البريطانيون واستولوا عليها سنة ١٨١٥ .

بدأ الفن السنغالى بما يسمى « داجوبات » — والداجوبا ضريح قديم ذو قبة يشبه « أكمة المدافن » عند بوذيى الشمال ، ثم تطورت « الداجوبات » حتى أصبحت معابد عظيمة تميز بآثارها العاصمة القديمة « أنوراذاپورا » وقد كان مما أنتجه ذلك الفن عدد من تماثيل بوذا تعد بين أجمل التماثيل البوذية(١٠٨) كما أنتج « تشكيلة » كبيرة من التحف الفنية ، ثم بلغ ختامه موقتاً حين أقام آخر ملك عظيم حكم سيلان — وهو الملك « شرى راجا سنغا » — « معبد السن » فى « كاندى » ؛ وكان من أثر فقدان البلاد استقلالها أن دب الانحلال فى الطبقات العليا ، فاختفت من سيلان تلك الرعاية وذلك الذوق اللذان لا بد منهما ليكونا حافزين وضابطين للفنان فى عمله(١٠٩) .

والعجيب أن أعظم المعابد البوذية — وقد يزعم بعض الباحثين أنه أعظم

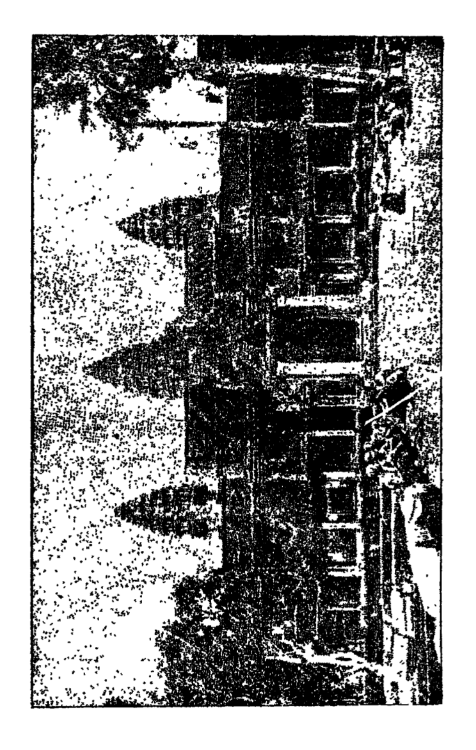
المعابد إطلاقاً في العالم كله(١١٠) – ليس في الهند بل تراه في جاوه ؛ ففي القرن الثامن فتحت أسرة « شايلندرا » السومطرية جزيرة جاوه ، وأقامت فيها البوذية ديانة رسمية ، وأعدت المال اللازم لبناء المعبد الضخم في « بوروبودور » (ومعناها بوذون كثيرون)(١١١) ، والمعبد في ذاته معتدل الحجم غريب التصميم فهو عبارة عن « أكمة للمدافن » صغيرة يعلوها ما يشبه القبة ، وتحيط بها اثنتان وسبعون أكيمة رُصّت حولها في دوائر متحدة المراكز ؛ ولو كان هذا كل شيء لما كانت « بورو بودور » شيئاً مذكوراً ؛ أما ما يخلع الجلال على البناء فقاعدته التي تبلغ مساحتها أربعمائة قدم مربعة ، فهي مصطبة عظيمة تتألف من سبع درجات تتدرج صغراً كلما علوت معها ، وفي كل درجة منها أركان للتماثيل ، حتى لقط عَنّ لمن قاموا بنحت التماثيل في «بوروبودور» أن يقيموا تمثال بوذا في هذا الركن أو ذاك أربعمائة وستاً وثلاثين مرة ، ولم يكفهم كل هذا ، فنحتوا في جوانب الدرّج ثلاثة أميال من النقوش البارزة يصورون بها ما ترويه الأساطير عن مولد صاحب القصيدة ونشأته وإشراق الحقيقة عليه ، وأظهروا في كل ذلك مهارة جعلت هذه النقوش البارزة من أبدع مثيلاتها في آسيا(١١٢) ؛ وبلغت العمارة الجاوية أوجها في هذا الضريح البوذي الجبار ، والمعابد البرهمية المجاورة في « پرامبانام » ، ثم انحدرت بعدئذ انحداراً سريعا ، فقد كانت جزيرة جاوه حيناً من الدهر قوة بحرية ، فارتفعت إلى الثروة والترف ، ورَعَت في ظلها كثيراً من الشعراء ؛ لكن ما جاءت سنة ١٤٧٩ حتى أخذ المسلمون يعمرون هذا الفردوس الإستوائي ، ومنذ ذلك الحين لم تنتج فناً ذا خطر ، ثم وثب فيها الهولنديون سنة ١٥٩٥ ، وجعلوا يستولون عليها إقليما بعـــد إقليم مدى القرن التالي لذلك التاريخ ، حتى بسطوا عليها سلطانهم كاملا .

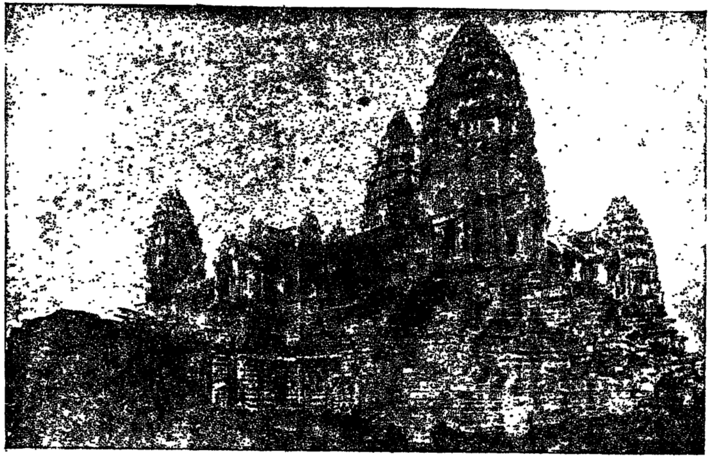
ولا يفوق معبد « بورو بودور » إلا معبد هندوسيّ واحد ، وهو أيضا ليس في الهند ، ولو أن هذا المعبد قد طمسته الغابة البعيدة التي اكتنفته بأشجارها

مدى قرون عدة ، حتى جاء مستكشف فرنسي سنة ١٨٥٨ ، وهو يشق لنفسه الطريق خلال الجزء الأعلى من وادى نهر ميكونج ، وعندئذ وقع بصره ، خلال الأشجار والغصون، على منظر بدا له معجزة من المعجزات ،إذ رأى معبداً ضخما يبلغ فى تصميم بنائه حداً من الجلال لايكاد يصدقه العقل؛ رآه قائماً وسط الغابة ، تلتف حوله : وتكاد تخفيه أغصان الشجر وأوراقه ، وشهد فى ذلك اليوم معابد كثيرة كان بعضها قد غطته الأشجار فعلا أو شقته نصفين ؛ فالظاهر أن هذا المستكشف قد وصل فى آخر لحظة يمكن فيها أن يحول دون انتصار الأشجار الملتفة على هذه الآيات التى أبدعتها يد الإنسان، ولم يؤمن أحد بصدق ما رواه هذا الرحالة « هنرى موهو » حتى ذهب إلى المكان غيره من الأوربيين وأيدوا روايته ؛ وبعدئذ هبطت بعثة علمية على ذلك المكان الذى قد كان يوماً صومعة مسكونة ، وقامت مدرسة بأسرها فى باريس ، هى « مدرسة الشرق الأقصى » كرست نفسها لرسم هذا البناء المستكشف ودراسته ؛ هذا هو « أنجورروات » الذى يعد اليوم أعجوبة من أعاجيب العالم(*) .

كان يسكن الهند الصينية ، أو كوديا ، فى نهاية التاريخ المسيحى ، قوم أغلبهم من الصينيين ، ومنهم فريق من أهل التبت ، وكان هؤلاء السكان فى جملتهم يسمون بالخمارسة (أو الخمبوجيين) ؛ فلما زار « تشيو ــ تا ــ خوان » ــ وكان يسفر لقبلاى خان ــ عاصمة « خامر » واسمها « انكورثوم » وجد حكومة قوية تحكم أمة جمعت ثراءها من أرزها وعرقها ، ويقول « تشيو » إن ملكهم كانت له خمس زوجات » إحداهن خاصة ، والأربع الأخريات يقابلن الجهات الرئيسية الأربع » كما كان له نحو أربعة آلاف حظية يحددن أوضاع إبرة البوصلة على تفصيل أدق(١١٤) ؛ وكانت البلاد تزخر بذهبها

(*) فى سنة ١٦٠٤ روى مبشر برتغالى عن صيادين أنهم رووا له عن غرائب فى الغابة ؛ وكذلك قال قسيس آخر قولا شبيهاً بهذا سنة ١٦٧٢ ، لكن هذه الروايات لم يلتفت إليها أحد(١١٣) .





الطرف الشمالي الشرقي من « أنجور وات » في الهند الصينية

وحليها ، والبحيرة مليئة بزوارق النزهة ، وشوارع العاصمة غاصة بالعربات والهوادج ذات الستائر ، والفيلة المطهمة ،وكان سكانها يقربون من المليون ، ومستشفياتهم كانت ملحقة بمعابدهم ، ولكل منها جماعتها الخاصة من ممرضات وأطباء(١١٥) .

ولئن كان السكان صينيين ، فقد كانت ثقافتهم هندية ، تقوم دياناتهم على أساس بدائى هو عبادة الثعبان « ناجا » الذى ترى رأسه المروحية أينما وجهت النظر فى الفن الكمبودى ، وبعدئذ دخل آلهة الهندوسيين الكبار ، الذين يكوّنون الثالوث الهندى وهم براهما ، وفشنو ، وشيفا ، دخلوا تلك البلاد عن طريق بورما ؛ وفى الوقت نفسه تقريباً جاء بوذا وارتبط عندهم بفشنو وشيفا ، وأصبح إلٰهاً مقرباً عند الخمارسة ، وتنبئنا النقوش عن الكميات الهائلة من الأرز والزبد والزيوت النادرة التى كان يقدمها الشعب كل يوم إلى القائمين بخدمة الآلهة(١١٦) .

وفى أواخر القرن التاسع ، أهدى الخمارسة إلى الإله شيفا أقدم ما بقى لنا من معابدهم — معبد بايون — وهو الآن خراب منفر تكسوه إلى نصفه أنواع من النبات الذى يمسك بجذوره فى الجدران فلا يزول عنها ، وأما أحجاره التى وضعت بغير ملاط ، فقد تباعدت فى غضون الألف عام التى انقضت ، حتى نتج عن تباعدها مَسْطٌ فى وجوه براهما وشيفا ، على نحو جعلها تبدو مكشِّرة عن أنيابها فى ابتسامة صفراء لا تليق بالآلهة ، ومن تماثيل هذين الإلٰهين تكاد تتكوّن الأبراج كلها ، وبعد ذلك بثلاثة قرون استخدم العبيد ومن جاء بهم الملوك من أسرى الحرب فى بناء « أنجورروات »(١١٧) وهى آية فنية تضارع أجمل الآثار المعمارية عند المصريين أو اليونان أو بناء الكاتدرائيات فى أوروبا ، ويحيط بهذا المعبد خندق كبير طوله اثنا عشر ميلا ، ويَعْبُرُ الخندق جسرٌ مرصوف تحرسه ثعابين الناجا المخيفة نحتت من الحجر ، وبعدئذ يجىء جدار مزخرف يحيط بالمعبد ، تتلوه أبهاء فسيحة على جدرانها نقوش

بارزة تقص من جديد حكايات « الماهابهاراتا » و« رامايانا» ثم بعدئذ يجيء البناء نفسه بما له من جلال ، ينهض على رقعة فسيحة ، درجة فوق درجة كأنه هرم مدرج ، حتى يصل إلى حرم الإله الذى يرتفع مائتى قدم ؛ وضخامة الحجم فى هذا المعبد لا تقلل من روعة الجمال ، بل تتعاون الضخامة مع الجمال فيتكون منهما جلال يروع النفس ، ويهز عقل المشاهد الغربى هزًّا حتى يتبين فى غموض ذلك المجد القديم الذى ظفرت به المدنية الشرقية يوماً ؛ فقد يستطيع المشاهد أن يرى بعين الخيال تلك العاصمة وقد زخرت بساكنيها ، وبحشد العبيد وهم ينحتون ثقال الأحجار ويجرونها ويرفعونها ، وطوائف الصناع وهم ينقشون النقوش البارزة وينحتون التماثيل فى أناة كأنما يستحيل أن يفلت الزمن من أيديهم قبل أن يفرغوا من عملهم ؛ وجماعة الكهنة وهم يخدعون الناس ويُسرّون عن نفوسهم و« زانيات المعبد » (وما زلن مرسومات على الجرانيت) وهن يغوين الناس ويسرِّين عن نفوس الكهنة ؛ وهل الطبقة العالية وهم يبنون القصور شبيهة ببناء « فنيان آكا » بما له من « شرفة شرفية » فسيحة ؛ ثم يرتفع فوق هؤلاء جميعاً ، بمجهود الناس جميعاً ، الملوك القساة الأقوياء .

كان الملوك بحاجة إلى كثرة من العبيد ، فلم يجدوا بدا من إثارة الحروب الكثيرة ، وكان النصر حليفهم غالباً ، حتى اقترب القرن الثالث عشر من ختامه — وكان ذلك « فى منتصف الطريق » من حياة دانتى — هزمت جيوش سيام هؤلاء الخمارسة ، ونهبوا مدنهم ، وتركوا معابدهم المتألقة وقصورهم الأنيقة خراباً بلقعاً ؛ وترى اليوم قلة من الزائرين يتخللون الأحجار التى تخلخل بنيانها ، ويشاهدون كيف دأبت الأشجار فى صبر لا ينفد على الضرب بجذورها ، أو النفاذ بغصونها فى ثنايا الصخور ، تنزعها بعضها عن بعض شيئاً فشيئاً ، لأن الأحجار ليس فيها ما فى الشجر من رغبة تعمل على تحقيقها فتنمو ؛ ويحدثنا « تشيو — تا — خوان » عن الكتب الكثيرة التى كتبها الناس فى « أنكور» لكنه لم يبق لنا من هذه المؤلفات صفحة واحدة ؛ لأنهم صنعوا

ما نصنعه نحن الآن ، وهو أنهم كتبوا أفكاراً سريعة الزوال على نسيج سريع الفناء ، ومات كل ما قد ظنوا به الخلود ؛ إن النقوش البارزة الرائعة تصور الرجال والنساء وقد لبسوا غلالات وشباكاً ليتقوا البعوض والزواحف الثعبانية الملمس ، أما الرجال والنساء فقد انحدروا إلى فناء ، لا يخلدون إلا على الصخور وأما البعوض والضّبّاب فما تزال باقية .

وعلى مقربة من تلك البلاد تقع سيام التى أخذ شعبها — ونصفه من التبت ونصفه الآخر من الصين — يطرد الخمارسة الفاتحين شيئاً فشيئاً ، وارتقى بمدينة قائمة على أساس من الديانة الهندية والفن الهندى ، وبعد أن تغلبت سيام على « كمبوديا » بنى أهلها لأنفسهم عاصمة جديدة ، هى « أيوذيا » على نفس الموقع الذى كانت تقوم عليه مدينة الخمارسة القديمة ؛ ومن هذا المركز وسعوا من نطاق نفوذهم حتى إذا ما دنا التاريخ من عام ١٦٠٠ ، كانت إمبراطوريتهم تشمل جنوبى بورما وكمبوديا وشبه جزيرة الملايو ؛ ووصلت تجارتهم إلى الصين شرقاً وإلى أوروبا غرباً ، وقام فنانوهم بزخرفة المخطوطات ، والرسم على الخشب بدهان « اللُّك » وإحراق الخزف على نحو ما يفعل الصينيون ، والوشى على القماش الحريرى الجميل ، وكانوا أحياناً ينحتون تماثيل من الطراز الأول(*) ؛ ودار التاريخ دورته التى لا يصدر فيها عن هوى ، وإذا بأهل بورما يستولون على « أيوذيا » ويخربونها بكل ما فيها من فنون ؛ فابتنى السياميون فى عاصمتهم الجديدة « بنكوك » معبداً عظيما ، فيه إسراف فى الزخرفة ، لكنه على كل حال إسراف لا يخفى جمال تصميمه إخفاء تاماً

كان أهل بورما من أعظم من شهدت آسيا من بناة للعمارة ؛ فقد جاءوا

(*) مثال ذلك تمثال بوذا الحجرى المدهون باللك وهو فى متحف الفنون الجميلة فى بوسطن » .

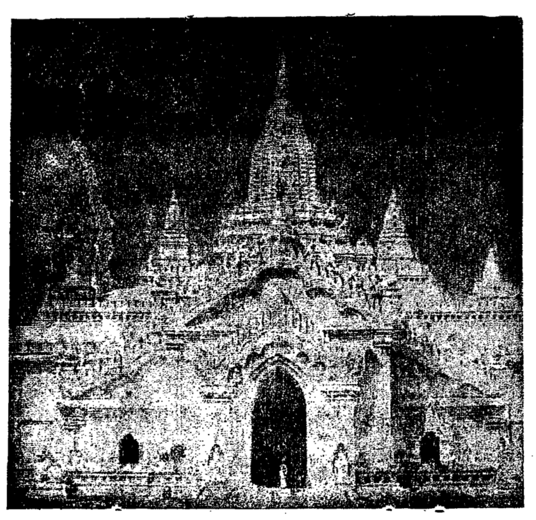
هابطين على هذه الحقول الخصبة من منغوليا والتبت ، فوقعوا تحت تأثير الهنود ، وأخذوا منذ القرن الخامس ينتجون الفنون فى كثرة غزيرة على الطراز البوذية والقشناوية والشيڤاوية ، فينحتون التماثيل على غرار هذه الأنماط ، ويقيمون « أكمات المدافن » التى بلغوا بها ذروتهم فى معبد « أناندا » العظيم — وهو أحد المعابد فى عاصمتهم القديمة « پاجان » التى بلغ عدد معابدها خمسة آلاف ؛ لكن « پاجان » هذه وقعت فريسة لقبلاى خان فسلبها سلباً ، ولبثت الحكومة البورمية مدى خمسمائة عام تنتقل من عاصمة إلى عاصمة ؛ فكانت « مندلاى » حيناً من الدهر هى المركز الزاهر للحياة فى بورما ، ومستقر رجال الفن الذين أنتجوا الآيات الروائع فى نواح كثيرة ؛ من الوشى وصياغة الحلىّ إلى بناء القصر الملكى الذى نهض دليلا على مدى استطاعتهم الفنية فى المادة الهزيلة التى كانت تحت أيديهم ، وهى الخشب(١١٩) ؛ وجاء الإنجليز إذ ساءهم ما عومل به مبشّروهم وتجارهم ، فضموا بورما إلى أملاكهم سنة ١٨٨٦ ، ونقلوا العاصمة إلى « رانجون » ، وهى مدينة تقع فى متناول البحرية الإمبراطورية ، لتؤدبها إذا وقع فيها شىء من العصيان ؛ فشيد البورميون فى « رانجون » ضريحاً يعدّ من أبدع ما لديهم من أضرحة ، وهو « شوى داجون » المشهور ، ذلك المعبد الذهبى الذى يحج إلى قبته الملايين فى إثر الملايين من بوذيى بورما كل عام ، ولم لا ؟ أليس يشتمل هذا المعبد على الشعرات نفسها التى كانت تغطى « شاكيا مونى » ؟

٣ — العمارة الإسلامية فى الهند

الطراز الأفغانى — الطراز المغولى — دلهى — أجرا — تاج محل

شهد الحكم المغولى آخر مراحل النصر التى بلغتها العمارة الهندية ؛ إذ برهن أتباع محمد على أنهم أساتذة فى فن البناء حيثما حلوا بقوة سلاحهم — غرناطة ، والقاهرة ، وأورشليم ، وبغداد ؛ فقد كان المنتظر من هؤلاء الرجال

الأشداء ، بعد أن يوطدوا ملكهم فى الهند على أركان ثابتة ، أن يقيموا على هذه الأرض التى فتحوها مساجد فى تأنق مسجد عمر فى بيت المقدس ، وفى ضخامة مسجد السلطان حسن فى القاهرة ، وفى رشاقة قصر الحمراء ؛ نعم إن الأسرة المالكة « الأفغانية » استخدمت رجال الفن الهنود ، واقتبست أسس الفن الهندوسى بل نقلت العمد من معابد الهنود وعدلت فيها بما يجعلها ملائمة لأغراضهم فى العمارة ، بحيث لم يكن كثير من المساجد سوى معابد هندية أعيد بناؤها لصلاة المسلمين(١١٩) ؛ لكن هذه المحاكاة الطبيعية سرعان



قصر أناندا فى باجان ببورما

حا تحولت إلى طراز يمثل النزعة الإسلامية تمثيلا يبلغ من الدقة حداً يثير فيك العجب أن ترى « تاج محل » فى الهند ، ولا تراه فى فارس أو شمالى إفريقيا أو إسبانيا ؛

والبناء الذى يمثل مرحلة التطور هو « منار قطب »(*) ؛ وهو جزء من مسجد بدئ فى بنائه فى دلهى القديمة بأمر من « قطب الدين أيبك » تخليداً لذكرى انتصارات هذا السلطان السفاك للدماء على الهنود ، ولقد انتزعت أجزاء سبعة وعشرين معبداً هنديا لتتخذ مادة لبناء هذا المسجد ومنارته(١٢٠) ؛ وها قد صمدت المنارة العظيمة لعوامل الجو سبعة قرون — ويبلغ ارتفاعها مائتين وخمسين قدماً ، وهى مبنية من الحجر الرملى الأحمر الجميل ، والنسب بين أجزائها هى غاية الكمال ، ويتوجها المرمر الأبيض فى طبقاتها العليا — ها هى ذى بعد سبعة قرون من فعل عوامل الجو ، لا تزال آية من آيات الهند فى دقة الصناعة وروعة الفن ؛ وعلى وجه الجملة كان سلاطين دلهى فى شغل بالقتل بحيث لم يبق لهم من وقتهم فراغ طويل ينفقونه فى فن العمارة ؛ وأكثر الأبنية التى خلفوها لنا مقابر أنشأوها لأنفسهم فى حياتهم تذكرهم بأنهم — رغم سلطانهم — ذائقو الموت كسائر الناس ؛ وخير مثال لهذه المقابر ، مقبرة « شرشاه » فى « ساسيرام » من بلدان « بيهار »(١٢١) فبناؤها شامخ صلب متين ، وهو يمثل آخر مراحل الفن الإسلامى القوى قبل أن تدب فيه الطراوة حين صبحت العمارة حلياً من الحجر على أيدى ملوك المغول .

وجاء « أكبر » بما له من قدرة على الحياد فى مشاعره بحيث يختار من كل ثقافة ما يراه صالحاً ، فشجع الميل السائد نحو دمج الطرز الإسلامية والهندوسية ، وقد تضافرت الأساليب الهندية والفارسية فى الآيات الفنية التى شيدها له فنانوه ، تضافراً جعل بينها اتساقاً رائعاً ، يرمز إلى الامتزاج الضعيف بين عقائد الهندوس وعقائد المسلمين ، كما أراد لها « أكبر » أن تمتزج ، فى

(*) وهى مئذنة مأخوذة من الكلمة العربية منارة ، أى مصباح أو منار السفن .

الديانة التى ركبها تركيباً من عناصر اختار بعضها من هذه وبعضها الآخر من تلك ؛ وأول أثر فنى بقى لنا من حكمه ، هو القبر الذى شيده قريباً من دلهى لأبيه « همیون » ، وفيه يتمثل طراز من الفن خاص به - هو بسيط التخطيط ، معتدل الزخارف ، لكنه مع ذلك ينبئ برشاقة بنائه عما ستنتهى إليه الطريق فى أبنية « شاه جهان » التى تفوقه جمالا ؛ وفى « فتح پورسيكرى » أقام له فنانوه مدينة امتزجت فيها قوة المغول الأوائل كلها برقة الأباطرة المتأخرين فهناك سُلم يؤدى صعوداً إلى بوابة رائعة بنيت من الحجر الرملى الأحمر ، وخلاله قوسها الفخم يدخل الداخل إلى قاعة ملئت بآيات الفن الروائع ، والبناء الأساسى عبارة عن مسجد ، لكن أجمل أجزاء البناء ثلاث مقصورات أعدت لزوجات الإمبراطور المقربات إليه ، والقبر المرمرى الذى دفن فيه صديقه « سليم شيستى » الحكيم ؛ فها هنا بدأ رجال الفن فى الهند يُظهرون تلك المهارة فى وشى الحجر التى بلغت ذروتها فى الستار الموجود فى « تاج محل » .

ولم يسهم « جهان كير » فى تاريخ العمارة عند شعبه إلا بقسط ضئيل . أما ابنه « شاه جهان » فقد كاد يجعل من اسمه اسما يضارع اسم « أكبر » فى سطوعه لميله الشديد نحو البناء الجميل ؛ فأخذ ينثر ماله نثرا بغير حساب على رجال الفن عنده ، على نحو ما نثر « جهان كير » ماله بغير حساب على زوجاته ؛ وقد صنع ما صنعه ملوك أوروبا الشمالية ، فى استدعائه لرجال الفن الإيطاليين الذين فاضوا عن حاجة بلادهم ، وجعلهم يعلّمون رجال النحت فى بلاده كيف يطعمون المرمر بفسيفساء من الأحجار الكريمة ، ذلك الفن الذى أصبح أحد مميزات الزخرفة الهندية فى عصره ؛ ولم يكن « جهان » مسرفاً فى تدينه ، ومع ذلك فسجدان من أجمل مساجد الهند بنيا فى ظل رعايته ، وهما مسجد الجمعة فى « دلهى » ومسجد اللؤلؤة فى « أجرا » .

وبنى « جهان » فى « دلهى » وفى « أجرا » « حصونا » - وهى مجموعات

من القصور الملكية يحيط بها حائط يحميها ؛ فقد دفعته الكراهية الشديدة أن يحطم في دلهي القصور القرمزية التي كانت « لأكبر » وأحل محلها أبنية تراها — في أسوإ جوانبها — ضرباً من المرمر المزخرف كأنه قطع من الحلوى ، لكنها — من أحسن جوانبها — أصفى جمال بلغته العمارة في أرجاء الأرض جميعاً ؛ فها هي ذي « قاعة الاجتماعات العامة » بأسفل حيطانها وقد زخرفت بفسيفساء من الزهر على أرضية من المرمر الأسود ، وأسقفها وعمدها وأقواسها المنحوتة في وشي حجري له جمال الشيء النحيل المزيل ، لكنه جمال يعز على التصديق وهاهنا أيضاً « قاعة الاجتماعات الخاصة » التي صنع سقفها من الفضة والذهب وأعمدتها من مُخَرَّم المرمر ، وأقواسها على هيئة نصف الدائرة مدبباً في وسطه ، يتألف من أنصاف دوائر صغرى يتخذ كل منها صورة الزهرة ، وعرشها المسمى « عرش الطاووس » الذي بات أسطورة يتحدث بها العالم أجمعين ، وجداره الذي لا يزال يحمل في تطعيم بالحجر النفيس ، بيت الشاعر المسلم المليئة ألفاظه بروح الزهو ، ومعناه أن لو كان على الأرض فردوس فهي هاهنا :

ونعود فنستجمع في أذهاننا صورة خافتة « لكنوز الهند » في أيام المغول ، حين نسمع أعظم مؤرخي فن العمارة يصف لنا مقر الملك في دلهي ، فيقول إنه يشغل مساحة ضعف ما تشغله « الأسكوريال » الفسيحة بالقرب من مدريد ، ولقد كان ذلك القصر في زمانه ذاك ، وبالقياس إلى أضرابه « أفخم قصر في الشرق بل ربما كان أجمل قصر في العالم كله »(١٢٢)(*).

وحصن « أجرا » اليوم أنقاض(**)، وكل ما في وسعنا أن نحزر على سبيل

(*) كان « حصن دلهي » في بادئ أمره يشتمل على اثنين وخمسين قصراً ، لم يبق منها اليوم إلا اثنان وعشرون قصراً ، فقد احتمت بالحصن حامية بريطانية داهمها الخطر في ثورة «سيبوى» وقوضت عدة قصور لتخلى مكاناً لعدتها ، كما وقع نهب كثير .

(**) كان خطأ يؤسف عليه من شاه جهان أن يجعل من هذه القصور الجميلة حصناً ، فلما حاصر البريطانيون « أجرا » (سنة ١٨٠٣) لم يكن لهم بد من توجيه مدافعهم إلى الحصن ، ورأى —

التخمين ما كان عليه بادئ أمره من جلال ؛ فهنا وسط الحدائق الكثيرة كان «مسجد اللؤلؤة» ومسجد الجوهرة وقاعتا الاجتماعات العامة والخاصة وقصر العرش وحمامات الملك وقاعة المرايا وقصور «جهانكير» و «شاه جهان» وقصر الياسمينة لـ «نور جهان» وبرج الياسمينة الذى كان يطل منه «شاه جهان» وهو أسير، يطل منه عبر «الجمنة» على القبر الذى كان ابتناه لزوجته الحبيبة «ممتاز محل».

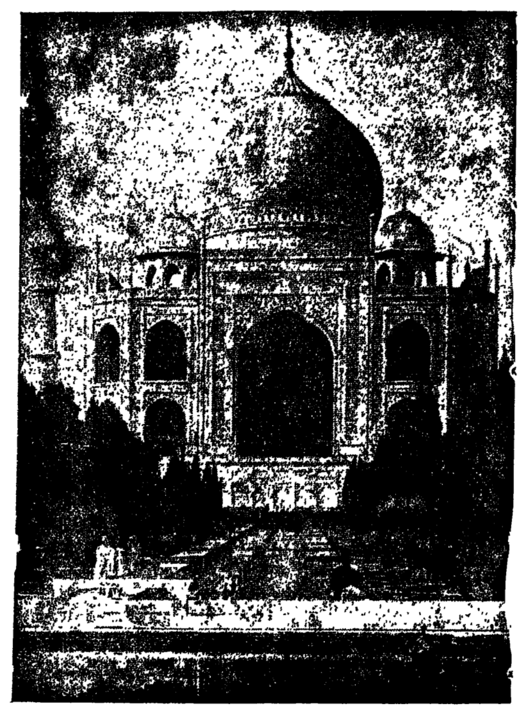
ويعرف العالم كله ذلك القبر باسم تلك الزوجة المختصر وهو «تاج محل» وما أكثر مهندسى العمارة الذين يضعون هذا البناء فى منزلة تجعله أكمل بناء قائم على وجه الأرض فى يومنا هذا ؛ وقد وضع تصميمه ثلاثة من رجال الفنون: فارسى يدعى «أستاذ عيسى»، وإيطالى يدعى «جيرونيمو فيرونيو» وفرنسى يسمى «أوستن دى بوردو» ؛ ولم يسهم فى فكرته هندى واحد، فهو بناء لا هندوسى من أوله إلى آخره، وهو إسلامىّ خالص ؛ حتى مهرة الصناع جىء ببعضهم من بغداد والآستانة وغيرهما من مراكز الملّة الإسلامية(١٢٤).

قد لبث اثنان وعشرون ألفاً من العمال اثنين وعشرين عاماً مسخّرين فى بناء «التاج»، وعلى الرغم من أن المرمر جاء إلى «شاه جهان» هدية من «مهراجا جايبور» فقد كلّف البناء وما حوله ما يساوى اليوم مائتين وثلاثين مليوناً من الريالات الأمريكية — وهو فى ذلك العهد مبلغ ضخم من المال(١٢٥)(*)

= الهنود فنابل المدافع تدك «المحل الخاص» (أى قاعة الاجتماعات الخاصة) فاستسلموا ظناً منهم أن الجمال أنفس من النصر ؛ ولم يمض طويل وقت حتى جاء «وارن هيستنجز» فخلع أجزاء الحمام من القصر خلعاً ليقدم بها هدية للملك جورج الرابع ؛ وبيعت أجزاء أخرى من البناء بأمر من لورد «وليم بنتنك» إعانة لدخل الهند (١٢٣).

(*) فكر (لورد وليم بنتنك» — وهو يُعدّ من أرحم من حكموا الهند من البريطانيين — يوماً فى أن يبيع «التاج» بمائة وخمسين ألف ريال إلى مقاول هندى كان يعتقد أنه يستطيع استغلال مواد البناء على أحسن وجه (١٢٦)، لكن منذ استولى على الحكم «لورد كيرزن» وحكومة البريطانيين فى الهند دائمة العناية الفائقة بآثار المغول.

والمدخل إلى البناء ملائم للغرض منه ملاءمة لا يضارعها إلا مدخل « القديس



تاج محل فى أجرا

بطرس » ؛ فإذا ما دخل الداخل خلال سور عال ذى أبراج صغيرة على قمته ، التقى بغتة « بالتاج » — وهو قائم على مصطبة من المرمر ، يحيط به على الجانبين إطار من المساجد الجميلة والمآذن الشامخة ، وفى الجانب الأمامى حدائق فسيحة فى وسطها بركة ينعكس القصر على مائها فيكون سحراً يرتعش مع رعشة الموج ؛ وكل جزء من البناء مصنوع من المرمر الأبيض والمعادن النفيسة أو الأحجار الكريمة ؛ والبناء اثنا عشر ضلعاً ، فى أربعة منها بوابات ، وعند كل ركن من أركانه مئذنة نحيلة ، والسقف قوامه قبة ضخمة ذات برج مُدَبَّب ؛ والمدخل الرئيسى الذى كانت تحرسه فيما مضى أبواب من الفضة الخالصة ، متاهةٌ للخيال بما فيه من وشى مرمرى ؛ ونقشت على الجدران آيات من القرآن ، كتبت بكريم الجواهر ، منها آية تدعو « المتقين » أن يدخلوا « جنة الفردوس » وأما الداخل فبسيط ، وربما تعاون اللصوص من أهل البلاد ومن الأوروبيين على السواء ، على سلب الجواهر التى كانت تزين القبر فى كثرة مسرفة ، والسور الذهبى المغطى بطبقة من الأحجار الكريمة الذى كان أول الأمر يحيط بالتابوتين الحجريين اللذين كان يرقد فيهما « جهان » وملكته ؛ فوضع « أورنجزيب » مكان السور الذهبى ستاراً ثُمانىّ الأضلاع من مرمر يكاد يشف عما وراءه ، والستار منقوش بزخرفة رقيقة من « الرخام ذى العروق » نقشاً هو من المعجزات ؛ حتى ليبدو لبعض الزائرين أن جمال هذا الستار لم يفُقْه جمال فى كل ما أنتجه الإنسان من آثار فنية صغيرة .

وليس هذا البناء أفخم الأبنية ، ولكنه أجملها جميعاً ؛ فإذا ما بعدت عنه قليلا بحيث تخفى عليك تفصيلاته الرقيقة ، لم يبهرك بعظمته ، لكنك تحسّ له فى نفسك نشوة ؛ ولا ينكشف لك كماله الذى لا يتناسب مع حجمه إلا إذا دنوت منه ونظرت إليه عن كثب ؛ إننا إذ نرى فى عصرنا هذا الذى يتميز بالسرعة ، أبنية ضخمة من ذوات الطوابق المائة يكمل بناؤها فى عام أو عامين ،

ثم نتذكر أن اثنين وعشرين ألفاً من العمال ظلوا يكدّون اثنين وعشرين عاماً في إقامة هذا القبر الصغير الذي لا يكاد يبلغ ارتفاعه مائة قدم ، فإننا نحس عندئذ بعض الإحساس ، الفرق بين الصناعة والفن ؛ فربما كانت قوة العزيمة الكامنة في تصور إقامة بناء مثل « تاج محل » أعظم وأعمق من قوة العزيمة التي نصف بها أمجد الفاتحين ؛ ولو كان الزمن بصيراً بما يفعل ، لأبى على كل شيء قبل أن ينال من « التاج » ليبقيه شاهداً على سمو النفس الإنسانية سمواً تمازجه الشوائب ، لعل هذا السمو فيها يكون عزاء لآخر من تشهد الأرض من بني الإنسان

٤ — العمارة الهندية والمدنيّة

انهيار الفن الهندي — الموازنة بين العمارة الهندوسية والعمارة الإسلامية — نظرة عامة إلى المدنية الهندية

على الرغم من الستار الذي تم على يدي « أورنجزيب » فقد كان هذا الرجل عثرة نكداء في حظ المغول والفن الهندي ، إذ حفزه التعصب الديني الضيق الأفق إلى أن ينصرف بكل نفسه إلى ديانة بعينها لا يسمح بغيرها إلى جانبها ، ولذا فلم تر عيناه إلا وثنية وغروراً ؛ وكان « شاه جهان » من قبل قد حرم إقامة المعابد الهندوسية[١٢٧] ؛ ولم يكتف « أورنجزيب » باستمرار ذلك التحريم بل أضاف إلى ذلك شحاً في إعانة العمارة الإسلامية ، حتى تضاءلت هي الأخرى تحت سلطانه ؛ فلما مات ، تبعه الفن الهندي إلى قبره فثوى معه .

إذا ما تأملنا العمارة الهندية باستعراضنا إياها استعراضاً موجزاً يعيد لنا سابق مراحلها ، ألفيناها تنطوي على موضوعين ، أحدهما فيه صلابة الرجولة والآخر فيه طراوة الأنوثة ، أحدهما هندوسي والآخر إسلامي ، وحول هذين المحورين تدور العمارة على اختلاف وجوهها كأنها السمفونية المختلفة النغمات ؛ ولما كانت أشهر السمفونيات تبدأ بضربات قوية كضربات المطرقة تثير الانتباه اليقظ في

الأسماع ، ثم سرعان ما يتلوها سيل متدفق من نغمات تبلغ من الرقة حدها الأقصى ، كذلك ترى فى العمارة الهندية بداية مهيبة تجلت فيها العبقرية الهندسية ، وهى آثار « بوذ ـ چايا » و « بهوڤانشوارا » و « مادورا » و تانچور » ثم يتبعها الطراز المغولى بما فيه من رشاقة ونغم ، كالآثار التى فى « فتح پورسيكرى و « دلهى » و « أجرا » ، ويظل هذان المحوران يمتزجان فى اشتباك مخلوط حتى النهاية ؛ لقد قيل عن المغول إنهم شيدوا كما تُشيِّد العمالقة ، ثم ختموا بناءهم بصناعة الصائغين الرقيقة ، لكن هذا القول أصح انطباقاً على العمارة الهندية بصفة عامة ؛ ذلك لأن الهندوس بنوا كما تبنى العمالقة ، ثم جاء المغول فختموا المطاف برقة الصائغين ، فالعمارة الهندوسية تستوقف انتباهنا بضخامتها ، والعمارة الإسلامية تستوقف أنظارنا بتفصيلاتها ؛ فللأولى جلال القوة ، وللثانية كمال الجمال ؛ كان للهندوس عاطفة وخصوبة ، وللمسلمين ذوق وكبح لجماح نفوسهم ، ملأ الهندوسىُّ مبانيه بكثرة زاخرة من التماثيل حتى ليتردد الإنسان أيضع تلك المبانى فى باب العمارة أم فى باب النحت ، وكره المسلم تشخيص الأجسام ، فحصر نفسه فى الزخرفة الزهرية والهندسية ، الهندوس هم للهند بمثابة رجال الفن فى العصور الوسطى ، الذين جمعوا فى أنفسهم فنى النحت والعمارة ، والمسلمون بمثابة الدخيلين فى عالم الفن الذين جاءوا فى عصر النهضة فأفاضوا ؛ وعلى وجه الجملة ، كان الطراز الهندوسى أرفع سماكاً بمقدار ما يسمو الجلال على الجمال ، وإذا ما عاودنا التفكير فى الموازنة بين الفنين ، بعد أن يزول عن أنفسنا وقع النظرة الأولى ، تبين لنا أن « حصن دلهى » و « تاج محل » بالقياس إلى « أنكور » و « بوروبودور » هما كالقصائد الوجدانية الجميلة بالقياس إلى المسرحيات العميقة ـ مثل بترارك بالقياس إلى دانتى ، أو كيتس بالقياس إلى شكسبير ، أو سافو بالقياس إلى سوفوكليز ، أحد الفنين تعبير

وشيق من وجهة نظر جزئية عن نفوس أفراد جادت حظوظهم ، وأما الآخر فتعبير قوى كامل عن روح جنس بأسره :

ومن ثم وجب علينا أن نختم هذا العرض الموجز بما بدأناه به ، وهو الاعتراف بأنه لا يستطيع أن يقدر فن الهند كل قدره ، أو أن يكتب عنه كتابة تعفو عن نقائصه ، إلا هندوسى ؛ فهذا الفن المقرب إلى نفوسهم ، الذى تملؤه الزخرفة إلى حد الإسراف ؛ وتشتبك أجزاؤه إلى حد التعقيد ، قد يبدو لعين الأوروبى الذى نشأ على قواعد يونانية أرستقراطية من الاعتدال والبساطة ، قريباً من الفن البدائى الهمجى ؛ لكن هذه الكلمة الأخيرة هى نفسها الصفة التى استعملها « جوته » صاحب النزعة الكلاسيكية ، حين ازورت نفسه عن كاتدرائية ستراسبورج ، والطراز القوطى ؛ فهى تعبر عن رد الفعل العقلى للوجدان ، والتدليل المنطقى للدين ؛ لا يستطيع أن يشعر بجلال المعابد الهندوسية إلا هندوسى مؤمن ، لأن هذه المعابد لم تشيد لتكون صورة معبرة عن الجمال وكفى ، بل شيدت لتكون حافزاً على التقوى ، وأساساً للإيمان ، ولا يستطيع أحد منا أن يفهم الهند إلا أهل عصورنا الوسطى — أمثال «جيوتو» و « دانتى » .

على هذا الأساس وحده ينبغى أن ننظر إلى المدنية الهندية — أعنى على أساس أنها تعبير عن نفوس شعب « وسيط » اعتبر الديانة أعمق من العلم ، ويكفيها لتكون أعمق منه ، أن سلم منذ البداية بالجهل البشرى الذى لازم الإنسان منذ الأزل ، وبغرور الإنسان قدرته ؛ فى هذه التقوى يكمن ضعف الهندوسى وتكمن قوته على السواء : فيه تكمن خرافته ووداعته ، ويكمن ميله إلى الانطواء على نفسه ونفاذ بصيرته ؛ ويكمن تأخره وعمقه ، ويكمن ضعفه فى القتال وبراعته فى الفنون ؛ ولا شك أن مناخ بلاده قد أثر فى عقيدته الدينية وتعاون كلاهما على إضعافه ؛ ولهذا استسلم فى يأس المؤمن ببطش القضاء ، للآريين والهون والمسلمين والأوروبيين ، ولقد عاقبه التاريخ على إهماله للعلم ؛

فلما أخذت مدافع « كلايف » المتفوقة على أسلحتهم ، تطيح بالجيش الأهلى فى موقعة « پلاسى » (١٧٥٧) كان فى قصفها إعلانٌ بالثورة الصناعية ، وستشهد فى عصرنا تلك الثورة ، وقد أصابت نجاحاً فى الهند كما وفّقَتْ فى تسجيل إرادتها وفرض طابعها على إنجلترا وأمريكا وألمانيا وروسيا واليابان ، فسيكون للهند كذلك رأسماليتها واشتراكيتها ، وسيكون فيها أصحاب الملايين وسكان الخرائب الوبيئة ؛ لقد أُسدل ستار على المدنيّة والهندية القديمة ، إذ أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة حين جاءها البريطانيون .

الباب الثاني والعشرون

خاتمة مسيحية

الفصل الأول

قراصنة البحر فى نشوتهم

وصول الأوروبيين — الفتح البريطانى — ثورة سيبوى — حسنات الحكم البريطانى وسيئاته

كانت تلك المدنيّة قد ماتت بالفعل من عدة وجوه ، حين كشف « كلايف » و « هيستنجز » كنوز الهند ؛ فحكم « أورنجزيب » الطويل الذى مزق أوصال البلاد ، وما تبعه من فوضى وحروب داخلية ، ترك الهند ثمرة دانية القطوف لمن أراد أن يغزوها من جديد ؛ قد كان هذا « قضاءها المحتوم » ، ولم يكن أمام القَدَر إزاءها سوى أن يختار الدولة الأوربية من بين الدول العصرية الأساليب ، لتكون أداة لذلك الغزو ؛ فحاول الفرنسيون غزوها وأصيبوا بالفشل ، وضاعت الهند من أيديهم كما ضاعت كندا ، فى موقعتى « رُسْباخ » و « ووترلو » ثم حاول الإنجليز ذلك وانتهت محاولتهم بالنجاح .

لقد كان « ڤاسكو دا جاما » أرسى فُلْكه عام ١٤٩٨ فى مياه « كلكتا » بعد مرحلة دامت أحد عشر شهراً بدأت من لشبونة ؛ فأحسن لقاءه حاكم مليبار الهندى وسلّمه رسالة ودية إلى ملك البرتغال : « لقد زار مملكتى ڤاسكو دا جاما ، وهو شريف من أشراف أسرتكم ، فسررت بزيارته سروراً عظيما ؛ وإن فى مملكتى لوفرة من القرفة والقرنفل والفلفل والأحجار الكريمة ، وما أريده من بلادكم هو الذهب والفضة والمرجان والنسيج القرمزى » ،

فكان جواب صاحب الجلالة المسيحية مطالبة بالهند مستعمرة برتغالية لأسباب لم يكن فى مقدور الراجا أن يفهمها لجهله ؛ فلكى يوضح له الأمر ، أرسلت البرتغال أسطولا إلى الهند مزوداً بتعليمات لنشر المسيحية وإثارة الحروب ؛ وبعدئذ جاء الهولنديون فى القرن السابع عشر ، وطردوا البرتغاليين ، ثم جاء الفرنسيون والإنجليز فى القرن الثامن عشر وطردوا الهولنديين ، ونشبت بين الفريقين معارك حامية الوطيس لتقرر أى الفريقين يتولى إدخال المدنية إلى الهند وفرض الضرائب على أهلها .

وكانت « شركة الهند الشرقية » قد تأسست فى لندن عام ١٦٠٠ لتشترى منتجات الهند وجزر الهند الشرقية بأثمان بخسة وتبيعها بأثمان مرتفعة فى أوروبا(*) وقد أعلنت الشركة عام ١٦٨٦ عزمها على « إقامة مستعمرة إنجليزية واسعة فى الهند ، بحيث تكون متينة الدعائم فتدوم إلى الأبد(٣) » ، وأنشأت مراكز تجارية فى مدراس وكلكتا وبمباى ، وحصنتها ، وجاءت إليها بجنود وخاضت معارك القتال ، ورشت وارتشت ، ومارست غير ذلك من مهامّ الحكومة ، ولم يتردد « كلايف » فى قبول « الهدايا » التى بلغت قيمتها أحياناً مائة وسبعين ألفاً من الريالات ، قدمها له الحكام الهنود المعتمدون على نيران مدافعه ، كما ظفر منهم — بالإضافة إلى تلك « الهدايا » — بجزية سنوية تعادل مائة وأربعين ألفاً من الريالات ، وعين الأمير جعفر حاكماً على البنغال لقاء مبلغ يعادل ستة ملايين ريال ؛ وراح يضرب كل أمير وطنى بالآخر ، ويضم أملاكهم إلى حظيرة « شركة الهند الشرقية » شيئاً فشيئاً ؛ وأدمن فى أكل الأفيون ، واتهمه البرلمان وبرأه ، وأزهق روحه بيده سنة ١٧٧٤(٤) ؛ أما « وارن هيستنجز » — وهو شجاع علامة قدير — فقد جمع من الأمراء الوطنيين مبلغاً كبيراً قدره ربع مليون ريال ضريبة عليهم دفعوها فى خزانة الشركة ؛

(*) كانت البضائع التى تشترى بما يساوى مليون ريال فى الهند ، تباع بما يساوى عشرة ملايين ريال فى إنجلترا(١) حتى لقد ارتفع ثمن السهم من أسهم الشركة إلى ما يساوى ٣٢,٠٠٠ ريال(٢) .

وقبل الرشاوى لقاء وعد بألا يفرض ضريبة أكثر مما فرضه ، ثم عاد ففرض ضريبة ، واستولى للشركة على الأراضى التى لم تستطع دفعها ، واحتل « أوز » بجيشه ، ثم باعها لأحد الأمراء بمليونين ونصف مليون من الريالات(٥) ؛ وتسابق الهازم والمهزوم فى الرشوة ؛ وفرضت على أجزاء الهند التى خضعت لسلطان الشركة ضريبة أراض بلغت خمسين فى كل مائة وحدة من وحدات الإنتاج بالإضافة إلى فروض أخرى كانت من الكثرة والقسوة بحيث فر ثلثا السكان ، وباع آخرون أبناءهم ليسدوا ما كانوا يطالَبون به من ضرائب متصاعدة(٦) ؛ يقول ماكولى : « جمعت فى كلكتا أموال طائلة فى وقت قصير ، ودفع بثلاثين مليوناً من الأنفس البشرية إلى أقصى حدود الشقاء ؛ نعم قد تعودوا من قبل أن يعيشوا فى جو من الطغيان ، إلا أن الطغيان لم يبلغ بهم كل هذا المدى »(٧) .

فما جاءت سنة ١٨٥٧ حتى كانت جرائم الشركة قد أفقرت الجزء الشمالى الشرقى من الهند إفقاراً أوغر صدور الأهالى فشقوا عصا الطاعة فى ثورة يائسة ؛ عندئذ تدخلت الحكومة البريطانية ، وقمعت « العصيان » وتولت هى الحكم الأراضى التى سيطرت عليها ، واعتبرتها مستعمرة للتاج ، ودفعت عن ذلك تعويضاً سخياً للشركة ، وأضافت ثمن الشراء هذا إلى الدين العام الهندى(٨) ؛ لقد كان هذا فتحاً للبلاد صريحاً غاشماً ، وقد لا يجوز لنا أن نحكم عليه « بمعيار الوصايا الخلقية » التى يحفظها الناس غربى السويس إذ ربما كان الأجدر أن نفهم الموقف على أساس « دارون » و « نيتشه » : فشعب عجز عن حكم نفسه أو عجز عن استغلال موارده الطبيعية ، لا بد من وقوعه فريسة لأمم تعانى مما يستثيرها من دوافع الجشع وبسط النفوذ .

وعاد هذا الفتح ببعض المزايا على الهند ؛ فرجال أمثال « بِنْتِنْك » و « كاننج » و « مَنْرو » و « إلْفِنْسْتُون » و « ماكولى » أدخلوا فى إدارة الأجزاء البريطانية من الهند شيئاً من سخاء الحرية التى سادت إنجلترا عام ١٨٣٢ ؛

فقد استطاع « لورد وليم بنتينك » بمساعدة المصلحين من أهل البلاد ، وبخاصة منهم ، أمثال « رام موهون روى » ، استطاع أن يلغى عادة دفن الزوجة حيّةً مع زوجها الميت وأن يحرم ما كانت تقوم به طائفة من خنق الأغنياء إرضاء للآلهة « كالى » ؛ ولئن حارب الإنجليز مائة وإحدى عشرة حرباً فى الهند مستخدمين فيها أموال الهند ورجالها(٩) ليتمموا فتح الهند ، فقد تمكنوا بعدئذ من نشر السلام على ربوع شبه الجزيرة كلها ، ومدوا الطرق الحديدية ، وأقاموا المصانع والمدارس ، وفتحوا الجامعات فى كلكتا ومدراس وبمباى ولاهور والله آباد ، ونقلوا من إنجلترا علومها وفنونها الصناعية إلى الهند ، وألهبت الشرق بروح الغرب الديمقراطية ، ولعبوا دوراً هاماً فى إطلاع العالم على ما شهدته الهند فى ماضيها من ثروة ثقافية غزيرة ؛ وكان ثمن هذه الخيرات كلها طغياناً مالياً مكن لطائفة من الحكام المتتابعين أن يبتزوا ثروة الهند عاماً بعد عام قبل عودتهم إلى بلادهم الشمالية التى تثير فى الإنسان عوامل الفاعلية والنشاط ؛ وكأن ثمن هذه الخيرات طغياناً اقتصادياً قضى على الصناعات الهندية ، وقذف بملايين صناعها الفنيين إلى الأرض يزرعونها فلا تكفيهم طعاماً ؛ وكان ثمن هذه الخيرات كذلك سياسياً كان من أثره — وقد جاء بعد طغيان « أورنجزيب » للضيق الأفق بزمن قصير — أن يميت روح الشعب الهندى قرناً كاملا .

الفصل الثانى

قديسو العهد المتأخر

المسيحية فى الهند – « براهما – سوماج » – الإسلام – راماكرشنا – ڤيڤيكاناندا

كان من الطبيعى الذى يلائم روح الهند ، أن تلتمس تلك البلاد وهى فى هذه الظروف عزاءها فى الدين ؛ ولقد رحبت بالمسيحية ترحيباً قلبياً خالصاً حيناً من الزمن ، إذ وجدت فيها كثيراً من المثل الخلقية العليا التى لبثت آلاف السنين تضعها من أنفسها مواضع التقديس ؛ وفى ذلك يقول « الأب دبْوا » فى غير ممالأة « لقد كان من الجائز – فيما تبين من الظواهر – أن تضرب المسيحية بجذورها فى أهل الهند ، لولا أن أدرك هؤلاء الناس صفات الأوروبيين وأنواع سلوكهم »[10] فقد ظل المبشرون بالمسيحية فى الهند طوال القرن التاسع عشر يحاولون فى نفوس قلقة أن يُسمعوا الناس صوت المسيح ؛ فكان عليهم أن يرتفعوا به فوق أصوات المدافع التى كانت تزأر أثناء فتحها البلاد ، وراحوا يقيمون المدارس والمستشفيات ويعدّونها بالأدوات اللازمة ، وأخذوا يوزعون على الناس الدواء والصدقات ، مع ما ينشرونه بينهم من تعاليم الدين ، وكانوا أول من بذر فى المنبوذين بذور الإحساس بآدميتهم ؛ لكن التضاد الملحوظ بين تعاليم المسيحية ومسلك المسيحيين أثار فى نفوس الهنود تشككاً وسخرية ؛ فقالوا إن بَعْث « العزير » من عالم الموتى لا يستثير العجب ، لأن فى دياناتهم من المعجزات ما هو أشد من هذا استثارة للدهشة وجدارة بالاهتمام ؛ وكل رجل بينهم ممن يمارسون « اليوجا » يستطيع اليوم أن يفعل المعجزات ، على حين أن معجزات المسيحية قد ذهب عهدها – فيما يظهر – وانقضى[11] وتمسك البراهمة بمبادئهم فى اعتزاز بها ،

إذ كانوا يقابلون عقائد الغرب بطائفة من أفكارهم ، لما ما لتلك العقائد الغربية من دقة وعمق وبُعْد عن التصديق ، ولهذا ترى « سير تشارلز إلْيَتْ » يقول : « إن المسيحية قد تقدمت فى الهند تقدماً لا قيمة له لضآلته »[١٢] .

ومع ذلك فقد كان لشخصية المسيح الفاتنة من عمق الأثر فى الهند أكثر جداً مما يمكن قياسه بكون المسيحية لم تشتمل على أكثر من ستة فى كل مائة من السكان بعد زمن امتد ثلاثة قرون ؛ وأولى علائم هذا التأثير تظهر فى « بهاجافاد — جيتا »[١٣] ، وأما آخر ما ظهر لهذا التأثير من علامات فتراه فى غاندى وطاغور ؛ وأوضح مثل يدل على هذا التأثير هو الجمعية الإصلاحية التى تسمى « براهما — سوماج »(*) التى أسسها « رام موهون روى » سنة ١٨٢٨ ، ولن تجد أحداً تناول الدين بدراسة يحاسبه فيها ضميره أكثر مما فعل هذا الرجل ؛ فقد درس « روى » اللغة السنسكريتية ليقرأ كتب الڤيدا ، وتعلم اللغة الپاليَّة « ليقرأ كتاب البوذية « تريبيتاكا » ، وعرف الفارسية والعربية ليدرس الإسلام ويقرأ القرآن ، ودرس العبرية ليجيد فهم « العهد القديم » كما درس اليونانية ليفهم « العهد الجديد »[١٤] وبعد ذلك كله تعلَّم الإنجليزية وكتب بها كتابة بلغت من السلاسة والرشاقة حداً جعل « چرمى بنْتام » يتمنى لو استفاد « جيمز مل » بنسجه على منواله ؛ وفى سنة ١٨٢٠ نشر « روى » كتابه تعاليم المسيح ، وهو مرشد للسلام والسعادة ، وقال فيه : « لقد وجدت تعاليم المسيح أهدى لمبادئ الأخلاق ، وأكثر ملاءمة لما يتطلبه بنو الإنسان المتصفون بالعقل ، من أية ديانة أخرى مما وقع فى حدود علمى »[١٥] واقترح على بنى وطنه الذين جللتهم دياناتهم بالمخجلات ، اقترح عليهم ديانة جديدة تتخلص من تعدد الآلهة وتعدد الزوجات والطبقات وزواج الأطفال ودفن الزوجات الأحياء مع أزواجهن وعبادة الأوثان وألا يعبدوا إلا إلهاً واحداً ، هو براهما ؛ ولقد تمنى كما تمنى

(*) معناها الحرفى « جمعية براهما » واسمها الكامل هو « جمعية المؤمنين ببراهما الروح الأعلى »

عن قبله « أكبر » — أن تتحد الهند كلها فى عقيدة دينية بسيطة ، لكنه — مثل « أكبر » — لم يحسب حساب الخرافة وتأصّلها فى قلوب الدهماء ؛ ولهذا فقد أصبحت « براهما — سوماج » اليوم — بعد مائة عام قضتها فى جهاد مفيد — بحيث لا ترى لها أثراً فى الحياة الهندية(*) .

والمسلمون هم أقوى الأقليات الدينية فى الهند وأكثرها إثارة للاهتمام ، وسنرجئ دراسة دينهم إلى جزء آخر من أجزاء هذا الكتاب ؛ وليس العجيب أن يفشل الإسلام فى اكتساب الهند إلى اعتناقه على الرغم من معاونة « أورنجزيب » له على ذلك معاونة متحمسة ، إنما المعجزة هى ألا يخضع الإسلام فى الهند للهندوسية ؛ فبقاء هذه الديانة الموحدة على بساطها وصلابتها ، وسط ألوان متشابكة من الديانات التى تذهب إلى تعدد الآلهة ، دليل يشهد على ما يتصف العقل الإسلامى من رجولة ، وحسبنا لكى نقدر عنف هذه المقاومة وجسامة هذا المجهود أن نذكر كيف تلاشت البوذية فى البرهمية ، فإله المسلمين له اليوم سبعون مليون من عُباده فى الهند .

لم يطمئن الهندى إلا قليلا إلى أية عقيدة دينية مما جاءه من خارج بلاده ، وأولئك الذين كان لهم أبلغ الأثر فى شعوره الدينى إبان القرن التاسع عشر هم

(*) لها اليوم من الأتباع نحو خمسة آلاف وخمسمائة(٢٦) ؛ نشأت جمعية إصلاحية أخرى ، اسمها « أريا . سوماج » (أى الجمعية الآرية) أسسها « سوامى ديانانداً » ، ودفعها فى طريق التقدم دفعاً يستحق الإعجاب « المرحوم لالاچپات راى » ، وقد أنكرت هذه الجمعية نظام الطبقات وتعدد الآلهة والخرافة والأوثان والمسيحية ، واستحثت الناس للعودة إلى ديانة الفيدات بما لها من قواعد أبسط من تعاليم المسيحية والوثنية ؛ وأتباع هذه الجمعية الآن يبلغون نصف المليون(١٨) وانقلب الوضع ، فأثرت الهندوسية فى المسيحية تأثيراً يظهر فى « علم الكلام » — وهو مزيج من التصوف الهندى والأخلاق المسيحية ، نشأ فى الهند وارتقى على أيدى امرأتين أجنبيتين عن أهل البلاد هما : « مدام هلينا بلافاتسكى » (١٨٧٨) « ومسز آنى بزانت » (١٨٩٣) .

الذين بذروا بذور مذهبهم وعبادتهم فى عقائد الشعب القديمة ؛ فقد أصبح « راماكرشنا » — وهو برهمى فقير من البنغال — مسيحياً حيناً من الزمن ، وأحس جمال المسيحية(*) واعتنق الإسلام حيناً آخر ، وأدى صلاة المسلمين بما تقتضيه من خشونة وعنف ، لكن قلبه التقى سرعان ما عاد به إلى الهندوسية بل عاد به إلى عبادة « كالى » الفظيعة ، وجعل نفسه كاهناً من كهانها ، وصوّرها فى صورة الإلاهة الأم التى تفيض نفسها فيضاً بالرحمة والحب ؛ ونبذ أساليب العقل وبشّر بمذهب « بهاركتى — يوجا » وهو مذهب يدعو إلى الحب ورباطه ومن أقواله « إن معرفة الله يمكن تشبيهها برجل ، وأما حب الله فشبيه بامرأة ؛ إن المعرفة لا تستطيع الدخول إلا فى الحجرات الخارجية لله ، وليس يستطيع الدخول فى غوامض الله الباطنية إلا محب »[١٨] .

ولم يُرِدْ « راماكرشنا » أن يعلّم نفسه على خلاف « رام موهون روى » ، فلم يتعلّم شيئاً من السنسكريتية أو الإنجليزية ، ولم يكتب شيئاً ، واجتنب النقاش العقلى ، ولما سأله منطقى منتفخ الأوداج بمنطقه : « ما المعرفة وما العارف وما المعروف ؟ » أجابه قائلا : « إنى يا صاح لا علم لى بهذه الدقائق من علم المتفيهقين ؛ إن كل ما أعرفه هو « الإلاهى الوالدة ، وأننى ابنها »[١٩] وكان يعلم أتباعه أن كل الديانات خير ، وكل منها طريق يؤدى إلى الله ، أو مرحلة من مراحل الطريق إلى الله ، تلائم عقل الباحث عن الله وقلبه ؛ ومن الحمق أن تتحول من دين إلى دين ، إذ كل ما يتطلبه الإنسان هو أن يمضى فى طريقه الذى بدأه ، وأن يتعمق عقيدته الخاصة إلى لبابها « إن كل الأنهار تتدفق فى المحيط ، فاندفق حتى تخلى الطريق لاندفاق الآخرين كذلك »[٢٠] ، وأفسح

(*) ظل إلى آخر حياته يعترف بربوبية المسيح ، لكنه أصر على أن « بوذا » وكرشنا » وغيرهما كانوا كذلك تجسدات للإله الواحد ، ولقد أكد لـ « فيڤ كاناندا » أنه هو نفسه تجسيد لـ « راما » و « كرشنا »[١٨أ] .

صدره رحباً لعقيدة الناس فى آلهة متعددة ، واستسلم متواضعاً لعقيدة الفلاسفة فى إله واحد ؛ أما عقيدته هو التى ينبض بها قلبه فهى أن الله روح تجسد فى الناس جميعاً ، وعبادة الله الحقيقية التى لا عبادة سواها ، هى خدمة الإنسانية خدمة صادرة عن حب .

ولقد اختاره كثيرون من رقاق النفوس « شيخا » لهم ، منهم الأغنياء والفقراء ، ومنهم البراهمة والمنبوذون ، وألفوا جمعية باسمه وقاموا بحملة تبشيرية بمذهبه ؛ وألمع هؤلاء الأتباع شخصية هو شاب معتدّ بنفسه من طبقة الكشاترية واسمه « نارندرانات دوت » ، الذى تقدم إلى « راماكرشْنا » بادئ ذى بدء — وكان عقله عندئذ قد أفعم بآراء « سپنسر » و « داروِن » — على أنه ملحد لا يجد غير شقوة النفس فى إلحاده ، لكنه فى الوقت نفسه مزدر للأساطير والخرافات التى لم يكن الدين فى رأيه إلا إياها ؛ فلما غلبته من « راما كرشْنا » طيبته الصابرة ، أصبح « ناوِنْ » بين أتباع « الشيخ » أشدهم تحمساً ، وأعاد لنفسه تعريف الله بأنه « مجموعة الأرواح كلها »(٢١) وطالب الناس بأن يباشروا الدين ، لا عن طريق التقشف والتأمل الفارغين ، بل عن طريق خدمة الإنسانية خدمة تستنفد من أنفسهم كل تقواها .

« أرجئوا إلى الحياة الآخرة قراءة « الڤيدانتا » واصطناع التأمل ، واصرفوا هذا البدن الذى يحيا هاهنا إلى خدمة الآخرين . . . إن الحقيقة السامية التى لا حقيقة بعدها هى هذه : الله موجود فى الكائنات جميعاً ، فهذه الكائنات صوره الكثيرة ، وليس وراءها إله آخر يبحث الإنسان عنه ، ليس هناك سبيل إلى خدمة الله سوى خدمة سائر الكائنات »(٢٢) .

وغيّر اسمه وجعله « ڤيڤِي كاناندا » وغادر الهند ليجمع مالا يعين المبشرين بمذهب « راماكرشْنا » على أداء رسالتهم ، حتى إذا ما كان عام ١٨٩٣ ، وجد نفسه ضالا معدماً فى مدينة شيكاغو ، فما هو إلا أن ظهر فى « برلمان الديانات »

فى « المهرجان العالمى » وخاطب الحاضرين على أنه يمثل العقيدة الهندوسية ، فاستولى على قلوب السامعين جميعاً بطلعته المهيبة ، ومذهبه الذى يوحد العقائد الدينية جميعاً ، وشريعته الخلقية البسيطة التى تجعل خدمة الإنسانية خير عبادة يتوجه بها الإنسان لله ؛ فأصبح الإلحاد ديانة شريفة بفعل السحر الذى نفثته بلاغته ، ووجد الشيوخ المتزمتون من رجال الدين ألا مناص من احترام هذا « الوثنى » الذى يعلن بألا إله غير أرواح الكائنات الحية ؛ ولما عاد إلى الهند جعل يبشر بنى وطنه بعقيدة دينية لم يشهد الهندوسيون ما يفوقها صلابة بين كل الديانات التى بشروا بها منذ العصر الفيدى .

« إن الديانة التى نريدها ديانة تقيم دعائم الإنسان ... فانفضوا عن أنفسهم هذه التصوفات التى تنهك قواكم ، وكونوا أقوياء ... لنمحُ من أذهاننا خلال الخمسين عاماً المقبلة ... كل الآلهة الذين لا طائل وراءهم بحيث لا نُبْقى أمام أعيننا إلا خدمة الإنسان ؛ فجنسنا البشرى هو الإله الوحيد اليقظان ، فيداه فى كل مكان وقدماه فى كل مكان ، إنه يشمل كل شىء ... إن أولى العبادات كلها هى عبادة مَنْ يحيطون بنا ... هؤلاء هم آلهتنا الذين لا آلهة لنا سواهم — أعنى أفراد الإنسان والحيوان ؛ وأول ما ينبغى لنا أن نعبده من هؤلاء الآلهة هم بنو وطننا(٢٣) » .

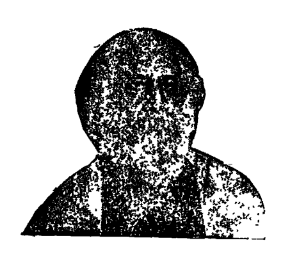
لم يكن بين هذه التعاليم وبين غاندى إلا خطوة واحدة .

الفصل الثالث

طاغور

العلم والفن – أسرة من النوابغ – نشأة رابندرانات – شعره – سياسته – مدرسته

ما زالت الهند رغم ما تعانيه من ظلم ومرارة عيش وفقر – تنتج العلم والأدب والفن ، فقد طبقت شهرة الأستاذ « چاجاس شاندرا بوز » الخافقين لأبحاثه فى الكهرباء وفسلجة النبات ، وكانت جائزة نوبل تاجاً يكلل جهود الأستاذ « شاندرا سيخارا رامان » فى فيزيقا الضوء ، وقامت فى عصرنا هذا مدرسة جديدة للتصوير فى البنغال تجمع بين خصوبة الألوان المتمثلة فى نقوش « أجانتا » الجدارية ، ورقة التخطيط البادية فى تحف « راچبوت » ؛ وإنا لنلمح فى صور « أبانندرات طاغور » شيئاً يسيراً من ذلك التصوف العارم والفن الرقيق اللذين أشهرا شعر عمّه فى أمم الأرض جميعاً .



رابندرانات طاغور.

إن أسرة طاغور لتعد بين أعظم ما شهد التاريخ من أسَر ؛ فقد كان « داڤندرات طاغور » (وبالبنغالية تاكور) أحد القائمين على تنظيم الجمعية الإصلاحية « براهما ـ سوماج » ثم أصبح فيما بعد رئيساً لها ؛ وهو رجل ذو ثراء وثقافة ووقار ، ولما بلغ شيخوخته ، كان للبنغال بمثابة الراعى الذى يميل برعيته عن جادَّة الدين ؛ ومن نسله « أبانندرانات » و« چوجوننددرانات » والفيلسوف « دويچندرانات » والشاعر « رابندرانات » وكل هؤلاء ينتسبون إلى طاغور ، والأخيران منهما ابناه .

نشأ « رابندرانات » فى جو من البحبوحة والتهذيب ، فكانت الموسيقى والشعر والحوار الرفيع الهواء الذى يتنفسه ، وكان روحاً رقيقاً منذ ولادته ، شبيهاً بـ « شيلى » الذى أبى أن يموت صغيراً كما أبى أن يشيخ ، وكان من الحنان بحيث تشجعت فئران السنجاب على ارتقاء ركبتيه ، واطمأنت الأطيار إلى الوقوف على راحتيه[٢٤] ، وكان دقيق الملاحظة ، متفتح النفس ، يحسُّ دوىّ ما تأتيه به تجارب الحياة بإحساس مرهف كإحساس المتصوفين ؛ فكان أحياناً يقف فى شرفته ساعات ، يلاحظ بفطرته الأدبية كل من يمرّ أمامه فى الطريق : قوامه وقسماته وحركاته التى تميزه وطريقة مشيته ، وأحياناً يجلس على كنبة فى غرفة داخلية ، ويظل نصف يومه صامتاً ، تمر فى رأسه الذكريات والأحلام ، وبدأ ينظم الشعر على لوح إردوازى ، مغتبطاً بكون الأخطاء يمكن محوها[٢٥] وسرعان ما وجد نفسه ينشد الأغانى المترعة بحبه للهند ـ حبه لجمال مناظرها ، وفتنة نسائها ، وعطفه على أهلها فى آلامهم ، وكان ينشئ لهذه الأناشيد موسيقاها بنفسه ، فأخذت الهند كلها تتغنى بها ، وكان الشاعر الشاب يهتز كيانه كلما سمعها على شفاه أهل الريف السذَّج ، إذ هو فى طريقه مسافر خلال القرى النائية[٢٥.أ] وهاك أغنية منها ، ترجمها عن البنغالية مؤلفها نفسه ، فمن سواه قد عبَّر تعبيراً يمازجه تشكك العطوف ، عن لغو الغرام الذى لا يخلو من قدسية ؟

نبئني إن كان ذلك كله صدقاً ، ياحبيبي ، نبئني إن كان ذلك
كله صدقاً ،

أإذا لمعت هاتان العينان ببرقهما ، استجابت لها السحائب الدكناء في
صدرك بالعواصف ؟

أصحيح أن شفتي في حلاوة برعم الحب المتفتح ، حين يكون الحب
في أول وعيه ؟

أترى ذكريات ما مضى من أشهر الربيع ما تزال عالقةً في
جوارح بدني ؟

أصحيح أن الأرض — كأنها القيثارة — تهتز بالغناء كلما مسّتها قدماي ؟

أصحيح — إذن — أن الليل تدمع عيناه بقطرات الندى كلما
بدوتُ لناظريك ، وأن ضوء الصبح ينتشي فرحاً إذا ما لف
بدني بأشعته ؟

أصحيح ، أصحيح ، أن حبك لم يزل يخبط فريداً خلال العصور
وينتقل من عالم إلى عالم باحثاً عني ؟

وأنك حين وجدتني آخر الأمر ، وجدتْ رغبتك الأزلية سكينتها
التامة في عذب حديثي وفي عينيّ وشفتيّ وشعري المسدول ؟

أصحيح — إذن — أن لغز اللانهاية مكتوب على جبيني هذا الصغير ؟
نبئني — يا حبيبي — إن كان ذلكَ كله صدقاً(٣٦) .

في هذه الأشعار حسنات كثيرة(*) — فيها وطنية حادة وهي رغم حدّتها

(*) أهم دواوينه « جيتانجالي » (١٩١٣) و « شترا » (١٩١٤) و « مكتب البريد » (١٩١٤) و « البستاني » (١٩١٤) و « جمع الثمار » (١٩١٦) و « زهرات الدفل الحمراء » (١٩٢٥) كتاب الشاعر نفسه « ذكرياتي » (١٩١٧) أفضل مرشداً لفهمه من كتاب « إ . تومسون » الذي عنوانه : « ر . طاغور ، شاعر ومسرحي » (اكسفورد ١٩٢٦) .

هادئة ، وفيها فهم دقيق دقة التأنث للحب وللمرأة وللطبيعة وللرجل ، وفيها نفاذ بالعاطفة الحادة إلى صميم الفلاسفة الهنود بما لهم من بصيرة نافذة ، وفيها رقة عاطفة وعبارة تشبه رقة « تنِسُن » ولو كان فى أشعاره عيب ، فذلك جمالها الذى يطّرد فى كل أجزائها اطّراداً جاوز الحد المطلوب ، ورقتها ومثاليتها اللتان اطردتا كذلك اطراداً يحدث الملل ؛ فكل امرأة فى هٰذه الأشعار جميلة ، وكل رجل فيها مفتون بامرأة أو بالموت أو بالله ؛ والطبيعة فيها — وإن تكن بشعة أحياناً — فهى دائماً جليلة ، يستحيل عليها الكآبة والقحط والفظاعة(*) ، ولعل قصة « شِتْرا » هى قصة « طاغور » ، فحبيبها « أرجونا » قد ملَّها بعد عام لأنها جميلة جمالا كاملا لا يعتوره نقص ؛ ولا يعود الله إلى حبها إلا بعد أن تفقده جمالها وتكتسب قوة تمكنها من مزاولة أعباء الحياة الطبيعية — وحب الله لها رمز عميق يشير إلى الزواج السعيد(٢٨) ، ويعترف طاغور بأوجه النقص فى شعره اعترافاً يسحرك برقته :

إن شاعرك يا حبيبى قد دارت فى رأسه يوماً ملحمة عظيمة

وا أسفاه ، لم أحرص عليها ، وصادفتْ خلخالك فتفرقت أجزاؤها

وتمزقت قصاصات من أغانٍ ، لبثت منثورة عند قدميك(٢٩) .

وعلى ذلك فقد أخذ يتغنى بالقصائد الوجدانية حتى نهايته ، واستمع له العالم كله بآذان طربة إلا النقاد ؛ ودهشت الهند بعض الشىء حين أنعم على شاعرها بجائزة نوبل (١٩١٣) لأن رجال النقد فى البنغال لم يكونوا قد رأوا فيه إلا أخطاءه ، واتخذ الأساتذة فى كلكتا من أشعاره أمثلة تساق للغة البنغالية فى أسلوبها الركيك(٣٠) وكرهه الشبان المتأججون بنار الوطنية لأن مهاجمته لما فى حياة الهند الخلقية من عيوب ، كانت أقوى دوياً من صيحته فى سبيل الحرية السياسية ، ولما أنعم عليه بلقب « سير » عدوا ذلك منه خيانة للهند ، ومع ذلك

(*) اقرأ مثلا بيته الرائع : « إذا ما رحلت عن هذه الدنيا ، فلتكن آخر كلمة أرحل بعدها هى أن ما شهدته فيها ليس بعد كماله كمال » (٢٧) .

فلم ينعم بشرف هذا اللقب طويلا ، ذلك لأنه حين أطلق الجنود البرنطانيون نيرانهم على اجتماع دينى فى « امرتسار» نتيجة لسوء تفاهم محزن (سنة ١٩١٩) أعاد طاغور وسامه إلى نائب الملك مصحوباً بخطاب يوجه فيه استنكاراً مراً لما حدث ؛ واليوم تراه شخصية وحيدة نوعها، وقد يكون أعمق أهل الأرض جميعاً — فى يومنا هذا — وقعاً فى النفوس ، وهو مصلح كانت له الشجاعة التى مكنته من مهاجمة الآراء الاجتماعية الأساسية فى الهند ، وأعنى بها نظام الطبقات والعقيدة فى تناسخ الأرواح ، التى هى أعز عقائد الهنود على قلوبهم(٣١) وهو وطنى يتحرق شوقاً إلى حرية الهند ، لكنه وجد فى نفسه الجرأة فاحتج على الإسراف فى النعرة القومية والسعى وراء المصالح الخاصة الذى يلعب دوره فى الحركة القومية ، وهو مرب مل الخطابة والسياسة ، وانكمش فى صومعته فى « شانتينى كيتان » يعلم بعض أبناء الجيل الجديد مذهبه فى تحرير الفرد لنفسه تحريراً خلقيا ، وهو شاعر كسر قلبه موت زوجته فى شبابها ، وأنقض ظهره ذل بلاده ؛ وهو فيلسوف « منقوع » فى تعاليم الفيدانتا(٣٢) ؛ وهو متصوف يتذبذب — مثل شاندى داس — بين المرأة والله ، ومع ذلك تراه قد تجرد من عقيدة آبائه بمدى ما وصل إليه من علم ؛ وهو محب للطبيعة يقابل رسل الموت فيها بعزاء وحيد ، هو موهبته التى لا تبلى فى إنشاد الغناء .

« آه ، أيها الشاعر ، إنه الغروب يدنو ، وشعرك يدب فيه المشيب
فهل تسمع — إذ أنت وحيد فى تأملك — صوت الآخرة يناديك ؟ »
قال الشاعر : « إنه الغروب وهأنذا أصغى خشية أن ينادينى من القرية
مناد رغم أننا فى ساعة متأخرة .
إنى أرقب لعلى واجد قلبين ضالين يلتقيان ، أو زوجين من
أعين مشتاقة تحن إلى ألحان الموسيقى لتزيل الصمت وتتحدث
نيابة عنها .

فمن ذا هناك ينسج لهم أغانى عواطفهم ، إذا أنا جلست على شاطئ
الحياة وتأملت الموت والآخرة .

إن من التوافه أن يدب فى شعرى المشيب

أنا أبداً فى شباب أقوى الشباب ، وفى شيخوخة أكبر الشيوخ من أهل
هذه القرية . . .

كلهم بحاجة إلىّ وليس لدىّ الفراغ أنفقه فى التأمل فيما بعد الحياة .

أنا مع كل إنسان أسايره فى عمره ، فماذا يضيرنى إذا دب الشيب
فى رأسى ؟ »(٣٣) .

الفصل الرابع

الشرق غرب

الهند المتغيرة – التغيرات الاقتصادية والاجتماعية – تدهور نظام الطبقات – الطبقات والنقابات – المنبوذون – ظهور المرأة

إذا استطاع رجل (مثل طاغور) لم يعرف الإنجليزية حتى أوشك على الخمسين من عمره ، أن يكتب الإنجليزية بعدئذ فى أسلوب جيد ، فتلك علامة تدل على السهولة التى يمكن بها ملء الفجوات التى تفصل ذلك الشرق وذلك الغرب اللذين حرم لقاءهما شاعر آخر ؛ وها هو ذا الغرب منذ مولد طاغور قد انتقل إلى الشرق بشتى الوسائل ، وهو آخذ هناك فى تغيير كل وجه من وجوه الحياة الشرقية ؛ فثلاثون ألف ميل من السكة الحديدية قد تشابكت فوق قفار الهند وجبالها ، وحملت وجوها غربيةً إلى كل قرية من قراها ؛ وأسلاك البرق والمطبعة قد جاءتا بأنباء العالم المتغير إلى كل من يريدها ، فأوحت إليه بإمكان تغير بلاده ؛ والمدارس الإنجليزية أخذت تعلّم التاريخ البريطانى من وجهة نظر أرادت أن تخلق من الطلاب مواطنين بريطانيين ، فغرست – غير عامدة – فى النفوس الأفكار الإنجليزية عن الديموقراطية والحرية ؛ فحتى الشرق ينهض اليوم برهاناً على هرقليطس(*) .

فلما رأت الهند أنها قد غاصت فى الفقر إبان القرن التاسع عشر بفعل تفوق المغازل الآلية البريطانية ، وقوة المدافع البريطانية بالنسبة إلى ما عند أهل البلاد ، فقد أخذت الآن توجه نظرها كارهة إلى تصنيع نفسها ، ولذلك ترى

(*) هرقليطس فيلسوف يونانى يذهب إلى أن العالم فى تغير مستمر لا يعرف الثبات على حال واحد لحظتين متتابعتين ؛ وقصد الكاتب هنا هو أن الشرق معروف بجموده . لكنه اليوم يتغير . (المعرب)

الصناعات اليدوية فى طريق الاندثار ، بينما ترى المصانع الآلية فى سبيل النمو والتكاثر ؛ ففى « جامشيدپور » تستخدم « شركة تاتا للحديد والصلب » خمسة وأربعين ألفاً من العمال ، وهى تهدد زعامة الشركات الأمريكية فى إنتاج الصلب(٣٤) ؛ ويزداد إنتاج الفحم فى الهند ازدياداً سريعاً ؛ وربما لا يمضى جيل واحد حتى تلحق الصين والهند بأوروبا وأمريكا فى إخراج مواد الوقود والصناعة الرئيسية من جوف الأرض ؛ وقد لا تكتفى هذه الموارد الأهلية بسد حاجات الأهالى ، بل تجاوز ذلك إلى منافسة الغرب على أسواق العالم ، وعندئذ يباغَتُ الفاتحون لآسيا بضياع أسواقهم هناك وبهذا يهبط مستوى المعيشة عند أهل بلادهم هبوطاً شديداً ، بسبب منافسة العمال ذوى الأجور المنخفضة فى البلاد التى كانت فيما مضى طيعة متأخرة (أعنى بها البلاد الزراعية) ففى البنغال مصانع على نمط كان معروفاً فى أواسط العصر الفكتورى(*) تدفع أجوراً على الأسلوب العتيق مما يستدر الدمع فى أعين المحافظين فى البلاد الغربية(**) وقد حل أصحاب رؤوس الأموال الهنود محل نظائرهم البريطانيين فى كثير من هذه الصناعات ، وهم يستغلون بنى وطنهم بنفس الجشع الذى كان يستغلهم به الأوربيون الذين يحملون عبء الرجل الأبيض(†) .

ولم يتغير الأساس الاقتصادى فى المجتمع الهندى دون أن يترك ذلك التغير أثره فى النظم الاجتماعية وعادات الناس الخلقية ، فنظام الطبقات كان وليد

(*) يشير إلى عهد الملكة فكتوريا فى إنجلترا ، وهو على وجه التقريب القرن التاسع عشر . (المعرب)

(**) كان فى بمباى سنة ١٩٢٢ ثلاثة وثمانون مصنعاً من مصانع القطن يعمل فيها مائة وثمانون ألفاً من العمال ، بواقع أجر فى المتوسط ثلاثة وثلاثون سنتاً للعامل فى اليوم ؛ وبين الثلاثة والثلاثين مليوناً من الهنود المشتغلين بالصناعة ، ٥١ ٪ نساء و١٤ ٪ أطفال دون الرابعة عشرة(٣٥) .

(†) « عبء الرجل الأبيض » عبارة قالها الشاعر الاستعمارى رديارد كبلنج ، يزعم فيها أن الرجل الأبيض مكلف بطبيعته بترقية السود . (المعرب)

مجتمع زراعى راكد لايتغير ، وهو إن ضمن النظام ، فلا يتيح طريق الصعود للعبقرى إذا ظهر فى طبقة دنيا ، ولا يفسح من مجال الطموح والأمل ، ولا يحفز الناس على الابتكار والمغامرة ؛ ولذا فقد قضى عليه بالفناء حين بلغت الثورة الصناعية شواطئ الهند ، فالآلات لا احترام عندها للأشخاص ، ففى معظم المصانع يعمل الناس جنباً إلى جنب بغير تمييز الطبقات والقطارات وعربات الترام تهيئ مكاناً للجلوس أو للوقوف لكل من يدفع الأجر المطلوب ، والجمعيات التعاونية والأحزاب السياسية تضم كل المراتب فى صعيد واحد ؛ وفى زحمة المسرح أو الطريق فى المدينة ، تتدافع المناكب بين البرهمى والمنبوذ فتنشأ بينهما زمالة لم تكن متوقعة ؛ وقد أعلن أحد الراجات أن كل الطبقات والعقائد ستفتح لها أبواب قصره ؛ وأصبح رجل من فئة « الشودرا » حاكما مستنيراً لإقليم « بارودا » واستنكرت جمعية « براهما - سوماج » نظام الطبقات ؛ وأيد « مؤتمر بنغال الإقليمى » التابع « للمؤتمر القومى » إلغاء الفوارق الطبقية كلها فوراً(٣٦)، وهكذا تعمل الآلات على رفع طبقة جديدة رويداً رويداً إلى الثراء والقوة ، وتسدل الستار على طبقة أرستقراطية هى أقدم الطبقات الأرستقراطية القائمة اليوم .

وبالفعل فقدت الألفاظ المستعملة فى التمييز بين الطبقات معانيها ؛ فكلمة « ڤاسيا » تراها فى الكتب اليوم ، لكنك لا ترى لها مداولا فى الحياة الواقعة ؛ حتى كلمة « شودرا » قد اختفت فى الشمال ، بينما ظلت فى الجنوب قائمة لكنها باتت لفظة تدل دلالة غامضة على كل من ليس ببرهمى(٣٧) ، والواقع أن الطبقات الدنيا فى سالف الأيام قد حل محلها ما يزيد على ثلاثة آلاف « طبقة » هى فى الحقيقة نقابات : ممولون وتجار وصناع ومزارعون ومعلمون ومهندسون وبائعون جوابون وجزارون وحلاقون وسماكون وممثلون ومستخرجو الفحم ، وغسالات وبائعات وحوذية وماسحو أحذية - هؤلاء تنتظمهم طبقات مهنية

تختلف عن نقابات العمال فى أنه من المفهوم على نحو غامض أن الأبناء سيحترفون مهن آبائهم .

إن ما ينطوى عليه نظام الطبقات من مأساة عظمى هو أنه قد ضاعف على مرّ الأجيال من « المنبوذين » الذين ينخرون بعددهم المتزايد وثورة نفوسهم فى قوائم النظام الاجتماعى الذى هم صنيعته ؛ ويضم المنبوذون فى صفوفهم كل من فرض عليهم الرق بسبب الحرب أو عدم الوفاء بالديْن ، ومن وُلدوا عن زواج بين براهمة وشودرات ، ومن تعست حظوظهم بحيث قضى القانون البرهمى على مهنهم بأنها مما يحط بقيمة الإنسان ، كالكناسين والجزارين والبهلوانات والحواة والجلادين(٣٨) ؛ ثم تضخم عددهم بسبب كثرة التناسل كثرة حمقاء تراها عند من لا يملك شيئاً يخاف على فقده ؛ وقد بلغ بهم فقرهم المدقع حداً جعل نظافة الجسم والملبس والطعام بمثابة الترف الذى يستحيل عليهم أن ينعموا به فيجتنبهم بنو وطنهم اجتناباً يمليه كل عقل سليم(*) ، ولذلك تقتضى قوانين الطبقات على « المنبوذ » ألا يقترب من عضو فى طبقة « الشودرا » بحيث تقل المسافة بينهما عن أربعة وعشرين قدماً ، أو أن يقترب من برهمى بحيث تقل المسافة بينهما عن أربعة وسبعين قدما(٤٠) ، وإذا وقع ظل « منبوذ » (رجل من طبقة الپاريا) على رجل ينتمى إلى الطبقات الأخرى ، كان على هذا الأخير أن يزيل عن نفسه النجاسة بغسل طهور ؛ فكل ما يمسه المنبوذ ، يصيبه الدنس بمسه إياه(**) ، وفى كثير من أجزاء الهند لا يجوز

(*) « الذين يمتنعون امتناعاً تاماً عن أكل الطعام المستمد من الحيوان ، وترهف عندهم حاسة الشم إلى درجة أنهم يدركون على الفور من أنفاس الشخص أو من إفرازات جلده ، إذا كان ذلك الشخص قد أكل لحماً أو لم يأكل ، حتى وإن مضى على ذلك أربعة وعشرون ساعة »(٣٩).

(**) حدث سنة ١٩١٣ أن سقط ابن هندوسى من كوهات فى عين ماء فمات غرقاً ولم يكن على مقربة منه إلا أمه وشخص « منبوذ » كان عابراً سبيله ، فعرض هذا على أم الطفل أن يغطس فى الماء لينقذه ، لكن الأم رفضت ذلك ، لأنها آثرت موت ابنها على تدنيس النبع(٤١) .

المنبوذ أن يستقى ماء من الآبار العامة ، أو أن يدخل معابد البراهمة ، أو أن يرسل أبناءه إلى المدارس الهندوسية[٤٢] ، ولئن عملت سياسة البريطانيين إلى حد ما على إفقار طبقة المنبوذين ، فقد جاءتهم على الأقل بالمساواة مع غيرهم أمام القانون ، وبحق الدخول - على قدم المساواة مع سائر الطبقات - فى المدارس والكليات التى يقوم البريطانيون على إدارتها ؛ وكان للحركة القومية بتأثير غاندى ، فضـــل كبير فى الحد من الحوائل التى كانت تسد الطريق أمام المنبوذين ؛ ويجوز ألا يأتى الجيل المقبل إلا وهم أحرار فى الظاهر حرية نحس القشـــور .

وكذلك عمل دخول الصناعة والأفكار الغربية على زعزعة السيادة القديمة التى كان يتمتع بها الرجل فى الهند ، فالانقلاب الصناعى يعمل على تأجيل سن الزواج ، ويتطلب « حرية » المرأة ، وأعنى بذلك أن المرأة لا يمكن إغراؤها بالعمل فى المصنع إلا إذا اقتنعت بأن الدار سجن ، وأجاز لها القانون أن تدخر كسبها لنفسها ؛ ولقد ترتب على هذا التحرير كثير من الإصلاحات الحقيقية جاءت عرضاً ، فحرم زواج الأطفال رسمياً (سنة ١٩٢٩) برفع سن الزواج قانوناً إلى الرابعة عشرة للفتيات والثامنة عشرة للفتيان[٤٣] واختفت عادة « السُّوتى » (أى دفن الزوجة التى مات زوجها حية) ، ويزداد زواج الأرامل كل يوم(*) وتعدد الزوجات جائز قانوناً لكن لا يمارسه إلا قليلون[٤٥] وإن وجاء السائحين ليخيب حين يجدون أن راقصات المعبد أوشكن على الانقراض ، فالتقدم الأخلاقى فى الهند يسير بخطوات سريعة لا يضارعها فى سرعتها بلد آخر ؛ فالحياة الصناعية فى المدينة تخرج النساء من « البردة » حتى توشك ألا تجد ستاً فى كل مائة امرأة فى الهند يقبلن اليوم أن يعشن وراء حجاب[٤٦] ؛ وفى الهند عدد من الصحف الدورية النسوية النابضة بالحياة ، تناقش فيها

(*) تزوج سنة ١٩١٥ خمس عشرة أرملة ، وبلغ العدد سنة ١٩٢٥ (٢٢٦٣)[٤٤] .

أحدث المشكلات ، بل تكونت هناك جمعية لضبط النسل(٤٧) واجهت بشجاعة أعقد مشكلة من مشكلات الهند — ألا وهي التناسل المطلق من كل قيــد ؛ والنساء في كثير من الأقاليم لهن حق التصويت ، ويتولين المناصب السياسية ، حتى لقد تولت امرأة رئاسة « المؤتمر القومي الهندي » مرتين ، وكثيرات منهن قد حصلن على درجات جامعية واشتغلن طبيبات أو محاميات أو معلمات(٤٨) ولا شك أنه لن يمضي طويل وقت حتى ينقلب الوضع ويصير زمام الحكم إلى أيدي النساء ؛ ألسنا على حق إذا زعمنا أن الإثم الذي تراه في النداء التالي الذي يشتعل بالحماسة ، والذي أصدره تابع من أتباع غاندي موجهاً إياه إلى نساء الهند ، أقول ألسنا على حق إذا زعمنا أن الإثم في هذا النداء يرجع إلى أحد المؤثرات الغربية الجامحة ؟

« انبذن « البردة » العتيقة ! اخرجن مسرعات من المطابخ ! اقذفن بالقدور والأواني مجلجلات في الأركان ! مزقن الغشاء الذي ينسدل على عيونكن ، وانظرن إلى العالم الجديد ! قُلْنَ لأزواجكن وإخوتكن يطهوا طعامهم لأنفسهم إن واجبات كثيرة في انتظاركن لأدائها حتى تصبح الهند أمة بين الأمم ! »(٤٩)

الفصل الخامس

الحركة القومية

الطلبة المستغربون – تحويل الشئون الدينية إلى أمور دنيوية –
المؤتمر الهندى القومى

كان عدد الطلبة الهنود الذين يدرسون فى إنجلترا سنة ١٩٢٣ يزيد على لف ، وربما كان عدد من يدرسون فى أمريكا عندئذ مساوياً لذلك العدد ، ل ربما كان هذا العدد كذلك يدرس فى البلدان الأخرى ؛ فدهشوا للحقوق لتى يتمتع بها أحط المواطنين فى أوروبا الغربية وأمريكا ؛ ودرسوا الثورتين الفرنسية والأمريكية ، وقرأوا أدب الإصلاح والثورة ، وأمعنوا أنظارهم فى « قانون الحقوق و « إعلان حقوق الإنسان » و « إعلان الاستقلال » و« الدستور الأمريكى » فعادوا إلى أوطانهم ليكوّنوا مراكز إشعاع للآراء الديمقراطية وإنجيلا يبشر بالحرية ؛ وقد اكتسبت هذه الآراء قوة لا تغلب بسبب ما ظفر به الغرب من تقدم صناعى وعلمى ، ونصر الحلفاء فى الحرب ؟ فلم يلبث هؤلاء الطلاب أن أخذوا يصيحون بالدعوة إلى الحرية ؛ فقد تعلم الهنود حقوقهم فى الحرية فى مدارس إنجلترا وأمريكا .

ولم يقتصر المشارقة الذين تعلموا فى الغرب على التقاط المثل العليا السياسية إبان تعلمهم خارج بلادهم ، بل نفضوا عن أنفسهم كذلك الأفكار الدينية ؛ فهاتان العمليتان مرتبطتان معاً فى تراجم الأشخاص وتاريخ الأمم ، جاء هؤلاء الطلاب إلى أوروبا يعمر الدين قلوبهم الشابة ، يعتقدون فى « كرشْنا » و « شيفا » و « فشنو » و « كالى » و « راما » ... ثم مسّوا العلم ، فإذا بعقائدهم القديمة قد تحطمت أشلاء كأنما نزلت بها نازلة ساحقة ، ولما تجرد هؤلاء الهنود المستغربون

عن عقيدتهم الدينية التى هى روح الهند ولبابها ، عادوا إلى وطنهم وقد زالت عن أعينهم الغشاوة التى كانت تزين القبيح ، وسادهم الحزن ، وسقط ألف إله أمام أعينهم من شمائهم صرعى(*)، فلم يكن بد من أن يتخيلوا « مدينة فاضلة » على الأرض لتملأ مكان الفردوس السماوى الذى تحطم ، وحلت الديمقراطية محل « النرفانا » وأخذت الحرية مكان الله ، فما جرى فى أوربا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أخذ يجرى شبيهه الآن فى الشرق .

ومع ذلك فالأفكار الجديدة أخذت تسير مجراها فى خطو وئيد، ففى سنة ١٨٥٥ اجتمعت طائفة قليلة من زعماء الهنود فى بمباى وأسسوا « المؤتمر الهندى القومى » لكن الظاهر أنهم لم يحلموا عندئذ حتى بمجرد الحكم الذاتى ، وبعدئذ حاول « لورد كيرزن » أن يقسم البنغال (ومعنى ذلك أن يصيب أقوى جماعة هندية وأشدها وعياً سياسياً بالتفكك والضعف) فأثارت محاولته تلك جماعة الوطنيين بحيث تقدموا خطوة نحو الثورة، وفى المؤتمر المنعقد سنة ١٩٠٥ طالب « تيلاك » فى صلابة لاتين بـ« سواراج » وهذه كلمة اشتقها هو(٥٠) من أصول سنسكريتية ، ومعناها الحكم الذاتى (والكلمة الهندية قريبة لفظاً من العبارة الإنجليزية Self-rule) ؛ وحدث فى نفس ذلك العام الملىء بالحوادث أن هزمت اليابان روسيا ، وبدأ الشرق الذى لبث قرناً كاملا يخشى صولة الغرب، بدأ يضع الخطة لتحرير آسيا ، وتزعّم «سَنْ يات سِنْ» الصين فجمع هؤلاء سيوفهم وارتموا فى أحضان اليابان ، أما الهند العزلاء من سلاحها ، فقد أسلمت قيادها لزعيم هو من أغرب من شهد التاريخ من رجال ، فضربوا للعالم مثلا لم يسبق له مثيل ، لثورة يقودها قديس ، تثور ثائرتها بغير مدفع

(*) هذا الكلام لا ينطبق على الجميع ، فبعضهم – على حد تعبير « كوما رازوامى » البليغ « قد عاد من أوروبا إلى الهند » .

الفصل السادس

مهاتما غاندى

صورة قديس – الزاهد – المسيحى – تعليم غاندى فى إفريقيا – ثورة ١٩٢١ – « أنا الرجل » – أعوام السجن – « الهند الفتاة » – ثورة المغزل – أعمال غاندى

صَوِّر لنفسك أقبح وأضأل وأضعف رجل فى آسيا ، له وجه وجسد كأنما صيغا من البرونز ، رأسه الأشيب حليق الشعر حتى الجذور ، عظمتا صدغيه بارزتان وعيناه البنِّيتان تشعان طيبة قلب ، وفمه واسع يوشك أن يخلو من الأسنان ، وأكبر من فمه أذناه ، وأنفه ضخم ، نحيل الذراعين والساقين ، ادَّثَر بثوب على ردفيه ، صوِّرْ لنفسك هذا الرجل واقفاً أمام قاض إنجليزى فى الهند ، مُتَّهَماً بتحريض قومه على « عدم التعاون » ؛ أو صوِّرْه جالساً على بساط صغير فى غرفة عارية فى مقره المسمى « سايا جراها شرام » – ومعناها « مدرسة طلاب الحقيقة » – فى أحمد أباد ، وَقد ربَّع ساقيه النحيلتين تحت جسمه على نحو ما يفعل « اليوجى » وبطن القدمين إلى أعلى ، ويداه لا تنفكان تعملان فى عجلة المغزل ووجهه تغضَّن بتقلصات تنمّ عن عبء التبعة الذى حمله ، وعقله نشيط الحركة مستعد بالجواب عن كل من يسأل سؤالا عن الحرية ؛ هذا النسَّاج العريان كان هو الزعيم الروحى والزعيم السياسى فى آن معاً لأمه من الهنود بلغ عددها ثلاثمائة وعشرين مليوناً من الأنفس ؛ وامتدت زعامته من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥(*) ، فإذا ما ظهر للناس ، التفت حوله جماعات حاشدة لتتبرك بلمس ثيابه أو تقبيل قدميه(٥١) .

(*) امتدت زعامة غاندى حتى وفاته سنة ١٩٤٨ ، وإنما وقف المؤلف عند عام ١٩٣٥ لأنه تاريخ إصدار هذا الكتاب فى أصله الإنجليزى . (المعرب)

كان ينفق كل يوم أربع ساعات فى غزل « الخضّار » الخشن راجياً أن يسوق بنفسه للناس مثلا يحتذونه فيستخدمون هذا القماش الساذج المغزول فى داخل البلاد ، بدل شرائهم منتجات المغازل البريطانية التى جاءت خراباً على صناعة النسيج فى الهند ؛ كان كل ما يملك ثلاثة أثواب غلاظ ، اثنان يتّخذهما لباساً ، والثالث يتخذه فراشاً ، وقد كان بادئ أمره محامياً غنياً ، لكنه تنازل عن كل أملاكه للفقراء ، ثم تبعته فى ذلك زوجته بعد شيء من التردد نعهده فى الأمهات ؛ كان ينام على أرضية الغرفة عارية ، أو على تربة الأرض ، يعيش على البندق والموز والليمون والبرتقال والبلح والأرز ولبن الماعز(٥٢) ، وكثيراً ما كان يقضى الشهور متتابعات لا يأكل إلا اللبن والفاكهة ، ولم يذق طعم اللحم إلا مرة واحدة فى حياته ، وكان حيناً بعد حين يمتنع عن الطعام إطلاقاً بضعة أسابيع وهو يقول : « لو استطعت أن استغنى عن عينىّ ، استطعت كذلك أن أستغنى عن صيامى ، فما تفعله العينان للدنيا الخارجية يفعله الصوم للدنيا الباطنية »(٥٣) فقد كان يعتقد أنه كلما رق الدم صفا العقل وسقطت عنه النوازع التى تنحرف به عن جادة الطريق ، بحيث تبرز أمامه الجوانب الأساسية — بل قد تبرز أمامه روح العالم وصميمه — بعد أن تنفض عنها الأعراض (واسمها مايا) كما يبرز إفرست خلال السحاب .

وفى نفس الوقت الذى كان يصوم فيه عن الطعام ليشهد الروح الإلهية ، لم يفتْه أن يحتفظ بأصبع من أصابع قدمه على الأرض ، وكان ينصح أتباعه أن يحقنوا أنفسهم فى الشرج مرة كل يوم إبان الصوم ، حتى لا تتسمم أبدانهم بالإفرازات الحمضية التى يفرزها الجسد وهو يستهلك بعضه ، وقد يصاب الجسد بهذا السم فى نفس اللحظة التى يتاح فيها للإنسان أن يشهد الله(٥٤) .

ولما اقتتل المسلمون والهندوس ، وأخذوا يصرعون بعضهم بعضا مدفوعين بحماسة دينية ، ولم يصيخوا إلى دعوته إياهم للسلام ، صام ثلاثة أسابيع رجاء أن

يحرك العطف فى نفوسهم ، ولقد أدى به الصيام والحرمان الذى كان يفرضه على نفسه ، إلى ضعف وهزال ، بحيث لم يكن بد من اعتلائه مقعداً مرفوعاً كلما أراد توجيه الخطاب للحشود العظيمة التى كانت تجتمع لتسمعه ؛ ومدّ زهده حتى شمل به نطاق العلاقة الجنسية ، وأراد ـ كما أراد تولستوى ـ أن يحصر عملية الجماع فلا يلجأ إليها إلا إذا قصد إلى التناسل ، وكان هو كذلك قد أنفق شبابه منغمساً فى شهوات بدنه ، حتى لقد جاءه نبأ موت أبيه وهو يحتضن إحدى الغانيات ، أما فى رجولته فقد عاد ـ والندم الشديد يأكل قلبه ـ إلى « براهما شاريا » التى لُقِّنَها فى صباه ـ وهى الامتناع التام عن كل شهوة جسدية ؛ وأقنع زوجته أن تعيش معه كما تعيش الأخت مع أخيها ، وهو يروى لنا أنه « منذ ذلك الوقت بطل بيننا كل نزاع »(٥٥) .

ولما تبين له أن حاجة الهند الأساسية هى ضبط النسل ، لم يصطنع فى سبيل ذلك وسائل الغرب ، بل اتبع طرائق « مالتوس » و « تولستوى » .

« أنكون على صواب إذا ما نسلنا الأطفال ونحن نعلم حقيقة الموقف ؟ إننا لا نفعل سوى أن نضاعف عدد العبيد والمقعدين ، إذا مضينا فى التكاثر بغير أن نتخذ إزاءه شيئاً من الحيطة . . لن يكون لنا حق النسل إلا إذا أصبحت الهند أمة حرة . . . ليس إلى الشك عندى من سبيل فى أن المتزوجين إذا أرادوا الخير بأمتهم وأرادوا للهند أن تصبح أمة من رجال ونساء أقوياء وسيمين ذوى أبدان جميلة التكوين ، كان واجبهم أن يكبحوا جماح أنفسهم ويقفوا النسل موقتاً(٥٦) .

وإلى جانب هذه العناصر فى تكوين شخصيته ، كان يتصف بخلال عجيبة الشبه بتلك الخلال التى يقال إنها كانت تميز « مؤسس المسيحية » ؛ إنه لم يسَمِّه باسم المسيح ، ولكنه مع ذلك كان يسلك فى حياته كما لو كان يأخذ بكل كلمة مما جاء فى « موعظة الجبل » ؛ فلم يعرف التاريخ منذ القديس فرنسيس

الأسيسى رجلا اتصفت حياته بمثل ما اتصفت به حياة غاندى من وداعة وبُعْد عن الهوى وسذاجة وعفو عن الأعداء ؛ وإنه لما يذكر حسنة لمعارضيه ، لكنه حسنة أكبر بالنسبة له هو ، أن حسن معاملته لهم — ولم يكن ذلك محل مقاومة منهم — قد استثار فيهم معاملة حسنة له من جانبهم ؛ فلما أرسلته الحكومة إلى السجن ، فعلت ذلك مصحوباً بفيض من الاعتذارات ، ولم يبد هو قط شيئاً من حقد أو كراهية ؛ وقد هجم الغوغاء عليه ثلاث مرات ، وضربوه ضرباً كاد يودى بحياته لكنه لم يرد العدوان بعدوان مثله أبداً ، ولما قبض على أحد المعتدين عليه ، أبى أن يتوجه إليه بالاتهام .

ولم يلبث بعد ذلك أن نشبت بين المسلمين والهندوس أفظع ما نشب بينهم من فتن ، وذلك حين ذبح مسلمو « موبلا » مئات من الهندوس العزّل ، وقدموا « غلفاتهم » لله قرباناً ، ثم حدث لهؤلاء المسلمين أنفسهم أن أصابتهم المجاعة ، فجمع لهم غاندى أموالا من أرجاء الهند كلها ، وقدم كل المال المجموع ، بغير نظر إلى السوابق ، وبغير أن يستقطع منه جزءاً لأحد ممن قاموا بجمعه ، قدّمه للعدو الجائع (٥٧) .

ولد « موهانداس كارام شاند غاندى » سنة ١٨٦٩ ، وتنتمى أسرته إلى طبقة « ڤاسيا » وإلى المذهب الجانتىّ ومن مبادئها التى مارستها مبدأ « أهِمْسا » وهو ألا ينزل أحد الأذى بكائن حى ،وكان أبوه إدارياً قادراً ، لكنه كان من زنادقة المموِلين ، فقد فقدَ منصباً فى إثر منصب بسبب أمانته ، وأنفق ماله كله تقريباً فى سبيل الإحسان ، وترك ما تبقى منه لأسرته (٥٨) ولما كان « موهانداس » فى صباه أنكر الآلهة إذ أساء إلى نفسه أن يرى أعمال الدعارة ماثلة فى بعض آلهة الهندوس ، ولكى يعلن ازدراءه للدين ازدراء أبديا ، أكل اللحم ، لكن أكل اللحم أضرّ بصحته ، فعاد إلى حظيرة الدين .

ولما بلغ الثامنة خطب عروسه ، وفى الثانية عشرة تزوج منها وهى

« كاستوربأى » التى ظلت على وفائها له خلال مغامراته كلها وغناه وفقره وسجنه وما تعرض له من « براهما شاريا » (أى اعتزام العفة الجنسية) ؛ وفى سن الثامنة عشرة نجح فى امتحانات الدخول فى الجامعة ، وسافر إلى لندن ليدرس القانون ، ولما كان فى السنة الأولى هناك، قرأ ثمانين كتاباً عن المسيحية ؛ وقال عن « موعظة الجبل » « إنها غاصت إلى سويداء قلبى عند قراءتها للمرة الأولى »(٥٩) واعتبر مبدأها بأن يُرَدَّ الشر بالخير وأن يحب الإنسان كل الناس حتى الأعداء ، أسمى ما يعبر عن المثل الأعلى الإنسانى ، وصمم على أن يؤثر الفشل بهذه المبادئ على النجاح بغيرها .

ولما عاد إلى الهند سنة ١٨٩١ مارس المحاماة حيناً فى بمباى ؛ فكان يرفض أن يتهم أحد من أجل دَيْنه ، ويحتفظ لنفسه دائماً بحق ترك القضية إذا ما وجد أنها تتنافى مع العدل ؛ وقد أدت به إحدى القضايا إلى السفر إلى جنوبى أفريقيا ، فوجد بنى قومه هناك يلاقون من سوء المعاملة ما أنساه العودة إلى الهند ، واتجه بجهده كله — بغير أجر — إلى قضية بنى وطنه فى أفريقيا ليزيل عنهم ما كان يصفدهم هناك من أغلال ؛ ولبث عشرين عاماً يجاهد للوصول إلى هذه الغاية حتى سلمت له الحكومة بمطالبه ، وعندئذ فقط عاد إلى أرض الوطن .

وكان طريق سفره بحيث يخترق الهند ، فتبين للمرة الأولى فقر الناس فقراً مدقعاً ، وأفزعته الهياكل العظيمة التى شهدها تكدح فى الحقول ، والمنبوذون الوضيعون الذين كانوا يعملون أقذر الأعمال فى المدن ؛ وخيل أن ما يلاقيه بنو وطنه فى الخارج من ازدراء ، إن هو إلا إحدى نتائج فقرهم وذلهم فى أرض وطنهم ، ورغم ذلك فقد أخلص الولاء لإنجلترا بتأييدها إبان الحرب ، بل دافع عن وجوب انخراط الهنود فى سلك الجيش المحارب . إن كانوا ممن لم يقبلوا مبدأ الإقلاع عن العنف ؛ ولم يوافق — عندئذ — أولئك الذين ينادون بالاستقلال

وآمن بأن سوء الحكم البريطانى فى الهند كان شذوذاً فى القاعدة ، أما القاعدة فهى أن الحكم البريطانى بصفة عامة حكم جيد ، وأن سوء الحكومة البريطانية فى الهند لا يرجع إلا إلى عدم اتباعها لمبادئ الحكم السائدة فى الحكومة البريطانية فى بريطانيا نفسها ، وأنه لو أفهم الشعب البريطانى قضية الهنود ، تردد فى قبولهم على أساس الإخاء التام فى مجموعة الأجزاء الحرة من الإمبراطورية(٦٠) واعتقد أنه إذا ما وضعت الحرب أوزارها وحسبت بريطانيا ما ضحت به الهند فى سبيل الإمبراطورية من رجال ومال ، لما ترددت فى منحها حريتها .

لكن الحرب وضعت أوزارها ، وتحرك الشعب مطالباً « بالحكم الذاتى » ، فصدرت « قوانين رولتند » وقضت على حرية الكلام والنشر ، بإنشائها تشريعاً عاجزاً للإصلاح يسمى « مونتاجو ـ شلمز فورد » ثم جاءت مذبحة « أمرتسار » فأجهزت على البقية الباقية ، ونزلت الصدمة قوية على غاندى ، فقرر من فوره عملا حاسماً ، من ذلك أنه أعاد لنائب الملك الأوسمة التى كان قد ظفر بها من الحكومات البريطانية فى أوقات مختلفة ، ووجه الدعوة إلى الهند لتقف من الحكومة الهندية موقف العصيان المدنى ، واستجاب الشعب لدعوته ، لا بالمقاومة السلمية كما طلب إليهم ، بل بالعنف وإراقة الدماء ، ففى بمباى مثلا قتلوا ثلاثة وخمسين من « الفارسيين » المناهضين للحركة القومية(٦١) ، ولما كان غاندى يعتنق مذهب « الأهِمْسا » ـ أى الامتناع عن قتل الكائنات الحية بكافة أنواعها ـ فقد بعث للناس برسالة أخرى دعاهم فيها إلى إرجاء حملة العصيان المدنى ، على أساس أنها تتدهور فى طريقها إلى أن تكون حكم الغوغاء فقلما تجد فى التاريخ رجلا أبدى من الشجاعة أكثر مما أبداه غاندى فى الاستمساك بالمبدأ فى سلوكه ، مزدرياً ما تمليه الضرورة العملية للوصول إلى الغايات ، وغير آبه بحلوله من قلوب الناس منزلة عالية ، فدهشت الأمة

لقراره ، لأنها ظنت أنها كادت تبلغ غايتها ، ولم توافق غاندى على أن الوسائل قد يكون لها من الأهمية ما للغاية المنشودة ، ومن ثم هبطت سمعة المهاتما حتى بلغت أدنى درجات جزرها .

وفى هذه اللحظة نفسها (فى مارس سنة ١٩٢٢) قررت الحكومة القبض عليه ، فلما توجه إليه النائب العام بتهمة إثارة الناس بمنشوراته ، حتى اقترفوا ما اقترفوه من ألوان العنف فى ثورة ١٩٢١ ، أجابه غاندى بعبارة رفعته فوراً إلى ذروة الشرف ، إذ قال :

« أحب أن أؤيد ما ألقاه النائب العام العلامة على كتفى من لوم فيما يخص الحوادث التى وقعت فى بمباى ومدراس وشاورى شاورا ؛ لأننى إذا ما فكرت فى هذه الحوادث تفكيراً عميقاً ، وتدبرت أمرها ليلة بعد ليلة ، تبين لى أنه من المستحيل على أن أتخلى عن هـــذه الجرائم الشيطانية . . . إن النائب العام العلامة على حق لا شبهة فيه حين يقول إننى باعتبارى رجلا مسئولا ، وباعتبارى كذلك رجلا قد ظفر بقسط من التعليم لا بأس به . . . . . كان ينبغى على أن أعرف النتائج التى تترتب على كل فعل من أفعالى ؛ لقد كنت أعلم أننى ألعب بالنار ، وأقدمت على المغامرة ، ولو أطلق سراحى لأعدتُ من جديد ما فعلته ؛ إنى أحسست هذا الصباح أننى أفشل فى أداء واجبى إذا لم أقل ما أقوله هنا الآن .

أردت أن أجتنب العنف ، وما زلت أريد اجتناب العنف ، فاجتناب العنف هو المادة الأولى فى قائمة إيمانى ، وهو كذلك المادة الأخيرة من مواد عقيدتى ؛ لكن لم يكن لى بد من الاختيار ، فإما أن أخضع لنظام الحكم الذى هو فى رأيى قد ألحق ببلادى ضرراً يستحيل إصلاحه ، وإما أن أتعرض للخطر الناشئ عن ثورة بنى وطنى ثورة غاضبة هوجاء ينفجر بركانها إذا ما عرفوا حقيقة الأمر من بين شفتى ، إنى لأعلم أن بنى وطنى قد جاوزوا حدود المعقول أحياناً ، وإنى لآسف لهذا أسفاً شديداً ، ولذلك فأنا واقف ها هنا لأتقبل ، لا أخفَّ ما تفرضونه من عقوبة ، بل أقسى ما تنزلونه من عقاب ؛ إننى

لا أطلب الرحمة ، ولا أتوسـل إليكم أن تخففوا عن العقاب ، إنى هنا – إذن – لأرحب وأتقبل راضيا أقسى عقوبة يمكن معاقبتى بها على ما يعدّه القانون جريمة مقصودة ، وما يبدو لى أنه أسمى ما يجب على المواطن أداؤه»(٦٢) .

وعبر القاضى عن عميق أسفه لاضطراره أن يزج فى السجن برجل يعدّه الملايين من بنى وطنه «وطنياً عظيما وقائداً عظيما» واعترف بأنه حتى أولئك الذين لا يأخذون بوجهة نظر غاندى، ينظرون إليه نظرتهم إلى «رجل ذى مثل عليا وحياة شريفة بل إن حياته لتتصف بما تتصف به حياة القديسين»(٦٣) وحكم عليه بالسجن ست سنوات .

سُجن غاندى سجناً منفرداً لكنه لم يتألم ، وكتب يقول «لست أرى أحداً من المسجونين الآخرين ، ولو أننى فى الحق لا أدرى كيف يمكن أن يأتيهم الضرر من صحبتى لكنى أشعر بالسعادة ، إنى أحب العزلة بطبيعتى ، وأحب الهدوء ، ولدىّ الآن فرصة سانحة لأدرس موضوعات لم يكن لى بد من إهمالها فى العالم الخارجى»(٦٤) وراح يعلم نفسه بما يزيد من ثورته فى كتابات «بيكن» و «كارلايل» و «رسكن» و «إمرسن» و «ثورو» و «تولستوى» وسرّى عن نفسه كروبها مدى ساعات طوال بقراءته لـ «بن جونسن» و «وولتر سكت» وقرأ «بها جافاد جيتا» مراراً ، ودرس السنسكريتية والتاميلية والأردية ، حتى لا يقتصر على الكتابة للعلماء ، بل ليستطيع كذلك أن يتحدث إلى الجماهير ، ولقد أعدّ لنفسه برنامجاً مفصلا لدراساته خلال الستة الأعوام التى سيقضيها فى سجنه ، وكان أميناً فى تنفيذ ذلك البرنامج ، حتى تدخلت الحوادث فى تغيير مجراه ، «لقد كنت أجلس إلى كتبى بنشوة الشاب وهو فى الرابعة والعشرين ، ناسياً أنى قد بلغت من العمر أربعة وخمسين وأنى عليل»(٦٥) ؛

كان مرضه « بالمصران الأعور » طريق خلاصه من السجن ، كما كان الطب الغربى الذى طالما أنكره ، طريق نجاته من المرض ؛ وتجمع عند بوابات السجن حشد كبير لتحيته عند خروجه وقبَّل كثيرون منهم ثوبه الغليظ وهو ماض فى طريقه ؛ لكنه اجتنب السياسة وتوارى عن أنظار الشعب ، وعنى بضعف بنيته ومرضه ، وأوى إلى مدرسته فى أحمد أباد حيث أنفق أعواماً طوالا مع طلابه فى عزلة هادئة ؛ ومع ذلك فقد أخذ يرسل من مكمنه ذاك كل أسبوع بمقال افتتاحى تنشره له الجريدة التى كانت لسان حاله ، وهى جريدة « الهند الفتاة » وجعل يبسط فى تلك المقالات فلسفته عن الثورة والحياة ؛ والتمس من أتباعه أن يجتنبوا أعمال العنف ، لا لأن العنف بمثابة الانتحار للهند فقط ، ما دامت الهند عزلاء من السلاح ، بل لأنه كذلك سيضع استبداداً مكان استبداد آخر ؛ وقال لهم : « إن التاريخ ليعلمنا أن أولئك الذين دفعتهم الدوافع الشريفة إلى اقتلاع أصحاب الجشع باستخدام القوة الغشوم ، أصبحوا بدورهم فريسة لنفس المرض الذى كان يصيب أعداءهم المهزومين . . : إن اهتمامى بحرية الهند سيزول لو رأيتها تصطنع لحريتها وسائل العنف ، لأن الثمرة التى تجنيها من تلك الوسائل لن تكون الحرية ، بل ستكون هى الاستعباد »(١٦)

وثانى العناصر فى عقيدته هو رفضه القاطع للصناعة الحديثة ، ودعوته التى تشبه دعوة روسو فى سبيل العودة إلى الحياة الساذجة ، حياة الزراعة والصناعة المنزلية فى القرى ، فقد خيل لغاندى أن حبس الرجال والنساء فى مصانع ، يعملون — بآلات يملكها سواهم — أجزاء من مصنوعات لن يتاح لهم قط أن يروها وهى كاملة ، طريقة ملتوية لشراء دمية الإنسان تحت هرم من سلع بالية ، ففى رأيه أن معظم ما تنتجه الآلات لا ضرورة له ، والعمل الذى يوفره استخدام الآلات فى الصناعة يعود فيستهلك فى صنعها وإصلاحها ، أو إن كان هناك عمل قد ادخرته الآلات فعلا ، فليس هو من صالح العمل نفسه ، بل من صالح رءوس الأموال ، فكأنما الأيدى العاملة تقذف بنفسها بسبب

إنتاجها فى حياة يسودها الذعر لما يملؤها من « تعطل ناشئ عن الأساليب العلمية فى الصناعة »(٦٧) ولذلك عمل على إحياء حركة « سواديشى » التى حمل لواءها « تيلاك » سنة ١٩٠٥ ، وأضيف مبدأ « الإنتاج الذاتى » إلى مبدأ « سواراج » أى « الحكم الذاتى » ، وجعل غاندى استخدام « الشاركا » — أى عجلة الغزل — مقياساً للتشيع المخلص للحركة القومية وطالب كل هندى ، حتى أغناهم ، بأن يلبس ثياباً من غزل البلاد ، وأن يقاطع المنسوجات البريطانية الآتية ، حتى يتسنى للدور فى الهند أن تطن من جديد فى فصل الشتاء الممل بصوت المغازل وهى تدور بعجلاتها(٦٨) .

لكن الناس لم يستجيبوا بأجمعهم لدعوته ، لأنه من العسير أن تقف التاريخ عن مجراه ، ومع ذلك فقد حاولت الهند على كل حال أن تستجيب لدعوته ، فكنت ترى الطلبة الهنود فى كل أرجاء الأرض كلها يرتدون « الخضّار » ؛ ولم تعد سيدات الطبقة العالية يلبسن « السارى » من الحرير اليابانى ، بل استبدلن به ثياباً خشنة من نسيج أيديهن وجعلت العاهرات فى مواخيرهن والمجرمون فى سجونهم يعزلون ، وأقيمت المحافل الكبرى فى المدن كثيرة كما كان يحدث فى عهد « سافونا رولا » — حيث جاء الهنود الأغنياء والتجار بما كان فى دورهم أو فى مخازنهم من المنسوجات الواردة من الخارج ، فألقوا بها فى النار ، ففى بمباى وحدها ، أكلت ألسنة اللهب مائة وخمسين ألف ثوب من القماش(٦٩) .

ولئن فشلت هذه الحركة التى قصدت إلى نبذ الصناعة ؛ فقد هيأت للهند مدى عشرة أعوام رمزاً للثورة ، وعملت على تركيز ملايينها الصامتة فى اتحاد جديد من الوعى السياسى ، وارتابت الهند فى قيمة الوسيلة لكنها أكبرت الغاية المنشودة ؛ فإذا كانت قد تزعزعت ثقتها بغاندى السياسى فقد أحاطت فى سويداء قلبها غاندى القديس ، وأصبحت الهند كلها لحظة من الزمن بمثابة الرجل الواحد وذلك باتحادها فى إكباره ، فكما يقول عنه طاغور :

« إنه وقف على أعتاب آلاف الأكواخ التى يسكنها الفقراء ولبس ثياباً

كثيابهم ، وتحدث إليهم بلغتهم ، ففيه تجسدت آخر الأمر حقيقة حية ، ولم يعد الأمر اقتباساً يستخرج من بطون الكتب : ولهذا السبب كان اسم « مهاتما » — وهو الاسم الذى أطلقه عليه الشعب — هو اسمه الحق ، فمن سواه قد شعر شعوره بأن الهنود أجمعين هم لحمه ودمه ؟ . . فلما جاء الحب وطرق باب الهند ، فتحت له الهند بابها على مصراعيه . . . لقد أزدهرت الهند لدعوة غاندى ازدهارا يؤدى بها إلى عظمة جديدة ، كما ازدهرت مرة سبقت فى الأيام السوالف ، حين أعلن بوذا صدق الإخاء والرحمة بين الكائنات الحية جميعاً »(٧٠) .

لقد كانت رسالة غاندى أن يوحّد الهند وقد أدى رسالته ؛ وهناك رسالات أخرى تنتظر رجالا آخرين .

الفصل السابع

كلمة وداع للهند

لسنا نستطيع أن نختم الحديث فى تاريخ الهند على نحو ما نختمه فى تاريخ مصر أو بابل أو أشور ، لأن تاريخ الهند لا يزال فى دور تكوينه ، ومدنيتها لا تزال فى طور إبداعها ، لقد دبت الحياة من جديد فى الهند من الوجهة الثقافية باتصالها بالغرب اتصالا عقلياً ، حتى لترى أدبها اليوم فى خصوبة شتى الآداب فى البلاد الأخرى ، وأما من الوجهة الروحية ، فهى ما تزال تكافح الخرافة والإسراف فى بضاعتها اللاهوتية ، ولكننا لا نستطيع التنبؤ بالسرعة التى تستطيع بها أحماض العلم الحديث أن تذيب آلهتهم التى تزيد عن حاجتهم ، ومن الوجهة السياسية شهدت الهند فى المائة السنة الأخيرة وحدة لم تشهد لها مثيلا فيما مضى إلا نادراً ، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى توحيد الحكومة الأجنبية القائمة عليهم ، وإلى حد ما إلى توحيد اللغة الأجنبية التى يتكلمونها ، ولكنه يرجع فوق هذا وذلك إلى اتحادهم فى الطموح إلى الحرية طموحاً صهرهم فى وحدة متماسكة ، ومن الوجهة الاقتصادية تنتقل الهند الآن من حياة العصور الوسطى إلى حياة الصناعة الحديثة بما فى هذا الانتقال من حسنات وسيئات ، وستنمو ثروتها وتزداد تجارتها ، نمواً وازدياداً يؤهلانها بغير شك إلى أن تكون قبل نهاية هذا القرن بين دول العالم الكبرى .

وليس فى وسعنا أن نزعم أن هذه المدنيَّة قد أفادت مدنيتنا إفادة مباشرة ، كما استطعنا أن نتعقب بعض جوانب مدنيتنا إلى أصولها فى مصر أو الشرق الأدنى ، ذلك لأن مصر والشرق الأدنى كانا السَّلَفَيْن المباشرين لثقافتنا ، بينما تدفق تاريخ الهند والصين واليابان فى مجرى آخر ، وهو آخذ لتوه اليوم فى مس تيار

الحياة العربية والتأثير فيه ؛ إنه على الرغم من حيلولة حاجز الهملايا ، قد استطاعت الهند أن تبعث إلينا عَبْرَ تلك الجبال طائفة من ألوان التراث المشكوك فيه ، مثل النحو والمنطق والفلسفة والحكايات الخرافية والتنويم المغناطيسى والشطرنج ، وفوق هذا كله ، بعثت إلينا أرقامنا التى نستعملها فى الحساب ونظامنا العشرى ؛ لكن هذه ليست صفوة روحها ، وهى توافه إذا قيست إلى ما قد نتعلمه منها فى مقبل الأيام ؛ فبينما تعمل الاختراعات والصناعة والتجارة على ربط القارات بعضها ببعض ، أو بينما تعمل هذه العوامل على بث روح الشقاق بيننا وبين آسيا ، فسيتاح لنا فى أى من الحالتين أن ندرس مدنيتها عن كثب أكثر من ذى قبل ، وسنمتصُّ — حتى فى حالة قيام الخصومة بيننا — بعض أساليبها وأفكارها ؛ فربما علمتنا الهند مقابل ما لقيتْه على أيدينا من فتح وعنجهية واستغلال ، التسامح والوداعة اللذين يتصف بهما العقل الناضج ، والقناعة المطمئنة التى تتميز بها النفس إذا كفت عن الجشع فى جمع المال ، وهدوء الروح البصيرة بحقائق الوجود ، وحب الكائنات الحية جميعاً ، الذى من شأنه أن يبث فى الناس اتحاداً وسلاماً .

المراجع +

الباب الرابع عشر

1. In Rolland, R., *Prophets of the New India*, 395, 449-50.
1a. Winternitz, M., *A History of Indian Literature*, i, 8.
2. Ibid , 18-21.
3. Keyserling, Count H., *Travel Diary of philosopher*, 265.
4. Chirol, Sir Valentine, *India*, 4.
5. Dubois, Abbé J. A., *Hindu Manners, Customs and Ceremonies*, 95, 321.
6. Smith, Vincent, *Oxford History of India*, 2, Child, V. G. *The Most Ancient East*, 202; Pittard, *Reace and History* 388; Coomaraswamy, *History of Indian and Indonisian Art*, 6, Parmelee. M., *Oriental and Occidental Culture*, 23-4.
7. Marshall, Sir John, *The Prehistoric Civil zation of the Indus, Illustrated London News*, Jan. 7, 1928, 1.
8. Child, 209.
9. In Muthu, D. C., *The Antiquity of Hindu Midicine*, 2.
10. Sir John Marchall in *The Modern Review*, Calcutta, April 1932, 367.
11. Coomaraswamy in *Encyclopedia Britannica*, xii, 211-2.
12. New York *Times*, Aug. 2, 1932.
13. Macdonell, A. A., *India's Past*, 9.
14. Ibid.
15. Childe 211.
16. Woolley, 8.
17. Childe, 202.
18. Ibid, 220, 211.
19. New York *Times*. April 8, 1932.
20. Gour, *Spirit of Buddhism*, 524; Radhakrishnan, S., *India Philosophy*, 75.
21. Smith, *Oxford History*, 14.
22. Davids, T. W. Rhys. *Dialogues of the Buddha*, being vols. ii-iv of *Sacred Books of the Buddhists*, ii, 97, Venkateswara, 10.
23. Monier-Williams, Sir M. *Indian Wisdom*, 227.
24. Winternitz, 304.
25. Jastrow, 85.
26. Winternitz, 64.
27. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 216, 222, Havell, E. B., *History of Aryan Rule in India*, 35, Dacids, *Buddhist India* , 51, *Dialogues of the Buddha*, iii, 79.
28. Buxton, *The people of Asia*, 121.
29. Davids, *Buddhist India*, 56, 62.

(+) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده فى هذه القـائمة ثم نكتفى بعد ذلك بذكره مختصراً

Smith, *Oxford History*, 37.

30. Sidhanta, N. K. *The Heroic Age of India*, 206; *Mahabharata* IX, v, 30.

31. Havell, 33.

32. Dutt, R. C., tr., *The Ramayana and Mahabharata*, Everyman Library, 189.

33. Davids, *Buddhist India*, 60.

34. Davids, *Dialogues*, ii, 114, 128.

35. Dutt, R. C. *The Civilization of India*, 21; Davids, *Buddhist India*. 55.

36. Macdonell. *India's Past*, 89.

37. Gray, R. M. and Parekh, M.C., *Mahatma Gandhi*, 37.

38. *Budhist India* , 46, 51, 101,2; Winternitz. 46.

39. *Buddhist India*, 90,96, 70, 101.

40. Ibid., 70. 98; Winternitz, 65; Havell, *History*, 129; Muthu, 11.

41. Winternitz, 212.

42. *Buddhist India*, 100-1.

43. Ibid., 72.

44. Dutt, *Ramayana*, 231.

45. Arrian. quoted in Sunderland, Jabez T., *India in Bondage*, 178. Strabo, XV, i, 53.

46. Winternitz, 66-7.

47. Venkateswara, 140.

48. Sidhanta, 149; Tagore in Keyserling, *The Book of marriage*, 108.

49. Sidhanta, 153.

50. Dutt, *Ramayana*, 192.

51. Smith, Oxford History, 7; Barnett, L. D., *Antiquities of India*,

52. Havell, *History*, 14; Barnett, 109.

53. Monier - Williams. 439; Winternitz, 66,

54. Lajpat Rai, L., *Unhappy India*, 151, 176.

55. *Mahabharata*, III, xxxiii, 82; Sidhanta, 160.

56. Sidhanta, 165, 168, Barnett 119, Briffault, i, 346.

57. Radhakrishnan, i, 119, Eliot, Sir Charles, *Hinduism* and *Buddhism* i, 6, *Buddhist India*, 226, Smith, 70, Das Gupta, Surendranath, *A History of Indian Philosophy*,25.

58. *Buddhist of India*, 220-4, Radhakrishnan, i, 488.

59. Ibid., 117.

60. Winternitz, 140.

61. Hume, R.E., *The Thirteen Principal Upanishads*, 169.

62. Das Gupta, 6.

63. Radhakrishnan, i, 76.

64 Eliot, i, 58, Macdonell, 32-3.

65. Eliot, i, 62, Winternitz 76.

66. Eliot, i, 59.

67. Radhakrishnan, i, 105.

68. Ibid., 78.

69. *Brihadaranyake Upanishad*, i, 4, Hume 81.

70 Radhakrishnan, i, 114-5.

71 *Katha Upanishad*, i, 8 Radhakrishnan, i, 250, Müller, Max, *Six Systems of Hindu Philosophy*, 131.

72. Eliot, i, xv; *Buddhist India*, 241 Radhakrishnan, i, 108.

73. Ibid., 107,Winternitz, 215, Gour, 5.

74. Frazer, R. W., *A Literary History of India*, 243.

75. Dutt, *Ramayana*, 318, Briffault, i, 346, iii, 188.

76. Ibid.

77. Macdonell, 24.

78. Winternitz. 208, Das Gupta 21.
79. Budhist India, 241.
80. Winternitz, 207.
81. Dutt, *Civilization of India*, 38.
82. Müller, Max, *Lectures on the Science of Language*, ii. 234-7, 276, Skeat, W. W., *Etymological Dictionary of the English Language*, 729f.
83. In Elphinstone, M., *History of India*, 161.
84. *Buddhist India*, 153. Winternitz 41-4.
85. ibid , 31-2, Macdonell., 7, *Buddhist India*, 114.
86. Ibid. 120.
87. Müller, Max, *India What Can It Teach Us ?*, London, 1919, 206. Winternitz, 32.
89. mubios, 425.
90. Radhakrishuan i, 67, Eliot, i, 51.
91. Ibid., i, 53.
92. Winternitz, 69,79, Müller, *India*, 97, Macdonell, 35.
93. Tr. by Macdonell in Tiejens, Ennice, *Poetry of the Orient*, 248.
94. Tr. by Max Müller in Smith, *Oxford History*, 20.
95. In Müller, India, 254,
96. Winternitz, 243, Radhakrishman, i, 137 Deussen, Paul, *The Philosophy of the Upanishads* 13.
97. Eliot, i, 51, Radhakrishnan, i, 141.
98. Cf. e. g., a passage in Chatterji J. C., *Indian's Outlook on life*, 42.
99. E.g., *Chandogya Upanishad*, v, 2, Hume 229.
100. They are listed in Radhakrishnan, 143.
101. Eliot, i, 93.
102. Hume, 144.
103. *Shvetashvatara Upanishad*, i, 1, Radhakrishman i, 150.
104. Hume, 422,
105. *Katha Upanishad*, ii, 23, *Brihadaranyaka Upanishad*, iii, 5, iv, 4, Radhakrishnan, 177.
106. *Katha Upan.*, iv, i, Radhakrishnan i, 145.
107. *Katha Upan.*, ii, 24.
108. *Chondogya Upan* , vi, 7.
109. Radhakrishuan, i, 151.
110. *Brih. Upan.*, ii, 2, iv, 4.
111. Ibid., iii, 9.
112. *Chand. Upan.*, vi, 12.
113. Radhakrishnan, i, 94, 96.
117. Radhakrishnan, i, 249-51; Macdonell, 48.
118. *Brih Upan.*, iv. 4.
119. Radhakrishnan. i, 289.
120. *Mundaka Upan.*, iii. 2. Radhakrishnan. i. 236.

الباب الخامس عشر

1. *Chand. Upan.*, i, 12: Radhakrishnan. 1. 149.
2. Ibid., 278.
3. In Hume. 65.
4. Davids. *Dialogues of the Buddha*, ii, 78-5; Radhakrishnan, i. 274.
5. Dutt, *Ramayana*, 60-1.
6. Müller, *Six Systems*, 17; Radhak., i. 178.
7. Eliot i.xix : Müller, *Six Systems*, 23; Davids, *Buddhist India*, 141.

8. Radhak., i, 278.
9. Monier-Williams, 120-2,
10. Das Gupta, 78;Raadhake., i,270.
11. Ibid., 281.
12. Das Gupta, 79.
13. Monier - Williams, 120, Müller *Six Systems*, 100.
14. Radhak., i, 280.
15. Ibid., 281-2.
16. Ibid.,278,Smith, *Oxford History*, 50.
17. Radhak., i, 301.
18. Ibid., 329, Eliot, i, 106.
19. Ibid.,
20. Radhak, i, 331, 293.
21. Ibid, 327, Eliot, i, 110. 113,115, Smith, *Oxford History*, 53, Smith, Vincent, *Akbar*, 167,Dubios, 521.
22. Smith, *Oxford History*, 210.
23. Eliot., i. 112.
24. Ibid., 115.
25. Thomas E. J., *The Life of Buddha as Legend and History* 20.
26. Eliot, i, 244n.
27. Gour, introd., Davids *Dialogues*, ii, 117, Radhak., i, 347. 351; Eliot i, 183, 173.
28. Thomas, E. J., 31-3.
29. Eliot. i, 131; Venkatesawara,169. Havell, *History*, 49.
30. Tomas, 50-1.
31. Ibid., 54.
32. Ibid., 55.
33. Ibid., 65.
34. Radhak., i. 343-5,
35. Eliot i, 129.
36. *Dialogues*. ii, 5.
37. Gour. 405.
38. *Dialogues*. iii, 102.
39. Thomas, 87.
40. Radhak., i, 363.
41. Eliot, i. 203.
42. Ibid, 250.
43. Dutt, *Civilization of India*. 44.
44. Radhak., i. 475.
45. *Dialogues*, ii. 154.
46. Radhak., i. 421.
47. *Dialogues*, ii. 35.
48. Ibid., 186.
49. Ibid., 254.
50. Ibid., 280-2.
51. Ibid., 37.
52. Radhak., i. 356; Gour, 10.
53. Radhak., i. 488. 475; *Dialogus*, ii. 123; Eliot, i. xxii.
54. Radhak., i, 354.
55. Ibid, 424;Gour, 10;Eliot, i. 247.
56. Gour, 542; Radhak., i. 465.
57. Eliot, i. xcv.
58. Gour, 280-4.
59. Eliot, i. xxii.
60. Gour, 892-4; Radhak., i. 355.
61. Thomas, 208.
62. Radhak, i, 456.
63. Ibid., 375.
64. Ibid, 369, 385, 392; *Buddhist India*, 188, 257; Thomas, 88.
65. Das Gupta, 240. Gour, 335.
66. Eliot, i. 161; *Dialogues* ii, 188.
67. Eliot, i 210. *Dialogues*, ii. 71.
68. Eliot, i. 227, Radhak., i. 389.
69. Thomas, 189.
70. Macdonell, 48. Radhak., 444. Eliot, i. xxi.
71. Gour, 312-4. 333.
72. *Dialogues*, ii. 190.
74. Eliot, i. 224. Müller,*Six Systems*, 373, Thomas, 187.
75. Radhak., i. 446.
76. Eliot, i, 224.
77. Ibid., i. 227. Thomas, 145.
80. *Dialogues*, ii. 55. iii.94. Watters. Thos. *On Yuan Chwang's Tra-*

vels in India, i, 374.
81. Thomas 134.
82. *Bnddhis India*, 300, Radhak. i. 351.
83. Thomas. 100.
84. Ibid., 100-2.
85. *Dialogues*, ii, 1-26.
86. Eliot i, 160.
87. *Dialogues*. iii. 87.
88. Ibid., 108.
89. Thomas. 158.

الباب السادس عشر

1. Arrian, *Anabasis of Alexander*, V, 19, VI. 2.
2. Smith, *Oxford History*, 66.
3. Kohn. *History of Nationalism In the East*, 350.
4. Arrian. *Indica*, X.
5. In Dutt, *Civilization of India*, 50.
6. Arrian, *Anabasis*, VI, 2.
7. Ibid., V, 8; Strabo, XV, i, 28.
8. *Enc. Brit.*, xii, 212.
9. Smith, *Oxford History*, 62.
10. Arrian, *Indica*, X.
11. Havell, 75.
12. Smith, *Oxford History*, 77.
13. Ibid., 114.
14. Ibid., 79.
15. Havell, *History*, 82-3.
16. It is of uncertian authenticity Sarton (147) accepts it as Katilya's but Macdonell (*India's Past*, 170) considers it the work of a later writer.
17. In Smith, *Oxford History*, 84.
18. Smith, *Akbar*, 396.
19. Smith, *Oxford History*, 76, 87.
20. Ibid., 311.
21. Strabo, XV, i, 40.
22. Havell, 82.
23. Barnett, 99-100. Havell, 82.
24. Ibid., 69, 80.
25. Ibid., 74.
26. Ibid., 71f; Barnett, 107.
27. Davids, *Buddhist India*, 264; Havell, ibid.
28. Strabo, XV, i, 51.
28a. Havell, 78.
28b. Smith *Oxford History* 87.
29. *Candide*.
30. Havell, 88.
31. Ibid., 91.2; Smith, *Oxford History*, 1, 1.
32. Smith, V., *Asoka*, 67 : Davids, *Buddhist India*, 297.
33. Smith *Asoka*, 92.
34. Ibid., 60.
35. Provincial Edict I Havell, 93.
36. Havell, 100. Smith. *Asoka*, 67.
37. Watters, ii, 91.
38. Muthu, 35.
39. Rock Fdict XIII.
40. Havell, 100, Smith, *Oxford History*. 135. Melamed, S.M, *Spinoza and Buddha*. 302-3, 308.
41. Rock Edict VI.
42. Pillar Edict V.
43. Watters, 99.
44. Davids *Buddhist India*, 308; Smith, *Oxford History*, 126.
45. Ibid., 155.
46. Nag, Kalins, *Greater India*, 27.
47. Besant, Annie, *India* 15.
48. Smith, *Ox. H*, 145.
49. Tr. by James Legge, in Gowen. *Indian Literature*, 116.

50. Havell, 158.
51. Nag, 25.
52. Havell, E. B., *The Ancient and Medieval Architecture of India*, xxv.
53. Ibid., 207.
54. Watters, i, 344.
55. Havell, *History*, 204.
56. Watters, ii, 348-9, Havell, 203-4.
57. Fenollosa, E. F., *Epochs of Chinese and Japanese Aot* i, 85.
58. Arrian, *Anabasis*, V, 4.
59. Tod, Lt-Col. James, *Annals and Antiquities of Rajathan*, ii, 115.
60. Tod, i, 209.
61. Keyserling. *Travel Diary*, 184.
62. Tod, i, 244f.
63. Smith, *Ox. H.*, 311.
64. ibid., 304.
65. Ibid., 309.
66. Ibid., 308, Havell, *History*, 402.
67. Smith, *Ox. H.*, 308-10.
68. Ibid, 312-13.
69. Ibid., 314.
70. Ibid., 309.
71. Swell, Robert, *A Forgotten Emplre Vijayangar*, in Smith, *Ox. H.*, 306.
72. From an ancient Moslem chronicle, *Tabaket-i-Nasiri*, in Smith, *Ox.*, *H*, 192.
73. Havell, *History*, 286.
74. Elphinstone, Monntsuart, *History of India*, 333, 337-8.
75. *Tabakat-i-Nasiri*, In Smith, *Ox. H.*, 222-3.
76. Smith, 226, 282, 245.
77. Ibn Batuta, in Smith 240.
78. Smith, 303,
80. In Smith, 284.
81. Ibid.
82. *Queen Mab.*
83. Havell, *History*, 368.
84. Ibid, Smith, 252.
85. Elphinstone, 415, Smith *Akbar*, 10.
86. Smith, *Ox*, *H.*, 321.
87. Firishtah Muhammad Qasim, *History of Hindustan*, ii, 188.
88. Elphinstone, 430.
89. Babur, *Memoirs*, 1.
90. Smith, *Akbar*, 98 148, 858, Havell, *History*, 479.
91. Smith, *Akbar*, 226, 379, 383, Besant, 23.
92. Smith, *Ahbar*, 333.
93. Firtshtah, 399.
94. Smith, *Akbar*, 833-6, 65,77,343, 115, 160, 108, Smith, *Ox.*, *H.*, 113, Besant, *India.*, 23.
95. Havell, *History*, 478.
96. Smith, *Akbar*, 406.
97. Ibid., 424-5.
98. Ibid:, 235-7.
99. In Frazer *History of Indian Literature*, 358.
100. Havell, *History*, 499.
101. Brown, Percy, *Indian Painting*. 49, Smith, *Ahbar*, 421-2.
102. Ibid, 350 Havell,*History*,493-4.
103. Ibid, 494.
104. Ibid, 498.
105. Frazer, 357.
106. Smith, *Ahbar*, 133, 167, 181, 257, 350, Havell, *History* 493, 510.
107. Smith, *Akbar*, 212.
108. Ibid., 216-21.
109. Smith, *Ahbar*, 301, 328, 325.
110. Smith *Ox.*, *H.*, 387.
111. Elphinstone, 540.
112. Lorenz, D.E., *Round the World Traveler*, 373.

113. Smith, *Ox. H.*, 395.
114. Ibid. 393.
115. Elphinstone, 586.
116. Ibid., 577; Smith, *Ox.* H., 445-7.
117. Ibid, 439.
118. Fergusson, Jas., *History of Indian and Eastern Architectur.* ii, 88.
119. Tod, i, 349.
120. Smith, *Ox.* H., 448.
121. Ibid., 446.

الباب السابع عشر

1. Smith, *Akbar*. 401; *Indian Year Book*, Bombay, 1929, 563; Minney, R J., *Shiva or The Future of India* , 50.
2. Havell, *History*, 160; Eliot, ii, 171: Dubois, 190.
3. Parmelee. 148n.
4. Smith, *Ox* His , 815.
5. Havell, 80, 261.
6. Strabo, XV, i, 40; Siddhanta, 180; Dubois, 57.
7. Barnett, 107; Havell, *Ancient and Medieval Architecture* 208; Tod, i, 862.
8. Sarkar, B. K., *Hindu Achievements in Exact Science*, 68.
9. III, 102.
10. In Strabo, XV, i, 44.
11. Sarkar, 68; Lajpat Rai, L., *Englands' Dept to India*, 167.
12. Havell, *Architecture*, 129; Ferguson, *India Architecture*, ii, 208.
13. Lajpat Rai. *England's Dept*, ibid.
14. Moon, P. T., *Imperialism and World Politics*, 292.
15. Lajpat Rai, *England's Dept*, 121.
16. III, 107.
17. Sarton, 585.
18. Lajpat Rai, *England's Dept*, 123.
19. Ibid.
20. Polo, *Travels*, 307.
21. Murthu, 100.
22. Venkateswara, 11; Smith. *Ox.*
23. Lajpat Rai, *England's Dept.* 162-3.
24 Havell, *History*, 75, 130.
25. Ibid, 140.
26. Lajpat Rai, *England's Dept*, 165.
27. Barnett, 211-15.
28. Macdonell, 275-70.
29. Smith, *Akbar*, 157.
30. Fragment XXVII Bin McCrindle, J.W., *Ancient India as Described by megathenes and Arrian*, 73.
31. Monier-Williams, 263; Minney, 75.
32. Barnett, 130; Monier-Williams, 264.
33. Dubios, 657.
34. Sidhanta, 178 : Havell, *History*, 234; Smith, *Ox.* H. 312
35. Besant, 23; Dutt, *Civilization of India*, 121.
36. Dubios, 81-7.
37. Lajpat, Rai, *England's Dept*, 12.
38. Smith, *Akbar*, 389·91.
39. Ibid., 393.
40. Ibid., 392.
41. Watters, I, 340.
42. Elphinstone, 329; of, Smith, *Ox.* H., 257.
43. Elphinstone, 477.
44. Smith *Ox.* H., 492.

45. Smith, *Akbar*, 395.
46. Ibid., 108.
47. Lajpat Rai, *Unhappy India* 315.
48. Minney, 72.
49. Lajpat Rai, *England's Debts*, 25.
50. Macaulay, T.B., Essay on Clive, in *Critical and Historical Essays*, i, 544.
51. Havell, *History*, 235, Havell, *Architecture*, xxvi, This liberty, of course, was at its minimum under Chandragupta Maurya.
52. Laws of Manu, vii, 15, 20-4, 218, in Monier-Williams, 256, 285.
53. Smith, *Ox.* H, 229.
54. Ibid., 266.
55. Barnett, 124, Dubois, 654, Smith, *Ox*. H., 109.
56. Dubois, 654.
57. Smith, *Ox*. H., 249.
58. Ibid., 249, 313, Barnett, 122.
59. Monier-Williams, 204-6.
60. Max Müller, *India*, 12.
62. Kubois, 722, cf. also 661 and 717.
63. Monier-Williams, 203, 283, 268.
64. Simon, Sir John, Chairman, *Reppert of the India Statutory Commission*, i, 35.
65. Davids, *Buddhist India*, 150.
66. Tod, i, 479, Hallam. Henry. *Veiw of State of Europe during the Middle Ages*, ch. vii, p. 263.
66a. Barnett. 06, Dubois, 177.
67. Manu xix, 313, Monier-Williams 234.
68. Maine, *Ancient Law*, 165, Monier-Williams, 266.
69. Barnett, 112.
70. Lubbock, *Origin of Civilization* 379.
71. Winternitz, 147, Radhak., i, 356, Monier-Williams, 236.
72. Dubois, 590-2.
73. Barnett. 123, Davids, *Dialogues*, ii, 285.
75. Havell, *History*, 60.
76. Monier-Williams, 233.
77. Dubois, 98, 169.
78. Manu, i, 100, Monier-Williams, 237.
79. Dubois, 176.
80. Manu, iii, 100.
81. Barnett, 114.
82. Dubois, 593.
83. Manu, viii, 380-1.
85. Manu, xi, 206.
86. Barnett, 128.
87. Ibid., 121, Winternitz, 198.
88. Eliot, i, 37, Simon, i, 35.
89. Manu, iv, 147.
90. Ibid., ii, 87.
91. XI, 261.
92. IV. 27-8.
93. Dubois, 166, 237, 2.9.
94. Ibid., 187.
95. Manu. ii. 177-8.
96. VIII. 336-8.
97. II, 179.
98. Book xvii, Arnold. Sir Edwin, *The Song Celestial*, 107.
99. Tagore, R. *Sodhana*, 127.
100. Smith, *Ox*. H., 42.
101. Ibid., 34.
102. IX, 45.
103. Barnett, 117.
104. Sumner, *Folkways* 315.
105. Tod. I 602, Smith. *Ox.*, *H.* 690.
106. Wood, Ernest, *An Englishman Defends Mother India*, 103.
107. Dubois. 205, Havell E. B. *The Ideals of Indian Art*. 93.
108. Tagore in Keyserling. *The Book of Marriage*. 104. 108.
109. Hall. Josf ("Upton Close").

Eminent Asians 505.
110. Lajpat Rai, *Unhapy India*,186.
111. Dubois, 231, *Census of India*, 1921, i, 151, Mukerji, D. G., *A Son of Mother India Answers*, 19.
112. Bernett, 115.
113. Lajpat Rai, *Unhappy India*,159.
114. Roble, W. F., *The Art of Love* 18f, Macdonell, 174.
115. Roble, 36.
116. Ibid , 32.
117. Frazer, *Adonis*, 54-5, Curtiz,W. E., *Modern India*, 284-5.
118. Dubois, 585,
119. Cf, e'g., the"Fift Stanzas" of Bilhana, in Tietjens, 303-6.
120, Coomaraswamy, A. K., *Dance of Shiva* , 103, 108.
121. Monier-Williams, 244.
122. Dobois, 214.
123. Strabo, I, I, 62.
124. Manu, III, 12-15, ix, 45,85,101, Monier-Williams, 243
125. Tod, i. 284n.
126. Nivedita, Sister (Margaret E. Noble), *The Web of Indian Life*, 40.
127. Barnett. 109.
128 XV, i, 62.
129. Havell, Ideals, 91.
130. In Bebel, *Woman Under Socialism*, 52.
131. In Tod, i, 604.
132. Barnett, 109.
133. Dubois, 339-40.
134. Manu. iv, 43, Barnett, 110.
135. Manu, v. 154-6.
136, Westermark, *Moral Ideas*, ii, 650.
137. Dubois, 337.
138. Tagore, R., *Chitra*, 45.
139. Manu, ix, 18.
140. III, 83, 82, Sidhanta, 160.
141. Frazer, R. W., 179.
142. VIII, 461.
143. Monier-Williams, 267, Tod. i,
144. Barnett. 116, Westermark, ii, 650.
145. Manu, ix, 2. 12. iii, 57, 60-3.
146. Tod. i, 604.
147. II, 145, Wood. 27.
148. Tod, i. 590n. Zimand. S.,*Living India*.124-5.
[149. Dubois. 313.
150. Herodotus, IV. 71. V. 5.
151. *Enc. Brit.* xxi, 624.
152. *Rig. Veda.* x.18. Sidhanta 165n.
153. I. 125. xv. 33. xvi. 7. xii. 149 Sidhanta. 165.
154. Smith. *Ox. H.* 309.
155. XV, I 30. 62.
156. *Enc. Brit.* xxi. 625.
157. Tod. i. 604, Smith. *Ox.H.*,213.
158. Coomaraswamy.*Dance of Shiva*. 91.
159. Smith. *Ox. H.* 309.
160. Manu. v. 162. ix. 47.65.Parmelee. 114.
161. Lajpat Rai. *Unhappy India.* 198
162. Ibid 192. 196.
163. Tod. i. 575.
164. Dubois, 331.
165. Ibid. 78. 337. 355. 587. Sumner. *Folkways* 457.
166. Dubois 340. Coomoraswamy. *Dance.* 94.
167. Bebel. 52. Sumner. 457.
168. IV. 203.
169. Wood. 292. 195.
170. Lajpat Rai. *Unhappy India*.284.
171. Ibid. 280.
172. Watters. i. 152.

173. Dubois, 184, 248 ; Wood, 196.
174. Sumner, 457.
175. Dubois, 708-10.
176. The scatophilic student will find these matters piouly detailed by the Abbè Dubois, 237f.
177. Sumner, 457; Wood, 848.
178. Wood, 286.
179. Dubois, 325.
180. Ibid., 78.
181. Ibid.,341; Coomaraswamy, *History*; 210.
182. Dubois, 324.
183. Loti, Piere, *India*, 113; Parmelee, 138.
184. Loti, 210.
185. Dubois, 662.
186. Westermarck, i, 89.
187. Macaulay. *Essays*, i, 562.
188. Manu, viii, 103-4 ; Monier-Williams, 23-7
189. Watters, i, 171.
190. Müller, *India* 57.
191. Hardie, J. Keir, *India*, 60.
192. Mukerji, *A son*, 43.
193. Smith *Ox.* H., 666f.
194. Dubois, 120.
195. Examples of the latter quality will be found in Dubois, 660, or in almost any account of the recent revolts.
196. Frazer, R.W., 163; Dubois, 509.
197. Simon, i, 48.
198. Müller, *India*, 41.
199. Davids, *Dialogues*, ii, 9-11.
200. Skeat, *s v. Chess Enc. Brit.*, art, "Chess".
201. Dubois, 670.
202. *Enc. Brit.*, viii, 175.
203. Havell *Restory*, 477.
204. Nivedita, 11f.
205. Dubois, 595.
206. Briffault, iii, 198.
207. Gandhi, M.K., *His Own Story*, 45.
208. Davids, *Buddhist India*, 78.
209. Watters, i, 175.
210. Westermarck, i, 244-6.

الباب الثامن عشر

1. Davids, *Dialogues*, iii, 184.
2. Winternitz, 562.
3. Fergusson, i, 174.
4. Edmunds, A. J., *Buddhistic and Christian Gospels*, Philadelphia, 1908, 2v.
5. Havell, *History*, 101; Eliot i, 147.
6. Eliot, ii, 110.
7. Ibid., i, xciii; Simon, i, 79.
8. Sarton, 367, 428, Smith, *Ox.* H., 174; Fenollosa, ii, 213, i, 82, Nag, 34-5.
9. Fergusson, i, 292.
10. Monier-Williams, 429.
11. Dubois 626, Doane, *Bible Myths*, 278f Cardenter Edward, *Pagan and Christian Creeds*,24.
12. Indian Year Book. 1929. 21.
13. Eliot. ii, 232.
14. Lorenz, 835, Dubois. 112.
15. *Modern Review*, Calcuta, April, 1932, p. 367, Childe, *The Most Ancient East*, 209.
16. Rawlinson, *Five Great Monarchies* ii. 335n.
17. Eloit. ii. 288. Kohn. 380.
18. Eliot. ii. 287.
19. *Modern Review*, June. 1931.p.718.

20. Eliot, ii, 282.
21. Ibid., 145.
22. Dubois, 571, 641.
23. Ibid., Coomaraswamy, *History*, 68, 181.
24. Lorenz, 833.
25. Wood, 204, Dubois, 43, 182, 638-9.
26. Zinland, 132.
27. Wood, 208.
28. Eliot, I, 211.
29. Havell. *Architecture*, xxxv.
30. Winternitz, 529.
31. *Vishnupurana*, z. 16, in Otto, Rudolf, *Mysticism, East and West*, 55-6.
32. Dubois 545, Eliot, i, 46.
33. Monier-Williams, 178, 331, Dubois, 415, Eliot, i. ixviii, 46.
34. Eliot, i, lxvi, Fülop-Miller, R., *Lenin and Gandhi*, 248.
35. Manu, xli, 62, Monier-Williams 55, 276, Radhak., i, 260.
36. Watters, i, 281.
37. Dubois, 562.
38. Ibid. 248.
39. Eliot, i, lxxvii, Monier-Williams, 55, *Mahabharata*, XII, 2798, Manu. iv, 88-90, xii, 75-77, iv, 182, 260, vi, 32, ii, 244.
40. Dubois, 565.
41. Eliot, i, lxvi.
42. Quoted by Winternitz, 7.
43. Article on "The Failure of Every Philosophical Attempt in Theodicy," 1791, in Radhak, i, 564.
44. From the *Mahabharata* reference lost.
45. In Brown, Brain, *Wisdom of the Hindus*, 32.
46. *Ramayana*, etc., 152.
47. Brown, B., *Hindus*, 222f.
48. Rolland, R., *Prophets of the New India*, 49.
50. Dubois, 379f.
51. Briffault, ii, 451.
52. Davids, *Buddhist India*, 216, Dubois, 149, 329. 382f.
53. Sumner, *Folkways*, 547 : Eliot, ii, 143, Dubois, 629, Monier-Williams, 522-3.
54. Dubois, 541, 631.
55. Murray's *India*, London, 1905, 484.
56. Eliot, ii, 173.
57. Dubois, 595.
58. Vivekananda In Wood, 156.
59. Havell, *Architecture*, 107 Eliot, ii, 225.
60. In Wood, 154.
61. Simon, i, 24 : Lorenz, 332, Eliot, ii, 173, Dubois, 296.
62. Monier-Williams, 430.
63. Dubois, 647.
64. Winternitz, 565, Smith, *Ox. H*, 690.
66. *Enc. Brit.*, xiii, 175.
67. Smith, *Ox. H.*, 165, 315.
68. Dubois, 110.
69. Ibid., 180-1.
70. Eliot, iii, 422.
71. Dubois, 43; Wood. 205.
72. Dubois, 43.
73. Watters. I. 319.
74. Dubois. 500-9. 528f.
75. Ibid. 206.
76. Eliot, ii, 322.
77. Radhak , i. 345.
78. Ibid., 484.
79. Arnold. *The Song Celestial*. 94.
80. Brown B., *Hindus*. 218-20; Barnett. *The Heart of India* 112.
81. Elphinstone, 476. Loti. 34; Eliot. i, xxxvii. 40-1; Radhak., i. 27;

Dubois, 119n.
82. Kohn, 352.
83. Smith, *Ox. H.*, x.
84. Gour, 9.

الباب التاسع عشر

1. Spencer, *Sociology*, iii, 218.
3. Sarton, 378.
4. Ibid, 409, 428; Sedgwik and Tyler, 160.
5. Barnett, 188-90.
6. Muthu, 97.
7. De Morgan in Sorkar, 8.
8. Refe.ence lost.
8a. *Journal of the American Oriental Society*. Vol. 51, No. 1, p 51.
9. Sarton, 601.
10. Monier-Williams, 174; Sedgwick 159; Sarkar, 12.
11. Ibid.,
12. Muthu, 92; Sedgwirk, 157f.
13. Ibid.; Lowie, R. H., *are We Civilized?*, 269; Sarkar, 14.
14. Muthu. 92; Sarkar, 14-15.
15. Monier-Williams, 183-4.
16. Sedgwick, 157.
17. Sarkar, 17.
18. Sedgwick, 157; Muthu, 94; Sarkar, 2‘-4
19. Muthu 97; Radhak., i, 317-8.
20. Sarkar, 36f.
21. Ibid., 37-8.
22. Muthu 104; Sarkar, 39-46
22a. Ibid. 45.
23. Garrison, 71; Sarkar, 56.
24 Sarkar, 57 9.
25. Ibid., 63.
26. Lajpat Rai *Unhappy India*, 163-4.
27. Sarkar, 63.
28. Ibid., 65.
29. Muthu, 14.
30. Sarton, 77; Garrison, 71.
31. Barnett, 220.
32. Muthu, 50.
33. Ibid., 39; Barnett, 221; Sarton, 480.
34. Sarton, 77: Garrison 72.
35. Muthu, 26; Macdonell, 180.
36. Garrison, 29.
37. Muthu, 26.
38. Ibid., 27.
39. Garrison, 70.
40. Ibid., 71.
41. Macdonell, 179.
42. Harding, T. Swann, *Fads, Frauds and Physicians*, 147.
43. Watters, i, 174, Venkateswara, 198.
44. Barnett, 224; Garrison, 71.
45. Ibid., Muthu, 33.
46. Garrison, 71, Lajpat Rai, *Unhappy India*, 286.
47. Eliot, i, lxxxix; Lajpat Rai, 285.
48. Muthu, 44.
49. Garrison, 73.
50. Ibid., 72.
51. Macdonell, 180.
52. Havell, *History*, 265.
53 Lajpat Rai, 287.
54. Radhak, i, 55.
56. Müller, *Six Systems*, 11; Havell, *History*, 412.
57. Das Gupta, 409.
58. Havell, *History*, 208.
59. Coomaraswamy *Dance*, f.p. 130.
60. Davids. *Dialogues*, ii, 26f; Müller *Six Systems*, 17; Radhak, i, 483.
61. Keyserling, *Travel Diary*, i, 106—ii, 157.

62. Müller, *Six Systems*. 219, 236; Radhak., i, 57, 276, ii, 23; Das Gupta, 8.
63. Radhak., ii, 36, 43.
64. Ibid. 31, 127, 173; Müller. 427.
65. Radhak., i, 281, ii. 41, 184.
66. Gowen, *Indian Literature*, 127 Radhak, ii, 29, 197, 202, 237; Dutt, *Civilization of India*, 84; Müller, 438; Chatterji, J. C., *The Hindu Realism*, 20, 22.
67. Radhak., ii, 249.
68. Ibid
69. Gowen, 128.
70. Ibid, 30, Monier-Williams, 78, Müller, 84. 219f.
70a. E.g., XII, 13703.
70b. Radhak., ii, 249.
71. Macdonell, 93.
72. Müller, x.
73. Kapila, *The Aphorism of the Sankhya Philosophy*, Adh. IV.
74. Gour, 23.
75. Eliot, ii, 301; Monier-William, 88.
76. Kapila, Aph. 98.
77. Monier. Williams, 84.
78. Müller, xi.
79. Kapila. Aph. 100; Monier-Williams, 88.
80. Kapila, p. 75. Aph. 67.
81. Radhak., i, 279.
82. In Browd, H.. *Hindus*, 212.
83. Eliot. ii, 301.
84. Kapila in Brown, B. *Hindus*, 213.
85. Kapila, Aph. 56.
86. Ibid., Aphs, 83-4.
87. In Brown B., 211.
88. Monier-Williams, 90-1.
89. Ibid., 92.
90. *Rig-Veda x*, 136. 3; Radhak., i, 111.
91. Eliot, i, 303.
92. Arrian, *Anabasis*, VII, 3.
93. Some authorities, however, attribute the *Yoga-Sutra* to the fourth century A.D.—Radhak., ii, 340.
94. Watters, i, 148.
95. Polo, 300.
96. Lorenz, 356.
97. Chatterji, *India's Outlook on Life*, 61n; Radhak., i, 337.
98. Müller, *Six Systems*, 324-5. Coomaraswamy, *Dance*, 50, Radhak, ii, 344; Das Gupta, S., *Yoga as Philosophy and Religion*, vii, Parmelee, 64, Eliot, i, 303-4, Davids, *Buddhist India*, 242.
100. Chatterji, *India's Outlook*, 65.
101. Müller. *Six Systems*, 349
102 *The World as Will and Idea*, tr Haldane and Kemp, iii, 254; Eliot, i, 309.
103 Radhak, ii, 360.
104. Vysa in Radhak, ii, 362.
105. Eliot, i 306, Radhak., ii. 371, Müller, 308-10, 324-5.
106. Chatterji *Realism*, 6; Dubois 93.
107. Patanjali in Brown, B, *Hindus*, 183; Radhak., i, 366.
108. Das Gupta, *Yoga*, 157, Eliot, i, 319; Chatterji, *India's Outlook*, 40.
109. Dubois, 529, 601.
110 Eliot, ii, 295.
111. Radhak., ii, 494; Das Gupta, *History*, 434.
112. Radhak, i, 45-6.
113. Radhak., ii, 528-31, 555-87 Deussen, Paul, *System of the Vedanta*, 241-4; Macdonell, 47 Radhakrishnan, S., *The Hindu View of*

Life, 65-6; Otto, 3.
114. Eliot. I, xiii-iii, Deussen, *Vedanta*, 272, 458.
115. Radhak., ii, 544f.
115a. Guénon, Reno, *Man and His Becoming*, 259.
116. Deussen. 259.
117. Coomaraswamy, *Dance*, 113.
118. Müller *Six Systems*. 194.
119. Eliot. ii, 812, Deussen, 256, 300, 477; Radhak, ii, 633, 648.
120. Deussen 402-10, 457.
121. Eliot. ii. 40.
122. In Deussen, 106.
123. Ibid., 286.
124. Radhak., ii, 448.
125. In Müller, *Six Systems*, 181.
126. Radhak. ii, 771.
127. Dickinson, G. Lowes, *An Essay on the Civilization of India China and Japan*, 33.
128. Keyserling, *Travel Diary*, i, 257.
129. *Isavasya Upanishad*, in Brown, B., *Hindus*, 159.
130. Ibid.
131. *De Intellectus Emendatione*.
132. C.f. Otto. 219-23. Mellamed, S. M., in *Spinoza and Buddha*, hae tried to trace the influence of Hindu pantheism upon the great Jew of Amesterdam.

الباب العشرون

1. Das Gupta, *Yoga*, 16 Radhak., ii 570
2. Macdonell, 61; Winternitz, 46-7.
3. *Mahabharata* II, 5, Davids *Buddhist India*, 108, Rhys Davids dates the oldest extant Indian (bark) MS. about the beginning of the Christian era. (*Ibid.*, 124).
4. Ibid., 118.
5. Indian Year Book, 1929, 633.
6. Winternitz, 33, 35.
7. Lajpat Rai, *Unhappy India*, 18, 27.
8. Venkateswara, 83; Max Müller in Hardie, 5.
9. Smith, *Ox., H.*, 114.
10. Venkateswara, 83, Havell, *History*, 409.
11. Venkateswara, 85; 100, 239.
12. Ibid., 114, 84, Frazer, R.W., 161.
13. Venkateswara, 148.
14. Havell, *History*, Plate XLI.
15. Venkateswara. 231-2, Smith *Ox. H.*, Havell. *History*, 140, Muthu, 32, 74, *Modern Review*, March, 1915, 334.
16. Watters, ii, 164-5.
17. Venkateswara, 229, 140, 121, 82; Muthu, 77.
18. Tod, I, 348n.
19. Ibid.,
20. *Ramayana* etc., 324.
21. Eliot. i, xc.
22. Tietjeus, 246.
23. VI, 18, 50.
23a. *Ramayana*, etc., 303-7.
24 V., 1517, Monier-Williams, 448.
25 In Brown, B. *Hindus*, 41.
26. In Winternitz, 441.
27. In Brown, B., 27.
28. Eliot, ii, 200.
29. Radhak., i, 519, Winternitz, 17.
30. Professor Bhandakar in Radhak., i, 524.

31. Richard Garbe, *Ibid.*
32. Arnold, *The Song Celestial* 4-5.
33. Ibid., 9.
34. Ibid., 41, 31.
35. Macdonell, 91.
36. Gowen, 251; Müller *India*, 81.
37. Arthur Lillie, in *Rana and Homer* has tried to show that Homer borrowed both his subjects from the Indian epics; but there seems hardly any question that the latter are younger than the *Iliad* and the *Odyssey*.
38. Dutt, *Ramayana*, etc, 1-2.
39. Ibid., 77.
40. Ibid., 10.
41. Ibid., 34.
42. Ibid., 36.
43. Ibid., 47, 75
44. Ibid., 145.
45. Gowen, *Indian Literature*, 203.
46. ibid, 219.
47. Macdonell, 97-106.
48. In Gowen, 361.
49. Ibid., 363.
50. Monier-Williams 476-94.
51. Gowen, 358 9.
52. Coomareswamy, *Dance*, 38.
53. Kalidasa, *Shakuntala*, 101-3.
54. Ibid., 139-40.
55. Tr. by Monier-Williams, in Gowen, 817.
56. Frazer, R.W., 288.
57. Kalidasa. xiii.
58. Macdonell, in Tietjens, 24-5.
59. Macdonell in Tietjens, 24-5.
60. In Gowen, 407-8.
61. Ibid., 504.
62. Ibid., 437-42.
63. Tietjens, 301; Gowen, 411-18; Barnett, *Heart of India*, 121.
64. Frazer R.W., 365; Gowen, 487.
64 a Coomaraswamy, *Dance*, 105;
65. Barnett, *prophets*, 6n.
66. Sir George Grierson in Smith, *Akbar*, 420.
67. Macdonell, 226; Winternitz, 479; Gandhi, *His Own Story*, 71.
68. Barnett, *Heart*, 63.
69. Venkateswara, 246, 249; Havell, *History*, 237.
70. Frazer, R W., 318n.
71. Ibid., 345.
72. Eliot, ii 263; Gowen, 491; Dutt, 101.
73. Tr. by Tagore.
74. Kabir, *Songs of Kabir*, tr. by R. Tagore, 91-69.
75. Eliot, ii, 262.
76. Ibid.' 265.

الباب الحادى والعشرون

1. Coomaraswamy, *History*, 4.
2. Ibid., Plate II, 2.
3. Fergusson, I, 4.
4. Smith. *Akbar*, 412.
5. Coomaraswamy, fig. 381.
6. Ibid., 134.
7. Ibid., figs, 368-78.
8. Ibid, 109.
9. Ibid., 137.
10. Ibid., 138.
11. Smith, *Akbar*, 422.
12. Coomaraswamy, *Dance*, 73.
13. Program of dances by Shankar, New York, 1939.
14. Coomaraswamy, *Dance*, 75, 78.
15. Brown, Percy, *Indian Painting*,

121.

16. Childe, *Ancient East*, 37; Brown P., 15, 111.

17. Havell, *Ideals*, 132; Brown, p., 17.

18. Ibid., 88.

19. Ibid., 20.

20. Eg., by Faure, *History of Art*, ii, 26; aud Havell, *Architecture*, 150.

21. Brown, P., 29-30.

22. Havell, *Architecture*, Plate XLIV, Fisher, Otto. *Die Kunst Indiaus, Chinas and Japans*, 200.

23. Havell, *Architecture* 149.

24. Coomaraswamy, *History*, figs, 7, and 185.

25. Havell, *Architecture*, Pl. XLV.

26. Fischer, *Tafel* VI.

27. Ibid., 188 94.

29. Coomaraswamy, *Dance* PlXVIII.

30. Coomaraswamy, *History*, Fig.269.

31. Brown, P., 120.

32. Cf. a charming example in Fisher, 273.

33. Brown, P., 8, 47, 60, 100; Smith, *Ox., H*, 128; Smith, *Akbar*, 248.50.

34. Brown, P., 85.

35. Ibid., 96.

36. Ibid., 89; Smith, *Akbar*, 429.

37. Ibid., 226.

38. Coomaraswamy, *Dance*, 26.

39. Havell, *Ideals*. 46.

40. Fenollesa, i, 30; Fergusson, i, 62; Smith, *Ox., H.*, 111.

41. Gour, 530; Havell, *History*, 111,

42. Coomaraswamy, *History*, 70

43. Fenollosa, I, 4, 81; Thomas, E. J. 221; Coomaraswamy, *Dance*, 52; Eliot, i, xxxi; Smith, *Ox., H.*, 67.

44. Fischer, 168; Central Museum, Lahore,

45. Fenollosa, i, 81.

46. Coomaraswamy, *History*, fig.168.

47. Ca. 950 A. D; Coomaraswamy, *History*, fig. 232; Lucknow Museum.

48. Ca. 1050. A D.; Coomaraswamy, *History*, fig. 223; Lucknow museum.

49. Ca. 750 A.D., Havell, *History*, f. p. 204.

50. Ca. 950 A D., Coomaraswomy, *History*, Pl. LXX.

51. Ca. 700, Havell, *History*, f. 244, a variant, in copper, from the 17th century, is in the British Museum.

52. Ca. 750, Coomarasway, *Dance*,

53 Ca. 1650, Coomaraswamy, *History*, fig. 248.

54. Fenollosa, i. 84.

55. Fischer, *Tafel* XVI, Coomaraswamy, *History* CVI, Coston Museum of Fine Arts.

56. Coomaraswamy, fig. 333.

57. Gangoly, O.C., *India Architecture*, xxxiv-viii.

58. Ibid., frontispiece.

59. Havell *Ideals* f. 168.

60. Metropolitan Museum of Art, New York City, Coomaraswamy, *History*, fig. 101.

61. Havell. *Ideals*, f. 34.

62. Ca. 100. A.D., Coomaraswamy, XCVIII.

63. Ibid., xcv.

64. Havell. *History*, 104, Fergusson, i, 51.

65. Davids, *Buddhist India*, 70.

66. Havell, *Architecture*, 2. Smith, *Ox., H.*, 111, Eliot, iii, 450, Coomaraswamy, *History* 22.

67. Spooner, D.B., in Growen, 270.

68. Fischer, 144-5.
69. in Smith, *Ox.*, *H.*, 112.
70. Havell, *History*, 106, Coomaraswamy, *History*. 17.
71. Havell, *Architecture*, 55.
72. Fergusson, i, 119.
73. Coomaraswamy, *History*, Fig.54.
74. Ibid , fig. 31.
74a. Fergusson, i, 65, Coomaraswamy, 19.
75. Fischer, 186.
76. Ibid. *Tafel* IV.
77. Ibid., 175.
78. Havell *Architecture*, 98, and Pl. XXV.
79. Fergusson, ii, 26.
80. Havell, *Architecture*, Pl. XIV.
81. Fergusson, ii, frontispiece.
82. Coomaraswamy, LXVIII.
83. Fergusson, ii, 41 and Pl.XX.
84. Ibid., 101.
85. Fergusson, ii, Pl. XXIV.
86. Ibid , 138-9.
87. Coomaraswamy, *History*. fig. 262.
88. Havell, *History*, f. p. 344.
89. Havell, *Architecture*, Plates LXXIVVI.
90. Fischer, 214-5.
91. Loti, 186, Fergusson, ii, 7, 32, 87.
92. E.g., the temple at Baroli, Fergusson, ii, 138.
93. Fergusson, i. 352.
94. Ibid., Pl. XII, p. 424.
95. Ibid.
96. Gangoly Pl. LXXIV.
97. Coomaraswamy, *History*, fig. 211, Fischer, 251.
98. Fergusson, i, 448.
99. Macdonell, 83.
100. Coomraswamy, *History*, fig. 192, Fischer, 221.
101. Ibid., 222.
102. Havell, *Architecture*,, 195, Fergusson, i, 327, 342, 248.
103. E g , Mukerji D.C., *Visit India with Me*, New York 1929, 12.
104. Coomaraswamy, *History*, 95, Pl LII.
105. Fischer, 243-9, Fergusson i, 562-6.
106. Ibid, 508-72.
107. Dr. Coomaraswamy.
108. Coomaraswamy, *History*, XCVI.
109. Ibid., 169.
110 Gangoly, 29.
111. Coomaraswamy, *History* fig.349, Gongoly, xi.
112. Exs. in Gangoly, xii-xv.
113. Candee, Helen C., *Angkor the Magnificent*, 302.
114. Ibid., 186.
115. 131, 257, 294.
116. 258.
117. Fischer, 280.
118. Coomaraswamy, *History*, 173.
119. Havell, *History*, 327, 296, 376, *Architecture*, 207, Fergusson, ii, 87, 7.
120. Smith, *Ox.*. H., 223, Frazer, R. W., 363.
121. Smith, f. 329.
122. Fergusson, ii, 309.
123. Ibid., 308n.
124. Lorenz, 376.
125. Chirol *India*, 54.
126. Lorenz, 379.
127. Smith, *Ox.*, H., 421.

الباب الثانى والعشرون

1. Zimand, 81.
2. Smith, *Ox H.*, 509.
3. In Zimand, 32.
4. Ibid ,31-4; Smith,505; Macaulay. i, 504, 580, Dutt, R. C., *The Economic History, of India, in the Victorian Age*, 18-23, 32-3.
5. Macaulay, i, 568-70, 603.
6. Dutt, *Economic History*, 67, 76, 375. Macaulay, i, 529.
7. Ibid., 528.
8. Dutt, xiii, 399, 417.
9. Sunderland, 135, Lajpat, Rai, *Unhappy India*, 343.
10. Dubois, 300.
11. Ibid., 507.
12. Eliot, iii, 409.
13. Mouler-Williams, 126.
14. Frazer, R.W., 397.
15. Ibid., 395.
16. Eliot, i, xlvi.
17. Rolland, *Prophets*, 119, Zimand, 85-6. Wood, 827, Eliot i, xlviii; Underwood, A.C. *Contemporary Thought of India*, 1371.
17a. Rolland, 61, 260.
18. ibid., xxvi, Eliot, ii, 162.
19. Brown, B , *Hindus*, 269.
20. Rolland, 160, 243; Brown, B., 264-5.
21. Ralland, 427.
22. Ibid., 251, 293, 449-50.
23. Ibid., 395.
24. Tagore, R , *Gitanjali* NewYork, 1928, xvii; *My Reminiscences*, 15, 201, 215.
25. Thompsou, E. J., *Robindranath Tagore*, 82.
26. Tagore, R., *The Gardener*, 74-5.
27. Tagore, *Gitanjali*, 88.
28. Tagore, *Chitra*, esp. pp. 57-8.
29. Tagore, *The Gardener*, 84.
30 Thompson, E. J., 43.
31. Ibid., 94, 99, Fülop-Miller, 246; Underwood, A.C., 152.
32. Tagore, R., *Sadhana*, 25, 64.
33. *The Gardeuer*, 13-15.
34. Kohn, 105.
35. Zimand, 181, Lorenz., 407, Indian Year Book, 192,29.
36. "Close. Upton" (Josef Washington Hall), *The Revolt of Asia*, 285, Sunderladd,204, Underwood,. 153.
37. Smith, *Ox.* H., 35.
38. Simon, i, 37, Dubois, 78.
39. Ibid., 190.
40. Havell,*Hestory*, 165, Lorenz, 327.
41 Kohn, 426.
42. Simon. i, 38.
43. Lajpat Rai, *Unhappy India*, lviii, 191, Mukerji *A Son*, 27, Sunderland, 247, New York *Times*, Sept 24, 1929, Dec. 31, 1931.
44. Wood, 111, Sunderland, 248.
45. Indian Year Book, 28.
46. Wood, 117.
47. Kohn, 425.
48. Prof. Sudhindra Bose, in *The Nation* NewYork, June 16,1929.
49. New York *Times*, June 16. 1930.
50. Hall, J. W., 427, Fülop-Miller;.
51. Ibid. 171.
52. Ibid., 174-6.
53. Gandhi, M.K., *Young India*,123.
54. Ibid., 183.
55. Hall, 408.
56. Fülop-Miller, 202-3.

57. Gandhi, *Young India*, 21.
58. Rolland, *Mahatma Gandhi*, 7
59. Ibid., 40, Hall, 400.
60. Gray and Parekh, *Mahatma Gandhi*, 27, Parmelee, 302.
61. Simon, i, 249.
62. Fülop-Miller, 199, Rolland, *Gandhi*, 220, Kohn, 410-12.
63. Fülop-Miller, 117.
64. Ibid., 31?.
65. Ibid., 186.
66. Gandhi, *Young India*, 869, 2.
67. Hall, 506, Fülop-Miller, 227.
68. Zimand, 220.
69. Fülop-Miller, 171-2.
70. Ibid., 207-162.

فهرس الأعلام

(ت)

(ج)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الشرق الأقصى
الصين

ترجمة
محمد بدران

الجزء الرابع من المجلد الأول



٤



تونس
بيروت

فهرس

الشرق الأقصى

١ — الصين

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب الرابع والعشرون : عصر الشعراء

الباب الخامس والعشرون : عصر الفنانين ١٤٨

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الباب السادس والعشرون : الشعب والدولة

الموضوع الصفحة

فهرس الخرائط والأشكال



الشرق الأقصى

الكتاب الثالث

الشرق الأقصى

الصين

يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحراراً فى قرض الشعر ، والناس أحراراً فى تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحراراً فى قول الحق ، والوزراء أحراراً فى إسداء النصح ، والفقراء أحراراً فى التذمر من الضرائب ، والطلبة أحراراً فى تعلم العلم جهرة ، والعمال أحراراً فى مدح مهارتهم وفى السعى إلى العمل ، والشعب حراً فى أن يتحدث عن كل شىء ، والشيوخ أحراراً فى تخطئة كل شىء .

من خطبة ألقاها دوق چو بين يدى الملك لى – وانج
حوالى عام ٨٤٥ ق . م(١)

تاريخ مسلسل للحضارة الصينية(*)

قبل الميلاد

٢٨٥٢ – ٢٢٠٥ حكام أسطوريون

٢٨٥٢ – ٢٧٣٧ فوشى

٢٧٣٧ – ٢٦٩٧ شن نونج

٢٦٩٧ – ٢٥٩٧ هوانج دى

٢٣٥٦ – ٢٢٥٥ ياو

٢٢٥٥ – ٢٢٠٥ شون

٢٢٠٥ – ١٧٦٦ أسرة شياه

٢٢٠٥ – ٢١٩٧ يو

١٨١٨ – ١٧٦٦ چيه جوا

١٧٦٦ – ١١٢٣ أسرة تانج (وين)

١٧٦٦ – ١٧٥٣ تانج

١١٩٨ – ١١٩٤ وويى – الإمبراطور الكافر

١١٥٤ – ١١٢٣ چوسين ، مثال الخبث

١١٢٢ – ٢٥٥ وو – وانج

١١٢٣ ون وانج (مؤلف كتاب التغيرات

١١١٥ – ١٠٧٨ تشنج وانج

١١١٥ – ١٠٧٩ چوجونج (مؤلف چو – لى ، أو شرائع چو)

٧٧٠ – ٢٥٥ عصر الإقطاع

٦٨٣ – ٦٤٠ جوانج چونج رئيس وزراء تشى

٦٠٤ – ٥١٧ لَو – دْزَه ؟

٥٥١ – ٤٧٨ كنفوشيوس

٥٠١ كونفوشيوس كبير

قضاة چونج – دُو

قبل الميلاد

٤٩٨ كنفوشيوس نائب المشرف على الأشغال العامة فى دوقية لو

٤٩٧ كنفوشيوس وزير الجرائم

٤٩٦ استقالة كنفوشيوس

٤٩٦ – ٤٨٣ عهد تجوال كنفوشيوس

٤٥٠ الفيلسوف مو دى

٤٠٣ – ٢٢١ عهد الولايات المتنازعة

٣٩٦ الفيلسوف يتج چو

٣٧٢ – ٢٨٩ الفيلسوف منشيس

٣٧٠ (وُلد) الفيلسوف چونج – دزه

٣٥٠ (توفى) الشاعر تشو بنج

٣٠٥ (وُلد) الفيلسوف شون – دزه

٢٣٣ (توفى) هان فى (من كتاب المقالات)

٢٣٠ – ٢٢٢ استيلاء شى هونج دى على الصين وتوحيد أجزائها

٢٥٥ – ٢٠٦ أسرة لتشين

٢٢١ – ٢١١ شى هونج – دى ، «الإمبراطور الأول»

٢٠٦ ق . م . – ب . م أسرة هان

١٧٩ ق . م – ١٥٧ ق . م ون – دى

١٤٥ ق . م (توفى) المؤرخ زوماتشين

١٤٠ – ٨٧ ق . م وو – دى (الإمبراطور المصلح)

(*) كل التواريخ التى قبل ٥٥١ ق . م تقريبية ، وكل التى قبل ١٨٠٠ ب . م غير موثوق بصحتها .

بعد الميلاد

٢٥ — وانج مانج — الإمبراطور الاشتراكى

٦٧ دخول البوذية فى الصين

حوالى ١٠٠ أول صانع معروف للورق فى الصين

٢٠٠ — ٤٠٠ غزو التتار الصين

٢٢١ — ٢٦٤ عهد الممالك الثلاث

٢٢١ — ٦١٨ الأسر الصغرى

٣٦٥ — ٤٢٧ الشاعر داو تشين

٣٦٤ النقاش كوكاى تشى

٤٩٠ — ٦٤٠ عصر النحت البوذى العظيم

٦١٨ — ٩٠٥ أسرة تانج

٦١٨ — ٦٢٧ جوْدزو

٦٢٧ — ٦٥٠ تاى دزونج

٦٥١ — ٧١٦ الرسام لى سو — شن

٦٩٩ — ٧٥٩ الرسام وانج واى

ولد حوالى ٧٠٠ الرسام وو داو — دزه

٧٠٥ — ٧٦٢ الشاعر لى پو

٧١٢ — ٧٧٠ الشاعر تو فو

٧١٣ — ٧٥٦ شوان دزونج (منج هوانج)

٧٥٥ فتنة أن لو — شان

٧٦٨ — ٨٢٤ هانج يو (كاتب المقالات)

٧٧٠ أقدم ماعرف من المطبوعات على القوالب (الكلشيهات)

٧٧٢ — ٨٤٦ الشاعر بوچيو — ئى

٨٦٨ أقدم كتاب مطبوع باق إلى الآن

٩٠٧ — ٩٦٠ خمس «أسر صغيرة»

٩٣٢ — ٩٥٣ طبع الكتب الصينية القديمة على القوالب

٩٥٠ ظهور أوراق النقد لأول مرة

٩٦٠ — ١١٢٧ أسرة سونج الشمالية

٩٦٠ — ٩٧٦ تاى دزو

بعد الميلاد

٩٠٧ أول دائرة معارف صينية عظيمة

١٠٦٩ — ١٠٧٦ حكم وانج آن — شى رئيس الوزراء الاشتراكى

١٠٤٠ — ١١٠٦ لى لونج — مين، الرسام

١٠٤١ بى شنج يصنع حروفا متنقلة

١١٠٠ جوْوشى الرسام

١١٠١ — ١١٢٦ هواى دزونج الإمبراطور الفنان

١١٢٦ التتار ينهبون پيان لانج؛ (كايفنج) عاصمة هواى دزونج؛ نقل العاصمة إلى لينان (هانج تشاو)

١١٢٧ — ١١٧٩ أسرة زونج الجنوبية

١١٣٠ — ١٢٠٠ چوشى الفيلسوف

١١٦١ أول ما عرف من استخدام البارود فى الحروب

١١٦٢ — ١٢٢٧ چنكيز خان

١٢١٢ چنكيز خان يغزو الصين

١٢٦٠ — ١٣٦٨ أسرة يوان (مغولية)

١٢٦٩ — ١٢٩٥ كوبلاى خان

١٢٦٩ ماركو پولو، يغادر البندقية فى رحلته إلى الصين

١٢٩٥ ماركو پولو، يعود إلى البندقية

١٣٦٨ — ١٦٤٤ أسرة منج

١٣٦٨ — ١٣٩٩ تاى دزو

١٤٠٣ — ١٤٢٥ تشنج درو (يونج لو)

١٥١٧ البرتغاليون فى كانتون

١٥٧١ استيلاء الأسبان على جزائر الفلپين

بعد الميلاد

١٥٧٣ — ١٦٢٠ شن دزونج (وان لى)
١٦٣٧ التجار الإنجليز فى كانتون
١٦٤٤ — ١٩١٢ أسرة تشح (المانشو)
١٦٦٢ — ١٧٢٢ كانج شى
١٧٣٦ — ١٧٩٦ تشين لونج
١٧٩٥ تحريم تجارة الأفيون للمرة الأولى
١٨٠٠ تحريم تجارة الأفيون للمرة الثانية
١٨٢٣ — ١٩٠١ لى هنج — تشانج السياسى
١٨٣٤ — ١٩٠٨ تزوشى (الإمبراطورة الأرملة)
١٨٣٩ — ١٨٤٢ « حرب الأفيون » الأولى
١٨٥٠ — ١٨٦٤ فتنة تاى — پنج
١٨٥٦ — ١٨٦٠ « حرب الأفيون » الثانية
١٨٥٨ — ١٨٦٠ الروسيا تستولى على أراضى صينية شمال نهر عامور
١٨٦٠ فرنسا تستولى على الهند الصينية
١٨٦٦ — ١٩٢٥ صون يات — صن
١٨٧٥ — ١٩٠٨ كوانج شو
١٨٩٤ الحرب الصينية اليابانية
١٨٩٨ ألمانيا تستولى على كياو تشاو ، والولايات

بعد الميلاد

المتحدة تستولى على جزائر الفلبين
١٨٩٨ مراسيم كوانج شو الإصلاحية
١٩٠٠ ثورة الملاكمين (البكسر)
١٩٠٥ إلغاء نظام الامتحان لطالبى المناصب الحكومية
١٩١١ الثورة الطبية
١٩١٢ (يناير — مارس) صون يات — صن الرئيس المؤقت للجمهورية الصينية
١٩١٢ — ١٩١٦ الرئيس يوان شى — كاى
١٩١٤ اليابان تستولى على كياو تشاو
١٩١٥ « المطالب الواحدة والعشرون »
١٩٢٠ الپاى هوا (اللغة الدارجة) التى تستعمل فى المدارس الصينية ، ذروة « المد الجديد »
١٩٢٦ شيانج كاى تشك وبردين ، يخضعان شمالى الصين
١٩٢٢ الحركة المقاومة الشيوعية
١٩٣١ اليابانيون يحتلون منشوريا

الباب الثالث والعشرون
عصر الفلاسفة

الفصل الأول
نشأة الفلسفة

١ – قدر الصينيين

لقد كانت دراسة بلاد الصين عملا من الأعمال المجيدة التى تمت فى عصر الاستنارة(*) وقد قال فيهم ديدرو : « أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الأسيويين فى قدم عهدهم ، وفى فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم وحسن سياستهم ، وفى تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم فى رأى بعض المؤلفين ليضارعون فى هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة »[1] . وقال فلتير Voltaire : « لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر فى القوانين ، أو العادات ، أو اللغة ، أو فى أزياء الأهلين ... وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو فى الحق خير ما شهده العالم من نظم »[2]. وهذا الإجلال الذى ينظر به علماء ذلك الوقت إلى بلاد الصين قد حققته دراستنا لتلك البلاد عن كثب ، والذين خبروا تلك البلاد وعرفوها حق المعرفة قد بلغ إعجابهم بها غايته . انظر إلى ما قاله الكونت كيسرلنج Count Keyserling فى خاتمة كتاب له يعد من أغزر الكتب علماً وأعظمها نفعاً وأبرعها تصويراً :

(*) يطلق الأوربيون هذا اللفظ (Enlightenment) على العصر الذى سادته النزعة الفلسفية الفرنسية فى القرن الثامن عشر أيام فلتير ومعاصريه . (المترجم)

لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية . وكانت فيها صورة مألوفة عادية . . . وأسمت أعلى ثقافة عامة عرفت فى العالم كله . . . وإن عظمة الصين لتتملكنى وتؤثر فىّ كل يوم أكثر من الذى قبله ... وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا ... وإن أولئك السادة(*) لهم طراز سام من البشر ... وسموهم هذا هو الذى يأخذ بلبى ... إن تحية الصينى المثقف لتبلغ حد الكمال ! ... وليس ثمة من يجادل فى تفوق الصين فى كل شأن من شئون الحياة ... ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم »(٣)

والصينيون لا يهتمون كثيراً بإنكار هذه الأقوال ، وقد ظلوا حتى هذا القرن (ما عدا نفراً قليلا فى الوقت الحاضر) مجمعين على أن أهل أوربا وأمريكا برابرة همج(٤) . وكان من عادة الصينيين قبل سنة ١٨٦٠ أن يترجموا لفظ « أجنبى » فى وثائقهم الرسمية باللفظ المقابل لهمجى أو بربرى ، وكان لا بد للبرابرة أن يشترطوا على الصينيين فى معاهدة رسمية إصلاح هذه الترجمة(**) . والصينيون كمعظم شعوب الأرض « يرون أنهم أعظم الأمم مدنية وأرقهم طباعا »(٧) . ولعلهم محقون فى زعمهم هذا رغم ما فى بلادهم من فساد وفوضى من الناحية السياسية ، ورغم تأخرهم فى العلوم ، وكدحهم فى المصانع ، ومدنهم الكريهة الرائحة ، وحقولهم الملأى بالأقذار ، وفيضان أنهارهم ، وما ينتاب بلادهم من القحط ، ورغم جمودهم وقسوتهم وفقرهم وخرافاتهم ، وقلة عنايتهم بتربية أبنائهم ، وحروبهم

(*) يقصد كبار الحكام الصينيين الذين أبعدوا عن وظائفهم فى تشنج — داو .

(**) بعث العالم الصينى الذى عاون الدكتور جيلز Dr. Giles فى ترجمه بعض مختارات من كتاب « جواهر الأدب الصينى Gems of Chinese Literature قصيدة وداع مشهورة فيها هذان البيتان الجميلان .

لقد أنار الأدب من عهد بعيد عقول أمة الأمم ؛
واليوم امتد نفوذها ليهدى موطناً بربريا

المدمرة ، ومذابحهم وهزائمهم المذلة . ذلك أن من وراء هذا المظهر المظلم الذى يبدو الآن لعين الغريب عن بلادهم مدنيةً من أقدم المدنيات القائمة فى العالم وأغناها : فمن ورائه تقاليد قديمة فى الشعر ، يرجع عهدها إلى عام ١٧٠٠ ق.م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية العميقة غير المعجزة الدرك ، ومن ورائه براعة فى صناعة الخزف والنقش لا مثيل لها من نوعها ، وإتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعهم فيه إلا اليابانيون ، وأخلاق قويمة قوية لم نر لها نظيراً عند شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات ، ونظام اجتماعى ضم عدداً من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ كله ودام أحقاباً لم يدمها غيره من النظم ، ظل قائماً حتى قضت عليه الثورة ويكاد يكون هو المثل الأعلى للنظم الحكومية التى يدعو إليها الفلاسفة ؛ ومجتمع كان راقياً متمديناً حين كانت بلاد اليونان مسكن البرابرة ؛ شهد قيام بابل وأشور ؛ وبلاد الفرس واليهود ، وأثينة ورومة والبندقية وأسبانيا ، ثم شهد سقوطها كلها ، وقد يبقى بعد أن تعود بلاد البلقان التى نسميها أوربا إلى ما كانت عليه من جهالة وهمجية . ترى أى سر عجيب أبقى هذا النظام الحكومى تلك القرون الطوال ، وحرك هذه اليد الفنية الصناع ، وأوحى إلى نفوس أولئك القوم ذينك العمق والاتزان ؟

٢ — الدولة الوسطى الزاهرة

وصف البلاد الجغراف — الجنس الصينى — ما قبل التاريخ

إذا عددنا الروسيا بلاداً أسيوية — وقد كانت كذلك إلى أيام بطرس الأكبر وقد تعود أسيوية مرة أخرى — لم تكن أوربا إلا أنفاً مسنناً فى جسم آسية ، وامتداداً يشتغل بالصناعة من خلفه قارة زراعية كبيرة ، ومخالب أو نتوءات ممتدة من قارة جبارة مهولة . وتشرف الصين على تلك القارة المترامية الأطراف ، وهى لا تقل عن أوربا فى اتساع رقعتها وتعداد عامرها .

وقد كان يكتنفها فى معظم مراحل تاريخها أكبر المحيطات وأعلى الجبال، وصحراء من أوسع صحارى العالم.

لذلك استمتعت بلاد الصين بعزلة كانت هى السبب فى حظها النسبى من السلامة والدوام، والركود وعدم التغيير، وهو حظ كبير إذا قيس إلى حظ غيرها من الأمم. ومن أجل هذا فإن الصينيين لم يسموا بلادهم — الصين، بل سموها تيان — هوا — « تحت السماء » أو زهاى — « بين البحار الأربعة » — أو چونج — جوُو « الدولة الوسطى » أو چونج — هوا — جوو « الدولة الوسطى الزاهرة » أو الاسم الذى سماها به مرسوم الثورة چونج — هوا — مين — چوو — « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة »(٨). والحق أن الأزهار اليانعة كثيرة فيها، كما أن فيها كل المناظر الطبيعية المختلفة التى يمكن أن تهبها إياها الشمس الساطعة، والسحب السابحة، وشعاب الجبال الوعرة، والأنهار العظيمة، والأغوار العميقة، والشلالات الدافقة بين التلال العابسة. ويجرى فى قسمها الجنوبى الخصيب نهر يانج — دزه(*) الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل، وفى الشمال ينحدر الهوانج هو، أو النهر الأصفر من سلاسل الجبال الغربية مخترقاً سهولا من اللويس، ويحمل معه الغرين ليصبه الآن فى خليج بتشيلى، وكان من قبل يصبه فى البحر الأصفر، ولعله سيعود فى الغد فيصبه فى هذا البحر مرة أخرى. على ضفاف هذين النهرين وعلى ضفتى نهر الراى وغيره من المجارى الواسعة، بدأت الحضارة الصينية تنتزع الأرض من الوحوش والآجام، وتصد عنها الهمج المحيطين بها، وتنظف الأرض من الحسك والعُلَّيق، وتطهرها من الحشرات المهلكة والرواسب الأكالة القارضة كأملاح البوناسا وغيرها؛ وتجفف المناقع، وتقاوم الجفاف والفيضان، وما يطرأ على مجارى الأنهار

(*) هو الذى يسمى عادة ينج — تسى، ويبلغ اتساعه عند منبعهاى ثلاثة أميال كاملة. (المترجم)

من تحوّل يعود على البلاد وسكانها بالخراب والهلاك ، وتجرى الماء فى صبر وحذر من أولئك الأعداء الأوداء فى آلاف القنوات ، وتقيم يوما بعد يوم خلال القرون الطوال أكواخاً وبيوتاً ومعابد ومدارس وقرًى ومدناً ودولاً . ألا ما أطول الآجال التى يكد الناس خلالها ليشيدوا صرح الحضارة التى يدمرونها فى سهولة وسرعة عجيبتين !

وليس فى الناس من يعرف من أين جاء الصينيون ، أو إلى أى جنس ينتسبون ، أو متى بدأت حضارتهم فى الزمن القديم . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن بقايا « إنسان پيكين »(*) توحى بأن القردة البشرية جد قديمة فى بلاد الصين . وقد استنتج أندروز Andrews من بحوثه فى تلك البلاد أن منغوليا كان يعمرها من عشرين ألف سنة قبل الميلاد أجيال من الناس تشبه أدواتهم الأدوات « الأزيلية » التى كانت أوربا تستخدمها فى العصر الحجرى الأوسط ، وأن خلفاء هذه الأجيال انتشروا فى سيبيريا والصين حينما جفت منغوليا الجنوبية وأجدبت واستحالت إلى صحراء جوبى الحالية : وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره فى هونان ومنشوريا الجنوبية على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجرى الحديث وجدت فى تلك البلاد متأخرة بألفى عام من مثيلتها فى عصر ماقبل التاريخ فى مصر وسومر . ويُشبه بعض ما وجد من الأدوات فى الرواسب الباقية من العصر الحجرى الحديث ، فى شكله وتسنينه ، المدى الحديدية التى يستخدمها سكان الصين الشمالية فى هذه الأيام لحصاد الذرة الصينية(**) ، وهذه الحقيقة على ضآلة شأنها ترجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف عام متواصلة غير منقطعة ، وهو عهد ما أطوله ، وقلّ أن يوجد له فى غير الصين نظير(١٥) .

(*) النطق الصحيح لهذا الإسم هو بيچنج وقد نستعمله أحياناً . (المترجم)

(**) المعروفة بالسرغو

على أن طول هذه العهود يجب ألا يغشى أبصارنا فنبالغ فى تجانس هذه الثقافة أو تجانس الشعب الصينى نفسه : فقد يلوح أن بعض فنونهم وصناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان . من ذلك أن خزف هونان المنتمى إلى العصر الحجرى الحديث لا يكاد يفترق فى شىء عن خزف أنو والسوس [١١] . والجنس « المغولى » الحاضر مزيج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مراراً وتكراراً بغثات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوبى الروسيا (السكوذيون ؟) ووسط آسية [١٢] .

فالصين من هذه الناحية كالهند يجب أن نشبهها بأوروبا بأكلها لا بأمة واحدة من أممها ؛ فليست هى موطناً موحداً لأمة واحدة ، بل هى خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة فى الأخلاق والفنون ؛ وكثيراً ما يعادى بعضها بعضاً فى العادات والمبادئ الخلقية والنظم الحكومية .

٣ — القرون العابرة المجهولة

قصة الخلق عند الصينيين — بداية الثقافة — الخمر
وعصر الأكل — الأباطرة الأفاضل — ملك كافر

تسمى الصين « جنة المؤرخين » ؛ ذلك أنها ظلت مئات وآلافاً من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع فيها ، وكثيراً مما لا يقع : على أننا لا نثق بأقوالهم عن العهود السابقة لعام ٧٧٦ ق . م ، ولكننا إذا ما استمعنا إلى هذه الأقوال رأيناهم يحدثوننا أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ ق. م ، ورأينا أكثرهم تقى وصلاحاً يصفون خلق العالم كما يفعل المطلعون على الغيب فى هذه الأيام . ومن أقوالهم فى هذا أن « بان كو » أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالى عام ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ ق . م بعد أن ظل يكدح فى عمله هذا ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التى كان يخرجها فى أثناء عمله فكانت رياحاً

وسحبا ، وأضحى صوته رعداً ، وصارت عروقه أنهاراً ، واستحال لحمه أرضاً ، وشعره نبتاً وشجراً ، وعظمه معادن ، وعرقه مطراً؛ أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين[١٣] . وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما ننقض به هذا العلم الكوني العجيب .

وتقول الأساطير الصينية إن للملوك الأولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام ، وإنهم جاهدوا أشق جهاد ليجعلوا من قمل « بان كو » خلائق متحضرين . وتقول لنا هذه الأساطير إن الناس « كانوا قبل هؤلاء الملوك السماويين كالوحوش الضارية يلبسون الجلود ويقتاتون باللحوم النيئة ، ويعرفون أمهاتهم ، ولكنهم لا يعرفون آباءهم »— ولا يرى استرندبرج Strindberg أن هذا الوصف الأخير مقصور على الأقدمين أو على الصينيين . ثم جاء من بعد هؤلاء الإمبراطور فوشي في عام ٢٨٥٢ ق . م بالتحديد ، فعلّم الناس بمعاونة زوجه المستنيرة الزواج ، والموسيقى والكتابة والتصوير ، وصيد السمك بالشباك ، وتأنيس الحيوان ، وإطعام دود القز للحصول منه على الحرير . وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه سن نونج ، فأدخل هذا الإمبراطور في البلاد الزراعة ، واختراع المحراث الخشبي ، وأقام الأسواق وأوجد التجارة ، وأنشأ علم الطب بما عرفه من خواص النبات العلاجية ، هذا ما تقوله الأساطير التي تعلي الأشخاص أكثر مما تعلي الأفكار ، وتعزو إلى عدد قليل من الأفراد نتائج كدح الأجيال الطوال . ثم حكم إمبراطور محارب قوي يدعى هوانج — دى لم يطل عهده أكثر من مائة عام ؛ فجاء إلى الصين بالمغنطيس والعجلات ، ووظف المؤرخين الرسميين ، وشاد أول أبنية من الآجر في الصين ، وأقام مرصداً لدراسة النجوم ، وأصلح التقويم ، وأعاد توزيع الأرض على الأهلين . وحكم يَوْ قرناً آخر ، وبلغ من صلاح حكمه أن كنفوشيوس ، حين كتب عنه بعد زمانه بثمانمائة وألف عام في عهد كان يبدو له بلا ريب عهداً « حديثاً » فاسداً ، أخذ يندب ما طرأ على الصين من ضعف

وانحلال . ويحدثنا الحكيم القديم — الذى لم يستطع رغم حكمته التورع عن « الكذبة الصالحة » يضيفها إلى القصة ليجعل لها مغزى خلقيا — يحدثنا هذا الحكيم القديم أن الناس أصبحوا أفاضل أتقياء بمجرد النظر إلى يَوْ ، وكان أول ما قدمه يَوْ من معونة للمصلحين أن وضع فى خارج باب قصره طبلاً يضربونه إذا أرادوا أن يدعوه لسماع شكواهم ، ولوحاً يكتبون عليه ما يشيرون به على الحكومة ، ويقول كتاب التاريخ الذائع الصيت :

« أما يَوْ الصالح فيقولون عنه إنه حكم چونج — چُوُ ومائة عام لأنه عاش مائة عام وعشرة وستة ؛ وكان رحيما خيِّراً كالسماء ، حكيما بصيراً كالآلهة ، وكان ضياؤه يبدو من بعيد كالسحابة اللامعة ، فإذا اقتربت منه كان كأنه الشمس الساطعة . وكان غنياً فى غير زهو ، عظيما فى غير ترف ، وكان يلبس قلنسوة صفراء ، ومئزراً قاتم اللون ، ويركب عربة حمراء تجرها جياد بيض . وكانت طنف أسقف بيته غير مشذبة ، وألواحه غير مسحجة ، ودعائمه الخشبية غير ذات أطراف مزينة .

وكان أغلب ما يقتات به الحساء أيا كان ما يصنع منه ، لا يهتم باختيار الحبوب التى يصنع منها خبزه ، وكان يشرب حساء العدس من صفحة مصنوعة من الطين ، ويتناوله بملعقة من الخشب . ولم يكن يتحلى بالجواهر ، ولم تكن ثيابه مطرزة ، بل كانت بسيطة لا يختلف بعضها عن بعض . ولم يكن يعنى بغير المألوف من الأشياء أو الغريب من الأحداث ، ولم يكن يقيم وزناً للأشياء النادرة الغريبة ، يستمع لأغانى الغزل ، عربته الرسمية خالية من أسباب الزينة ... يلبس فى الصيف رداء بسيطاً من القطن ، ويلف جسمه فى الشتاء بجلود الظباء . ومع هذا كله فقد كان أغنى مَن حكم چونج — چْوُو ، طوال عهدها كله ، وأرجحهم عقلا ، وأطولهم عمراً ، وأحبهم إلى قلوب الشعب[١٤] .

وكان شون آخر هؤلاء « الملوك الخمسة » مثالا فى البر البنوى ، كما كان هو البطل الذى جاهد لحماية البلاد من فيضانات نهر هوانج — هو ، والذى أصلح التقويم ، وضبط الموازين والمقاييس ، وكسب محبة الأجيال التى جاءت بعده من تلاميذ المدارس بتقصير طول السوط الذى كانوا يضربون به . وتقول الروايات الصينية إن شون فى آخر أيامه رفع معه على العرش أقدر مساعديه ، وهو المهندس العظيم يو ، الذى تغلب على فيضان تسعة أنهار بشق تسعة جبال واحتفار تسع بحيرات ، ويقول الصينيون « لولا يو ، لكنا كلنا سمكا »[١٥] . وتقص الأساطير المقدسة أن خمر الأرز عصر فى أيامه وقدم للإمبراطور ، ولكن يو صبّه على الأرض وقال متنبئاً : « سيأتى اليوم الذى يخسر فيه أحد الناس بسبب هذا الشىء ملكا » ، ثم نفى من كشف هذا الشراب من البلاد وحرم على الناس شربه . فلما فعل هذا جعل الناس خمر الأرز شرابهم القومى ، فكان ذلك درساً علموه من جاء بعدهم من الخلائق .

وغيَّر يو المبدأ الذى كان متبعاً من قبله فى وراثه الملك وهو أن يعين الإمبراطور قبل وفاته من يخلفه على العرش ، فجعل الملك وراثياً فى أسرته ، وأنشأ بذلك أسرة الشِّيتية (أى المتحضرة) ، فكان ذلك سبباً فى أن يتعاقب على حكم الصين العباقرة والبلهاء وذوو المواهب الوسطى . وقضى على هذه الأسرة إمبراطور ذو أطوار شاذة ، يدعى جية أراد أن يسلِّى نفسه هو وزوجته فأمر ثلاثة آلاف من الصينيين أن يموتوا ميتة هنيئة بالقفز فى بحيرة من النبيذ .

وليس لدينا ما يحقق لنا صدق ما ينقله إلينا المؤرخون الصينيون الأقدمون من أخبار هذه الأسرة . وكل ما نستطيع أن نقوله أن علماء الفلك فى هذه الأيام قد حققوا تاريخ الكسوف الشمسى الذى ورد ذكره فى السجلات القديمة فقالوا إنه قد حدث فى عام ٢١٦٥ ق . م ، ولكن الثقاة الذين يعتد بآرائهم لا يؤمنون بحساب أولئك الفلكيين[١٦] . وقد وجدت على بعض العظام التى كشفت فى

هونان أسماء حكام تعزوهم الروايات الصينية إلى الأسرة الثانية أو أسرة شانج ؛ ويحاول المؤرخون أن يعزوا بعض الأوانى البرنزية الموغلة فى القدم إلى أيام تلك الأسرة . أما فيما عدا هذا فمرجعنا الوحيد هو القصص الذى يحوى من الطرافة واللذة أكثر مما يحوى من الحقيقة . وتقول الروايات القديمة إن وو — يى أحد أباطرة أسرة شانج كان كافراً يتحدى الآلهة ويسب روح السماء ، ويلعب الشطرنج مع ذلك الروح ، ويأمر أحد أفراد حاشيته أن يحرك القطع بدل الروح ، فإذا أخطأ سخر منه . ثم أهدى إليه كيسا من الجلد وملأه دما ، وأخذ يسلى نفسه بأن يصوب إليه سهامه . ويؤكد لنا المؤرخون — وفيهم من الفضيلة أكثر مما فى التاريخ نفسه — إن وو — يى أصابته صاعقة فأهلكته .

وكان چوسين آخر ملوك هذه الأسرة ومخترع عصى الطعام حيثاً آثماً إلى حد لا يكاد يصدقه العقل ، فقضى بإثمه على أسرته . ويحكى عنه أنه قال : « لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات ، وأحب أن أتثبت من صدق هذا القول فى بى كان » — وزيره . وكانت تاكى زوجة چو مضرب المثل فى الفجور والقسوة ، فكانت تعقد فى بلاطها حفلات الرقص الخليع ، وكان الرجال والنساء يسرحون ويمرحون عارين فى حدائقها . فلما غضب الناس من هذه الفعال عمدت إلى كم أفواههم باختراع ضروب جديدة من التعذيب ، فكانت ترغم المذمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية فى النار أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل ، فإذا سقط الضحايا فى الحفرة طربت الملكة حين تراهم تشوى أجسادهم فى النار(١٧) .

وقضت على عهد چوسين مؤامرة دبرها الثوار فى داخل البلاد ، وغارة من ولاية چو الغربية ، ورفع المغيرون على العرش أسرة چو ، ودام حكمها أطول من حكم أية أسرة مالكة أخرى فى بلاد الصين . وكافأ الزعماء المنتصرون من أعانوهم من القواد والكبراء بأن جعلوهم حكاما يكادون يكونون مستقلين فى

الولايات الكثيرة التي قسمت إليها الدولة الجديدة . وعلى هذا النحو بدأ عهد الإقطاع الذي كان فيما بعد شديد الخطر على حكومة البلاد ، والذي كان رغم هذا باعثاً على النشاط الأدبي والفلسفي في بلاد الصين . وتزاوج القادمون الجدد والسكان الأولون وامتزجوا جميعاً ، وكان امتزاجهم هذا تمهيداً بيولوجيا لأولى حضارات الشرق الأقصى في الأزمنة التاريخية .

٤ — الحضارة الصينية الأولى

عصر الاقطاع في الصين — وزير مدير — النضال بين العادات والقوانين — الثقافة والفوضى — أغاني الحب في «كتاب الأغاني»

لم تكن الولايات الإقطاعية ، التي وهبت الصين بعدئذ ما استمتعت به من نظام سياسي قرابة ألف عام ، من عمل الفاتحين ، بل نشأت من المجتمعات الزراعية التي قامت في الأيام البدائية بامتصاص أقوياء الزراع ضعافهم ، أو باندماج الجماعات تحت رياسة زعيم واحد حتى يستطيعوا أن يدفعوا عن حقولهم من يغيرون عليها من الهمج المحيطين بهم . وبلغ عدد هذه الإمارات في وقت من الأوقات سبع عشرة ولاية تتكوّن كل منها في العادة من بلدة مسورة تحيط بها أرض زراعية ، ومن ضواح مسورة أصغر منها يتألف من مجموعها محيط دفاعي واحد(١٨). ثم أخذت هذه الولايات يندمج بعضها في بعض على مهل حتى نقص عددها إلى خمس وخمسين ولاية تشمل الإقليم الذي يعرف الآن بإقليم هونان وماجاوره من أقاليم شانسي ، وشِنْسي ، وشانتونج . وكان أهم هذه الولايات الخمس والخمسين ولاية تشي التي وضعت أساس الحكومة الصينية ، وولاية تشين التي أخضعت سائر الولايات لحكمها . وأنشأت منها إمبراطورية موحدة ، وخلعت على بلاد الصين اسمها المعروفة به في جميع بلاد العالم إلا فيها هي نفسها .

وكان السياسي العبقري الذي وضع لولاية تشي نظامها هو جوان چونج

مستشار الدوق هوان . وقد بدأ جوان حياته السياسية بمساعدة أخى هوان عليه فى نزاعهما من أجل السيطرة على تشى ، وكاد يقتل هوان فى إحدى الوقائع الحربية . ولكن هوان انتصر فى آخر الأمر وأسر جوان وعيّنه رئيس وزراء دولته . وزاد جوان من قوة سيده باستبدال الأسلحة والأدوات الحديدية بنظائرها المصنوعة من البرنز ، واحتكار الحكومة للحديد والملح ، أو بالسيطرة عليهما ، ثم فرض الضرائب على النقود والسمك والملح « لكى يساعد الفقراء ويكافئ الحكماء وذوى المواهب »[١٩] . وأصبحت تشى فى أيام وزارته الطويلة الأجل دولة حسنة النظام ذات عملة مستقرة ، ونظام إدارى محكم ، وثقافة زاهرة . وقد قال عنه كنفوشيوس — وهو الذى لم يكن يمتدح الساسة إلا بأوجز عبارة — « إن الناس لا يزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التى أسبغها عليهم ، ولولا جوان جونج لظللنا حتى اليوم ذوى شعر أشعث ، ولظلت ملابسنا تزرر جهة الشمال[*][٢٠] »

وفى بلاط نبلاء الإقطاع نشأت طريقة التحية التى امتاز بها الصينيون المهذبون ، كما نشأت فيها شيئاً فشيئاً تقاليد من الأخلاق والاحتفالات ومراسم التكريم بلغت من الدقة حداً يكفيها لأن تحل محل الدين عند الطبقات العليا فى المجتمع . ثم وضعت أسس الشرائع وبدأ نزاع شديد بين حكم العادات التى نمت عند عامة الشعب وبين حكم القانون الذى وضعته الدولة . وأصدرت دوقيتا چنج وتشين (فى عامى ٥٣٥ ، ٥١٢ ق . م) كتباً فى القانون ملأت قلوب الفلاحين رعباً ، وتنبئوا بما سيحل بهما من عقاب سماوى شديد على هذه الجريمة الشنيعة . وحدث بالفعل أن دمرت النار عاصمة چنج بعد ذلك بقليل . وكان فى هذه الشرائع محاباة للطبقات العليا ، فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات على شريطة أن يؤدب أفرادها أنفسهم . من ذلك أن القاتل منهم كان

(*) هذه هى الطريقة التى يريد بها كنفوشيوس أن يقول إنه لولا جوان لظل الصينيون همجاً ، فقد كان من عادات الهمج فى تلك الأيام أن يزرروا ملابسهم جهة الشمال[٢١] .

يسمح له بأن ينتحر ، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل على النحو الذى أصبح فيما بعد عادة مألوفة بين طبقة السموراى فى اليابان . واحتج عامة الشعب على هذه التفرقة ، وقالوا إن فى مقدورهم هم أيضاً أن يؤدبوا أنفسهم ، وتمنوا أن يقوم بينهم وطنى مخلص شبيه بهرموديوس أو أرستجيتون(*) يحررهم من ظلم القوانين . ثم تراضت الفئتان آخر الأمر واتفقتا على حل سليم فضيقت دائرة القانون الوضعى حتى لم تعد تشمل إلا المسائل الكبرى أو المسائل القومية ، وظلت أحكام العرف والعادة هى الفيصل فيما دونها من الأمور . وإذ كانت الكثرة الغالبة من شئون البشر من المسائل الصغرى فقد ظل حكم العادة هو السائد بين كافة الطبقات .

واستمر تنظيم الولايات يجرى فى مجراه ، وجمعت قواعد هذا النظام فى الچو — لى ، أو « دستور چو » وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات إلى چو جونج عم دوق چو الثانى وكبير وزرائه ، وهو بالطبع قول لا يقبله عقل لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد .

والواقع أن الإنسان يلمح فيها روح كنفوشيوس ومنشيس ، ولهذا فأكبر الظن أنها وضعت فى آخر أيام أسرة چو لا فى أيامها الأولى . وقد ظلت مدى ألفى عام تمثل فكرة الصينيين عن النظام الحكومى : وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وأنه « ابن السماء » يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ؛ وأعيان ، بعضهم بحكم مولدهم وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم ، يصرفون أعمال الدولة ؛ وشعب يرى أن واجبه فلح الأرض ، يعيش فى أسر أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ولكنه لا رأى له فى تصريف الشئون العامة ؛ ومجلس من ستة وزراء كل واحد منهم على ناحية من النواحى الآتية وهى : حياة الإمبراطور وأعماله ، ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر ، والمراسيم والتنبؤات الدينية ، والاستعداد للحرب والسير فيها ، وتوزيع العدالة بين السكان وتنظيم

(*) Harmodius و Aristogiton وطنيان أثينيان عاشا حوالى ٥٢٥ ق . م .(المترجم)

الأشغال العامة » . ويكاد هذا القانون يكون قانوناً مثالياً ، وأكبر الظن أنه نبت فى عقل فيلسوف أفلاطونى مجهول لم يتحمل أعباء الحكم ، لا من تجارب زعماء دنستهم السلطة الفعلية ويتعاملون مع خلائق حقيقيين .

ولما كان الشر المستطير قد يجد له مكاناً حتى فى أكمل الدساتير ، فقد كان تاريخ الصين السياسى هو التاريخ المألوف الذى يتناوبه الفساد الطويل وفترات الإصلاح القصيرة . ذلك أن الثروة حين زادت أدت إلى الإسراف والترف فأفسدا الطبقة العليا ، كما غصّ بلاط الأباطرة وغصت فيما بعد لويانج عاصمة الدولة بالموسيقيين والقتلة السفاحين والسرارى والفلاسفة . وقلما كانت تمضى عشر سنين دون أن يهاجم فيها الدولة الجديدة البرابرةُ الجياع الذين لم ينقطعوا يوماً ما عن الضغط على حدودها[٢٣] ، حتى أضحت الحرب أولا ضرورة لا بد منها للدفاع ، ثم صارت بعد قليل حرب هجوم واعتداء ، وتدرجت من ألعاب يتسلى بها الأعيان إلى مسابقات فى التقتيل بين عامة الشعب ، يطاح فيها بعشرات الآلاف من الرؤوس ، فلم يمض إلا قرنان من الزمان أو أكثر منهما بقليل حتى قتل من الملوك ستة وثلاثون[٢٤] ، وعمت البلاد الفوضى ، ويئس الحكماء من إصلاح الأمور .

وظلت الحياة تتعثر فى طريقها متخطية هذه العقبات القديمة . فكان الفلاّح يزرع ويحصد لنفسه فى أحيان قليلة وللنبلاء الإقطاعيين فى أكثر الأحيان ، لأنه هو وأرضه كانا ملكا لهؤلاء النبلاء ، ولم يبدأ الفلاحون فى امتلاك الأرض إلا فى أواخر أيام هذه الأسرة . وكانت الدولة — وهى مجتمع مهلهل من النبلاء الإقطاعيين يعترفون بعض الاعتراف بسيادة واحد منهم — تجند العمال للأشغال العامة ، وتروى الحقول من قنوات كثيرة منبثة فى أنحاء البلاد ؛ وكان الموظفون العموميون يعلّمون الأهلين زرع الحقول وغرس الأشجار ، ويشرفون على صناعة الحرير بكافة أجزائها . وكان صيد السمك واستخراج الملح من باطن الأرض احتكاراً للحكومة فى كثير من الولايات[٢٥] . وكانت التجارة الداخلية

رائجة فى المدن فنشأت من رواجها طبقة وسطى صغيرة العدد تستمتع بنعم لا تكاد تفترق عن نعم الحياة الحديثة ، وكان أفرادها ينتعلون أحذية من الجلد ، ويرتدون ملابس من الحرير ، أو من نسيج آخر يغزلونه بأيديهم ، وينتقلون فى عربات مختلفه الأنواع ، أو فى قوارب تسير فى الأنهار ، ويسكنون بيوتاً حسنة البناء ، ويستخدمون الكراسى والنضد ، ويتناولون طعامهم فى صحاف وأوانى من الخزف المنقوش(٣٦) . وأكبر الظن أن مستوى حياتهم كان أرقى من مستوى حياة معاصريهم فى بلاد اليونان أيام صولون Solon أو فى روما أيام نوما Numa .

وسرت فى الحياة الذهنية فى الصين بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة فى البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ بها الناس ؛ فقد وضعت فى هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة والفن . ونشأ من ائتلاف الحياة التى أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادى والادخار مع الثقافة التى لم تكن قد وجدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التى تفرضها عليها التقاليد والحكومة الإمبراطوية القوية السلطان ، نشأ من ائتلافهما ذلك الإطار الاجتماعى الذى احتوى أكثر العهود إبداعاً وإنشاء فى تاريخ الصين الذهنى . فكان فى كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء وفى آلاف من المدن والقرى شعراء ينشدون القصائد ، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة ، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسوفسطائيون يعلّمون الطلبة المجدين أساليب الجدل والمحاجة الذهنية ، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقائص البشر وتدهور الدول .

وسندرس فى الفصول التالية حال الفن واللغة فى أكمل تطوراتهما وأخص خصائصهما ، ولكن الشعر والفلسفة من نتاج هذا العصر الذى نتحدث عنه بنوع خاص ، وهما يجعلانه أكثر عصور الفكر الصينى ازدهاراً . وقد ضاع معظم ما كتب من الشعر قبل كنفوشيوس ، وأكثر ما بقى منه هو ما اختاره هذا

الفيلسوف من نماذج كلها جد وصرامة ، جمعت فى الشى — چنج ، أى « كتاب الأغانى » وقيلت فى فترة تزيد على ألف عام تمتد من أيام الشعر القديم الذى قيل فى أيام أسرة شاچ إلى الشعر ذى الصيغة الحديثة الذى قيل فى زمن معاصر لفيثاغورس . وتبلغ عدة هذه القصائد الباقية خمس قصائد وثلثمائة قصيدة ، وكلها موجزة إيجازاً يجعلها مستعصية على الترجمة ، ذات تصوير إيحائى ، تتحدث عن الدين ومتاعب الحرب وهموم الحب .

وإلى القارئ أمثلة من نواح الجنود الذين انتزعوا من بيوتهم فى غير الأوقات المناسبة ؛ ليلقى بهم فى مخالب المنايا لغير سبب تدركه عقولهم :

ألاما أعظم حرية الإوز البرى وهو يطير فى الفضاء
ثم يتمتع بالراحة فوق أغصان شجر اليو الملتف الكثيف !
أما نحن الدائمو الكدح فى خدمة الملك ،
فإنا لا نجد من الوقت ما نزرع فيه الذرة والأرز
ترى على أى شىء يعتمد آباؤنا ؟
حدثينى أيتها السماء النائية الزرقاء !
متى ينتهى هذا كله ؟ ..
وهل فى الأشجار أوراق لم تصبح بعد أرجوانية ؟
وهل بقى فى البلاد رجل لم ينتزع من بين ذراعى زوجته ؟
رحمة بنا نحن الجنود : —
ألسنا نحن أيضاً آدميين ؟[٢٧]

وفى القصائد كثير من أغانى الحب المختلفة النغم التى تضرب على أوتار القلوب ، وإن كان ذلك العصر يبدو لنا لفرط جهلنا عصر الهمجية الصينية وبداية تاريخها . ونحن نستمع فى إحدى هذه القصائد إلى صوت الشباب المتمرد إلى أبد الدهر

يهمس فى آذاننا من خلال القرون البائدة ، التى كانت تبدو عهوداً نموذجية لكنفوشيوس ، وكأنما هى تقول أن لا شىء يماثل التمرد والعصيان فى قدم العهد :

أتوسل إليك يا حبيبى
أن تغادر قريتى الصغيرة
وألا تهشم أغصان صفصافى ؛
وليس ذلك لأن تهشيمها يحزننى
بل لأنى أخشى أن يثير تهشيمها غضب أبى .
والحب ينادينى بعواطفه المقهورة : —
« إن أوامر الأب يجب أن تطاع »
أتوسل إليك يا حبيبى
ألا تتسلق جدار بيتى
أو تحطم أغصان توتى
وليس ذلك لأنى أخشى سقوطها
بل لأنى أخشى أن يثير سقوطها غضب أخى .
والحب ينادينى بعواطفه المقهورة :—
« إن كلام الأخ يجب أن يطاع »
أتوسل إليك ياحبيبى ،
ألا تتسلل إلى الحديقة
ولا تحطم أشجار الصندل ؛
وليس هذا لأنى أعنى بهذه أو تلك
بل لأنى أرهب حديث المدينة ،
وإذا ما سار المحبون على هواهم

فماذا يقول عنهم جيرانهم ؟[٢٨]

وثمة قصيدة أخرى هى أقرب هذه القصائد إلى الكمال ، أو أحسنها ترجمة ، وهى تدل على أن العواطف البشرية قديمة موغلة فى القدم :

جلال الصباح يعلو فوق هامتى
وتحيط بى الأزهار الشاحبة بيضاء وأرجوانية وزرقاء وحمراء وأنا قلقة البال

وتحرك شىء بين الحشائش الذابلة
فظننت أن ما سمعته هو وقع أقدامه ،
وإذا جندب يصر ،

وتسلقت التل ساعة أن بزغ الهلال
فأبصرته مقبلا من الطريق الجنوبى
فاستراح واطرح عنه حمله[٢٩]

٥ — الفلاسفة قبل كنفوشيوس

« كتاب التغيرات » — « اليانج والين » — عصر الاستنارة الصينيه
تنج شى سقراط الصين

يمتاز هذا العصر بفلسفته . وليس يعيب الجنس البشرى أن تشوفه كان فى كل عصر من العصور يسبق حكمته ، وأن مثله العليا كانت تخطو بأسرع من خطى مسلكه . وهاهو ذا يو — دزه فى عام ١٢٥٠ ق . م ينطق بتلك العبارة القصيرة التى تعد من جوامع الكلم ، والتى طالما رددها الناس من قبله ، ولكنها لم تبل جدتها بعد ؛ إذ لا يزال الناس فى حاجة إلى من يذكرهم بأن كل مجد مآله كرب وشقاء :

« من يطرح المجد ولا يعبأ به ينج من الأحزان »[٣٠]

ألا ما أسعد الإنسان الذى لا تاريخ له ! وقد ظلت بلاد الصين من ذلك العهد القديم إلى يومنا هذا تخرج فلاسفة .

فكما أن الهند أرقى بلاد العالم فى الأديان ، وعلم ما وراء الطبيعة ، فكذلك الصين أرقاها فى الفلسفة الإنسانية غير الدينية ، إذ لا يكاد يوجد فى الأدب الصينى كله كتاب ذو شأن فى علم ما وراء الطبيعة غير تلك الوثيقة العجيبة التى يبدأ بها تاريخ التفكير الصينى المدون ، وهى الوثيقة المعروفة باسم إى — چنج ، أو « كتاب التغيرات » . وتقول الرواية المأثورة إن هذا الكتاب قد كتبه ون وانج ، أحد مؤسسى أسرة چو فى سجنه ، وإن أبسط مبادئه مستمدة من فوشى الذى عاش قبله بزمن طويل . وهم يقولون لنا إن هذا الإمبراطور الأسطورى اخترع « الجوات » الثمانى أو التثاليث الرمزية التى ترى علوم ما وراء الطبيعة عند الصينيين أنها تنطبق على قوانين الطبيعة وعناصرها . وهم يقولون إن كل واحد من هذه التثاليث يتألف من ثلاثة خطوط بعضها متصل ويمثل عنصر الذكورة أو اليانج وبعضها منقطع ويمثل عنصر الأنوثة أو الين

وكذلك يمثل ايانج فى هذه الثنائية الرمزية العنصر الإيجابى الفعّال ، المنتج ، السماوى عنصر الضوء والحرارة والحياة ؛ على حين أن الين يمثل العنصر السلبى المنفعل ، الأرضى ، عنصر الظلمة والبرودة والموت . وقد خلّد ون يانج ذكره ، وأتعب عقول آلاف الملايين من الصينيين بمضاعفة عدد الشرط فى الخطوط المتصلة والمتقطعة ، فرفع بذلك عدد تباديلها وتوافيقها إلى أربعة وستين كل منها يقابل قانوناً من قوانين الطبيعة ، ويحتوى على جميع العلوم والتاريخ . والحكمة جميعاً تكمن فى هذه الأربع والستين شَيْپَنْجَة — أو الآراء الممثلة تمثيلا رمزيا فى التثليثات السالفة الذكر . والحقائق كلها يمكن ردها إلى تعارض واتحاد العاملين الأساسيين فى الكون وهما عنصرا الذكورة والأنوثة أى اليانج والين . وكان

الصينيون يتخذون كتاب التغيرات كتاباً يدرسون فيه طرق التنبؤ بالغيب ، ويعدّونه أعظم تراثهم الأدبي ، ويقولون إن كل من فهم ما فيه من توافيق يدرك جميع القوانين الطبيعية . وقد نشر كنفوشيوس هذا الكتاب بنفسه ، وجمّله بما علق عليه من الحواشي ، وكان يفضله عن كل ما عداه من كتب الصينيين ، ويتمنى أن يخلو لنفسه خمسين عاماً يقضيها في دراسته[٣١].

ولا يتفق هذا السِّفر العجيب مع روح الفلسفة الصينية ، وهي الروح الإيجابية العملية ، وإن كان يلائم غموض النفس الصينية . ونحن نجد في الصين فلاسفة في أبعد الأزمان التي وصل إلينا تاريخها ، ولكن كل ما حفظه التاريخ لهم قبل أيام لَوْ — دْزَه ، لا يعدو أن يكون قطعة مبتورة من هنا وهناك ، أو مجرد اسم من الأسماء ، وقد شهد القرنان السادس والخامس في بلاد الصين ، كما شهدا في الهند وفارس وبلاد اليهود واليونان ، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية ، بدأت كما بدأت في بلاد اليونان بعصر من « الاستنارة » العقلية .

ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الأنساب العريقة مسلك للرقيّ ، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يثقفون أذهانهم بالفنون العقلية . وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما في علوم الدين من إبهام وغموض ، وما في الأداة الحكومية من نقص ، وعرفوا أن المقاييس الأخلاقية مقاييس نسبية ، وشرعوا يبحثون عن المُثُل العليا والكمال المطلق . وقد أُعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاجتهم . وتقول إحدى الروايات الصينية إن كنفوشيوس نفسه ، وهو وزير الجريمة في مقاطعة لو ، حكم بالإعدام على موظف صيني متمرد بحجة أنه « كان في وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال ؛ وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة ، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال ؛ وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة

ما يمكنها من الوقوف فى وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس »[٣٢] .
ويصدق زوما — تشين هـذه القصة ، ولـكن بعض المؤرخين الصينيين يرفضونها[٣٣] ؛ ونحن نرجو ألا تـكون صحيحة .

وأشهر هؤلاء المتمردين العقليين هو تنج شى الذى أعدمه دوق چنج فى شباب كنفوشيوس ، ويقول كتاب ليه — دزه : إن تنج هذا كان « يعلم النظريات القائلة إن الحق والباطل أمران نسبيان ، ويؤيد هذه الآراء بحجج لا آخر لها »[٣٤] . واتهمه أعداؤه بأنه لم يكن يستنكف أن يثبت اليوم رأياً ويثبت عكسه فى غد ، إذا ما نال على عمله هذا ما يرتضيه من الأجر ؛ وكان يعرض خدماته على من لهم قضايا فى المحاكم ، ولا يرى ما يعوقه عن تقديمها لمن يطلبها من الناس . . ويروى عنه أحد أعدائه من المؤرخين الصينيين هذه القصة الطريفة :

غرق رجل موسر من الولاية التى كان يقيم فيها تنج فى نهر واى ، وأخرج رجل جثته من الماء ، وطلب إلى أسرة القتيل مبلغاً كبيراً من المال نظير إخراجها من النهر . وذهبت أسرة القتيل إلى تنج تستشيره فى الأمر ، فأجابها السوفسطائى بقوله : « تريثوا فلن تؤدى المال المطلوب أسرة غير أسرتكم » ، وعملت أسرة القتيل بهذه النصيحة . وقلق الرجل الذى كانت الجثة فى حوزته فجاء هو أيضاً إلى تنج شى يستنصحه . فنصحه السوفسطائى بما نصح به أهل القتيل إذ قال له : « تريث ؛ فإنهم لن يحصلوا على الجثة إلا منك »[٣٥]

ووضع تنج شى قانوناً للعقوبات تبيَّن أنه أرقى مما تطبقه حكومة چنج . ولما ضاق رئيس الوزراء ذرعاً بالنشرات التى كان تنج يحمل فيها على سياسته حرم إلصاقها فى الأماكن العامة ، فما كان من تنج إلا أن عمد إلى توزيعها على الناس بنفسه ، فلما حرم الوزير توزيع النشرات أخذ تنج يهربها إلى القراء مخبوءة بين أشياء أخرى ، فلما أعيت الحـكومة الحيل أمرت بقطع رأسه[٣٦] .

٦ — المعلم القديم

لو — دزه — « الدَّو » — رحال الفكر فى الحكومة — سخف القوانين — مدينة فاضلة على غرار مدينة روسو وقانون أخلاق على غرار القانون المسيحى — صورة الرجل الحكيم — التقاء لو — دزه وكنفوشيوس

كان لو — دزه ، أعظم فلاسفة الصين قبل كنفوشيوس ، أكثر حكمة من تنج شى ؛ فقد كان يعرف حكمة الصمت ، وما من شك فى أنه عمر طويلا وإن لم نكن واثقين من أنه عاش حقاً ويحدثنا المؤرخ الصينى زوماتشين أن لو — دزه عافت نفسه سفالة السياسيين ، ومل عمله فى أمانة مكتبة چو الملكية ، فاعتزم أن يغادر الصين ليبحث له عن ملجأ بعيد منعزل فى الريف . « فلما أن وصل إلى حدود البلاد قال له الحارس ين شى : إنك إذن تنشد العزلة ، وأنا أرجوك أن تكتب لى كتاباً . فكتب له لو — دزَه كتاباً من جزأين فى الدَّو و الدِّى يشتمل على خمسة آلاف كلة . ولما أن أتمه اختفى ولم يعلم أحد أين مات »[٣٧] .

لكن الروايات والأقاصيص ، التى لا تخفى علينا خافية ، تقول إنه عاش سبعة وثمانين عاما . ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه وقد لا يكون هذا أو ذاك له .

فأما لو — دزه ، فوصف معناه « المعلم القديم » وأما اسمه الحقيقى فهو ، كما تقول الرواية ، لى — أى البرقوقة .

والكتاب الذى يعزى إليه مشكوك فيه شكًّا أثار كثيراً من الجدل العلمى حول أصله(*) ولكن الباحثين جميعاً متفقون على أن الدو — ده — چنج — أى « كتاب الطريقة والفضيلة » — هو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الدَّوية التى

(*) ويرى الأستاذ چيلز Giles أنه كتاب مزور ألف بعد عام ٢٠٠ ب . م . وقد اختلسه مؤلفه من هان فى[٣٨] الناقد وكاتب المقالات . أما الدكتور لج Dr Legge فيرى أن تكرار الإشارة إلى لو (وتسميته لتوثان) فى أقوال چوانج — دزه وأقوال زوماتشين يدله على أن الصينيين ظلوا على الدوام يعتقدون صحة نسبة الدو — دى — چج إلى مؤلفه .

يقول العلماء الصينيون إنها وجدت قبل لو — دزه بزمن طويل ، والتي كان لها من بعده أنصار من الطراز الأول ، والتي صارت فيما بعد ديناً تعتنقه أقلية كبيرة من الصينيين من أيامه إلى وقتنا هذا ، وجملة القول أن مؤلف الدو — ده — چنج مسألة ذات أهمية ثانوية ، وأما الآراء التي احتواها الكتاب فمن أبدع ما كتب في تاريخ الفكر الإنساني .

ومعنى لفظ الدّو هو الطريقة : وهي أحياناً طريقة الطبيعة ، وأحياناً الطريقة الدّوية للحياة الحكيمة . أما المعنى الحرفي لهذا اللفظ فهو الطريق . وهو في الأصل طريقة للتفكير أو للامتناع عن التفكير ، وذلك لأن الدويين يرون أن التفكير أمر عارض سطحي لا خير فيه إلا للجدل والمحاجة ، يضر الحياة أكثر مما ينفعها . أما « الطريقة » فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله ، وبالالتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادئ في الطبيعة . وليس العلم في رأي صاحب الكتاب فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، ذلك أنه لا شيء أبعد عن الرجل الحكيم من « صاحب العقل » . وشر أنواع الحكومات التي يمكن تصورها حكومة الفلاسفة ؛ ذلك أنهم يقحمون النظريات في كل نظام طبيعي ؛ وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الآراء ، وفي ذلك يقول الكتاب :

إن المهرة لا يجادلون ؛ وأصحاب الجدل عطل من المهارة ... وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب .. والحكيم يبقي الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة ، وإذا وجد من لهم علم منعهم من الإقدام على العمل ... وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في الدو لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس ، بل ليجعلوهم سذجاً جهلاء ... والصعوبة التي يواجهها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم ، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته يشكل

بها ويفسد شئونها ، أما الذى لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة(٤٠)

وإنما كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا فى الأنظمة والقوانين ؛ فهو يرغب فى إقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمته إنما تقضى على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية ، وما فى أجزائه من نشاط وقوة . أما الرجل البسيط الذى يعرف من تجاربه ما فى العمل الذى يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطراً على الأمة إذا تولى تدبير أمورها ، لأنه لا يحتاج إلى من يدله على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها(٤١) . فهذا الرجل لا يضع للناس من الأنظمة إلا أقل قدر مستطاع ، وإذا تولى قيادة الأمة ابتعد بها عن جميع أفانين الخداع والتعقيد ، وقادها نحو البساطة العادية التى تسير فيها الحياة سيراً حكيما على النهج الطبيعى الحكيم الرتيب الخالى من التفكير ، وحتى الكتابة نفسها يهمل أمرها فى هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تهدف إلى الشر . فإذا تحررت غرائز الناس الاقتصادية التلقائية التى تحركها شهوة الطعام والحب من القيود التى تفرضها الحكومات ، دفعت عجلة الحياة فى مسيرها الطبيعى الصحيح . وفى هذه الحال تقل المخترعات التى لا تفيد إلا فى زيادة ثراء الأغنياء وقوة الأقوياء ؛ وتنمحى الكتب والقوانين والصناعات ولا تبقى إلا التجارة القروية .

«إن كثرة النواهى والمحرمات فى المملكة تزيد من فقر الأهلين . وكلما زاد عدد الأدوات التى تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطراباً ، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحذق زاد عدد ما يلجئون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق ؛ ولهذا قال أحد الحكماء : لن أفعل شيئاً ، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، وسأولع بأن أبقى ساكناً فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم ، ولن أشغل بالى بأمور الناس فيثرى الناس من تلقاء أنفسهم ؛ ولن أظهر شيئاً من المطامع فيصل الناس من

تلقاء أنفسهم إلى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية ...

وسأنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل؛ وسأجعل الناس فيها، وإن نظروا إلى الموت على أنه شيء محزن يؤسف له، لا يخرجون منها (لينجوا بأنفسهم منه)؛ ومع أن لهم سفناً وعربات فإنهم لا يرون ما يدعو إلى ركوبها؛ ومع أن لهم ثياباً منتفخة وأسلحة حادة، فإنهم لا يجدون مايدعو إلى لبس الأولى أو استخدام الثانية، وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة(*) .

وسيرون أن طعامهم (الخشن) وملابسهم (البسيطة) جميلة، ومساكنهم (الحقيرة) أمكنة للراحة، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة، وإذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا نراها بأعيننا وتصل إلى آذاننا منها نقنقة الدجاج ونباح الكلاب، فإنى لن أجعل للناس وإن طال عمرهم صلة بها إلى يوم مماتهم»(٤٢) .

تُرى ما هى هذه الطبيعة التى يرغب لَوْ — دزه، فى أن يتخذها مرشداً له وهادياً؟ إن هذا المعلم القديم يفرق بين الطبيعة والحضارة تفريقاً محدداً واضح المعالم، كما فعل روسو من بعده فى عباراته الطنانة الرنانة التى يطلق عليها الناس اسم «التفكير الحديث»؛ فالطبيعة فى نظره هى النشاط التلقائى، وانسياب الحوادث العادية المألوفة، وهى النظام العظيم الذى تتبعه الفصول وتتبعه السماء؛ وهى الدَّو أو الطريقة المثلة المجسمة فى كل مجرى وكل صخرة وكل نجم؛ وهى قانون الأشياء العادل الذى لا يحفل بالأشخاص، ولكنه مع ذلك قانون معقول يجب أن يخضع له قانون السلوك إذا أراد الناس أن يعيشوا فى حكمة وسلام. وقانون الأشياء هذا هو الدَّو أو طريقة الكون كما أن قانون السلوك هو الدَّو أو طريقة الحياة. ويرى

(*) طريقة فى نقل الأفكار سابقة على الكتابة. ولفظ أجعل هنا بعيد بعد ن المعنى عن الأسلوب الودزى.

لَوْ — دزه ، أن الدَّوين فى واقع الأمر دو واحد ، وأن الحياة فى تناغمها الأساسى السليم ليست إلا جزءاً من تناغم الكون . وفى هذا الدَّو الكونى تتوحد جميع قوانين الطبيعة وتكون مادة الحقائق كلها التى يقول بها اسپنوزا ؛ وفيه تجد كل الصور الطبيعية على اختلاف أنواعها مكانها الصحيح ، وتجتمع كل المظاهر التى تبدو للعين مختلفة متناقضة ، وهو الحقيقة المطلقة التى تتجمع فيها كل الخصائص والمعضلات لتتكون منها وحدة هيجل Hegel الشاملة »[٤٣]

ويقول لَوْ إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئاً سعيداً . ثم حصل الناس «المعرفة» ففقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة . فالعاقل إذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضرى وهذا التيه المفسد الموهن تيه القوانين والحضارة ، ويختفى بين أحضان الطبيعة ، بعيداً عن المدن والكتب ، والموظفين المرتشين . والمصلحين المغترين . وسرّ الحكمة كلها وسر القناعة الهادئة ، وهى وحدها التى يجد فيها الإنسان السعادة الأبدية ، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز ، والشعور فى ثقة واطمئنان ، والجرى على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها فى تواضع .

ولعلنا لا نجد فى الأدب كله فقرة أكثر انطباقاً على العقل والحكمة من الفقرة الآتية :

إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة ، وهى توجد وليس فى حوزتها شىء ، تؤدى واجبها دون أن تكون لها مطالب، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتخمد ، وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها

إلى أصله ، وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قدر لها أن تؤديه . وعودتها هذه قانون أزلى ، ومعرفة هذا القانون هى الحكمة[٤٤] .

والجمود الذى هو نوع من التعطل الفلسفى وامتناع عن التدخل فى سير الأشياء الطبيعى هو ما يمتاز به الحكيم فى جميع مناحى الحياة ، فإذا كانت الدولة مضطربة مختلة النظام نخير ما يفعل بها ألا يحاول الإنسان إصلاح أمورها ، بل أن يجعل حياته نفسها أداء منظما لواجبه ، وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح أو يقاتل أو يحارب بل أن يتروى فى سكون ، وأن يكسب ما يريد أن يكسبه ، إذا كان لا بد من الكسب ، بالخضوع والصبر ؛ ذلك أن المرء ينال من النصر بالسكون أكثر مما ينال بالعمل ، وفى هـذا يحدثنا لو — ذره حديثاً لا يكاد يختلف فى لهجته عن حديث المسيح !

« إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ... قابل الإساءة الإحسان . أنا خَيّر للأخيار ، وخَيّر أيضاً لغير الأخيار ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) أخياراً ؛ وأنا مخلص للمخلصين ، ومخلص أيضاً لغير المخلصين ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) مخلصين . . . وألين الأشياء فى العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها ... وليس فى العالم شىء ألين أو أضعف من الماء ، ولكن لا شىء أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة القوية[٤٥](*) .

وتبلغ هذه الآراء غايتها فى الصورة التى يتخيلها « لو » للرجل الحكيم . وقبل أن نرسم للقارئ هذه الصورة نقول إن من أخص خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسين ، بل يتحدثون عن الحكماء ، وأنهم

(*) ويضيف إلى ذلك فى شهادة طائشة . « إن الأنثى تغلب الذكر على الدوام بسكونها »[٤٦] .

لا يتحدثون عن الصلاح بقدر ما يتحدثون عن الحكمة . فليس الرجل المثالى فى نظر الصينيين هو التقى العابد ، بل هو صاحب العقل الناضج الهادئ ، الذى يعيش عيشة البساطة والسكون وإن كان خليقاً بأن يشغل مكاناً سامياً فى العالم . ذلك أن السكون هو بداية الحكمة ، والحكيم لا يتكلم حتى على الدق والحكمة ، لأن الحكمة لا تنقل إلا بالقدوة والتجربة لا بالألفاظ ؛ والذى يعرف (الطريقة) لا يتحدث عنها ؛ والذى يتحدث عنها لا يعرفها ؛ والذى (يعرفها) يقفل فاه ويسد أبواب خياشيمه »[٤٧]، والحكيم شيمته التواضع ، لأن الإنسان متى بلغ الخمسين من عمره[*] فقد آن له أن يدرك أن المعرفة شىء نسبى ، وأن الحكمة شىء ضعيف سهل العطب ؛ وإذا عرف الحكيم أكثر مما يعرف غيره من الناس حاول أن يخفى ما يعرفه « فهو يحاول أن يقلل من سناه ولألائه ويوائم بين سناه وقتام (غيره)»[٤٩] ؛ وهو يتفق مع السذج أكثر مما يتفق مع العلماء ، ولا يألم من غريزة المعارضة التى هى غريزة طبيعية فى الأحداث المبتدئين . وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان ، بل يُخضع شهواته إلى الحد الأدنى الذى يكاد يتفق مع العقيدة البوذية :

« ليس لشىء عندى قيمة ، وأشتهى أن يخضع قلبى خضوعاً تاماً ، وأن يفرغ حتى لا يبقى فيه شىء قط . . . يجب أن يبلغ الفراغ أقصى درجاته ، وأن يحاط السكون بقوة لا تمل ... ومن كانت هذه صفاته لا يمكن أن يعامل بجفاء أو فى غير كلفة . وهو أكبر من أن يتأثر بالمكاسب أو الأذى وبالنبل أو الانحطاط وهو أنبل إنسان تحت قبة السماء »[٥٠].

(*) يعتقد الصينيون أن الحكيم تنضج قواه حوالى الخمسين من عمره ، وأنه يعيش فى هدوء منطوياً على حكمته مائة عام كاملة[٤٨].

ولسنا نرى حاجة لبيان ما فى هذه الآراء من اتفاق مع آراء چان چاك روسو وحسبنا أن نقول إن الرجلين قد صُبّا فى قالب واحد مهما يكن بُعد ما بينهما من الزمن ، وإن فلسفتهما من نوع الفلسفة التى تظهر وتختفى ثم تعود إلى الظهور فى فترات دورية ؛ ذلك بأن الناس فى كل جيل يملّون ما فى حياة المدن من كفاح وقسوة وتعقيد وتسابق ، فيكتبون عن مباهج الحياة الريفية الرتيبة كتابة تستند إلى الخيال أكثر مما تستند إلى العلم بحقائق الأمور . وما من شك فى أن المرء لا بد له من خبرة سابقة طويلة بحياة المدن إذا شاء أن يكتب شعراً عن حياة الريف « والطبيعة » لفظ طيّع سهل على لسان كل باحث فى الأخلاق أو الدين ؛ وهو لا يوائم علم دارون ولا أخلاقية نتشة أكثر مما يوائم فلسفة « لو — دزه » والمسيح المتعقلة الحلوة .

ذلك أن الإنسان إذا ما سار على سنن الطبيعة أدى به هذا إلى قتل أعدائه وأكل لحومهم لا إلى ممارسة الفلسفة ، وقلّ أن يكون وضيعاً ذليلاً ، وأقلّ من هذا أن يكون هادئاً ساكناً . بل إن فلح الأرض — وهو العمل الشاق المؤلم — لا يوائم قط ذلك الجنس من الناس الذى اعتاد الصيد والقتل ؛ ولهذا كانت الزراعة من الأعمال « غير الطبيعية » مثلها فى هذا كمثل الصناعة سواء بسواء .

على أن فى هذه الفلسفة رغم هذا كله شيئاً من السلوى وراحة البال . وأكبر ظننا أننا نحن أيضاً حين تبدأ نيران عواطفنا فى الخمود نرى فيها غيرَ قليل من الحكمة ؛ ونرى فيها السلم المريح الذى ينبعث من الجبال غير المزدحمة ومن الحقول الرحبة . إن الحياة تتأرجح بين فلتير وروسو ، وبين كنفوشيوس ولو — دزه ، وبين سقراط والمسيح .

وإذا ما استقرت كل فكرة زمناً ما فى عقولنا ، ودافعنا عنها دفاعاً ليس فيه شىء من البسالة أو من الحكمة ، مللنا نحن أيضاً تلك المعركة وتركنا إلى الشباب ما كان قد تجمّع لدينا من مُثل عُليا تناقص عديدها . فإذا ماحدث هذا لجأنا إلى

الغابات مع چان چاك ومع لو — دزه وأمثالها ؛ وصادقنا الحيوان ؛ وتحدثنا ونحن أكبر رضاً واطمئناناً من مكيڤلى إلى عقول الزراع السذج ، وتركنا العالم ينضح بالشرور ، ولم نفكر قط فى إصلاحه . ولعلنا وقتئذ نحرق وراءنا كل كتاب فيه إلا كتاباً واحداً ، ولعلنا نجد خلاصة الحكمة كلها فى الدَّو — دى — چنج .

وفى وسعنا أن نتصور ما كان لهذه الفلسفة فى نفس كنفوشيوس من أثر مؤلم محنق . فقد جاء هذا الفيلسوف فى سن الرابعة والثلاثين ، وهى السن التى لا يكتمل فيها نضوج الذهن ، إلى لويانج حاضرة چو ليستشير المعلم الكبير فى بعض أمور دقيقة ذات صلة بالتاريخ(*) ويقال إن لو — دزه أجابه إجابة فظة غامضة قصيرة :

« إن الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظامهم تراباً ، ولم يبق إلا ألفاظهم ، وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة ، أما قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام فى سبيل كل ما يحاوله . ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته ، ويعمل عمل من لا يملك شيئاً من حطام الدنيا — وأن الرجل العظيم بسيط فى أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال ، فتخلص من كبريائك ومطامعك الكثيرة ، وتصنعك وآمالك المفرطة البعيدة . إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك . وهذا ما أشير به عليك »(٦١) .

ويقول المؤرخ الصينى الذى يروى هذه القصة إن كنفوشيوس أحسَّ من فوره بسداد هذه النصيحة ، ولم ير فى هذه الألفاظ ما يسىء إليه ، بل إنه رأى فيها عكس هذا ، وقال لتلاميذه بعد أن عاد من عند الفيلسوف المحتضر :

« إنى أعرف كيف يطير الطير ، ويسبَح السمك ، ويجرى الحيوان ؛

(*) ويروى زومان تشين أعظم المؤرخين الصينيين هذه القصة ، ولكنها قد تكون حديث خرافة . وإنا ليدهشنا حقاً أن نجد لو — دزة فى أكثر مدن الصين حركة فى السابعة والثمانين من عمره .

ولـكن الذى يجرى على الأرض يمكن اقتناصه ، والذى يسبح فى الماء يمكن صيده ، والذى يطير فى الجو يمكن إصابته بالسهام . غير أن هناك تنيناً مهولا — ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويخترق بها السحاب ويعلو فى أجواز الفضاء . لقد قابلت اليوم لو — دزه ، ولست أستطيع أن أجد له مثيلا غير التنين »[٦٢] . ثم خرج المعلم الجديد ليؤدى رسالته ، وليكون أعظم فلاسفة التاريخ أثراً .

الفصل الثاني

كنفوشيوس

١ — الحكيم يبحث عن دولة

مولده وشبابه – زواجه وطلاق زوجته – تلاميذه وطرائقه – مظهره وأخلاقه – السيدة والنمر – تعريف الحكومة الصالحة – كنفوشيوس في منصبه – سنو التحوال – سلوى الشيخوخة

ولد كونج — فو — دزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج — تشيو يسمونه في عام ٥٥١ ق . م في مدينة تشو—فو إحدى البلاد التي كانت تكوّن وقتئذ مملكة لو ، والتي تكون الآن ولاية شان تونج .

وتصف الأقاصيص الصينية ، وهي التي لا تضارعها أقاصيص أخرى في خصب خيالها ، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعي(٦٣) ، وكيف كانت الهولات التي تحرسها والأرواح الأناث تعطر لها الهواء وهي تلده في أحد الكهوف . وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تنين ، وشفتا ثور ، وفم في سعة البحر(٦٤)، وإنه ولد من أسرة هي أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه (كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون) من نسل الإمبراطور العظيم هوانج — دي ، وإن له أحفاداً كثيرين ، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا ولقد بلغ عدد من تناسل منهم منذ مائة عام أحد عشر ألفاً من الذكور ، ولا تزال البلدة التي ولد فيها حتى هذا اليوم لا يعمرها إلى نسله —أو بعبارة أدق إلا نسل ابنه الوحيد ؛ ومن نسله وزير المالية في الحكومة الصينية القائمة للآن في نانكنج(٦٥)(*) .

(*) وتنطق أيضاً « نانچنج . ويقصد بقوله إلى وقتنا هذا وقت أن كتب هذا الكتاب

وكان والد كونج فى السبعين من عمره حين ولد له ولده[٦٦] ، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة . وكان كنفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته ، ولعله قد تعود فى طفولته تلك الرزانة التى هى من خصائص كبار السن ، والتى لازمته فى كل خطوة خطاها طوال حياته . لكنه مع هذا وجد متسعاً من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى ؛ وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب ، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم ، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً[٦٧] . ولم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع نتشة فى أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج ، ذلك أنه تزوج فى التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه طلق زوجته وهو فى الثالثة والعشرين ، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة وكانت المواد التى يشملها برنامجه ثلاثا : التاريخ والشعر وآداب اللياقة . ومن أقواله : « إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميها المراسم » (أى آداب الحفلات والمجاملات) « وتعطرها الموسيقى »[٦٨] .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لا يوثق به . وقد ترك إلى الفلاسفة مثلا قل أن يعبئوا به — وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى فى هذا ؟ فإنى لا أستطيع أن أفعل له شيئاً »[٦٩] . « وإنى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص

على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه فى صدره . وإذا ماعرضت ركناً من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإنى لا أعيد عليه درسى »[٧٠] ، ولم يكن يشك فى أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن نصلح دراستها من خلقه وعقله . « وليس من السهل أن نجد إنساناً واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً »[٧١] .

ولم يكن له فى بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان ماتواترت الإشاعات بأن وراء شفتى الثور والفم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلا يفيض بالعلم والحكمة ، فالتف الناس حوله حتى استطاع فى آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة فى العالم .

وكان بعض الطلبة —وقد بلغ عددهم فى وقت من الأوقات سبعين طالبا — يعيشون معه كما يعيش الطلبة الهنود المبتدئون مع مدرسيهم (الجورو) ؛ ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ فى بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرض نفسه للخطر أو اسمه للمهانة . وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات هُوِى بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه . وسأله دوق جاى يوماً من الأيام أى تلاميذه أحبهم إلى العلم فأجابه : « لقد كان أحبهم إلى العلم ين هوى ، لقد كان يحب أن يتعلم ... ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم (كما كان يحب هوى) ... لم يقدم لى هوى معونة ، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له . . . وكان إذا غضب كظم غيظه ؛ وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه . ومما يؤسف له أنه كان قصير الأجل فمات وليس له فى هذا الوقت (نظير) »[٧٢] . وكان الطلبة الكسالى يتحاشون

لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم ، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته ويطرده من حضرته دون أن تأخذه به رأفة . ومن أقواله :
« ما أشقى الرجل الذى يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله فى شىء . . . لا يتواضع فى شبابه التواضع الخليق بالأحداث ، ولا يفعل فى رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر — إن هذا الإنسان وباء »(٧٣) .

وما من شك فى أنه كان يبدو غريب المنظر وهو واقف فى حجرته أو فى الطريق العام ، يعلم مريديه التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة ، ولا يقل استعداده وهو فى الطريق عن استعداده وهو فى حجرته . وتمثله الصور التى رسمها له المصورون الصينيون فى آخر سنى حياته رجلا ذا رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة ، قد تجعد وتعقد لكثرة ما مر به من التجارب ، ووجه ينم عن الجد والرهبة ولا يُشعر قط بما يصدر عن الرجل فى بعض الأحيان من فكاهة ، وما ينطوى عليه قلبه من رقة ، وإحساس بالجمال مرهف يذكر المرء بأنه أمام إنسان من الآدميين رغم ما يتصف به من كمال لا يكاد يطاق ، وقد وصفه فى أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال :

« لقد تبينت فى چونج — نى كثيراً من دلائل الحكمة ، فهو أجبه واسع العين ، لا يكاد يمترق فى هذين الوصفين عن هوانج — دى . وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبيه بظهر السلحفاة ، ويبلغ طول قامته تسع أقدام (صينية) وست بوصات . . . وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين ، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة ؛ وما من موضوع إلا سمع به ، قوى الذاكرة لا ينسى مايسمع ؛ ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد . ألسنا نجد فيه حكيا ناشئاً ؟ »(٧٤) .

وتعزو إليه الأقاصيص « تسعاً وأربعين صفة عجيبة من صفات الجسم يمتاز بها عن غيره من الناس » . ولما فرقت بعض الحوادث بينه وبين مريديه فى أثناء

تجواله ، عرفوا مكانه على الفور من قصة قصها عليهم أحد المسافرين ، قال إنه التقى برجل بشع الخلقة « ذى منظر كئيب شبيه بمنظر الكلب الضال » . ولما أعيد هذا القول على مسامع كنفوشيوس ضحك منه كثيراً ولم يزد على أن قال : « عظيم ! عظيم ! »(٧٥).

وكان كنفوشيوس معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التنائى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم . وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما فى وسعه للحد من قوة الغرائز الشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة . ويلوح أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان . ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوماً من الأيام قالة فيها بعض التواضـــع : « قد يوجد فى كَفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى وإخلاصى ، ولـكنه لن يكون مولعاً بالعلم مثلى »(٧٦). وقال مرة أخرى : « قد أكون فى الأدب مساوياً لغيرى من الناس ، ولـكن (خُلق) الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد »(٧٧) « لو وجد من الأمراء من يولينى عملا لقمت فى اثنى عشر شهراً بأعمال جليلة ، ولبلغت (الحـكومة) درجة الـكمال فى ثلاث سنين »(٧٨) . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان متواضعاً فى عظمته . ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب ؛ كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانيا »(٧٩) . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشئ »(٨٠) . وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلّمه من الإمبراطورين العظيمين يُو وشون . وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولـكنه لم يكن يقبل أن يتراضى على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما . وكم من مرة رفض منصباً رفيعاً عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة . وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول :

« لست أبالى مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً ، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقاً بذلك المنصب الكبير . وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى؛ ولكننى أعمل على أن أكون خليقاً بأن يعرفنى الناس »(٨١) .

وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هى ، أحد وزراء دوق لو ، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك چو فى لو — يانج ، ولكنه ظل بعيداً بعض البعد عن موظفى البلاط ، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو — دزه وهو على فراش الموت كما سبق القول . فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممزقة الأوصال بما قام فيها من نزاع وشقاق ، فانتقل منها إلى ولاية تشى المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين فى طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة . ولشد ما كانت دهشتهم حين أبصروا فى هذه القفار عجوزاً تبكى بجوار أحد القبور . فأرسل إليها كنفوشيوس تسه — لو ، يسألها عن سبب بكائها وحزنها ، فأجابته قائلة : « إن والد زوجى قد فتك به نمر فى هذا المكان ، ثم ثنى النمر بزوجى ، وها هو ذا ولدى قد لاقى المصير نفسه » . ولما سألها كنفوشيوس عن سبب إصرارها على الإقامة فى هذا المكان الخطر ، أجابته قائلة : « ليس فى هذا المكان حكومة ظالمة » . فالتفت كنفوشيوس إلى طلابه وقال لهم : « أى أبنائى اذكروا قولها هذا ؛ إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر »(٨٢) .

وسئل كنفوشيوس بين يدى دوق تشى ، وسرَّ الدوق من جوابه حين سأله عن ماهية الحكومة الصالحة : « توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً ، والوزير وزيراً ، والأب أباً والابن ابناً » ، وعرض عليه الدوق نظير تأييده إياه خراج مدينة لن — شيو ، ولكن كنفوشيوس رفض الهبة وأجابه بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذا الجزاء . وأراد الدوق أن يحتفظ به فى بلاطه وأن يجعله مستشاراً له ، ولكن جان ينج كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن رأيه وقال له : « إن هؤلاء العلماء رجال غير عمليين لا يستطاع تقليدهم ؛ وهم متغطرسون مغرورون

بآرائهم ، لا يقنعون بما يعطى لهم من مراكز متواضعة ... وللسيد كونج هذا من الخصائص ما يبلغ الألف عدًّا ... ولو أردنا أن نلم بكل ما يعرفه عن مراسم الصعود والنزول لتطلب منا ذلك أجيالا طوالا »(٨٤). ولم يثمر هذا اللقاء ثمرة ما ، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاما أخرى قبل أن يستدعى ليتولى منصباً عاماً فى الدولة .

وواتته الفرصة حين عيّن فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة فى مدينة چونج — دو . وتقول الرواية الصينية إن المدينة فى أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان إذا سقط شيء فى الطريق بقى حيث هو أو أعيد إلى صاحبه(٨٥) . ولما رقاه الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع فى مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمة فى الشئون الزراعية ، ويقال إنه لما رقى بعدئذ وزيراً للجرائم كان مجرد وجوده فى هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة . وفى ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاً برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء . وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى ، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب »(٨٦)

إن فى هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع الشك ؛ وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرق من أن يعمر طويلا . وما من شك فى أن المجرمين قد يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به . ويقول المؤرخ الصينى : إن الولايات القريبة من « لو » دب فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو » الناهضة . ودبّر وزير ماكر من وزراء تشى مكيدة ليفوق بها بين دوق « لو » وكنفوشيوس ، فأشار على دوق تشى بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان « الفتيات المغنيات » وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالا ..

وأسرت البنات والخيل قلب الدوق فغفل عن نصيحة كنفوشيوس (وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة)، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالا معيباً. وقال تزه — لو لكنفوشيوس: «أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل». واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره، وغادر لو، وبدأ عهد تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاما. وقال فيما بعد «إنه لم ير قط إنساناً يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال»[٨٧]. والحق أن من أغلاط الطبيعة التي لا تغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتيان منفصلين لا مجتمعين.

وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مغضوبا عليهم في وطنهم، فأخذوا ينتقلون من إقليم إلى إقليم، يلقون في بعضها مجاملة وترحابا، ويتعرضون في بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى. وهاجمهم الرعاع مرتين، وكادوا في يوم من الأيام يموتون جوعاً، وبرّح بهم ألم الجوع حتى شرع تزه — لو نفسه يتذمر ويقول إن حالهم لا تليق «بالإنسان الراقي». وعرض دوق وِيْ على كنفوشيوس أن يوليه رياسة حكومته، ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض، لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق[٨٨].

وبينما كانت هذه الفئة الصغيرة في يوم من الأيام تجوس خلال تشي إذ التقت بشيخين عافت نفسهما مفاسد ذلك العهد، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو — دزه، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة. وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس، ولام تزه — لو، على سيره في ركابه، وقال له: «إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف، ومن ذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية؟»[٨٩] وفكر كنفوشيوس في هذا اليوم طويلا ولكنه لم يفقد رجاءه في أن تتيح له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلم.

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم، ويدعونه أن يعود إلى موطنه ، وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززاً مكرماً ، وكثيراً ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحونه ، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته في عزلة أدبية منصرفا إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين . ولما سأل دوق شي تزه — لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله ، وبلغ ذلك الخبر مسامع كنفوشيوس ، قال له : « لم لم تجبه بأنه ليس إلا رجلا ينسيه حرصه على طلب العلم الطعام والشراب ، وتنسيه لذة (طلبه) أحزانه ، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه »[٩٠] وكان يسلى نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة ، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله ، ومن أقواله في ذلك الوقت : « لقد كنت في الخامسة عشرة من عمرى مكبا على العلم ، وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع ، وفي سن الأربعين زالت عنى شكوكى ، وفي الخمسين من عمرى عرفت أوامر السماء ، وفي الستين كانت أذنى عضواً طيعاً لتلك الحقيقة ، وفي السبعين كان في وسعى أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدى بى ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل »[٩١] .

ومات كنفوشيوس في الثانية والسبعين من عمره ، وسمعه بعضهم يوماً من الأيام يغنى في الصباح الباكر تلك الأغنية الحزينة :

سيدك الجبل الشاهق دكا ،

وتتحطم الكتلة القوية ،

ويذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات .

ولما أقبل عليه تلميذه تزه — كونج قال له : « لن يقوم في البلاد ملك

ذكى أريب ؛ وليس فى الإمبراطورية رجل يستطيع أن يتخذنى معلماً له . لقد تصرم أجلى وحان يومى »[٩٢] .

ثم أوى إلى فراشه ومات بعد سبعة أيام من ذلك اليوم . وواراه تلاميذه التراب باحتفال مهيب جدير بما تنطوى عليه قلوبهم من حب له وإجلال ، وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين يبكونه كما يبكى الأبناء آباءهم . وبعد أن مضت هذه المدة غادروا جميعاً أكواخهم إلا تزه — كونج ، وكان حبه إياه يفوق حبهم جميعاً ، فبقى بجوار قبر أستاذه ثلاث سنين أخرى واجماً حزيناً تتشعبه الهموم[٩٣] .

٢ — الكتب التسعة

وترك كنفوشيوس وراءه خمسة مجلدات يلوح أنه كتبها أو أعدها للنشر بيده هو نفسه ، ولذلك أصبحت تعرف فى الصين باسم « **المجلدات الخمسة** » أو « **كتب القانون الخمسة** » . وكان أول ما كتبه منها هو **اللى — جى** أو سجل المراسم ، لاعتقاده أن هذه القواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس الدقيقة التى لابد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعى والسلام .

ثم كتب بعدئذ ذيولا وتعليقات على كتاب **إلاى — جنج** أو كتاب التغيرات ، وكان يرى أن هذا الكتاب خير ما أهدته الصين إلى ذلك الميدان الغامض ميدان علم ما وراء الطبيعة الذى كان جد حريص على ألا يلج بابه فى فلسفته . ثم اختار ورتب **الشى — جنج** أو **كتاب الأناشيد** ليشرح فيه كنه الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة . وكتب بعد ذلك **التشون — شيو** أو **حوليات الربيع والخريف** ، وقد سجل فيه تسجيلا موجزاً خالياً من التنميق أهم ما وقع من الأحداث فى « لو » موطنه الأصلى . وكان خامس أعماله

الأدبية وأعظمها نفعاً أنه أراد أن يوحى إلى تلاميذه أشرف العواطف وأنبل الصفات فجمع فى الشوـــمنج أى كتاب التاريخ أهم وأرقى ما وجده فى حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأقاصيص التى تسمو بها الأخـــلاق وتشرف الطباع ، وذلك حين كانت الصين إمبراطورية موحدة إلى حد ما ، وحين كان زعماؤها ، كما يظن كنفوشيوس ، أبطالا يعملون فى غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه .

ولم يكن وهو يعمل فى هذه الـكتب يرى أن وظيفته هى وظيفة المؤرخ بل كان فيها معلماً ومهذباً للشباب ، ومن أجل هذا اختار عن قصد من أحداث الماضى ما رآه ملهماً لتلاميذه لا مؤنساً لهم .

فإذا ما عمدنا إلى هذه المجلدات لنستقى منها تاريخاً علميا نزيهاً لبلاد الصين فإنا بهذا العمل نظلم كنفوشيوس أشد الظلم . فقد أضاف إلى الحوادث الواقعية خطباً وقصصاً من عنده ، صب فيها أكثر ما يستطيع من الحض على الأخلاق الـكريمة والإعجاب بالحـكمة . وإذا كان قد جعل ماضى بلاده مثلا أعلى بين ماضى الشعوب ، فإنه لم يفعل أكثر مما نفعله نحن (*) بماضينا الذى لا يعدل ماضى الصين فى قدمه . وإذا كان رؤساء جمهوريتنا الأولون قد أضحوا حكماء وقديسين ، ولما يمض عليهم أكثر من قرن أو قرنين من الزمان ، فإنهم سيكونون بلا شك فى نظر المؤرخ الذى يُحَدِّث عنهم بعد ألف عام من هذه الأيام مثلاً عليا للفضيلة والـكمال شأنهم فى هذا شأن يَوْ وشون .

ويضيف الصينيون إلى هـــذه المجلدات الخمسة أربع مثوءات أو « كتب » (كتب الفلاسفة) يتكون منها كلها « التسعة الـكتب القديمة » . وأول هذه الـكتب وأهمها جميعاً كتاب لون يو أو الأحاديث والمحاورات المعروف عند

(*) يريد الأمريكيين (المترجم)

قراء اللغة الإنجليزية باسم « مجموعة الشذرات » أى شذرات كنفوشيوس ، كما سماه « لج Legge » فى إحدى نزواته . وليست تلك الكتب مما خطه قلم المعلم الكبير ولكنها تسجل فى إيجاز ووضوح منقطعى النظير آراءه وأقواله كما يذكرها أتباعه . وقد جمعت كلها بعد بضع عشرات من السنين من وفاته ، ولعل الذين جمعوها هم مريدو مريديه(٩٤) ، وهى أقل ما يرتاب فيه من آرائه الفلسفية . وأكثر ما فى الكتب الصينية القديمة طرافة وأعظمها تهذيباً ما جاء فى الفقرتين الرابعة والخامسة(*) من الشو الثانى ، وهو المؤلف المعروف عند الصينيين باسم الداشوه أو التعليم الأكبر ويعزو جوشى الفيلسوف والناشر الكنفوشى هاتين الفقرتين إلى كنفوشيوس نفسه كما يعزو باقى الرسالة إلى دزنج — تسان أحد أتباعه الصغار السن . أما كايا — كويه العالم الصينى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد فيعزوهما إلى كونج چى حفيد كنفوشيوس ؛ على حين أن علماء اليوم المتشككين يجمعون على أن مؤلفهما غير معروف(٩٥) . والعلماء كلهم متفقون على أن حفيده هذا هو مؤلف كتاب جونج يونج أو عقيدة الوسط وهو الكتاب الفلسفى الثالث من كتب الصين . وآخر هذه الشوءات هو كتاب منشيس الذى سنتحدث عنه توًّا . وهذا الكتاب هو خاتمة الآداب الصينية القديمة وإن لم يكن خاتمة العهد القديم للفكر الصينى . وسنرى فيما بعد أنه خرج على فلسفة كنفوشيوس ، التى تعدّ آية فى الجمود والمحافظة على القديم ، متمردون عليها وكفرة بها ذوو مشارب وآراء متعددة متباينة .

(*) وهما اللتان نقلناهما فيما بعد فى صفحتى ٥٤ ، ٥٥ من هذا الكتاب . (المترجم)

٣ — لا أدرية كنفوشيوس

هنات في المنطق — الفلاسفة والصبيان — دستور الحكمة

فلنحاول أن نكون منصفين فى حكمنا على هذه العقيدة . ولنقر بأنها ستكون نظرتنا إلى الحياة حين يجاوز الواحد منا الخمسين من عمره ، ومبلغ علمنا أنها قد تكون أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل والحكمة من شعر شبابنا . وإذا كنا نحن ضالين وشباناً فإنها هى الفلسفة التى يجب أن نقرن بها فلسفتنا نحن ، لكى ينشأ مما لدينا من أنصاف الحقائق شىء يمكن فهمه وإدراكه .

ولا يظن القارئ أنه سيجد فى لا أدرية كنفوشيوس نظاماً فلسفياً — أى بناء منسقاً من علوم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة ، تسرى فيه كله فكرة واحدة شاملة (فتحيله أشبه بقصور نبوخذ ناصر (بختنصر) التى نقش اسمه على كل حجر من حجارتها) .

لقد كان كنفوشيوس يعلّم أتباعه فن الاستدلال ، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقى ، بل بتسليط عقله القوى تسليطاً دائماً على آراء تلاميذه ؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئاً عن المنطق ، ولكن كان فى وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً .

وكان أول الدروس ، التى يلقيها عليهم المعلم ، الوضوح والأمانة فى التفكير والتعبير ، وفى ذلك يقول : « كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوماً »[٩٦] — وهو درس لا تذكره الفلسفة فى جميع الأحوال . « فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه ؛ وإذا لم تعرفه فأقرّ بأنك لا تعرفه — وذلك فى حد ذاته معرفة »[٩٧] . وكان يرى أن غموض الأفكار ، وعدم الدقة فى التعبير ، وعدم الإخلاص فيه ، من الكوارث الوطنية القومية . فإذا كان الأمير الذى ليس أميراً بحق والذى لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً ، وإذا كان

الأب الذى لا يتصف بصفات الأبوة لا يسميه الناس أبا ، وإذا كان الابن العاق لا يسميه الناس ابناً ، إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون فى « تزه — لو » ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التى طالما غطتها الألفاظ . ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس : « إن أمير ويه فى انتظارك لكى تشترك معه فى حكم البلاد ، فما هو فى رأيك أول شىء ينبغى عمله ؟ أجابه كنفوشيوس جواباً دهش له الأمير والتلميذ : « إن الذى لا بد منه أن تصحح الأسماء »[٩٨] .

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هى تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة ، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية . صحيح أن ذكر « السماء » والصلاة[٩٩] كان يرد على لسانه أحياناً ، وأنه كان ينصح أتباعه بألا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية فى عبادة الأسلاف والقرابين القومية[١٠٠] ، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال فى أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضموه إلى طائفة اللا أدريين[١٠١] . فلما أن سأله تزه — كونج ، مثلا : « هل لدى الأموات علم بشىء أو هل هم بغير علم ؟ » أبى أن يجيب جوابا صريحا[١٠٢] . ولما سأله كىْ — لو ، عن « خدمة الأرواح » (أرواح الموتى) أجابه « إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم ؟ » . وسأله كىْ — لو : « هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت ؟ » فأجابه : « إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئا عن الموت »[١٠٣] . ولما سأله فارشي عن « ماهية الحكمة » قال له : « إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمى هذه حكمة »[١٠٤] .

ويقول لنا تلاميذه إن « الموضوعات التى لم يكن المعلم يخوض فيها هى الأشياء

الغريبة غير المألوفة ، وأعمال القوة ، والأضطراب ، والكائنات الروحية »[١٠٥] وكان هذا التواضع الفلسفي يقلق بالهم ، وما من شك في أنهم كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السموات ويطلعهم على أسرارها . ويقص علينا صاحب كتاب — لياتزه وهو مغتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كنفوشيوس حين أقر لهم بعجزه عن هذا السؤال السهل وهو : « هل الشمس أقرب إلى الأرض فى الصباح حين تبدو أكبر ما تكون ، أو فى منتصف النهار حين تشتد حرارتها ؟ »[١٠٦] . وكل ما كان كنفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة ، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك الحسن واطراد النظم الطبيعية .

وقال مرة لأحد المقربين إليه : « أظنك يا تزه تعتقد أنى من أولئك الذين يحفظون أشياء كثيرة ويستبقونها فى ذاكرتهم ؟ » فأجابه تزه — كونج بقوله : « نعم أظن ذلك ولكنى قد أكون مخطئاً فى ظنى ! » فرد عليه الفيلسوف قائلا « لا ، إنى أبحث عن الوحدة ، الوحدة الشاملة »[١٠٧] وذلك بلا ريب هو جوهر الفلسفة .

وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم . والفقرتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب التعليم الأكبر تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفى الكنفوشى .

« إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية

قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولمـا أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ؛ ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهذيب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ؛ ولمـا أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء .

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولمـا كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولمـا تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولمـا تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولمـا انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة(١٠٨) .

تلك هى مادة الفلسفة الـكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفى وسع الإنسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعانى التى هى « جوهر الفلسفة وقوامها » وأكمل مرشد للحياة الإنسانية . ويقول كنفوشيوس : « إن العالم فى حرب لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ؛ والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة . والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعى الطبيعى ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوّموا نفوسهم ؛ وهم يعجزون عن أن يقوّموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أى أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ؛ وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين فى تفكيرهم ، لا يقدّرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ؛ وهم لا يخلصون فى تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع

يبحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء : فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا فى تفكيرهم ؛ وليخلصوا فى تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ؛ ولتطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ؛ ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ؛ وليس الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذى يصلحها هو ، ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ؛ ولتنظم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة ، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسه نظام اجتماعى يتيسر معه قيام حكم صالح .

ولتحافظ الدولة على الهدوء فى أرضها والعدالة فى جميع أرجائها ، يسد السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من فيه — تلك نصيحة تدعو إلى الكمال المطلق وتنسى أن الإنسان حيوان مفترس ؛ ولكنها كالمسيحية تحدد لنا هدفاً نسعى لندركه ، وسلماً نرقاه لنصل به إلى هذا الهدف . وما من شك فى أن فى هذه النصوص قواعد فلسفية ذهبية .

٤ — طريقة الرجل الأعلى

صورة أخرى من صور الحكيم — عناصر الأخلاق — القاعدة الذهبية

وإذن فالحكمة تبدأ فى البيت ، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنتظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته فى أن الرقى الذاتى أساس الرقى الاجتماعى ؛ ولما سأله تزه — لو « ما الذى يكون الرجل الأعلى ؟ » أجابه بقوله « أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام »[١٠٩] ، ونحن نراه فى مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالى كما يراه هو جزءاً جزءاً — والرجل المثالى فى اعتقاده هو الذى تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم . والإنسان الكامل الأسمى فى رأى كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونتشة والمسيح يرى الكمال كل الكمال فى كل واحدة منها بمفردها :

وتلك هى الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفى ذلك يقول : « الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر ... وهو واسع الفكر غير متشيع إلى فئة ... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شىء غير صحيح »(١١٠)

ولكنه ليس رجلا ذكيا وحسب ، وليس طالب علم ومحباً للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ؛ « فإذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفا ، وإذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ؛ أما إذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة »(١١١) . فالذكاء هو الذهن الذى يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الإخلاص ، « وليس الإخلاص الكامل وحده هو الذى يميز الرجل الأعلى »(١١٢) « إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل »(١١٣) « ولدينا فى فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك أن الرامى إذا لم يصب مركز الهدف رجع إلى نفسه ليبحث فيها عن سبب عجزه »(١١٤) .

« إن الذى يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما فى نفسه ؛ أما الرجل المنحط فيبحث عما فى غيره ... والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ... ألا يعرفه الناس » ، ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر فى ألاّ يُذكر اسمه بعد موته »(١١٥) ؛ وهو متواضع فى حديثه ولكنه متفوق فى أعماله ... قل أن يتكلم ، فإذا تكلم لم يشك قط فى أنه سيصيب هدفه ... والشىء الوحيد الذى لا يدانى فيه الرجل الأعلى هو عمله الذى لا يستطيع غيره من الناس أن يراه »(١١٦) . وهو معتدل فى قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط »(١١٧) فى كل شىء ؛ ذلك أن « الأشياء التى يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ؛ وإذا لم يكن

ما يحب وما يكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التي تعرض له »(١١٨)(*) « والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقاً عاما ؛ ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانوناً عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ »(١٢٠)(**) وهو يستمسك أشد الاستمساك بالقاعدة الذهبية التي نص عليها هنا صراحة قبل هلل بأربعة قرون وقبل المسيح بخمسة : « فقد سأل چونج — جونج المعلم عن الفضيلة الكاملة فكان جوابه ... الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يُفعل بك »(١٣٢) . وهذا المبدأ يتكرر مراراً وهو دائما يتكرر في صيغة النفي ، وقد ذكر مرة في كلة واحدة . ذلك أن تزه — چونج سأله مرة : أليس ثمة كلة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته ؟ فأجابه المعلم : أليست هذه الكلمة هي المبادلة ؟ »(١٣٣) ، ولكنه لم يكن يرغب فيما يرغب فيه لوَدْزَه وهو أن يقابل الشر بالخير ، فلما أن سأله أحد تلاميذه : « ما قولك في المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تجزى بالإحسان ؟ » أجاب بحدة لم يألفها تلاميذه منه : « وبأى شيء إذن تجزى الإحسان ؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة ، وليكن الإحسان جزاء الإحسان »(١٣٤) .

وكان يرى أن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هي العطف الفياض على الناس جميعاً . والرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس ، فإذا رأى أفاضل الناس فكر في أن يكون مثلهم ؛ وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره »(١٣٤أ) . ذلك أنه قلما توجد أخطاء لا نشترك

(*) قارن هذا بما يقوله اسبنوزا : « إن عوامل خارجة عنا تدفعنا إلى طرق كثيرة مختلفة ، فنترنح ونضطرب اضطراب الأمواج تدفعها الرياح المختلفة المهاب ، ولا نعرف مصيرنا أو عاقبة أمرنا »(١١٩) .

(**) قارن هذا بقانون الأخلاق « القاطع الإلزامي » الذي يقول به كانت وهو « لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التي تسير عليها في أعمالك قانوناً عاماً شاملا »(١٢١) .

فيها مع جيراننا . وهو لا يبالى أن يفترى عليه الناس أو يسلقوه بألسنة حداد (١٢٤ ب)، مجامل بشوش لجميع الناس ، ولكنه لا يكيل المدح جزافا (١٢٥) ؛ لا يحقر من هم أقل منه ، ولا يسعى لكسب رضاء من هم أعلى منه (١٢٦) ، وهو جاد فى سلوكه وتصرفاته ، لأن الناس لا يوقرون من لا يلتزم الوقار فى تصرفاته معهم ؛ متريث فى أقواله ، حازم فى سلوكه ، يصدر فى أعماله عن قلبه ؛ غير متعجل بلسانه ولا مولع بالإجابات البارعة السكاتة ؛ وهو جاد لأن لديه عملا يحرص على أدائه — وهذا هو سر مهابته غير المسكتة (١٢٧) ؛ وهو بشوش لطيف حتى مع أقرب الناس إليه وألصقهم به ، ولكنه يصون نفسه عن التبذل مع الناس جميعاً حتى مع ابنه (١٢٨) . ويجمع كنفوشيوس صفات رَجُله الأعلى الكثير الشبه « برجل أرسطو ذى العقل الكبير » فى هذه العبارة .

« يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها فى فكره . فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح ... ؛ وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً ؛ وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقوراً ؛ وفى حديثه يحرص على أن يكون مخلصا ؛ وفى تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام فيمن معه ؛ وفى الأمور التى يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاحت له المكاسب فكر فى العدالة والاستقامة (١٢٩) .

٥ — سياسة كنفوشيوس

سيادة الشعب — الحكم بالقدوة — عدم تركز الثروة — الموسيقى والأخلاق — الاشتراكية والثورة

ويعتقد كنفوشيوس أن هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعيدوا بناء

الأسرة وأن ينقذوا الدولة . فالمجتمع يقوم على إطاعة الأبناء آباءهم ؛ والزوجة زوجها ؛ فإذا ذهبت هذه الطاعة حلت محلها الفوضى[١٣٠] .

وليس ثمة ما هو أسمى من قانون الطاعة هذا إلا شيء واحد وهو القانون الأخلاقى .

« فى وسع (الابن) وهو فى خدمة أبويه أن يجادلهما بلطف ؛ فإذا رأى أنهما لا يميلان إلى اتباع (نصيحته) زاد احترامه لهما ، من غير أن يتخلى عن (قصده) ؛ فإذا أمر الوالد ابنه أمراً خطأ وجب عليه أن يقاومه ، وعلى الوزير أن يقاوم أمر سيده الأعلى فى مثل هذه الحال »[١٣١] . وفى هذا القول يضع كنفوشيوس مبدأ من مبادئ منشيس التى تقرر حق الناس المقدس فى الثورة .

على أن كنفوشيوس لم يكن بالرجل الثورى النزعة ؛ ولعله ما كان يظن أن من ترفعهم الثورة لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم . ولكنه رغم هذه الميول كان جريئاً فيما كتبه فى *كتاب الأغانى* : « قبل أن تفقد ملوك أسرة (شانج) (قلوب) الشعب كانوا أحباء الله . فليكن فيما حل ببيت شانج نذير لكم ؛ إن الأمر العظيم لا يسهل دائما الاحتفاظ به »[١٣٢] . والشعب هو المصدر الفعلى الحقيقى للسلطة السياسية ، ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة عاجلا كان ذلك أو آجلا .

« وسأل تزه — كونج ، عن الحكم فقال له المعلم : « (لا بد للحكومة) من أن تحقق أموراً ثلاثة ، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام ، وكفايتهم من العتاد الحربى ، ومن الثقة بحكامهم » . فقال تزه — كونج : « فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأى هذه الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولا ؟ » فأجاب المعلم : « العتاد الحربى » . وسأله تزه — كونج مرة أخرى ، وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن تتخلى عنه ؟ » .

فأجاب المعلم : « فلنتخل عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر ، أما إذا لم يكن للناس ثقة (بحكامهم) فلا بقاء (للدولة) » .

ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذى يقوم عليه الحكم هو نفس المبدإ الأول الذى تقوم عليه الأخلاق — ألا وهو الإخلاص . ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هى القدوة الصالحة ؛ ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى فى السلوك الحسن ، حتى يحذو الناس حذوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه .

وسأل كى كانج كنفوشيوس عن الحكومة قائلا : « ما قولك فى قتل مَن لا مبدأ لهم ولا ضمير لخير أصحاب المبادئ والضمائر ؟ » فأجابه كنفوشيوس : « وما حاجتك يا سيدى إلى القتل فى قيامك بأعباء الحكم ؟ لتكن نيتك الصريحة البينة فعل الخير يكن الناس أخياراً . إن العلاقة القائمة بين الأعلى والأدنى لشبيهة بالعلاقة بين الريح والكلأ ، فالكلأ يميل إذا هبت عليه الريح ... وما أشبه الذى ينهج فى حكمه نهج الفضيلة بالنجم القطبى الذى لا يتحول عن مكانه والذى تطوف النجوم كلها حوله ... »

وسأل كى كانج كيف يحمل الناس على أن يجلُّوا (حاكمهم) ، وأن يخلصوا له ، وأن يلتزموا جانب الفضيلة ؟ فأجابه المعلم : « فليرأسهم فى وقار — يحترموه ، وليكن عطوفاً عليهم رحيماً بهم يخلصوا له . وليقدّم الصالحين ويعلّم العاجزين — يحرصوا على أن يكونوا فضلاء »[١٣٤] .

وإذا كانت القدوة الحسنة أولى وسائل الحكم ، فإن حسن الاختيار للمناصب وسيلته الثانية : « استعمل الصالحين المستقيمين ، وانبذ المعوّجين ، وبهذه الطريقة يستقيم المعوجّ »[١٣٥] .

وتقول عقيدة الوسط : « إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على

(استعمال من يصلح له من الناس) وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق (الحاكم) نفسه صالحة »[١٣٦].

وأى شيء لا تستطيع الوزارة المؤلفة من الرجال الأعلين أن تعمله فى جيل واحد لتطهير الدولة والارتفاع بالشعب إلى مستوى عال من الحضارة ؟[١٣٧] — إن أول ما يحرصون عليه ألا تكون لهم قدر المستطاع علاقات خارجية ، وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاتهم عن غلات غيرهم ، حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هـذه الغلات ، ثم يقللوا من ترف بطانة الملوك ويعملوا على توزيع الثروة فى أوسع نطاق لأن « تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب ، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته »[١٣٨] ، ثم يخففوا العقاب وينشروا التعليم العام لأن « التعليم إذا انتشر انعدمت الفروق بين الطبقات »[١٣٩]

ويشير كنفوشيوس بألا تدرس الموضوعات العليا لذوى المواهب الوسطى ، أما الموسيقى فيجب أن تعلم للناس أجمعين .

ومن أقواله فى هذا : « إذا أتقن الإنسان الموسيقى ، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها تطهر قلبه وصار قلباً طبيعياً ، سليما ، رقيقاً ، عامراً بالإخلاص والوفاء ، يغمره السرور والبهجة ... وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات ... أن توجه العناية إلى الموسيقى التى تعزف فى البلاد(*) ... والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب ألا يهملهما الإنسان ... فالخير شديد الصلة بالموسيقى والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام .

وعلى الحكومة أن تعنى أيضاً بغرس الأخلاق الطيبة ، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها(**) . وآداب اللياقة هى التى تكون على الأقل

(*) قال دانيل أوكنل : « دعونى أكتب أغانى الأمة ، ولست أبالى بعد ذلك من يسن شرائعها » .

(**) قارن هذا بقول المرحوم شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا (المترجم)

المظهر الخارجي لأخلاق الأمة وإن لم يدرك الناس هذا[١٤١] ، وهى تضفى على الحكيم لطف الرجل المهذب ؛ وما من شك فى أن المرء ابن عادته . أما من الوجهة السياسية « فآداب اللياقة حواجز تقوم بين الناس وبين الانغماس فى المفاسد » ، و « من ظن أن الحواجز القديمة لا نفع فيها فهدمها حلت به الكوارث الناشئة من طغيان المياه الجارفة »[١٤٢] .

ويكاد الإنسان يسمع هذا القول الصارم الذى نطق به المعلم الغاضب يتردد هذه الأيام فى جنبات « بهو الآداب القديمة » التى نقشت ألفاظها على حجارته ، والتى دنستها أوضار الثورة وحقرتها .

ومع هذا فقد كان لكنفوشيوس أيضاً أحلامه ومثله العليا فى الحكومات والدول . فقد كان يعطف فى بعض الأحيان على الذين إذا اقتنعوا بأن الأسرة الحاكمة فقدت « الأمر الأعلى » أى « أمر السماء » قوضوا أركان نظام من نظم الحكم لكى يقيموا على أنقاضه نظاماً خيراً منه . وقد اعتنق فى آخر الأمر المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها لخياله العنان !

« إذا ساد المبدأ الأعظم (مبدأ التماثل الأعظم) أصبح العالم كله جمهورية واحدة ؛ واختار الناس لحكمهم ذوى المواهب والفضائل والكفايات(*) ؛ وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ، ويعملون على نشر لواء السلم الشاملة . وحينئذ لا يرى الناس أن آباءهم هم من ولدوهم دون غيرهم ، أو أن أبناءهم هم من ولدوا لهم ، بل تراهم يهيئون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم ، ويهيئون العمل للكهول ، ووسائل النماء للصغار ، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء ، واليتامى وعديمى الأبناء ، ومن أقعدهم المرض عن العمل . هنالك يكون لكل إنسان حقه ، وهنالك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها .

(*) ما أشبه هذا بما يدعو إليه بعض الكتاب فى هذا الجيل — أمثال هـ . ج . ولز — من إنشاء حكومة عالمية (المترجم)

وينتج الناس الثروة ، لأنهم يكرهون أن تبدد وتضيع فى الأرض ، ولكنهم يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس ، وهم يعملون لأنهم يكرهون البطالة ، ولكنهم لا يهدفون فى عملهم إلى منفعتهم الشخصيه .

وبهذه الطريقة يقضى على الأنانية والمآرب الذاتية ، فلا تجد سبيلا إلى الظهور ، ولا يرى أثر للصوص والنشالين والخونة المارقين ، فتبقى الأبواب الخارجية مفتحة غير مغلقة . هذا هو الوضع الذى أسميه التماثل الأعظم[١٤٣](*) .

٣ — أثر كنفوشيوس فى الأمة الصينية

العلماء الكنفوشيون — انتصارهم على القانونيين — عيوب الفلسفة الكنفوشية — جدة مبادئ كنفوشيوس

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحاً كاملا . لقد كان يضرب فى فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لإصراره على تحقيقها .

وإذا كان رجال الأدب فى كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فإن أدباء القرون التى أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد استمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا إلى السلطان وتسنم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة فى الإمبراطورية بأجمعها وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التى تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونماها منشيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام . وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية فى الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التى تدهورت فيها البلاد من

(*) ترى هل فيما وضعه الفلاسفة المحدثون مثل عليا لحكومات أرقى من هذا المثل (المترجم)

الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعى فى العصور المظلمة التى تلت سقوط رومة .

وكانت فى البلاد طائفة أخرى هى طائفة « القانونيين » استطاعت أن تناهض وقتاً ما آراء كنفوشيوس فى عالم السياسية ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها هى فى بعض الأحيان .

ومن أقوالهم فى الرد على كنفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذى يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذى تنطوى عليه قلوب المحكومين ، يعرّض الدولة لأشد الأخطار ، إذ ليس فى التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بهذه المبادئ المثالية . وهم يقولون إن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكام ، وإن الناس يجب أن يرغموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين . ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فإنهم لا يصيبون الرخاء إلا تحت حكم جماعة من الأشراف ؛ وحتى التجار أنفسهم ، وإن أثروا ، لا يدل ثراؤهم على أنهم متفوقون فى ذكائهم ، فهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة ، وكثيراً ما يتعارض سعيهم هذا مع مصالح الدولة .

ويقول بعض القانونيين إنه قد يكون من الخير للدولة أن تجعل رءوس الأموال ملكا عاماً للمجتمع ، وأن تحتكر هى التجارة ، وأن تمنع التلاعب بالأثمان وتركيز الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد(١٤٤) .

هذه آراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت إلى الظهور مرة بعد مرة فى تاريخ الحكومة الصينية .

ولكن فلسفة كنفوشيوس كُتب لها النصر آخر الأمر . وسنرى فيما بعد كيف سعى شى هوانج — دى ، صاحب الحول والطول ، يعاونه رئيس وزراء من

طائفة القانونيين ، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجوداً وقتئذ من الكتابات الكنفوشية . ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان .

ولم يكن لعداء « الإمبراطور الأول » من نتيجة إلا أن يجعل الكتب التى أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قيمة ، وأن يستشهد الناس فى سبيل المحافظة عليها . حتى إذا انقضى عهد شى هوانج — دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش إمبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعيّن العلماء الكنفوشيين فى مناصب الدولة ، وثبت حكم أسرة هان ، وقوى دعائمه ، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه الحكيمة فى برامج تعليم الشبان الصينيين وفى الحكومة . وقربت القرابين تكريماً لكنفوشيوس ، وأمر الإمبراطور أن تنقشُ نصوص الكتب القديمة على الحجارة ، وأصبحت الكنفوشية دين الدولة الرسمى . وناهض الكنفوشية فى بعض الأحيان نفوذُ الدّوية ، كما طغى عليها أحياناً أخرى سلطان البوذية ، حتى إذا كان عهد أسرة تنج أعادتها إلى مكانتها السابقة وأعلت من شأنها .

ولما جلس على العرش تاى دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس. فى كل مدينة وقرية فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرَّب له فيها القوابين العلماء والموظفون . وفى عهد أسرة دزونج نشأت مدرسة قوية للكنفوشية الجديدة أضافت شروحاً وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته إليها من شروح مختلفة فى بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت فى اليابان نهضة فاسفية قوية . وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدإ قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو — أى ما يقرب من ألفى عام — تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها فى قالبها .

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين؛ ذلك أن كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة فى مدارس الدولة الصينية، يكاد كل صبى يتخرج فى تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التى يمتاز بها الحكيم القديم فى قلوب الصينيين، وسرت فى دمائهم، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقاً فى التفكير لا نظير لها فى غير تاريخهم أو فى غير بلادهم، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة، وأن تبعث فى نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة، وأن تنشر فى بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت بلادها، وأن تشكل هى الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها. ولسنا نجد فى غير المسيحية والبوذية(*) ما نجده فى الكنفوشية من جهود جبارة لتحويل ما جبلت عليه الطبيعة البشرية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورقة.

ولسنا نجد فى هذه الأيام — كما لم يجد الأقدمون فى الأيام الخالية — دواء يوصف للذين يقاسون الأمرين من جراء الاضطراب الناشئ من التربية التى تعنى بالعقل وتهمل كل ما عداه، ومن انحطاط مستوى القانون الأخلاقى وتدهوره، ومن ضعف الأخلاق الفردية والقومية، لسنا نجد دواء لهذا كله خيراً من تلقين الشباب مبادئ الفلسفة الكنفوشية(**).

لكن تلك الفلسفة لا تستطيع وحدها أن تكون غذاء كاملا للروح. لقد كانت فلسفة تصلح لأمة تكافح للخروج من غمرات الفوضى والضعف إلى النظام والقوة. ولكنها غل ثقيل يقيد البلد الذى ترغمه المنافسات الدولية على أن ينمو ويتطور.

(*) لقد كان حقاً على المؤلف أن يضم إليهما الإسلام، وقد كان له من الأثر فى طباع العرب أعظم مما كان الكنفوشية والمسيحية والبوذية من أثر فى الأمم التى انتشرت بينها.
(المترجم)

(**) أو مبادئ الإسلام. (المترجم)

ذلك أن قواعد الأدب واللياقة التي شكلت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعى أضحت قوة جارفة تسير كل حركة حيوية فى طريق مرسوم لا تتحول عنه ، وكانت الفلسفة الكنفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متزمتة ، وتقف فى سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشرى ، وسمت فضائلها حتى بلغت حد العقم ؛ ولم يكن فيها قط مجال للهو والمجازفة كما لم يكن فيها إلا القليل من الصداقة والحب ، وقد أعانت على تحقير النساء وإذلالهن [١٤٥] ، كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة متحفظة لا يضارع عداءها للرقى إلا حبها للسلام .

وليس من حقنا أن نعزو هذا كله إلى كنفوشيوس ، وأن نوجه إليه اللوم من أجله ، إذ ليس فى مقدور إنسان أياً كان شأنه أن يسيطر على تفكير عشرين قرناً من الزمان ، بل كل ما يحق لنا أن نطلبه إلى المفكر أن يضىء لنا بطريقة ما ، وبفضل تفكيره طوال حياته ، سبيل الفهم الصحيح . وقل أن نجد فى العالم من اضطلع بهذا الواجب كما اضطلع به كنفوشيوس . وإذا ما قرأنا تعاليمه ، وتبينا ما يجب أن نمحوه من فلسفته بسبب تقدم المعارف فى العالم وتبدل أحواله ، وعرفنا قيمة ما يسديه إلينا من هداية فى عالمنا الحاضر نفسه ، إذا ما فعلنا هذا نسينا من فورنا ما يشوب فلسفته من تفاهة تارة ومن كمال لا تطيقه الطبيعة البشرية تارة أخرى ، واشتركنا مع كونج چى حفيده الصالح التقى فى هذا التسبيح الأعلى الذى كان بداية تأليه كنفوشيوس .

لقد نقل چونج — فى عقائد يُووشونِ كأنهما كانا من آبائه ، ونشر نظم وَن و وُو واتخذهما مثلين يحتذيهما وينسج على منوالهما . وكان فى صفاته الروحية قديساً أو ملاكاً يتناغم مع السماء . ولكنه لم ينس قط أنه مخلوق من طين وماء . وهو يشبه السماء والأرض فى أنه كان عماداً لكل شىء وعائلا لكل شىء ، يحجب نوره كل شىء ، وتغطى ظلاله كل شىء . وهو أشبه بالفصول الأربعة فى تتابعها وانتظام سيرها ، وأشبه بالشمس والقمر فى تتابع ضيائهما ...

فهو في شموله واتساع آفاقه كالسماء ، وفي عمق تفكيره ونشاطه كالهوة السحيقة والعين الجائشة الفوارة ، إذا رآه الناس وقروه وعظموه ، وإذا تكلم صدقوه ، وإذا فعل أعجبوا بفعله وأحبوه .

ولهذا ذاع صيته في « المملكة الوسطى » وانتشر بين القبائل الهمجية ، فحيثما وصلت السفائن والمركبات، وحيثما نفذت قوة الإنسان ، وفي كل مكان امتد على سطح الأرض وأظلته السماء وأضاءته الشمس وأناره القمر ، و في كل بقعة مسها الصقيع وطلها الندى — يجله ويحبه كل من سرى فيه دم الحياة وترددت في صدره أنفاسها ، حبا صادقاً لا تكلف فيه ولا رياء ؛ ولهذا قيل عنه إنه : « هو والسماء صنوان »(١٤٦) .

الفصل الثالث

اشتراكيون وفوضويون

لقد كانت المائتا عام التي أعقبت عصر كنفوشيوس أعوام جدل شديد وردّة عنيفة ، ذلك أنه لما كشف العلماء عن لذة الفلسفة وبهجتها قام رجال من أمثال هوِ ادزه؛ وچونج سون لوبانج يتلاعبون بالمنطق ويخترعون القضايا المنطقية المتناقضة التي لا تقل في تباينها ودقتها عن قضايا زينون(١٤٧). واحتشد الفلاسفة من جميع أنحاء البلاد في مدينة لويانج ، كما كانوا يحتشدون في نفس هذا القرن في مدينتي بنارس وأثينة ، وكانوا يستمتعون في عاصمة الصين بحرية القول والتفكير التي جعلت أثينة وقتئذ العاصمة الفكرية لبلاد البحر المتوسط . وغصت عاصمة البلاد بالفلاسفة المسمين تزونج — هنج — كيا أي « فلاسفة الجدل » ، الذين جاءوا من كافة أنحاء البلاد ليعلموا الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم فن إقناع أي إنسان بأي شيء أرادوا إقناعه به(١٤٨). فجاء إلى لويانج منشيس الذي خلف كنفوشيوس في منصبه ، كما جاء إليها چونج — دزه أعظم أتباع لو — دزه ، وشون — دزه القائل بأن الإنسان شرير بطبعه ، وموذى نبي الحب العالمي .

١ — مودى الغيرى

منطيق قديم — مسيحى — وداعية سلام

قال منشيس عدو مودى « لقد كان يحب الناس جميعاً ، وكان يود لو يستطيع أن يبلى جسمه كله من قمة رأسه إلى أخمص قدمه إذا كان في هذا خير لبني الإنسان(١٤٩) ؛ وقد نشأ مودى في بلدة لو التي نشأ فيها كنفوشيوس ، وذاعت شهرته بعد وفاة الحكيم الأكبر بزمن قليل . وكان يعيب على كنفوشيوس أن تفكيره

خيالى غير عملى ، وأراد أن يستبدل بهذا التفكير دعوة الناس جميعاً لأن يحب بعضهم بعضاً . وكان من أوائل المناطقة الصينيين ومن شر المجادلين المحاجين فى الصين ؛ وقد عرّف القضية المنطقية تعريفاً غاية فى البساطة فقال :

هذه هى التى أسميها قواعد الاستدلال الثلاث :

أين يجد الإنسان الأساس ؟ ابحث عنه فى دراسة تجارب أحكم الرجال الأقدمين .

كيف يلم الإنسان به إلماما عاما ؟ افحص عما فى تجارب الناس العقلية من حقائق واقعية .

كيف تطبقها ؟ ضعها فى قانون وسياسة حكومية ، وانظر هل تؤدى إلى خير الدولة ورفاهية الشعب أو لا تؤدى إليهما(١٥٠) .

وعلى هذا الأساس جد مودى فى البرهنة على أن الأشباح والأرواح حقائق واقعية ، لأن كثيرين من الناس قد شاهدوها ، وكان من أشد المعارضين لآراء كنفوشيوس المجردة غير المجسمة عن الله ، وكان من القائلين بشخصية الله . وكان يظن كما يظن بسكال أن الدين رهان مربح فى كلتا الحالين : فإذا كان آباؤنا الذين نقرب لهم القرابين يستمعون إلينا فقد عقدنا بهذه القرابين صفقة رابحة ، وإذا كانوا أمواتاً لا حياة لهم ولا يشعرون بما نقرب إليهم فإن القرابين تتيح لنا فرصة الاجتماع بأهلينا وجيرتنا ، لنستمتع جميعاً بما نقدمه للموتى من طعام وشراب(١٥١) .

وبهذه الطريقة عينها يثبت مودى أن الحب الشامل هو الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية ؛ فإذا ما عم الحب العالم أوجد فيه بلا ريب الدولة الفاضلة والسعادة الشاملة التى بها « يحب الناس كلهم بعضهم بعضاً ، ولا يفترس أقوياؤهم ضعفاءهم ، ولا تنهب كثرتهم قلتهم ، ولا يزدرى أغنياؤهم فقراءهم ، ولا يسفه عظماؤهم صغارهم ، ولا يخدع الماكرون منهم السذج »(١٥٢) . والأنانية فى رأيه مصدر كل شر

سواء كان هذا الشر رغبة الطفل فى التملك أو رغبة الإمبراطوريات فى الفتح والاستعمار . ويعجب مودى كيف يُدين الناس أجمعون من يسرق خنزيراً ويعاقبونه أشد العقاب ، أما الذى يغزو مملكة ويغتصبها من أهلها ، فإنه يعد فى أعين أمته بطلا من الأبطال ومثلا أعلى للأجيال المقبلة(١٥٣) . ثم ينتقل مودى من هذه المبادئ السلمية إلى توجيه أشد النقد إلى قيام الدولة حتى لتكاد عقيدته السياسية تقترب كل القرب من الفوضى ، وحتى أزعجت هذه العقيدة ولاة الأمور فى عصره(١٥٤) . ويؤكد لنا كتاب سيرته أن مهندس الدولة فى مملكة چو همّ بغزو دولة سونج ليجرب فى هذا الغزو سُلَّماً جديداً من سلالم الحصار اخترعه فى ذلك الوقت ؛ فما كان من مودى إلا أن أخذ يعظه ويشرح له عقيدة الحب والسلم العالميين حتى أقنعه بالعدول عن رأيه ، وحتى قال له المهندس : « لقد كنت قبل أن ألقاك معتزماً فتح بلاد سونج ، ولكنى بعد أن لقيتك لا أحب أن تكون لى ولو سلبت إلىّ من غير مقارمة ومن غير أن يكون ثمة سبب حق عادل يحملنى على فتحها » . فأجابه مودى بقوله : « إذا كان الأمر كذلك فكأنى قد أعطيتك الآن دوله سونج . فاستمسك بهذه الخطة العادلة أعطك ملك العالم كله »(١٥٥) .

وكان العلماء من أتباع كنفوشيوس والساسة أتباع لوينج يسخرون من هذه الأفكار السلمية ؛ ولكن مودى رغم هذه السخرية كان له أتباع ، وظلت آراؤه مدى قرنين كاملين عقيدة تدين بها شيعة تدعو إلى السلام ، وقام اثنان من مريديه وهما سونج بنج ، وجونج سون لونج بحملة قوية لنزع السلاح ، وجاهدا فى سبيل هذه الدعوة حق الجهاد(١٥٧) . وعارض هان — أعظم النقاد فى عصره هذه الحركة ، وكان ينظر إليها نظرة فى وسعنا أن نسميها نظرة نِتشية ، وكانت حجته فى معارضتــه أن الحرب ستظل هى الحكم بين الأمم حتى تنبت للناس بالفعل أجنحة الحب العام .

ولما أصدر شى هوانج — دى أمره الشهير « بإحراق الكتب » ألقيت

فى النار جميع الآداب المودية كما ألقيت فيها جميع الكتب الكنفوشية ؛ وقضى هذا الحريق على الدين الجديد وإن لم يقض على عقيدة المعلم الأكبر وكتاباته .

٢ — يانج — جو ، أنانى

جبرى أبيقورى — الدفاع عن الشر

وكانت عقيدة أخرى ، تختلف عن العقيدة السابقة كل الاختلاف ، قد أخذت تنتشر وتشتد الدعوة إليها بين الصينيين ، فقد قام رجل يدعى يانج — چو لا نعرف عنه شيئاً إلا ما قاله عنه شانتوه[١٥٩] ، وجهر بهذه الدعوة المتناقضة ، وهى أن الحياة ملأى بالآلام وأن اللذة هدفها الأعلى ، وكان ينكر وجود الله ، كما ينكر البعث ، ويقول إن الخلائق ليست إلا دمى لا حول لها ولا طول ، تحركها القوى الطبيعية العمياء التى أوجدتها ، والتى وهبتها أسلافها دون أن يكون لها فى ذلك خيار ، ورسمت لها أخلاقها ، فلا تستطيع أن تتحول عنها أو أن تبدلها غيرَها[١٦٠] .

فأما الحكيم العاقل فيرضى بما قسم له دون أن يشكو أو يتذمر ، ولكنه لا يغتر بشىء من سخافات كنفوشيوس ومودى ، وما يقولانه عن الفضيلة الفطرية والحب العالى ، والسمعة الطيبة . ومن أقواله أن المبادئ الخلقية شراك ينصبه الماكرون للسذج البسطاء ، وأن الحب العالى وهمٌ يتوهمه الأطفال الذين لا يعرفون كنه البغضاء العالمية التى هى سنّة الحياة ، وأن حسن الأحدوثة ألعوبة لا يستطيع الحمقى الذين ضحوا من أجلها أن يستمتعوا بعد وفاتهم بها ، وأن الأخيار يقاسون فى الحياة ما يقاسيه الأشرار ، بل إنه ليبدو أن الأشرار أكثر استمتاعاً بالحياة من الأخيار[١٦١] ، وأن أحكم الحكماء الأقدمين ليسوا هم رجال الأخلاق والحاكمين كما يقول كنفوشيوس بل هم عبدة الشهوات ، الذين كان من حظهم

إن استبقوا المشترعين والفلاسفة ، فاستمتعوا بكل لذة دفعتهم إليها غرائزهم . نعم إن الأشرار قد يخلفون وراءهم سمعة غير طيبة ، ولكن ذلك الأمر لا يقلق عظامهم . ثم يدعونا يانج — چو إلى أن نفكر فى مصير الأخيار والأشرار ، فيقول(*) :

إن الناس كلهم مجمعون على أن شون ، ويو ، وچو — جونج ، وكنفوشيوس كانوا خير الناس وأحقهم بالإعجاب ، وأن چياه ، وچو ، شرهم جميعا .

ولكن شون قد اضطر إلى حرث الأرض فى جنوب نهر هو ، وإلى صنع آنية الفخار بجوار بحيرة لاى ، ولم يكن فى وسعه أن يستريح من عناء العمل لحظة قصيرة ، بل إنه لم يكن يستطيع أن يجد شيئاً من الطعام الشهى والملابس للدفئة ، ولم يكن فى قلب أبويه شىء من الحب له ، كما لم يكن يجد من إخوته وأخواته شيئاً من العطف عليه . . . فلما نزل له « ياو » آخر الأمر عن الملك ، كان قد تقدمت به السن ، وانحطت قواه العقلية ؛ وظهر أن ابنه شانج جو إنسان ناقص العقل عديم الكفاية ؛ فلم يجد بدًّا من أن ينزل عن الملك إلى يو . ومات بعدئذ ميتة محزنة . ولم يكن بين البشر كلهم إنسان قضى حياته كلها بائساً منغصا ، كما قضى هو حياته . . .

« وكان يو قد صرف كل جهوده فى فلح الأرض ، ووُلد له طفل ولكنه لم يستطع أن يربيه ؛ فكان يمر على باب داره ولا يدخلها ، وانحنى جسمه وانضمر وغلظ جلد يديه وقدميه وتحجر . فلما أن نزل له شون آخر الأمر عن العرش عاش فى بيت وطىء حقير ، وإن كان يلبس ميدعة وقلنسوة ظريفتين . ثم مات ميتة محزنة ، ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش معيشة نكدة حزينة كما عاش يو(*) . . .

« وكان كنفوشيوس يفهم أساليب الملوك والحكام الأقدمين ، ويستجيب

(*) فى وسع القارئ أن يعرف شيئاً عن شون ، ويو بالاطلاع على ص ١٧ من هذا الكتاب وعن چياه وچو (سن) بالاطلاع على صفحتى ١٧ ، ١٨ .

إلى دعوات أمراء عصره . ثم قطعت الشجرة التى يستظل بها فى سونج ، وأزيلت آثار أقدامه من ويه ، وحل به الضنك فى شانج وچو ، وحوصر فى شان ، وتشى ؛ ... وأذله يانج هو وأهانه ، ومات ميتة محزنة ، ولم يكن بين بنى الإنسان كلهم من عاش عيشة مضطربة صاخبة كما عاش كنفوشيوس .

« ولم يستمتع هؤلاء الحكماء الأربعة بالسرور يوما واحداً من أيام حياتهم ، وذاعت شهرتهم بعد موتهم ذيوعاً سوف يدوم عشرات الآلاف من الأجيال ، ولكن هذه الشهرة هى الشىء الذى لا يختاره قط من يعنى بالحقائق ويهتم بها . هل يحتفلون بذكراهم ؟ هذا ما لا يعرفونه . وهل يكافئونهم على أعمالهم ؟ — وهذا أيضاً لا يعرفونه وليست شهرتهم خيراً لهم مما هى لجذع شجرة أو مَدَرة .

أما (چياه) فقد ورث ثروة طائلة تجمعت مدى قرون طويلة ؛ ونال شرف الجلوس على العرش الملكى ؛ وأوتى من الحكمة ما يكفيه لأن يتحدى كل من هم دونه مقاماً ؛ ومن القوة ما يكفى لأن يزعزع به أركان العالم كله . وكان يستمتع بكل ما تستطيع العين والأذن أن تستمتعا به من ضروب اللذات ؛ ولم يحجم قط عن فعل كل ما سولت له نفسه أن يفعله . ومات ميتة هنيئة ؛ ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش عيشة مترفة فاسدة كما عاش هو وورث چو (شِنْ) ثروة طائلة تجمعت فى مدى قرون طويلة ، ونال شرف الجلوس على العرش الملكى ؛ وكان له من القوة ما يستطيع به أن يفعل كل ما يريد ؛ ... وأباح لنفسه فى قصوره فعل كل ما يشتهيه ، وأطلق لشهواته العنان خلال الليالى الطوال ؛ ولم يكدر صفو سعادته قط بالتفكير فى آداب اللياقة أو العدالة ، حتى قضى نحبه كأبهج ما يقضى الناس نحبهم . ولم يكن فى الآدميين كلهم من كانت حياته داعرة فاجرة كما كانت حياة چو .

« وقد استمتع هذان الرجلان السافلان فى حياتهما بما شاءا من اللذات وأطلقا لشهواتهما العنان ، واشتهرا بعد وفاتهما بأنهما كانا من أشد الناس حمقاً

واستبداداً ، ولكنهما استمتعا باللذة وهى حقيقة لا تستطيع أن تهبها حسن الأحدوثة . فإذا لامهم الناس فإنهم لا يعرفون ، وإذا أثنوا عليهم ظلوا بهذا الثناء جاهلين ، وسمعتهم (السيئة) لا تهمهم أكثر مما تهم جذع شجرة أو مدرة[١٦٢] » .

ألا ما أعظم الفرق بين هذه الفلسفة وبين فلسفة كنفوشيوس ! وهنا أيضاً نظن أن الزمان وهو رجى كالرجعيين من الآدميين قد أبقى لنا آراء أجل المفكرين الصينيين وأعظمهم ، ثم عدا على الباقين كلهم تقريباً فطواهم فى غمرة الأرواح المنسية . ولعل الزمان محق فى فعله هذا ، ذلك أن الإنسانية نفسها ما كانت لتعمر طويلا لو كان فيها كثيرون ممن يفكرون كما يفكر يان چو . وكل ما نستطيع أن نرد به عليه هو أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إذا لم يتعاون الفرد مع زملائه أخذاً وعطاء ؛ وإذا لم يتحملهم ويصبر على أذاهم ، ويتقيد بما فى المجتمع من قيود أخلاقية ، وأن الفرد الكامل العقل لا يمكن أن يوجد فى غير مجتمع ؛ وأن حياتنا نفسها إنما تعتمد على ما فيها من قيود . ومن المؤرخين من يرى فى انتشار هذه الفلسفة الأنانية ، بعض الأسباب التى أدت إلى ما أصاب المجتمع الصينى من انحلال فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد[١٦٣] . فلا عجب والحالة هذه أن يرفع منشيس، چنسن (Dr. Johnson) زمانه عقيرته بالاحتجاج الشديد وبالتشهير بأبيقورية ينج چو وبمثالية مودى فيقول :

« إن أقوال ينج چو ومودى تملأ العالم ؛ وإذا سمعت الناس يتحدثون وجدتهم قد اعتنقوا آراء هذا أو آراء ذاك . فأما المبدأ الذى يدعو إليه ينج فهو هذا : « كل إنسان وشأنه » — وهو مبدأ لا يعترف بمطالب الملك . أما مبدأ مو فهو هذا : « أحب الناس جميعاً بقدر واحد » — وهو مبدأ لا يعترف بما يحق للأب من حب خاص . ومن لا يعترف بحق الملك ولا بحق الأب فهو فى منزلة الحيوان الأعجم . فإذا لم يوضع لمبادئها حد ، وإذا لم تسد مبادئ

كنفوشيوس ، فإنهما سيخدعان الناس بحديثهما المقلوب ، ويسدان فى وجوههم طريق الخير والصلاح .

« ولقد أزعجتنى تلك الأشياء وأرمضت قلبى ، فوقفت أدافع عن عقائد الحكماء والأقدمين ، وأعارض ينج ومو ، وأطارد أقوالها المنحطة ، حتى يتوارى هؤلاء المتحدثون الفاسدون فلا يجرءوا على الظهور . ولن يغير الحكماء من أقوالى هذه إذا ما عادوا إلى الظهور »(١٦٤) .

٣ — منشيس ، مستشار الأمراء

أم نموذجية – فيلسوف بين الملوك – هل الناس أخيار بالسليقة – الضريبة العردية – منشيس والشيوعيون – باعث الكسب – حق الناس فى أن يثوروا

لقد شاءت الأقدار أن يكون منشيس أنبه الفلاسفة الصينيين ذكراً بعد كنفوشيوس ؛ وما أحفل تاريخ الصين بالفلاسفة .

وكان منشيس من سلالة أسرة مانج العريقة ، وكان اسمه فى بادئ الأمر مانج كو ، ثم صدر مرسوم إمبراطورى بتغييره إلى مانج — دزة أى مانج المعلم أو الفيلسوف . وقد بدل علماء أوربا الذين مرنوا على الأسماء اللاتينية هذا الاسم إلى منشيس كما بدلوا كونج — فو — دزه إلى كنفوشيوس .

ويكاد علمنا بأم منشيس يبلغ من الدقة علمنا به هو نفسه ، ذلك بأن المؤرخين الصينيين قد خلدوا ذكرها وجعلوها نموذجاً للأمهات بما قصوه عنها من القصص الكثيرة المتعة . فهم يقولون إنها بدلت مسكنها ثلاث مرات من أجله ؛ بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة فبدأ الصبى يسلك مسلك دافنى الأموات ؛ وبدلته فى المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبح ، ولذلك بدأ الغلام يجيد محاكاة أصوات الحيوانات المذبوحة ؛ ثم بدلته فى المرة الثالثة

لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق فشرع الصبي يسلك مسلك التجار ؛ ثم وجدت آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها .

وكانت إذا أهمل الغلام دروسه تقطع خيط النُول ، فإذا سألها عن سبب هذا الإتلاف أجابت بأنها إنما تفعل ما يفعله هو نفسه بإهماله وعدم مثابرته على الدرس والتحصيل . وبذلك أصبح الصبي طالباً مجدًّا ؛ ثم تزوج وقاوم في نفسه الميل إلى تطليق زوجته ، وافتتح مدرسة لتعليم الفلسفة جمع فيها حوله طائفة من الطلاب ذاع صيتهم في الآفاق ؛ وبعث إليه الأمراء من كافة الأنحاء يدعونه ليناقشوه في نظرياته عن الحكم . ولم يشأ في أول الأمر أن يترك أمه المسنة ، ولكنها أقنعته بالذهاب بخطبة حببتها إلى جميع رجال الصين ، ولعل واحداً منهم هو الذي وضع هذه الخطبة :

« ليس من حق المرأة أن تفصل في أمر بنفسها ، وذلك لأنها تخضع لقاعدة الطاعات الثلاث : فإذا كانت شابة وجب عليها أن تطيع أبويها ، وإذا تزوجت كان عليها أن تطيع زوجها ، وإذا ترملت وجب عليها أن تطيع ولدها . وأنت رجل كامل الرجولة ، وأما الآن عجوز ، فافعل ما توحيه إليك عقيدتك بأنه حق واجب عليك أن تفعله ، وسأفعل أنا ما يوجبه عليّ القانون الذي أأتمر بأمره . فلم إذن تشغل نفسك بي ؟ »(١٦٥) .

وأجاب منشيس ما طلب إليه لأن اللهفة على التعليم جزء من اللهفة على الحكم ، ترتبط كلتاهما أشد الارتباط بالأخرى . وكان منشيس كفلتير يفضل الملكية المطلقة على الدمقراطية ، وحجته في هذا أن الدمقراطية تتطلب تعليم جميع الشعب كله إذا أريد نجاح الحكم ، أما النظام الملكي المطلق فكل ما يطلب فيه أن يثقِّف الفيلسوف رجلا واحداً — هو الملك — ويعلمه الحكمة لكي ينشئ الدولة الكاملة .

ومن أقواله فى هذا المعنى : « أصلح ما فى عقل الأمير من خطأ ، فإنك إن قوّمت الأمير استقرت شئون الدولة »[١٦٦] . وسافر أولا إلى تشى وحاول أن يقوّم أميرها شوان ، ورضى أن يكون له فيها منصب تخرى ، ولـكنه رفض مرتب هذا المنصب . وسرعان ما وجد أن الأمير لا يعنى بالفاسفة ، فغادر تلك الإمارة إلى إمارة تانج الصغيرة ، ووجد فى حاكمها تلميذاً مخلصاً وإن يكن تلميذاً عاجزاً ضعيفاً . فعاد مرة أخرى إلى تشى ، وأثبت أنه قد زاد حكمة وفهماً لحقائق الأمور بأن قبل منصباً ذا مرتب كبير عرضه عليه الأمير شوان . ولما توفيت أمه فى هذه السنين الرغدة دفنها باحتفال عظيم وُجِّه اللوم من أجله إلى تلاميذه ، ولـكنه برر لهم هـذا العمل بقوله إن كل ما يرمى إليه هو أن يظهر إخلاصه ووفاءه لوالدته .

وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تورّط شوان فى حرب للفتح والتملك ، وساءه ما أشار به عليه منشيس من دعوة إلى السلام ، رأى أنها جاءت فى غير أوانها فأقاله من منصبه وسمع منشيس أن أمير سونج يريد أن يحكم حكم الفلاسفة فسافر إلى عاصمته ولـكنه وجد أن ما سمعه كان مبالغاً فيه كثيراً ، وأن الأمراء الذين تردد عليهم كانت لهم أعذار كثيرة يبررون بها عدم استقامتهم واتباعهم النصح . فقد قال واحد منهم : « إن لدىّ ناحية من نواحى الضعف ، وهى أنى أحب البطولة والبسالة » . وقال آخر : « إن لدى ناحية من نواحى الضعف وهى أنى أحب الثروة »[١٦٧] .

واضطر منشيس آخر الأمر إلى أن يعتزل الحياة العامة ، وقضى أيام شيخوخته وضعفه فى تعليم الطلاب وتأليف كتاب وصف فيه أحاديثه مع ملوك زمانه . وليس فى وسعنا أن نقول إلى أى حد يمكن مقارنة هذه الأحاديث بأحاديث وولتر سفدج لاندر Walter Savage Lander (*) ؛ ولسنا واثقين من أن هذا

(*) أديب إنجليزى عاش بين سنتى (١٧٧٥ — ١٨٦٤) . (المترجم)

الكتاب من تأليف منشيس نفسه ، أو من تأليف تلاميذه ، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا فى وضعه ، أو أنه مدسوس عليه وعليهم[١٦٨]. وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن كتاب *منشيس* من أعظم الكتب الفلسفية الصينية القديمة وأجلّها قدراً .

وعقيدته عقيدة دنيوية خالصة لا تقلّ فى هذا عن عقيدة كنفوشيوس ، ولا يكاد يوجد فيها شيء عن المنطق أو فلسفة المعرفة أو ما وراء الطبيعة . لقد ترك الكنفوشيون هذا إلى اتباع لو — دزه ، ووجهوا همهم إلى البحوث الأخلاقية والسياسية . وكان الذى يهم منشيس هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة وتولى خيار الناس مقاليد الحكم . وكان مبدؤه الأساسى أن الناس أخيار بطبيعتهم[١٦٩]، وأن ليس منشأ المشاكل الاجتماعية طبيعة الناس بل منشؤها فساد الحكومات؛ ومن ثم يجب أن يصبح الفلاسفة ملوكا ، أو أن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة . انظر إلى ما يقوله فى هذا المعنى :

والآن ، إذا أردتم جلالتكم أن تنشئوا حكومة أعمالها صالحة ، فإن هذا سيبعث فى جميع موظفى مملكتكم الرغبة فى أن يكونوا فى بلاط جلالتكم ، وفى جميع الزراع الرغبة فى أن يفلحوا أرض جلالتكم ، وفى جميع التجار الرغبة فى أن يخزنوا بضائعهم فى أسواق جلالتكم ، وفى جميع الرحّالة الأغراب الرغبة فى أن يسافروا فى طرق جلالتكم ، وفى جميع من يشعرون فى أنحاء مملكتكم بأن ظلماً قد وقع عليهم من حكامهم الرغبة فى أن يأتوا ويشكوا إلى جلالتكم . وإذا ما اعتزموا أن يفعلوا هذا فمنذا الذى يستطيع أن يقف فى سبيلهم ؟ » .

فقال الملك : « إننى غبى وليس فى وسعى أن أرقى إلى هذا الحد »[١٧٠] .

والحاكم الصالح فى رأيه لا يشن الحرب على البلاد الخارجية بل يشنها على العدو المشترك — وهو الفقر ، لأن الفقر والجهل هما منشأ الجرائم واضطراب النظام ، وعقاب الناس على ما يرتكبونه من الجرائم لأنهم لا تتاح لهم فرص

العمل شَرَكَ دنىء ينصب للإيقاع بالناس(١٧١) . وواجب الحكومة أن توفر أسباب الرفاهية لرعاياها ، ولهذا ينبغى لها أن تضع الخطط الاقتصادية الكفيلة بتحقيق هذه الغاية(١٧٢) . فعليها أن تفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ما تغله أو ما يقام عليها من المنشآت(١٧٣) ، وعليها أن تلغى كل العوائد الجمركية وأن تجعل التعليم عاماً وإجبارياً ، لأن هذا أصلح أساس لنشر الحضارة وتقدمها ؛ « والقوانين الطيبة لا تعادل كسب الناس بالتعليم الطيب »(١٧٤) . « وليس الذى يفرق بين الإنسان والحيوان الأعجم بالشيء الكثير ، ولكن معظم الناس يطرحونه وراء ظهورهم ، ولا يحتفظ به إلا عظماء الرجال »(١٧٥) .

وفى وسعنا أن ندرك قدم المشاكل السياسية التى تواجه عصرنا المستنير ، وموقفنا منها ، وما نضعه لها من الحلول ، إذا عرفنا أن منشيس قد نبذه الأمراء المتطرفون ، وسخر منه الاشتراكيون والشيوعيون فى عصره لمحافظته واستمساكه بالقديم . ولما قال شوشنج جزار الجنوب الهمجى ينادى بإنشاء دكتاتورية الصعاليك ، ويطالب بأن يكون الصناع على رأس الدولة ، « وأن يكون الفعلة هم الحكام » لما قام يدعو إلى هذا ، واعتنق دعوته كثيرون من « المتعلمين » ، كما اعتنق المتعلمون هذه الدعوة نفسها فى أيامنا الحاضرة ، وانضووا تحت لوائه ، رفض منشيس هذه الفكرة بازدراء ، وقال « إن الحكومة يجب أن يتولاها المتعلمون(١٧٦) » . ولكنه ندد أيضاً بالفكرة القائلة إن الكسب يجب أن يكون هو الباعث على العمل فى المجتمع الإنسانى ، وعاب على سونج كانج قوله إن الملوك يجب اكتسابهم لقضية السلام بإقناعهم — فى لغة هذه الأيام — بأن الحرب عمل غير مربح . وفى هذا يقول:

« إن غرضك شريف ، ولكن منطقك غير سليم . ذلك بأنك إذا اتخذت الكسب أساساً لحجتك واستطعت أن تقنع بها ملوك تشين وتشى ، وأعجب هؤلاء الملوك بفكرة الكسب فأمروا بوقف حركات جيوشهم ، فإن كل المتصلين

بهؤلاء الجيوش سيفرحون بوقف (القتال) ، وسيجدون أعظم السرور فى (السعى وراء الكسب) . فنرى الوزراء يخدمون الملك جرياً وراء الكسب الذى حبب إليهم ، والأبناء يخدمون آباءهم ، والإخوة الصغار يخدمون الكبار من إخوتهم ، لهذا السبب عينه ، ونتيجة هذا أن الملك والوزراء ، والأب والابن ، والأخ الأكبر والأصغر ينسون كلهم بواعث الخير والصلاح ، ويوجهون أعمالهم كلها نحو الكسب المحبب إليهم العزيز عليهم . ولم يوجد قط (مجتمع) كهذا إلا كان مآله الخراب »[١٧٧] .

وكان يعترف بحق الشعوب فى الثورة وينادى بهذا المبدأ فى حضرة الملوك . وكان يندد بالحرب ويراها جريمة ، ولشد ما صدم عقائد الأبطال فى أيامه حين كتب يقول : « من الناس من يقول إنى بارع فى تنظيم الجند ، وإنى ماهر فى إدارة المعارك . وأولئك هم كبار المجرمين »[١٧٨] .

وقال فى موضع آخر : « ليس ثمة حرب عادلة »[١٧٩] . وكان يندد بترف حاشية الملوك ، ويوجه أشد اللوم للملك الذى يطعم كلابه وخنازيره ويترك الناس يموتون جوعاً[١٨٠] . ولما قال أحد الملوك إنه لا يستطيع منع المجاعة أجابه منشيس بأنه ينبغى له أن يعتزل الملك[١٨١] . وكان يقول لتلاميذه : « إن الناس أهم عنصر (من عناصر الأمة) ؛ ... وإن الملك أقل هذه العناصر شأناً »[١٨٢] . وإن من حق الناس أن يخلعوا حكامهم ، بل إن من حقهم أن يقتلوهم فى بعض الأحايين .

« وسأل الملك شوان عن الوزراء العظام ... فأجابه منشيس : « إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة وجب عليهم أن يعارضوه ، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة ، وجب عليهم أن يخلعوه ... » .

ثم واصل منشيس حديثه قائلا : « إذا فرض أن القاضى الأكبر الذى يحكم فى الجرائم قد عجز عن السيطرة على الموظفين (الخاضعين له) فماذا تفعل به ؟ » .

فأجابه الملك بقوله : « أفصله من منصبه » . ثم قال له منشيس : « وإذا لم يكن في داخل حدود (مملكتك) الأربعة حكومة صالحة فماذا تفعل ؟ » فتلفت الملك يمنة ويسرة وأخذ يتحدث عن أمور أخرى...

وسأله الملك شوان : « وهل من أجل ذلك أمر تانج بنفي جياه وضرب لملك « وُ» حاكم چو (سن) ؟ فأجاب منشيس : « هكذا تقول السجلات »

وسأله الملك : « وهل يحق للوزير أن يقتل مليكه ؟ » فأجابه منشيس : « إن الذي يخرج على ما أودع فيه من (طبيعة خيرة) يسمى لصا ؛ والذي يخرج على قواعد الاستقامة يسمى وغداً ؛ وليس كل من اللص والوغد في عرفنا إلا شخصاً لا قيمة له ؛ ولقد سمعت بتقطيع أوصال الشخص چو، ولكني لم أسمع بقتل ملك»[183].

تلك عقيدة ما أجرأها ، ولقد كانت عاملا كبيراً في تقرير المبدإ الذي يقره ملوك الصين وأهلها ، وهو أن الحاكم الذي يستثير عداوة الشعب يفقد « حقه الإلهي » في الحكم ، ومن حق الشعب أن يخلعه . فلا عجب والحالة هذه إذا غضب هونج وو ، مؤسس أسرة منج . حين قرأ هذا الحديث الذي دار بين منشيس والملك شوان ، وأمر أن يمحى اسم منشيس من مكانه في هيكل كنفوشيوس ، وكانت لوحة تذكارية قد وضعت له في هذا المعبد بأمر ملكي في عام ١٠٨٤ ، ولكن اللوحة أعيدت إلى مكانها ولما يمض عام واحد على إزالتها ، وظل منشيس من ذلك الوقت إلى ثورة عام ١٩١١ يعد بطلا من أبطال الصين وثاني اثنين ذاع صيتهما في جميع عهود تاريخها ، وكان لهما أعظم الأثر في فلسفتها الصحيحة . وإليه وإلى چوشي(*) يرجع الفضل في احتفاظ كنفوشيوس بزعامته الفكرية في الصين أكثر من ألفي عام .

(*) انظر بحث الفلسفة في الفصل الأول من الباب الخامس عشر .

٤ — شون — دزه ، واقعى

النفس البشرية أمارة بالسوء — ضرورة القوانين

كان فى فلسفة منشيس كثير من نقط الضعف ، وكان يسر معاصريه أن يشهروا بهذه النقط بأعظم مايستطيعون من قوة . أحق أن الناس أخيار بطبيعتهم وأنهم لا ينحدرون إلى الشر إلا إذا فسدت النظم التى يعيشون فى كنفها ؟ أم الصحيح أن الطبيعة البشرية هى السبب فى شرور المجتمع ؟ لقد كان هذان الرأيان المتعارضان مثاراً لجدل عنيف ظل قائما آلاف السنين بين المصلحين والمحافظين . فهل تستطيع التربية أن تنقص الجرائم ، وتزيد الفضائل ، وتأخذ بيد الناس إلى المثل العليا ، وتمكنهم من إقامة الدولة الفاضلة المثالية ؟ وهل يصلح الفلاسفة لحكم الدول أو أن فلسفتهم لا تؤدى إلا إلى زيادة ما يحاولون علاجه من فوضى واضطراب ؟

وكان أشد الناس نقداً لمنشيس وأصعبهم مراساً أحد الموظفين العموميين ، ويلوح أنه توفى فى عام ٢٣٥ ق . م وهو فى سن السبعين . ذلك هو شون — دزه الذى سبقت الإشارة إليه فى هذا الباب وكما كان منشيس يعتقد أن الناس جميعهم أخيار بطبيعتهم ، كان شون — دزه يرى أنهم جميعاً أشرار بفطرتهم ، وحتى شون ويو كانا متوحشين حين ولدا[١٨٤] . وقد وصلت إلينا قطعة من كتابات شون — دزه يبدو فيها أشبه الناس بالفيلسوف الإنجليزى هبز Hobbes إذ يقول :

« النفس البشرية أمارة بالسوء ، وما تعمله من خير متكلف مصطنع(*) . فهى قد غرس فيها من ساعة مولدها حب الكسب ؛ « اذ كانت أعمال الإنسان

(*) أى أن ما فى الإنسان من خير غير أصيل فيه بل أكسبته إياه تربيته والنظم التى يعيش فى كنفها .

إنما تقوم على هذا الحب فإن هذا يؤدى إلى انتشار المنازعات والسرقات. وليس إنكار الذات والاستسلام للغير من (طبيعة) الإنسان، بل إن من طبيعته التحاسد والتباغض، ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع طباعهم فإنهم لا يصدر عنهم إلا العنف والأذى، ولا نرى فيهم إخلاصاً أو وفاء.

ومن طبيعة الإنسان أيضاً إشباع الأذن والعين، وهذا يؤدى إلى حب الأصوات العذبة والمناظر الجميلة. ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع هذه وتلك، كان لا بد أن توجد الدعارة وسوء النظام، وأن تنعدم الاستقامة والاحتشام ومظاهرهما المختلفة المتسقة. ومن هذا يتضح أن السير وفق الطبيعة البشرية وإطاعة أحاسيسها، يؤديان حتماً إلى الخصام واللصوصية، وإلى مخالفة الواجبات التى تتفق مع الوضع الذى وجد فيه كل إنسان، وإلى الخلط بين كل المراتب والميزات حتى تعم الهمجية. ولهذا كان لا بد من قيام سلطان المعلمين وسلطان الشرائع، والاهتداء بقواعد الاستقامة والاحتشام التى ينشأ عنها إنكار الذات، والخضوع للغير، ومراعاة قواعد السلوك المنظمة، مما يؤدى إلى قيام الدولة، ذات الحكومة الصالحة.. وقد أدرك الملوك الأقدمون الحكماء ماطبعت عليه النفس البشرية من شر، فوضعوا قواعد الاستقامة والآداب، وسنوا النظم والقوانين ليقوموا طبائع الناس ومشاعرهم ويصلحوهم.. حتى يسلكوا جميعاً سبيل الحكم الصالح الذى يتفق مع العقل»(١٨٥).

ووصل شون — دزه فى بحوثه إلى ماوصل إليه ترجنيف وهو أن الطبيعة ليست معبداً يضم الصالحين، بل هى مصنع يجتمع فيه الصالح والطالح؛ وهى تقدم المادة الغفل، التى يعمل فيها الذكاء فيصوغها ويشكلها. وكان يظن أن أولئك الناس الأشرار بطبعهم، إذا دربوا على الخير، قد يصلحون، بل إن فى وسعهم إذا أريد لهم ذلك أن يكونوا قديسين(١٨٦).

ولما كان شون — دزه شاعراً وحكيماً معاً فقد نظم فلسفة فرانسس بيكن في هذا الشعر الركيك :

إنكم تمجدون الطبيعة وتتفكرون فيها ،
فلم لا تسخرونها وتنظمونها ؟
إنكم تطيعون الطبيعة وتسبحون بحمدها ،
فلم لا تسيطرون على أساليبها وتستخدمونها ؟
إنكم تنظرون إلى الفصول نظرة الإجلال وتنتظرونها ،
فلم لا تستجيبون إليها ببذل النشاط في أوانه ؟
إنكم تعتمدون على الأشياء الخارجة عنكم وتعجبون بها ،
فلم لا تكشفون عن كفاياتكم ؟
وتوجهونها الوجهة الصالحة ؟(١٨٧) .

٥ — جونج — دزه ، مثالي

الرجوع إلى الطبيعة — المجتمع اللاحكومي — طريقة الطبيعة — حدود الذهن — تطور الإنسان — مُشكِّل الأرزار — أثر الفلسفة الصينية في أوربا

على أن « الرجوع إلى الطبيعة » لم يكن من السهل أن يقاوم بهذه الطريقة ؛ بل قام في ذلك العصر من يدعو إليه كما قام من يدعو إليه في كل العصور . ومن المصادفات التي يمكننا أن نسميها مصادفات طبيعية أن كان الداعي إلى هذا الرجوع أبلغ كتاب عصره وأفصحهم لساناً . لقد كان چوَنج — دزه مولعاً بالطبيعة يرى أنها سيدته التي تتحقق به على الدوام مهما كان بغيه أو كانت سنه ، ومن أجل هذا فاضت فلسفته بأحاسيس روسو الشعرية .مضافاً إليها مُلَحُ فلتير الهجائية . ومنذا الذي يستطيع أن يتصور أن منشيس ينسى نفسه بحيث يصف أحد الناس

بأن له : « جدرة(*) كإبريق من الفخار »[188] ، وقصارى القول أن چوَنج أديب وفيلسوف معاً .

ولد هذا الفيلسوف فى ولاية سونج ، وتقلد وقتاً ما منصباً صغيراً فى مدينة خيُآن . وزار قصور الملوك التى زارها منشيس ، ولكن كلا الرجلين لا يذكر فيما بقى لنا من كتاباته اسم الآخر . ولعل كليهما كان يحب صاحبه كما يحب المعاصرون بعضهم بعضاً . ويروى عنه أنه رفض منصباً كبيراً مرتين ، ولما عرض عليه دوق — وبه رياسة الوزارة رد على رسول الملك رداً مقتضباً يدل على ما يتراءى للكاتب من أحلام فقال : « اذهب من هنا لساعتك ولا تدنسنى بوجودك ، لخير لى أن أسلى نفسى وأمتعها فى حفرة قذرة من أن أخضع للقواعد فى بلاط ملك من الملوك »[189] .

وبينما كان يصطاد السمك فى يوم من الايام إذ أقبل عليه رجلان من كبار الموظفين يحملان إليه رسالة من ملك خو يقول فيها : أريد أن أحملك عبء جميع ملكى » ، فأجابه چوَنج ، كما يقول هو نفسه ، دون أن يرفع نظره عن صيده .

« لقد سمعت أن فى خو صدفة سلحفاة كأنها روح من الأرواح ، وقد ماتت سلحفاتها منذ ثلاثة آلاف عام ، وأن الملك يحتفظ بهذه الصدفة فى معبد أسلافه ، وأنه يضعها فى سلة مغطاة بالقماش . فهل كان خيراً للسلحفاة أن تموت وتترك صدفتها تعظم على هذا النحو ؟ أو هل كان خيراً لها أن تظل حية تجر ذيلها من خلفها فى الوحل ؟ » فأجاب الموظفان الكبيران : « لقد كان خيراً لها أن تعيش وتجر ذيلها من خلفها فى الوحل » ؛ فقال لهما چونج : « اذهبا فى سبيلكما ، وسأظل أجر ذيلى ورائى فى الوحل »[190] .

(*) الجدرة تضخم الغدة الدرقية وهذا اللفظ من الألفاظ التى أقرها مجمع اللغة العربية . (المترجم)

وكان احترامه للحكومات يعدل احترام سلفه الروحى يو — دزه ، فكان يسره أن يشير إلى عدد مايتصف به الملوك والحكام من صفات اللصوص(١٩١). ويقول إنه إذا أدى الإهمال بأحد الفلاسفة الحقيقيين ، إلى أن يرى نفسه يتولى شئون إحدى الدول ، فإن الخطة المثلى التى يجب عليه أن يسلكها هى ألا يفعل شيئاً ، وأن يترك الناس أحراراً يضعون مايشاءون من نظم حكمهم الذاتى . « لقد سمعت عن ترك العالم وشأنه ، والكف عن التدخل فى أمره ، ولم أسمع عن حكم العالم »(١٩٢) ولم يكن ثمة حكومات فى العصر الذهبى الذى سبق عهد أقدم الملوك .

ولم يكن يو وشون خليقين بما حبتهما الصين وحباهما كنفوشيوس من تشريف وتعظيم ، بل كانا خليقين بأن يتهما بالقضاء على ما كانت الإنسانية تستمتع به من سعادة بدائية قبل إقامة نظم الحكم فى العالم : « لقد كان الناس فى عهد الفضيلة الكاملة يعيشون مجتمعين كما يعيش الطير والحيوان ، ولا يفترفون عنهما فى شىء ، تتألف منهم ومن جميع المخلوقات أسرة واحدة . وأنى لهم أن يعرفوا فيما بينهم ما يميز العظماء فيهم من غير العظماء ؟ »(١٩٣) .

ويرى چوانج أن من واجب الرجل العاقل أن يولى الادبار حين يشاهد اولى معالم الحكومة ، وأن يعيش أبعد مايستطيع عن الفلاسفة والملوك ، ينشد السلام والسكون فى الغابات (وذلك موضوع جد آلاف من المصورين الصينيين فى رسمه) وأن يترك كيانه كله يتبع الدو المقدس — قانون حياة الطبيعة ومجراها الذى لا تدركه العقول — من غير أن يعوقه عن ذلك تفكير أو تدبير ، لا يتكلم إلا قليلا لأن الكلام يضل بقدر ما يهدى ، ولأن الدو — طريقة الطبيعة وجوهرها — لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ أو صياغته فى أفكار ، بل كل ما فى الأمر أنه يمكن الشعور به فى الدم . وهو يرفض أن يستعين بالآلات ويؤثر عليها الطرق القديمة المجهدة التى كان يجرى عليها بسطاء الرجال ، وذلك لأن الآلات تؤدى إلى التعقيد والفتنة وعدم المساواة بين الناس ؛ وليس فى مقدور أى إنسان

أن يعيش بين الآلات ويستمتع بالسلام[١٩٤] . وهو يأبى أن يكون له مِلك خاص ولا يجد بالذهب نفعاً له فى حياته ؛ ويفعل ما فعله تَيْمُن[*] الأثينى فيترك الذهب مخبوءاً فى جوف التلال واللآلئ فى أعماق البحار . والذى يمتاز به من غيره أنه يفهم أن الأشياء جميعها تخص خزانة واحدة ، وأن الموت والحياة يجب أن ينظر إليهما نظرة واحدة »[١٩٥][**] ، — على أنهما نغمتان من أنغام الطبيعة المتناسقة ، أو موجتان فى بحر واحد .

وكان الأساس الذى يقوم عليه تفكير چونج عين الأساس الذى يقوم عليه تفكير لو — دزه شبه الأسطورى . وكان تفكير لو — دزه هذا يبدو لچونج أعمق كثيراً من تفكير كنفوشيوس ، وكان فى جوهره النظرة الصوفية لوحدة الكون غير الشخصية الشبيهة شبهاً عجيباً بنظرة بوذا وأتباع أپانيشاد ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن فلسفة ما وراء الطبيعة الهندية قد تسربت إلى الصين قبل أربعمائة عام من ظهور البوذية فيها حسبما يسجله المؤرخون . نعم إن چونج فيلسوف لا أدرى ، جبرى ، من القائلين بالحتمية ومن المتشائمين ، ولكن هذا لا يمنعه أن يكون قديساً متشككاً ، ورجلا أسكرته الدرية ؛ وهو يعبر عن تشككه هذا تعبيراً يميزه من غيره من أمثاله فى القصة الآتية :

قال شبه الظل يوماً ما للظل[†] « إنك تارة تتحرك وتارة تثبت فى مكانك ، تارة تجلس وتارة تقوم ، فلِمَ هذا التذبذب فى القصد وعدم الاستقرار فيه ؟ » فأجابه الظل بقوله : « إن شيئاً أعتمد عليه هو الذى يجعلنى أفعل ما أفعله ،

(*) شخصية معروفة من شخصيات شيكسبير فى إحدى مسرحياته المسماة بهذا الاسم . اقرأ وصف هذه الشخصية فى كتابنا « قصص من شيكسبير » . (المترجم)

(**) ما أشبه هذا بقول حكيم المعرة :

وشبيه صوت النعى إذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد (المترجم)

(†) شبه الظل فى الخسوف هو الجزء النصف المضاء بين الظل وبين الضوء . ولعل چونج يقصد بالظل فى قصته جسم الإنسان الذى يستنطقه العقل المستتر بعض الاستتارة . (المترجم)

ولكن هذا الشيء نفسه يعتمد على شيء آخر يضطره إلى أن يفعل هو الآخر ما يفعله ... وأنى لى أن أعرف لم أفعل هذا الشيء ولا أفعل ذاك ؟ ... إن الجسم إذا بلى بلى العقل معه ؛ ألا ينبغى لنا أن نقول إن هذه حال يرثى لها كثيراً ؟ ... إن ما يحدث فى الأشياء كلها من تغيير — وجود ثم عدم — يسير (بلا انقطاع) ؛ ولكننا لا نعرف منذا الذى يُسيِّر هذه الحركة فى طريقها على الدوام : وأنى لنا أن نعرف متى يبدأ الواحد منا ؟ وأنى لنا أن نعرف متى ينتهى ؟ إن كل ما فى وسعنا أن ننتظر هذه البداية والنهاية ، لا أكثر من هذا ولا أقل »[١٩٦] .

ويظن جونج أن هذه المشاكل إنما تنشأ من قصور تفكيرنا أكثر مما تنشأ من طبيعة الأشياء نفسها . فلا عجب والحالة هذه أن تنتهى الجهود التى تبذلها عقولنا الحبيسة لفهم العالم الأكبر الذى تكون هى جزيئات صغيرة منه ، لا عجب أن تنتهى هذه الجهود بالمتناقضات والقوانين المتعارضة . ولقد كانت هذه المحاولة التى ترمى إلى تفسير الكل باصطلاحات الجزء إسرافاً فى التطاول والاعتداد بالنفس ، لا نجيزها إلا لما فيها من تسلية وفكاهة ؛ لأن الفكاهة كالفلسفة ، هى النظر إلى الكل بمصطلحات الجزء ، وكلاهما لا يمكن وجوده بغير الآخر .

ويقول جونج — دزه إن العقل لا يفيد فى فهم الأشياء النائية أو أى شيء عميق كنمو الطفل مثلا . « وليس الجدل إلا دليلا على عدم وضوح الرؤيا » ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الدَّو « فعليه أن يكبت عليه أشد الكبت »[١٩٧] إن من واجبنا أن ننسى نظرياتنا ونشعر بالحقائق ؛ وليس التعليم بنافع لنا فى هذا الفهم ، وأهم شيء فى هذا أن نلتقى بأنفسنا فى غمرات الطبيعة .

وما هو الدَّو الذى يراه الصوفى المحظوظ النادر الوجود ؟ إنه شيء لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ ؛ وكل ما نستطيع أن نصفه به فى عبارات ضعيفة ملأى

بالمتناقضات هو قولنا إنه وحدة الأشياء كلها وانسيابها المادى من نشأتها إلى كمالها ، والقانون الذى يسيطر على هذا الانسياب .

« ولقد كان موجوداً ثابتاً منذ الأزل قبل أن توجد السماء والأرض »[١٩٨] وفى هذه الوحدة العالية تتلاشى كل المتناقضات ، وتزول كل الفروق ، وتتلاقى كل الأشياء المتعارضة ؛ وليس فيه ولا فى نظرته إلى الأشياء طيب أو خبيث ، ولا أبيض أو أسود ، ولا جميل أو قبيح(*) ، ولا عظيم أو حقير . وإذا عرف الإنسان أن العالم صغير كحبة الخردل ، وأن طرف الشعرة لا يقل فى الارتفاع عن قمة الجبل ، أمكن أن يقال عنه إنه يعرف النسبة بين الأشياء »[٢٠٠] . وفى هذا الشكل المبهم الغامض لا يدوم شكل من الأشكال ، وليس فيه صورة فذة لا تنتقل إلى صورة أخرى فى دورة التطور التى تسير على مهل :

« إن بذور (الأشياء) دقيقة ولا حصر لها . وهى تكون على سطح الماء نسيجاً غشائيا . فإذا وصلت إلى حيث تلتقى الأرض والمياه اجتمعت وكونت (الحزاز الذى يكون) كساء الضفادع والحيوانات الصوفية . فإذا دبت فيها الحياة على التلال والمرتفعات صارت هى الطلح ؛ فإذا غذاها السماد أضحت نبات عش الغراب . ومن جذور عش الغراب ينشأ الدود ، ومن أوراقه ينشأ الفراش ثم يستحيل الفراش حشرة — وتعيش تحت موقد . ثم تتخذ الحشرة صورة اليرقة ، وبعد ألف عام تصبح اليرقة طائراً . . . ثم تتحد الينجشى مع خيزرانة فينشأ من اتحادها الخنج — تنج ؛ ومنه ينشأ النمر ، ومن النمر ينشأ الحصان ، ومن الحصان ينشأ الإنسان . فالإنسان جزء من آلة (التطور) العظيمة ، التى تخرج منها جميع الأشياء ، والتى تدخل فيها بعد موتها »[٢٠١] .

لا ننكر أن هذه الأقوال ليس فيها من الوضوح ما فى نظرية دارون

(*) « كانت شى — شيه امرأة جميلة ، ولكن لما انعكست ملامحها فى الماء فرت منها الأسماك خائفة »[١٩٩] .

ولكنها أيًا ما كان غموضها نظرية تطور .

« وفى هذه الدورة اللانهائية قد يستحيل الإنسان إلى صور أخرى غير صورته ؛ ذلك أن صورته الحالية ليست إلا مرحلة عابرة من مراحل الانتقال ، وقد لا تكون فى سجل الخلود حقيقة إلا فى ظاهر أمرها — أو جزءا من الفوارق الخداعة التى تُغَشِّى بها مايا جميع الكائنات[٢٠١] .

« رأيت أنا چوانج — دزه مرة فى منامى أنى فراشة ترفرف بجناحيها فى هذا المكان وذاك ، أنى فراشة حقًا من جميع الوجوه . ولم أكن أدرك شيئًا أكثر من تتبعى لخيالاتى التى تشعرنى بأنى فراشة . أما ذاتيتى الإنسانية فلم أكن أدركها قط . ثم استيقظت على حين غفلة وها أنذا منطرح على الأرض رجلا كما كنت ، ولست أعرف الآن هل كنت فى ذلك الوقت رجلا يحلم بأنه فراشة ، أو أننى الآن فراشة تحلم بأنها رجل[٢٠٢] » .

وليس الموت فى رأيه إلا تغيراً فى الصورة ، وقد يكون تغيراً من حال إلى حال أحسن منها ؛ أو أنه كما قال إبسن Ibsen فيما بعد الصائغ الذى يصهرنا مرة أخرى فى أتون التغير والتطور :

« مرض تزه — لاى حتى أصبح طريح الفراش يلفظ آخر أنفاسه ، ووقف من حوله زوجه وأبناؤه يبكون ، وذهب لى يسأل عنه فلما أقبل عليهم قال لهم : « اسكتوا وتنحوا عن الطريق ! ولا تقلقوه فى حركة تبدله » ... ثم اتكأ على الباب وتحدث إلى (الرجل المحتضر) . فقال له تزه — لاى : « إن صلة الإنسان بالين واليانج أقوى من صلته بأبويه . فإذا كانا يتعجلان موتى وأعصى أنا أمرهما ، فإنى أعد حينئذ عاقًا شرسًا . هنالك « كتلة (الطبيعة) العظمى » التى تجعلنى أحمل هذا الجسم ، وأكافح فى هذه الحياة ، وتهد قواى فى سن الشيخوخة ، ثم أستريح بالموت . وإذن فذلك الذى يعنى بمولدى هو الذى يعنى بوفاتى . فها هو ذا صاهر يصهر المعادن . فإذا كان المعدن الذى يتأرجح

أثناء صبه يناديه : « يجب أن أكون مويه (سيفاً قديماً مشهوراً) فإن الصاهر العظيم يعد هذا المعدن معدناً خبيثاً بلا ريب . وذلك أيضاً شأن الإنسان ، فإذا ما أصر على أن يكون إنساناً ولا شيء غير إنسان ، لأنه في يوم من الأيام قد تشكل في صورة الإنسان ، إذا فعل هذا فإن من بيده تصوير الأشياء وتشكيلها سيعده بلا ريب مخلوقاً خبيثاً . وإذن فلننظر إلى السماء والأرض نظرتنا إلى مصهر عظيم ، ولننظر إلى مبدل الأشياء نظرتنا إلى صاهر عظيم ؛ فهل لا نكون في مكاننا الحق أينما ذهبنا ؟ إن السكون هو نومنا والهدوء هو يقظتنا »[٢٠٣] .

ولما تصرم أجل چونج نفسه أعد أتباعه له جنازة فخمة ، ولكنه نهاهم عن ذلك وقال لهم : « أليس موكب لجنازتي معداً إذا كانت السماء والأرض تابوتي وغطائي ، والشمس والقمر والنجوم شعائري ، والخلائق كلها تشيعني إلى قبري؟ » ولما عارض أتباعه في هذا ، وقالوا إنه إن لم يدفن أكلت طيور الهواء الجارحة لحمه ، رد عليهم چونج بقوله : « سأكون فوق الأرض طعاماً للحِدأ ، وسأكون تحتها طعاماً لصراصير الطين والنمل ؛ فلم تحرمون بعضها طعامها لتقدموه للبعض الآخر ؟ »[٢٠٤]

وإذا كنا قد أطنبنا في الكلام على فلاسفة الصين الأقدمين فإن بعض السبب في هذا يرجع إلى أن مشكلات الحياة الإنسانية المعقدة العسيرة الحل ومصائرها تستغرق تفكير العقل الباحث ، وأن بعضه الآخر يرجع إلى أن علم فلاسفة الصين الأقدمين هو أثمن تراث خلفته تلك البلاد للعالم . ومن الدلائل القوية على قدر هذه الفلسفة أن ليبنتز Leibntiz صاحب العقل العالمي الواسع ، قام من زمن بعيد (في عام ١٦٩٧) ، بعد أن درس الفلسفة الصينية ، ينادي بضرورة تطعيم فلسفة الشرق والغرب كلتيهما بالأخرى ، وعبر عن رأيه هذا بألفاظ ستظل محتفظة بقيمتها في كل عصر ولكل جيل :

« إن الأحوال السائدة بيننا وما استشرى في الأرض من فساد طويل

العهد تكاد كلها تحملني على الاعتقاد بأن الواجب أن يرسل إلينا مبشرون صينيون ليعلمونا أساليب الأديان القومية وأهدافها ... ذلك بأني أعتقد أنه لو عين رجل حكيم قاضيا ... ليحكم أي الشعوب أفضل أخلاقا من سواها ، لما تردد في الحكم للصين بالأسبقية في هذا المضمار »[٢٠٥] . وقد طلب ليبنتز إلى بطرس الأكبر أن ينشئ طريقا بريا للصين ، ودعا إلى إنشاء جمعيات في مسكو وبرلين « لارتياد الصين وتبادل المدنيتين الصينية والأوربية »[٢٠٦] . وفي عام ١٧٢١ بذل كرستيان ولف Christian Wolff[*] مجهوداً آخر في هذه السبيل ، وذلك بما ألقاه من محاضرات في جامعة هال Halle « عن فلسفة الصينيين العلمية » ، واتهمه ولاة الأمور بالإلحاد وفصلوه من منصبه ؛ فلما أن جلس فردرك الأكبر على عرش بروسيا دعاه إليها ورد إليه اعتباره[٢٠٧] .

وجاء عصر الاستنارة في فرنسا فعني بالفلسفة الصينية ، كما عني بتنسيق الحدائق الفرنسية على نمط الحدائق الصينية ، وتزيين المنازل بالنقوش والأدوات الصينية . ويلوح أن الفلاسفة الاقتصاديين الطبيعيين (الفزيوقراطيين) قد تأثروا بآراء لو — دزه ، وجوانج — دزه في نظرية « التخلي » Laissez faire وترك الأمور تجري في مجراها ، وهي النظريه الاقتصادية التي يقولون بها ويدعون إليها[٢٠٨] . ولقد كان روسو يتحدث في بعض الأحيان كما يتحدث المعلم القديم[**] وإنا لنتبين صلة وثيقة بينه وبين لو — دزه وجوانج ، ولو أن كنفوشيوس

(*) فيلسوف وعالم رياضي ألماني (١٦٧٩ — ١٧٥٤) .

(**) مثال ذلك : « أن الترف والفجور والاسترقاق كانت على الدوام سوط العذاب الذي يصب على الجهود الطموحة التي بذلناها لنخرج من الجهل السعيد الذي وضعتنا فيه الحكمة الأزلية » . ويرى الأستاذ إلبرت تومس Elbert Thomas (عضو مجلس الشيوخ الأمريكي الآن) الذي نقل هذه العبارة من كتاب « أحاديث عن تقدم العلوم والفنون » (Discourses on the Progress of Sciences and Arts) أن لفظ « الحكمة الأزلية » خير ترجمة « للسوية الأزلية » التي وردت على لسان لو — دزه[٢٠٩] .

ومنشيس قد وهبا ملكة الفكاهة لكانت الصلة وثيقة بينهما وبين فلتير . وفى هذا يقول فلتير نفسه : « لقد قرأت كتب كنفوشيوس بعناية ، واقتبست فقرات منها ، ولم أجد بها إلا أنقى للبادئ الخلقية التى لا تشوبها أقل شائبة من الشعوذة »(٢١٠) . وقد كتب جيته فى عام ١٧٧٠ يقول إنه اعتزم أن يقرأ كتب الصين الفلسفية القديمة ، ولما دوت مدافع نصف العالم فى ليبزج Leipzig بعد ثلاثة وأربعين عاماً من ذلك الوقت لم يلتفت إليها الحكيم الشيخ لأنه كان منهمكا فى دراسة الآداب الصينية(٢١١) .

ولعل هذه المقدمة القصيرة غير العميقة تحفز القارئ إلى متابعة دراسة الفلاسفة الصينيين أنفسهم كما درسهم جيته وفلتير وتولستوى .

الباب الرابع والعشرون

عصر الشعراء

الفصل الأول

بسمرك الصين

عهد الدول المتنازعة – انتحار تشوپنج – شى هونج – دى يوحد الصين – السور الكبير – « إحراق الكتب » – إخفاق شى هونج – دى

أكبر الظن أن كنفوشيوس مات يائساً ، لأن الفلاسفة يحبون توحيد البلاد ، ولأن الأمة التى حاول أن يوحّدها تحت حكم أسرة قوية ظلت سادرة فى الفوضى والفساد والانقسام . ولما أن ظهر هذا الموحد العظيم فى آخر الأمر واستطاع بعبقريته الحربية والإدارية أن يؤلف من دويلات الصين دولة واحدة أمر بأن يحرق كل ما كان باقياً من كتب كنفوشيوس .

وفى وسعنا أن نحكم على الجو الذى كان يسود « عهد الدول المتنازعة » من قصة تشوپنج ، وهو رجل بدأ نجمه يلمع فى سماء الشعر ، حتى سما إلى مركز عظيم فى وظائف الدولة ، ثم ألفى نفسه وقد طرد من منصبه على حين غفلة ، فاعتزل الحياة العامة ولجأ إلى الريف ، وأخذ يفكر فى الحياةِ والموت إلى جانب غدير هادئ ، وسأل متنبئاً من المتنبئين :

« هل ينبغى لى أن أواصل السير فى طريق الحق والوفاء ، أو أسير فى ركاب جيل فاسد ضال ؟ هل أعمل فى الحقول بالفأس والجرف أو أسعى للرقى فى حاشية عظيم من العظماء ؟ هل أعرض نفسى للخطر بما أنطق به من صريح اللفظ أو أتذلل بالنغم الزائف للأثرياء والعظماء ؟ وهل أظل قانعاً راضياً بنشر الفضيلة

أو أمارس فن مصانعة النساء كى أنال النجاح ؟ هل أكون نقى السريرة ، طاهر اليد صالحاً مستقيماً ، أو أكون معسول الكلام ، مذبذباً ، متزلفاً ، نهازاً للفرص ؟ »[1].

وتخلص الرجل من هذه المشكلة العويصة بالانتحار غرقاً (حوال ٣٥٠ قبل الميلاد) . ولا يزال الصينيون حتى يومنا هذا يحيون ذكراه فى كل عام ، ويحتفلون بهذه الذكرى فى يوم عيد القارب الكبير وهو اليوم الذى ظلوا يبحثون فيه عن جثته فى كل مجرى من المجارى المائية .

وكان الرجل الذى وحّد الصين من أصل وضيع هو أدنأ الأصول التى استطاع المؤرخون الصينيون أن يخترعوها . فهم يقولون لنا إن شى هونج — دى كان ابناً غير شرعى للملكة تشين (إحدى الولايات الغربية) من الوزير النبيل « لو » ، وهو الوزير الذى اعتاد أن يعلق فوق باب داره ألف قطعة من الذهب جائزة لمن يستطيع أن يصلح كلة واحدة من كتاباته[2] (ولم يرث ابنه عنه هذا الذوق الأدبى الممتاز) .

ويقول زوماتشين إن شى اضطر والده إلى الانتحار واضطهد والدته ، وجلس على كرسى الإمارة وهو فى الثانية عشرة من عمره . ولما أن بلغ الخامسة والعشرين بدأ يفتح البلاد ويضم الدويلات التى كانت الصين منقسمة إليها من زمن بعيد ؛ فاستولى على دولة هان فى عام ٢٣٠ ق . م ، وعلى چو فى عام ٢٢٨ وعلى ويه فى عام ٢٢٥ ، وعلى تشو فى عام ٢٢٣ ، وعلى ين فى عام ٢٢٢ ؛ واستولى أخيراً على دولة تشى المهمة فى عام ٢٢١ ؛ وبهذا خضعت الصين لحكم رجل واحد لأول مرة منذ قرون طوال ، أو لعل ذلك كان لأول مرة فى التاريخ كله . ولقب الفاتح نفسه باسم شى هونج — دى ، ثم وجه همه إلى وضع دستور ثابت دائم لإمبراطوريته الجديدة .

أما أوصاف هذا الرجل الذى يعده المؤرخون الصينيون عدوهم الألد ،

فكل ما خلقوه لنا منها هو قولهم إنه كان « رجلا كبير الأنف ، واسع العينين ، ذا صدر كصدر الطائر الجارح ، وصوت شبيه بصوت ابن آوى ، لا يفعل الخير ، له قلب كقلب النمر أو الذئب »[٣] . وكان قوى الشكيمة عنيداً لا يحول عن رأيه ، ولا يعترف بالألوهية إلا لنفسه ، اجتمعت فيه عقائد نتشة وبسمرك ، وعقد العزم على أن يوحد بلاده بالدم والحديد . ولما وحد بلاد الصين وجلس على عرشها كان أول عمل قام به أن حمى بلاده من الهمج البرابرة المجاورين لحدودها الشمالية ، وذلك بأن أتم الأسوار التى كانت مقامة من قبل عند حدودها ، وصلها كلها بعضها ببعض . وقد وجد فى أعدائه المقيمين فى داخل البلاد مورداً سهلا يستمد منه حاجته من العمال لتشييد هذا البناء العظيم الذى يعد رمزاً لمجد الصين ودليلا على عظيم صبرها . ويبلغ طول السور العظيم ألف وخمسمائة ميل ، وتتخلله فى عدة أماكن منه أبواب ضخمة على النمط الأشورى ، وهو أضخم بناء أقامه الإنسان فى جميع عصور التاريخ ، ويقول عنه ڤلتير : « إن أهرام مصر إذا قيست إليه لم تكن إلا كتلاً حجرية من عبث الصبيان لا نفع فيها »[٤] . وقد احتاج تشييده إلى عشر سنين وإلى عدد لا يحصى من الخلق ؛ ويقول الصينيون إنه « أهلك جيلا من الناس ، وأنقذ كثيراً من الأجيال » . على أنه لم يصد الهمج عن الصين كما يتبين لنا ذلك فيما بعد ، ولكنه عطل هجومهم عليها وقلل من حدته . وحال بين الهون وبين إغارتهم على أرض الصين زمناً ما ، فاتجهوا غرباً إلى أوربا ، ثم اجتاحوا بلاد إيطاليا ، وسقطت رومة فى أيديهم لأن الصين أقامت سورها العظيم .

ثم ترك شى هوانج — دى ، وهو مغتبط مسرور ، شؤون الحرب ووجه عنايته ، كما وجهها نابليون من بعده ، إلى شؤون الإدارة ، ووضع القواعد العامة التى قامت عليها الدولة الصينية فى المستقبل . وعمل بمشورة لى — سيو ، المشترع الكبير ورئيس وزرائه ، فاعتزم ألا يقيم المجتمع الصينى على العادات المألوفة وعلى

الاستقلال المحلى للولايات ، بل اعتزم أن يقيمه على قواعد القانون الصريح وعلى الحكومة المركزية القوية . ولذلك قضى على قوة أمراء الإقطاع ، واستبدل بهم طائفة من كبار الموظفين تعيّنهم الوزارة القومية فى مناصبهم ، وأقام فى كل مركز من المراكز حامية عسكرية مستقلة عن الحاكم المدنى ، وسن للبلاد قوانين وأنظمة موحدة ، وبسّط الاحتفالات الرسمية ، وسك عملة للدولة ، وجزّأ معظم الضياع الإقطاعية ، ومهد السبيل لرخاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية ، ولوحدتها القوية بإنشاء الطرق الكبيرة الممتدة من هين — يانج عاصمة ملكه إلى جميع أطرافإمبراطوريته . وجمّل العاصمة بما أقامه فيها من القصور الكثيرة ، وأقنع أغنى أسر الدولة وأقواها سلطاناً البالغ عددها ١٢٠٠٠٠ أسرة بأن تعيش فى هذه العاصمة تحت إشرافه ورقابته . وكان يسير فى البلاد متخفياً ومن غير حرس ، يتفقد أحوالها ويتعرف ما فيها من خلل وفساد وسوء نظام ، ثم يصدر الأوامر الصريحة لإصلاح هذه العيوب ، وقد شجع العلم وقاوم الأدب(٥) .

ذلك أن رجال الأدب من شعراء ، ونقدة ، وفلاسفة بوجه عام ، وطلاب الفلسفة الكنفوشية بنوع خاص ، كانوا أعدى أعدائه . فقد كانوا يتبرمون بسيطرته القوية الشاملة ، وكانوا يرون أن إنشاء حكومة مركزية عليا سيقضى لا محالة على تباين أساليب التفكير والحياة وحريتهما .

وقد كان هذا التباين وتلك الحرية مصدر الانتعاش الأدبى طوال عهد الحروب والانقسامات أيام أسرة چو . فلما أقبل هؤلاء العلماء على شى هونج — دى يحتجون عليه لإغفاله الاحتفالات القديمة رد عليهم رداً جافاً وأمرهم ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم(٦) . وجاء وفد من كبار العلماء الرسميين يعرضون عليه أنهم قد أجمعوا رأيهم على أن يطلبوا إليه إعادة النظام الإقطاعى بتوزيع الضياع على أقاربه ؛ وأضافوا إلى ذلك قولهم : « لم يحدث قط فيما وصل إلى علمنا أن إنساناً لم يترسم خطوات أسلافه الأقدمين فى أمر من الأمور ودام عمله طويلا »(٧) . فرد عليهم

لى سيو رئيس الوزراء ، وكان وقتئذ يعمل على إصلاح الحروف الهجائية الصينية ويضعها فى الصورة التى تكاد تحتفظ بها إلى يومنا هذا ، رد عليهم بخطبة تاريخية لا ترفع من شأن الآداب الصينية قال :

« إن الملوك الخمسة لم يفعل كل منهم ما فعله الآخر ، وإن الأسر المالكة الثلاث لم تحذ إحداها حذو الأخرى ؛ ... ذلك أن الأيام قد تبدلت . والآن قد قمتم جلالتكم لأول مرة بعمل جليل ، وأسستم مجداً سيدوم مدى عشرة آلاف جيل . لكن الحكام الأغبياء عاجزون عن فهم هذا العمل ... لقد كانت الصين فى الأيام الخالية مضطربة منقسمة على نفسها ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يوحدها ؛ ومن أجل هذا ساد النبلاء جميعاً وقويت شوكتهم ؛ وهؤلاء النبلاء جميعاً تدور أحاديثهم كلها حول الأيام الخطية ليعيبوا هذه الأيام ... وهم يشجعون الناس على اختراع التهم الباطلة ، فإذا ترك لهم الحبل على الغارب ؛ فسينحط مقام الملك فى أعين الطبقات العليا ، وستنتشر الأحزاب والفرق بين الطبقات السفلى .

«ولهذا اقترح أن تحرق التواريخ الرسمية جميعها عدا «مذكرات تشين ، وأن يرغم الذين يحاولون إخفاء الشى — جنج ، والشو — جنج[*] ومحاورات المدارس المائة على أن يأتوا بها إلى ولاة الأمور لإحراقها[٨] » .

وأعجب الإمبراطور إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وأصدر الأمر بتنفيذ هذا الطلب ، وجيء بكتب المؤرخين من كل مكان وألقيت فى النار حتى يرفع عبء الماضى عن كاهل الحاضر ؛ وحتى يبدأ تاريخ الصين من عهد شى هونج — دى . ويلوح أن الكتب العلمية ومؤلفات منشيس قد نجت من النيران ، وأن كثيراً من الكتب المحرمة قد احتفظ بها فى دار الكتب الإمبراطورية حيث يستطيع الرجوع إليها الطلاب الذين يجيز لهم الإمبراطور هذا الاطلاع[٩] . وإذ كانت

(**) انظر ص ٤٩ من هذا الكتاب .

الكتب فى تلك الأيام تكتب على شرائح من الخيزران يشد بعضها إلى بعض بمشابك متحركة ، وإذ كان المجلد الواحد لهذا السبب كبير الحجم ثقيل الوزن ، فإن العلماء الذين حاولوا إخفاء هذه الكتب قد لاقوا عناء كبيراً ، وكشف أمر بعضهم ، وتقول الروايات إن كثيرين منهم أرسلوا للعمل فى بناء السور الكبير ، وإن أربعمائة وستين منهم أعدموا[١٠] . ولكن بعض الأدباء حفظوا مؤلفات كنفوشيوس كلها عن ظهر قلب ، ولقنوها لحفاظ مثلهم ، فلما أن توفى الإمبراطور عادت هذه الكتب من فورها إلى الظهور والانتشار ، وإن كان كثير من الأغلاط قد تسرب فى أكبر الظن إلى نصوصها . وكل ما كان لهذا التحريم من أثر خالد أن خلع على الآداب المحرمة هالة من القداسة ، وأن جعل شى هونج — دى مبغضاً إلى المؤرخين الصينيين ، وظل الناس أجيالا طوالا يعبرون عن عقيدتهم فيه بتدنيس قبره[١١] .

وكان من أثر القضاء على الأسر القوية وعلى حرية الكتابة والخطابة أن أمسى شىَ فى شيوخته لا نصير له ولا معين . وحاول أعداؤه عدة مرار أن يغتالوه ، ولكنه كان يكشف أمرهم فى الوقت المناسب ويقتل بيده من يحاولون قتله . وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ، ولا يسمح لأحد أن يعرف فى أية حجرة من حجرات قصوره الكثيرة ينام ليله[١٢] . وقد حاول كما حاول الإسكندر من بعده أن يقوى أسرته بما يذيعه فى الناس من أنه إله ، ولكنه أخفق فى غرضه هذا كما أخفق الإسكندر لأنه لم يستطع أن يقنع الناس بما بينه وبين الآلهة من شبه . وأصدر أمراً بأن يطلق عليه خلفاؤه « الإمبراطور الأول » وأن يضعوا هم لأسمائهم أرقاماً مسلسلة من بعده تنتهى بالإمبراطور المتمم لعشرة آلاف من نسله ، ولكن أسرته قضى عليها بموت ولده . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين الذين كانوا يبغضونه فإنه صار فى شيخوخته يؤمن بالخرافات ، وينفق الأموال الطائلة فى البحث عن إكسير الخلود . ولما

مات جيء بجسمه سرا إلى عاصمة ملكه ، وقد نقلته إليها قافلة تحمل السمك النتن حتى تختفى بذلك رائحته الكريهة ، ويقال إن بضعة آلاف من الفتيات قد دفن معه ليؤنسنه فى قبره ، وإن خلفه أراد أن يظهر اغتباطه بموته فنثر الأموال على قبره ، وأنفق الكثير منها فى تزيينه ، فنقشت على سقفه أبراج النجوم ، وصورت على أرضه خريطة للإمبراطورية بالزئبق فوق أرضية من البرنز ، وأقيمت فى القبة آلات تقتل من نفسها كل من يعتدى على حرمة القبر ، وأشعلت فيه شموع ضخمة لكى تضىء أعمال الإمبراطور الميت وأعمال ملكاته إلى أمد غير محدود . أما العمال الذى حملوا التابوت إلى القبر فقد دفنوا فيه أحياء مع حملهم خشية أن يكشفوا للناس عن الطريق السرى المؤدى إلى المدفن[١٤]

الفصل الثانى

تجارب فى الأشتراكية

الفوضى والفقر – أسرة هان – إصلاحات وودى – ضريبة الدخل – مشروعات وانج مانج الاقتصادية – القضاء عليها – غزو التتار

وأعقب موته عهد من الفوضى والاضطراب كما تعقب الفوضى والاضطراب موت الطغاة جميعهم تقريباً فى أحقاب التاريخ كلها . ذلك أن ليس فى وسع إنسان أيا كان أن يجمع السلطة كلها فى يده ويحسن التصرف فيها . وثار الشعب على ابنه وقتله بعد أن قتل هو لى سيو بقليل ، وقضى على أسرة تشين ، ولما يمض على وفاة مؤسسها أكثر من خمس سنين . وأقام الأمراء المتنافسون ممالك متنافسة متعادية وساد الاضطراب من جديد . ودامت هذه الحال حتى اغتصب العرش زعيم عسكرى مغامر مرتزق يدعى جو — دزو ، وأسس أسرة هان التى ظلت تحكم البلاد أربعمائة عام كاملة ، تخللتها فترات أنزلت فيها عن العرش ، وتبدلت فيها العاصمة مرة واحدة(*) . وأعاد ون — دى (١٧٩ — ٥٧ ق . م) إلى الشعب حرية القول والكتابة ، وألغى المرسوم الذى حرم به شى هونج — دى انتقاد الحكومة ، وجرى على سياسة السلم ، وابتدع العادة الصينية المأثورة عادة هزيمة قائد جيش العدو بتقديم الهدايا إليه(١٥) .

وكان وو — دى أعظم الأباطرة من أسرة هان ؛ وقد حكم البلاد زهاء نصف قرن (١٤٠ — ٨٧ ق . م) وصد البرابرة المغيرين ، وبسط حكم الصين على

(*) كانت عاصمة أسرة « هان الغربية » مدينة لويانج ، وهى مدينة هونان فو الحالية وقد دام حكمها من ٢٠٦ ق . م إلى ٢٤ ب . م . أما أسرة « هان الشرقية » فقد حكمت من ٢٤ إلى ٢٢١ ب . م ، وكانت عاصمتها مدينة تشانجان وهى مدينة سيان فو الحالية . ولا يزال الصينيون إلى اليوم يسمون أنفسهم « أبناء هان » .

كوريا ومنشوريا وأنام ، والهند الصينية والتركستان ، وشملت الصين — لأول مرة فى التاريخ جميع الأقاليم الشاسعة التى تعوّدنا أن نقرنها باسمها . وأخذ وو — دى يقوم بتجارب فى الاشتراكية ، فجعل موارد الثروة الطبيعية ملكا للأمة ، وذلك ليمنع الأفراد «أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار، ليجنوا من ورائها الأموال الطائلة ، ويخضعوا لهم الطبقات الدنيا »[١٦] . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخمور وبيعها . وأراد وو — دى — كما يقول معاصره زوماتشين — أن يقضى على سلطان الوسطاء والمضاربين « الذين يشترون البضائع نسيئة ، ويعقدون القروض، والذين يشترون ليكدسوا مايشترونه فى المدن، والذين يخزنون كل أنواع السلع » ، فأنشأ نظاما قوميا للنقل والتبادل تشرف عليه الدولة ، وسعى للسيطرة على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفجائى . فكان عمال الدولة هم الذين يتولون شئون نقل البضائع وتوصيلها إلى أصحابها فى جميع أنحاء البلاد . وكانت الدولة نفسها تخزن ما زاد من السلع على حاجة الأهلين ، وتبيعها إذا أخذت أثمانها فى الارتفاع فوق ما يجب ؛ كما كانت تشتريها إذا انخفضت الأسعار ، وبهذه الطريقة كان « أغنياء التجار وأصحاب المتاجر الكبيرة يمنعون من أن يجنوا الأرباح الطائلة ... وكانت الأسعار تنتظم وتتوازن فى جميع أنحاء الإمبراطورية »[١٧] . وكان دخل الأفراد كله يسجل فى سجلات حكومية وتؤدى عنه ضريبة مقدارها خمسة فى المائة . وكان الأمير يسك النقود المصنوعة من الفضة مخلوطة بالقصدير لتكثر فى أيدى الناس فيسهل عليهم شراء البضائع واستهلاكها . وشرع يقيم المنشآت العامة العظيمة ليوجد بذلك عملا لملايين الناس الذين عجزت الصناعات الخاصة عن استيعابهم ، فأنشئت الجسور على أنهار الصين وحفرت قنوات لا حصر لها لربط الأنهار بعضها ببعض وإرواء الحقول[١٨] (*)

(*) ويقول جرانت فى هذا : « لقد كان هذا انقلابا كاملا . ولو كان للإمبراطور أعوان من طرازه لاستطاع أن ينتفع بهذا ويخلق من الصين دولة ذات مجتمع من طراز جديد ... ولكن الإمبراطور لم يكن يرى إلا الضرورات الماسة العاجلة ، ويحيل إلينا أنه لم يكن =

وازدهر النظام الجديد وأفلح إلى حين ، وراجت التجارة، وكثرت البضائع وتنوعت ، وارتبطت الصين مع الأمم المجاورة لها ومع أمم الشرق الأدنى البعيدة عنها[٢٠] . وكثر سكان عاصمتها لو — يانج وزادت ثروتها وامتلأت خزائن الدولة بالأموال، وانتشر طلاب العلم فى كل مكان، وكثر الشعراء، وبدأ الخزف الصينى يتخذ منظراً جميلا جذاباً . وجمع فى المكتبة الإمبراطورية ٣٫١٢٣ مجلداً فى الأدب الصينى القديم، و ٢٫٧٠٥ فى الفلسفة ، و ١٫٣٨٨ فى الشعر، و ٢٫٥٦٨ فى الرياضيات ، و ٨٦٨ فى الطب ، و ٧٩٠ فى فنون الحرب[٢١] . ولم يكن أحد يعين فى مناصب الدولة إلا إذا اجتاز امتحاناً تضعه لهذا الغرض، وكانت هذه الامتحانات عامة يتقدم إليها كل من شاء . والحق أن الصين لم يمر بها عهد من الرخاء كالذى مر فى تلك الأيام .

ولكن طائفة من الكوارث الطبيعية مضافاً إليها خبث بنى الإنسان قضت على هذه التجربة الجريئة . فقد تعاقبت على البلاد سنون من الفيضان والجدب ارتفعت على أثرها أسعار السلع ارتفاعاً لم تقو الحكومة على وقفه . وتضايق الناس من غلو أثمان الطعام والكساء فصاحوا يطالبون بالعودة إلى الأيام الحلوة الماضية ، التى أضحت فى اعتقادهم خير الأيام وأكثرها رخاء، وأشاروا بأن يغلى مخترع النظام الجديد فى الماء وهو حى ، ونادى رجال الأعمال بأن سيطرة الدولة قضت على الابتكار الفردى السليم وعلى التنافس الحر ، وأبوا أن يؤدوا ما يلزم لهذه التجارب من الضرائب الباهظة التى كانت الحكومة تفرضها عليهم[١٢] . ودخلت النساء بلاط الإمبراطور وبسطن نفوذهن السرى على كبار

= يمكن إلا فى استخدام الوسائل المختلفة المرتجلة يوما بعد يوم — ثم يتركها إذا ما حصل منها على ما يبتغيه ؛ وبدت له قدعة بالية . وكان يضحى برجاله الجدد إذا ما تراءى له أنهم بلغوا من النجاح حدا يكسبهم من السلطان ما يخشى منه على نفسه . ومن أجل هذا فإن قلق الطاغية وقصر نظر المشترعين أضاعا على الصين فرصة ثمينة قلما تعود لتجعل من بلادها دولة موحدة مندمجة منظمة »[١٩]

الموظفين ، وأصبحن عنصراً هاما فى موجة من الفساد انتشرت فى طول البلاد وعرضها بعد وفاة الإمبراطور (٢٣). وأخذ المزيفون يقلدون العملة الجديدة ونجحوا فى تقليدها إلى حد اضطر الحكومة إلى سحبها من أيدى الناس ، وعادت الخطة القديمة خطة استغلال الضعفاء ، يسيطر عليها ويسيرها نظام جديد ، ومضى قرن من الزمان نسيت فيه إصلاحات وو دى أو أضحت مسبة له وعاراً .

وجلس على عرش الصين مصلح آخر فى بداية التاريخ المسيحى بعد أربعة وثمانين عاما من موت وودى ، وكان فى بادئ الأمر وصيا على العرش ثم أصبح فيما بعد إمبراطوراً . وكان هذا الإمبراطور وانج مانج من أرقى طراز وصل إليه الرجل الصينى الكامل المهذب ؛ وكان على غناء يعيش عيشة معتدلة بل عيشة مقتصدة ، ويوزع دخله على أقاربه وعلى الفقراء من أهل البلاد (*). وقد قضى جل وقته يكافح لإعادة النظام إلى أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية ، ولكنه مع ذلك وجد فسحة من الوقت لا لمناصرة الأدب والعلم فحسب بل للاشتغال بهما بنفسه حتى أصبح من أكمل الناس ثقافة وتهذيباً ؛ ولما جلس على سرير الملك لم يحط نفسه بما يحيط به الملوك أنفسهم من الساسة ، بل جمع حوله رجالا من الأدباء والفلاسفة ، وإلى هؤلاء الرجال يعزو أعداؤه أسباب إخفاقه ، وإليهم يعزو أصدقاؤه أسباب نجاحه .

وروع وانج مانج فى بداية حكمه انتشارُ الرق فى ضياع الصين الكبيرة ، فلم يكن منه إلا أن ألغى الرق وألغى الضياع بتأميم الأرض الزراعية ، فقسمها قطعاً متساوية ووزعها على الزراع ، ثم حرم بيع الأرض وشراءها ليمنع بذلك عودة الأملاك الواسعة إلى ما كانت عليه من قبل (٢٥). واحتفظ باحتكار الدولة للملح والحديد ، وأضاف إلى ذلك امتلاكها للمناجم وإشرافها على تجارة الخمور .

(*) إلا إذا صدقت الإشاعة التى انتشرت عقب وفاة الإمبراطور الغلام فى السنة الخامسة بعد الميلاد ، وهى أن أسرة وانج مانج قد سمته (٢٤) .

وحاول كما حاول وو دى أن يحمى الزراع والمستهلكين من جشع التجار بتحديد أثمان السلع . فكانت الدولة تشترى ما زاد على الحاجة من الحاصلات الزراعية وتبيعها إذا عزت وغلا ثمنها وكانت الحكومة تقدم القروض بفائدة منخفضة لكل مشروع إنتاجي(٣٦) .

لكن وانج لم يفكر فى خططه إلا من الناحية الاقتصادية ونسى طبائع الآدميين . فكان يعمل الساعات الطوال بالليل وبالنهار ليبتكر الخطط التى تزيد ثروة الأمة وأسباب سعادتها ، ولكنه أحزنه وأضرم قلبه أن وجد الاضطراب الاجتماعى ينتشر فى البلاد فى أثناء حكمه . فقد ظلت الكوارث الطبيعية كالفيضان والجدب تعطل مشروعاته الاقتصادية ، واجتمعت كل الطوائف التى قضت هذه المشروعات على مطامعها وأخذت تكيد له وتعمل لإسقاطه . فثار نقع الفتن فى البلاد يصلت سيفها الشعب فى الظاهر ، ولكن أكبر الظن أن القائمين بها كانوا يتلقون الأموال من مصادر عليا . وبينا كان وانج يكافح فيقلم أظفار هذه الفتن ، وقد ساءه كفر الشعب بفضله وجحوده بنعمته ، إذ أخذت الشعوب الخاضعة لسلطان الصين تشق عصا الطاعة ، كما أخذ برابرة الشيونج — نو يجتاحون الولايات الشمالية ، فأضعف ذلك كله من هيبة الإمبراطور

وتزعمت أسرة ليو الغنية ثورة عامة اندلع لهيبها فى البلاد ، واستولت على شانج — آن ، وقتلت وانج مانج ، وألغت جميع إصلاحاته ، وعاد كل شىء إلى ما كان عليه من قبل .

وجلس على العرش فى أواخر أيام أسرة هان جماعة من الأباطرة الضعاف خلف بعضهم بعضا ، وانتهى بهم عهد هذه الأسرة ؛ وأعقب ذلك عهد من الفوضى حكمت فى أثنائه أسر خاملة الذكر ، انقسمت البلاد فى أيامها إلى دويلات متعددة . وتدفق التتار على البلاد ولم يصدهم عنها السور الكبير ، واستولوا على مساحات واسعة من أجزائها الشمالية ، وكانت غارات هؤلاء التتار

سبباً فى اضطراب حياة الصين والقضاء على حضارتها النامية ، كما كانت غارات الهون الذين يمتون إلى التتار بأواصر القرابة العنصرية سبباً فى اضطراب نظام الإمبراطورية الرومانية وإلقاء أوربا فى غمار الفوضى التى عمت أرجاءها نحو مائة عام كاملة . وفى وسعنا أن ندرك ما يمتاز به الصينيون من صلابة عنصرية ، ومن قوة فى الأخلاق والثقافة ، إذا عرفنا أن هذا الاضطراب كان أقصر آجلا وأقل عمقاً من الاضطراب الذى قضى على الدولة الرومانية . فلما أن انقضى عهد من الحروب والفوضى والامتزاج العنصرى بين المغيرين والأهلين ، أفاقت الحضارة الصينية من سباتها ، وانتعشت انتعاشاً رائعاً يبهر الأنظار .

ولعل دم التتار الجديد قد بعث القوة فى أمة كانت قد أدركتها الشيخوخة . وقبل الصينيون الغزاة الفاتحين بينهم وتزوجوا منهم ، وحضّروهم ، وارتقوا هم وإياهم إلى أسمى ما بلغوه من المجد فى تاريخهم الطويل .

الفصل الثالث

مجـــد تانج

الأسرة المالكة الجديدة — خطة تاى دزونج فى تقليل الجرائم — عصر رخاء — « الإمبراطور التابه » رواية يانج — حوى — فى — ثورة آن لو — شان

تعزى نهضة الصين الـكبرى(*) فى العصر الذى سنتحدث عنه فى هذا الفصل إلى أسباب ثلاثة : وهى امتزاج هذين الشعبين ، والقوة الروحية التى انبعث من دخول البوذية فيها ، وعبقرية إمبراطور من أعظم أباطرتها وهو تاى دزونج الذى حكمها من عام ٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ بعد الميلاد . جلس هذا الإمبراطور على عرش الصين وهو فى الحادية والعشرين من عمره بعد أن نزل عنه أبوه جو جودزو الثانى الذى أقام أسرة تانج قبل ذلك الوقت بتسع سنين . وقد بدأ حكمه بداية غير مبشرة بخير ، وذلك بقتل إخوته الذين كانوا يهددونه باغتصاب عرشه ، ثم أظهر كفايته العسكرية برد غارات القبائل الهمجية إلى مواطنها الأصلية ، وإخضاع الأقاليم المجاورة التى خرجت على حكم الصين بعد سقوط أسرة هان . ثم عافت نفسه الحرب فجاءة وعاد إلى شانجان عاصمة ملـكه وخصص جهوده كلها للأعمال السلمية ، فقرأ مؤلفات كنفوشيوس مرة بعد مرة ، وأمر بنشرها فى شكل بديع رائع ، وقال فى هذا : « إنك إذا استعنت بمرآة من الشبهان فقد تستطيع أن تعدل وضع قلنسوتك على رأسك ؛ وإذا اتخذت الماضى مرآة لك فقد تستطيع أن تتنبأ بقيام الإمبراطوريات وسقوطها » . ورفض كل أسباب الترف وأخرج من قصره الثلاثة الآلاف من السيدات اللاتى جيء بهن لتسليته .

(*) انظر كتاب السـير و . فلندر پيترى The Revolutions of Civilisation « دورات الحضارة » طبعة لندن .

ولما أشار عليه وزراؤه بوضع القوانين الصارمة لقمع الجرائم قال لهم : « إنى إذا أنقصت نفقات المعيشة ، وخففت أعباء الضرائب ، ولم أستعن إلا بالأمناء من الموظفين حتى يحصل الناس على كفايتهم من الكساء ، كان أثر هذه الأعمال فى منع السرقات أعظم من أثر أقسى أنواع العقاب »(٢٧) .

وزار الإمبراطور يوماً سجون شانجان فرأى فيها مائتين وتسعين سجيناً حكم عليهم بالإعدام . فلم يكن منه إلا أن أرسلهم ليحرثوا الأرض واكتفى منهم بأن يعدوه بشرفهم أن يعودوا إلى سجنهم . وكان أن عادوا جميعاً ، وبلغ من سرور تاى دزونج أن أمر بالإفراج عنهم كلهم ، وسنّ من ذلك الوقت قانوناً يقضى بألا يصادق أى إمبراطور على حكم بالإعدام إلا بعد أن يصوم ثلاثة أيام . وجمّل عاصمة ملكه حتى أقبل عليها السياح من الهند ومن أوربا ، وجاء إلى الصين عدد كبير من الرهبان البوذيين الهنود ، وكان البوذيون الصينيون أمثال يوان چوانج يسافرون بكامل حريتهم إلى بلاد الهند ليأخذوا دين الصين الجديد عن مصادره الأصلية . وجاء المبشرون إلى شانجان ليبشروا بالزردشتية والنسطورية المسيحية ، وكان الإمبراطور يرحب بهم كما كان يرحب بهم أكبر ، ويبسط عليهم حمايته ، ويطلق لهم كامل حريتهم ؛ ويعفى معابدهم من الضرائب ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعانى آلام الفاقة والجهالة والمنازعات الدينية . أما هو نفسه فقد بقى كنفوشيا بسيطا بعيداً عن التحيز والتحكم فى عقول رعاياه ، وقد قال عنه مؤرخ نابه إنه لما مات حزن الناس عليه حزناً لم يقف عند حد ، وبلغ من حزن المبعوثين الأجانب أنفسهم أن كانوا يشخنون أجسامهم بالجراح بالمدى والحراب ، وينثرون دماءهم التى أراقوها بأنفسهم طائعين على نعش الإمبراطور المتوفى »(٢٨) .

لقد مهد هذا الإمبراطور السبيل إلى أعظم عصور الصين خلقاً وإبداعاً ، فقد نعمت فى عهده بخمسين عاما من السلام النسبى واستقرار الحكم ، فشرعت

تصدر ما زاد على حاجتها من الأرز والذرة والحرير والتوابل ، وتنفق مكاسبها فى ضروب من الترف لم يسبق لها مثيل . فغصت بحيرتها بقوارب التنزه المنقوشة الزاهية الألوان ؛ واكتظت أنهارها وقنواتها بالسفن التجارية ، وكانت المراكب تخرج من موانيها تمخر عباب البحار إلى الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندى والخليج الفارسى . ولم تعرف الصين قبل ذلك العهد مثل هـذه الثروة الطائلة ؛ ولم تستمتع قط بما كانت تستمتع به وقتئذ من الطعام الوفير ، والمساكن المريحة ، والملابس الجميلة[٢٩] . وبينما كان الحرير يباع فى أوربا بما يعادل وزنه ذهباً[٣٠] ، كان هو الكساء المألوف لنصف سكان المدن الصينية الكبرى ، وكانت الملابس المتخذة من الفراء فى القرن الثامن فى شانجان أكثر منها فى نيويورك فى القرن العشرين . وكان فى إحدى القرى القريبة من العاصمة مصانع للحرير تستخدم مائة ألف عامل[٣١] . وصاح لى پو فى إحدى الولائم : « ما أعظم هذا الكرم ، وما أكثر هذا الإسراف فى المال ! أقداح من اليشم الأحمر ، وأطعمة شهية نادرة على موائد مرصعة بالجواهر الخضراء ؟ »[٣٢] وكانت التماثيل تنحت من الياقوت ، وأجسام الأثرياء من الموتى تدفن على فُرش من اللؤلؤ[٣٣] . وكأنما أولع هذا الجنس العظيم بالجمال فجاءة ، وأخذ يكرم بكل ما فى وسعه من كان قادراً على خلق هذا الجمال . ومن أقوال أحد النقاد الصينيين فى هذا : « ذلك عصر كان فيه كل رجل يحق شاعراً »[٣٤] . ورفع الأباطرة الشعراء والمصورين إلى أعلى المناصب . ويروى « سير جون مانفيل »(*) Sir John Manville أن أحداً من الناس لم يكن يجرؤ على أن يخاطب الإمبراطور إلا « إن كان شاعراً مطرباً يغنى وينطق بالفكاهات »[٣٥] . وأمر أباطرة المانشو فى القرن الثامن عشر الميلادى أن يوضع سجل يحوى ما قاله شعراء تانج ، فكانت

(*) ذلك اسم مصطنع لطبيب فرنسى كتب فى القرن الرابع عشر كتاباً فى الأسفار معظمها خيالى ، ولا تخلو بعضها من فائدة ، ولكنها كلها فتانة رائعة .

النتيجة أن وصل هذا السجل إلى ثلاثين مجلداً تحتوى ٤٨,٩٠٠ قصيدة قالها ٢,٣٠٠ شاعر ، كانت هى التى أبقى عليها الدهر من هذه القصائد ومن أسماء أولئك الشعراء . وزاد ما فى دار الكتب الإمبراطورية حتى بلغ ٥٤,٠٠٠ مجلد ؛ وفى هذا يقول مردك Murdock : « ولا جدال فى أن الصين كانت فى ذلك الوقت أرقى البلاد حضارة ، فقد كانت وقتئذ أعظم الإمبراطوريات قوة ، وأكثرها استنارة ، وأعظمها رقيا ، وأحسنها حكما على ظهر الأرض »(٣٦) ، « وقد شهد ذلك العصر أرقى ما شهده العالم من الثقافات(*) » .

وكان زينة هذا العصر كله منج هوانج — أى « الإمبراطور النابه » — الذى حكم الصين نحو أربعين عاما تخللتها فترات قصيرة كان فيها بعيداً عن العرش (٧١٣ — ٧٥٦ ب . م) . وكان هذا الإمبراطور رجلا اجتمعت فيه كثير من المتناقضات البشرية ؛ فقد كان يقرض الشعر ويشن الحرب على البلاد النائية ، ومن أعماله أنه فرض الجزية على تركيا وفارس وسمرقند ، وألغى حكم الإعدام ، وأصلح إدارة السجون والمحاكم ، ولم يرحم من لا يبادر بأداء الضرائب ، وكان يتحمل راضياً مسروراً عنت الشعراء والفنانين والعلماء ؛ وأنشأ كلية لتعليم الموسيقى فى حديقة له تسمى « حديقة شجرة الكمثرى » ، وقد بدأ حكمه متقشفاً متزمتاً ، أغلق مصانع الحرير وحرم على نساء القصر التحلى بالجواهر أو الملابس المطرزة ، ثم اختتمه أبيقوريا يستمتع بكل فن وبكل وسيلة من وسائل الترف ، وضحى آخر الأمر بعرشه لينعم بيسمات يانج جوىْ — فىْ .

وكان حين التقى بها فى سن الستين ، أما هى فكانت فى السابعة والعشرين . وكانت قد قضت عشر سنين محظية لابنه الثامن عشر . وكانت بدينة ذات شعر

(*) من أقوال أرثر ويلى(٣٧) . راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة الفصل الثامن عشر ص ٣٦١ تحت عنوان (أيام أسرة تانج) « لقد كانت الصين بلا جدال أعظم دول العالم وأكثرها حضارة » .

مستعار ، ولكن الإمبراطور أحبها لأنها كانت عنيدة ، ذات أطوار شاذة متغطرسة وقحة ، وتقبلت منه إعجابه بها بقبول حسن ، وعرفته بخمس أسر من أقاربها ، وسمحت له بأن يعين أبناء هذه الأسر فى وظائف مجزية سهلة فى بلاطه.

وكان منج يسمى هذه السيدة « الطاهرة العظيمة » ، وقد أخذ عنها فن الاستمتاع بضروب الترف والملاذ ، وانصرف ابن السماء عن الدولة وشئونها وعهد بالسلطة الحكومية كلها إلى يانج جو — چونج أخى السيدة الطاهرة ، وهو رجل فاسد عاجز ؛ وبينا كانت نذر الخراب والدمار تحيط به من فوقه ومن أسفل منه ، كان هو يواصل ليله بنهاره منهمكا فى ضروب اللهو والفساد .

وكان فى بلاط مانج رجل تتارى يسمى آن لو — شان يعشق هو الآخر يانج جوى — فئ ، وقد كسب هذا الرجل ثقة الإمبراطور فرفعه إلى منصب حاكم إحدى الولايات الشمالية ، وأمره على زهرة جيوش الإمبراطورية . ولم يلبث آن — لو — شان أن أعلن نفسه إمبراطوراً على البلاد وزحف بجيوشه على شانجان . وتداعت حصون المدينة وكانت قد طال إهمالها ، وفر منج من عاصمة ملكه .

وتمرد الجنود الذين كانوا يحرسونه فى فراره ، وقتلوا يانج جو — چونج وجميع أفراد الأسر الخمس ، واختطفوا يانج جوى — فئ من بين يدى الملك وقتلوها أمام عينيه . ونزل الإمبراطور عن عرشه بعد أن أذلته الشيخوخة والهزيمة ، وعاثت جحافل آن لو شان الهمجية فى المدينة فسادا ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ولم تفرق بين كبير وصغير(*) . ويقال إن ستة وثلاثين مليونا من الأنفس قد قضى عليهم فى هذه الفتنة الصماء[٣٩] . ولكن الفتنة أخفقت آخر الأمر فى الوصول

(*) وفى ذلك يقول آرثر ويلى Arthur Waley : « ولما هزم التتار منج هوانج ونهبوا شانجان بدت هذه الأحداث كأنما اجتياح الترك فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر »[٣٨] .

إلى أغراضها ، وقتل آن لو ــ شان بيد ابنه نفسه ، وقتل هذا الابن بيد أحد القواد ، ثم قَتَل هذا القائدَ ابن له . وظلت نار الفتنة مشتعلة حتى أكلت وقودها وخمدت جذوتها فى عام ٦٧٢ ، وعاد منج هوانج محطماً كسير القلب إلى عاصمته المخربة . ومات فيها بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . وفى هذه الفترة من المآسى والحادثات الروائية العجيبة ازدهر الشعر الصينى ازدهاراً لم يكن له نظير من قبل .

الفصل الرابع

الملاك المنسى

قصة لى پو — شبابه وبسالته وحبه — على القارب الإمبراطورى — إنجيل الكرم — الحرب — تجوال لى پو — السجن — « الشعر الخالد »

استقبل منج هوانج ذات يوم من أيام مجده، رسلا من كوريا يحملون إليه رسائل خطيرة مكتوبة بلهجة لم يستطع أحد من وزرائه أن يفهمها. فصاح الإمبراطور غاضباً: « ماهذا؟ ألا يوجد بين هذا العدد الجم من الحكام والعلماء والقواد رجل واحد ينجينا من هذه الورطة؟ قسما إن لم أجد بعد ثلاثة أيام من يستطيع أن يحل رموز هذه الرسالة لأقصينكم جميعاً عن أعمالكم! ».

وقضى الوزراء يوماً كاملاً يتشاورون ويتضجرون، وهم يخشون أن تطيح منهم مناصبهم ورءوسهم. ثم تقدم الوزير هو چى — چانج إلى العرش وقال: « هل تأذن لأحد رعاياك أن يعلن لجلالتك أن فى بيته شاعراً جليل الشأن يدعى لى متبحراً فى أكثر من علم واحد؟ مره أن يقرأ هذه الرسالة إذ ليس ثمة شىء يعجز عنه ». وأمر الإمبراطور أن يستدعى لى للمثول بين يديه من فوره. ولكن لى أبى أن يحضر بحجة أنه غير جدير بالاضطلاع بالواجب الذى طلب إليه أن يضطلع به، لأن الحكام قد رفضوا مقاله حينما تقدم لآخر امتحان عقد لطالبى الالتحاق بالوظائف العامة. واسترضاه الإمبراطور بأن منحه لقب دكتور من الدرجة الأولى، وخلع عليه حلة هذا اللقب. فجاء لى ووجد الذين امتحنوه بين الوزراء، وأرغمهم على أن يخلعوا له نعليه، ثم ترجم الوثيقة، وقد جاء فيها أن كوريا تعتزم خوض غمار الحرب لاستعادة حريتها. ولما قرأ لى هذه الرسالة أملى عليها رداً مروعاً، ينم عن علم غزير، وقعه الإمبراطور من فوره، وكاد

يصدق ما أسره إليه « هو » وهو أن لى ملاك طرد من السماء لأنه ارتكب فيها ذنباً عظيماً(٤٠)(*) . وأرسل الكوريون يعتذرون ، وأدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وأرسل الإمبراطور بعض هذه الجزية إلى لى فوهب بعضها إلى صاحب الحانة لأنه كان يحب الخمر .

وكانت أم لى قد رأت فى منامها ليلة مولد الشاعر الكوكب الأبيض الكبير الذى يسميه الصينيون ثاى — بوچنج ويسميه أهل الغرب ڤينوس(**) . ولهذا سمى الطفل لى أى البرقوقة ولقب ثاى — بو أى النجم الأبيض . ولما بلغ العاشرة من عمره كان قد أتقن كتب كنفوشيوس ، كما كان فى مقدوره أن ينظم الشعر الخالد . وفى الثانية عشرة خرج إلى الجبال ليعيش فيها عيشة الفلاسفة ، وأقام فيها سنين طوالا ، حسنت فى خلالها صحته ، وعظمت قوته ، وتدرب على القتال بالسيف ، ثم أعلن إلى العالم مقدرته وكفايته فقال : إنى وإن لم يبلغ طول قامتى سبع أقدام (صينية) فإن لى من القوة ما أستطيع به ملاقاة عشرة آلاف رجل »(٤١) (وعشرة آلاف لفظ يعبر به الصينيون عن الكثرة) ثم أخذ يضرب فى الأرض يتلقى أقاصيص الحب من أفواه الكثيرين ، وقد غنى أغنية « لفتاة من وو » قال فيها :

نبيذ الكروم
وأقداح الذهب
وفتاة حسناء من وو —
فى سن الخامسة عشرة ، تقبل على ظهر مهر ،
ذات حاجبين قد خطا بقلم أزرق —
وحذائين من النسيج القرنفلى المشجر —

(*) وتلك قصة طريفة لعلها من وضع لى — پو .
(**) ويسميه العرب « الزهرة » .

لا تفصح عما فى نفسها —
ولكنها تغنى أغانى ساحرة .
وقد أخذت تطعم الطعام على المائدة ،
المرصعة بأصداف السلاحف .
ثم سكرت فى حجرى .
أى طفلتى الحبيبة ! ما أحلى العناق .
خلف الستائر المطرزة بأزهار السوسن[٤٢] !

ثم تزوج الشاعر ، ولكن مكاسبه كانت ضئيلة ، فغادرت زوجته بيته وأخذت معها أبناءه . ترى هل هذه الأسطر التى يبث فيها شوقه موجهة إليها ، أو إلى حبيبة أخرى لم يطل عهد الوداد بينهما ؟ —

أيتها الحسناء ، لقد كنت وأنت عندى أملأ البيت زهراً .
أما الآن أيتها الحسناء ، وقد رحلت — فلم يبق فيه إلا فراش خال .
لقد طوى عن الفراش الغطاء المزركش ؛ ولست بقادر على النوم .
وقد مضت على فراقك ثلاث سنين ؛ ولا يزال يعاودنى شذى العطر الذى خلفته وراءك .
إن عطرك يملأ الجو من حولى وسيدوم أبد الدهر ؛
ولكن أين أنت الآن يا حبيبتى ؟
إنى أتحسر — والأوراق الصفراء تسقط عن الغصن ،
أذرف الدمع — ويتلألأ رضاب الندى الأبيض على الكلأ الأخضر[٤٣] .

وأخذ يسلى نفسه باحتساء الخمر ، حتى أصبح أحد « الستة المتعطلين فى أيكة الخيزران » ، الذين يأخذون الحياة سهلة فى غير عجلة ، ويكسبون أقواتهم المزعزعة بأغانيهم وقصائدهم . وسمع لى الناس يثنون الثناء الجم على نبيذ نيو چونج فسافر

من فوره إلى تلك المدينة ، وكانت تبعد عن بلده ثلثمائة ميل(٤٤) .

والتقى فى تجواله بدوفو الذى صار فيما بعد منافسه على تاج الصين الشعرى ، وتبادل هو وإياه القصائد الغنائية ، وصارا يضربان فى البلاد معا كالأخوين ، ويناما تحت غطاء واحد ، حتى فرقت الشهرة بينهما . وأحبهما الناس جميعاً لأنهما كانا كالقديسين لا يؤذيان أحداً ويتحدثان إلى الملوك وإلى السوقة بنفس الأنفة والمودة اللتين يتحدثان بهما إلى الفقراء المساكين . ودخلا آخر الأمر مدينة شانجان وأحب « هو » الوزير الطروب شعر لى حبا حمله على أن يبيع ما عنده من الحلى الذهبية ليبتاع له الشراب ، ويصفه دوفو بقوله :

أما لى بو فقدم له ملء إبريق ،
يكتب لك مائة قصيدة
وهو يغفو فى حانة .
فى أحد شوارع مدينة شانجان ؛
وحتى إذا ناداه مولاه ،
فإنه لا يطأ بقدمه القارب الإمبراطورى .
بل يقول : « معذرة يا صاحب الجلالة .
أنا إله الخمر » .

لقد كانت أيامه هذه أيام طرب ومرح ؛ يعزه الإمبراطور ، ويغمره بالهدايا جزاء ما كان يتغنى به من مديح يانج جوى — فى الطاهرة . وأقام منج مرة مأدبة ملكية يوم عيد الفاونيا(*) فى فسطاط الصبار ، وأرسل فى طلب لى بو لينشد الشعر فى مديح حبيبته . وجاء لى ، ولكنه كان ثملا لا يستطيع قرض الشعر . فألقى خدم القصر ماء باردا على وجهه الوسيم ، وسرعان ما انطلق الشاعر

(*) نبات يسمى أيضاً عود الصليب . (المترجم)

يغنى ويصف ما بين الفاونيا وحبيبة يانج من تنافس فقال :

في أثوابها جلال الغمام السابح ،
وفى وجهها سنا الزهرة الناضرة .
أيها الطيف السماوى يا من لا يكون إلا فى العلا
فوق قلة جبل الجواهر
أو فى قصر البلور المسحور حين يرتفع القمر فى السماء !
على أننى أشهد هاهنا فى روضة الأرض —
حيث يهب نسيم الربيع العليل على الأسوار ،
وتتلألأ نقاط الندى الكبيرة ...
لقد هُزم حنين الحب الذى لا آخر له
والذى حملته إلى القلب أجنحة الربيع(٤٥) .

ترى منذا الذى لا يسره أن يكون هو الذى تغنى فيه هذه الأغنية ؟ لكن الملكة أدخل فى روعها أن الشاعر قد عرض بها فى أغنيته تعريضاً خفياً ، فأخذت من هذه اللحظة تدس له عند الملك وتبعث الريبة فى قلبه . وما زالت به يفتله بين الذروة والغارب حتى أهدى لى — پو كيسا به نقود وصرفه . فأخذ الشاعر يهيم فى الطرقات مرة أخرى يسلى نفسه باحتساء الخمر ، « وانضم إلى الثمانية الخالدين أصحاب الكأس » ، الذين كان شرابهم على لسان الناس فى شانجان . وكان يرى رأى ليولنج القائل إنه يحسن بالإنسان أن يسير وفى صحبته على الدوام خادمان يحمل أحدهما خمراً ويحمل الآخر مجرفا يستعين به على دفنه حيث يخر صريعاً « لأن شئون الناس » كما يقول ليو « ليست إلا طحالب فى نهر »(٤٦) . وكأنما أراد شعراء الصين أن يكفروا عن تزمت الفلسفة الصينية ، فأطلقوا لأنفسهم العنان . وفى ذلك يقول لى پو : « لقد أفرغنا مائة إبريق من الخمر لنغسل بها

أرواحنا ونطهرها من الأحزان التى لازمتنا طوال حياتنا »(٤٧) . وهو يترنم بينت الحان ترنم عمر الخيام :

إن المجرى الدافق يصب ماءه فى البحر ولا يعود قط .
ألا ترى فوق هذا البرج الشامخ
شبحا أبيض الشعر يكاد يذوب قلبه حسرة أمام مرآته البراقة ؟
لقد كانت هذه الغدائر فى الصباح شبيهة بالحرير الأسود ،
فلما أقبل المساء إذا هى كلها فى بياض الثلج .
هيا بنا ، ما دام ذلك فى مقدورنا ، نتذوق الملاذ القديمة ،
ولا نترك إبريق الخمر الذهبى
يقف بمفرده فى ضياء القمر ...
إنى لا أبغى سوى نشوة الخمر الطويلة ،
ولا أحب أن أصحو قط من هذه النشوة ...
هيا بنا أنا وأنتما نبتاع الخمر اليوم !
لم تقولان إنكما لا تملكان ثمنها ؟
فجوادى المرقط بالأزهار الجميلة ،
ومعطفى المصنوع من الفراء والذى يساوى ألف قطعة من الذهب
سأخرج عن هذين وآمر غلامى
أن يبتاع بهما الخمر اللذيذة
ولأنس معكما يا صاحبى
أحزان عشرة آلاف من الأعمار !(٤٩)

ترى ما هى هذه الأحزان ؟ أهى آلام من محب ازدرى حبه ؟ لا نظن هذا لأن شعراء الصين لا يكثرون من الشكوى من آلام الحب ، وإن كان

يملأ قلوبهم كما يملأ قلوبنا . وإنما الذى أذاقنى مرارة المآسى البشرية هو الحرب والنفى ، وهو آن لو شان والاستيلاء على عاصمة البلاد ، وفرار الإمبراطور وموت يانج ، وعودة منج هوانج إلى قصوره للعجوزة . وهو يقول فى حسرة : « ليس للحرب نهاية ! » ثم يأسو للنساء اللاتى قدمن أزواجهن ضحايا لإله الحرب فيقول :

هاهو ذا شهر ديسمبر ؛ وها هى ذى فتاة يورتشاو الحزينة !
لقد امتنع عليها الغناء ، وعز الابتسام ، وحاجباها أشعثان ،
وهى تقف بالباب ، تنتظر عابرى السبيل ،
وتذكر ذلك الذى اختطف سيفه وسار لحماية الحدود ،
ذلك الذى قاسى أشد الآلام فى البرد القارس وراء السور العظيم ،
ذلك الذى جندل فى ساحة الوغى ولن يعود أبداً ،

* * *

فى مشيتها الذهبية الحمراء التى تحتفظ فيها بالذكريات ،
قد بقى لها سهمان مراشان بريشتين بيضاوين ،
بين نسج العنكبوت وما تجمع من الغبار خلال السنين الطوال .
تلك أحلام الحب الجوفاء التى لا تستطيع العين أن تنظر إليها لما تسببه للقلب من أحزان .
ثم تخرج السهمين وتحرقهما وتذرو رمادهما فى الرياح .
إن فى وسع الإنسان أن يقيم سداً يعترض به مجرى النهر الأصفر ،
ولكن منذ الذى يخفف أحزان القلب إذا تساقط الثلج ،
وهبت ريح الشمال ؟[٤٩]

وفى وسعنا الآن أن نتخيله ينتقل من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية على

الصورة التى وصفه بهـا دزو تشوبج — چى : « على ظهرك حقيبة ملأى بالـكتب ، تطوف ألف ميل أو أكثر ، وفى كمك خنجر وفى جيبك طائفة من القصائد »(٥٠) . وقد حبته رفقيته القديمة الطبيعة فى هذا التجوال الطويل بعزاء وسلوى وراحة تجل عن الوصف ؛ وفى وسعنا أن نرى من خلال أشعاره أرض بلاده ذات الأزهار ، ونشعر أن حضارة اللذن قد أخذ عبئها الباهظ يثقل على الروح الصينية :

لِمَ أعيش بين الجبال الخضراء ؟
إنى أضحك من هذا السؤال ولا أجيب عنه ، إن روحى ساكنة صافية ؛
إنها تسكن سماء أخرى وأرضاً ليست ملـكا لإنسان .
إن أشجار الخوخ مزدهرة والماء ينساب من تحتها(٥١) .

ثم انظر إلى هذه الأبيات :

أبصرت ضياء القمر أمام مخدعى .
خلته الصقيع على الأرض .
ورفعت رأسى ونظرت إلى القمر الساطع فوق الجبل ،
وطأطأت رأسى وفكرت فى موطنى البعيد(٥٢) .

ولما تقدمت به السن وابيض شعره امتلأ قلبه حناناً للأماكن التى قضى فيها أيام شبابه . وكم من مرة ، وهو يحيا فى العاصمة حياة اصطناعية ، حن قلبه للحياة البسيطة الطبيعية التى كان يحياها فى مسقط رأسه وبين أهله :

فى أرض وو أوراق التوت خضراء ،
نام دود الحرير مرات ثلاثا .
وأرض لوه الشرقية حيث تقيم أسرتى ،
لا أعرف من يزرع فيها حقولنا .
وليس فى وسعى أن أعود لأقوم فيها بأعمال الربيع .

ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً ، بل أسير على ضفة النهر
إن ريح الجنوب إذا هبت أطارت روحى المشوقة إلى وطنى .
وحملتها معها إلى حانتنا المعهودة .
وهناك أرى شجرة خوخ على الجانب الشرقى من البيت ،
بأوراقها وأغصانها الكثيفة تموج فى الضباب الأزرق..
إنها هى الشجرة التى غرستها قبل أن أفارق الدار منذ سنوات ثلاث .
لقد نمت شجرة الخوخ الآن وطالت حتى بلغت سقف الحانة ،
فى أثناء تجوالى الطويل إلى غير أوبة .
أى بنيتى الجميلة يا بنج — يانج ، إنى أراك واقفة .
بجوار شجرة الخوخ ، تنتزعين منها غصناً مزهراً ،
تقطفين الأزهار ، ولكنى لست معك —
ودموع عينيك تفيض كأنها مجرى ماء !
وأنت يا ولدى الصغير پوسشين لقد نموت حتى بلغت كتفى أختك
وصرت تخرج معها تحت شجرة الخوخ ؛
ولكن منذا الذى يربت على ظهرك هناك ؟
إنى حين أفكر فى هذه الأمور تخوننى حواسى
ويقطع الألم الشديد فى كل يوم نياط قلبى .
وها أنذا أقطع قطعة من الحرير الأبيض وأكتب عليها هذه الرسالة
وأبعث بها إليك مصحوبة بحبى تجتاز الطريق الطويل إلى أعلى النهر (٥٣)

وكانت السنون الأخيرة من عمره سنى بؤس وشقاء ، لأنه لم ينزل قط من عليائه ليجمع المال ، ولم يجد فى أيام الفوضى والفتن ملكاً يحنو عليه ويرد عنه غائلة الجوع والحرمان . ولما عرض عليه لى — لنج أمير يونج أن ينضم إلى حاشيته

قبل هذا راضياً مسروراً ؛ ولكن لى — لعج خرج على خليفة منج هوانج ، فلما قلمت أظفار فتنته ألقى لى پو نفسه بين جدران السجن محكوما عليه بالموت لأنه خان دولته .

ثم توسط له جوُو دزيثى القائد الذى أخمد ثورة آن لو شان ، وطلب أن تفتدى حياة لى پو بنزوله هو عن رتبته ولقبه . تخفف الإمبراطور عنه الحكم واستبدل به النفى مدى الحياة . ثم صدر عفو عام بعد ذلك بقليل ، وعاد الشاعر يتعثر إلى مسقط رأسه . ومرض وتوفى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ؛ وتقول الأقاصيص ، التى يعز عليها أن تموت نفس قل أن يوجد مثلها بين النفوس ميتة عادية ، إنه غرق فى أحد الأنهار ، بينما كان يحاول وهو ثمل جزلان أن يعانق صورة القمر .

وديوان شعره الرقيق الجيل المؤلف من ثلاثين مجلداً لا يترك مجالا للشك فى أنه حامل لواء شعراء الصين بلا منازع . وقد وصفه ناقد صينى بأنه « قمة تاى الشامخة المشرفة على مئات الجبال والتلال ؛ والشمس التى إذا طلعت خبا وميض ملايين من نجوم السماء »[٥٤] .

لقد مات منج هوانج ، وماتت يانج وعفا ذكرهما ولكن لى پو لا يزال يغنى :

لقد بنيت سفينتى من خشب الأفاويه وصنع سكانها من خشب المولان .

وجلس العازفون عند طرفها وبيدهم الناى من القاب المحلى بالجواهر والمزمار المرصع بالذهب .

ألا ما أعظم سرورى إذا كان إلى جانبى دن الخمر اللذيذة وغيد حسان يغنين

ونحن نطفو فوق ظهر الماء تدفعنا الأمواج ذات اليمين وذات الشمال !

إذن لكنت أسعد من جنى الهواء الذى ركب على ظهر غرنيقه الأصفر ،
حراً كعريس البحر الذى تعقب النوارس[*] دون غرض يبتغيه ،
إنى الآن أهز الجبال الخمسة بضربات من وحى قلمى .
هأنذا قد فرغت من قصيدتى . فأنا أضحك وسرورى أوسع من البحر .
أيها الشعر الخالد إن ألحان شوبنج[**] لشبيهة فى روعتها بالشمس والقمر ،
أما قصور ملوك جو وأبراجهم فقد عفت آثارها من فوق التلال[**]

(*) المرلان ضرب من الخشب الثمين وعريس البحر مخلوق خرافى له جسم رجل وذيل سمك و النورس طائر مائى . (المترجم)

(**) انظر ص ٩٦

الفصل الخامس

من خصائص الشعر الصينى

النظم الطليق — « التصوير » — كل قصيدة صورة
وكل صورة قصيدة . . — العاطفية — كمال الشكل

ليس فى وسعنا أن نحكم على الشعر الصينى بدراسة شعر لى وحده ، فإذا أراد الإنسان إن يُحس به (وهذا خير من الحكم عليه) وجب عليه أن يسلم نفسه فى غير استعجال للكثيرين من الشعراء الصينيين وأساليبهم الشعرية الفذة . ولا جدال فى أن بعض الصفات الدقيقة التى يتصف بها هذا الشعر تخفيها عنا ترجمته : فنحن لا نرى فى هذه الترجمة الرموز الصينية الجميلة ؛ التى يتكون كل منها من مقطع واحد ولكنه يعبر مع ذلك عن فكرة معقدة ولا نرى السطور تجرى من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار ، ولا ندرك الوزن والقافية اللذين يتشبثان بقوة بالقواعد والسوابق القديمة ؛ ولا نستمع إلى النغمات — وما فيها من خفض ورفع — التى يترنم بها الشعر الصينى . وجملة القول أن نصف ما فى شعر الشرق الأقصى من جمال فنى يضيع حين يقرؤه من يجب أن نسميه « أجنبيا » عنه . إن خير القصائد الصينية فى لغتها الأصلية لصورة مصقولة ثمينة لا تقل فى صقلها وعظيم فنها عن المزهرية المنقوشة النادرة الجميلة ؛ ولكنه بالنسبة إلينا لا يكون إلا نتفاً من القريض الخداع « الطليق » من الوزن أو الشعر « التصويرى » قد أدركه بعض الإدراك ونقله نقلا ضعيفاً عقل جاد ولكنه عقل غريب عنه لا يمت إليه بصلة .

إن أهم ما نراه فى هذا الشعر هو إيجازه ؛ فنميل إلى الظن بأن هذه القصائد تافهة ، وإذا ما قرأناها شعرنا بأنا قد لا نجد فيها ما فى شعر ملتن وهومر من

عظمة تارة وملالة تارة أخرى . ولكن الصينيين يعتقدون أن الشعر كله يجب أن يكون قصيراً ؛ وأن القصيدة والطول لفظان متناقضان ، لأن الشعر فى نظرهم نشوة وقتية بنت ساعتها تموت إذا طالت ومدت حتى صارت ملحمة ، وأن رسالة الشاعر أن يرى الصورة ويرسمها بضربة ويسجل الفلسفة فى بضعة سطور وأن مثله الأعلى أن يجمع المعانى الكثيرة فى أنغام قليلة . وإذ كانت الصور من جوهر الشعر ، وكانت الكتابة الصينية فى جوهرها كتابة تصويرية ، كانت لغة الصين المكتوبة لغة شعرية بطبيعتها تنقاد للكتابة التصويرية ، وتنفر من المعنويات المجردة التى لا يمكن التحدث عنها كما يتحدث عن المرئيات . وإذ كانت المعنويات تكثر كلما ارتقت الحضارة ، فقد أضحت اللغة الصينية فى صورتها المكتوبة ، أشبه بشفرة سرية ذات إيحاء دقيق . وكذلك كان الشعر الصينى ، بالطريقة نفسها ، وقد يكون للسبب عينه ، يجمع بين الإيحاء والتركيز ، ويهدف بما يرسم من الصور إلى الكشف عن شىء خفى عميق . فهو لا يجادل ولا يناقش بل يوحى ويوعز ، ويترك أكثر مما يقول ؛ وليس فى وسع أحد غير الشرقى أن يستجيب لما يوعز به ويملأ الفراغ الذى يتركه . وفى هذا المعنى يقول الصينيون : « كان الأقدمون يرون أن أحسن الشعر ما كان معناه أبعد من لفظه ، وما اضطر قارئه أن يستخلص معناه لنفسه »[٥٦](*) . فالشعر الصينى كالأخلاق الصينية والفن الصينى ذو جمال رائع لا حد له تخفيه بساطة هادئة مستكنة ، فهو لا يعمد إلى الاستعارة والمجاز والتشبيه بل يعتمد على إظهار ما يريد أن يتحدث عنه ، ويشير من طرف خفى إلى ما يتضمنه ، ويتصل به ، وهو يتجنب المبالغات والانفعالات ويلجأ إلى العقل الناضج بما فيه من إيجاز فى القول وما يتقيد به من قيود . وقلما تراه فى صور روائية هائجة ، ولكن فى مقدوره أن يعبر عن المشاعر القوية بأسلوبه الهادئ الرصين :

(*) انظر وصف مكولى للشعر فى مقاله عن ملتن . (المترجم)

الناس يقضون حياتهم متفرقين كالنجوم تتحرك ولكنها لا تلتقى أبداً.
أما هذه العين فما أسعدها ، إذ ترى مصباحاً واحداً يبعث الضوء لى ولك !
ألا ما أقصر أيام الشباب !
وإن لمامنا لتدل الآن على أن حياتنا قد آذنت بالزوال .
بل إن نصف من نعرفهم قد انتقلوا الآن إلى عالم الأرواح .
ألا ما أشد وقع هذا على نفسى.

وقد يعترينا الملل فى بعض الأحيان مما فى هذه القصائد من التكلف العاطفى ، وما تحويه من تحسر وتمن باطل بأن تقف عجلة الزمان دورتها حتى يبقى الرجال فتياناً وتحتفظ الدول بشبابها أبد الدهر . ونحن ندرك من هذا الشعر أن حضارة الصين كانت قد شاخت وانقضى عهد شبابها فى أيام منج هوانج ، وأن الشعراء فى هذا العهد — كالفنانين فى الشرق بوجه عام — قد أولعوا بتكرار الموضوعات التليدة ، وأنهم كانوا يسخّرون قدرتهم الفنية للاحتفاظ بالصيغ سليمة مبرأة من العيوب . ولكننا رغم هذا كله لا نجد لهذا الشعر مثيلا فى غير بلاد الصين ، ولا نرى مايضارعه فى جمال التعبير وما فيه من رقة فى العواطف رغم اعتدالها ، ومن بساطة واقتصاد فى التعبير عن أعمق الأفكار . ويقال لنا إن للشعر الذى كتب فى عهد أباطرة تانج أثراً عظيماً فى تعليم كل شاب صينى ، وإن الإنسان لايجد صينياً مفكراً لا يحفظ الكثير من ذلك الشعر عن ظهر قلب . فإذا صح هذا كان فى تاريخ لى پو ودوفو بعض ما نجيب به حين نسأل لمَ يكاد كل صينى متعلم يكون فناناً وفيلسوفاً ؟

الفصل السادس

دوفو

دواتشين — پو — چوى — قصائد لشفاء الملاريا — دوفو ولى پو — رؤيى الحرب — أيام الرخاء — الإبلاق — الموت

لى پو عند الصينيين شبيه بكيتس عند الإنجليز ، ولكن للصين غيره من المغنين ، لا يكاد يقلّ حبهم لهم عن حبهم للى پو ، فمنهم داوتشين الشاعر الرواق البسيط الذى اعتزل منصباً حكوميا ، لأنه على حد قوله لم يعد فى وسعه « أن يحنى فقرات ظهره نظير خمسة أرطال من الأرز فى كل يوم » أى أن يبتاع مرتبه بكرامته . واعتزل داوتشين الحياة العامة كما اعتزلها كثيرون من رجال الدولة اشمئزازاً من حياة الوظيفة ذات النزعة التجارية ، وذهب ليعيش فى الغابات ينشد فيها « طول السنين وعمق الخمور » ، ويجد فى مجارى الصين وجبالها من السلوى والبهجة ما صوره رساموها على الحرير فيما بعد :

أقطف الأقحوان تحت السياج الشرقى ،
ثم أسرح الطرف طويلا فى تلال الصيف البعيدة
وأملأ صدرى من هواء الجبال النقى عند مطلع الفجر ،
وأرى الطيور تعود مثنى مثنى .
إن فى هذه الأشياء لمعانى عميقة ،
لكننا إذا شئنا التعبير عنها خانتنا الألفاظ فجاءة . . .
ألاما أسخف أن يمضى المرء حياته كأوراق الشجر الساقطة المطمورة
فى تراب الطرقات !
ولقد قضيت ثلاث عشرة سنة من حياتى على هذا النحو . . .

وعشت زمناً طويلا حبيساً فى قفص ؛
وهأنذا قد عدت
إذ لا بد للإنسان أن يعود
ليحيا حياته الطبيعية(٥٧)

أما پو — چوى فقد سلك مسلكا آخر ، إذ اختار المنصب الرسمى والحياة فى العاصمة . وصار يرقى فى المناصب العامة حتى أمسى حاكم مدينة هانچ تشاو العظيمة ورئيس مجلس الحرب . لكنه رغم متاعب الحياة العامة عاش حتى بلغ الثانية والسبعين من العمر ، وأنشأ أربعة آلاف قصيدة ، وعب ملاذ الطبيعة فى فترات نفى فيها من بلده(٥٨) . وعرف السر الذى يستطيع به أن يجمع بين الوحدة والاختلاط بالجماهير ، وبين الراحة والحياة الناشطة . ولم يكن كثير الأصدقاء لأنه كما يقول عن نفسه كان رجلا وسطا غير ممتاز فى « الخط ، والتصوير ، والشطرنج ، والميسر ، وهى الوسائل التى تؤدى إلى اجتماع الرجال وإلى الضجة السارة »(٥٩) . وكان مولعاً بالتحدث إلى عامة الناس ، ويروى عنه أنه كان يقرأ قصائده لعجوز قروية ، فإذا عجزت عن فهم شىء منها بسطه لها . ومن ثم أصبح أقرب الشعراء الصينيين إلى قلوب الجماهير ، وكان شعره ينقش فى كل مكان على جدران المدارس والمعابد وقمرات السفن . ويروى أن فتاة من المغنيات قالت لربان سفينة كانت تطربه « ليس لك أن تظن أنى راقصة عادية ؛ وحسبك أن تعرف أن فى مقدورى أن أسمعك قصيدة الأستاذ پو : الغلطة الأبدية »(٦٠)(*)

وآخر من نذكره من أولئك الشعراء هو دوفو الشاعر المحبوب العميق الذى يقول فيه آرثر ويلى Arthur Waley : « من عادة الذين يكتبون فى الأدب

(*) من أشهر الروايات الصينية الكبيرة التى يروى بها الكتاب الصينيون غرام منج هوانج بيانج جوى فى موتها فى أثناء الثورة وشقاء منج بعد عودته إلى العرش . وليست القصيدة خالدة إلى الحد الذى توصف به ، وهى أطول من أن تتسع لها هذه الصفحات .

الصينى من الإنجليز أن يقولوا إن لى تاى — بو أشعر شعراء الصين ؛ أما الصينيون أنفسهم فيقولون إن دوفو هو حامل لواء الشعراء الصينى »(٦١)

ونحن نسمع به لأول مرة فى شانجان حيث أقبل ليؤدى امتحاناً ليتقلد إذا نجح فيه منصباً حكوميا ، ولكنه لم ينجح . على أن ذلك لم يفت فى عضده ، رغم أنه أخفق فى مادة الشعر ؛ وأعلن للجمهور أن قصائده علاج ناجع لحمى الملاريا ، ويبدو أنه جرب هذا العلاج بنفسه(٦٢) . وقرأ بنج هوانج بعض أشعاره ووضع له هو نفسه امتحاناً آخر ، وأنجحه فيه وعينه أمين أسرار القائد تسوًّا . وشجع هذا العمل دوفو وأنساه وقتاً ما زوجته وأبناءه فى قريتهم النائية ، فأقام فى العاصمة وتبادل هو ولى بو الأغانى . وأخذ يتردد على الحانات ويؤدى ثمن خمره شعراً . وقد كتب عن لى بو يقول :

أحب مولاى كما يحب الأخ الأصغر أخاه الأكبر ،

فنى الخريف وفى نشوة الخمر ننام تحت غطاء واحد ، وفى النهار نسير معاً يداً بيد .

فعل هذا فى أيام كان منج ليانج يحب جوى فى فأخذ دو يتغنى بهذا الحب كما يتغنى غيره من الشعراء ؛ فلما شبت نار الثورة وأغرقت الأحقاد والمطامع بلاد الصين فى بحر من الدماء حول شعره إلى موضوعات حزينة ، وأخذ يصوّر الناحية الإنسانية من الحرب :

فى الليلة الماضية صدر أمر حكومى
بتجنيد الفتيان الذين بلغوا الثامنة عشرة .
وأمروا أن يعاونوا على الدفاع عن العاصمة
أيتها الأم ! وأيها الأبناء ! لا تبكوا هذا البكاء !
إن هذه الدموع التى تذرفونها تضر بكم .
وحين تقف الدموع عن الجريان تبرز العظام

ووقتئذ لا ترحمكم الأرض ولا السماء .
وهل تعرفون أن فى شانتونج مائتى مقاطعة قد استحالت صحارى مجدبة ،
وأن آلافا من القرى والمزارع قد غطاها الحسك والشوك ؟
وأن الرجال يذبحون ذبح الكلاب ، والنساء يسقن كما يساق الدجاج ..
ولو أننى كنت أعرف ما هو مخبأ للأولاد من سوء المصير
لفضلت أن يكون أطفالى كلهم بنات ...
ذلك أن الأولاد لا يولدون إلا ليدفنوا تحت العشب الطويل .
ولا تزال عظام من قضت عليهم الحرب فى الماضى البعيد مدفونة بجوار
البحر الأزرق تراها وأنت مار .

فهى بيضاء رهيبة تراها العين فوق الرمال ، .
هنالك تجتمع أشباح الصغار وأشباح الكبار لتصيح جامات ،
وإذا هطل المطر وأقبل الخريف وهبت المريح الباردة ،
علت أصواتهم حتى علمتنى كيف تقتل المرء الأحزان ...

إن الطيور تتناغى فى أحلامها وهى تحلق فوق الماء
واليراعة تشع بضيائها فى غسق الليل .
فلم يقتل الإنسان أخاه الإنسان ليعيش ؟
إنى أتحسر خلال الليل فى غير طائل(٦٤)

وقضى الشاعر عامين خلال عهد الثورة يطوف بأنحاء الصين تقاسمه إملاقه زوجتُه وأبناؤه ، وقد بلغ من فقره أنه كان يستجدى الناس الخبز ، ومن ذلته أنه خرورا كعاً يدعو بالخير للرجل الذى آوى أسرته وأطعمها حيناً من الزمان(٦٥) .
ثم أنجاه من بؤسه القائد الرحيم ين وو فعينه أميناً لسره ، وغفر له أهواءه وأطواره

الشاذة ، وأسكنه كوخاً على ضفة « مجرى غاسل الأزهار » ، ولم يطلب إليه أكثر من أن يقرض الشعر(*) . وعاش الرجل حينئذ سعيداً طروبا يتغنى بالأمطار والأزهار والقمر والجبال :

وماذا تجدى العبارة أو المقطوعة الشعرية الجميلة ؟
إن أمامى جبالا وغابات كثيفة سوداء قاتمة .
وإن نفسى لتحدثنى بأن أبيع تحفى وكتبى
وأعب من الطبيعة وهى صافية عند منبعها ...
فإذا قدمت على مكان بهذا الجمال
مشيت رويداً ، وتمنيت أن يغرق الجمال روحى
أحب أن ألمس ريش الطير .
وأنفخ فيه بقوة حتى أكشف عما تحته من الزغب .
وأحب أن أعد إبر النبات أيضاً ،
بل أحب أن أعد لقاحه الذهبى ،
ألا ما أحلى الجلوس على الكلأ ،

ولست بحاجة إلى الخمر حين أجلس عليه ، لأن الأزهار تسكرنى . . .
أحب الأشجار القديمة حبا يسرى فى عظامى ، وأحب أمواج البحر
التى فى زرقة اليشب(٦٥) .

وأحبه القائد الطيب القلب حبا أفسد على الشاعر راحته ، لأنه رفعه إلى منصب عال فى الدولة ، إذ جعله رقيباً فى شانجان ، ثم مات القائد فجأة ، وثارت الحرب حول الشاعر ، فأمسى وحيداً لا سند له إلا عبقريته ، وسرعان ما ألفى نفسه

(*) ويصور رسم صينى شهير « الشاعر دوفو فى الكوخ المغنى » . وتوجد هذه الصورة فى متحف الفن بنيويورك .

فقيراً معدما ، وأخذ أطفاله وقد أذهب عقلهم الجوع يسخرون منه لقلة حيلته ، وكان فى آخر أيامه شيخاً مهدماً بائساً وحيـداً ، « يؤذى العين منظره » ، وأطاحت الريح بسقف كوخه ، وسرق الأطفال قش فراشه ، وهو ينظر إليهم ولا يستطيع لضعفه أن يقاومهم(٦٧) ، وشر من هذا كله أنه فقد لذة الخمر ، ولم يعد فى وسعه أن يحل مشاكل الحياة كما يحلها لى پو .

ثم لجأ آخر الأمر إلى الدين ووجد سلواه فى البوذية ، وعاجلته الشيخوخة ولمـا يتجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، فحج إلى جبل هوِن القدس ليزور فيه معبداً ذائع الصيت ، وهناك عثر عليه حاكم من الحـكام قرأ شعره ، فآواه إلى منزله وأقام وليمة تـكريماً له ، صفت فيها صحاف الشواء وكؤوس الخمر . ولم يكن ووفو قد رأى ذلك من عدة سنين فأكل أكل الجياع . ثم طلب إليه مضيفه أن ينشد الشعر ويغنى ، فحاول أن يجيبه إلى ما طلب ، ولـكنه خارت قواه وسقط على الأرض ومات فى اليوم الثانى(٦٨) .

الفصل السابع

النـــثر

وفرة الآداب الصينية — الروايات العرامية — التاريخ
زومانشين — المقالات — هان يو على عظام بوذا

ليس شعراء تانج إلا فئة من شعراء الصين ، وليس الشعر إلا جزءاً من الأدب الصينى ، وإنه ليصعب علينا أن ندرك حقية تماما كان فى هذا العصر من وفرة فى الأدب ومن سعة انتشاره بين كافة طبقات الشعب . وكان عدم وجود قانون للملكية الأدبية عاملا من العوامل التى ساعدت على رخص أثمان المطبوعات ، ولذلك كان من الأمور العادية ، قبل دخول الأفكار الغربية فى البلاد ، أن يجد الإنسان مجموعات جديدة مجلدة من عشرين كتابا تباع الواحدة منها بريال أمريكى ، وأن يرى موسوعات مؤلفة من عشرين مجلداً تباع جديدة بأربعة ريالات ، وأن تباع جميع روائع الأدب الصينى القديم كلها بريالين(٦٩) . وأصعب مما سبق أن نقدر نحن قيمة هذا الأدب ، وذلك لأن الصينيين يضعون الشكل والأسلوب فوق المادة حين يحكمون على كتاب ما ، وليس فى وسع أية ترجمة مهمابلغت أن تظهر جمال الشكل أو روعة الأسلوب .

ليس من حقنا أن نلوم الصينيين حين يقولون إن آدابهم أرقى من أية آداب أخرى عدا الآداب اليونانية ، ولعلهم حين يستثنون آداب اليونان إنما يفعلون هذا من قبيل المجاملات المأثورة عن الشرقيين .

والصينيون لا يعدّون القصص فرعاً من فروع الأدب ، وهم فى هذا يختلفون عن الغربيين حيث يرفع القصص من شأن المؤلفين ويذيع أسماءهم فى سرعة وسهولة . ولذلك فإنا قلما نجد له ذكراً فى بلاد الصين قبل أن يدخلها المغول(٧٠)

بل إن أدباء الصين لا يزالون إلى هذا اليوم يعدون خير الروايات القصصية مجرد تسلية شعبية غير خليقة بأن تذكر فى تاريخ الآداب الصينية . لكن سكان المدن الصينية السذج لا يبالون بهذه الفروق ، ويتركون أغانى يو — جوى ولى يو فى غير تحرج ، ويفضلون عليها الروايات الغرامية التى لا حصر لها ، والتى يكتبها مؤلفون يخفون عن القراء أسماءهم ، وينشرونها باللهجات الشعبية التى تكتب بها المسرحيات . وهى تصور للصينيين فى وضوح ما فى ما ضيهم من أحداث روائية رائعة ؛ ذلك أن جميع الروايات الصينية الشهيرة ، إلا القليل النادر منها ، روايات تاريخية ، وقلّ أن يوجد فيها ما هو واقعى النزعة ، وأقلّ منه ما يحاول فيه مؤلفوه ذلك القرب من التحليل النفسانى أو الاجتماعى الذى يرقى « بإخوة كرمزوف » The Brothers Karmazov و « الجبل المسحور » The Magic Mountain و « الحرب والسلم » War and Peace و « البائسون » Les Miserables إلى مستوى الأدب الرفيع .

ومن أقدم الروايات الصينية رواية شوى هو جوان أو « قصة حواشى الماء » التى ألفها رهط من الكتاب فى القرن الرابع(*) .

ومن أكبر هذه الروايات حجما رواية « هونج لومن » أو حلم الغرفة الحمراء (حوالى ١٦٥٠ م) وهى رواية فى أربعة وعشرين مجلداً ؛ ومن أحسنها كلها رواية لياو جاى جيئ أو قصص عجيبة (حوالى ١٦٦٠ م) وهى التى يجلها الصينيون لجمال أسلوبها وأناقة عبارتها . وأشهرها كلها رواية سان جور-جى يان إى أو « رواية الممالك الثلاث » وهى رواية منمقة الأسلوب فى ألف صفحة ومائتين كتبها لو جوان — چونج (١٢٦٠ — ١٢٤١) فى وصف الحرب

(*) لقد ترجمت مسز پيرل بك Mrs. Pearl Buck هذه الرواية ترجمة جيدة وسمتها « كل الناس إخوة All Men are Brothers » وطبعت فى نيويورك سنة ١٩٣٣ .

والدسائس التي أعقبت سقوط أسرة هان(*) ، وكلها شبيهة بالروايات الطويلة التصويرية التي كانت منتشرة في أوربا في القرن الثامن عشر . وكثيراً ما تجمع هذه الروايات (إذ جاز لنا في مثل هذه الموضوعات أن ننقل إلى القارئ ما يتحدث به الناس عنها) بين تصوير الأخلاق الفكه اللطيف الذي تراه في رواية تم جونز Tom Jones وبين القصص الشائق الذي تراه في جل بلاس Gil Blas . وهي أصلح ما تكون لأن يقرأها الشيوخ الطاعنون في السن ليقطعوا بها أوقات فراغهم .

والتاريخ أجل الآدب شأناً في الصين ، وهو كذلك أحبها إلى الصينيين ، وليس ثمة أمة ظهر فيها من المؤرخين عدد يوازي من ظهر منهم في الصين ، وما من شك في أنه ليس بين الأمم جميعها أمة كتبت في التاريخ بقدرما كتبت الأمة الصينية . ذلك أن أقدم قصور الملوك كان لها كتابها الرسميون ، يسجلون أعمال الملوك وأحداث الأيام ؛ ولقد دام منصب مؤرخ البلاط إلى أيامنا هذه ، وأوجد في الصين قدراً من الأدب التاريخي لا نرى له مثيلا في طوله ولا في ملله في جميع بلاد العالم . وحسبنا أن نضرب بعض الأمثلة ليدرك القارئ طول هذه التواريخ . فمنها أربعة وعشرون كتاباً في « تواريخ الأسر » وهو تاريخ رسمي نشر في عام ١٧٤٧ في ٢١٩ مجلداً ضخماً(٧١) . وأخذت كتابة التواريخ تخطو خطى سريعة في الصين مبتدئة بالشو — جنج أو « كتاب التاريخ » الذي هذبه كنفوشيوس أحسن تهذيب ، وبالدزو — جوان وهو شرح لكتاب المعلم الكبير وإحياء له كتب بعد مائة عام من ذلك الوقت ، وبحوليات كتب الغاب التي وجدت في قبر أحد ملوك ويه ، حتى أخرج في القرن الثاني قبل ميلاد

(*) وترجمها ش . هـ . بروت تيلر C. H. Brewtt-Taylor في جزأين وطبعت في شنغهاي سنة ١٩٢٥ .

للسيح أعظم كتب التاريخ الصينية على الإطلاق ، وهو كتاب السجل التاريخى الذى جمعه زوما تشين وبذل فى جمعه جهوداً جبارة .

ذلك أنه لما خلف زوما أباه فى منصب منجم البلاط بدأ عمله بإصلاح التقويم ، ثم وجه جهوده للعمل الذى بدأه أبوه وهو رواية تاريخ الصين من عهد الأسرة الأولى الأسطورية إلى العصر الذى كان يعيش فيه . ولم يكن زوما مولعاً بجمال الأسلوب ، بل كل ما كان يهدف إليه أن يجعل سجله هذا كاملا . وقد قسم كتابه هذا خمسة أقسام هى : (١) حوليات الأباطرة ، (٢) الجداول التاريخية (٣) ثمانية فصول فى المراسم والموسيقى ، وموازين النغمات ، والتقويم ، والتنجيم ، والقرابين الإمبراطورية ؛ والمجارى المائية ، والاقتصاد السياسى (٤) حوليات أمراء الإقطاع ، (٥) تراجم عظماء الرجال . ويبلغ طول العهد الذى تؤرخ له هذه الكتب كلها نحو ثلاثة آلاف عام ، وقد سجلت فى ٥٢٦,٠٠٠ متر صينى نقشت بقلم مدبب على ألواح من الغاب فى صبر طويل[٧٢] . ولما فرغ زوماتشين من وضع كتابه هذا الذى قضى فيه حياته كلها أرسله إلى الإمبراطور وإلى العالم ولم يضف إليه إلا هذه المقدمة المتواضعة :

« لقد وهنت الآن قوة خادمك الجسمية ، وضعف بصره وأظلمت عيناه ، ولم يبق من أسنانه إلا العدد القليل ، وضعفت ذاكرته حتى أصبح ينسى حوادث الساعة حين تدبر عنه ، ذلك أن قواه كلها قد استنفدها إخراج هذا الكتاب . وهو لهذا يرجو أن تصفح جلالتكم عن محاولته الجريئة التى تشفع لها نيته الخالصة ، وأن تتفضل فى لحظات الفراغ بإلقاء نظرة قدسية على هذا الكتاب حتى تعرف من أسباب قيام الأسر السابقة وسقوطها سر نجاح هذه الساعة وإخفاقها ، فإذا ما استخدمت هذه المعرفة لخير الإمبراطورية ، فإن خادمك يكون قد حقق غرضه ومطمعه فى الحياة ، وإن ثوت عظامه فى الينابيع الصفراء »[٧٣] .

ولسنا نجد فى صفحات كتاب زوما تشين شيئا من تألق تين Tsine ، ولا ثرثرة ساحرة أو قصصاً طريفة مكتوبة بأسلوب هيرودوت ، ولا تعاقباً للعلة والمعلول كما نجدهما فى توكيديد Thucydides ، ولا نظرة واسعة الآفاق فى لغة موسيقية كما نجد فى جِبُن Gibbon . ذلك أن التاريخ قلما يرتفع فى الصين من صناعة إلى فن .

وقد ظل المؤرخون الصينيون من أيام زوما تشين إلى أيام سميه زوما جوانج الذى حاول بعد أحد عشر قرناً أن يكتب مرة أخرى تاريخاً عاما للصين ، نقول ظل هؤلاء المؤرخون يكدحون ليدوّنوا فى صدق وإخلاص حوادث أسرة حاكمة أو ملك من أسرة . وكثيراً ما أضاعوا فى هذا العمل كل ما كان لهم من مال ، بل إنهم أضاعوا فيه أحياناً حياتهم نفسها ؛ وكانوا ينفقون جهودهم كلها فى سبيل الحقيقة لا يبغون عنها بديلا ، ولم يدخروا شيئا من هذه الجهود ينفقونه فى جمال الأسلوب ، ولعلهم كانوا فى عملهم هذا على حق ، ولعل التاريخ ينبغى أن يكون علماً لا فناً ، ولربما كانت حوادث الماضى يعتريها الغموض إذا وصلت إلينا فى زينة جِبُن أو فى مواعظ كارليل .

ولم تخل بلادنا نحن(*) أيضاً من مؤرخين ثقال ، وفى وسعنا أن ننافس أية أمة من الأمم فى عدد المجلدات التى خصصت لتسجيل — وجمع — أتفه الأشياء .

أما المقالة الصينية فهى أجمل من التاريخ الصينى وأعظم منه بهجة . ذلك أن الفن فيها غير محرم والفصاحة مطلقة العنان . وأوسع كُتاب المقالات شهرة هان يو العظيم الذى يقدر الصينيون كتبه أعظم تقدير ، ويجلونها إجلالا بلغ من قدره أنهم يطلبون إلى من يقرؤها أن يغسل يديه بماء الورد قبل أن يمسها .

وكان هان يو وضيع المولد ولكنه وصل إلى أرقى المراتب فى خدمة الدولة ، ولم يغضب عليه الإمبراطور إلا لأنه احتج احتجاجاً شديداً صريحاً على تسامحه

(*) يقصد أمريكا . (المترجم)

مع البوذية وما حباها من امتيازات . ذلك أن هان كان يعتقد أن الدين الجديد إن هو إلا خرافة هندية ، وقد آلمه أشد الألم ، وهو الكنفوشي الصميم ، أن يرضى الإمبراطور عن هذا الحلم الموهن الذي أسكر أهل بلاده . ومن أجل هذا رفع مذكرة إلى الإمبراطور (٨٠٣ ق . م) تقتبس منها هذه السطور لتقدم للقارئ مثلا من النثر الصيني ، وإن كانت الترجمة الأمينة قد هوشته :

لقد سمع خادمكم أن أوامر صدرت إلى جماعة الكهنة بأن يسيروا إلى فنج — شيانج ليتسلموا عظما من عظام بوذا ؛ وأن جلالتكم ستشرفون من برج عال على دخوله في القصر الإمبراطوري ؛ وأن أوامر أخرى أرسلت إلى الهيا كل المختلفة تقضي بأن يحتفل بهذا الأثر الاحتفال الذي يليق به . وقد يكون خادمكم أبله ضعيف العقل ، ولكنه يدرك أن جلالتكم لا تفعلون هذا لتنالوا منه نفعاً ، بل تفعلونه مسايرة منكم لرغبة الشعب في أن يحتفل بهذا المجون الباطل في عاصمة البلاد ، في الوقت الذي بلغ فيه الرخاء غايته ، وامتلأت جميع القلوب بهجة وانشراحاً . وإلا فكيف تجيز لكم سامي حكمتكم أن تؤمنوا كما يؤمن عامة الشعب بهذه العقائد السخيفة ؟ وعامة الشعب يا مولاي بطيئو الإدراك يسهل التغرير بهم ، فإذا رأوا جلالتكم تركعون خاشعين أمام قدمي بوذا صاحوا من فورهم : هاهو ذا ابن السماء مصدر الحكمة قويّ الإيمان ببوذا ؛ فهل يحق لنا نحن عامة شعبه أن نضن عليه بأجسامنا .

« ثم يعقب هذا سفع النواصي وحرق الأصابع ؛ وتجمع الناس من كل صوب يمزقون ملابسهم ، وينثرون أموالهم ، ويقضون وقتهم كله من الصباح إلى المساء يحذون حذو جلالتكم . ونتيجة هذا أن تتملك الشعب كله ، صغاره وكباره ، هذه الحماسة نفسها فيهمل الناس ما يجب عليهم أن يفعلوه في حياتهم . وتراهم يحجون إلى الهيا كل زرافات ، يقطعون أيديهم ويشوهون أجسامهم ، ليقدموها قرباناً إلى الإله ، إلا إذا حرمتم عليهم جلالتكم هذا العمل . وبهذا يقضي على

عاداتنا وتقاليدنا ، ونصبح مضغة فى أفواه الناس وهدفاً لسخريتهم على ظهر الأرض .

« ولهذا فإن خادمكم ، وقد تجلل بالعار من أفعال الرقباء(*) ، يضرع إلى جلالتكم أن تتركوا هذه العظام طعمه للنار والماء ، حتى يجتث هذا الشر من منابته فلا يعود أبداً ، وحتى يعرف الشعب أن حكمة جلالتكم أعلى من حكمة عامة الناس . وإذا كان للرب بوذا من القوة ما يستطيع به أن يثأر لنفسه من هذه الإهانة بالكوارث يصبها على رأس من كان سبباً فيها ، فليصب جام غضبه على شخص خادمكم ، وهو فى هذه اللحظة يُشهد السماء على أنه لن يحيد عن عقيدته(٧٤) » .

وبعد فإذا ما قام النزاع بين التحريف والفلسفة فأكبر الظن أن النصر سيكون حليف التخريف ، ذلك بأن العالم قد أوتى من العقل ما يجعله يفضل السعادة على الحكمة ، ومن أجل ذلك نفى هان إلى قرية فى هوانج — تونج حيث كان الناس لا يزالون همجا سذجا . ولم يشك من هذا النفى ، بل شرع يهذب الناس ويجعل من نفسه خير قدوة يقتدون بها عملا بتعاليم كنفوشيوس . وقد بلغ من نجاحه فى عمله هذا أن صورته لا تزال يكتب عليها فى هذه الأيام تلك الأسطورة « لقد كان ينشر الطهر حيثما مر »(٧٥) . ثم استدعى آخر الأمر إلى عاصمة البلاد ، وأدى للدولة خدمات جليلة ، ومات معززاً مكرماً أعظم الإعزاز والتكريم . وقد نصبت له لوحة تذكارية فى هيكل كنفوشيوس — وهو المكان الذى يحتفظ به عادة لأتباع المعلم العظيم أو لكبار شراحه — ؛ وذلك لأنه دافع عن العقائد الكنفوشية دفاعاً لم يبال فيه بما يتعرض له من الأخطار ، وقاوم عقيدة كانت من قبل صالحة نبيلة ولكنها أصبحت الآن منحطة فاسدة .

(*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هى أعمال الرقباء فليرجع إلى الفصل السادس من الباب السادس والعشرين من هذا الكتاب . ويفهم من قول هان يو هذا أن أحداً منهم لم يحتج قط على رصداء الإمبراطور تى دزونج عن انتشار البوذية فى الصين .

الفصل الثامن

المسرح

منزلته الوضيعة فى الصين – منشؤه – المسرحية – النظارة – الممثلون – الموسيقى

ليس من السهل أن نقسم المسرحيات الصينية أقساما جامعة مانعة ، لأن الصينيين لا يقرون أن التمثيل أدب أو فن ، وليس للتمثيل فى الصين منزلة تتناسب مع ما يتمتع به من انتشار واسع بين طبقات الشعب ، وشأنه فى هذا شأن كثير من مقومات الحياة . من أجل ذلك لا نكاد نسمع بأسماء كتاب المسرحيات ، والممثلون ينظر إليهم على أنهم من طبقة منحطة ولو أنفقوا حياتهم كلها فى إعداد أنفسهم لهذا العمل والنبوغ فيه ، ولو بلغوا فيه أعظم ما يبلغه الإنسان من الشهرة وما من شك فى أن شيئاً من هذا كان من نصيب الممثلين فى جميع الحضارات وبخاصة فى العصور الوسطى ، حين كان التمثيل يكافح للخروج من دائرة التمثيل الدينى الصامت المضحك الذى نشأ منه وتفرع عنه .

وكان هذا بعينه منشأ المسرح الصينى ، فلقد كانت الطقوس الدينية فى عهد أسرة جو تشمل أنواعا من الرقص المصحوب بالخاصر . ويقال إن هذا الرقص قد حرم فيما بعد لأنه أصبح مدعاة للفساد الخلقى . ولعل هذا التحريم الذى فصل الرقص عن المراسم الدينية هو الذى نشأ منه التمثيل غير الدينى[٧٦] . وشجع منج هوانج قيام هذا النوع المستقل من التمثيل كما شجع كثيراً من الفنون الأخرى ، وذلك بأن جمع حوله طائفة من الممثلين والممثلات أطلق عليهم اسم : « فتيان حديقة الكمثرى » . غير أن المسرح لم يصبح نظاما قوميا معترفا به إلا فى عهد كو بلاى خان . ذلك أنه لما اختير كونج دوفو — وهو من سلالة كنفوشيوس — فى عام ١٠٣١ ليكون مبعوثاً صينياً إلى البلاط المغولى استقبل فيه باحتفال عظيم شمل فيما

شمل تمثيل إحدى المسرحيات . بيد أن الماجن فى هذه المسرحية كان يمثل كنفوشيوس ومن أجل هذا خرج كونج دو — فو غاضباً ؛ لـكنه لما عاد إلى الصين هو وغيره من الرحالة الذين طافوا ببلاد المغول ، تحدثوا إلى أبناء وطنهم عن ضرب من التمثيل أرقى كثيراً من كل ما عرفته بلادهم منه . ولما أن فتح المغول الصين أدخلوا فيها القصة المقروءة والمسرحية ، ولا تزال أرقى المسرحيات الصينية فى هذه الأيام هى المسرحيات التى كتبت فى أثناء حكم المغول[٧٧] .

وتقدم فن التمثيل على مهل ، لأنه لم يلق معونة من رجال الدولة ولا من رجال الدين . وكان معظم العاملين فيه ممثلين جوالين ، يقيمون طواراً فى حقل خال من الزرع ، ويمثلون ما يشاءون أمام النظارة القرويين الواقفين فى العراء .

وكان الحكام الصينيون يستخدمون الممثلين أحياناً لإقامة حفلات تمثيلية خاصة فى أثناء المآدب ، كما كانت النقابات أحياناً تمثل بعض المسرحيات . وزاد عدد دور التمثيل فى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى ، ولـكنها رغم هذه الزيادة لم يكن منها فى مدينة نانكنج الـكبيرة أكثر من دارين[٧٦] ؛ وكانت المسرحية الصينية مزيجاً من التاريخ والشعر والموسيقى ، وكانت حبكتها عادة تدور حول حادثة تاريخية روائية ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تمثل مشاهد من مسرحيات مختلفة فى ليلة واحدة ؛ ولم يكن لزمن التمثيل حد محدود . فتارة يكون قصيراً وتارة يدوم عدة أيام ، لـكنه فى أكثر الأحيان كان يمتد نحو ست ساعات أو سبع . وهو الزمن الذى تستغرقه أحسن المسرحيات الأمريكية فى هذه الأيام .

وكان يتخلل المسرحيات كثير من التفاخر والخطب الرنانة ، وكثير من العنف فى الأقوال والأعمال ، ولـكن واضع المسرحية كان يبذل غاية جهده ليجعل خاتمتها انتصاراً للفضيلة على الرذيلة ؛ ومن أجل ذلك أصبحت المسرحية الصينية أداة للتعليم والإصلاح الأخلاق ، تعلّم الشعب شيئا من تاريخه ، وتغرس

فى نفوس أفراده الفضائل الكنفوشية — وأهمها كلها بر الأبناء بالآباء وكانت تعمل لذلك باطراد ودأب أفسدا عليها غايتها.

وقلما كان المسرح يزين بالمناظر أو الأثاث، ولم يكن له مَخرج للممثلين، فكان هؤلاء جميعاً سواء منهم أصحاب الأدوار وغير أصحابها، يجلسون على المسرح طوال وقت التمثيل، ويقفون إذا ما جاء دورهم؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يقدم الخدم الشاى لهم وهم جالسون؛ وكان غيرهم من الخدم يطوفون بين النظارة يبيعونهم الدخان والشاى والمرطبات، ويقدمون لهم القطائل ليمسحوا بها وجوههم فى ليالى الصيف؛ وكانوا يشربون ويأكلون ويتحدثون حتى تستلفت أنظارهم قطعة من التمثيل جميلة أو عالية الصوت؛ وكثيراً ما كان الممثلون يضطرون إلى الصراخ بأعلى أصواتهم لكى يسمعهم النظارة، وكانوا فى أغلب الأحيان يلبسون أقنعة على وجوههم حتى يسهل على النظارة فهم أدوارهم.

ولما حرم تشين لونج على النساء أن يظهرن على المسرح كان الرجال يمثلون أدوار النساء، وقد مثلوها تمثيلا بلغ من إتقانه أن النساء حين سمح لهن فى أيامنا هذه بالظهور على المسرح من جديد كان لا بد لهن أن يعملن جاهدات على تقليد مقلديهن حتى يضمن النجاح. وكان لا بد للممثلين أن يتقنوا الرقص والألعاب البهلوانية، لأن أدوارهم كثيراً ما كانت تتطلب منهم المهارة فى تحريك أعضائهم، ولأن كل حركة من حركات التمثيل كانت تؤدى طبقاً لقواعد من الرشاقة معينة منسجمة مع النغمات الموسيقية التى تعزف فى خلال التمثيل؛ وكانت حركات اليدين تستخدم رمزاً للكثير من الأعمال، كما كانت تصحب الكثير من الأقوال، وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة متفقة مع العرف والتقاليد القديمة؛ وكان فن تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين أشباه ماى لانج — فانج يؤلف نصف ما فى المسرحية من شعر.

وقصارى القول أن التمثيلية لم تكن كلها رواية مسرحية، ولم تكن كلها

مسرحية غنائية ، ولم تكن فى أكثر أدوارها مرقصة ، بل كانت مزيجاً من هذا كله تكاد تشبه فى صفاتها مسرحيات العصور الوسطى فى أوربا ، ولكنها كاملة فى نوعها كمال الموسيقى البلسترينائية Palestrina أو الزجاج المصبوغ[٣٩] .

وقلما كانت الموسيقى فنا قائما بذاته عند الصينيين بل كانت تابعة للدين والمسرح ، وكانت الرواية التاريخية تعزو منشأها كما كانت تعزو منشأ كثير غيرها من الفنون إلى الإمبراطور الأسطورى فوشى . وقد احتوى اللى — چى أو « كتاب المراسم » الذى يرجع عهده إلى ما قبل كنفوشيوس عدة رسائل فى الموسيقى وأسماء عدة رسائل فيها ، كما احتوى الدزو — چوان الذى كتب بعد مائة عام من أيام كنفوشيوس وصفاً بليغاً للموسيقى التى كانت تصحب غناء قصائد ويه . وما أن حل عهد كو بج مو — دزه حتى كان السُّلّم الموسيقى الصينى قد ثبت وتقادم عهده ، وحتى كانت البدع التى أخذت تتسرب إليه تقض مضاجع الهادئين المحافظين ، وحتى أخذ هذا الحكيم يضج بالشكوى من الأنغام الداعرة الشهوانية التى بدأت فى أيامه تحل محل أنغام الماضى المتفقة فى رأيه مع الفضائل وكرم الأخلاق[٨٠] .

ثم شرع النفوذ اليونانى البكترى والنفوذ المغولى يتسربان إلى الموسيقى الصينية حتى تركا آثارهما فى السلم الموسيقى الصينى المعروف ببساطته .

وقد عرف الصينيون تقسيم البعد الكلى فى الموسيقى إلى اثنى عشر نصفاً من أنصاف النغمات ؛ ولكنهم كانوا يؤثرون كتابة موسيقاهم فى سلم خماسى يطابق على وجه التقريب نغماتنا F.G.A.D.C وكانوا يطلقون على هذه النغمات الكاملة أسماء « الإمبراطور » و « رئيس الوزراء » و « الرعية » و « شئون الدولة » و «صورة الكون » . وكانوا يفهمون التوافق فى الألحان ، ولكنهم قلما كانوا يعنون به إلا إذا أرادوا ضبط آلاتهم الموسيقية . وكانت هذه الآلات تشمل من آلات النفخ الناى والبوق والمزمار والصفارة ، ومن الآلات الوترية

الـكمان الأوسط والمزهر وغيرها ، ومن آلات الدق الدفوف والطبول والأجراس والصنوج . وكانت لهم ألواح موسيقية من اليشب والعقيق(٨١) . وكانت النغمات التى تنبعث من هذه الآلات عجيبة مزعجة لأذن المستمع الغربى ، كما تبدو ، فى ظننا ، أحسن الأغانى الغربية عجيبة مزعجة للمستمع الصينى . ولـكن هذه النغمات هى التى أثرت فى نفس كنفوشيوس فامتنع عن أكل اللحم ، وأصبح رجلاً نباتيا ، وهى التى جعلت كثيرا من مستمعيها يفرون من منازعات الحياة واختلاف الأفكار والإرادات ، وهو الفرار الذى لا يكون إلا نتيجة الاستسلام إلى الموسيقى الشجية .

ومن أقوال هان يو فى هذا : « لقد علم الحـكماء الإنسان الموسيقى لـكى يفشعوا ما فى نفسه من حزن وغم »(٨٢) وكانوا يؤمنون بقول نتشه : « لولا الموسيقى لـكانت الحياة عبثاً لا خير فيه » .

الباب الخامس والعشرون

عصر الفنانين

الفصل الأول

النهضة فى عهد أسرة سونج

١ — اشتراكية وانج آن — شى

أسرة سونج — رئيس وزراء متطرف — طريقته فى علاج التعطل — تنظيم الصناعة — قوانين الأجور والأثمان — تأميم التجارة — مشروعات الدولة للتأمين من التعطل والفقر والشيخوخة — المناصب العامة بالامتحان هزيمة وانج آن — شى

لم تفق أسرة تانج من هزيمتها على يد آن لو — شان وثورته . فقد عجز الأباطرة الذين خلفوا منج هوانج عن إعادة سلطان الإمبراطور إلى سابق عهده فى أجزاء الإمبراطورية المختلفة ، ثم انقضى عهد تلك الأسرة بعد مائة عام من وهن الشيخوخة ، وجاءت بعدها خمس أسر لم يطل عهدها مجتمعة أكثر من ثلاث وخمسين سنة ، ولكنها بلا استثناء بلغت من الضعف مابلغته من قصر الأجل. وكانت البلاد فى حاجة إلى يد قوية قاسية لتعيد إليها النظام شأن الدول كلها فى مثل هذه الأحوال . وهذا ما حدث فعلا ، فقد خرج جندى مقدام من غمارهذه الفوضى وأسس أسرة سونج واستولى على العرش وتسمى باسم تاى — دزو ، وأعاد الحكومة إلى ما كانت عليه من البيروقراطية فى أيام كنفوشيوس ، كما أعاد طريقة تقلد المناصب الحكومية بالامتحانات العامة ، وحاول أن يحل مشاكل استغلال الفقراء بوضع نظام للإشراف على حياة الأمة الاقتصادية لايكاد يختلف

عن النظام الاشتراكى فى شىء ، ومستعيناً فى هذا الحل بمستشار إمبراطورى خاص يشرف على هذه الشئون .

ويعد وانج آن — شى (١٠٢١ — ١٠٨٦) من الشخصيات الفذة التى تبعث الحياة والروح فى تاريخ الصين الطويل ؛ وقد خلد التاريخ ذكره رغم هذا الطول ، وإن شخصيته لتبدو لنا ناصعة فذة رغم ما بين بلادنا وبلاده من تناء .

ذلك أن من مساوئ هذا التنائى أن يجعل انفصالنا الطويل عن مسرح الحوادث الأجنبية يطمس معالم الاختلاف فى الأماكن وفى أحوال الناس ، ويخفى ما بين الشخصيات الشديدة الاختلاف من فروق ، ويخلع عليها كلها غشاوة من وحدة المظهر والصفات تجعلها كلها كامدة كليلة . لكن وانج شذّ عن هذه القاعدة ، فقد كان حتى فى رأى أعدائه — وإن كثرتهم فى حد ذاتها لدليل على جلال شأنه — رجلا يختلف عن سائر الرجال ، وهب حياته لإقامة نظام صالح لحكم البلاد ، وعمل مخلصاً لرفاهية شعبه ، غير مبال بما يصيبه فى سبيل هذا العمل من نصب أو أذى ، لا يدخر فى ذلك جهداً ، ولا يترك لنفسه من الوقت ما يعنى فيه بشخصه أو بملبسه ، ولا يقلّ عن كبار العلماء فى أيامه علماً وبراعة فى الأسلوب ، يحارب فى شجاعة جنونية الطائفة الجامدة المتحفظة الغنية صاحبة السلطان القوى فى أيامه . وتشاء المصادفات أن يكون الشخص العظيم الوحيد الذى يشبهه فى تاريخ بلاده هو سميه وانج مانج الذى عاش قبله بنحو ألف عام — أى أن مجرى التاريخ الصاحب المضطرب قد سار ألف عام كاملة منذ الوقت الذى أجريت فيه أول تجربة بارزة لتحقيق المبادئ الاشتراكية .

وما كاد وانج آن — شى يتولى أكبر منصب فى مقدور الإمبراطور أن يوليه إياه ، حتى وضع ذلك المبدأ العام وهو أن الحكومة يجب أن تكون مسئولة عن رفاهية جميع سكان البلاد . ومن أقواله فى هذا : « يجب أن تسيطر الدولة على جميع شئون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها بنفسها ، وأن يكون الهدف

الذى ترمى إليه من وراء ذلك غوث الطبقات العاملة ، وأن تحول بينها وبين أن يذلها الأغنياء ويطحنوها طحن الرحى »(١) . وقد بدأ عمله بإلغاء نظام السخرة الذى ظلت الحكومة الصينية تفرضه على الصينيين من أقدم العهود ، فكانت تأخذ الناس بمقتضاه من الحقول حين تكون أعمال الزرع أو الحصاد فى أشد الحاجة إليهم ؛ ومع هذا فإنه أقام أعمالا هندسية عظيمة لوقاية البلاد من غوائل الفيضان ...

ومن أعماله أنه أنقذ الزراع من المرابين الذين كانوا يستعبدونهم ، وأقرضهم أموالا بفوائد كانت تعد وقتئذ قليلة ليستعينوا بها على زرع أراضيهم ، وأمدّ الفلاحين بالبذور من غير ثمن ، ومنحهم من الأموال ما يعينهم على بناء مساكنهم على شريطة أن يردوا هذه الأموال إلى الدولة من غلات أراضيهم . وأنشأ لجاناً فى كل مركز من المراكز لتحديد أجور العمال وأثمان ضرورات الحياة . وأقدأمّم التجارة فكانت الحكومة تبتاع محصول كل إقليم من أقاليم البلاد ، وتخزن بعضه فى الإقليم ذاته اتقاء للطوارئ المحلية ، ثم تنقل ما بقى منه ليباع فى مستودعات أقامتها الدولة فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم إنه وضع نظاما لميزانية الدولة ، فعيّن لجنة للميزانية تعرض عليه مقترحاتها وما تقدره من النفقات لكل مصلحة حكومية ، وكانت الحكومة تتمسك بهذه التقديرات فى إدارة أعمال الدولة ، فاقتصدت بذلك كثيراً مما كان يتسرب قبل من الأموال إلى الجيوب الواسعة الخلفية التى تعترض طريق كل درهم حكومى . يضاف إلى هذا كله أنه خصص معاشات للشيوخ والمتعطلين والفقراء ، وأصلح أساليب التعليم والامتحانات العامة ، وابتكر ضروباً من الاختبارات ليعرف بها مقدار ما يعلمه الطلاب من الحقائق لا من الألفاظ ، ويستبدل بعناية الناس بالأسلوب الأدبى عنايتهم بتطبيق مبادئ كنفوشيوس على الواجبات العامة والأعمال اليومية . وقلّل من اهتمام المتعلمين بالشكليات وبالحفظ عن ظهر قلب ، وقد أتى على البلاد حين من الدهر

ألقى فيه « التلاميذ أنفسهم » ، كما يقول أحد المؤرخين الصينيين ، « فى مدارس القرى بكتب البلاغة وأخذوا يدرسون الكتب المبسطة فى التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسى »[٢] .

تُرى لم أخفقت هذه التجربة النبيلة ؟ لعل من الأسباب الأولى لإخفاقها أن فيها عناصر عملية أكثرمنها مثالية . وأولى هذه العناصر أنه وإن كان معظم الضرائب يجبى من الأغنياء — وذلك يتفق مع المبادئ الاشتراكية التى كان يسير عليها وانج آن — شى — ، فإن الدولة كانت تحصل على جزء من المال الذى كانت تحتاج إليه لمواجهة نفقاتها الكثيرة المتنوعة باستيلائها على جزء من محاصيل كل حقل من الحقول ، وسرعان ما انضم الفقراء إلى الأغنياء فى الشكوى من قدح الضرائب ، لأن الناس فى جميع الأوقات أكثر استعداداً للمطالبة بإلقاء الأعمال على كاهل الحكومة منهم لأداء ما يلزمها من الأموال للقيام بها .

يضاف إلى هذا أن وانج آن — شى أنقص الجيش العامل لأنه يستنزف جزءاً كبيراً من موارد البلاد ، ولكنه استعاض عنه بإصدار قانون عام يفرض على كل أسرة فيها من الذكور أكثر من فرد واحد أن تقدم من أبنائها جنديا فى وقت الحرب . وأهدى الرجل إلى كثير من الأسر خيلا وعلفاً لها ، ولكنه اشترط عليها أن تعنى بالخيل العناية الواجبة ، وأن تقدمها إلى الحكومة إذا احتاجت إليها فى الأعمال العسكرية . فلما أن تبين الناس أن الغزوات والثورات أخذت تزيد من مطالب الحكومة العسكرية فقدَ وانج آن — شى فى أسرع وقت مكانته بين الشعب وحبه إياه . وفوق هذا كله فإنه قد وجد من العسير عليه أن يعثر على الرجال الأشراف الأمناء ليعهد إليهم بالأعمال التى شرع فى تنفيذها ، وما لبث الفساد أن استشرى فى جميع نواحى الإدارة البيروقراطية الضخمة ، ووجدت الصين نفسها — كما وجدت نفسها أمم أخرى كثيرة من

بعد — مرغمة على أن تختار بين اثنتين كلتاهما شر من الأخرى ، فإما الانتهاب الفردى وإما الفساد الحكومى .

وقام المحافظون بزعامة أخى وانج نفسه والمؤرخ زوما كوانج يندون بهذه التجربة الحكومية ويظهرون فسادها ؛ ويقولون إن الفساد والعجز المتأصلين فى الطبيعة البشرية يجعلان إشراف الحكومة على الصناعات مستحيلا ، وإن خير النظم الحكومية هو النظام الذى يدع الأمور تجرى فى مجراها ، والذى يعتمد على الدوافع الاقتصادية الطبيعية التى تحمل الناس على إنتاج السلع وأداء الخدمات . واستخدم الأغنياء الذين آذاهم ما فرض على أموالهم من ضرائب باهظة واحتكار الحكومة للتجارة ، استخدم هؤلاء ما لهم من ثروة وقوة فى العمل على الحط من شأن النظم التى وضعها وانج آن — شى ومقاومة تنفيذها ، والقضاء عليها . وزاد ضغط هذه المعارضة المنظمة أحسن تنظيم على الإمبراطور . وحدث أن تعاقبت على البلاد عدة سنين من الجدب وفيضان الأنهار ، اختتمت بظهور مذنب فى السماء ، فلم ير ابن السماء نفسه بدًّا من إقصاء وانج عن منصبه ، وإلغاء القوانين التى أثارت غضب الشعب ، ورفع أعداء وانج إلى مناصب الحكم ، وعادت الأمور مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل[٣] .

٢ — إحياء العلوم

ازدياد عدد العلماء — الورق والحبر فى الصين — خطوات فى سبيل اختراع الطباعة — أقدم كتاب معروف — العملة الورقية — الحروف المتنقلة — مجموعات الرسائل ، ومعاجم اللغة والموسوعات

لقد كانت حياة الشعب الصينى فى هذه الأثناء تجرى فى مجراها العادى خلال جميع ضروب التجارب والنظم الإدارية ، لا تضطرب ولا تؤثر فيها الحادثات التى كانت لبعدها لا تصل إلى مسامعه ، إلا بعد أن تمر وتنقضى بزمان طويل . لقد زال حكم آل سونج فى شمالى البلاد ولكنه عاد من جديد فى جنوبيها

وانتقلت العاصمة من پيان ليانج (وهي الآن كايفنج) إلى لين — آن (هانج تشاو الآن).

وبدت مظاهر العز والنعمة في العاصمة الجديدة كما كانت في العاصمة القديمة، وأقبل التجار من كل فج يبتاعوا منتجات الصناعة الصينية والفن الصيني. وضرب الإمبراطور هوى دزونج نفسه (١١٠١ - ٢٥) لشعبه أروع الأمثال في پيان — ليانج بأن كان فناناً قبل أن يكون حاكما، فكان في الوقت الذي يهاجم فيه البرابرة عاصمة ملكه يشتغل برسم الصور الفنية. وقد أنشأ مجمعاً للفن بعث النشاط في الفنون بما كان يعرض فيه من روائعها وما يغدقه على الفنانين من جوائز جعلت الفنون أكبر مفاخر أسرة سونج وأجدرها بتخليد ذكراها في سجلات الحضارة الإنسانية.

وقد حوت المتاحف وقتئذ مجموعات موحية من النقوش الفنية على البرنز وأحجار اليشب ومن الصور الزيتية والمخطوطات؛ وأنشئت في البلاد دور الكتب التي بقي بعضها بعد أن زالت أمجاد الحروب، وكانت كلتا العاصمتين الشمالية والجنوبية كعبة يحج إليها العلماء والفنانون.

وفي أيام هذه الأسرة دخلت الطباعة البلاد فأحدثت في حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن لم يدرك الناس مداها وقتئذ، وكان هذا الفن قد نما شيئاً فشيئاً في خلال القرون الطوال حتى بلغ أوجه في أيام تلك الأسرة، فأتم مرحلتيه الكبيرتين إذ صنعت الألواح المحفورة لتطبع عليها صفحات كاملة، وصُفت الحروف المفككة المفردة، من المعادن المجموعة في قوالب. وكان هذا الاختراع الصيني الخالص[٤] أعظم اختراع في تاريخ الجنس البشري بعد الكتابة.

وكانت الخطوة الأولى في هذا الاختراع العظيم هي كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب اللذين قنع بهما الصينيون. ذلك أن الحرير غالي الثمن والغاب ثقيل، وقد احتاج مودى ... إلى ثلاث

عربات نقل يحمل عليها معه الكتب المدونة على شرائح الغاب التى كانت أثمن ما يملك من متاع الدنيا .

وكان شى هوانج — دى يضطر إلى مراجعة مائة وعشرين رطلا من الوثائق الحكومية فى كل يوم[٥] . فلما كان عام ١٠٥ ب . م أبلغ رجل يدعى تساى لون الإمبراطور أنه اخترع مادة للكتابة عليها أقل من الغاب ثمناً وأخف منه وزناً مصنوعة من لحاء الشجر والقنب الهندى والخرق وشباك السمك . وعين الإمبراطور تساى لون هذا فى منصب كبير، ومنحه لقباً رفيعاً ، ولكنه تورط مع الإمبراطورة فى بعض الدسائس ، وافتضح أمره «فذهب إلى منزله ، واغتسل ومشط شعره ، ولبس أحسن ثيابه ، وتجرع السم »[٦] . وسرعان ما انتشرت الصناعة الجديدة انتشاراً واسع النطاق ؛ وشاهد ذلك أن أقدم ما لدينا من الورق هو ما وجده سير أورل اشتين Sir Aurel Stein فى طنف من السور الكبير، وهو مجموعة من الوثائق الرسمية دونت فيها حوادث وقعت فيما بين عامى ٢١، ١٣٧ بعد الميلاد ، وأكبر الظن أنها كانت معاصرة لآخر الحوادث التى دونت عليها . ولهذا فإن عهدها يرجع إلى حوالى عام ١٥٠ م أى بعد خمسين عاماً لا أكثر من الوقت الذى أبلغ فيه تساى لون الإمبراطور نبأ اختراعه[٧] . وكان هذا الورق القديم يصنع من الخرق البالية دون غيرها من المواد ، فهو من هذه الناحية شبيه بما يصنع فى هذه الأيام من ورق يحتاج فيه إلى طول البقاء . واستطاع الصينيون أن يرتقوا بصناعة الورق إلى أعلى درجة وذلك باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجلاتين مخلوطة بعجينة نشوية ليقووا بها الألياف ، ويجعلوا الورق سريع الامتصاص للحبر . ولما أن أخذ العرب عن الصينيين هذه الصناعة فى القرن الثامن الميلادى ، ثم أخذتها أوربا عن العرب فى القرن الثالث عشر ، كانت قد بلغت غاية الكمال .

وكان اختراع الحبر أيضاً فى بلاد الشرق . نعم إن المصريين قد صنعوا الورق

والحبر فى العهد الذى نستطيع أن نسميه أقدم العهود ، ولـكن الصين هى التى أخذت عنها أوربا طريقة خلط الحبر بسناج المصابيح . ولقد كان « الحبر الهندى» صينى الأصل . وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبق شائع الاستعمال فى الصين من أيام أسرة هان . فلما ظهر الحبر الأسود فى القرن الرابع الميلادى أصبح استعمال الحبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة . وكان اختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة ، لأنه كان أصلح المواد للاستعمال فى القوالب الخشبية ، ويمتاز بأن الـكتابة به لا تـكاد تمحى مطلقاً فلقد وجدت أكداس من الورق فى آسية الوسطى ظلت تحت المـاء حتى عطنت ولـكن ما عليها من الـكتابة ظل واضحاً تستطاع قراءته(٩) .

وكان استخدام الأختام فى مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التى نشأت عنها الطباعة . ولا يزال اللفظ الصينى الذى يطلق على الطباعة هو نفسه الذى يطلق على الخاتم . وكانت الأختام الصينية تطبع فى بادئ الأمر على الطين كما كانت تطبع عليه فى بلاد الشرق الأدنى ، ثم أخذوا فى القرن الخامس الميلادى يُنَدُّونها بالحبر . وفى هذه الأثناء كانت أمهات الـكتب الصينية القديمة تحفر على الحجر فى القرن الثانى بعد الميلاد . وسرعان ما نشأت بعدئذ عادة استخراج صور من هذه النقوش المحفورة بعد طلائها بالحبر . وفى القرن السادس نجد الدَّوِيين يستعملون أختاما من الخشب لطبع الرقى السحرية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت أخذ المبشرون البوذيون يجرون التجارب بقصد استخراج عدة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضاح وطباعة على المنسوجات ، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود . وأقدم ما وصل إلينا من الطباعة على لوح محفور ألف ألف رقية سحرية طبعت فى اليابان حوالى عام ٧٧٠ م مكتوبة باللغة السنسكريتية وبحروف صينية ، فهى بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات فى بلاد آسية . وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب (الـكلشيهات) فى أيام أسرة تانج ، ولـكن يلوح

أنها قد تلفت أو فقدت فى أثناء الفوضى والقلاقل التى أعقبت عهد منج هوانج[١٠].

وحدث فى عام ١٩٠٧ أن استطاع سير أورل اشتين أن يقنع الكهنة الدويين فى بلاد التركستان بأن يسمحوا له بفحص « كهوف الألف بوذا » التى فى تون — هوانج . فلما تم له ذلك عثر فى حجرة منها — يلوح أنها قد سد مدخلها حوالى عام ١٠٣٥ ولم تفتح بعدئذ إلا فى عام ١٩٠٠ — على ١١٣٠ إضمامة من الأوراق تشتمل كل منها على نحو اثنى عشر ملفاً مخطوطاً أو أكثر من اثنى عشر ، تتكون منها كلها مكتبة من خمسة عشر ألف كتاب ، مكتوب على الورق ، قد حفظت بعناية فبقيت فى حالة جيدة كأنها لم تكتب إلا قبل العثور عليها بيوم واحد . وهذه المخطوطات هى التى عثر من بينها على أقدم كتاب مطبوع فى العالم — كتاب « الحكم الماسية » — وهو ملف يختتم بالعبارة الآتية « طبعه فى (اليوم المقابل لليوم) الحادى عشر من شهر مايو سنة ٨٦٨ وانج — چيه ، ليوزع بغير ثمن تخليداً لذكرى والديه وإجلالا لها » . ووجدت بين هذه المخطوطات ثلاثة كتب أخرى مطبوعة ، يدل واحد منها على تطور جديد فى شكل الكتب . ذلك أنه لم يكن ملفا ككتاب « الحكم الماسية » بل كان كتاباً صغيراً مطويا هو أول ما عرف من هذا النوع من الكتب التى لا يحصى عديدها .

وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة فى بلاد الصين باعثاً دينياً ، كما كانت الحالة فى أوربا فى العصور الوسطى المتأخرة ، وكما هى الحال بين بعض الشعوب البدائية فى الوقت الحاضر . ذلك أن الأديان فى ذلك الزمن القديم كانت تسعى لنشر عقائدها من طريق العين ومن طريق الأذن معاً ، ولجعل صلواتها ورقاها وأقاصيصها فى متناول كل إنسان . وتكاد أوراق اللعب تعادل هذه المطبوعات الدينية فى قدم العهد — فقد ظهرت هذه الأوراق فى الصين فى عام ٩٦٩ أو قبل ذلك العام بقليل ، ثم انتقلت من الصين إلى أوربا فى أواخر القرن الرابع عشر[١٢] .

وقد طبعت الكتب الأولى على قوالب خشبية ، وأول ما وصل إلينا من نبأ عن هذا العمل ما ورد فى رسالة صينية كتبت حوالى ٨٧٠ م فقد جاء فيها : « حدث وأنا فى سشوان أن فحصت فى حانوت وراق كتاباً مدرسياً مطبوعاً عن أصل خشبى »[١٣] . ويلوح أن فن الطباعة كان قد تقدم تقدماً كبيراً فى الوقت الذى عثر فيه على هذا الخطاب . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا التقدم حدث أولا فى الولايات الغربية مثل سشوان والتركستان ، وهى الولايات التى دفعها فى تيار المدنية المبشرون البوذيون الذين جاءوا من الهند والذين كانت لهم من عهد بعيد ثقافة خاصة مستقلة عن ثقافة العواصم الشرقية . ثم دخلت طريقة الطبع بالقوالب إلى الولايات الشرقية فى أوائل القرن العاشر حين أقنع فنج — دو أحد رؤساء الوزارات الإمبراطور أن يخصص بعض المال لطبع أمهات الكتب الصينية القديمة . وتطلب القيام بهذا العمل عشرين عاما ، وكان مقدار ما طبع منها مائة وثلاثين مجلداً ، وذلك لأن المطبوع لم يكن مقصوراً على نصوص هذه الكتب بل شمل أيضاً أشهر شروحها . ولما أن تم طبع هذه الكتب انتشرت فى البلاد انتشاراً واسعاً كان سبباً فى إحياء المعارف القديمة وتقوية دعائم العقائد الكنفوشية فى عهد الملوك من أسرة سونج .

وكان صنع الأوراق النقدية من أقدم ما أخرجته الطباعة بالقوالب . وقد ظهرت هذه الأوراق أولا فى سشوان فى القرن العاشر الميلادى ثم أصبحت عملا هاما من أعمال الحكومة الصينية ؛ ولم يكد يمضى على اختراعها قرن من الزمان حتى أدت إلى تجارب فى التضخم المالى ، واتبعت بلاد الفرس فى عام ١٢٩٤ م هذه الطريقة الجديدة من طرق خلق الثروة . وقد وصف ماركو بولو فى عام ١٢٩٧ فى دهشة بالغة ما يظهره الصينيون من تقدير لهذه القصاصات من الورق . أما أوربا فلم تعرف النقود الورقية إلا فى عام ١٦٥٦ حين أصدرت أولى عملتها منها[١٤] .

كذلك كانت حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من اختراع الصينيين ، ولكن عدم وجود حروف هجائية محددة محصورة من جهة ، ووجود نحو ٤٠٠٠٠ من العلامات فى اللغة الصينية المكتوبة من جهة أخرى ، جعلا استعمال هذا الاختراع ترفاً يتعذر الانتفاع به فى بلاد الشرق الأقصى . وقد صنع بى شنج حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من الخزف فى عام ١٠٤١ م ، ولكن هذا الاختراع لم ينتفع به إلا قليلا . وفى عام ١٤٠٣ صنع أهل كوريا أول ما عرف فى التاريخ من حروف الطباعة المعدنية ؛ وكانت طريقة صنعها أن تحفر الحروف أولا على الخشب الصلب ، ثم تصنع لهذه النماذج قوالب من عجين الخزف تجفف فى الأفران ، ثم تصب فيها الحروف المعدنية بعدئذ . وسرعان ما استخدم تاى دزونج أعظم أباطرة كوريا هذا الاختراع لتستعين به الحكومة فى أعمالها ، وللاحتفاظ بالحضارة القائمة . ومن أقوال هذا المليك المستنير : « من شاء أن يحكم فعليه أن يكون ذا علم واسع بالقوانين وبالآداب القديمة ؛ ذلك بأنه إذا عرف هذه القوانين والآداب استطاع أن يكون عادلا مستقيما فى أعماله الخارجية وأمكنه أن يكون بينه وبين نفسه ذا خلق كريم ؛ وبهذا ينشر السلام والنظام فى البلاد . وإذ كانت بلادنا الشرقية تقع وراء البحار ، فإن الكتب التى تصلنا من بلاد الصين قليلة العدد ، وكثيراً ما تكون الكتب المطبوعة على القوالب ناقصة .

« هذا إلى أنه يتعذر طبع كل ما لدينا من الكتب كاملة . ولهذا آمر أن تصنع الحروف من البرنز ، وأن يطبع كل ما تستطيع يداى أن تصل إليه بلا استثناء حتى ينتقل ما تحتويه هذه الكتب إلى أحفادنا من بعدنا ، وتلك نعمة من أجل النعم التى تعود على البلاد إلى أبد الدهر . على أن نفقات هذا العمل الجليل لن تفرض ضرائب على الشعب ، بل سأتحملها أنا وأسرتى ومن يريد أن يسهم فيها من الوزراء »(١٥)

وانتشرت حروف الطباعة المفردة المتنقلة من كوريا إلى اليابان ثم عادت بعدئذ إلى الصين ، ولكن يظهر أنها لم تعد إليها إلا بعد اختراع جوتنبرج Gutenberg الضئيل فى أوربا . واستمر الكوريون يستخدمون حروف الطباعة المتنقلة قرنين كاملين ثم عفا عليها الزمان . أما فى الصين فإن هذه الحروف لم تكن تستخدم إلا فى أوقات متفرقة ، حتى نقل التجار والمبشرون أساليب الطباعة الغربية إلى بلاد الشرق ، كمن يعيد هدية قديمة إلى مهديها . وظل الصينيون من أيام فنج دو إلى أيام لى هونج — چانج مستمسكين بطريق الطباعة على القوالب لأنهم كانوا يرونها أكثر الطرق ملاءمة للغتهم . واستطاعت المطابع الصينية رغم هذا القصور أن تغمر الشعب بما لا يحصى من الكتب ، فأصدرت فيما بين عامى ٩٩٤ ، ١٠٦٣ م مئات من المجلدات فى تواريخ الأسر الحاكمة ، كما أتمت فى عام ٩٧٢ إصدار قوانين الشريعة البوذية فى خمسة آلاف مجلد(١٦) . ذلك أن الكتاب وجدوا فى يدهم سلاحا لم يكن لهم به عهد من قبل ، وكثر عدد من يقرءون كتبهم فلم يعد مقصوراً على أعيان البلاد ، بل شمل الأعيان والطبقة الوسطى على السواء ، وشمل كذلك بعض أفراد الطبقة الدنيا نفسها . واصطبغ الأدب بصبغة أكثر دمقراطية وأكثر تباينا مما كان عليه من قبل . وجملة القول أن فن الطباعة بالقوالب كان من أسباب النهضة العلمية فى عهد أسرة سونج .

وكان من نتائج هذا الاختراع المجيد أن غمر البلاد فيض من الأدب لم يكن له مثيل من قبل ، وأن عمت البلاد نهضة فى الآداب الإنسانية شملت كل ما شملته النهضة فى إيطاليا وسبقتها بمائتى عام كاملة . وطبعت من الآثار الأدبية القديمة نحو مائة طبعة ، كما طبعت لها شروح وتعليقات تبلغ الألف عدّا . وأجاد المؤرخون العلماء دراسة الحياة الصينية فى الأيام الخالية ، ووضعوها بين أيدى ملايين القراء مطبوعة بحروف الطباعة الجديدة العجيبة . ونشرت مجموعات كبيرة من الأعمال الأدبية ، ووضعت معاجم لغوية واسعة ، وألفت موسوعات ضخمة

جبارة انتشرت فى طول البلاد وعرضها ، وكانت أولى ما صدر من الموسوعات ذات الشأن هى الموسوعة التى أصدرها ووشو (٩٤٧ — ١٠٠٢) ؛ وقد حالت الصعاب الناشئة من عدم وجود حروف هجائية سهلة دون إصدارها مرتبة ترتيباً هجائياً ، فاضطر إلى تقسيمها حسب الموضوعات . وكان أهم ما احتوته من المعلومات ما يتصل منها بالعالم المادى .

وفى عام ٩٧٧ أمر الإمبراطور تاى دزونج أحد أباطرة أسرة سونج أن تجمع موسوعة أخرى أوسع من الأولى ، بلغت مجلداتها اثنين وثمانين مجلداً ، معظمها مختارات من ١٬٦٩٠ كتاباً كانت موجودة قبل ذلك الوقت . ثم وضعت موسوعة أخرى فيما بعد فى عهد الإمبراطور يونج لو من أباطرة أسرة منج (١٤٠٣ — ١٤٢٥) ، وبلغت مجلداتها عشرة آلاف ، ولكن كثرة النفقات حالت دون طبعها . وحدث فى فتنة الملاكمين التى قامت فى عام ١٩٠٠ أن احترقت النسخة الوحيدة التى أورثها ذلك العهد الأجيال التالية فلم يبق منها إلا مائة وستون مجلداً[١٧] . إن التاريخ لم يشهد قبل تلك الأيام عهداً سيطر فيه العلماء على الحضارة كما سيطروا عليها فى ذلك العهد .

٣ — بعث الفلسفة

چو — شى — وانج يانج — منج — ما وراء الخير والشر

لم يكن هؤلاء العلماء كلهم من أتباع كنفوشيوس ، ذلك أن مدارس فكرية منافسة لمدرسته قد نشأت فى خلال القرون الخمسة عشر الخالية ، وحدثت فى الحياة العقلية لهذا الشعب الخصيب حركات قوية أثارت لديه أعنف الجدل حول هذه الآراء والآراء المناهضة لها . ولم تقف المبادئ البوذية التى تسربت إلى نفوس الصينيين عند عامة الشعب وطبقاته الوسطى ، بل وصلت إلى الفلاسفة أنفسهم ، فآثر معظمهم الآن طريقة العزلة والتأمل ، وبلغ من بعضهم أن احتقروا

كنفوشيوس لاحتقاره فلسفه ما وراء الطبيعة ، وتبذوا الطريقة التى كان يتبعها فى معالجة مشاكل الحياة والعقل ، وعابوا عليها أنها طريقة خارجية لجة إلى حد كبير . وأضحت طريقة التأمل الذاتى هى الطريقة المستحبة فى دراسة الكون والكشف عن خفاياه ، وظهرت لأول مرة نظرية فلسفة المعرفة بين الصينيين ، وصار الأباطرة يتخذون الفلسفة البوذية أو الدوية وسيلة يتحببون بها إلى الشعب أو يسيطرون بها عليه ، ولاح فى وقت من الأوقات أن سلطان كنفوشيوس على العقلية الصينية قد انقضى عهده إلى غير رجعة .

لكن چوشى أنجاه من هذا المصير . وكما أن شنكارا قد طعم الفلسفة العقلية التى سادت الهند خلال القرن الثامن الميلادى بما كان للأبانيشاد أحياناً من فراسة وبُعد نظر ؛ وكما أن أكويناس Aquinas فى أوربا قد مزج فى القرن الثالث عشر مبادئ أرسطو والقديس بولس فأخرج منها الفلسفة الكلامية التى كانت لها الغلبة والسيادة خلال العصور الوسطى ، كذلك فعل حوشى فى الصين فى القرن الثانى عشر ، إذ أخذ حكم كنفوشيوس المتفرقة غير المتماسكة ، وأقام منها طريقة فلسفية بلغت من النظام حداً أرضى ذوق هذا العصر الذى ساد فيه العلماء ، وبلغت من القوة درجة جعلت أتباع كنفوشيوس يتزعمون الحياة السياسية والعقلية فى الصين طوال سبعة قرون

وكان أهم ما ثار حوله الجدل الفلسفى فى ذلك الوقت معنى فقرة فى كتاب العلم العظيم يعزوها كل من چوشى ومعارضيه إلى كنفوسيوس(*) ، فكان المتجادلون يتساءلون : ما معنى هذا المطلب العجيب القائل بأن نظام الدول يجب أن يقوم على تنظيم أحوال الأسرة ، وأن يقوم تنظيم الأسرة على تهذيب الإنسان لنفسه ، وأن تهذيب النفس يقف على الإخلاص فى التفكير ، وأن الإخلاص فى

(*) أوردنا نص هذه الفقرة كاملا فى ص ٥٥

التفكير ينشأ من « انتشار المعرفة إلى أبعد حد » وذلك عن طريق « البحث عن حقائق الأشياء ؟ » .

وكان جواب چوشي عن ذلك أن هـذه الفقرة تعنى بالضبط ما يفهم من ألفاظها ؛ تعنى أن الفلسفة والأخلاق وسياسة الحكم يجب أن تبدأ كلها بدراسة الحقائق دراسة متواضعة . وكان يقبل بلا معارضة أو مناقشة النزعة الإيجابية التى اتصف بها عقل المعلم الأكبر ؛ ومع أنه كان يجهد نفسه فى دراسة علم أصول الكائنات الحية دراسة أطول مما كان يرتضيه كنفوشيوس لو أنه كان حيا ، فقد أوصله هذا الدرس إلى أن يمزج الإلحاد بالتقوى مزجاً غريباً لعله كان يعجب حكيم شانتونج . وكان چوشي يعترف بوجود شيء من الاثنينية المتناقضة فى الحقائق الواقعية كما كان يعترف بها كتاب التغيرات الذى كانت له على الدوام السيطرة على علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين ؛ فهو يرى أن اليانج والين — أى الفاعلية والإنفعالية ، أو الحركة والسكون — يمتزجان فى كل مكان امتزاج الذكورة والأنوثة ، ويؤثران فى العناصر الخمسة الأساسية : الماء والنار والتراب والمعادن والخشب ليوجدا منها ظواهر الخلق ؛ وأن اللى والچى — أى القانون والمادة — وكلاهما عنصر خارجى ، يتعاونان معاً للتحكم فى جميع الأشياء وإكسابها صورها ولكن من فوق هذه الصور شيء يجمعها ويؤلف بينها ، وهو التاى چى — أى الحقيقة المطلقة أو قانون القوانين غير البشرى ، أو بناء العالم . وكان چوشي يقول : إن هـذه الحقيقة المطلقة هى التين أو السماء الذى تقول به الكنفوشية الصادقة . وكان يرى أن الله هو عملية عقلية فى الكون منزهة عن الشخصية أو الصور المحسوسة ، وأن « الطبيعة إن هى إلا القانون »[(١٨)]

ويقول چو إن قانون الكون السالف الذكر هو أيضاً قانون الأخلاق والسياسة . فالأخلاق الفاضلة هى الانسجام مع قوانين الطبيعة ، وخير أنواع السياسة هو تطبيق قوانين الأخلاق على أعمال الدولة ، والطبيعة فى كل معانيها

تنتهى إلى الخير ، وطبيعة الناس خيرة ، واتباع سنن الطبيعة هو سر الحكمة والسلام . « وقد أبى جوا ماو شو أن يقتلع الأعشاب التى كانت أمام نافذة بيته وقال إن ما يدفعها إلى النماء هو بعينه الذى يدفعنى »[١٩] . ولربما ظن القارئ من هذه الأقوال أن چوشى كان يرى أن الغرائز هى الأحرى طيبة صالحة وأن على الإنسان أن يطلق لها العنان ولكنه لم ير هذا بل كان يندد بها ويقول إنها هى المظهر الخارجى للمادة « چى » ويطالب بإخضاعها لحكم العقل والقانون « لى »[٢٠] . وقد يكون فى هذا شىء من التناقض ولكن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً أخلاقيا ومنطقياً معاً .

لقد كان فى هذه الفلسفة كثير من التناقض ، ولكن هذا التناقض رغم كثرته لم يثر ثائرة كبير معارضيها وهو وانج يانج — منج صاحب الشخصية الظريفة الفذة . ذلك أن وانج لم يكن فيلسوفاً لحسب بل كان إلى جانب ذلك قديساً تملكته نزعة التأمل التى اتصفت بها البوذية المهايانية[*] ، وسرت عاداتها إلى أعماق نفسه . وقد بدا له أن غلطة چوشى الأساسية ليست فيما يقوله عن الأخلاق بل فى طريقته ، ولقد كان يرى أن البحث عن حقائق الأشياء يجب ألا يبدأ بدراسة العالم الخارجى بل بما هو أعمق من هذا العالم وأكثر منه إظهاراً للحقائق وهو دراسة النفس الداخلية كما يقول الهنود . ذلك أن العلوم الطبيعية فى بلاد العالم كلها إذا اجتمعت لا تستطيع أن تفسر حقيقة غصن خيزران أو حبة أرز ، وفى هذا يقول :

قلت لصديق تشين فى السنين الخالية : « إذا كان لا بد للإنسان أن يبحث كل ما تحت قبة السماء لكى يكون حكيما أو إنساناً فاضلا ، فكيف يستطيع إنسان فى الوقت الحاضر أن يستحوذ على هذه القدرة العظيمة ؟ » ثم أشرت إلى أعواد الخيزران التى أمام خيمتى وطلبت إليه أن يفحص عنها ويرى

(*) نسبة إلى مهايانا وهى ضرب من البوذية . (المترجم)

نتيجة لحصه . فواصل تشين نهاره بليله يبحث فى عناصر الخيزران ، وأضنى عقله وتفكيره بهذا البحث ثلاثة أيام كاملة ، حتى نضب معين جهوده العقلية وسئم العمل . وظننت فى بادئ الأمر أن منشأ عجزه أن جهوده وقواه لم تكن كافية لهذا العمل ، فأخذت أنا على عاتقى أن أقوم بهذا البحث ، وقضيت فيه ليلى ونهارى ولكننى عجزت عن فهم كنه الخيزران . وبعد أن واصلت العمل سبعة أيام انتابنى المرض أنا أيضاً من فرط ما أجهدت نفسى وفكرى ؛ فلما التقينا بعدئذ قال كلانا لصاحبه فى حسرة : « إنا لا نستطيع أن نكون حكيمين أو فاصلين »(٢١) .

ومن أجل هذا تخلى وانج يانج — منهج عن بحث طبيعة الأشياء ، بل تخلى أيضاً عن دراسة أمهات الكتب القديمة ، فقد بدا له أن قراءة الإنسان قلبه وعقله وتأملهما فى عزلته يهيئان له من أسباب الحكمة أكثر مما تهيئه له دراسة جميع الكتب والأشياء المادية »(٢٢) . ولما نفى إلى برية جبلية يسكنها أقوام همج وتنتشر فيها الأفاعى السامة اتخذ له من المجرمين الذين فروا إلى هذه الأصقاع أصدقاء وأتباعاً ، وعلمهم الفلسفة وطهى لهم طعامهم وأنشد لهم الأناشيد . وفى ذات مرة ، بينا هو قائم بالحراسة فى منتصف الليل ، قفز من كوخه على حين غفلة وصاح قائلا : « لا شك فى أن طبيعتى وحدها كافية . ولقد أخطأت حين أخذت أبحث عن المبادئ فى الأشياء المادية وفى شئون الخلق » . ولم يكن رفاقه واثقين من أنهم يدركون ما يرمى إليه ؛ ولكنه لم يلبث أن أرشدهم إلى الغاية المثالية التى كان يرمى إليها فقال : « إن العقل نفسه لينطوى على القانون الطبيعى ، وهل فى الكون شىء يوجد مستقلا عن العقل ؟ وهل ثمة قانون لا صلة له بالعقل ؟ »(٢٣) ولم يستدل من هذا على أن الله من تصوير الخيال ، بل كان يعتقد أنه قوة أخلاقية غامضة ولكنها قادرة على كل شىء ، وأنها أعظم من أن تكون إنساناً وأنها قادرة على أن تحس بالعطف والغضب على الخلق(٢٤) .

ومن هذه البداية المثالية وصل إلى المبادئ الأخلاقية التى وصل إليها چوشى والقائلة إن الطبيعة هى الخير الأسمى ، وإن الفضيلة الكبرى إنما تكون بإطاعة قوانين الطبيعة والعمل بها كاملة[٢٥] . ولما قيل له إن فى الطبيعة أفاعى كما فيها فلاسفة أجاب إجابة فيها أثر من فلسفة أكويناس واسپنوزا Spinoza ونتشة فقال إن « الخير » و « الشر » إن هما إلا رأيان مبتسران ولفظان تسمى بهما الأشياء حسب ما فيها من نفع أو أذى للفرد أو لبنى الإنسان . وكان يعلم أتباعه أن الطبيعة نفسها فوق الخير والشر وأنها لا تعرف ما نطلقه نحن عليها من أسماء مبعثها الأنانية . وقد نقل عنه أحد تلاميذه ، أو لعله وضع من عنده ، حواراً كان فى مقدوره أن يعنونه : ما وراء الخير والشر

ثم قال بعد ذلك بقليل : « إن منشأ هذه النظرة إلى الخير والشر فى الجسم نفسه وأكبر الظن أنها نظرة خاطئة » . ولم أستطع فهم هذا فقال المعلم : « إن الغرض الذى تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليتمثل فى الأزهار والحشائش،فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما فنقول إن هذه خير وتلك شر ؟ فإن كنت أنت أيها الطالب يسرك أن ترى الأزهار قلت إن الأزهار حسنة والحشائش رديئة ، أما إن كنت ترغب فى أن تنتفع بالحشائش فإنك ترى فيها الخير كل الخير ؛ وهذا النوع من الخير أو الشر إنما ينشأ مما هو كامن فى عقلك من حب هذا الشىء أو كرهه ، ومن هذا أعرف أنك مخطئ » .

فقلت له : « وفى هذه الحال لا يكون ثمة خير أو شر ، فهل هذا صحيح ؟ »

فأجاب المعلم : « إن الاطمئنان الناشئ من سيطرة القانون الطبيعى لهو حالة لا يفرق فيها بين الخير والشر ، على حين أن استثارة الطبيعة العاطفية هى الحالة التى يوجد فيها الخير والشر كلاهما . فإذا لم تثر تلك الطبيعة العاطفية لم يكن ثمة خير أو شر ، وهذا هو الذى يطلق عليه اسم الخير الأسمى ... »

فقلت : « وإذن فالخير والشر لا يوجدان قط فى الأشياء نفسها ؟ » فقال : « إنهما لا يوجدان إلا فى عقلك » .

لقد كان من الخير أن يضرب وانج وأن تضرب البوذية على هذه النغمة ، نغمة ما وراء الطبيعة المثالية ، فى أبهاء الكنفوشيين الصادقين والمتأنقين ؛ ونقول المتأنقين لأن هؤلاء العلماء كانوا مفتونين بعض الافتتان بحكمتهم ، وأنهم أضحوا يؤلفون فيما بينهم بيروقراطية ذهنية متعبة مملة معادية لكل روح مبدعة معرضة للخطإ ، وإن كانت نظرتهم إلى الطبيعة البشرية وإلى الأداة الحكومية أصدق ما تصورته الفلسفة من نظريات ، وأكثرها عدالة . وإذا كان أتباع چوشى قد كتب لهم النصر على معارضيهم فى آخر الأمر ، وإذا كانت اللوحة التذكارية التى نقش عليها اسمه قد حظيت بشرف وضعها فى البهو الذى وضعت فيه لوحة المعلم نفسه (كنفوشيوس) ، وإذا كان شرحه لأمهات الكتب الصينية قد أصبح هو القانون الذى يرجع إليه كل تفكير سليم مدى سبعمائة عام ، إذا كان هذا وذاك قد حدث فإن حدوثه كان نصراً مؤزراً للعقلية السليمة البسيطة غير المعقدة على التحذلق المزعج الذى كان يعمد إليه أصحاب العقول الميتافيزيقية . ولكن الأمة كالفرد قد تفرط فى الحساسية ، وقد تكون عاقلة رزينة فوق ما يجب ، وقد تسرف فى الاستمساك بالحق والصواب إسرافاً لا يطاق . ولقد كان انتصار چوشى والكنفوشية هذا الانتصار الكامل من الأسباب التى جعلت ثورة الصين ضرورة لا بد منها .

الفصل الثانى

البرنز واللَّكُ واليَشْب

منزلة الفن فى الصين – المنسوجات – الأثاث – الحلى – المراوح – صنع اللك – قطع حجر اليشب – روائع فنية فى البرنز – النحت الصينى

طلب الحكمة والهيام بالجمال هما قطب العقل الصينى ، وفى استطاعتنا أن نُعرِّف بلاد الصين بأنها بلاد الفلسفة والخزف ، وإن لم يكن هذا التعريف جامعاً مانعاً . وكما أن طلب الحكمة لم يكن معناه فى بلاد الصين الجرى وراء أخيلة ميتافيزيقية لا علاقة لها بالحياة ، بل كان فلسفة إيجابية تهدف إلى ترقية الفرد والنظام الاجتماعى ، فكذلك لم يكن عشق الجمال إحساساً به كامناً فى النفس أو هواية خيالية للأشكال الفنية التى لا صلة لها بالشئون الإنسانية ، بل كان تزاوجاً أرضياً وثيقاً بين الجمال والمنفعة ، وتصميماً عملياً لتزيين موضوعات الحياة اليومية وأدواتها .

ومن أجل ذلك ظلت الصين ، إلى الوقت الذى أخذت فيه تُخضع مثلها العليا لتأثير الغرب ، تأبى أن تعترف بوجود فرق ما بين الفنان والصانع أو بين هذا وبين العامل العادى . ولقد كانت الصناعات كلها إلا القليل منها من عمل الأيدى البشرية ، وكان كل ما تعمله الأيدى منها حِرَفاً متقنة ؛ وكانت الصناعة كما كان الفن تعبيراً عن شخصية الصانع بالشىء المصنوع ، ولذلك بزت الصين كل ما عداها من البلاد فى الذوق الفنى وفى كثرة ما لديها من الأدوات الجميلة التى تستخدمها فى حياتها اليومية ، وإن لم تمد أهلها عن طريق الصناعات الكبيرة بالسلع التى تنعم بها كثرة الناس فى البلاد الغربية . فقد كان الصينى المتوسط الثراء يتطلب أن يكون كل ما يحيط به ، من الحروف التى يكتب بها إلى

الصحاف التى يأكل فيها ، مما يشبع حاسة الجمال ، وأن يدل بشكله وصنعه على الحضارة الناضجة الذى هو رمز لها وقطعة منها .

وبلغت هذه الحركة التى ترمى إلى تجميل الجسم والمعبد والمسكن غايتها فى عهد أسرة سونج . لقد كانت هذه الحركة عنصراً من عناصر الحياة فى عصر أسرة تانج ، وكان من شأنها أن تستمر وتنتشر فى عهد الأسر التى أعقبتها ؛ ولكن عهد



شكل ١ — علبة الحلى من اللك الأزرق

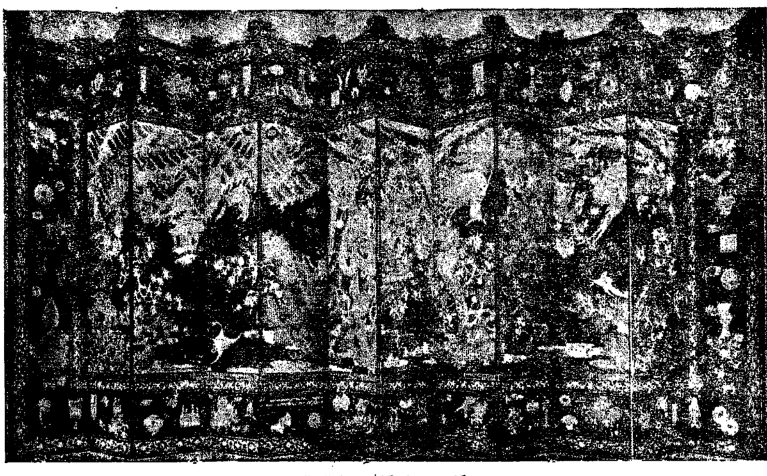
النظام والرخاء الطويل الذى عم البلاد بعد تلك الأسرة قد أمد الفنون كلها بحاجتها من الغذاء، وخلع على الحياة الصينية جمالا وزينة لم تستمتع بمثلهما من قبل. وقد بلغ الصناع الصينيون فى صناعة النسيج والمعادن فى عهد أسرة سونج وما بعدها درجة من الإتقان والكمال لم يفقهم فيها أحد قبلهم، وبزوا جميع منافسيهم فى كافة أنحاء العالم فى قطع اليشب وغيره من الأحجار الصلبة، ولم يتفوق عليهم فى نحت الخشب والنقش على العاج إلا من أخذوا عنهم هذه الصناعة من اليابانيين[٢٧]. لقد كان أثاث المنازل يصنع على أشكال متعددة مختلفة، فذة فى صورتها ولكنها غير مريحة لصاحبها؛ وكان صناع الأثاث، الذين تكفيهم صحفة من الأرز يوما كاملا، يخرجون منه تحفة فنية صغيرة إثر تحفة.

وكان الفنان ذو اليد الصناع الذى يخرج هذه الروائع الفنية الدقيقة يزين بها داره يتخذها بديلا من الأثاث الغالى الثمن ومن أسباب المتعة المنزلية، وكانت تبعث فى نفس مالكها بهجة لا يدركها فى بلاد الغرب إلا الخبراء الإخصائيون.

أما الحلى فلم تكن موفورة العدد ولكنها كانت بديعة القطع، وكان الرجال والنساء يبردون وجوههم بمراوح مزخرفة من الريش والخيزران، أو الورق أو الحرير الملوّن، بل إن المتسوّلين أنفسهم لم تكن تنقصهم المراوح الجميلة وهم يمارسون حرفتهم التليدة.

ونشأ فن الطلاء باللك فى الصين، وبلغ ذروة الكمال فى اليابان. واللك فى بلاد الشرق الأقصى نتاج طبيعى لشجرة(*) أصلها من أشجار الصين، ولكنها الآن تزرع بكثرة فى بلاد اليابان، ويؤخذ عصيرها من جذعها وغصونها، ثم

(*) اسمها العلمى Rias Vernicifere . واللك مشتقة من الأصل الفرنسى لكر ومعناه اللَّك، والكلمة الفرنسية نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية Lac ومعناها اللّبن. واللَّك التى اخترناها لترجمة كلمة Resin الإنجليزية معناها كما ورد فى القاموس: «شىء يسقط من شجر السمر وما رق من العلوك حتى يسيل». (المترجم)



شكل ٢ – ستار كانج شى المطلى بالك

يصفى ويغلى ليزول منه مالا حاجة لهم به من السوائل ، ويطلى به الخشب الرقيق كما يطلى به المعدن والخزف فى بعض الأحيان ، ثم يجفف بتعريضه للرطوبة[٢٨]. ويتكوّن الطلاء من طبقات تتراوح بين عشرين وثلاثين طبقة يبذل فى تجفيف كل واحدة منها وصقلها جهد عظيم وعناية بالغة ، وتختلف كل طبقة عن غيرها فى لونها وسمكها . وينقش الصينيون بعدئذ هـذه الطبقات بعد تمامها بآلة حادة على شكل (٧) بحيث يصل كل حز إلى الطبقة ذات اللون الذى يتطلبه الشكل المطلوب .

وقد نما هذا الفن على مهل وبدأ فى صورة كتابة على شرائح من الخيزران ؛ وكانت مادة اللك تستخدم فى عهد أسرة چو لتزيين الأوانى والسروج والعربات وما إليها . ثم استخدم فى القرن الثانى بعد الميلاد لطلاء الأبنية والآلات الموسيقية ؛ وفى عهد أسرة تانج أصدرت الصين كثيراً من الأدوات المطلية باللك إلى اليابان .

ولما تولت المُلك أسرة تانج كانت كل فروع صناعة اللك قد ازدهرت وتحددت أشكالها ، وكانت ترسل منتجاتها بحراً إلى الثغور النائية كثغور الهند وبلاد العرب . ولمـا ولى المُلك أباطرة أسرة منج خطا الفن خطوة أخرى فى طريق الـكمال ، وبلغ فى بعض نواحيه ذروته[٢٩] . فلمـا جلس على العرش الإمبراطوران المستنيران كانج — شى ، وتشين لونج من أباطرة المانشو صدرت الأوامر الإمبراطورية بتشييد المصانع والإنفاق عليها من مال الدولة ، فأخرجت من روائع الفن أمثال عرش تشين لونج[٣٠] والستر الذى أهداه كانج — شى إلى ليو پولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية[٣١] . واحتفظ هذا الفن بتلك الدرجة الرفيعة حتى القرن التاسع عشر ، فكانت الحرب التى أوقد نارها التجار الأوربيون وما للمستوردين والعملاء الأوربيين من أذواق منحطة كانت هذه وتلك سبباً فى حبس معونة الأباطرة عنه فتدهور مستواه وانحطت رسومه ، وانتقلت زعامته إلى اليابان .

أما صناعة اليشب فهى قديمة قدم التاريخ الصينى نفسه ، وشاهد ذلك أن آثارها وجدت فى أقدم القبور . وتعزو أقدم السجلات أول استخدامه « حجر سمع » إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وذلك أن حجر اليشب كان يقطع على صورة سمكة أو نحوها تعلق فى إسار ؛ فإذا ما أجيد قطع الحجر وتعليقه خرجت منه أنغام موسيقية واضحة جميلة تدوم مدى مدهشاً فى طوله . والاسم الإنجليزى لهذا الحجر Jade مشتق من اللفظ الأسبانى Ijada (المأخوذ عن اللفظ اللاتينى Ilia) عن طريق اللفظ الفرنسى Jade ومعناه الحقو . ولما فتح الأسبان أمريكا وجد الفاتحون أهل المكسيك الأقدمين يأتون بهذا الحجر مسحوقاً ومعجوناً بالماء ليعالجوا به كثيراً من الأمراض الباطنية ، فلما عادوا إلى أوربا حملوا معهم هذا العلاج هو والذهب الأمريكى إلى بلادهم . أما الاسم الصينى لهذا الحجر فهو أليق به من الاسم الأوربى وأكثر مطابقة للمعقول . فلفظ چون الذى يطلق عليه معناه لين كالندا [٢٢] ، ويتركب حجر اليشب من معدنى الجاديت والتفريت ، والأول يتكون من سليكات الألومنيوم والصوديوم ويتكون الثانى من الكلسيوم والمغنيزيوم . وكلا المعدنين صلب قاس يحتاج تهشيم البوصة المكعبة منه إلى ضغط خمسين طناً فى بعض الأحيان وتكسر القطع الكبيرة منه عادة بتعريضها إلى الحرارة الشديدة ثم إلى الماء البارد على التعاقب .

وفى وسع الإنسان أن يدرك حذق الفنان الصينى من قدرته على إظهار ألوان براقة خضراء وسمراء وسوداء وبيضاء من هذا الحجر العديم اللون بطبيعته ، ومن صبره الطويل ومثابرته ، حتى يخرج منه أشكالا مختلفة لا عداد لها ، حتى لا يكاد الإنسان يجد بين مجموعات اليشب التى فى العالم كله قطعتين متماثلتين ، اللهم إلا أزرار الملابس .

وكان أول ما عثر عليه من مصنوعات يشبية فى عهد أسرة شانج فى صورة ضفدعة تستخدم قرباناً مقدساً [٢٣] ، وصنعت منه أدوات غاية فى الجمال فى أيام

كنفوشيوس(٣٤) . وبينما كان الناس فى غير الصين يتخذون من اليشب فؤوساً ، ومدى وأوانى ، فإن الصينيين كانوا يعظمون هذا الحجر تعظيما حملهم على ألا يستخدموه إلا فى التحف الفنية الجميلة ، إذا استثنينا بعض القطع النادرة القليلة العدد . وكان عندهم أثمن من الفضة والذهب والحلى على اختلاف أنواعها(٣٥) . وكانوا يقدرون بعض مصنوعات اليشب الصغيرة كخواتم الإبهام التى يتحلى بها كبار الحكام الصينيين بما يقرب من خمسة آلاف ريال ، ويقدرون بعض القلائد اليشبية بمائة ألف ريال . وكان المعنيون بجمع القطع النادرة منه يقضون السنين الطوال فى البحث عن قطعة واحدة ، ويقال إن ما يوجد فى الصين من التحف اليشبية إذا جمعت فى مكان واحد تكونت منها مجموعة لا تماثلها مجموعة من أية تحف صنعت من مادة أخرى فى جميع أنحاء العالم(٣٦) .

ولا يكاد البرنز يقل قدماً عن اليشب فى الفن الصينى ، وهو يفوقه مقاماً وتقديراً عند الصينيين . وتروى الأقاصيص الصينية أن الإمبراطور يو ، أحد أباطرة الصين الأقدمين وبطل الطوفان الصينى ، تلقى المعادن التى بعثت بها إليه الولايات التسع الخاضعة لحكمه ، وهى الخراج المفروض عليها ، ثم صبها كلها وصنع منها ثلاثة قدور لكل منها تسع أرجل ، لها من القوة السحرية ما تستطيع به أن تدفع المؤثرات البغيضة ، وتجعل ما يوضع فيها من المواد يغلى بغير نار ، ويخرج منها كل ما لذ وطاب من الطعام والشراب .

ثم أصبحت هذه القدور الرمز المقدس للسلطة الإمبراطورية . وتوارثتها الأسر واحدة بعد واحدة ، فكانت كل منها تتلقاها بعناية فائقة من التى قبلها ، ولكنها اختفت بطريقة مجهولة غامضة بعد سقوط أسرة چو ، وهى حادثة كان لها أسوأ الأثر فى منزلة شى هوانج — دى . ثم أصبح صب البرونز ونقشه فناً من الفنون الجميلة الصينية ، وأخرجت منه البلاد مجموعات تطلب حصر أسمائها وتصنيفها اثنين وأربعين مجلداً(٣٧) . وكان يصنع منه أوانى للحفلات الدينية التى

تقيمها الحكومة أو يقيمها الأفراد فى منازلهم ، وقد أحال آلافاً من أنواع الأوانى المنزلية إلى تحف فنية . وليس فى العالم كله ما يضاهى مصنوعات الصين البرنزية إلا ما صنع منه فى إيطاليا فى عهد النهضة الأوربية ، ولعلها لا يضاهيها من هذه المصنوعات إلا « أبواب الجنة » التى وضع تصميمها غبرتى Ghiberti ليزين بها موضع التعميد فى فلورنس .

وأقدم ما لدينا من القطع البرنزية الصينية أوانى قربانية كشفت حديثاً فى هونان ؛ ويرجعها العلماء الصينيون إلى عهد أسرة شانج ، ولكن الخبراء الأوربيين يرجعونها إلى عهد متأخر عن ذلك الوقت وإن كانوا لا يحددونه تحديداً مضبوطا . وأقدم الآثار المعروف تاريخها هى التى ترجع إلى عهد أسرة چو ومن أروعها كلها مجموعة آنية الحفلات المحفوظة فى المتحف الفنى بنيويورك .

وقد استولى شى هوانج — دى على معظم ما كان لدى أسرة چو من آنية برنزية لئلا يصهرها الأهلون ليتخذوا منها أسلحة . وصنع مما تجمع له من هذا المعدن اثنى عشر تمثالا ضخما يبلغ ارتفاع كل منها خمسين قدماً[٣٨] ، ولكن هذه التماثيل كلها لم تبق منها قدم واحدة . وقد صنعت فى عهد أسرة هان كثير من الآنية الجميلة طعمت أحياناً بالذهب .

وليس أدل على رقى هذا الفن فى الصين من أن الفنانين الذين دربوا فى تلك البلاد هم الذين صنعوا عدداً من التحف التى تعد من روائع الفن ، والتى زين بها هيكل هريو چى فى مدينة نارا اليابانية . وأجملها كلها ثلاثة تماثيل لأميدا — بوذا تصورها جالسة على أسرة فى صورة زهرة الأزورد[٣٩] ؛ وهى أجمل ما وجد من التحف فى تاريخ صناعة البرنز فى العالم أجمع[*] ووصل فن البرنز إلى ذروة مجده أيام أسرة سونج ، وإذا كانت التحف التى صنعت منه لم ترق إلى ذروة الكمال فإنها قد بلغت الغاية فى كثرة عددها وتباين أشكالها ؛ فقد صنعت منه قدور

(*) انظر الفصل السابع من الباب الثلاثين فى تاريخ اليابان .

ودنان خمر ، وآنية ، ومباخر ، وَأسلحة ، وَمرايا ، وَنواقيس ، وَطبول



شكل ٣ تمثال من البرنز لجوان — ين من عصر سوى
محفوظة فى متحف نيويورك

ومزهريات ؛ وكانت الآنية المنقوشة والتماثيل الصغيرة تملأ الرفوف فى دور خبراء الفن وهواته ، وتجد لها مكانا فى كل بيت من بيوت الصينيين .

ومن أجمل النماذج الباقية من أيام أسرة سونج مبخرة فى صورة جاموس البحر ، وقد ركب عليها لو — دزه وهو هادئ مطمئن ليثبت بهذا قدرة الفلسفة على إخضاع الوحوش الكاسرة[٤٠] ، ولا يزيد سُمك جدران المبخرة على سُمك الورق ، وقد اكتسبت على مر الزمان قشرة أو طبقة خضراء مبرقشة خلعت عليها جمال القدم[*] ، ثم انحط هذا الفن انحطاطاً تدريجياً بطيئاً فى عهد أسرة منج ، فزاد حجم التحف وقلَّت جودتها ، وأصبح البرنز ، الذى كان مقصوراً على صنع آيات الفن فى عهد الإمبراطور يو ، فناً عاما تصنع منه الآنية العادية التى تستخدم فى الأغراض اليومية ، وتخلى عن مكانته الأولى للخزف .

ولم يكن النحت من الفنون الكبرى ، ولا من الفنون الجميلة ، عند الصينيين[٤١] . وسبب هذا أن تواضُع الشرق الأقصى قد أبى عليه أن يتخذ الجسم البشرى نموذجاً من نماذج الجمال . ولهذا فإن الذين اتخذوا صناعة التماثيل البشريه حرفة لهم وجهوا قليلا من عنايتهم إلى تمثيل ما على الأجسام من ملابس ، واستخدموا تماثيل الرجال — وقلما استخدموا تماثيل النساء — لدراسة بعض أنواع الإحساسات أو لتصويرها ؛ ولكنهم لم يمجدوا الأجسام البشرية . ومن أجل ذلك تراهم فى الغالب قد قصروا تصوير الأناسى على تماثيل القديسين البوذيين والحكماء الدوِّيين ، وأغفلوا تصوير الرياضيين والسرارى ممن كانوا وكنّ مصدر الإلهام للفنانين من اليونان .

(*) الكلمة الإنجليزية **Patina** أى القشرة مشتقة من كلمة لاتينية معناها طبق وتستعمل للدلالة على الطبقة التى تتكون من انحلال السطح المعدنى المتعرض لرطوبة الجو . ومن عادة هذه الأيام أن يكون من عوامل تقدير قيمة التحف البرنزية ما يغشاها من طبقة خضراء أو سوداء تكونت عليها من مر الزمان ، أو من الأحماض التى تستخدم فى تقليد الروائع الفنية القديمة .

وكان المثالون الصينيون يفضلون تمثيل الحيوانات على تمثيل الفلاسفة والحكماء أنفسهم .

وأقدم ما نعرفه من التماثيل الصينية التماثيل الإثنا عشر الضخمة المصنوعة من البرنز ، والتي أقامها شي هوانج — دى . وقد صهرها فيما بعد أحد الحكام من أسرة هان ليتخذ منها « فكة »(*) برنزية . وبقي من أيام أسرة هان عدد قليل من التماثيل البرنزية ، ولكن كل ما صنع منها في ذلك العهد إلا قلة ضئيلة قضت عليه الحرب أو قضى عليه الإهمال الطويل الأمد . والتماثيل البشرية قليلة أيضاً في هذه القلة الباقية ، والأثر الهام الوحيد الباقي من أيام أسرة هان نقش بارز من نقوش القبور ، عثر عليه في شانتونج . وصوَر الآدميين قليلة نادرة في هذا النقش أيضاً ، وأهم ما يشغل رقعته صور حيوانات بارزة رقيقة . وأقرب من هذا النقش إلى صناعة النحت التماثيل الجنازية الصغيرة المتخذة من الصلصال — وأكثرها يمثل حيوانات ومنها قلة تمثل خدماً أو زوجات — وكانت تدفن مع الموتى من الذكور عوضاً عن الأزواج والخدم الأحياء . وقد بقيت من هذا العهد تماثيل مستقلة لحيوانات منها تمثال رخامي لنمر كله عضلات يمثل اليقظة أدق تمثيل ، وكان يتولى حراسة معبد اسنيانج — فو[٤٢] ؛ ومنها الدببة المزمجرة التي تشتمل عليها الآن مجموعة جاردنر Gardner في مدينة بسطن Boston ، ومنها الآساد المجنحة المصابة بتضخم الغدة الدرقية والتي وجدت في مقابر نانكنج[٤٣] . وكل هذه الحيوانات والخيول المزهوة الممثلة في نقوش القبور البارزة السالفة الذكر تشهد بما كان للفن اليوناني البكتري والفن الأشوري والسكوذي من أثر في الفن الصيني ؛ وليس فيها شيء من مميزات الفن الصيني الخالص[٤٤] .

وفي هذه الأثناء كانت الصين قد بدأت تتأثر بشيء آخر هو أثر الدين

(*) لم نر في فقه اللغة ما يمنعنا من استعمال هذا اللفظ بمعناه المعروف دائماً والانفكاك هو الفصل والتفكك عدم التماسك (المترجم)

والفن البوذيين ، وقد استوطن هذا الفن البوذى فى أول الأمر التركستان ، وأقام فيها صرح حضارة كشف اشتين Stein وپليوت Pelliot فى أنقاضها عن أطنان كثيرة من التماثيل المحطمة يضارع بعضها أكثر ما أخرجه الفن الهندى البوذى . واستعار الصينيون هذه الأشكال البوذية من غير تغيير كبير فيها ، وأخرجوا على غرارها تماثيل لبوذا تضارع فى جمالها ما صنع فى جندارا أو فى الهند . وأقدم هذه التماثيل ما وضع فى معابد يون كان الكهفية فى شانسى (حوالى ٤٩٠م) ، ومن أحسنها تماثيل مغارات لونج مِنْ هونان ، فقد أقيمت فى خارج هذه المغارات عدة تماثيل ضخمة أعجبها كلها تمثال بوذيستوا الجميل ، وأروعها بوذا « ڤيروشانا » (حوالى ٦٧٢ م) الذى تحطم جزء منه عند قاعدته ، ولكنه لا يزال محتفظا بروعته الموحية الملهمة[٤٦] . وإلى شرق هذا الإقليم فى شانتونج وجد كثير من معابد الكهوف نقشت على جدرانها أساطير على الطريقة الهندية يظهر فى أماكن متفرقة منها تمثال قوى ابوذيستوا شبيه بالتمثال الذى فى كهف يون من ، (ويرجع تاريخه إلى حوالى عام ٦٠٠ م)[٤٧] . واحتفظت أسرة تانج بالتقاليد البوذية فى النحت ، وقد بلغ درجة الكمال فى تمثال بوذا الجالس (حوالى ٦٣٩ م) الذى عثر عليه فى ولاية شِنسى Shensi [*][٤٨] . وأخرجت الأسر التى جاءت من بعدها تماثيل ضخمة من الصلصال تمثل أتباعاً لبوذا الظريف لهم وجوه كالحة كوجوه رجال المال[**] ، كما أخرجت عدداً من التماثيل الجميلة تمثل كوان — ين إله مهايانا وهو يوشك أن يتحول من إله إلى إلٰهة[٤٩] .

وفقد فن النحت إلهامه الدينى بعد أسرة تانج ، واصطبغ بصبغة دنيوية تنحط أحياناً إلى صبغة شهوانية ، حتى شكا رجال الأخلاق فى ذلك الوقت ، كما شكا رجال الأخلاق فى إيطاليا فى عصر النهضة ، من أن الفنانين ينحتون

(*) هى عبر ولاية شانسى المعروفة

(**) فى المتحف الفنى بنيويورك نماذج من هذا الطراز .

للقديسين تماثيل لا تقل رشاقة ورقة عن تماثيل النساء ، فوضع الكهنة البوذيون قواعد للتصوير تحرم تحديد شخصية صاحب الصورة أو إبراز معالم الجسم . ولربما كانت النزعة الأخلاقية القوية عند الصينيين هى التى عاقت تقدم فن النحت . ذلك أنه لما أن فقد الدافع الدينى أثره المحرك القوى فى الفن ، ولم يسمح لجاذبية الجمال الجثمانى بأن يكون لها شأن فيه ، اضمحل فن النحت فى بلاد الصين ، وقضى الدين على ما لم يعد فى مقدوره أن يكون له ملهماً . وما أن اقترب عهد أسرة تانج من نهايته حتى أخذ الابتكار فى فن النحت ينضب معينه . وليس لدينا من القطع الفنية الممتازة التى أخرجتها أسرة سونج إلا عدد قليل ؛ أما المغول فقد خصوا الحرب بجهودهم ؛ وأما أباطرة المنج فقد نبغ فى عهدهم بعض المثالين الذين أخرجوا تماثيل غريبة وأخرى ضخمة من الحجارة كالمولات التى تقف أمام مقابر أباطرة المنج . فلما ضيّق الدين الخناق على فن النحت لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأخلى ميدان الفن الصينى للخزف والنقش .

الفصل الثالث

المعابد (البجودا) والقصور

العمارة الصينية – برج نانكنج الخزفى – بجودا بيچنج اليتسى – هيكل كنفوشيوس – هيكل السماء ومذبحه – قصور كوبلاى خان – بيت صينى – داخل البيت – لونه وشكله .

كذلك كانت العمارة من الفنون الصغرى فى بلاد الصين ، ولم يكد يترك من كان فيها من البنائين العظام أثراً لهم يخلد ذكراهم ؛ ويلوح أن الشعب لم يكن يجلهم إجلاله صناع الخزف الكبار . والعمائر الضخمة نادرة فى بلاد الصين حتى ما شيد منها تكريماً للآلهة ، وقلما نجد فيها مبانى قديمة ، وليس فيها إلا القليل من المعابد التى يرجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر .

وقد أصدر مهندسو أسرة سونج فى عام ١١٠٣ م ثمانية مجلدات موضحة بالرسوم الجميلة فى شرح أساليب العمارة ؛ ولكن الآيات الفنية التى صوروها كانت كلها من الخشب ولم تبق منها قطعة واحدة إلى اليوم . ويستدل من الرسوم المحفوظة فى المتحف الأهلى فى باريس ، والتى يقال إنها تمثل المساكن والهياكل فى أيام كنفوشيوس ، على أن فن العمارة الصينية قد قنع فى خلال تاريخه الطويل الذى دام ثلاثة وعشرين قرناً بما كان عليه فى تلك الأيام الخالية من أشكال وأحجام متواضعة(٥٠) .

ولعل إحساس الصينيين المرهف فى مسائل الفن والذوق هو الذى حدا بهم إلى نبذ ما عساه أن يبدو من العمائر خالياً من الاحتشام مفرطا فى الضخامة ، أو لعل تفوقهم فى الذكاء قد حد بعض الشىء من مدى خيالهم . ومهما يكن سبب هذا القصور فإن فن العمارة الصينية قد أضر به كثيراً انعدام ثلاث قوى

لم يخل منها تاريخ أمة عظيمة من الأمم القديمة ، وتلك هى الأرستقراطية الوراثية وطبقة الكهنة القوية(٥١) والحكومة المركزية الكثيرة المال العظيمة السلطان(٥١) ذلك أن هذه القوى هى التى كانت فى الأيام الخالية تبذل المال بسخاء لتشجيع الأعمال الفنية العظيمة ، من هياكل وقصور ومسارح ومظلات ومقابر منحوتة فى الصخور . ولقد انفردت الصين من بين الأمم القديمة بأنها لم تبتل بهذه النظم الثلاثة .

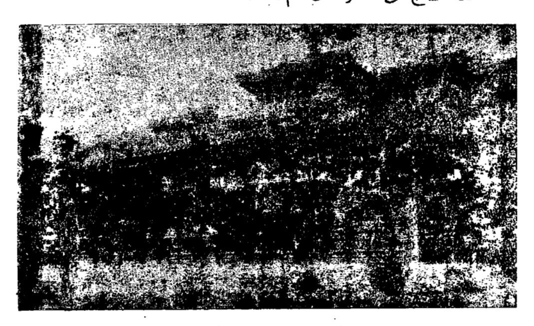
غير أن العقيدة البوذية قد استحوذت وقتاً ما على روح الصينيين وعلى ما يكفى من ثروة البلاد لإقامة الهياكل العظيمة التى كشفت بقاياها أخيراً فى التركستان(٥٢) . ولا تزال بعض الهياكل البوذية المتوسطة العظمة والفخامة باقية فى أنحاء كثيرة من بلاد الصين ، ولكنها لم تسم إلى ما سمت إليه العمائر الدينية فى بلاد الهند . ويصل الإنسان إلى هذه الهياكل بممرات طبيعية جميلة المنظر صاعدة بالتواء فوق منحدرات ذات أبواب منقوشة يسمونها البايلو ، ولعلها مأخوذة عن درابزين الأضرحة البوذية الهندية .

وتحرس مداخل هذه الهياكل فى بعض الأحيان تماثيل بشعة وضعت لتخيف الشياطين الأجنبية فتبعدها عنها بطريقة ما . ومن أجمل الأضرحة البوذية الصينية كلها هيكل بوذا النائم بالقرب من القصر الصيفى المشيد خارج بيچنج . ويرى فرجسون Fergusson أنه « أجمل ما أخرجه فن العمارة فى بلاد الصين »(٥٣) .

غير أكثر ما يميز الشرق الأقصى فى فن العمارة عن سائر الأقطار هو الهياكل (اليجودات) التى تشرف على جميع المدن الصينية تقريباً(*) . وقد

(*) ولا نزال أصل هذه القصور ومنشأ اسمها الصينى « اليجوداب » مثاراً للبحث والجدل العنيف . وقد يكون هـذا الاسم مشتقاً من اللفظ الهندى الفارسى بت – كده أى « بيت الأصنام » ، وقد يكون شكلها صينى المنشأ كما يظن بعض المؤرخين ، أو قد يكون مشتقا من السُّرج الذى كان يشرف على بعض الأضرحه المندوكية(٥٥) .

اصطبغت هذه الصروح الجميلة ، كما اصطبغت العقائد البوذية التى ألهمت من شادوها ، ببعض الخرافات الدوِّية التى كانت منتشرة فى البلاد ، فكانت من أجل ذلك مراكز للاحتفالات الدينية وللتنبؤ بالغيب عن طريق دراسة الشقوق والعروق الأرضية . وكانت الجماعات المختلفة تشيد هذه الهياكل لاعتقادها أنها تقى الناس غوائل الأعاصير والفيضان ، وتسترضى الأرواح الشريرة ، وتجتذب الرخاء ورغد العيش . وكانت تتخذ عادة شكل أبراج ذات ثمانية أضلاع تشاد من الآجر وترتفع فوق قواعد من الحجارة خمس طبقات أو سبعاً أو تسعاً لأن الأعداد الزوجية فى اعتقادهم أعداد مشئومة(٥٦) . وأقدم البجودات التى لا تزال قائمة حتى الآن البجودة القائمة فى سونج إيو — سو ، والتى شيدت فى عام ٥٢٣م على جبل سونج شان المقدس فى هونان . ومن أجملها البجودة الصيفية ، وأروعها منظراً بجودة اليشب فى بيجنج و « بجودة المزادة » فى وو — واى — شان ، وأوسعها شهرة برج الخزف فى نانكنج (نانچنج) وقد شيد فى ١٤١٢—١٤٣١ ، ويمتاز بطبقة من الخزف فوق جدرانه المقامة من الآجر . وقد دمر هذا البرج فى ثورة تايبنج التى استعرت فى عام ١٨٥٤ .



شكل ٤ — القصر الصيفى فى پيپنج

وأجمل الهياكل الصينية هى التى كانت مخصصة للديانة الرسمية فى پيچنج (پيكنج). ومن هذه الهياكل هيكل كنفوشيوس، ويحرسه باى — لو، فخم محفور أجمل حفر، ولكن الهيكل نفسه يخلد الفلسفة أكثر مما يخلد الفن. وقد شيد فى القرن الثالث عشر الميلادى ثم أدخلت عليه عدة تعديلات وأعيد بناء بعض أجزائه عدة مرات. وقد وضعت « لوحة روح أقدس القديسين المعلم والألب كنفوشيرس »، على قاعدة خشبية فى مشكاة مفتوحة فى الهيكل، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسى: « إلى المعلم الأعظم والمثال الذى تحتذيه عشرة آلاف جيل ». ويقوم بالقرب من سور پيچنج التتارى الجنوبى هيكل



شكل ٥ — هيكل السماء فى پيپنج

السماء ومذبح السماء . والمذبح مكوّن من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامية التي كان لعددها الكبير ونظامها أثر سحرى فى نفوس الزائرين . والهيكل نفسه بجودة معدلة من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشيدة من الآجر والقرميد الخالبين من الرونق . وكان الإمبراطور فى الأيام الخالية يأتى إلى هذا المكان فى الساعة الثالثة من صباح يوم رأس السنة الصينية للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفيق والفلاح ولشعبه بالرخاء ، ويقرب القربان للسماء التى يرجو أن تكون فى صفه لا فى صف أعدائه ، ولم تكن السماء ذكرا أو أنثى عند الصينيين بل كانت جمادا . وقد نزلت صاعقة من السماء على هذا المعبد فى عام ١٨٨٩ فأصابته بضرر بليغ(٥٧) .

وأجمل من هذه الأضرحة الخالية من الرونق والبهاء ، وأكثر منها جاذبية، القصور المنخفضة الضعيفة البناء التى كانت مساكن للأمراء وكبار الحكام فى بيچنج . ومن أجمل هذه المبانى البهو الأكبر، وقد شاده عند قبر أباطرة منج عباقرة البنائين الذين جاد بهم عهد الإمبراطور تشنج دزو (١٤٠٣ — ٢٥) ، كما شادوا عددا من المساكن الملكية فى بقعة عرفت فيما بعد باسم «المدينة المحرمة » أقيمت فى الموضع الذى شاهد فيه ماركو بولو قصر كوبلاى خان قبل ذلك العهد بمائتى عام ، فدهش منه وأعجب به أيما إعجاب ، وتقوم آساد بشعة الخلقة على جانبى الدرابزين الرخامى المؤدى إلى الشرفة الرخامية . وقد شيدت فى هذا المكان مبان رسمية ، بعضها غرف لعروش الأباطرة وأخرى للاستقبال أو للمآدب وغيرها من حاجات الأباطرة .

وانتشرت حولها البيوت الأنيقة التى كانت تسكنها فى الأيام الخالية أسر الأباطرة وأبناؤهم وأقاربهم وخدمهم وأتباعهم وخصيانهم وسراريهم . ولا تكاد هذه القصور تختلف بعضها عن بعض . ففيها كلها العمد الرفيعة ، والنوافذ المتشابكة الجميلة ، والطنف المنحوتة أو المسطورة ، والألوان الكثيرة الزاهية

والرفارف المقوسة المتجهة إلى أعلى المتصلة بالسقف المقرمدة الضخمة . وشبيه بهذه المتع المحرمة على غير هذه الطبقات من الأهلين القصر الصيفى الثانى الذى يبعد عن هذا المكان بضعة أميال ح ولعله أكثر رشاقة وتناسباً وتأنقاً فى النحت من البيوت التى كانت فى يوم ما مساكن للملوك فى بيجنج .

وإذا شئنا أن نذكر الخصائص العامة لفن العمارة الصينية فى عبارة موجزة قلنا : إن من أول مظاهرها السور المجرد من الجمال الذى يفصل المبنى الرئيسى عن الطريق العام . وهذه الأسورار تمتد فى الأحياء الفقير من بيت إلى بيت متصلة بعضها ببعض ، وتدل على أن الحياة فى هذه الأحياء كانت غير آمنة . ويحيط هذا السور بفنـاء تفتح فيه أبواب ونوافذ لبيت واحد أو لعدة بيوت . وبيوت الفقراء مساكن كئيبة مظلمة ، ذات مداخل ودهاليز ضيقة وسقف منخفضة ، وأرض من التراب . وفى كثير من الأسر تعيش الخنازير والـكلاب والدجاج والرجال والنساء فى حجرة واحدة . وتعيش أفقر الأسر فى أكواخ من الطين والقش تغمرها مياه الأمطار وتصفر فيها الرياح ، وإذا كانت الأسر ذات يسار قليل غطت أرض الحجرات بالحصر أو رصفتها بالقرميد . أما الأثرياء فيزينون فناء المنزل الداخلى ببعض الشجيرات والأزهار والبرك ، أو يحيطون قصورهم بالحدائق يغرسون فيها مختلف الأشجار ، ويمرحون فيها ويلعبون . ولا ترى فى هذه الحدائق طرقات تزينها الورود ، وممرات غرست حولها الأزهار ، ومربعات أو دوائر أو مثمنات من الـكلأ أو الزهر ؛ بل ترى بدلا منها مماشى ضيقة لا تثبت على حال ، تتلوى فى بعض الأحيان مخترقة أخاديد تمر بين الصخور فوق مجار مائية متعرجة بين أشجار اضطرت جذوعها أو أغصانها إلى أن تتخذ لها أشكالا غريبة ترضى عنها النفوس السوفسطائية . وترى فى أماكن متفرقة من هذه الحدائق جواسق جميلة تكاد تخفيها الغصون يستريح فيها الجائلون .

وليس البيت نفسه ذا روعة ولو كان قصراً للعظماء ، فهو لا يزيد على طبقة

واحدة ، وإذا احتاجت الأسرة إلى أن تزيد حجرات منزلها فإنها تفضل إقامة مبنى جديد على إضافة حجرات للمبنى القديم . ومن ثم فإن القصر العظيم قلما يكون بناء منضم الأجزاء ، بل يتكون من عدة مبان تمتد أهمها فى وصف واحد من مدخل القصر إلى السور وإلى جانبيها المبانى الثانوية التى تقل عن الأولى شأنا . وأكثر ما تبنى منه المنازل الخشب والآجر ، وقلما تعلو الحجارة إلى أكثر من الشرفات التى فوق الأساس .

وكان يقصر استعمال الآجر عادة على الجدران الخارجية ، أما السقف فتتخذ من لبنات رقيقة ، وأما الأعمدة المزينة والجدران الداخلية فتقام من الخشب . وكانت تعلو الجدران الزاهية الألوان طنف ذات نقوش . وليست الجدران ولا العمد هى التى تحمل السقف ، بل إن هذه السُقف رغم ثقلها تستقر على قوائم تكون جزءا من الهيكل الخشبى للمنزل . والسُقف أهم أجزاء الهيكل أو المنزل الصينى ، فهو يبنى من القرميد المصقول البراق — ذى اللون الأصفر إن كان يظلل رأس الإمبراطور ، وإلا فهو أخضر أو أرجوانى أو أحمر أو أزرق . وهو يبدو جميلا وسط ما يحيط به من المناظر الطبيعية ، بل إنه ليبدو كذلك حتى فى فوضى شوارع المدن ، ولربما كانت أعواد الخيزران التى تبرز أطرافها من أعلى الخيام هى التى أقيمت على غرارها فى بلاد الشرق الأقصى رفارف السطوح الرشيقة المنحنية إلى أعلى ، ولعل أقرب من هذا إلى الظن أن هذا الطراز الكثير الذيوع لم يكن منشؤه إلا رغبة البنائين الصينيين فى وقاية البناء كله من مياه الأمطار(٥٨) .

ذلك أن النوافذ ذات المصاريع كانت قليلة فى المبانى الصينية ، وكان يحل محلها الورق الكورى Korean(*) أو النوافذ ذات القوائم المتقاطعة المتشابكة ، وهذه لا تقى الحجرات من الأمطار .

(*) نسبة إلى كوريا Korea

ولا يقع مدخل البيت الرئيسى عند طرفه ذى السقف المرمى ، بل يقع عند واجهته الجنوبية . ويقوم فى داخل هذا الباب الكبير عادة ستار أو جدار يحجب نظر الزائر عن رؤية من فى داخل الدار ، ويقف فى طريق الأرواح الخبيثة التى لا تسير إلا فى خطوط مستقيمة ، وردهة الدار وحجراتها معتمة لأن ضوء النهار تحجبه النوافذ المتشابكة والطنف البارزة . وبهو المنزل وحجراته مظلمة لأن النوافذ المشبكة والطنف البارزة تحجب عنها ضوء النهار . وقلما تجد فى المنزل وسائل لتهوية الغرف ، وليس فيه من وسائل التدفئة إلا المجامر المتنقلة ، أو طبقات من الآجر تبنى فوق نار مُدْخنة . وليس لهذه المدافئ مداخن أو فتحات يخرج منها الدخان[٥٩] . والأغنياء والفقراء على السواء يقاسون آلام البرد ويأتون إلى فراشهم مدثرين بالثياب الثقيلة[٦٠] . وإذا التقى السائح بصينى سأله : « أأنت بردان ؟ فيجيبه هذا بقوله : بطبيعة الحال »[٦١] ، وقد تعلق فى سقف الدار فوانيس من الورق زاهية الألوان ، وتزين الجدران أحياناً بكتابات بخط جميل أو بنقوش من الحبر ، أو بسجف من الحرير مطرزة تطريزاً جميلا ومنقوش عليها مناظر ريفية . ويتخذ أثاث المنزل عادة من الخشب الثقيل المدهون باللون الأسود البرّاق والمنحوت نحتاً جميلا . أما القطع ذات الألوان القاتمة فتطلى بالك البراق . والصينيون هم الأمة الشرقية الوحيدة التى يجلس أبناؤها(*) على كراسى ، وحتى هم يفضلون أن يجلسوا متكئين أو متربعين ؛ وهم يضعون ، على نضد خاص ، الأوانى التى تتخذ لتقديم القرابين لأسلافهم الأموات . وتقع فى مؤخرة الدار حجرات النساء ، وقد توجد فى حجرات مستقلة أو فى بناء منفصل عن سائر المنزل مكتبة أو مدرسة .

والأثر العام الذى تتركه العمائر الصينية فى ذهن المشاهد الأجنبى غير الفنى هو ما تتصف به من وهن سحرى يأخذ بالألباب ؛ واللون يطغى فيها على

(*) لعله يقصد بأبنائها جمهرة الشعب . (المترجم)

الشكل ، ومن واجب الجمال فيها أن يستغنى عن الضخامة والعظمة . والهيكل أو القصر الصينى لا يتطاول إلى الإشراف على الطبيعة بل يتعاون معها على أن يخلق من الكل انسجاماً كاملا يعتمد على تناسب أجزائه وتواضعها . والعمائر الصينية تعوزها الصفات التى تكسبها متانة وأمناً وطول بقاء ، كأن من شادرها يخشون أن تذهب الزلازل بجهودهم .

وإن من الصعب على الإنسان أن يعتقد أن هذه العمائر تنتمى إلى ذلك الفن الذى أقام آثار الكرنك وبرسيوليس ، والآثار التى شيدت على الأكروبول ؛ فليست هى عمائر بالمعنى الذى يفهمه الغربيون من هذا اللفظ ، بل هى حَفْر فى الخشب ، وطلاء للخزف ، ونحت فى الحجر . وهى أكثر انسجاما مع الخزف واليشب من الصروح الضخمة الثقيلة التى أقامها فنا الهندسة والمعمار فى بلاد الهند وبلاد النهرين وروما . وإذا لم نتطلب إليها العظمة والصلابة التى ربما لم يعن بها من أنشئوها ، وإذا أخذناها على أنها أصداف تعبر عن أرق الأذواق فى أضعف أشكال المبانى وأقلها بقاء ، إذا فعلنا هذا وذاك كان لهذه العمائر مكانها بين أجمل طرز الفن الصينى الطبيعية التى تناسب أهل تلك البلاد وبين أجمل الأشكال التى ابتدعها الإنسان .

الفصل الرابع

التصوير

١ — أساتذة فن التصوير الصيني

جوو كاى — چيه «أعظم مصور ، وأعظم فكه ، وأعظم أبله» — صورة هان يو الصغيرة — المدرستان الإتباعة والابتداعية — وبج واى — وو داو دزه — هو درونج الإمبراطور الفنان — أساتذة عصر سونج

لقد أبطأ الغرب فى دراسة فن التصوير الصينى ، وليس عليه فى ذلك لوم ، لأن مناحى الفن وأساليبه فى الشرق تكاد كلها تكون مغايرة لمناحيه وأساليبه فى الغرب ؛ وأول ما نذكره من هذا الخلاف أن المصورين فى بلاد الشرق الأقصى لم يكونوا يصورون على القماش ؛ وقد نجد من حين إلى حين مظلمات على الجدران ، وأكثر ما يوجد من هذا أثر من آثار النفوذ البوذى ؛ ونجد فى بعض الأحيان رسوماً على الورق وهذه من آثار ما بعد العهد البوذى ؛ كل هذا نجده ولكنه قليل ، أما معظم الرسوم الصينية فهى على الحرير ؛ ولقد كان ضعف هذه المادة وقصر أجلها سبباً فى تلف الروائع الفنية جميعها حتى لم يبق من تاريخ هذا الفن إلا ذكريات له وسجلات تصف جهود الفنانين ؛ يضاف إلى هذا أن الصور نفسها كانت رقيقة خفيفة ، وأن كثرتها قد استخدمت فيها الألوان المائية وينقصها ما نراه فى الصور الزيتية الأوربية من تلوين يظهرها للعين وكأنها صور مجسمة نكاد نلمسها باليد . ولقد حاول الصينيون التصوير الزيتى ولكن يلوح أنهم تركوه لأنهم حسبوا هذه الطريقة من طرق التصوير خشنة ثقيلة لا تتفق وأغراضهم الدقيقة الرفيعة ؛ كذلك كان تصويرهم فى أشكاله الأولى على الأقل ، فرعاً من فروع الكتابة أو الخط الجميل يستعملون فيه الفرشاة التى كانوا

يستعملونها فى الخط ، وكانوا يقتصرون فى كثير من روائعهم الفنية على الفرشاة والحبر (*)

وآخر ما نذكره من أوجه الخلاف أن أعظم ما أخرجوه من الصور الملونة قد أخفى من غير قصد عن أعين الرحالة الغربيين ، ذلك أن الصينيين لا يتباهون بعرض صورهم على الجدران العامة والخاصة بل يطوونها ويخبئونها بمنتهى العناية ، فإذا أرادوا أن يستمتعوا برؤيتها أخرجوها من مخبئها كما نخرج نحن كتاباً ونقرؤه . وكانت هذه الصور المطوية تلف متتابعة فى ملفات من الورق أو الحرير ثم « تقرأ » كما تقرأ المخطوطات . أما الصور الصغيرة فكانت تعلق على الجدران وقلما كانت توضع فى إطارات . وكانت عدة صور ترسم أحياناً على شاشة كبيرة ، وفى العهد الأخير من عهود أسرة سونج كان فن التصوير قد تفرع إلى ثلاثة عشر « فرعاً » (٦٣) واتخذ أشكالا لا حصر لها .

وقد ورد ذكر الفن الصينى بوصفه فناً ثابت الأساس ، قبل ميلاد المسيح بعدة قرون ، ولا يزال هذا الفن موطد الدعائم فى بلاد الصين إلى يومنا هذا رغم ما عاناه بسبب الحروب الكثيرة . وتقول الأقاصيص الصينية إن أول من صور بالألوان فى الصين امرأة تسمى لى وهى أخت الإمبراطور الصالح شوين . وقد ساء

(*) يرى الصينيون أن التصوير ضرب من الكتابة ، ويعدون الخط فنا من الفنون الجميلة ، وإن كان العالم يرى عكس هذا ويعتقد أن الكتابة كانت فى بادئ أمرها نوعاً من الرسم والتصوير . ومن أجل هذا ترى لوحات من الخط الجميل معلقة فى بيوت الصينيين واليابانيين ، ومن أجل ذلك أيضاً يجى المولعون بالفن وراء الروائع الخطية كما يجوب جامعو التحف الفنية القارات فى هذه الأيام للحصول على صورة أو مزهرية . وكان أشهر الخطاطين الصينيين وانج شى — چى (حوالى ٤٠٠ م) ، وكانت الحروف الصينية الجميلة التى كتبها بيده هى التى قطعت عليها الأحرف التى اتخذت قوالب للطباعة . ولما أراد الإمبراطور العظيم ماى دزونج أحد أباطرة أسرة تانج أن يحصل من بيان — دزاى على ملف بخط وانج شى — چى لم يجد سبيلا إلى الحصول عليه إلا بالسرقة ، ويقال إنه لما تم له هذا فقد بيان — دزاى شهوة الطعام ومات غما وكمدا .



شكل ٦ — صورة ملونة لثلاثة عشر إمبراطورا تعزى إلى ين لى ـ بن من مصورى القرن القرن السابع
محفوظة فى متحف الفن بمدينة بسطن.

ذلك أحد الناقدين فقال : « مما يؤسف له أشد الأسف أن يكون هذا الفن القدسى من اختراع امرأة »(٦٤)

ولم يبق شىء من الصور التى رسمت فى عهد أسرة چو . لكن الذى لاشك فيه أن الفن فى عهد هذه الأسرة كان قد تقادم عهده ، ويدلنا على ذلك تقرير كتبه كنفوشيوس يقول فيه إنه : أعجب أشد الإعجاب بالمظلات التى رآها فى الهيكل المعظم المقام فى لو — يانج(٦٥) .

أما فى أيام أسرة هان فحسبنا دليلا على انتشار التصوير أن كاتباً من الكتاب قد شكا من أن بطلا يعجب به لم يُرسم له عدد كاف من الصور فقال : « إن الفنانين كثيرون فلم إذن لا يصوره أحد منهم ؟(٦٦) » ومن القصص التى تروى عن واحد من مهرة الفنانين فى عهد الإمبراطور لى — يه — إى الأول أنه كان فى استطاعته أن يرسم خطاً مستقيما لا ميل فيه طوله ألف قدم ؛ وأن يرسم خريطة مفصلة للصين على سطح لا يزيد على بوصة مربعة ، وأن فى مقدوره أن يملأ فاه ماء ملونا ثم يبصقه فيكون صورة ، وأن الصور التى كان يرسمها للعنقاء قد بلغت من الإتقان حداً جعل الناس إذا نظروا إليها يتساءلون قائلين لم لا تطير من أمامهم(٦٧) . ولدينا ما يشير إلى أن فن التصوير الصينى بلغ إحدى درجاته القصوى من الكمال فى بداية التاريخ الميلادى ، ولكن الحروب محت كل دليل قاطع على هذا . ولقد تناوبت على الصين غلبة الفن والحرب فى نزاعهما الأيدى القديم ، منذ العهد الذى نهب فيه لويانج المحاربون من إقليم تشين (حوالى عام ٢٤٩ ق . م) وأخذوا يحرقون كل ما لم يستطيعوا الانتفاع به ، إلى أيام ثورة الملاكمين (١٩٠٠ م) حين كان جنود تونج چو يستخدمون الصور المرسومة على الحرير فى المجموعة الإمبراطورية لحزم ما يريدون حزمه من الأمتعة . فكانت روائع الفن يحل بها الدمار ولكن الفنانين لم يكونوا يتوانون عن الخلق والابتداع .

ولقد أحدثت البوذية انقلاباً فى شئون الدين والفن فى بلاد الصين لا يقل فى عمقه ومداه عن الانقلاب الذى أحدثته المسيحية فى ثقافة البحر المتوسط وفنونه. نعم إن الكنفوشية احتفظت بسلطانها السياسى فى البلاد، ولكن البوذية امتزجت بالدوية فأصبحت السلطة المهيمنة على الفن، وأنشأت بين الصينيين وبين البواعث والرموز والأساليب والأنماط الهندية صلات ذات أثر قوى.

وكان أعظم العباقرة من رجال مدرسة التصوير الصينية البوذية جوو — كاى — چيه، وهو رجل بلغ من قوة شخصيته وصفاته الفذة أن اجتمعت حوله أقاصيص وأساطير كثيرة. منها أنه أحب فتاة تسكن منزلا يجاور منزله، فلما عرض عليها أن تتزوج به أبت لجهلها بما كانت تخبئه له الأيام من شهرة عظيمة، فما كان منه إلا أن رسم صورة لها على أحد الجدران وأنفذ شوكة فى قلبها، فأشرفت الفتاة على الموت. ثم تقدم إليها مرة أخرى فرضيت به، فرفع الشوكة عن صورتها فشفيت الفتاة من مرضها. ولما أراد البوذيون أن يجمعوا المال لتشييد هيكل فى نانكنج وعد أن يمدهم بمليون كاش(*)، وسخرت الصين كلها من هذا الوعد، لأن چوو قد بلغ من الفقر ما يبلغه الفنان.

فقال لهم: « اسمحوا لى أن أستخدم أحد الجدران »، فلما وجد الجدار واستطاع أن ينفرد بنفسه عنده رسم عليه صورة القديس البوذى أو إمالا — كيرتى. ولما أتم الصورة دعا الكهنة، وأخذ يصف لهم طريقة جمع المال المطلوب فقال: « عليكم أن تطلبوا فى اليوم الأول مائة ألف كاش » ممن يريد أن يدخل ليرى الصورة، « وأن تطلبوا فى اليوم الثانى خمسين ألفاً. أما فى اليوم الثالث فدعوا الزائرين أحراراً يتبرعون بما يشاءون ». ففعلوا ما أمرهم به وجمعوا بهذه الطريقة مليون « كاش »(٦٩). ورسم چوو سلسلة طويلة من الصور البوذية كما رسم صوراً

(*) عملة صينية صغيرة قيمتها نحو ⅟٤ مليم. (المترجم)

أخرى غير بوذية . ولكننا لم يصلنا شىء من رسومه الموثوق بنسبتها إليه(*) .
وكتب ثلاث رسائل فى التصوير بقيت بعض أجزائها إلى اليوم . ومن أقواله : إن أصعب التصوير تصوير الرجال ، ويلى الرجال فى الصعوبة تصوير المناظر الطبيعية ثم تأتى بعدها الخيل والآلهة(٧٢) . وكان يصر على أنه فنان وفيلسوف معاً . ولما رسم صورة للإمبراطور كتب تحتها : « ليس فى الطبيعة شىء عال لا ينحط بعد قليل ... فالشمس إذا بلغت كبد السماء أخذت فى الانحدار ، والقمر إذا كمل وصار بدراً بدأ يتناقص . وتسنم المجد لا يقل صعوبة عن بناء جبل من حبات التراب ؛ أما التردى فى الهلاك فسهل كانسياب اللولب المشدود »(٧٣)(**) ، وكان معاصروه يعدونه أعظم رجال زمانه فى ثلاث نواح : فى التصوير وفى الفكاهة وفى البلاهة(٧٤) .

وازدهر التصوير فى بلاط الأباطرة من أسرة تانج ، ومن الأقوال المؤيدة لهذا قول دوفو : « إن المصورين ليبلغون من الكثرة عدد نجوم الصباح ، ولكن الفنانين منهم قليلون »(٧٥) .

وكتب جانج ين — يوان فى القرن التاسع عشر كتاباً سماه : **عظماء المصورين فى جميع العصور** وصف فيه أعمال ثلثمائة وسبعين فناناً ، ويقول فيه : إن الصورة التى يرسمها أحد أساتذة التصوير كانت تدرّ عليه وقتئذ نحو عشرين ألف أوقية من الفضة ، ولكنه يحذرنا فيما بعد من أن نقدر الفن بالمال ويقول : « إن الصور الجميلة أعظم قيمة من الذهب واليشب ، أما الصور الرديئة فلا تساوى الواحدة منها شقفة » .

(*) ويعزو له سدنة المتحف البريطانى ملفاً جميلا وإن يكن حائل اللون عليه خمسة رسوم تصور حياة نموذجية لأسرة من الأسر(٧٠) ، ويحوى هيكل كنفوشيوس فى تشوفو نقشاً على حجر يقول ناقشه إنه حذا فيه حذو جوو . ويحوى معرض فرير Freer فى واشنجتن : من من كتابات تعزى إليه(٧١) .

(**) اقرأ هذا المعنى نفسه فى مقام بيكن « فى المنصب الرفيع » أو ترجمة هذا المقال فى الجزء الثانى من مقالات مختارة من اللغة الإنجليزية . (المترجم)

ولا نزال نعرف من المصورين فى عهد أسرة تانج أسماء مائتين وعشرين ، أما أعمالهم فلا يكاد يبقى منها شىء ، لأن ثوار التتار الذين نهبوا شانج — آن فى عام ٧٥٦ لم يكونوا يعنون بهذا الفن ؛ وفى وسعنا أن نلمح الجو الفنى الذى كان يمتزج بشعر ذلك الوقت فى قصة هان يو « أمير الأدب » الذائع الصيت .

وخلاصة هذه القصة أن هذا الأمير كسب من زميل له يقيم معه فى نزل رقعة صغيرة اشتملت فى أصغر مساحة مستطاعة على ثلاث وعشرين ومائة صورة من صور الآدميين ، وثلاث وثمانين من صور الجياد ، وثلاثين من صور الحيوانات الأخرى ، وصور لثلاث عربات ، وإحدى وخمسين ومائتى صورة لأشياء أخرى ويقول هو عنها : « لقد فكرت كثيراً فى أمر هذه الصورة لأنى لم أكن أصدق أنها من عمل رجل واحد ، فقد جمعت عدداً من المزايا المختلفة الأنواع ، ولم يكن فى وسعى أن أتخلى عنها مهما عرض علىّ من المال ثمناً لها . وفى العام الثانى غادرت المدينة وسافرت إلى هو — يانج ، وحدث أن كنت فى أحد الأيام أتحدث عن الفن إلى بعض الغرباء ، وأخرجت لهم الصورة ليروها ؛ وكان من بينها رجل يدعى چوْ ، يشغل وظيفة رقيب(*) وكان ذا ثقافة عالية ؛ فلما وقعت عينه على الصورة دهش أيما دهشة لرؤيتها ثم قال بعد تفكير طويل : « إن هذه الصورة من عمل يدى رسمتها فى أيام شبابى ، وهى منقولة عن صورة فى معرض الفن الإمبراطورى ، ولقد فقدتها منذ عشرين عاما ، وأنا مسافر فى مقاطعة فوفين » » ، فما كان من هان يو إلا أن أهدى الصورة الصغيرة إلى چوْ .

ولقد نشأت فى فن التصوير الصينى مدرستان مختلفتان إحداها فى الشمال والثانية فى الجنوب ، كما نشأت فى الديانة الصينية مدرستان هى المدرسة الكنفوشية والمدرسة الدَّوِّية — البوذية وكما نشأت فى الفلسفة مدرستان إحداها بزعامة چوشى والثانية بزعامة وانج يانج منج ، تمثل الأولى ما يطلق عليه الغربيون العقلية

(*) انظر واجبات الرقيب فى الفصل السادس من الباب الحادى والعشرين .

الإتباعية ، وتمثل الثانية العقلية الابتداعية ، فكان الفنانون الشماليون يتمسكون بالتقاليد الصارمة ويتقدمون فى رسومهم بقيود العفة والوقار ؛ أما أهل الجنوب فكانوا يعنون فى تصويرهم بإبراز المشاعر والخيال . وعنيت المدرسة الشمالية أشد عناية بإبراز نماذج صحيحة متقنة من الأشكال التى تصورها وجعلها واضحة الخطوط والمعالم ، أما المدرسة الجنوبية فقد ثارت كما ثار منتمارتر Montmarter على هذه القيود ، فكانت تحتقر هذه الواقعية البسيطة ولا تستخدم الأشياء إلا عناصر فى تجارب روحية ، أو نغمات فى مزاج موسيقى (٧٧) . ولقد وجد لى سو — شون وهو يصور فى بلاط منج هوانج بين زعازع السلطة السياسية وعُزلة النفى ما يكفى من الوقت لتوطيد دعائم المدرسة الشمالية . وصور هو نفسه بعض المناظر الصينية الطبيعية وبلغ فيها درجة من الواقعية تناقلتها فيما بعد كثير من الأقاصيص . من ذلك قول الإمبراطور إنه يستطيع أن يستمع فى الليل إلى خرير الماء الذى صوره لى على شاشة فى قصره ، وإن سمكة فى صورة أخرى له دبت فيها الحياة ووجدت بعد فى بركة — وليس لنا أن نلوم الصينيين على هذه الأقوال ، فإن لكل أمة أقوالا مثلها فى مدح مصوريها .

ونشأت المدرسة الجنوبية مما أدخل على الفن من تجديد ومن عبقرية وانج واى ، فلم يكن المنظر الطبيعى فى طرازه التأثيرى من طرز الفن أكثر من رمز لمزاج معين ، وكان وانج شاعراً ومصوراً معاً ، ولذلك عمل على ربط الفنين بعضهما ببعض ، وذلك بجعل الصورة تعبر عن قصيدة . وفيه قال الناس لأول مرة العبارة التى طالما لاكتها الألسن حتى ابتذلت ، والتى تنطبق كل الانطباق على الشعر والتصوير الصينيين كليهما وهى : « كل قصيدة صورة وكل صورة قصيدة » (وكان يحدث فى كثير من الأحيان أن تنقش القصيدة على الصورة وأن تكون القصيدة نفسها مخطوطاً فنياً جميلا) . ويروى المؤرخون أن تونج چى —

جانج قضى حياته كلها يبحث عن صورة أصلية من عمل وانج ويه(*) (٧٨) .

وأعظم المصورين فى عهد أسرة تانج ، وأعظم المصورين فى الشرق الأقصى كله بإجماع الآراء ، رجل علا فوق فروق مدرستى التصوير السالفتى الذكر ، وكان من الذين حافظوا على التقاليد البوذية فى الفن الصينى ، واسم هذا المصور وو دَوْ — دزه ؛ ولقد كان فى الحق خليقاً باسمه فإن معنى هذا الاسم هو «أستاذ الدو أو الطريقة » ، ذلك أن جميع التأثرات والأفكار المجردة التى وجدها لو دزه وچوانج دزه أدق من أن تعبر عنها الألفاظ ، وقد بدت وكأنها تنساب انسياباً طبيعياً فى صورة خطوط وألوان يجرى بها قلمه ، ويصفه أحد المؤرخين الصينيين بقوله : « إنه كان شخصاً معدماً يتيماً ، ولكنه وهب فطرة إلهية ، فلم يكد يلبس قلنسوة البلوغ حتى كان من أساتذة الفن ، وحتى غمر لو — يانج بأعماله » . وتقول الروايات الصينية إنه كان مغرماً بالخمر وبأعمال القوة ، وإنه كان يعتقد — كما يعتقد الشاعر الإنجليزى بو Poe — أن الروح تخرج أحسن ثمارها تحت تأثير قليل من السكر (٨١) . وقد برز فى كل موضوع صوره ؛ فى الرجال والأرباب والشياطين ، وفى تصوير بوذا بأشكال مختلفة ، وفى رسم الطيور والوحوش والمبانى والمناظر الطبيعية — وكانت كلها تأتيه طائعة لفنه الخصيب ؛ وبرع فى الرسم على الحرير والورق والجدران الحديثة الطلاء فكانت هذه كلها عنده سواء . وقد أنشأ ثلثمائة مظلم لهيا كل البوذية منها مظلم يحتوى على صورة ألف شخص لاتقل شهرته فى الصين عن شهرة « يوم الحساب » أو صورة « العشاء الأخير » فى أوربا . وكانت ثلاث وتسعون صورة من صوره فى معرض الصور الإمبراطورى فى القرن الثانى عشر بعد أربعمائة سنة من وفاته ، ولكنها لم يبق منها شىء فى مكان ما فى الوقت الحاضر . ويحدثنا الرواة أن الصور التى رسمها لبوذا « قد كشفت عن أسرار الحياة

(*) لم يبق إلا صور منسوخة منها : أهمها « مسقط ماء » محفوظة الآن فى معبد شاكوين فى كيوتو (٧٩) وملف (فى كل من المتحف البريطانى ومتحف فرير) كتب عليه : « منظر وانج جوان » (٨٠) .

والموت » وقد بلغ من تأثير صوره التى تمثل الحشر أن ارتاع من رؤيتها بعض القصابين والسماكين فنبذوا حرفتهم المشينتين غير البوذيتين .

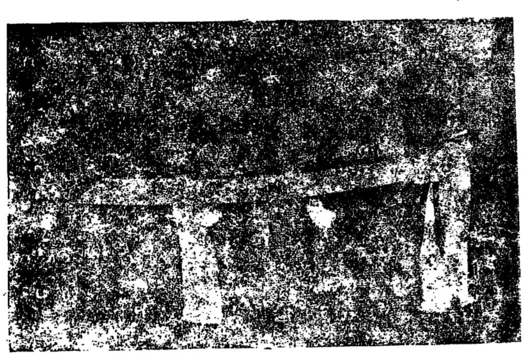
ولما رسم صورة تمثل رؤيى منج هوانج أيقن الإمبراطور أن وو قد رأى هو أيضاً رؤيى مثلها(٨٢) . ولما أرسل الملك وو ليرسم منظراً على ضفة نهر چيالنج فى ولاية سشوان هاله أن يعود الفنان دون أن يرسم خطاً واحداً ، فقال له وو : « لقد وعيته كله فى قلبى » ، ثم انفرد بنفسه فى حجرة من حجر القصر وأخرج ، كما يؤكد لنا المؤرخون ، مناظر تمثل ألف ميل (*) . ولما أراد القائد باى أن ترسم له صورة طلب إليه وو ألا يقف أمامه ليرسمه ، بل أن يلعب بالسيف ، فلما فعل أخرج المصور له صورة لم يسع معاصريه إلا أن يقولوا إنها قد أوحى إليه بها ولم تكن من عنده . وقد بلغ من شهرته أن أقبلت « شانج — آن » على بكرة أبيها لتشاهده وهو يختتم رسم بعض الصور البوذية فى هيكل شنج شان . ويقول مؤرخ صينى من مؤرخى القرن التاسع إنه لما أحاط به هذا الجمع الحاشد « رسم الهالات بسرعة عجيبة عنيفة بدا للناس معها كأن يده يحركها إعصار ، وصاح كل من رآه أن إلهاً من الآلهة كان يساعده »(٨٥) : ذلك أن الكسالى لايفتئون يعزون العبقرية « لوحى » يوحى لمن ينتظر هذا الإيحاء .

ونقول إحدى القصص الطريفة إنه لما طال الأجل بوو رسم منظراً طبيعياً كبيراً ، ودخل فى فم كهف مصور فى هذا المنظر ، ولم يره أحد بعد دخوله فيه(٨٦) . ولا جدال فى أن الفن لم يصل قط إلى ما أوصله إليه هو من إتقان وإبداع .

وأصبح الفن فى عهد أسرة سونج شهوة عارمة عند الصينيين ، ذلك أنه بعد أن تحرر من سيطرة الموضوعات البوذية عليه غمر البلاد بما لا يحصى من الصور المختلفة ، ولم يكن الإمبراطور هواى دزونج نفسه أقل الثمانمائة الرسامين المشهورين فى أيامه .

(*) اقرأ رأى كروسى القائل بأن الفن هو الفكرة نفسها لا طريقة إخراجها(٨٤) .

ومن الكنوز المحفوظة بمتحف الآثار الجميلة ببسطن ملف صوَّر فيه هذا الإمبراطور فى بساطة عجيبة ووضوح أعجب المراحلَ المختلفة التى تسير فيها عملية إعداد الحرير على يد النساء الصينيات(٨٧) . ومن أعماله أنه أنشأ متحفاً للفن جمع فيه أكبر مجموعة من الروائع الفنية عرفتها الصين من بعده(٨٨) ؛ وأنه رفع المجمع الفنى من فرع تابع للكلية الأدبية لا غير إلى معهد مستقل من الدرجة الأولى ، واستبدل الاختبار فى الفن ببعض الاختبارات الأدبية التى جرت العادة بأن يمتحن فيها طلاب المناصب السياسية ، ورفع رجالا إلى مناصب الوزراء لأنهم برعوا فى الفن بقدر ما رفع إليها غيرهم لأنهم برعوا فى السياسة(٨٩) . وسمع التتار بهذا كله فغزوا الصين وأنزلوا الإمبراطور عن عرشه ، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً ، ودمروا كل الصور المحفوظة فى المتحف الإمبراطورى إلا القليل، وكانت سجلات هذه الصور تملأ عشرين مجلداً(٩٠) . وساق الغزاة الإمبراطور الفنان أمامهم ومات فى ذل الأسر .



شكل ٧ — صناعة الحرير من تصوير الإمبراطور هواى دزو
فى متحف الفن الجميل بمدينة بسطن

وكان أجل من هذا الإمبراطور الفنان شأناً رجلان من غير الأسر المالكة هما جووشى ، ولى لونج — مين . «ويقول الناقدون والفنانون إن جووشى بز جميع معاصريه فى تصوير أشجار الصنوبر الباسقة ، والدوحات الضخمة ، والمياه الدوامة ، والصخور الناتئة ، والجروف الوعرة ، وقلل الجبال السامقة التى لا يحصى عديدها »(٩١)(*) . وكان لى لونج — مين فناناً وعالماً وموظفاً ناجحاً ورجلا سميذعاً(**) يجله الصينيون ويرون فيه مثلا أعلى لما يجب أن يكون عليه الصينى المثقف . وقد بدأ أولا بالخط ثم انتقل منه إلى الرسم بالخطوط ثم بالألوان ، وقلما كان يستخدم فى هذا كله شيئاً غير المداد ؛ وكان يفخر بمحافظته الشديدة على تقاليد المدرسة الشمالية ، ويبذل جهوده كلها فى ضبط الخطوط ودقتها . وقد برع فى رسم الخيل براعة بلغ منها أن اتهمه الناس حين ماتت ستة منها بأن الصورة التى رسمها لها قد سلبتها أرواحها ، وأن حذره كاهن بوذى من أنه سيصبح هو نفسه جواداً إذا دأب على العناية برسم الجياد بدقته المعهودة ، فما كان منه إلا أن قبل نصيحة الكاهن وصور خمسمائة لوهان(†) . وفى وسعنا أن ندرك شهرته إذا عرفنا أن معرض هواى دزونج الإمبراطورى حين نُهب كان يحتوى على مائة صورة وسبع صور من عمل لى لونج — مين وحده .

ونبغ فى عهد أسرة سونج عدد كبير من أساتذة الفن ، نذكر منهم مى فاى وهو عبقرى غريب الأطوار ، كان لا يُرى إلا هو يغسل يديه أو يغير ملابسه إذا لم يكن يشتغل بجمع أعمال رجال الفن القدماء ، أو يرسم صوراً لمناظر طبيعية

(*) فى معرض فرير الفنى بواشنجتن « منظر على المواننج — هو » يعزى إلى جو — شى وإن كان هذا مشكوكا فيه(٩٢) .

(**) السَّميْذع أو السميدع . السيد الكريم الشريف السخى الموطأ الأكناف والشجاع ، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Gentleman

(†) اللوهان هو الذى وصل إلى النرفانا أى الذى سمت نفسه إلى أرق المراتب الروحية

« بطريقة التنقيط » أى بنقط من المداد يضعها دون أن يستعين بالخطوط الخارجية(*) . ومنهم أيضاً شيه جواى وقد رسم ملفاً طويلا يحتوى على مناظر متفرقة لنهر يانج — دزه(**) من منابعه الصغيرة ، ومجراه ، مخترقا اللويس والخوانق إلى مصبه الواسع الغاص بالسفن التجارية وبالقوارب الصغيرة (السمبان) ؛ وهذا الملف قد جعل بعض الفنانين (٩٣) يضعون صاحبه على رأس مصورى المناظر الطبيعية فى الشرق والغرب على السواء . ومن مشهورى المصورين فى هذا العهد مايوان : ويزدان متحف الفن الجميل فى بُسْطُنْ بمناظر طبيعية أنيقة ، ومناظر مصورة عن



شكل ٨ — منظر طبيعى ، جسر وصفصاف من تصوير مايوان فى القرن الثانى عشر محفوظ فى متحف الفن الجميل ببسطن

(*) فى الحجرة رقم ١١ فى المتحف الفنى بنيورك منظر طبيعى يقال إنه من تصوير « مى فاى » .

(**) Yang-tze وهو النهر الذى ينطق اسمه أحياناً يانج — تسى أويانج — تسى — كيانج

بعد(*). ومنهم ليانج كاى الذى رسم صورة نخمة للشاعر الصينى لى بو ، وموتشى صاحب صورة النمر الرهيب ، والزرزور ، وصورة كوان ين الظريف المكتئب ، وفى وسعنا أن نذكر غير هؤلاء كثيرين من المصورين الصينيين الذين لم يألف الغرب سماع أسمائهم أو يعيها إذا سمعها لغرابتها ، ولكنهم فى واقع الأمر نماذج من تراث الشرق العقلى العظيم . وما أصدق ما قاله عنهم فنلوزا Fenollosa : « لقد كانت ثقافة أسرة سونج أنضج تعبير عن العبقرية الصينية »(٩٥) .

وإذا شئنا أن نقدر فن التصوير الصينى فى أيام مجد أسرتى تانج وسونج ، كنا كمن يحاولون من مؤرخى المستقبل أن يكتبوا عن عصر النهضة الإيطالية بعد أن فقدت جميع أعمال رفائيل وليوناردو دافنشى وميكل أنجلو . ويبدو أن فن التصوير الصينى قد كسر فى ذرعه وهد ركنه ما توالى عليه من غارات جحافل البرابرة الذين دمروا روائعه وعاقوا تقدمه قروناً عدة . ومع أنه قد نبغ فى عهد الأسر التى تربعت على عرش الصين بعد أسرتى تانج وسونج ، الصينية منها والأجنبية ، فنانون لهم رسوم بلغت مستوى عظيماً من الظرف أو القوة ، فليس من هؤلاء الفنانين من يرقى إلى مستوى أولئك الرجال الذين عاشوا فى جنان بلاط منج هوانج أو هواى دزونج وخليق بنا إذا فكرنا فى الصينيين ألا نفكر فيهم على أنهم مجرد شعب سلطت عليه الفاقة ، وأضعفه فساد الحكم ، وفرقته التحزبات والانقسامات السياسية ، وأذلته الهزائم الحربية ، بل يجب أن نفكر فيهم أيضاً على أنهم أمة شهدت فى تاريخها الطويل عصوراً لا تقل فى مجدها عن عصور بركليز وأغسطس وآل ميديشى ، وأنها قد تشهد عصوراً أخرى مثلها فى مستقبل الأيام .

(*) ومن أروع الصور صورة « السيدة لنج – چاو واقفة بين الثلوج » . والصورة تمثل السيدة (وهى صوفية بوذية من نساء القرن الثامن) ساكنة غارقة فى التفكير كأنها سقراط واقف وسط الثلوج فى پلاتية . ويخيل إلينا أن الفنان يقول « إن العالم لا وجود له إلا إذا أدرك العقل وجوده ، وإن فى وسع العقل أن يتجاهله إلى حين » .

٢ — خصائص فن التصوير الصينى

نبذ فن المنظور — الواقعية — الخط أسمى من اللون — الشكل إيقاع — التصوير بالإيحاء — العرف والقيود أمانة الفن الصينى وإخلاصه

ترى ما هى الخصائص التى تميز فن التصوير الصينى فتجعله يختلف كل الاختلاف عما أنتجته أية مدرسة أخرى من مدارس التصوير فى التاريخ كله عدا تلاميذه فى اليابان ؟ إن أول ما نذكره من هذه الخصائص أن الصور الصينية ترسم على ملفات أو شاشات كبيرة ، ولكن هذه مسألة تتعلق بالشكل الخارجى ، وأهم منها وأعمق وأكثر صلة بالصفات الذاتية احتقار الصينيين للمنظور والظلال . فلما أن قبل مصوران أوربيان دعوة وجهها إليهم الإمبراطور كانج شى ليزينوا له قصوره رفض الإمبراطور ما عرضوه عليه من زينات لأنهم رسموا العمد البعيدة فى صورهم أقصر من القريبة . وقال لهم الصينيون فى هذا أن لا شىء يمكن أن يكون أكذب وأبعد عن الطبيعة من تمثيل المسافات حيث لا توجد مسافات مطلقاً[٩٦] . ولم تستطع إحدى الفئتين أن تفهم آراء الأخرى ومبادئها لأن الأوربيين اعتادوا أن ينظروا إليه من أعلاه[٩٧] . وكذلك كان يخيل إلى الصينيين أن الظلال لا محل لها فى نمط من أنماط الفن لا يهدف فى زعمهم إلى محاكاة الحقيقة بل يهدف إلى إدخال السرور على النفس ، وتمثيل الأمزجة ، والإيحاء بالأفكار عن طريق الأشكال التامة الكاملة .

وكان الشكل كل شىء فى هذه الصور ، ولم تكن السبيل إلى إجادته غزارة اللون أو بهجته ، بل كانت فى انسجامه ودقة خطوطه . وكانت الألوان محرمة تحريماً باتاً فى الرسوم الأولى ، وظلت نادرة فى رسوم أساتذة الفن ؛ فقد كان هؤلاء يكتفون بالمداد والفرشاة ؛ ذلك أن اللون لم يكن فى رأيهم ذا صلة ما

بالشكل ، بل كان الشكل على حد قول شياه — هو هو الانسجام؛ وأول معانى الانسجام عند الصينيين هو أن يكون الرسم الصينى السجل المرئى لحركة منسجمة أو رقصة تمثلها اليد[٩٨] ؛ ومعناه كذلك أن الشكل البديع يكشف عن « انسجام الروح » وعن جوهر الحقيقة وحركتها الهادئة[٩٩] . ومظهر الانسجام فى آخر الأمر هو الخط — غير مستخدم فى بيان حدود الأشياء ومحيطها الخارجى ، بل مستخدم فى بناء الأشكال التى تعبر عن النفس بطريق الإيحاء أو الرمز . وتكاد دقة الخطوط وجمالها يكونان وحدهما فى فن التصوير الصينى السبب الوحيد فى براعة التنفيذ المستقلة عن قوة الإدراك والشعور والخيال . ومن أجل هـذا كان من واجب المصور أن يلاحظ ما يريد تصويره بصبر وعناية ، وأن يكون ذا شعور قوى مرهف ، وأن يضبط أحاسيسه أدق الضبط وأحكمه ، وأن يتبين غرضه واضحاً ، ثم ينقل بعد هذا على الحرير ما تمثله فى خياله ، نقلا لا يترك فيه مجالا للإصلاح أو التعديل ، وذلك بعدد قليل من الضربات المتواصلة السهلة . وقد وصل فن التصوير بالخطوط ذروة مجده فى الصين واليابان ، كما اقترب فن التلوين من ذروة مجده فى البندقية وفى الأراضى الوطيئة .

ولم يعن فن التصوير الصينى بالواقعية فى يوم من الأيام ، بل كان يهدف إلى الإيحاء أكثر مما يهدف إلى الوصف . أما « الحقيقة » فقد تركها للعلم ووهب نفسه للجمال . ولقد كان هذا النوع من التصوير فرعا لم ينبت فى غير بلاد الصين، ثم ترعرع وازدهر بعض الازدهار تحت سماء صافية ، فأصبح كافيا لأن يستهوى نفوس أعظم أساتذة الفن ويملك عليهم تفكيرهم ، وأن يكون تناولهم لرقعة التصوير الفارغة وتقسيمها تقسيما يتناسب مع ما يريدون تصويره ، أن يكون هذا وذاك محكا تختبر به قدرتهم ومهارتهم . ومن الموضوعات التى كانت تعرض على طالبى الالتحاق بمجمع هواى دزونج للتصوير موضوع يوضح لنا مقدار توكيد الصينيين للإيحاء غير المباشر وعنايتهم به لا بالتصوير الصريح . ذلك أن للمتسابقين

كان يعرض عليهم أن يشرحوا بالرسم بيتاً من أبيات الشعر هو . « وعاد حافر جواده مثقلا بعبير ما وطئه من الأزهار » . وكان المتسابق الذى أحرز قصب السبق فى هـذا المضمار فناناً رسم صورة فارس ومن حول كعوب جواده سرب من الفراش .

ولما كان الشكل كل شيء فإن من الممكن أن يكون للموضوع أى شيء . وقلما كان الرجال مركز الصورة أو جوهرها ؛ وإذا ما ظهروا فيها كانوا فى كل الأحوال تقريباً شيوخاً وكانوا كلهم متقاربين فى الشبه . وقلما كان المصور الصينى ينظر إلى العالم بعينى الشاب وإن لم يكن قط واضح التشاؤم فى تصويره ولقد رسم المصورون صوراً لبعض الأفراد ولـكنها كلها صور لم تبلغ ما بلغه غيرها من الجودة والإتقان ؛ ذلك أن الفنان الصينى لم يكن يعنى بالأفراد ، وما من شك فى أنه كان يحب الأزهار والحيوانات أكثر مما يحب الرجال ، ولذلك أطلق لنفسه العنان فى تصويرها ؛ فترى هواى — دزونج وهو الذى كانت تأتمر بأمره إمبراطورية متسعة الأرجاء يهب نصف حياته لتصوير الطيور والأزهار . وكانت الأزهار والحيوانات كالأزورد والتنين تتخذ رموزاً غير مقصودة لذاتها فى بعض الأحيان ؛ لـكنها فى الأغلب الأعم كانت ترسم لأن سر الحياة وسحرها يتمثلان فيها كاملين كما يتمثلان فى الإنسان نفسه ، وكان الحصان محبباً للفنانين الصينيين بنوع خاص ، ومن أجل هذا ترى فنانين كباراً مثل هان كان لا يكادون يعملون شيئاً غير رسم شكل فى إثر شكل لهذا المخلوق الذى هو جسم حى للتخطيط الفنى .

ولسنا ننكر أن التصوير فى الصين قد لاقى الأمرين من جراء التقاليد الدينية أولا ومن القيود التى وضعها العلماء بعدئذ ، وأن تقليد الأساتذة القدامى والنسج على منوالهم كانا من العوامل المعوقة فى تدريب طلاب الفن ، وأن الفنان كان فى كثير من الأحوال يقيد بعدد محدود من المسائل لا يسمح له أن يلجأ إلى

غيرها فى تشكيل مادته[١٠٠] . وفى وسع القارئ أن يدرك قوة العرف والتقاليد من قول أحد كبار النقاد الفنيين فى عهد آل سونج : « لقد كنت فى أيام شبابى أثنى على الأستاذ الذى أحب صوره ؛ فلما أن نضج عقلى أصبحت أثنى على نفسى لأنى أحببت ما اختاره الأساتذة لى لكى أحبه »[١٠١] ، وأنا ليدهشنا ما بقى فى هذا الفن من حيوية بالرغم من قيود العرف والقواعد التى وضعت له . وفى وسعنا أن نقول فى هؤلاء ما قاله هيوم عن كتاب عهد الاستنارة وهم الذين علا شأنهم رغم الرقابة المفروضة عليهم : « إن القيود التى عانى الفنانون ما عانوه منها قد أرغمتهم هى نفسها على أن يكونوا عظماء ممتازين » .

وما من شك فى أن الذى أنقذ المصورين الصينيين من وهدة الركود هو إخلاصهم فى إحساسهم بالطبيعة . وقد استمدوا هذا الإحساس من مبادئ الدوية ، وقوتها فى نفوسهم البوذية إذ علمتهم أن الإنسان والطبيعة شىء واحد فى مجرى الحياة وتغيرها ووحدتها . وكما أن الشعراء قد وجدوا فى الطبيعة ملجأ يهرعون إليه من صخب المدن وكفاحها ، وكما أن الفلاسفة كانوا يبحثون فيها عن نماذج للأخلاق وهادياً للحياة ، كذلك كان المصورون يطيلون التأمل بجوار المجارى المائية المنعزلة ويوغلون فى شعاب الجبال الشجراء ، لأنهم يشعرون أن الروح الأعلى الذى لا يعرفون له اسماً قد عبر عن نفسه فى هذه الأشياء الصامتة الخالدة تعبيراً أوضح مما عبر عنها فى حياة الناس وأفكارهم المضطربة الهائجة(*) . ولقد اتخذ الصينيون الطبيعة الشديدة القسوة عليهم ، والتى تنفث الموت ببردها وفيضان أنهارها ، اتخذوها إلههم الأعلى ، ورضوا بذلك فى قوة وطمأنينة ، ولم يقبلوا أن يقدموا لها القرابين الدينية ، بل رضوا بأن تكون فوق هذا معبود فلسفتهم

(*) لم يكن تصوير المناظر الطبيعية يسمى فى الصين بأكثر من شأن — روى أى الجبال والمياه .

وأدبهم وفنهم . . وحسبنا شاهداً على قدم عهد الثقافة الصينية وعمقها أن الصينيين قد هاموا بحب الطبيعة قبل أن يهيم بها كلود لورين ، وروسو ، ووردسورث ، وشاتو بريان بألف عام كاملة ؛ وأنهم أنشأوا مدرسة من مصورى المناظر الطبيعية أضحت صورها فى جميع بلاد الشرق الأقصى أسمى ما عبرت به الإنسانية عن مشاعرها .

الفصل الخامس

الخزف الصيني

فن الخزف – صنع الخزف – تاريخه القديم – اللون الأخضر
الحائل – الطلاء بالميناء – براعة هاوشى چيو – تقاسيم
الطلاء – عصر كانج شى – عصر تشين لونج

إذا أخذنا نتحدث عن الفن الذى تمتاز به الصين عن سائر الأمم ، والذى لا يجادل أحد فى أنها هى حاملة لوائه فى العالم كله ، وجدنا فى أنفسنا نزعة قوية إلى اعتبار الخزف صناعة من الصناعات . ولما كانت كلمة « الصينى » إذا وردت على لساننا ارتبطت فى عقولنا بالمطبخ وأدواته . فإننا إذا ذكرنا الفاخورة تمثلنا من فورنا المكان الذى يصنع فيه « الصينى » ، وظننا هذا المكان مصنعاً ككل المصانع لا تثير منتجاته فى النفس روابط عليا سامية . أما الصينيون فقد كانت صناعة الخزف عندهم فناً من الفنون الكبرى ، تبتهج له نفوسهم العملية المولعة مع ذلك بالجمال ، لأنه يجمع بين النفع وبهاء المنظر .

فلقد أمدهم هذا الفن بآنية يستخدمونها فى شرابهم القومى الشهير — شراب الشاى — جميلة فى ملمسها ومنظرها ، وازدانت منازلهم بأشكال بلغت كلها من الجمال حداً تستطيع معه أفقر الأسر أن تعيش فى صحبة نوع من أنواع الكمال ، لقد كان فن الخزف هو فن النحت عند الصينيين .

ولفظ الفخار يطلق أولا على الصناعة التى تحيل الطين بعد حرقه إلى أدوات صالحة للاستعمال المنزل ، ويطلق كذلك على الفن الذى يجمل هذه الأدوات ، وعلى الأدوات التى تنتجها هذه الصناعة ؛ والخزف هو الفخار المزجج أى أنه هو الطين الممزوج بالمعادن والذى إذا عرض للنار ساح واستحال إلى مادة نصف

شفافة شبيهة بالزجاج(*) . وقد صنع الصينيون الخزف من مادتين الـكولين — وهو طين أبيض نقى مكون من فتات الفلسپار والحجر الأعبل (الجرانيت) ، ومن الپي — تن — دزى وهو كوارتز أبيض قابل للانصهار ، هو الذى يكسب الأوانى الخزفية ما فيها من الشفافية . وتسحق هذه المواد كلها وتخلط بالماء فتتكون منها عجينة تشكل باليد أو على عجلة ، ثم تعرض لدرجة حرارة مرتفعة تصهر العجينة وتحيلها إلى مادة زجاجية براقة صلبة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يقنع الخزاف بهذا النوع الأبيض البسيط ، فـكان يغطى « العجينة » أى الإناء قبل حرقه بطبقة من مسحوق الزجاج ، ثم يحرق فى أتون . وكان فى بعض الأحيان يضع هذه الطبقة الزجاجية على العجينة بعد حرقها قليلا ثم يعيد حرق الإناء بعدئذ . وكانت الطبقة الزجاجية تلون فى أغلب الأحيان ، ولـكن العجينة كثيراً ما كانت تنقش وتلون قبل أن تضاف إليها المادة الزجاجية الشفافة أو تلون الطبقة الزجاجية بعد حرقها ثم تثبت عليها بحرقها مرة ثانية . أما الميناء فقد كانت تصنع من الزجاج الملون يدق ويسحق ثم يحول إلى مادة سائلة يضعها الرسام على الآنية بفرشاته الرفيعة . وكان من الصينيين إخصائيون قضوا حياتهم فى التدرب على عملهم ؛ تخصص بعضهم فى رسم المناظر الطبيعية ، وغيرهم فى رسم القديسين والحكماء المنقطعين للتأمل والتفكير بين الجبال ، أو الذين يمتطون ظهور حيوانات غريبة فوق أمواج البحار .

وصناعة الفخار عند الصينيين قديمة العهد قدم العصر الحجرى ، فقد عثر الأستاذ أندرسن على أوانى من الفخار فى هونان وكانسو « لا يمكن أن تكون أحدث عهداً من عام ٣٠٠٠ ق . م »(١٠٣) . وإن ما تتصف به تلك المزهريات

(*) لما أدخلت صناعة الخزف فى أوربا اشتق اسمها من البرسلانا أى صدفة الودع » ولفظ پرسلانا نفسه مشتق من المشابهة المزعومة التى بين الصدفة وبين ظهر البرسلا أو الخنزير الصغير (١٠٢).

من جمال فائق فى الشكل وفى الصقل ليدل دلالة قاطعة على أن هذه الصناعة قد أصبحت فنا من الفنون الجميلة قبل ذلك العهد بزمن طويل . وبعض القطع التى عثر عليها شبيهة بفخار أنو ، وتوحى بأن الحضارة الصينية مأخوذة عن حضارة البلاد الواقعة فى غربها . وهناك قطع من الأوانى الفخارية الجنائزية كشفت فى هونان وتعزى إلى عهد اضمحلال أسرة شانج ولكنها أحط كثيراً من بقايا العصر الحجرى الحديث السالفة الذكر .

ولم يعثر المنقبون بعد عصر هذه الأسرة على بقايا من الفخار ذات قيمة فنية قبل أيام أسرة هان ، ففى عهد هذه الأسرة عثروا على فخار وعثروا فوق ذلك على أول إناء من الزجاج عرف فى الشرق الأقصى(*) ، وكان انتشار عادة شرب الشاى فى عهد أباطرة تانج باعثاً قوياً على تقدم فن الخزف . وقد كشفت العبقرية ، أو المصادفة المحضة ، حوالى القرن التاسع أن من المستطاع صنع إناء مزجج لا من سطحه الخارجي فحسب (كالآنية المصنوعة فى عهد أسرة هان وفى حضارات غير حضارة الصين قبل ذلك العهد) ، بل زجاجي كله من أوله إلى آخره — أى من خزف حقيق وقد كتب أحد الرحالة المسلمين المدعو سليمان إلى بنى وطنه يقول : « إن فى الصين طيناً رقيقاً جميلا يصنعون منه أوانى شفافة كالزجاج ، يُرى من جدرانها ما فى داخلها من الماء » . وقد كشفت أعمال التنقيب الحديثة فى موضع إحدى المدن القديمة عند سر من رأى على نهر دجلة قطعاً من الخزف من صنع الصين . وظهر الخزف بعدئذ فى السجلات المدونة خارج بلاد الصين حوالى عام ١١٧١ م حين أهدى صلاح الدين إلى سلطان دمشق إحدى وأربعين قطعة من الخزف(١٠٥)

(*) لقد صنع المصريون الأقدمون فخاراً مزججاً قبل المسيح بقرون عدة لا يمكن تحديدها ، وإن ما على أقدم الفخار الصينى من نقوش ليدل على أن الصين قد أخذت طريقة التزجيج عن بلاد الشرق الأدنى(١٠٤) .

وليس ثمة شاهد على أن صناعة الخزف بدأت فى أوربا قبل عام ١٤٧٠ م ، فقد ذكر فى ذلك العام على أنه فن جميل أخذه البنادقة عن العرب فى أثناء الحروب الصليبية[١٠٦] .

وكان عهد أسرة سونج هو العهد الذى بلغ فيه فن الخزف الصينى ذروة مجده . وخبراء هذا الفن يعزون إلى هذا العهد أقدم ما لدينا من الآنية الصينية وأحسنها ؛ بل إن صناع الخزف فى عهد أسرة منج ، وهم الذين جاءوا بعد هذا العصر ونبغ فيه بعضهم نبوغ فنانيه ، حتى هؤلاء كانوا إذا ذكروا خزف أسرة سونج ذكروه بالإجلال والإكبار ، وكان جامعو العاديات الصينية يحتفظون بما يعثرون عليه من خزف هذه الأسرة ويعدونه من الكنوز التى لا تقوم بمال وأنشئت فى القرن السادس الميلادى مصانع عظيمة فى چنج ده — چن حيث توجد الرواسب الغنية من المعادن التى تستخدم فى صنع الفخار وتلوينه ، واعترف البلاط الإمبراطورى بهذه المصانع رسمياً ، وبدأت تغمر الصين بفيض من الصحاف الخزفية والأقداح والجفان والمزهريات والطاسات والأباريق والقنينات والجرار والصناديق ورقع الشطرنج والمائلات(*) والخرائط . وحتى مشاجب القبعات كانت تصنع من الخزف المطلى بالميناء والمرصع بالذهب[١٠٧] ؛ وظهرت فى ذلك الوقت لأول مرة القطع ذات اللون الأخضر اليشبى(**) المعروفة بالسلادون(†) والتى أصبحت محاكاتها أهم ما يصبو إليه الفخرانى فى الوقت الحاضر ، كما أصبح اقتناؤها أهم ما يصبوا إليه جامع التحف(††) . وقد أرسل سلطان مصر فى عام ١٤٨٧ نماذج منها إلى لورنزو ده

(*) فى القاموس المائلة منارة المسرجة وقد استعرناها (للشمعدان) .

(**) الشبيه بخضرة اليشب .

(†) اسم أطلقه عليها الفرنسيون فى القرن السابع عشر وهو مأخوذ من اسم بطل رواية « الكوكب L'Astrée » تأليف دورفيه . وكان هذا البطل إذا مثلت الرواية يرتدى على الدوام ملابس خضراً[١٠٨] .

(††) وليس أصعب من محاكاتها عند الغربيين إلا اقتناؤها ، ذلك أن اليابانيين —

ميديشى ، وكان الفرس والأتراك يقدرونها لا لنعومة ملمسها وشدة بريقها فحسب ، بل لأنها فوق هذا تكشف عن وجود السم ، فقد كانوا يعتقدون أن تلك الآنية يتغير لونها إذا وضعت فيها مواد مسمومة[١٠٩]. وترى أسر الخبيرين المولعين بهذا الفن يتوارثون هذه القطع جيلا بعد جيل ؛ ويحتفظون بها احتفاظ الناس بأثمن الكنوز[١١٠].

ولقد ظل الصناع فى عهد أسرة منج نحو ثلثمائة عام يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهود ليحتفظوا بفن الخزف فى المستوى الرفيع الذى بلغه فى عهد أسرة سونج ، وليس فى مقدورنا أن نقول إنهم عجزوا عن بلوغ هذه الغاية . وكان فى چنج دَه — چن خمسمائة أتون لحرق الخزف ، وكان البلاط الإمبراطورى وحده يستخدم ٩٦٠٠٠ قطعة خزفية لتزيين حدائق القصور وموائدها وحجراتها[١١١] وظهرت فى أيام هذه الأسرة أول قطع جيدة من الميناء التى حرقت ألوانها بعد تزجيجها . وأتقن إلى أقصى حدود الإتقان صنع اللون الأصفر الواحد ؛ والخزف الأزرق والأبيض الذى يشبه فى رقته قشر البيض ، ولا يزال القدح الأزرق والأبيض المطعم بالفضة والمسمى باسم الإمبراطور واندلى (أو شن دزونج) يعد من آيات فن الخزف فى العالم كله إلى هذه الأيام .

وكان هاوشى — جى من أبرع صناع الخزف وأعظمهم خبرة فى أيام واندلى . وكان فى مقدوره أن يصنع أقداحاً للنبيذ لا يزيد وزن الواحد منها على جزء من ثمانية وأربعين جزءا من الأوقية ، ويروى أحد المؤرخين الصينيين أن هاوشى — جى زار فى يوم من الأيام بيت موظف كبير ، واستأذنه فى أن يفحص وعاء من الخزف ذى ثلاث أرجل يمتلكه هذا الكبير ويعد من أثمن ما صنع فى عهد أسرة سونج .

— قد جمعوا معظم قطع السلادون الصينية الذائعة الصيت ، وهم يأبون أن يبيعوها مهما عرض عليهم من الثمن . وقد عجز صانعو الخزف المتأخرون عن مجاراة صناع عهد أسرة سونج فى هذا المضمار .

وأخذ هاو يلمس الإناء بيديه برقة ولطف ، وهو ينقل ما عليه من الرسوم سرا على قطعة من الورق مخبأة فى كمه . ثم عاد لزيارة هذا الموظف بعد ستة أشهر من زيارته الأولى ، وقال له : « إنك يا صاحب السعادة تمتلك مبخرة ذات ثلاث أرجل من الدنج — ياو الأبيض(*) ، وها هى ذى مبخرة مثلها أمتلكها أنا » . وأخذ تانج الموظف الكبير يوازن بين هذه المبخرة ومبخرته ، ولكنه لم يستطع أن يتبين فرقاً ما بينهما . وبلغ من تشابههما أن قاعدة مبخرة الفنان وغطاءها قد واءما مبخرته كل المواءمة . وأقر هاو وهو يبتسم أن مبخرته تقليد لمبخرة العظيم ، ثم باعها تانج بستين قطعة من الفضة ، وباعها هذا بعدئذ بألف وخمسمائة(١١٢) .

وقد بلغت صناعة الخطوط الفاصلة بين الميناء أقصى حد من الإتقان فى عهد أسرة منج . ولم يكن منشأ هذا الفن فى بلاد الصين بل جاء إليها من بلاد الشرق الأدنى فى أيام الدولة البيزنطية ، وكان الصينيون يسمون مصنوعات هذا الفن فى بعض الأحيان جوى جود ياو ، أى آنية بلاد الشياطين(١١٣) . وهذا الفن يتكون من قطع شرائح من النحاس أو الفضة أو الذهب ، وتثبيتها على حدها فوق خطوط شكل رسم من قبل على جسم معدنى ، ثم ملء ما بين هذه الفوارق من فراغ بميناء من اللون المطلوب الملائم لها ، ثم تعريض الإناء بعدئذ للنار عدة مرات وذلك السطح الصلب بقطعة من حجر الخفاف وصقله بقطعة من فحم الخشب ، ثم تزليق أطراف الحواجز المعدنية الظاهرة . وأقدم ما عرف من منتجات هذا الفن فى الصين مرايا استوردتها نارا فى اليابان فى منتصف القرن الثامن عشر . وأقدم الأوانى المحددة التاريخ ترجع إلى أواخر العهد المغولى أو إلى أيام أسرة يوان ، وأحسنها كلها ما صنع فى أيام الإمبراطور جنتج دى

(*) وهو الاسم الذى كان الصينيون يطلقونه على نوع من الخزف فى لون العاج كان يصنع فى عهد أسرة سونج .

من أباطرة المنشو العظماء فى القرن الثامن عشر الميلادى .

ودمرت المصانع التى كانت قائمة فى عهد أسرة چنج ده — چين فى أثناء الحروب التى قضت على أسرة منج ، ولم تعد إلى سابق عهدها إلا بعد أن جلس على العرش إمبراطور من أعظم أباطرة الصين استنارة وهو الإمبراطور كانج — شى ، وكان ملكا أصيلا جمع كل صفات الملوك كما جمعها معاصره لويس الرابع عشر . وقد أمر هذا الملك بإعادة بناء مصانع چنج ده — چين ، وسرعان ما أوقدت النار فى ثلاثة آلاف مصنع أخذت تعمل عملها المتواصل ، فأخرجت خزفاً جميلا ظريفاً بلغ من الكثرة درجة لم تر الصين ولا غيرها من البلاد مثيلا لها من قبل . وكان صناع كانج شى يظنون أن آنيتهم أقل جودة مما صنع فى عهد أسرة منج ، ولكن الخبيرين بأصول الفن فى هذه الأيام لا يوافقونهم على رأيهم ، بل يرون أن الأشكال القديمة قد قلدت تقليداً بلغ أقصى درجات الكمال ، وأن أشكالا جديدة كثيرة العدد مختلفة الأنواع قد ابتكرت وارتقت رقيا عظيما .

وكان فى مقدور الفنانين فى عهد أباطرة المنشو أن يغطوا عجينة الخزف بطبقة زجاجية تختلف عنها فى سرعة انصهارها ، فأخرجوا بذلك أوانى ذات سطح مسنن ؛ ثم كان فى مقدورهم أن ينفخوا فقاعات من اللون على السطح الزجاجى فأخرجوا بذلك الصحاف الرفيعة المغطاة بدوائر صغيرة من الألوان . وأتقنوا كذلك فن التلوين بلون واحد وأخرجوا ظلالا من اللون الأحمر الخوخى ، والمرجانى ، والياقوتى ، والقرمزى ، ودم الثور (الأحمر القاتم) والوردى ؛ وأخرجوا من اللون الأخضر الخيارى ، والتفاحى ، والطاووسى ، والنباتى ، والسلادون (الأخضر الحائل) ؛ ومن اللون الأزرق « المزران » ، والسماوى ، والبنفسجى القاتم ، والفيروزجى ؛ ومن اللونين الأصفر والأبيض ضروباً ملساء مخملية كل ما يستطيع الإنسان أن يصفها به أنها النعومة ذاتها ترى رأى العين . وابتدعوا أنماطا مزخرفة يطلق عليها جامعو التحف الفرنسيون الأسر الوردية ؛ والخضراء ،

والسوداء ، والصفراء(*) . وقد أتقنوا ذلك الفن الشاق فن تعدد الألوان بتعريض الإناء فى التنور إلى تيارات متعاقبة من الهواء الصافى والمحمل بالسناج — الأول يُدخل فيه الأكسجين ، والثانى يمتصه منه — بحيث يتحول الطلاء الزجاجى الأخضر إلى لهب متعدد الألوان . وكانوا يرسمون على بعض آنيتهم صور كبار الموظفين فى أثواب فضفاضة ذات ذيول طويلة ، فابتدعوا بذلك طراز الآنية المعروفة « بالمندرين » (طراز كبار الموظفين) . وكانوا يرسمون أزهار البرقوق باللون الأبيض فوق أرضية زرقاء (أو سوداء فى قليل من الأحيان) ، وهم الذين ابتدعوا ما للزهريات التى فى صورة العوسج من رقة ورشاقة .

وكان آخر ما مر به الخزف الصينى من عهود المجد فى عهد تشين لونج الرخى الطويل . ولم يقل الإنتاج فى ذلك العهد عما كان عليه فى العهود التى تقدمته ، كما أن مهارة الصناع الممتازين لم تفقد شيئاً من عظمتها وتفوقها وإن لم تحظ ببعض الأشكال الجديدة بما كانت تحظى به مبتكرات عهد كانج شى من نجاح . وقد بلغت الأسرة الوردية فى هذا العهد أعلى درجات الكمال . فقد انتشرت فيها نصف أزهار الطبيعة وفاكهتها فوق أبهى الطبقات الزجاجية ، كما كان ذوو الثراء المترفون يستخدمون الخزف الثمين الذى لا يزيد سمكه على سمك قشرة البيض غطاء لأضواء المصابيح(١١٤) . ثم شبت نار فتنة تاى — بنج ودامت خمسة عشر عاماً جرت فيها الدماء أنهاراً ، ودمَّرت خمس عشرة ولاية من الولايات الصينية ، وهدمت ستمائة مدينة ، وأهلكت عشرين مليوناً من الرجال والنساء . وأفقرت أسرة المنشو إفقاراً اضطرها إلى أن تحبس معونتها عن مصانع الخزف ، فأغلقت هذه المصانع أبوابها ؛ وتشتت صناعها فى أنحاء العالم المضطرب .

ولم يفق فن الخزف الصينى حتى الآن مما أصابه من الدمار فى أثناء هذه الفتنة

(*) وفى متحف الفن بمدينة نيويورك أنموذجان ممتازان من المجموعتين الأخيرتين .

الصماء ولعله لن يفيق منها أبداً . ذلك ان عوامل أخرى قد ضاعفت من آثار



شكل ٩ — مزهرية عليها نقش لشجرة العضة
من عهد كانج — شى

الحرب المخربة ومن امتناع الرعاية الإمبراطورية ؛ منها أن نمو تجارة الصادرات قد أغرى الفنانين بأن يخرجوا قطعاً خزفية توائم ذوق المشترين الأوربيين . وإذا كان ذلك الذوق لا يبلغ من السمو ما بلغه ذوق أهل الصين فإن القطع المنحطة طردت القطع الثمينة من التداول ، كما تطرد العملة الرديئة العملة الطيبة حسب قانون جريشام (*) .

وما أن حل عام ١٨٤٠ حتى شرع مصنع إنجليزى أقيم فى مدينة كانتون يخرج أنواعاً منحطة من الخزف ويصدرها إلى أوربا ويسميها « الأوانى الصينية » . ثم قامت مصانع فى سيفر بفرنسا ، وما يسن فى ألمانيا وبورسلم فى إنجلترا تحاكى خزف الصينيين ، وقللت من نفقات الإنتاج باستخدام الآلات ، وأخذت تستحوذ عاماً بعد عام على تجارة الخزف الصينية الخارجية .

وكل ما بقى حتى الآن هو ذكرى ذلك الفن الذى خسره العالم خسارة كاملة لاتكاد تقل عن خسارته لزجاج العصور الوسطى الملون . ولقد عجز الخزافون الأوربيون رغم ما بذلوه من محاولات وجهود جبارة عن أن يبلغوا ما بلغه الخزافون الصينيون من الدقة والمهارة . وحسب الفنانين الصينيين فخراً أن الخبراء العالميين يضاعفون فى كل عقد من السنين أثمان ما بقى من روائع فن الخزف الصينى ، فتراهم يطلبون خمسمائة ريال ثمناً لقدح الشاى ، ويبيعون المزهرية التى فى صورة شجرة العوسج بثلاثة وعشرين ألف ريال ، وفى عام ١٧٦٧ وصل ثمن إناءين من الخزف بلون العقيق يعرفان « بكلبى فو » فى أحد المزادات إلى خمسة أضعاف ما وصل إليه ثمن صورة « الطفل يسوع » لجيدروتى ، وإلى ثلاثة أمثال ما وصل إليه ثمن صورة « الأسرة المقدسة » لرفائيل (١١٥) . على أن كل من أحس بعينيه وأصابعه ، وبكل عصب من أعصاب جسمه ، جمال الخزف الصينى يغضب

(*) هو قانون النقد المشهور الذى يقول إنه إذا وجد فى بلد ما عملتان إحداهما جيدة والأخرى رديئة فإن العملة الرديئة لا تلبث أن تطرد العملة الجيدة . (المترجم)

بلا ريب من هذا التقدير الضئيل ويعده إهانة للفن الصينى وازدراء به وتدنيساً لقدسيته. ذلك أن دنيا الجمال ودنيا المال لاتلتقيان أبداً حتى فى الوقت الذى تباع فيه الأشياء الجميلة. وحسبنا تقديراً للخزف الصينى أن نقول إن هذا الخزف هو ذروة الحضارة الصينية ورمزها، وإنه من أنبل ما صنعه الجنس البشرى ليبرر به وجوده على ظهر الأرض.

الباب السادس والعشرون

الشعب والدولة

الفصل الأول

نبذة تاريخية

١ — ماركو بولو يزور كوبلاى خان

رحالة لا يصدقون — بندق فى الصين — جمال هانجتشان وزخارفها — قصور بيچنج — فتح المغول — چنكيز خان — كوبلاى خان — أخلاقه وسياسته — سباق « — « ماركو الملايين »

فى عصر البندقية الذهبي حوالى عام ١٢٩٥ أقبل على المدينة رجلان طاعنتان فى السن ومعهما رجل كهل ، وقد أنهكهم التعب وأضنتهم الأسفار ، يحملون متاعهم على ظهورهم ، ويلبسون أسمالا بالية ، ويعلوهم العثير ، ثم طلبوا إلى أهل المدينة أن يأذنوا لهم بدخول موطنهم الذى غادروه كما زعموا منذ ستة وعشرين عاماً ، فلما تردد مواطنوهم فى الإذن لهم دخلوا المدينة على الرغم منهم . وقال ثلاثتهم إنهم جابوا بحاراً مفعمة بالأخطار ، وصعدوا فوق جبال وهضاب شامخة ، واجتازوا صحارى ملأى باللصوص وقطاع الطريق ، واخترقوا السور العظيم أربع مرات ، وأقاموا عشرين عاماً فى الخطا(*) ، وخدموا أعظم ملك فى العالم كله . وأخذوا يحدثون مواطنيهم عن إمبراطورية أوسع رقعة ، ومدن أكثر سكاناً ، وحكام

(*) الاسم الذى يطلقه الروس على بلاد الصين وهو فى الأصل اسم قبيلة مغولية ، وقد حور الإنجليز هذا الاسم فجعلوه كاثاى Cathay . (المترجم)

أعظم ثروة ، من كل ما عرفته ومن عرفته قارة أوربا ؛ وعن حجارة تتخذ للتدفئة ، وورق يتعامل به الناس بدل الذهب ، وعن بندق الواحدة منه أكبر من رأس الإنسان ، وعن أمم تقف بكارة الفتيات فيها حجر عثرة فى سبيل الزواج ، وأمم غيرها يقدم المضيف فيها لضيوفه أزواجه وبناته ليستمتعوا بهنّ وهنّ راضيات[1]. ولم يجد هؤلاء القادمون من أهل المدينة من يصدقهم ، وأطلقوا على أصغر الثلاثة وأكثرهم ثرثرة لقب « ماركو الملايين » لأن ما كان يرويه لهم من القصص كان مملوءاً بالأعداد الكبيرة العجيبة[2] .

ولم يبتئس ماركو وأبوه وعمه من هذا المصير ، بل رضوا به مسرورين ، لأنهم جاءوا معهم بكثير من الأحجار الكريمة من حاضرة البلاد القاصية ، وأتت لهم هذه الأحجار بثروة رفعت منزلتهم فى مدينتهم . ولما دارت رحى الحرب بين البندقية وجنوى فى عام ١٢٩٨ عقد لواء إحدى السفن الحربية لماركو ، فلما أن استولى الأعداء على هذه السفينة وألقى هو فى أحد سجون جنوى حيث مكث عاماً كاملا ، أخذ يسلى نفسه بأن يملى على أحد الكتبة أشهر كتاب فى الأسفار فى آداب العالم ؛ وقد قص فيه بأسلوب ساخر جميل خال من التكلف والتعقيد كيف غادر هو وأبوه نيقولو وعمه مافيو مدينة عكا ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وكيف تسلقوا جبال لبنان واجتازوا أرض الجزيرة إلى الخليج الفارسى ، ثم اخترقوا بلاد فارس وخراسان وبلخ حتى وصلوا إلى هضبة البامير ، ثم انضموا إلى بعض القوافل وساروا معها سيراً بطيئاً إلى كاشغر وخوتان ، ثم اجتازوا صحراء جوبى إلى تنجوت ، ثم اخترقوا السور العظيم إلى شانجتو حيث استقبلهم الخان الأكبر بوصفهم رسلا أذلاء من الغرب الناشى[*] .

(*) شانجتو هى المدينة التى يسميها الشاعر الإنجليزى كولردج « زندو » ، ولم يرتد أحد من الرحالة بعد ماركوپولو (إلا واحد منهم نسيه الناس على مر الأجيال) أقاليم آسية الوسطى التى وصفها إلا فى عام ١٨٣٨ .

ولم يكونوا يظنون أنهم سيقيمون فى الصين أكثر من عام أو عامين ، ولكنهم وجدوا فى تلك البلاد من الأعمال المجزية والفرص التجارية المربحة تحت حكم كوبلاى ما حملهم على البقاء فيها ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً . وأثرى ماركو بنوع خاص وارتقى فى مناصب الدولة حتى عين حاكما على هانجتشاو . ويصفها ماركو فى كتابه وصف المعجب بها الحافظ لعهدها ، فيقول إنها أرقى من بلاد أوربا بأجمعها فى جمال مبانيها وجسورها وفى عدد مستشفياتها العامة ورشاقة دورها ذات الحدائق ، وكثرة ما فيها من وسائل المتعة والفساد ، وجمال سراريها وسحرهن ، وقدرة حكامها على الاحتفاظ بالأمن العام والنظام ، ورقة أهلها وحسن أخلاقهن ، ويقول إن محيط المدينة يبلغ مائة ميل وإن :

« طرقاتها وقنواتها عريضة تتسع أولاها لمرور العربات وأخراها لمرور السفن محملة بالبضائع التى يحتاج إليها ساكنوها . والشائع على ألسنة الناس أن عدد ما فيها من الجسور على اختلاف أحجامها يبلغ اثنى عشر ألفا ، وأن الجسور الممتدة فوق القنوات الكبرى والمتصلة بالشوارع الرئيسية مقامة على عقود عالية وبمهارة فائقة تستطيع معها السفن أن تمر من تحتها مبسوطة الشراع ، كما تستطيع العربات والخيول أن تمر من فوقها لتدرج انحدارها من الشوارع إلى أعالى العقود ... وفى داخل المدينة عشرة ميادين رئيسية وأسواق عامة غير ما فيها من الحوانيت التى يخطئها الحصر ، والممتدة على جانبى شوارعها . . . ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع هذه الميادين نصف ميل ، وأمام الميدان يمتد الشارع الرئيسى ويبلغ عرضه أربعين خطوة ، ويسير مستقيما من أحد طرفى المدينة إلى الطرف الآخر . وتجرى فى اتجاه مواز إلى اتجاه الشارع الرئيسى ... قناة كبيرة أقيمت على شاطئها المجاور للمدينة مخازن واسعة مشيدة من الحجارة يأوى إليها التجار القادمون من الهند وغيرها من الأقطار ، ومعهم بضائعهم ومتاعهم . وبهذه الطريقة يسهل عليهم الاتصال بالأسواق العامة . ويجتمع فى كل سوق من هذه الأسواق مدة ثلاثة أيام

فى كل أسبوع نحو أربعين أو خمسين ألف شخص ...

والشوارع كلها مرصوفة بالحجارة والآ..ر ... والشارع الرئيسى فى المدينة مرصوف منه على الجانبين مسافة قدرها عشر خطوات ، أما ما بينهما فمملوء بالحصباء الصغيرة ومن تحتها مصارف مقبية تجرى فيها مياه الأمطار تنقلها إلى القنوات المجاورة بحيث يبقى الشارع جافاً على الدوام . والمركبات لا ينقطع مرورها على هذه الحصباء جيئة وذهاباً . وهى طويلة الشكل مغطاة من أعلاها ، ولها ستائر ووسائد من الحرير وتتسع لستة أشخاص ، يستأجرها أهل المدينة رجالا كانوا أو نساء ممن يميلون إلى التنزه والاستمتاع بركوبها ...

ومن حول الأماكن فى جميع الجهات مسارح لصيد الحيوان على اختلاف أنواعه ... ولا يبعد البحر عن المدينة أكثر من خمسة عشر ميلا ، وتحمل إليها منه فى كل يوم عن طريق النهر كميات كبيرة من السمك ... وإذا رأى الإنسان هذا السمك حين يأتى إلى المدينة ظن أول وهلة أنه لن يباع كله فيها ، ولكنه لا تمضى على مجيئه إليها إلا ساعات قليلة حتى يباع عن آخره وذلك لكثرة من فيها من السكان ... والشوارع المتصلة بالسوق كثيرة العدد وفى الكثير منها حمامات باردة يشرف عليها خدم وخادمات . وقد اعتاد من يتردد عليها من رجال ونساء أن يستحموا فيها بالماء البارد منذ صغرهم لاعتقادهم أن الاستحمام بالماء البارد مفيد لأجسامهم . لكن هذه الحمامات قد أعدت بجوارها مع ذلك حجرات مجهزة بالماء الساخن ليستحم فيها الغرباء الذين لا يتحملون الماء البارد . ومن عادة الأهلين كلهم أن يغتسلوا فى كل يوم وخاصة قبل وجبات الطعام ...

وخصت فى شوارع أخرى من المدينة أحياء للعاهرات وهن يبلغن من الكثرة حداً لا أجرؤ على ذكره ... وهؤلاء النسوة يلبسن الملابس الجميلة ، ويتعطرن ، ويسكن فى بيوت جميلة الأثاث ، ويقوم على خدمتهن كثيرات من الخادمات .

وفى شوارع أخرى يقيم الأطباء والمنجمون ... وقد أنشئت على جانبى شارع المدينة الرئيسى بيوت وقصور رحبة ... وأهل المدينة كلهم رجالا كانوا أو نساء بيض الوجوه على جانب كبير من الجمال ، يرتدى معظمهم ملابس من الحرير ... والنساء ذوات جمال بارع ويعودن من صغرهن الرقة والنحافة ، وليس فى وسع من لم يشهد هؤلاء النسوة أن يتصور ما يتحلين به من حرير وجواهر(٣) .

وقد أعجب ماركو پولو بمدينة بيچنج (أو كبلوك كما كانت تسمى وقتئذ) أكثر من إعجابه بهانجتشاو نفسها ، فهو إذ تحدث عنها عجزت ملايينه عن وصف ثروتها وتعداد عامرها . وكانت ضواحى المدينة الاثنتا عشرة أجمل منها نفسها ، ذلك بأن رجال الأعمال قد شادوا فى هذه الضواحى كثيراً من البيوت الجميلة(٤) وكان فى المدينة نفسها كثير من الفنادق وآلاف المتاجر الثابتة والمتنقلة . وكان الطعام فيها على اختلاف أنواعه موفوراً ، وكان يدخلها فى كل يوم ألف حمل من الحرير الخام لتصنع ملابس لأهلها . وقد كان للخان قصور فى هانجتشاو وشانجتو وغيرهما من المدن ولكن أكبر قصوره كان فى بيچنج نفسها . وكان يحيط بهذا القصر سور من الرخام ويصعد إليه بدرج من الرخام أيضاً . وكان مبناه الرئيسى كبيراً « يتسع لأن تمد فيه موائد الطعام لجماعات كبيرة من الناس » . وقد أعجب ماركو بتنظيم الغرف ، وبنوافذها البراقة الدقيقة الشفافة ، وبما يغطى سقفها من قرميد مختلف الألوان ، ويقول إنه لم ير فى حياته مدينة فى مثل غناها ولا ملكاً فى عظمة ملكها(٥) .

وما من شك فى أن الشاب البندقى قد تعلم اللغة الصينية حتى استطاع أن يتحدث بها ويقرأها ، ولعله عرف من المؤرخين الرسميين كيف فتح كوبلاى وأسلافه المغول بلاد الصين . وكان سبب غزوات المغول أن ما أصاب الأقاليم الممتدة بإزاء حدود الصين الشمالية الغربية من جفاف قد أحالها صحراء جدباء

عاجزة عن الوفاء بحاجة أهلها الأقوياء ، فاندفع المغول (أى البواسل) إلى شن الغارات المستيئسة لامتلاك بلاد أخصب من بلادهم وأوفر منها أرزاقاً . وكان نجاحهم فى غاراتهم سبباً فى تقوية روحهم العسكرية ونزعتهم الحربية ، فلم يقفوا فى فتوحهم إلا بعد أن اكتسحت جحافلهم بلاد آسية كلها إلا القليل منها ، وأجزاء من أوربا . وتقول الروايات إن قائدهم الجبار جنكيزخان قد ولد وفى كفه جلطة من الدماء ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخذ يؤلف بين قبائل المغول ويجمعها تحت لوائه . واتخذ الإرهاب وسيلة إلى هذا الجمع ، فكان يصلب الأسرى على حمير من الخشب ، أو يقطعهم إربا ، أو يقلى أجسامهم فى القدور ، أو يسلخ جلودهم وهم أحياء . ولما تلقى من إمبراطور الصين تنج دزونج رسالة يدعوه فيها للخضوع بصق فى اتجاه عرش التنين ، وبدأ من فوره حملته مجتازاً ألفاً ومائتين من الأميال فى قلب صحراء جوبى ؛ وهجم على ولايات الصين الغربية ، ودمر من مدائنها تسعين مدينة سواها بالأرض حتى يستطيع الفرسان أن يسيروا فوق الأراضى المخربة فى الظلام دون أن تتعثر خيولهم . وظل « عاهل العالم » خمس سنين كاملة يخرب فى بلاد الصين الشمالية . ثم أزعجه اقتران كوكبين من الكواكب رأى فى اقترانهما نذير مشئوم ، فقفل راجعاً إلى قريته ، ولكنه مرض ومات فى الطريق .

وواصل خلفاؤه أو جوادى ، ومانجو ، وكوبلاى حملاته بقوة همجية ؛ وكان الصينيون قد أهملوا فنون الحرب ووجهوا همهم كله مدة قرون عدة إلى الثقافة ، فلم يثبتوا أمام الغزاة بل خروا صرعى يجللهم العار القومى والبطولة الفردية ، وثبت أحد حكام الصين فى چوينتج — فو وصمد للحصار حتى قتل المحاصرون كل من كان فى المدينة من الشيوخ والعاجزين وأكلوا لحومهم ، وهلك جميع القادرين على القتال ولم يبق لحراسة الأسوار إلا النساء ، ثم أشعل النار فى المدينة واحترق هو نفسه فى قصره . واجتاحت جيوش كوبلاى بلاد الصين حتى وقفت أمام

كنتون آخر ملجأ لجأت إليه أسرة سونج الحاكمة . فلما عجزت الجيوش الصينية عن المقاومة حمل لوشي يوفو القائد الصيني الإمبراطور الغلام على ظهره وألقى به وبنفسه في البحر فماتا معاً . ويقال إن مائة ألف من الصينيين آثروا الموت غرقاً على التسليم للفاتح المغولي . وأمر كوبلاي أن يحتفل بجنازة الإمبراطور احتفالا رسمياً كبيراً ، وشرع يؤسس الأسرة اليوانية « الأصيلة » وهي الأسرة المغولية التي حكمت الصين أقل من مائة عام .

ولم يكن كوبلاي نفسه بربريا همجيا . وليس أهم ما يستثنى من هذا الوصف هو سياسته القادرة لأن الغدر كان من الأخلاق الشائعة في تلك الأيام ، بل أهم ما يستثنى منه هو ما عامل به ون تيان — شيانج ، وهو عالم وطني أبى أن يعترف بحكومة كوبلاي وفاء منه لأسرة سونج . فألقاه كوبلاي في السجن ومكث فيه ثلاث سنين ولكنه أبى أن يخضع وكتب في سجنه تلك القطعة التي تعد من أشهر ما كتب في الأدب الصيني كله :

إن سجني لا يضيؤه إلا الصيهد ولا تدخله نسمة من نسمات الربيع لتؤنسني في وحدتي وتخفف بعض ظلمته ... وكثيراً ما فكرت في أن أقضي على نفسي من فرط ما أثر في من الضباب والندى ، ولكن الموت ظل عامين كاملين يحوم حولي ولا يقضي عليّ ؛ وأضحت الأرض الرطبة المضرة بالصحة جنة الفردوس نفسها . ذلك بأنه كان يستقر بين جوانحي مالا تستطيع النائبات أن تغتصبه مني ، ولهذا بقيت مطمئن القلب ثابت الجنان أتطلع إلى السحب البيضاء فوق رأسي وأطوي قلبي على آلام لا حد لها كما لا حد للسماء .

واستدعاه كوبلاي آخر الأمر إلى المثول بين يديه وسأله الملك قائلا : « أي شيء تريد ؟ » فأجابه ون بقوله : « لقد عطف عليّ إمبراطور سونج فجعلني وزيراً لجلالته ، وليس في وسعي أن أخدم سيدين ، وكل ما أطلبه أن أموت ! » . وأجابه كوبلاي إلى ما طلب ؛ وبينما كان ون ينتظر أن يهوى سيف الجلاد على

عنقه انحنى فى خضوع واحترام نحو الجنوب كان الإمبراطور من آل سونج لا يزال يحكم فى نانكنج العاصمة الجنوبية(٧) .

ومع هـذا فقد أوتى كوبلاى من الحكمة ما جعله يعترف بتفوق الصينيين على المغول فى ميدان الحضارة ، ويعمل من أجل هذا على مزج عاداتهم بعادات أهل بلاده . وكان لا بد له أن يلغى نظام تقلد المناصب العامة بالامتحان ، وذلك لأنه لو اتبع هذا النظام لكان جميع الموظفين فى حكومته من الصينيين ، ثم قصر معظم الوظائف الكبرى على أتباعه من المغول وحاول وقتاً ما أن يدخل إلى البلاد الحروف الهجائية المغولية ، ولكنه قَبِل هو وأتباعه فى معظم شئونهم حضارة الصين ، وما لبثوا أن استحالوا بفضل هذه الحضارة أمة صينية . ومما يذكر له أنه أباح ما كان فى الصين من ديانات ، وشجع دخول الديانة المسيحية فى البلاد لأنه رأى فيها أداة صالحة لتهدئتها وبسط سلطانه عليها . وأعاد فتح القناة العظمى بين تيننسين وهنجتشاو ، وأصلح الطرق الكبرى ، وأنشأ نظاماً سريعاً للبريد فى أقاليم أوسع رقعة من البلاد التى خضعت لحكومة الصين مذ جلس على عرشها ، وأقام فى البلاد أهراء عامة عظيمة ليخزن فيها ما يفيض عن حاجتها من المحصولات الزراعية ليوزعها على الأهلين فى أيام القحط ، وألغى الضرائب عن جميع الزراع الذين أضر بمزروعاتهم الجفاف والعواصف والحشرات(*) ، وأوجد نظاماً تعين الدولة بمقتضاه الشيوخ من العلماء والأيتام والعجزة ، وكان سخياً فى تشجيع التعليم والآداب والفنون وبسط رعايته عليها . وقد عدل التقويم فى أيامه ، وافتتح المجمع العلمى الإمبراطورى(٩) ، وشاد عاصمة جديدة للبلاد فى بيكين كانت لروعتها وكثرة

(*) وقد كتب ماركوبولو فى ذلك يقول : « لا يكاد يمضى يوم واحد لا يوزع فيه الموظفون المختصون ملء عشرين ألف وعاء من الأرز والذرة والثمام . وقد كان لهذا الكرم العظيم المدهش الذى يعامل به الخان العظيم الفقراء من أهل البلاد أعظم الأثر فى نفوس الناس جميعاً فأحبوه وأجلوه » .

عاصرها موضع إعجاب من يزورها من الغرباء ، وشيدت القصور وازدهرت العمارة ازدهاراً لم تر الصين له مثيلا من قبل .

ويقول ماركوبولو : « وقد كان بولو حاضراً فى البلاد حين كان هذا كله يحدث فيها »(١٠) واتصل الشاب بالخان وتقرب إليه واستطاع بذلك أن يصف لنا ضروب تسليته وصفاً مفصلا ينم عن إعجابه الشديد به ؛ ويقول إنه كان للخان فضلا عن زوجاته الأربع اللاتى يسمين بالإمبراطورات عدد كبير من السرارى جيء بهن من أنجوت فى بلاد التتار لأن الإمبراطور كان يعجب بجمال نساء تلك البلاد . ويضيف ماركو إلى هذا قوله إن عدداً من الموظفين المشهود لهم بحسن الذوق كانوا يرسلون إلى هذا الإقليم ليجندوا لخدمة جلالة الإمبراطور مائة من الفتيات حسب الأوصاف التى كان هو نفسه يعنى بوصفها أشد العناية .

فإذا ما مثلن أمامه ، أمر أن تختبرهن اختباراً جديداً طائفة أخرى من الباحثين وأن يختار من بينهن ثلاثون أو أربعون فتاة يستبقين فى قصره ... ثم يعهد بكل واحدة منهن إلى إحدى كبار السيدات فى القصر لتتأكد من أنها ليس فيها شيء من العيوب التى تخفى عن الأعين وأنها تنام نوماً هادئاً ، ولا تغط فى أثناء نومها ، ولاتنبعث رائحه كريهة من أى جزء من أجزاء جسمها . فإذا ما نجحن فى هذا الاختبار الدقيق قسمن جماعات كل منها مؤلفة من خمس تقيم فى حجرة جلالته الداخلية ثلاثة أيام وثلاث ليال يؤدين فى خلالها كل مايطلب إليهن من خدمات ويفعل بهن ما يشاء : فإذا ما انقضت هذه الفترة حلت محل تلك الجماعة جماعة أخرى وهكذا دواليك حتى تأخذ كل جماعة دورها ثم تعود الجماعة الأولى إلى الخدمة من جديد(١١)

* * *

وبعد أن أقام ماركوبولو هو وأبوه وعمه عشرين سنة فى بلاد الصين اغتنم ثلاثتهم فرصة قيامهم بمهمة إلى الفرس ، أوفدهم بها الخان ، فعادوا إلى بلادهم بأقل

النفقات وأقل ما يمكن أن يتعرضوا له من الأخطار . وبعث معهم كوبلاى برسالة إلى البابا ، وحباهم بجميع ما كان معروفاً فى ذلك الوقت من التسهيلات للمسافرين، وقضوا فى طوافهم بحراً حول شبه جزيرة الملايو إلى الهند وفارس وفى رحلتهم البرية إلى طربزون على البحر الأسود وأخيراً فى رحلتهم البحرية إلى البندقية ثلاث سنين . ولما وصلوا إلى أوربا عرفوا أن الخان والبابا قد توفيا(*) . وعمر ماركو طويلا فلم يستسلم للموت حتى بلغ السبعين من عمره . فلما حضرته الوفاة طلب إليه أصدقاؤه أن ينجى نفسه من العذاب فى الدار الآخرة بمحو ما ورد فى كتابه من العبارات الواضحة البطلان ولكنه أفحمهم برده عليهم : « إنى لم أذكر فى كتابى نصف ما شاهدته » .

ولم يمض على وفاته إلا وقت قصير حتى أصبح من العادات المألوفة فى حفلات البندقية الساخرة أن يرتدى شخص ثياب المهرجين ليسر الناس فى تلك الاحتفالات بما ينطق به من المبالغات غير المعقولة ؛ وكان يطلق على هذا المهرج الماجن اسم « ماركو الملايين » :

٢ — أسرتا منج وچنج

سقوط المغول — أسرة منج — غزو المنشو — أسرة چنج — ملك مستنير — شين لونج يأبى قبول الأفكار الغربية

ولم تعرف الصين بعدئذ مثل هذا العهد الزاهر إلا بعد أربعة قرون، فسرعان ما دب الاضمحلال فى أسرة يوان متأثرة بانهيار سلطان المغول فى أوربا وغرب آسيه وفى ذوبان المغول فى جسم الشعب الصينى نفسه ، إذا جاز أن نلجأ إلى هذه العبارة السهلة المتحذلقة لنعلل بها هذه الظاهرة التى تتكرر فى جميع الأوقات . وهناك أسباب أخرى لا تقل عن هذين السببين قوة وخطراً ، ذلك أن إمبراطورية

(*) لقد أثبت كوبلاى اعتناقه مبادئ الحضارة الأوربية بما أصيب به من داء النقرس .

كالصين متسعة الرقعة ، قليلة التماسك من الناحية الطبيعية ، تفصلها الجبال والصحراوات والبحار لا يمكن أن تخضع إلى ما شاء الله لحكومة واحدة . وقد كان المغول رجال حرب خيراً منهم رجال حكم وإدارة ، ولذلك اضطر خلفاء كوبلاى خان أن يعودوا إلى نظام الامتحان وإلى الانتفاع بكفاية الصين الإدارية ، ولم يحدث الفتح المغولى أثراً يذكر فى عادات الصينيين وأفكارهم إلا ما عسى أن يكون قد أدخله فى الأدب الصينى من الروايات والمسرحيات .

وتزوج الصينيون مرة أخرى من فاتحيهم ومدنوهم وغلبوهم على أمرهم . حتى إذا كان عام ١٣٦٨ تزعم أحد الكهنة البوذيين السابقين ثورة على هؤلاء الفاتحين ودخل بيكين منتصراً وأعلن نفسه أول إمبراطور من أسرة السنج (أى المتألقين) . وجلس على العرش فى الجيل التالى ملك قدير من ملوك هذه الأسرة ، واستمتعت الصين فى عهد يو مج لو مرة أخرى بعهد جديد من عهود الرخاء ، وعادت إلى تشجيع الفنون ، بيد أن عهد الأسرة « المتألقة » انتهى مع ذلك بفترة من الفوضى والاضطراب والغزو الخارجى ؛ وبينا كانت البلاد منقسمة إلى أحزاب متنافرة متعادية اجتاحتها جحافل جديدة من الغزاة الفاتحين ، واقتحمت السور العظيم وحاصرت بيكين . تلك هى جحافل المنشو .

وكان المنشو شعباً تنجوسياً ظل قروناً كثيرة يعيش فى البلاد التى تعرف الآن باسم منشوكو (أى مملكة المنشو) ، ومدوا فتوحهم فى أول الأمر نحو الشمال حتى وصلوا إلى نهر عامور ، ثم اتجهوا نحو الجنوب وهجموا على عاصمة الصينيين . وجمع آخر أباطرة المنج أسرته حوله وشرب نخبهم ، وأمر زوجته أن تنتحر(*) ، ثم شنق نفسه بمنطقته بعد أن كتب آخر أوامره على طية ثوبه :

« نحن الفقراء فى الفضيلة ، ذوى الشخصية الحقيرة ، قد استحققنا غضب الله العلى القدير .

(*) وصدعت بما أمرت ، ونقول الروايات المأثورة إن الكثيرات من السرارى قد حذون حذوها .

« لقد غرر بى وزرائى ؟ وإنى لأستحى أن ألقى فى الآخرة آبائى وأجدادى ، ولهذا فإنى أخلع بيدى تاجى عن رأسى ، وأنتظر وشعرى يغطى وجهى أن يقطع الثوار أشلائى ، لا تؤذوا أحداً من أبناء شعبى »[١٥] . ودفنه المنشو باحتفال يليق بكرامته وأسسوا أسرة الشنج (الطاهرة) التى حكمت الصين حتى عهدنا الثورى الحاضر .

وسرعان ما أصبحوا هم أيضاً صينيين واستمتعت البلاد تحت حكم كانج شى بعهد من الرخاء والسلم والاستنارة لم تعرف له مثيلا فى تاريخها كله . جلس هذا الإمبراطور على العرش وهو فى السابعة من عمره ، فلما بلغ الثالثة عشرة أمسك بيده زمام الأمور فى إمبراطورية لم تكن تشمل وقتئذ بلاد الصين وحدها بل كانت تشمل معها بلاد المغول ومنشوريا وكوريا والهند الصينية وأنام والتبت والتركستان . وما من شك فى أنها كانت أكبر إمبراطوريات ذلك العهد وأكثرها ثروة وسكاناً . وحكمها كانج شى بحكمة وعدل حسدها عليهما معاصراه أورنجزيب ولويس الرابع عشر . وكان الإمبراطور نفسه رجلا نشيطا قوى الجسم والعقل ، ينشد الصحة فى الحياة العنيفة خارج القصور ويعمل فى الوقت نفسه على أن يلم بعلوم تلك الأيام وفنونها . وكان يطوف فى أنحاء مملكته ويصلح ما فيها من العيوب حيثما وجدها ، ومن أعماله أنه عدل قانونها الجنائى . وكان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها شىء من الإسراف أو الترف ويقتصد فى نفقات الدولة الإدارية ويفتخر بالعمل على رفاهية شعبه[١٦] . وازدهرت الآداب والعلوم فى أيامه بفضل تشجيعه إياها ومناصرتها ؛ وعادفن الخزف إلى أعلى ما وصل إليه فى أيام مجده السابقة . وكان متسامحاً فى الأمور الدينية فأجاز كل العبادات ، ودرس اللغة اللاتينية على القساوسة اليسوعيين ، وصبر على الأساليب الغربية التى كان يتبعها التجار الأوربيون فى ثغور بلاده . ولما مات بعد حكمه الطويل الموفق (١٦٦١ — ١٧٢٢) كان آخر ما نطق به هو هذه الألفاظ : « إنى

لأخشى أن تتعرض الصين فى مئات أو آلاف السنين المقبلة إلى خطر الاصطدام مع مختلف الأمم الغربية التى تفد إلى هذه البلاد من وراء البحار[١٧] » .

وبرزت هذه المشاكل الناشئة من ازدياد التبادل التجارى والاتصال بين الصين وأوربا مرة أخرى فى عهد إمبراطور آخر قدير من أسرة المنشو هو شين لونج . وكان هذا الإمبراطور شاعراً أنشأ ٣٤٠٠٠ قصيدة إحداها فى «الشاى» وصلت إلى مسامع ڤلتير فأرسل « تحياته إلى ملك الصين الفاتن »[١٨] ، وصوره المصورون الفرنسيون وكتبوا تحت صورته باللغة الفرنسية أبياتاً من الشعر لا توفيه حقه من الثناء يقولون فيها :

« إنه يعمل جاهداً دون أن يخلد إلى الراحة للقيام بأعمال حكومته المختلفة التى يعجب الناس بها . وهذا الملك أعظم ملوك العالم وهو أيضاً أعلم الناس فى إمبراطوريته بفنون الأدب » .

وحكم الصين جيلين كاملين (١٧٣٧ — ١٧٩٦) ، ونزل عن الملك لما بلغ الخامسة والثمانين ، ولكنه ظل يشرف على حكومة البلاد حتى توفى (١٧٩٩) . وحدثت فى آخر سنى حكمه حادثة كان من شأنها أن تذكر المفكرين من الصينيين بما أنذرهم به كانج — شى ، فقد أرسلت إنجلترا بعد أن أثارت غضب الإمبراطور باستيراد الأفيون إلى بلاد الصين بعثة برياسة لورد مكارتنى لتفاوض شين لونج فى عقد معاهدة تجارية بين البلدين . وأخذ المبعوثون الإنجليز يشرحون للإمبراطور المزايا التى تعود عليه من تبادل التجارة مع إنجلترا ، وأضافوا إلى أقوالهم أن المعاهدة التى يريدون عقدها سيفترض فيها مساواة ملك بريطانيا بإمبراطور الصين . فما كان من شين لونج إلا أن أملى هذا الجواب ليرسل إلى چورج الثالث :

« إن الأشياء العجيبة البديعة لاقيمة لها فى نظرى ؛ وليس لمصنوعات بلادكم فائدة لدى . هذا إذن هو ردى على ما تطلبون إلىّ من تعيين ممثل لكم فى بلاطى

وهو طلب يتعارض مع عادات أسرتى ولا يعود عليكم إلا بالمتاعب . لقد شرحت لك آرائى مفصلة وأمرت مبعوثيك أن يغادروا البلاد فى سلام عائدين إلى بلادهم ، وخليق بك أيها الملك أن تحترم شعورى هذا ، وأن تكون فى المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت فى الماضى ، حتى يكون خضوعك الدائم لعرشى من أسباب استمتاع بلادك بالسلم والرخاء فى مستقبل الأيام »(١٩) .

بهذه العبارات القوية الفخورة حاولت الصين أن تدرأ عنها شر الانقلاب الصناعى . ولكننا سنعرف فى الفصول التالية كيف غزت الثورة الصناعية البلاد رغم هذا الاحتياط . ولندرس الآن قبل الكلام على هذه الثورة العناصر الاقتصادية والسياسية والخلقية التى تتألف منها تلك الحضارة الفذة للستنيرة الجديرة بالدرس ، والتى يبدو أن الثورة الصناعية ستقضى عليها القضاء الأخير .

الفصل الثانى

الصينيون ولغتهم (*)

تعداد السكان — مظهرهم الخارجى — ملبسهم — خصائص
اللغة الصينية — خصائص الكتابة الصينية

إن أول عنصر من عنصر الصورة التى سنرسمها فى هذا الفصل هو عنصر العدد ؛ فالصينيون كثيرون ، وليس عددهم معروفاً بالضبط ، وكل مايقال عنه من قبيل الحدس والتخمين . ويظن بعض العلماء أن سكان الصين فى عام ٢٨٠ ق.م كانوا يبلغون حوالى ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ وأنهم وصلوا فى عام ٢٠٠ ق . م إلى ٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ٧٢٦ ق . م إلى ٤١٫٥٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٦٤٤ بعد الميلاد إلى ٨٩٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٧٤٣ إلى ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٩١٩ إلى ٣٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠[٢٠] . ويقول أحد الرحالة الأوربيين إنه أحصى فى الصين فى القرن الرابع عشر « مائتى مدينة كل واحدة منها أكبر من مدينة البندقية »[٢١] وإحصاء السكان فى الصين يحدث تنفيذاً لقانون يحتم على كل صاحب بيت أن ينقش اسم كل ساكن فيه على لوحة عند مدخله[٢٢] . ولسنا نعلم بطبيعة الحال مدى صحه هذه اللوحات ، ولا مدى صحة التقريرات التى يقال إنها توضع على أساسها ، وحسبنا أن نقول إن سكان الصين يبلغون الآن حوالى أربعمائة مليون من الأنفس.

ويختلف الصينيون فى أجسامهم ، فهم فى الجنوب أقصر قامة وأضعف أجساماً منهم فى الشمال ، غير أنهم بوجه عام أنشط أهل قارة آسية وأكثرهم حيوية ، ذوو بأس وصبر على الشدائد والآلام ، شديدو المقاومة للأمراض ، سريعو التأقلم فى كل مناخ ؛

(*) إن هذا الوصف الذى نصف به المجتمع الصينى لينطبق بنوع خاص على ذلك المجتمع فى القرن التاسع عشر . أما ما حدث فى هذا المجتمع من تطورات على أثر اتصاله بالأمم الغربية فسندرسه فى الفصول التالية . ويجب أن يؤخذ كل ما نورده من وصف له بالحذر والاحتياط لأنه ما من حضارة من الحضارات تكون مماثلة فى عهد طويل أو فى رقعة من الأرض واسعة .

وقد استطاعوا بفضل هذه الصفة أن يعيشوا ويثروا فى مناطق العالم كلها تقريباً . ولم يقو الأفيون ولا الزهرى ولا عدم الزواج بغيرهم من الشعوب على إضعاف صحتهم ؛ وإذا كان نظامهم الاجتماعى قد انهار فى الأيام الأخيرة فإن هذا الانهيار لم يكن نتيجة ضعف ظاهر فى قواهم الجسمية أو العقلية .

ووجه الصينى ينم عن أنه أذكى خلق الله طراً ، وإن لم يكن هذا الوجه على الدوام جميلا جذاباً . ثم إن بعض الطبقات المعدمة تبدو فى أعين الغربيين بشعة شديدة القبح ، وإن لبعض المجرمين منهم نظرات خبيثة ما أجدر أصحابها بأن يكونوا ممثلين هزليين فى دور الخيالة ، ولكن كثرتهم العظمى ذات ملامح منتظمة متناسبة هادئة ، زادها هدوءاً عاملان أحدهما جثمانى وهو انخفاض الجفون وثانيهما اجتماعى وهو ما نعموا به من الحضارة التى دامت عدة قرون . وليس انحراف العينين كبيراً واضحاً إلى الحد الذى يتصوره المرء مما يقال أو يكتب عنهم ، وكثيراً ما تؤثر الشمس فى بشرتهم الصفراء فتخلع عليها لوناً أسمر جميلا . ونساء الزراع منهم لا يكدن ينقص عن الرجال قوة فى الأجسام ، كما أن نساء الطبقات العليا رقيقات الحاشية جميلات يبيضن وجوههن بالمساحيق ، ويحمرن شفاههن وخدودهن ، ويسودن حواجبهن ويزججنها حتى تكون أشبه بورقة الصفصاف أو الهلال(٢٣) .

وشعر الرأس خشن قوى عند الرجال والنساء ، خال من التجاعيد يعقصه النساء ويزينه عادة بالأزهار . ولقد أراد الرجال فى عهد آخر الأسر الحاكمة أن يسروا حكامهم فاتبعوا عادة المنشو وهى حلق شعر نصف الرأس الأعلى . ثم أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فتركوا شعر النصف الخلفى وجمعوه فى غديرة طويلة أصبحت على مر الزمن أداة لتقويم المخطئ ومظهراً من مظاهر الكبرياء(٢٤) . والحاهم لا تطول ، وكانوا يحلقونها على الدوام ، وقلما كان الواحد منهم يحلق لحيته بيده ، فقد كان من عادة الحلاقين أن يطوفوا بالناس ومعهم أدواتهم ، وكانوا طائفة موفورة الكسب .

وكانوا عادة يتركون رؤوسهم عارية ؛ فإذا غطى الرجال رؤوسهم اتخذوا لهم في الشتاء قلانس من الخمل أو الفراء ذوات حافات مثنية إلى أعلى ، وفي الصيف قلانس مخروطية الشكل مصنوعة من خيوط الخيزران المجدولة تعلو ألواحدة منها إذا كان صاحبها ذا شأن ، كرة ملونة وشريط حريري .

أما النساء فكن يضعن على رءوسهن ، إذا مكنتهن من ذلك مواردهن ، أشرطة من نسيج الحرير أو القطن مزينة بالبهرجان والحلي أو الأزهار الصناعية ، وكانت الأحذية تتخذ عادة من الأقمشة المدفئة ، ولما كانت أرض المنازل تصنع في كثير من الأحيان من القرميد البارد أو الطين فإن الصيني كان يحمل معه أينما سار طنفسة صغيرة يضعها تحت قدميه . وقد نبتت في بلاط الإمبراطور لي هو — چو (حوالي ٩٧٠ ب . م) عادة ربط أقدام البنات وهن في سن السابعة بأربطة ضيقة لكي تبقى صغيرة فتمشي السيدة الكبيرة تخطر خطراً يعجب به الرجال . وكان يعد من سوء الأدب أن يتحدث الناس عن قدم السيدة كما كان يعد من الإهانة الفاضحة أن ينظر الرجل إلى هذه القدم ؛ بل إن الكلمة الصينية التي معناها القدم كان يحرم ذكرها في حضرة السيدات[٢٥] . وانتشرت هذه العادة بين جميع الطبقات والجماعات عدا المنشو والتتار وأصبحت من العادات الثابتة الجامدة ، حتى لقد كان الكذب في حجم قدم العروس كافياً لإلغاء عقد الزواج[٢٦] . وحاول كانج شي أن يبطل هذه العادة ولكنه أخفق وظلت حتى أبطلتها الثورة فكان إبطالها أثراً من آثارها الصالحة .

وكانت ملابس الرجال هي السراويل والجلابيب ، ويكاد لونها يكون على الدوام هو اللون الأزرق . وفي الشتاء كان السروال يغطي بالطماق ويضاعف عدد الجلابيب حتى يبلغ الثلاثة عشر في بعض الأحيان ، وكانت كلها تبقى على الجسم ليلا ونهاراً طول فصل الشتاء ، فإذا أقبل الربيع خلعت تدريجاً واحداً بعد واحد[٢٧] . وكان المئزر مختلف الطول فكان يصل حيناً إلى الحقوين وحيناً إلى

الركبتين وتارة إلى القدمين ، وكان يزرر إلى العنق ، وكان له كمان كبيران يغنيان عن الجيوب ، والصينيون لايقولون إن الرجل وضع شيئاً ما فى «جيبه» بل يقولون إنه وضعه فى «كمه». أما القمصان والملابس الداخلية فلسنا نخطئ كثيراً إذا قلنا إنها كانت غير معروفة . وكانت النساء فى الريف يلبسن سراويل كسراويل الرجال لأنهن قد اعتدن أن يعملن أعمال الرجال وأكثر من أعمال الرجال . أما فى المدن فكن يلبسن فوق السراويل نقباً(*) . وكان الحرير كثيرا فى المدن يستوى فى ذلك هو والقطن .

ولم تكن للنساء مناطق تضغط على خصرهن أو مشدات تمسك أثداءهن ، وبذلك كانت ملابس الصينيين بوجه عام أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل وأكثر ملاءمة لصحة الجسم وراحته من ملابس الغربيين فى هذه الأيام . ولم يكن لأنماط الملابس سلطان قوى على المرأة الصينية كما لم تكن الملابس وسيلة لتباين الطبقات ورفع بعضها فوق بعض . ذلك بأن أهل المدن مهما اختلفت أقدارهم كانوا لايختلفون فى ملابسهم ، كما أن هذه الملابس لاتكاد تختلف فى الأجيال المختلفة . نعم قد يختلف القماش الذى يصنع منه الثوب ، أما شكله فقد كان واحداً على الدوام ، ولم تكن طبقة من الطبقات تشك فى أن نمطاً من الأنماط سيبقى إلى أن يبلى الثوب .

ولغة الصينيين تختلف عن سائر لغات العالم أكثر مما تختلف ملابسهم عن ملابس سائر الناس . ذلك أنها ليست لها حروف ولا هجاء ولانحو ، ولا تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف ، وإنا لنعجب كيف استطاعت هذه الأمة وهى أقدم أمم الأرض وأكثرها عدداً أن تعيش من غير هذه البلايا التى ابتلى بها شبان الأمم الغربية . ومن يدرى فلربما كان لهذه اللغة فى الأيام الخالية المنسية اشتقاق ونحو وصرف وإعراب وتثنية وجمع وأفعال ماضية وحاضرة ومستقبلة ، ولكننا لانجد

(*) هى المعروفة بالجونلات .

أثراً لشىء من هذا فى أقدم ما عرفنا من عهود هذه اللغة ، فكل كلمة فيها قد تكون اسماً أو فعلا أو صفة أو ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها . ولما كانت اللهجات الكلامية لا تحتوى على أكثر من ثلثمائة أو أربعمائه لفظ صوتى ذى مقطع واحد ، ولما كانت هذه المقاطع هى التى تستعمل للتعبير عن الأربعين ألف حرف المستخدمة فى اللغة الكتابية فإن لكل واحد من هذه الألفاظ الصوتية « نغمات » تختلف من أربع إلى تسع بحيث يختلف معناه باختلاف طريقة التغنى به .

وتوضح حركات الجسم وسياق الكلام هذه النغمات ، وتجعل كل صوت يؤدى أغراضاً متعددة ، فحرف الباء وحده مثلا قد يؤدى تسعة وستين معنى كما أن للفظ شى تسعة وخمسين ، وللفظ كو تسعة وعشرين[٣٠] . ولسنا نعرف لغة من اللغات قد بلغت ما بلغته اللغة الصينية من التعقيد والدقة والاختصار .

وكانت لغة الكتابة أكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام . تشهد بذلك الأدوات التى استخرجت من هونان والتى يرجعها المؤرخون إلى عهد أسرة شانج وإن لم يكونوا واثقين من ذلك كل الثقة ، فقد وجدوا على هذه الأدوات كتابة برموز لاتختلف كثيراً عن الرموز المستعملة فى هذا الجيل . ولهذا فإننا إذا استثنينا عدداً قليلا من الأقباط الذين يتكلمون اللغة المصرية القديمة[*] فإن اللغة الصينية هى أقدم اللغات التى ينطق بها الناس فى هذه الأيام وأوسعها انتشاراً . وكان الصينيون فى بادئ الأمر يعقدون عقداً فى خيوط لينقلوا بها رسائلهم ، وأكبر الظن أن حاجة الكهنة إلى نقل الطلاسم السحرية وحاجة الفخرانيين إلى تمييز آنيتهم بعضها من بعض هى التى أدت إلى الرموز المصوَّرة[٣٢] .

(*) نعود هنا ما قلناه من قبل وهو أن أقباط مصر لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة ، وإذا كان من إخواننا الأقباط من يعرفون اللغة القبطية فإنهم لايستعملونها فى كلامهم . وليست اللغة القبطية هى اللغة المصرية القديمة وإن احتوت بعض ألفاظها . (المترجم)

وكانت هذه الرموز المصورة البدائية منشأ العلامات الستمائة، وهى الرموز الأساسية فى الكتابة الصينية؛ وقد سمى نحو مائتين، وأربعة عشر رمزاً منها «أصولا» لأنها عناصر أساسية. وجميع حروف اللغة الدارجة، والحروف المستعملة فى الوقت الحاضر، رموز معقدة غاية التعقيد أثقل فيها العنصر التصويرى البدائى بزيادات كثيرة يقصد بها تحديد معنى اللفظ تحديداً واضحاً، ويكون ذلك فى العادة ببيان ما يطرأ من تغيير على نغمته. ولم يكتف الصينيون بأن يجعلوا لكل كلمة ينطقون بها علامة بل إنهم يجعلون لكل فكرة أيضاً علامة خاصة، فهذه علامة يرمز بها للحصان وهذه علامة أخرى يرمز بها «للحصان الأحمر الأسود ذى البطن الأبيض»(*) كما يرمز برمز آخر للحصان ذى البقعة البيضاء على جبهته(**). ولا تزال بعض هذه الرموز بسيطة بساطة نسبية، فالقوس فوق خط مستقيم (أى الشمس فوق الأفق) معناها «الصباح». والشمس والقمر مجتمعين يمثلان «الضوء»؛ والفم والطائر معاً معناها «الغناء»، والمرأة تحت سقف معناها «السلام»؛ والمرأة والفم والعلامة الدالة على «الالتواء» يتكون منها الرمز الذى منه «خَطِر»؛ والرجل والمرأة مجتمعين يعنيان «شرشرة»؛ والنزاع يعبر عنه بامرأة ذات فمين؛ والزوجة يعبر عنها بالعلامات الدالة على امرأة ومكنسة وزوبعة(٢٣).

وهذه لغة بدائية من بعض الوجوه استطاع أهلها بمحافظتهم الشديدة على القديم أن يبقوها حية فى هذه الأوقات «الحاضرة». والصعوبات الكامنة فى هذه اللغة أوضح من مزاياها وفضائلها، ويقال إن الصينى يحتاج إلى ما بين عشر سنين وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الأربعين ألف رمز التى تتكون منها

(*) فى اللغة العربية شىء من هذا أو ما يقرب منه فهذه المعانى يؤديها فى العربية لفظا الكميت والأبطل، ولكن هذا لا يبلغ بالضبط مبلغه فى اللغة الصينية إذ يؤديها فيها رمز واحد (المترجم)

(**) وهذا المعنى يؤديه فى العربية لفظ أصقع. (المترجم)

لغته ، ولكننا إذا عرفنا أن هذه الرموز ليست حروفاً بل أفكاراً ، ثم فكرنا في طول الوقت الذى نحتاجه لكى نعرف أربعين ألف فكرة من الأفكار أو حتى أربعين ألف كلمة من الكلمات ، رأينا أن فى العبارات التى نستخدمها للمفاضلة بين اللغة الصينية وغيرها من اللغات ظلماً شديداً للصينيين ، وأن من واجبنا إذا كنا ننشد الإنصاف أن نقول إن الصينى يحتاج إلى خمسين عاماً ليعرف أربعين ألف فكرة . والواقع أن الصينى العادى يكفيه ثلاثة آلاف علامة أو أربعة آلاف ، وأن من السهل عليه أن يعرف هذا العدد بمعرفة « أصولها » السالفة الذكر . وأوضح ميزة لهذه اللغة — التى لا تعبر عن الأصوات بل عن الأفكار — هى أن الكوريين واليابانيين يسهل عليهم أن يقرؤوها كما يسهل على الصينيين ، وأنها تعد لغة كتابة دولية لبلاد الشرق الأقصى . يضاف إلى هذا أنها تجمع فى نظام واحد من نظم الكتابة بين جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلا ، حتى أن الرمز الواحد يقرأ بأصوات مختلفة وكلمات مختلفة فى مختلف البيئات . وهذه الميزة تنطبق على مختلف الأزمنة انطباقها على مختلف الأمكنة ، ذلك بأن لغة الكتابة قد بقيت واحدة فى جوهرها على حين أن لغة الكلام قد تفرعت إلى ما ينيف على مائة من اللهجات . ومن أجل هذا كان فى وسع الصينى غير الأمى أن يقرأ الأدب الصينى الذى ظل يكتب بهذه الحروف نحو ألفى عام كاملة ، وإن كنا لا نعلم كيف كان الكتاب الأقدمون ينطقون بالألفاظ التى كتبوها أو يعبرون عن الأفكار التى ترمز لها هذه العلامات . ولقد كان هذا الإصرار الشديد على الاحتفاظ بالكتابة الموحدة القديمة بين هذا الفيض الدافق من اللهجات الكلامية المتباينة عاملاً قوياً على الاحتفاظ بالأفكار الصينية والثقافة الصينية إلى هذه الأيام كما كانت عاملاً قوياً فى تمسك الصينيين بعاداتهم وتقاليدهم القديمة . ذلك أن الأفكار القديمة قد رسخت فى البلاد ، وكانت هى القالب الذى صبت فيه عقول الشباب

وإن خصائص الحضارة الصينية لتتمثل فى هذه الظاهرة الفذة التى امتازت بها كتابتها على غيرها من البلاد : وحدتها بين مختلف اللهجات والتطورات، وتمسكها الشديد بالقديم واتصالها المنقطع النظير . ولقد كان هذا النظام الكتابى فى حد ذاته من أجل الأعمال العقلية واعلاها شأناً ، فقد صنف العالم بأجمعه — عالم الجماد والنشاط والأوصاف — إلى بضع مئات من الرموز التى جعلت « أصولا » ، ثم أضاف إلى هذه الأصول نحو خمسمائة وألف من العلامات المميزة فأضحت تمثل فى صورها الكاملة جميع مافى الحياة من أفكار وآداب . ومن واجبنا ألا نثق كل الثقة من أن الطرق المختلفة التى ندون بها نحن أفكارنا أرقى من هذه الطريقة البدائية ، فقد كان ليبنتز فى القرن السابع عشر وسير وُنَلْدُرْس فى هذه الأيام يحلمان بوضع طريقة من العلامات الكتابية مستقلة كل الاستقلال عن لغات الكلام ، بعيدة كل البعد عن الاختلافات القومية ، وعن اختلافات الزمان والمكان ، يستطاع بها من أجل هذا التعبير عن أفكار الشعوب المختلفة بطرق واحدة يفهمها الناس كلهم على السواء ، ولكن لغة الرموز هذه التى كان يحلم بها هذان العالمان قائمة فعلاً فى الشرق الأقصى توحد بين مائة من الأجيال وبين ربع سكان العالم . وإن النتيجة التى وصل إليها الشرق لنتيجة منطقية رهيبة : إن سائر بلاد العالم يجب أن تتعلم طريقة الكتابة الصينية .

الفصل الثالث

الحياة العملية

١ — فى الحقول

فقر الزراع — الوسائل الاقتصادية — المحصولات — الشاى — الطعام — صبر أهلى القرية

لقد كان خصب التربة هو الدعامة التى يقوم عليها آخر الأمر كل ما حوته تلك اللغة من آداب، وكل ما اشتمل عليه التفكير الصينى من دقة وعمق، وكل ما انطوت عليه الحياة الصينية من نعيم وترف. وبعبارة أصح لقد كانت هذه الدعامة هى جهود الصينيين أنفسهم، لأن التربة الخصبة لا تخلق خلقاً بل تنشأ إنشاء. وما من شك فى أن سكان الصين الأولين قد ظلوا قروناً طوالا يكافحون الأدغال والغابات، والوحوش والحشرات، والجفاف والفيضان، وأملاح التربة والصقيع، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يحولوا تلك البرارى الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة مثمرة، وكان لا بد لهم أن يعودوا حينا بعد حين إلى خوض هذه المعارك لكى يحتفظوا بما نالوا من نصر، فإذا ما استمروا يقطعون أشجار الغابات مائة عام مثلا استحالت الأرض صحراء مجدبة(*)، وإذا أهملوا تقطيعها بضع سنين استحالت حراجاً وغابات كثيفة.

ولقد كان هذا الكفاح كفاحاً مريراً ينطوى على أخطار جسيمة، وكان يزيد من مرارته أن البلاد كانت معرضة لهجمات البرابرة واستيلائهم على

(*) ذلك أن سفوح التلال والمنحدرات التى تقطع أشجارها لا تقوى على الاحتفاظ بما يسقط عليها من الأمطار فتجرف مياهها التربة العليا الخصبة وتحدث وتختفى من الوثائق التى تحول دون انسياب السيول على الوديان وإغراقها

محصولات الأرض المستصلحة ، ومن أجل هذا كان الزراع يتقون هذه الإغارة بأن يعيشوا فى جماعات صغيرة لا فى منازل متفرقة متباعدة ، وكانوا ينشئون حول قراهم أسواراً ، ويخرجون لزرع الأرض مجتمعين ، وكثيراً ما كانوا يقضون الليل ساهرين يحرسون الحقول .

وكانت طرق الزراعة عندهم ساذجة وإن لم تختلف كثيراً عن طرق الزراعة فى هذه الأيام . وكانوا فى بعض الأحيان يفلحون الأرض بالمحاريث ، وقد اتخذوها أولا من الأخشاب ثم من الحجارة ، واتخذوها بعدئذ من الحديد ، ولكنهم كانوا فى أكثر الأحيان يقلبون ما يمتلكون من قطع الأرض الصغيرة بالفأس يكدحون بها صابرين . وكانوا يستعينون على إخصاب التربة بكل ما يجدونه من المخصبات الطبيعية ، ولا يستنكفون أن يجمعوا لهذا الغرض فضلات الكلاب والآدميين . ولقد احتفروا من أقدم الأزمنة قنوات يجرون فيها مياه أنهارهم الكثيرة إلى مزارع الأرز أو حقول الذرة ، فشقوا ترعاً عميقة يبلغ طولها عدة أميال فى الصخور الصماء ليصلوا بها إلى مجرى مائى بعيد أو يحولوا مجراه حتى يصل إلى سهل جاف ، واستطاع الصينيون دون الاستعانة بالدورة الزراعية أو المخصبات الصناعية ، ومن غير حيوانات الجر فى كثير من الأحيان ، أن يزرعوا نصف أرضهم على الأقل زرعتين أو ثلاث زرعات فى العام ، وأن يستخرجوا منها من أنواع الغذاء أكثر مما استخرجه أى شعب آخر فى التاريخ[٢٤] .

وكانت أهم الحبوب التى زرعوها هى الأرز والذرة ويليها فى الأهمية القمح والشعير . وكانوا يتخذون من الأرز غذاء وخمراً ، ولكن الفلاح لم يدمن هذا الشراب فى يوم من الأيام . أما شرابه المحبب إليه ، ومحصوله الذى يلى الأرز فى أهميته ، فهو الشاى . وكان استعماله فى مبدإ الأمر مقصوراً على التداوى ، ثم زاد انتشاراً حتى صار فى عهد أسرة تانج من المحصولات التى تصدر إلى خارج البلاد ،

والتى يتغنى بها الشعراء فى أشعارهم . ولم يحلّ القرن الخامس عشر حتى كانت جميع بلاد الشرق الأقصى مغرمة بشراب الشاى تتغنى بمديحه ، وحتى أخذ المولعون به يعملون لاستنبات أنواع جديدة منه ، ويعقدون مجالس الشراب للحكم على خير ما يقدم منها للحاضرين(٣٥) . وكان من محصولاتهم الأخرى الخضر اللذيذة والمغذية كفول الصويا ، والتوابل المقوية كالثوم والبصل ، وعشرات المئات من أنواع الفاكهة(٣٦) ؛ وكانت اللحوم أقل المنتجات الريفية شأناً ؛ وكانت الثيران والجاموس تستخدم أحياناً فى حرث الأرض ، أما تربية الماشية للانتفاع بلحومها فكانت مقصورة على الخنازير والدجاج(٣٧) ، وكانت طائفة كبيرة من السكان تتخذ غذاءها من سمك البحر والمجارى المائية العذبة .

وكان أهم ما تتغذى به الطبقات الفقيرة هو الأرز الجاف، والمكرونة، والشعرية، وقليل من الخضر والسمك . أما الطبقات الوسطى فكانت تضيف إلى هذا لحم الخنازير والدجاج ، وتضيف إليه الغنية لحم البط ، وكانت أرقى المآدب التى تقام فى بيكين تحتوى على مائة صنف من أصناف البط(٣٨) . وكان لبن البقر نادراً وكذلك كان البيض قليلا وقلما كان يؤكل طازجاً . غير أن فول الصويا كان يمد الأهلين باللبن الصالح والجبن . وقد تطور فن الطهو فى الصين حتى أصبح من الفنون الجميلة ، وكان يستخدم فيه كل منتجات الأرض والماء وطيور الهواء، فكانت الحشائش والأعشاب البحرية تقتلع من الأرض ، وأعشاش الطير تنتهب لتعمل منها أنواع الحساء اللذيذ ، وكانت أطعمة لذيذة تتخذ من زعانف كلب البحر وأمعاء السمك والجراد والجنادب وصغار الديدان ودود القز ولحم الخيل والبغال والجرزان وثعابين الماء والقطط والكلاب(٣٩) . وكان الصينيون يحبون لذيذ المأكل، ولم يكن من غير المألوف أن تشتمل مائدة الرجل الغنى على أربعين صنفاً ، وأن يظل القوم حول موائد الطعام ثلاث ساعات أو أربعاً يأكلون فيها و شربون .

أما الرجل الفقير فلم يكن يصرف هذا الوقت كله فى طعامه الذى كان

يتناول منه وجبتين فى اليوم . ولم يكن الفلاح رغم كدحه المتواصل بمنجاة من الجوع طول أيام حياته ، إذا استثنينا بعض الحالات فى مختلف الأقاليم والأوقات. وكان فى وسع الأقوياء الماهرين منهم أن يستحوذوا على ضياع واسعة ، وأن يركزوا ثروة البلاد فى أيد قليلة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ، كما حدث فى أيام الإمبراطور شى هوانج — دى ، أن يعاد توزيع الأرض على السكان ، غير أن ما بين الناس من فروق طبيعية سرعان ما كان يؤدى إلى تركيز الثروة مرة أخرى[41] . وكان معظم الزراع من ملاك الأراضى ، ولكن متوسط ما كان يملكه الفرد أخذ يتضاءل فى كل قرن عن الذى قبله نظراً لتزايد عدد السكان أسرع من ازدياد مساحة الأرض الصالحة للزراعة . فكانت نتيجة هذا هى الفقر الذى لا مثيل له إلا فى أفقر أقاليم الهند ! فقد كان دخل الأسرة المتوسطة لا يزيد على ٨٣ ريالا أمريكيا ، وكان كثيرون من الأفراد يعيشون بما يعادل ربع من الريال فى اليوم ، كما كان الملايين منهم يموتون من الجوع فى كل عام[42] . وقد ظلت الصين عشرين قرناً كاملا تعانى القحط بمعدل مرة فى كل عام[43] ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن الفلاح كان يستغل أسوأ استغلال ولا ينال من الطعام إلا ما يمسك الرمق ، ويرجع بعضه إلى ازدياد المواليد أسرع من تحسن الإنتاج الزراعى واتساع مساحة الأرض المنزرعة ، كما يرجع بعضه الآخر إلى سوء سبل الاتصال والنقل إلى حد يجعل السكان فى بعض الأقاليم يهلكون من الجوع بينما الطعام فى البعض الآخر يزيد على حاجة الأهلين . وآخر ما نذكره من هذه الأسباب أن الفيضان كان فى بعض الأحيان يتلف ما يتركه المالك والجابى للزارع فكثيراً ما كان نهر هوانج — هو ، الذى يسميه الناس « حزن الصين » ، يغير مجراه ويغرق ألفاً من القرى ويترك ألفاً أخرى صادية .

وكان الفلاحون يصبرون على هذه الكوارث ويتجرعون غصصها ، ومن أمثالهم المأثورة : « كل ما يحتاجه الإنسان فى هذه الحياة الفانية هو قبعة وحفنة

من الأرز »(٤٤) . وكانوا يكدحون ولكنهم لا يسرعون في عملهم ، فلم تكن ثمة آلة معقدة تدفعهم إلى العمل سراعاً ، أو تنهك أعصابهم بضجيجها وخطرها وسرعتها . ولم يكن لهم أيام راحة في آخر الأسبوع ولا أيام آحاد ، ولكن كانت لهم أيام إجازات وأعياد كعيد رأس السنة وعيد الفوانيس تتيح للعامل فرصة يستريح فيهامن عناء كدحه ؛ ويخفف فيها بالمسرحيات والأساطير ما في سائر فصول السنة من اكتئاب فإذا ما ولى الشتاء بزمهريره ووجهه الكالح ، ولانت تربة الأرض بما سقط عليهامن مطر الربيع بعدأن ذاب ماتراكم عليهامن ثلج الشتاء ، خرج الفلاحون مرة أخرى ليزرعوا حقولهم الضيقة ، ويغنوا في مرح وحبور أغاني الأمل التي تحدرت إليهم من ماضيهم السحيق .

٢ — في المتاجر

الحرف اليدوية — الحرير — المصانع — الطوائف — الحمالون — الطرق والقنوات — التجار — الائتمان والنقود — تجارب في العملة المتداولة — التضخم الناشئ من الطباعة

ازدهرت الصناعة في تلك الأيام ازدهاراً لم ير له مثيل في كافة أنحاء الأرض قبل القرن الثامن عشر . فمهما تتبعنا تاريخ الصين إلى ماضيه السحيق وجدنا الحرف اليدوية منتشرة في البيوت والتجارة رائجة في المدن .

وكانت أهم الصناعات الأساسية هي صناعة النسيج وتربية دود القز لاستخراج خيوط الحرير . وكانت كلتا الحرفتين تقوم بها النساء في أكواخهن أو بالقرب منها . وكان غزل الحرير من الحرف القديمة في البلاد ، وترجع بدايتها في الصين إلى الألفي السنة السابقة لميلاد المسيح(*)(٤٥) . وكان الصينيون يطعمون

(*) لقد كان اليونان والرومان الأقدمون يعرفون طريقة غزل الحرير المستخرج من شرانق ديدانه البرية ؛ أما صناعة تربية الدود وجمع الحرير ونسجه فقد جاء بها الرهبان النساطرة من الصين إلى أوربا حوالي عام ٥٢٢ م (٤٦) . وانتقلت هذه الصناعة في القرن الثاني عشر من القسطنطينية إلى صقلية ثم انتقلت الى إنجلترا في القرن الخامس عشر .

الدود ورق التوت الحديث التقطيع ويحصلون من تربيته على نتائج عجيبة ، ولعل القارئ لا يصدق إذا قيل له إن رطلا من الديدان (أى ٧٠٠,٠٠٠ دودة) يتغذى على هذا الورق كان يتضاعف إلى ٩,٥٠٠ رطل فى اثنين وأربعين يوماً[٤٧] . وكانت الديدان الكبار توضع بعدئذ فى سدادات صغيرة من القش تنسج حولها شرانقها بما تفرزه من الحرير ، فإذا أتمت عملها أخذت الشرانق وألقيت فى ماء ساخن فخرج الحرير من القالب الذى لف عليه وعالجوه ونسجوه وصنعوا منه أنواعاً عدة من الثياب والأقمشة المزركشة والمطرزة والأنسجة المشجرة التى كانت تصنع منها ملابس الطبقات العليا فى العالم كله[*] ، أما من ينتجون الحرير وينسجونه فكانوا يتخذون ثيابهم من القطن .

وكانت هذه الصناعة المنزلية تكمل بحوانيت فى المدن حتى فى القرون السابقة لميلاد المسيح ، ولذلك وُجدت من بداية القرن الثالث قبل الميلاد جماعات من العمال فى المدن نظمت هى والمشرفون عليها فى طوائف من أرباب الحرف . وكان نمو هذه الصناعة فى الحوانيت سبباً فى ازدحام المدن بالسكان العاملين المجدين الذين جعلوا الصين فى أيام كوبلاى خان تضارع من الوجهة الصناعية أوربا فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد . وقد كتب ماركوبولو فى ذلك يقول :

« لكل حرفة من الحرف مائة متجر يهيئ كل واحد منها العمل لعشرة أو خمسة عشر أو عشرين من الصناع ، وقد يصل هذا العدد فى بعض الصناعات إلى أربعين ... والسادة الأغنياء أصحاب الحوانيت لا يعملون بأيديهم بل يتظاهرون بالرقة والتسامى والتأنق فى حديثهم وحركاتهم »[٥٠] . وكانت هذه النقابات تعمل ما تعمله الصناعات المنظمة فى هذه الأيام ، فتحدد التنافس وتنظم

(*) لم يكن من غير المألوف عند المضيف إذا جاءه الضيوف أن يمر عليهم بنسيج رقيق من الحرير يعرضه عليهم[٤٨] كما يعرض عليهم غيره آنية من الخزف أو يبسط أمامهم ملفا من الصور أو من الخط الجميل .

الأجور وساعات العمل ، وكان الكثير منها يحدد الإنتاج ليحتفظ بمستوى أسعار منتجاته ، ولعل رضاها بأساليبها القديمة واطمئنانها إليها كانا من أسباب تأخر العلوم فى الصين ، ومقاومة الانقلاب الصناعى فى تلك البلاد ، مقاومة دامت حتى أخذت كل الحواجز والأنظمة فى هذه الأيام تنهار أمام طوفان الصناعة الأوربية الجارف .

وكانت النقابات فى الصين تضطلع بكثير من الواجبات التى عهد بها السكان الغربيون المتكبرون إلى الدولة . فكانت هذه النقابات تسن قوانينها بنفسها وتعدل فى تنفيذها . وقد قللت من الإضراب بما كانت تقوم به من تسوية النزاع بين العمال وأصحاب الأعمال بطرق التحكيم على يد لجان الوسطاء التى يمثل فيها كلا الطرفين بالتساوى . وكانت هذه النقابات بوجه عام هيئات صناعية تحكم نفسها وتنظم شئونها ، وكانت مخرجا يدعو إلى الإعجاب من التذبذب الحادث فى هذه الأيام بين مبدأى التخلى وترك الأمور تجرى فى مجراها من جهة وسيطرة الدولة على جميع الشئون من جهة أخرى .

ولم تكن النقابات مقصورة على التجار والصناع وعمالهم ، بل كانت هناك نقابات لطوائف أقل من هؤلاء شأناً كالحلاقين والحمالين والطباخين . بل إن المتسولين أنفسهم كانت لهم هيئة تفرض على أعضائها قوانين صارمة(٥١) . وكانت أقلية ضئيلة من عمال المدن من الأرقاء يستخدم معظمهم فى الأعمال المنزلية ويبقون تحت سلطان سادتهم عدة سنين أو طول الحياة ، وكان اليتامى والبنات يُعرضون للبيع فى أيام القحط ويباعون بعدد قليل من « الكاشات » ، وكان من حق الأب فى كل وقت أن يبيع بناته أو عبيده . على أن هذا الاسترقاق لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه فى بلاد اليونان أو الرومان ، وكانت كثرة العمال من أعضاء النقابات أو الوكلاء الأحرار — كما كانت كثرة الزراع من ملاك

الأراضى ... يحكمون أنفسهم فى هيئات قروية مستقلة فى معظم شئونها عن إشراف الدولة[٥٢] .

وكانت منتجات العمل تنقل على ظهور الناس ، بل إن الناس أنفسهم كان معظمهم ينقلون فى الحدوج فوق أكتاف الحمالين المكدودة المتصلبة ، ولم يكن هؤلاء يشكون من عملهم أو يتضجرون منه(*) ، وكانت الدلاء الثقيلة أو الحزم الضخمة تعلق فى طرفى قوائم خشبية تحمل على الكتفين ، وكانت عربات النقل تجرها الحمير أحياناً ولكنها فى أكثر الأحيان كان يجرها الرجال . ذلك أن عضلات الآدميين قد بلغت من الرخص حداً لا يشجع على رقىّ النقل الحيوانى أو الآلى ، كما كانت حال النقل البدائية غير حافزة على إصلاح الطرق وتعبيدها .

ولما أن أنشئ أول خط حديدى فى الصين بين شنغهاى وووسونج بفضل رؤوس الأموال الأجنبية ، احتج الصينيون على هذا العمل وقالوا إنه سيزعج الأرواح التى فى باطن الأرض ، واشتدت مقاومتهم حتى اضطرت الحكومة إلى شراء الخط الحديدى وإلقاء القاطرات والعربات فى البحر[٥٣] . وقد أنشئت فى أيام شى هوانج — دى وكوبلاى خان طرق عامة رصفت بالحجارة ولكنها لم يبق منها الآن إلا جوانبها . أما شوارع المدن فلم تكن سوى أزقة لا يزيد عرضها على ثمان أقدام صممت لكى تحجب الشمس ، وكانت القناطر كثيرة العدد جميلة فى بعض الأحيان ، ومن أمثلتها القنطرة الرخامية التى كانت عند القصر الصيفى ، وكان التجار والمسافرون يستخدمون الطرق المائية بقدر ما كانوا يستخدمون الطرق البرية ، وكان فى البلاد قنوات مائية يبلغ طولها ٢٥٫٠٠٠ ميل ، تستخدم بدل السكك الحديدية ، ولم يكن فى الأعمال الهندسية الصينية ما يفوق القناة الكبرى التى تربط هانجتشاو بتيانتسين والتى يبلغ طولها ٦٥٠ ميلا ، والتى بدئ

(*) إن اللفظ الإنجليزى لهذه الكلمة وهو Cooli هندى الأصل ولعله مشتق من اللفظ التميلى Kuli ومعناه الخادم المأجور .

فى حفرها سنة ٣٠٠ م وتم فى عهد كوبلاى خان ، لم يكن يفوقها إلا السور العظيم . وكانت القوارب المختلفة الأشكال والأحجام لا ينقطع غدوها ورواحها فى الأنهار ، ولم تكن تتخذ وسائل للنقل الرخيص فحسب بل كانت تتخذ كذلك مساكن للملايين من الأهلين الفقراء .

والصينيون تجار بطبعهم وهم يقضون عدة ساعات فى المساومات التجارية ، وكان الفلاسفة الصينيون والموظفون الصينيون متفقين على احتقار التجار ، وقد فرض عليهم أباطرة أسرة هان ضرائب فادحة وحرموا عليهم الانتقال بالعربات ولبس الحرير .

وكان أفراد الطبقات الراقية يطيلون أظافرهم ليدلوا بعملهم هذا على أنهم لا يقومون بأعمال جثمانية ، كما تطيل النساء الغربيات أظافر أيديهن لهذا الغرض عينه[٦٤] ؛ وقد جرت العادة أن يعد العلماء والمدرسون والموظفون من الطبقات الراقية ، وتليهم فى هذا طبقة الزراع ، ويأتى الصناع فى المرتبة الثالثة ، وكانت أوطأ الطبقات طبقة التجار لأن هذه الطبقة الأخيرة - على حد قول الصينيين — لا تجنى الأرباح إلا بتبادل منتجات غيرها من الناس .

لكن التجار مع ذلك أثروا ونقلوا غلات حقول الصين وسلع متاجرها إلى جميع أطراف آسية، وصاروا فى آخر الأمر الدعامة المالية للحكومة الصينية . وكانت التجارة الداخلية تعرقلها الضرائب الفادحة ، وأما التجارة الخارجية فكانت معرضة لهجمات قُطاع الطريق فى البر والقراصنة فى البحر . ومع هذا فقد استطاع التجار الصينيون أن ينقلوا بضائعهم إلى الهند وفارس وبلاد النهرين ورومة نفسها فى آخر الأمر بالطواف حول شبه جزيرة الملايو بحراً وبالسير فى طرق القوافل التى تخترق التركستان[٥٥] وكانت أشهر الصادرات هى الحرير والشاى والخوخ والمشمش والبارود وورق اللعب ، وكان العالم يرسل إلى الصين بدل هذه الغلات والبضائع الفِصْفِصَة(*) .

(*) هو المعروف بالإنجليزية باسم Alfalfa واللفظة الأسبانية منحرفة عن اللفظة العربية « الفِصْفِصة » وهو نبات ذو ثلاث أوراق .

والزجاج والجزر والفول السودانى والدخان والأفيون .

وكان من أسباب تيسير التبادل التجارى نظام الائتمان والنقود . فقد كان التجار يقرض بعضهم بعضاً بفوائد عالية تبلغ فى العادة نحو ٣٦٪ ، ونقول إنها عالية وإن لم تكن أعلى مما كانت فى بلاد اليونان والرومان[٥٦] . وكان من أسباب ارتفاع سعر الفائدة ما يتعرض له المرابون من أخطار شديدة ، فكانوا من أجل ذلك يتقاضون من الأرباح ما يتناسب مع هـذه الأخطار ، ولم يكن أحد يحبهم إلا فى مواسم الاستدانة . ومن الحكم الصينية المأثورة قولهم : « السارقون بالجملة ينشئون المصارف »[٥٧] . وأقدم ما عرف من النقود ما كان يتخذ من الأصداف البحرية والمدى والحرير .

ويرجع تاريخ أقدم عملة معدنية إلى القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل[٥٨] وجعلت الحكومة الذهب العملة الرسمية فى عهد أسرة شين ، وكانت العملة الصغرى تصنع من خليط من النحاس والقصدير ، وما لبثت هذه أن طردت الذهب من التعامل[*] . ولما أخفقت التجربة التى قام بها وو دى والتى أراد بها أن يضرب عملة مصنوعة من الفضة والقصدير لكثرة ما زيف وقتئذ من النقود ، استعيض عنها بشرائح من الجلد يبلغ طول الواحدة منها قدماً ، وكانت هـذه الشرائح مقدمة لاستعمال النقود الورقية . ولما أن أضحى ما يستخرج من النحاس أقل من أن يفى بالأغراض التجارية لكثرة البضائع المتداولة ، أمر الإمبراطور شين دزونج فى عام ٨٠٧ أن تودع العملة النحاسية كلها فى خزائن الحكومة وأن يصدر بدلا منها شهادات مدينة أطلق عليها الصينيون اسم « النقود الطائرة » ، لأنهم كما يبدو تحملوا متاعبهم المالية بنفس الطمأنينة التى تحمل بها الأمريكيون

(*) لا يزال النحاس هو العملة السائدة فى الصين فى هذه الأيام وتصنع منه « الكاشة » وهى عملة قيمتها بـ ١/٢ أو بـ ١/٣ من الريال الأمريكى كما يصنع منه الثئيل وهو يساوى ألف « كاشة » .

متاعبهم فى عام ١٩٣٣ . ولم تستمر هذه الطريقة إلا ريثما زالت الضائقة ؛ ولكن اختراع الطباعة بالقوالب أغرى الحكومة على أن تستخدم هذه الطريقة الجديدة فى عمل النقود ، فشرعت ولاية سشوان شبه المستقلة فى عام ٩٣٥ م والحكومة الوطنية فى شنجان عام ٩٧٠ تصدران النقود الورقية . وأسرفت الحكومة فى عهد أسرة سونج فى إصدار هذه النقود ، فنشأ من ذلك تضخم شديد قضى على كثير من الثروات[٥٩] .

ويقول ماركو بولو عن خزائن كوبلاى خان : « إن دار السك الإمبراطورية تقوم فى مدينة كمبوك (بيكين) ، وأنت إذا شاهدت الطريقة التى تصدر بها النقود قلت إن فن الكيمياء أتقن إتقاناً لا إتقان بعده ، وكنت صادقاً فيما تقول . ذلك أنه يصنع نقوده بالطريقة الآتية » ، ثم أخذ يستثير سخرية مواطنيه وتشككهم فيما يقول وعدم تصديقهم إياه فوصف الطريقة التى يؤخذ بها لحاء شجر التوت فتصنع منه قطع من الورق يقبلها الشعب ويعدها فى مقام الذهب[٦٠] . ذلك هو منشأ السيل الجارف من النقود الورقية الذى أخذ من ذلك الحين يدفع عجلة الحياة الاقتصادية فى العالم مسرعة تارة ويهدد هذه الحياة بالخراب تارة أخرى

٣ — المخترعات والعلوم

البارود — الألعاب النارية والحروب — ندرة المخترعات الصناعية — الجغرافية — الرياضيات — الطبيعة — « فنج شوى » — الفلك — الطب — تدبير الصحة

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون . فقد اخترعوا البارود فى أيام أسرة تانج ، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذ على الألعاب النارية ، وكانوا فى ذلك جد عقلاء ، ولم يستخدموه فى صنع القنابل اليدوية وفى الحروب إلا فى عهد أسرة سونج (عام ١١٦١ م) . وعرف العرب ملح البارود (نترات البوتاسا) — وهو أهم مركبات البارود — فى أثناء

اتجارهم مع الصين وسموه « الثلج الصينى » ونقلوا سر صناعة البارود إلى البلاد الغربية ، واستخدمه العرب فى إسپانيا فى الأغراض الحربية ، ولعل سير روجر بيكين أول من ذكره من الأوربيين قد عرفه من دراسته لعلوم العرب أو من اتصاله بده — بروكى الرحالة الذى طاف فى أواسط آسية .

والبوصلة البحرية أقدم عهداً من البارود . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنها المؤرخون الصينيون فإن دوق چو قد اخترعها فى عهد الإمبراطور تشنج وانج (١١١٥ — ١٠٧٨ ق . م) ليهدى بها بعض السفراء الأجانب فى عودتهم إلى بلادهم . ويقول الرواة إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها « بإبرة تشير إلى الجنوب »[٦٢] . وأكبر الظن أن الصينيين الأقدمين كانوا يعرفون ما للحجر المغنطيس من خواص مغنطيسية ، ولكن استعماله كان مقصوراً على تحديد الاتجاهات فى بناء المياكل . وقد ورد وصف الإبرة المغنطيسية فى السونج — شو وهو كتاب تاريخى مؤلف فى القرن الخامس الميلادى . ويقول المؤلف إن مخترعها هو الفلكى چانج هنج (المتوفى فى عام ١٣٩م)، على أن هذا العالم لم يفعل أكثر من أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه . وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فائدتها للملاحين هو ما جاء فى كتاب ألف فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى وهو يعزو استخدامها فى هذا الغرض إلى البحارة الأجانب — وأكبر الظن أنهم من العرب — الذين كانوا يسيرون سفنهم بين سومطره وكانتون[٦٣] . وأول إشارة معروفة لنا عن البوصلة فى أقوال الأوربيين هى ما ذكر عنها فى قصيدة لجنيو ده بروفن[٦٤] .

على أننا لا نستطيع أن نصف الصينيين بأنهم من الأمم النشيطة فى ميدان الاختراعات الصناعية رغم اختراعهم البوصلة والبارود والطباعة والخرف . ولقد كانوا مخترعين فى الفنون ؛ وقد ارتقوا بها فى صورها التى ابتدعوها حتى بلغت درجة من الكمال لا نظير لها فى غير بلادهم أو فى غير تاريخهم ، ولكنهم ظلوا حتى

عام ١٩١٢ قانعين بالجرى على طرقهم الاقتصادية القديمة ، يحتقرون الأساليب والحيل التى تغنى عن العمل الشاق ، وتضاعف ثمار الجهود البشرية ، وتعطل نصف سكان العالم لتزيد من ثراء نصفه الآخر ، كأنهم فى احتقارهم هذا كانوا يتنبئون بما تجره هذه الاختراعات على البشر من شرور . وكان الصينيون من أوائل الأمم التى اتخذت الفحم وقوداً واستخرجوه من الأرض بكميات قليله منذ عام ١٩٢٢ ق م[٦٥] ، ولكنهم لم يخترعوا آلات تريحهم من كدح استخراجه وتركوا معظم ما تخبئه أرضهم من الثروة المعدنية دون أن يستغلوها ، ومع أنهم عرفوا كيف يصنعون الزجاج فقد رضوا أن يستوردوه من الغرب ، ولم يصنعوا ساعات للجيب أو للحائط ، ولم يخترعوا المسامير المحواة بل إنهم لم يصنعوا من المسامير العادية إلا أغلظها[٦٦] . وقد ظلت حياة الصين الصناعية فى أهم نواحيها على حالها لم تتغير كثيراً خلال الألفى العام التى بين قيام أسرة هان وسقوط المنشو — شأنها فى هذا شأن الحياة الصناعية فى أوربا من أيام بركليز إلى عهد الانقلاب الصناعى.

كذلك كانت الصين تفضل سلطان التقاليد والعلماء على سلطان العلم والمال المثير للأعصاب ، ولذلك كانت الحضارة الصينية أفقر الحضارات العظمى فيما أفادته منها فنون الحياة المادية . فقد أخرجت هذه الحضارة كتباً من أرقى الكتب الدراسية فى الزراعة وفى تربية دود القز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين ، وألقت رسالات قيمة فى علم تقويم البلدان[٦٧] . وقد خلف عالمها الرياضى المعمر چانج تسانج (المتوفى فى عام ١٥٢ ق . م) وراءه كتاباً فى الجبر والهندسة فيه أول إشارة معروفة للكميات السالبة . وقد حسب دزو تسو تشونج — چى القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقام عشرية ، وحسن المغنطيس أو « الأداة التى تشير إلى الجنوب » وقد وردت إشارة عنه غير واضحة قيل فيها إنه كان يجرى التجارب على سفينة تتحرك بنفسها[٦٨] .

واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيسمغرافا) فى عام ١٣٢م(*). ولكن علم الطبيعة الصينى قد ضلت معظم أبحاثه فى دياجير الفنج چوى السحرية واليانج والين من أبحاث ما وراء الطبيعة(**). وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينيين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند، ولكنهم هم الذين أنشئوا علم الهندسة فى بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض(٧٠). وكان فى وسع الفلكيين فى أيام كنفوشيوس أن يتنبئوا بالخسوف والكسوف تنبؤاً دقيقاً، وأن يضعوا أساس التقويم الصينى بتقسيم اليوم إلى اثنتى عشرة ساعة وتقسيم السنة إلى اثنى عشر شهرا يبدأ كل منها بظهور الهلال، وكانوا يضيفون شهراً آخر فى كل بضع سنين لكى يتفق التقويم القمرى مع الفصول الشمسية(٧١). وكانت حياة الصينيين على الأرض تتفق والحياة فى السماء؛ وكانت أعياد السنة تحددها منازل الشمس والقمر، بل إن نظام المجتمع من الناحية الأخلاقية كان يقوم على منازل الكواكب السيارة والنجوم.

وكان الطب فى الصين خليطاً من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية. وكانت بدايته فيما قبل التاريخ المدون، ونبغ فيه أطباء عظام قبل عهد أبقراط بزمن طويل، وكانت الدولة من أيام أسرة چو تعقد امتحاناً سنوياً للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتحدد مرتبات الناجحين منهم فى الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة فى الاختبارات. وقد أمر حاكم صينى فى القرن الرابع

(*) وكانت الآلة التى اخترعها تتركب من ثمانية تنينات من النحاس قائمة على لوالب دقيقة حول وعاء نجم فى وسطه ضفدعة فاغرة فاها. وكان كل تنين يمسك فى فمه كرة من النحاس؛ فإذا حدث زلزال سقطت الكرة من أقرب التنينات إلى مركزها فى فم الضفدعة. وحدث مرة أن سقطت الكرة من أحد التنينات وإن كان الناس لم يحسوا بهزة زلزال فسخروا من تشانج هنج وقالوا إنه مشعوذ حتى جاءهم رسول وقال لهم إن زلزالا وقع فى أحد الأقاليم النائية(٦٩).

(**) كان الفنج چوى (الريح والماء) فنا واسع الانتشار فى الصين الغرض منه التوفيق بين مواضع البيوت والقبور فى الإقليم ومهاب الريح وتيارات الماء فيه.

قبل المسيح أن تشرح جثث أربعين من المجرمين المحكوم بإعدامهم ، وأن تدرس أجسامهم دراسة تشريحية ، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظرى ، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد . وكتب چانج چونج — تنج فى القرن الثانى عدة رسائل فى التغذية والحميات ظلت هى النصوص المعمول بها مدى ألف عام ، وكتب هوا — دو فى القرن الثالث كتاباً فى الجراحة ، وأشاع العمليات الجراحية باختراع نبيذ يخدر المريض تخديراً تاما . ومن سخافات التاريخ أن ضاعت أوصاف هذا المخدر فيما بعد ، ولم يعرف عنها شىء . وكتب وانج شو — هو فى عام ٣٠٠ بعد الميلاد رسالة ذائعة الصيت عن ضربات القلب(٧٢) .

وفى أوائل القرن السادس كتب داو هونج — چنج وصفا شاملا لسبعمائة وثلاثين عقاراً مما كان يستخدم فى الأدوية الصينية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب چاو يوان — فانج كتابا قيما فى أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع الهامة زمناً طويلا . وكثرت دوائر المعارف الطبية فى أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التى تبحث كل منها فى موضوع واحد فى عهد الملوك من أسرة سونج(٧٣) . وأنشئت فى أيام هذه الأسرة كلية طبية ، وإن ظل طريق التعليم الطبى هو التمرين والممارسة . وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد مخازن الأدوية منذ ثلثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال فى اليوم الواحد(٧٤) . وكان الأطباء يطنبون ويتحذلقون فى تشخيص الأمراض ، فقد وصفوا من الحميات مثلا ألف نوع ، وميزوا من أنواع النبض أربعاً وعشرين حالة . واستخدموا اللقاح فى معالجة الجدرى ، وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه ، ولعلهم قد أخذوا هذا عن الهند ، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهرى . ويلوح أن هذا المرض الأخير قد ظهر فى الصين فى أواخر أيام أسرة منج وأنه انتشر انتشاراً مروعاً بين الأهلين ، وأنه بعد زواله قد خلف

وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة . غير أن الإجراءات الصحية العامة ، والأدوية الواقية ، والقوانين الصحية ، لم تتقدم تقدماً يذكر فى بلاد الصين ؛ كما كان نظام المجارى والمصارف نظاما بدائياً إذا كان قد وضع لها نظام على الإطلاق(٧٥) . وقد عجزت بعض المدن عن حل أول الواجبات المفروضة على كل مجتمع منظم — ضمان ماء الشرب النقى والتخلص من الفضلات .

وكان الصابون من مواد الترف التى لا يحصل عليها إلا الأثرياء للمتازون ، وإن كان القمل وغيره من الحشرات كثير الانتشار . وقد اعتاد الصينى الساذج أن يهرش جسمه ويخدشه وهو مطمئن هادئ هدوء الكنفوشيوسين . ولم يتقدم علم الطب تقدماً يستحق الذكر من أيام شى هوانج — دى إلى أيام الملكة الوالدة . ولعل فى وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب فى أوربا من عهد أبقراط إلى عهد باستير . وغزا الطب الأوربى بلاد الصين فى صحبة المسيحية ، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة . أما فيما عداها فهم يفضلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوربيين والعقاقير الأوربية .

الفصل الرابع

دين بلا كنيسة

الخرافات والتشكك – عبادة الطبيعة – عبادة السماء – عبادة الأسلاف – الكنفوشية – الدونة – إكسير الخلود – الوثنية – التسامح الدينى والتصوف – الإسلام – المسيحية وأسباب إخفاقها فى الصين

لم يقم المجتمع الصينى على العلم بل قام على خليط فذ عجيب من الدين والأخلاق والفلسفة، ولم يشهد التاريخ شعباً من الشعوب أشد من الشعب الصينى استمساكا بالخرافات، أو أكثر منه تشككا أو أعظم منه تُقى، أو أكثر انصياعا لحكم العقل أو أقوى منه دنيوية. ولم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية فى التحرر من سيطرة الكهنة، ولم يسعد قوم غير المغمود بآلهتهم، أو يشقوا بهم بمثل ما سعد بهم الصينيون أو شقوا. ولسنا نستطيع أن نفسر هذه المتناقضات إلا بأن نعزو لفلاسفة الصين نفوذاً لا نظير له فى التاريخ، وأن نقر بما فى فقر الصين من معين للأمانى الخيالية لا ينضب.

ولم يكن دين سكان الصين البدائيين يختلف بوجه عام عن دين عبدة الطبيعة، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة فى جميع نواحيها، وإجلال شعرى لما على الأرض من صور رهيبة ومافيها من قدرة عظيمة على الإنتاج والتوالد، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة كانوا يعدونهما عنصراً من عناصر الوئام والارتباط بين ما على الأرض من حياة وما فى السماء من قوى خفية، فكانوا يعبدون الريح والرعد والأشجار والجبال الأفاعى؛ ولكن أعظم أعيادهم كانت تقام لمعجزة النماء، وكان

الشبان والفتيات فى أيام الربيع يرقصون ويتضاجعون فى الحقول ليضربوا المثل لأمهم الأرض فى الإخصاب والإنتاج . ولم يكن ثمة فرق كبير بين الملك والكاهن فى تلك الأيام ، وكان ملوك الصين الأولون ، كما ورد فى أقوال المؤرخين الذين أطنبوا فيما بعد فى وصفهم ، كهاناً سياسيين لا يقدمون على عمل من أعمال البطولة إلا بعد أن يمهدوا له بالأدعية والصلوات ويستعينوا عليه الآلهة(٧٦).

وكانت الأرض والسماء فى هذا الدين البدائى مرتبطتين إحداهما بالأخرى ، لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه ما تكون بصلة الرجل والمرأة وصلة السيد بالتابع واليانج بالين . وكان نظام السموات ومسلك الآدميين الخلق عمليتين متقاربتين متشابهتين لأنهما شطران من نظام عالمى لا غنى عنه يسمى دو — أى الطريقة السماوية ؛ وليست الأخلاق الطيبة فى اعتقادهم إلا نتيجة للتعاون القائم بين أجزاء هذا الكل شأنها فى هذا شأن القوانين التى تسير نجوم السماء .

وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها ، هذا النظام الأخلاقى ، هذا الترتيب القدسى ، الذى يشمل بين طياته الناس والجماد ويحدد العلاقات الحقة بين الأطفال وآبائهم ، والزوجات وأزواجهن ، وبين الأتباع وسادتهم ، والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله. لقد كان هذا تفكيراً عجيباً ولكنه تفكير نبيل يتأرجح بين التجسيد الشخصى حين يصلى الشعب لتين — للسماء المعبودة — والتجريد حين يتحدث الفلاسفة عن جماع تلك القوى — الشديدة البعد عن قوة البشر فرادى أو مجتمعين — التى تسيطر على السموات والأرضين والأناسى . ولما تقدمت دراسة الفلسفة أضحت فكرة « السماء » الشيئية مقصورة على عامة الشعب ، أما فكرتها المجردة غير الشيئية فأضحت عقيدة الطبقات المتعلمة ودين الدولة الرسمى(٧٧) .

ومن هاتين البدايتين نشأ العنصران اللذان يتألف منهما دين الصين القومى وهما : عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة وعبادة السماء وعظماء الرجال التى تدعو إليها الكنفوشية . وكان الصينيون يقربون فى كل يوم قرباناً متواضعاً — ويكون فى العادة شيئاً من الطعام — للموتى ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ؛ ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم فى مملكة غير محددة أو واضحة له ، وأن فى مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه . وكان الصينى المتعلم يقرب لأسلافه مثل هذا القربان ، ولكنه لم يكن ينظر إلى المراسم التى تصحبه على أنها عبادة ، بل كان ينظر إليها على أنها نوع من إحياء ذكراهم . ولقد كان من الخير لأرواح الموتى وللشعب الصينى بوجه عام أن يعظم هؤلاء الأموات ، وأن تخلد ذكراهم لأن فى تخليدها تعظيما للطرق القديمة التى كانوا يسيرون عليها وسداً لطريق البدع وإقراراً للسلام فى أنحاء الإمبراطورية . وما من شك فى أن هذا الدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب والمضايقات ؛ من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التى لا يمكن انتهاك حرمتها ، فعاقت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية وفلح الأرض للزراعة ؛ ولكن هذه الصعاب كانت فى نظر الفيلسوف الصينى صعاباً تافهة لا يقام لها وزن أمام ما تسديه عبادة الأسلاف إلى المدنية الصينية من استقرار سياسى واطراد روحى . ذلك أن هذا النظام المتغلغل فى كيان الأمة الصينية قد أفاض عليها وحدة روحية زمانية رغم مافيها من عوامل التفرق والانفصال التى تحول دون وحدتها المكانية وأهمها المسافات الشاسعة ، ومن فقرها فى وسائل النقل وسبل الاتصال . وبفضل هذه الوحدة الروحية ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوى من وحدة التقاليد ، وبذلك كان للحياة الفردية نصيب مشرف موفور وخطر عظيم فى هذه المنظمة التى لا يحدها وقت وفى ذلك المجال الممتد على مدى الزمان .

ومن عجب أن الدين الذى اعتنقه العلماء واتبعته الدولة قد وسع دائرة هذه العقائد الشعبية وضيق نطاقها فى آن واحد؛ ذلك أن إجلال الناس لكنفوشيوس قد أخذ يعظم جيلا بعد جيل حتى أصبح بفضل ما كان يصدره الأباطرة من مراسيم فى المكانة الثانية بعد السماء نفسها. فكانت كل مدرسة تكرمه بوضع لوحة تذكارية وكل مدينة تكرمه ببناء هيكل فيها، وكان كبار الموظفين يحرقون البخور أو يقربون القرابين من حين إلى حين تكريماً لروحه أو إحياء لذكراه، ويعدون هذه الذكرى أعظم دافع لفعل الخير بين جميع ذكريات الشعب الصينى التى يخطئها الحصر.

ولم تكن الطبقات الراقية المثقفة تعدّه إلها؛ بل كان كثير من الصينيين يعدّونه بديلا من الإله؛ ولربما كان من بين من يحضرون الصلوات التى تقام تكريماً له لا أدريون أو كفرة ملحدون، ولكنهم — إذا ما عظموه وعظموا أسلافهم — كانوا يعدون فى المجتمع الذى يعيشون فيه أتقياء متدينين. وكان من الأصول المقررة فى الديانة الكنفوشية الاعتراف بالشانج — تى، أى القوة العليا المسيطرة على العالم، وكان الإمبراطور فى كل عام يقرّب القربان باحتفال عظيم على مذبح السماء لهذا المعبود المجرد. وقد خلا هذا الدين الرسمى من كل إشارة للخلود(٧٨)، فلم تكن السماء مكاناً بل كانت إرادة الله أو نظام العالم.

لكن هذا الدين البسيط الذى يكاد ينطبق على مقتضيات العقل لم يرض أهل الصين فى وقت من الأوقات. ذلك بأن مبادئه لا تفسح المجال واسعاً أمام خيال الناس، ولا تستجيب إلى آمالهم وأمانيهم، ولا تشجع الخرافات التى تبعث البهجة فى حياتهم اليومية. ولقد كان الناس فى الصين كما كانوا فى سائر بلاد العالم يجملون الحقائق الواقعية العادية بخوارق الطبيعية الشعرية، وكانوا يحسون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم فى الهواء المحيط بهم وفى

الأرض التي تحت أقدامهم ، وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية أو يستعينوها بالأدعية وبالرق السحرية . وكانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم من سطور إلاى — چنج أو أصداف السلاحف أو حركات النجوم ، ويستأجرون السحرة ليوجهوا منازلهم نحو الريح والماء ، والعرافين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء الأمطار (٧٩) . وكانوا يعرضون للموت من يولد لهم من الأطفال فى أيام « النحس » (٨٠) . وكانت البنات المتوقدات حماسة وغيرة يقتلن أنفسهن فى بعض الأحيان ليجلبن الخير أو الشر لآبائهن (٨١) . وكانت نفوس الصينيين عامة وفى الجنوب خاصة تنزع إلى التصوف ، وتشمئز من النزعة العقلية الجامدة التى تسود العقائد الكنفوشية ، وتتوق إلى عقيدة تجد فيها ما يجده غيرها من الأمم من سلوى دائمة تحيي موات النفوس .

ومن أجل هذا عمد بعض الفقهاء الشعبيين إلى عقيدة لو دزه الغامضة فصاغوها تدريجاً فى دين جديد . لقد كانت الدوية فى رأى الأستاذ القديم وفى رأى چوانج — دزه طريقة للحياة تهدف إلى الحصول على السلام الشخصى على ظهر الأرض ؛ ويبدو أنهم لم يؤلهوا هذه الطريقة أو يتخذوها نوعاً من العبادة ، كما أنهم لم ينظروا إليها على أنها ثمن يؤدونه فى هذه الدار ليشتروا به الحياة فى الدار الآخرة (٨٢) . فلما كان القرن الثانى بعد الميلاد عدلت هذه العقائد على يد رجال ادعوا أنهم قد وصل إليهم عن طريق لو دزه نفسه إكسير يهب صاحبه الخلود . وكان هذا الإكسير فى صورة شراب شاع بين الصينيين وأسرفوا فيه إسرافا يقال إنه أودى بحياة عدد غير قليل من الأباطرة الصينيين لكثرة إدمانهم إياه (٨٣) . وأشد من هذا غرابة أن معلماً من رجال الدين فى سشوان (حوالى عام ١٤٨ بعد الميلاد) كان يعرض على الناس أن يشفيهم من أمراضهم كلها بطلسم بسيط يعطيهم إياه فى نظير خمس حفنات من الأرز . وبدا لبعض الناس أنهم قد شفوا من أمراضهم بفضل هذه الأعمال السحرية ، وقيل للذين لم يثمر فيهم العلاج إن

إخفاقه كان نتيجة لضعف إيمانهم(٨٤) . وأقبل الناس على الدين الجديد زرافات ووحدانا ، وشادوا له الهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم ، ومزجوا به جزءاً من قصصهم الشعبي الخرافي الذي لا ينضب له معين . واتخذ الناس لودزه إلها يعبدونه ، وقالوا إن أمه حملت فيه حملا سماويا ، واعتقد المؤمنون الصالحون إنه وُلد كامل العقل طاعناً في السن لأنه أقام في بطن أمه ثمانين عاماً(٨٥) . ثم ملأوا الأرض بشياطين وآلهة جديدة ، وكانوا يخيفون الأولى بصواريخ نارية تنفجر في أفنية الهياكل ويبتهج بانفجارها من يجتمع حولها من الناس ، ويوقظون الثانية من سباتها بنواقيس ضخمة قوية الصوت لتستمع إلى دعوات عُبّادها ومطالبهم الملحة .

وظلت العقائد الدوية ألف عام عقيدة للملايين من الصينيين ، وآمن بها كثير من الأباطرة ، وحاك أتباعها كثيراً من الدسائس ، وكافحوا أشد الكفاح لينتزعوا من الكنفوشيين حقهم المقدس في فرض الضرائب وإنفاق حصيلتها . ثم قضى عليها آخر الأمر ، ولكن الذي قضى عليها لم يكن منطق كنفوشيوس وأتباعه بل قضى عليها دين جديد أقدر منها هي نفسها على إلهام رجل الشارع وبعث السلوى في نفسه .

وهذا الدين الجديد هو البوذية ، ولم تكن البوذية التي بدأت تنتقل من الهند إلى الصين في القرن الأول الميلادي هي العقيدة الجامدة المكتئبة التي نادى بها « المستنير » قبل دخولها إلى الصين بخمسمائة عام ، ولم تكن عقيدة قائمة على الزهد والتقشف ، بل كانت ديناً يدعو إلى الإيمان في غبطة وبهجة بآلهة تعين البشر على أعمالهم ، وجنة ذات أزهار ورياض . واتخذت على توالي الأيام صورة المركبة الكبرى أو الماهيانا التي وفق فقهاء الكنشكا بينها وبين الحاجات العاطفية لسكان الصين السذّج ؛ وغمرت الصين بآلهة جدد لا يفترقون كثيراً عن الآدميين أمثال أميتبها حاكم الجنة ، وكوان — ين إله الرحمة وإلهتها فيما

بعد ، وأضافت إلى مجمع آلهة الصين عدداً من **اللوهان والأرباط** — وهم ثمانية عشر من أتباع بوذا الأولين — المتأهبين فى كل حين لأن يهبوا الناس بعض ما لهم من فضائل لـكى يساعدوا بنى الإنسان الحيارى المعذبين.

ولما ألفت الصين نفسها بعد سقوط أسرة هان مقطعة الأوصال من جراء ما سادها من فوضى سياسية ، وخيل إلى أهلها أن حياتها نفسها قد قضى عليها اضطراب حبل الأمن وتوالى الحروب ، ولت الأمة المعذبة وجهها شطر البوذية كما ولى العالم الرومانى وجهه فى ذلك الوقت نفسه شطر المسيحية وفتحت الدوية ذراعيها لاحتضان الدين الجديد وامتزجت به على مر الزمان فى نفوس الصينيين امتزاجا تاما ؛ وأخذ الأباطرة يضطهدون البوذية والفلاسفة يشكون مما فيها من خرافات ، وأخذ الساسة يأسفون لأن طائفة من خير أبناء الصين قد انزوت فى الأديرة وعقمت فأضحت لا تفيد منها البلاد شيئاً . لـكن الحـكومة وجدت آخر الأمر أن الدين أقوى من الدولة ؛ فتصالح الأباطرة مع الآلهة الجدد ؛ وأجيز للـكهنة أن يجمعوا الزكاة ويشيدوا الهياكل ، ورضيت طبقتا الموظفين والعلماء على الرغم منهما أن تبقى الـكنفوشية ديناً أرستقراطيا لها . واستولى الدين الجديد على كثير من المزارات القديمة وأقام رهبانه وهياكله إلى جانب رهبان الدوية وهياكلها على تاى — شان جبلها المقدس ، وحث الناس على أن يحجوا إلى هذه الهياكل مراراً كثيرة إظهاراً لورعهم وتقواهم ، وكان له أثر عظيم فى إزدهار فنون التصوير والنحت والعمارة والآداب ، وتقدم الطباعة ، ورقى كثير من طباع الصينيين ، ثم اضمحل كما اضمحلت الدوية ، فدب الفساد فى نفوس كهنة الديانة الجديدة ، وتغلغل فى عقائدها على مر الأيام كثير من الأرباب المشئومين والخرافات الشعبية المؤذية ، وقضى على ما كان لها من سلطان سياسى. لم يكن كبيراً فى يوم من الأيام — نهضةُ الـكنفوشية على يد چوشى . والآن قد هجرت هياكلها ، ونضب معين مواردها ، وأضحت وليس لها عُبّاد إلا كهنتها الفقراء المعدمون.[٨٦]

بيد أنها مع ذلك قد نفذت إلى قرار النفس الصينية ، ولا تزال حتى الآن عنصراً هاماً من العناصر المعقدة غير الرسمية في دين الصيني الساذج . ذلك أن الأديان في الصين ليست محدودة مانعة كما هي في أوربا وأمريكا ، ولم تدفع البلاد في يوم من الأيام إلى الحروب الدينية . فأنصار كل دين في تلك البلاد متسامحون عادة مع أهل كل دين آخر ، وليس هذا التسامح مقصوراً على شئون الدولة السياسية بل تراه أيضاً في العقائد نفسها ؛ فالصيني العادي من عبدة مظاهر الطبيعة ودوِّيّ وبوذي وكنفوشي في وقت واحد . ذلك أنه فيلسوف متواضع ، يعرف ألا شيء في هذا العالم محقق مؤكد ، ويقول في نفسه لعل رجال الدين على حق ولعل هناك جنة كما يقولون ، وخير ما يفعله الإنسان أن يتقبل كلَ هذه العقائد ؛ ويستأجر كثيراً من الكهنة من ديانات مختلفة ليتلوا الصلوات على قبره . على أن المواطن الصيني لا يعبأ كثيراً بالآلهة ما دام الحظ يبسم له ؛ فهو يعظم أسلافه ولكنه يترك هيا كل الدوية والبوذية في رعاية الكهنة وعدد قليل من النساء .

ولم يعرف التاريخ نفساً أشد دنيوية من نفسه ، فأكبر ما يهتم به الصيني أن يعيش بخير في هذه الحياة الدنيا ، وإذا صلى فإنه لا يطلب في صلاته أن ينال نعيم الجنة بل يطلب الخير لنفسه في هذا العالم الأرضي (٨٧) . وإذا لم يستجب إلهه لدعائه فقد يطلق فيه لسانه بالسباب ثم يقذفه آخر الأمر في النهر . ومن الأمثال الصينية المأثورة : «ليس من صانعي التماثيل والصور من يعبد الآلهة ، فهم يعرفون من أية مادة تصنع (٨٨) » .

ومن أجل هذا لم يقبل الصيني العادي بحماسة على الإسلام أو المسيحية ، فذانك الدينان يمنيانه بجنة قد وعدته إياها البوذية من قبلهما ؛ ولكن الذي يريده بحق هو دين يضمن له السعادة في هذه الأرض . وإذا قيل إن في الصين مسلمين فجوابنا أن معظم الخمسة عشر مليوناً من المسلمين في الصين ليسوا في

الحقيقة صينيين ؛ بل هم من أصول أجنبية أو أبناء أجانب[٨٩] . وقد دخلت المسيحية الصين على يد النساطرة ، وكان ذلك حوالى عام ٦٣٦ م . وأظهر الإمبراطور تاى دزونج شيئاً من العطف عليها ، وحمى الداعين لها من الاضطهاد ، وبلغ من اغتباط نساطرة الصين بهذا التسامح أن أقاموا فى عام ٧٨١ نصباً تذكارياً سجلوا عليه تقديرهم لهذا التسامح المستنير ، ورجاءهم أن تعم المسيحية فى القريب العاجل جميع أنحاء البلاد[٩٠] .

ومن ذلك الحين ظل المبشرون اليسوعيون ذوو الغيرة الدينية والعلم الغزير ، وظل المبشرون البروتستنت تؤيدهم الأموال الأمريكية التى لا ينضب لها معين ، ظل هؤلاء وأولئك يبذلون أقصى جهودهم ليحققوا آمال النساطرة فماذا كانت النتيجة ؟ إن عدد المسيحيين فى الصين فى هذه الأيام لا يتجاوز ثلاثة ملايين أى أن واحداً فى المائة من سكان الصين قد اعتنق المسيحية فى ألف عام كاملة[*] .

(*) لقد فاتت المسيحية فرصة أتيحت لها فى القرن الثامن عشر حين قام النزاع بين اليسوعيين وغيرهم من المذاهب الكاثولكية الرومانية فى الصين ذلك أن اليسوعيين كانوا حرياً على براعتهم السياسية قد وجدوا وسلة للوفق بين العنصرين الأساسيين فى الديانات الصينية — عبادة الأسلاف وإجلال السماء — وبين العقائد المسيحية من غير أن يقوضوا دعائم النظم الدينية المتأصلة فى الصين أو يعرضوا للخطر كيان الصين الأخلاقى . لكن رهبان الدمنيكيين والفرنسيسيين لم يرضهم إلا أن يفسروا الدين المسيحى على أصوله الدقيقة ، وأخذوا يشهرون بكل ما فى العقائد الدينية الصينية من مبادئ ومراسم ويقولون إنها من فعل الشيطان . وكان الإمبراطور كانج — شى رجلا مستنيراً شديد العطف على المسيحيه ، عهد إلى اليسوعيين أن يعلموا أبناءه وعرض هو نفسه أن يعتنق المسيحية ببعض الشروط ؛ فلما أن أبدت الكنيسة المسيحية فى الصين رسمياً موقف الدمنيكيين والفرنسيسيين الجامد الشديد قبض يده عن معونة المسيحية ، ولم يكتف خلفاؤه بأن يقفوا منها هذا الموقف السلبى بل قرروا أن يقاوموها مقاومة فعالة . وكانت مطامع الغربيين فى الأيام الأخيرة ونزعتهم الاستعمارية من العوامل التى أضعفت قدرة المبشرين المسيحيين على الإقناع ، وزادت الحركة المضادة للمسيحية التى يقوم بها الثوار الصينيون قوة على قوتها .

الفصل الخامس

حكم الأخلاق

ما للأخلاق من مكانة سامية في المجتمع الصيني – الأسرة – الأطفال – العفة – الدعارة – العلاقات الجنسية قبل الزواج – الزواج والحب – الاقتصار على زوجة واحدة وتعدد الزوجات – التسرى – الطلاق – إمبراطورة صينية – الحكم الأبوى للذكور – خضوع النساء للرجال – الخلق الصينى

لقد تغلبت الكنفوشية وعبادة الأسلاف على كثير من الديانات المنافسة لها، وقاومتا هجمات كثير من أعدائهما، وخرجتا ظافرتين من صراع دام عشرين قرناً، لأن الصينيين يشعرون بأنهما لاغنى عنهما للاحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التى أقامت الصين عليها حياتها. وكما كانت هاتان الديانتان هما الضمانتين الدينيتين لهذه الحياة، فكذلك كانت الأسرة هى الوسيلة الكبرى لدوام هذا التراث الأخلاقى. فقد ظل الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقى جيلا بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصينى، وكان قانوناً قوياً ثابت الدعائم بلغ من قوته وثباته أن أمكن المجتمع الصينى من أن يحتفظ بنظامه رغم ما انتاب الدولة غير المستقرة من نوائب وما اجتاحها من أعاصير سياسية. وفى ذلك يقول فلتير: « إن خير ما يعرفه الصينيون، وأكثر ما يغرسونه فى نفوس أبنائهم، وما بلغ به ذروة الكمال، هو قانونهم الأخلاقى »(٩٢) ويقول كنفوشيوس فى هذا المعنى نفسه: « إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم »(٩٣).

وكان الصينيون يفترضون أن الغرض الذى يهدف إليه القانون الأخلاقى هو أن يحول فوضى العلاقات الجنسية إلى نظام ثابت مقرر يهدف إلى تنشئة الأبناء. فالطفل هو علة وجود الأسرة، ويرى الصينيون أن أطفال الأسرة مهما كثروا

لا يمكن أن يزيدوا على الحد الواجب المعقول . ذلك أن الأمة معرضة على الدوام لهجمات الغزاة فهى فى حاجة إلى من يحميها ، وأن الأرض خصبة غنية يجد ملايين الناس فيها كفايتهم ؛ وإذا فرض أن اشتد تنازع البقاء بين الناس فى الأسرة الكبيرة والبيئات المزدحمة فإن هذا التنازع نفسه سيقضى على أضعفهم ويحتفظ بأقدرهم على الحياة ، فيتضاعف عددهم ليكونوا دعامة قوية للأمة ومصدرا لعزة آبائهم وكرامتهم ، يرعون قبور أسلافهم الرعاية الدينية الواجبة. ولقد صاغت عبادة الأسلاف من الأجيال المتعاقبة سلسلة قوية لا آخر لها ، كثيرة الحلقات تربط الأجيال بعضها ببعض وتضاعف قوتها . فكان على الزوج أن يلد أبناء ليقربوا له القربان بعد وفاته وليواظبوا فى الوقت نفسه على تقريب القربان لأسلافه . وفى ذلك يقول منشيس : « ثلاثة أشياء لا يليق صدورها من الآباء ، وشرها كلها ألا يكون لهم أبناء »(٩٤) .

وكان الآباء يدعون فى صلواتهم أن يرزقوا أبناء ؛ وكان من أشد أسباب المذلة الدائمة للأمهات ألا يكون لهن أبناء ذكور لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل فى الحقول وأثبت منهن جنانا فى ميدان القتال ؛ وكان من الشرائع المتبعة فى البلاد — ولعل هذا الاعتقاد قد روعى فى وضعها — ألا يسمح لغير الذكور بتقريب القربان إلى الآباء والأسلاف . وكانت البنات تعد عبئاً على الآباء لأنهم يربونهن ويصبرون على تربيتهن ولا ينالهم من ذلك إلا أن يبعثوا بهن متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء يكدون لأسر غير أسرهم. وإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها وصادفت الأسرة الصعاب فى إعالتهن تركتهن فى الحقول ليقضى عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية(٩٥) دون أن تشعر بشىء من وخز الضمير. وكان من بقى على قيد الحياة من الأبناء والبنات بعد أخطار الطفولة وأمراضها ينشئون بحنان عظيم ؛ وكانت القدوة الحسنة تحل فى تربيتهم محل الضرب واللكم ، وكان الأقارب يتبادلون الأبناء فى بعض الأحيان حتى لا يتلفهم

حب الآباء وحنانهم[٩٦] . وكان الأطفال يتركون فى المنزل فى الجناح الخاص بالنساء ، وقلما كانوا يختلطون بالكبار من الذكور حتى يبلغوا السابعة من العمر ، وبعدها يرسل الأولاد إلى المدارس إذا كانت موارد الأسرة تكفى لتعليمهم ويفصلون عن البنات فصلا تاماً ، حتى إذا بلغوا العاشرة لم يسمح لهم بأن يختاروا لهم رفقاء من غير الرجال والمحاظى . ولكن انتشار اللواط جعل هذا الاختيار صوريا[٩٧] .

وكانت العفة تعد من الفضائل السامية ، وكان الآباء يحرصون عليها أشد الحرص فى بناتهم ، وقد نجحوا فى غرس هذه الفضيلة فى البنات نجاحاً منقطع النظير ، يدل عليه أن البنات الصينيات كن فى بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بأن مسهن رجل مصادفة[٩٨] . غير أنهم لم يبذلوا أى مجهود يرمى إلى أن يحتفظ الرجل غير المتزوج بعفته ، بل كان يعد من الأمور العادية المشروعة أن يتردد على المواخير ، وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة الواسعة الانتشار ، يستمتع به الرجل كما يشتهى من غير أن يناله من ورائه أى عار إلا ما ينال المفرط فى أية عادة من العادات[٩٩](*) .

وكان إعداد النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم المقررة فى الصين من زمن بعيد . من ذلك أن الوزير الشهير جوان چونج وزير ولاية تشى أعد مقرا للقوادات تؤخذ فيه من التجار القادمين من الولايات الأخرى مكاسبهم قبل أن يعودوا إلى أوطانهم[١٠١] .

ويقول ماركو پولو إنه شاهد فى عاصمة كوبلاى خان من العاهرات ما لا يحصى عددهن وما لا يتصور العقل جمالهن . وهؤلاء البغايا مرخص لمن

---

(١) وكان الرحالة فى بعض الأحيان يعدون أنفسهم جهرة لقضاء الليل فى بيت من بيوت الدعارة بالصورة الخليعة والباهات والأغانى[١٠٠] . ومن واجبنا أن نقول إن هذه العادات الجنسية الشاذة آخذة فى الزوال فى هذه الأيام .

بمزاولة مهنتهن ، وتنظم الدولة أمورهن وتراقبهن من الوجهة الطبية ، وتقدم أجملهن دون أجر إلى أعضاء السفارات الأجنبية(١٠٢) .

ونشأت فيما بعد طائفة خاصة من الفاتنات يعرفن « بالبنات المغنيات » مهنتهن أن يتحدثن حديثاً مهذباً إلى الشبان إذا أرادوا أو يستخدمن فى بيوت الأزواج لتسلية الضيوف . وكثيراً ما تكون هؤلاء الفتيات من البارعات فى الأدب والفلسفة وممن يجدن الموسيقى والرقص(١٠٣) .

وقد كان الرجال يستمتعون بحرية واسعة فى صلاتهم بالنساء قبل الزواج ، كما كانت صلات النساء المحترمات بالرجال قبل زواجهن مقيدة بأشد القيود ، وكان من نتائج هذه الحرية الواسعة من جهة وهذا التقييد الشديد من جهة أخرى أن الفرصة لم تتح كثيراً لنشأة الحب العاطفى السامى . على أنه قد ظهرت كتابات تصف هذا الحب العاطفى فى عهد أسرة تانج ؛ وفى وسعنا أن نرى شواهد دالة على وجود هذه العاطفة منذ القرن السادس قبل الميلاد فى قصة واى شنج . فقد تواعد هو وفتاة أن يلتقيا تحت قنطرة ، وظل هو ينتظرها هناك بلا جدوى وإن كان الماء قد علا فوق رأسه وأغرقه(١٠٤) . وما من شك فى أن واى شنج كان أعرف بحقائق الأمور مما يبدو فى هذه القصة . ولكن الشاعر الذى نظمها يظن هو وأمثاله من الشعراء أنه قد لا يعرف ، وفى هذا الظن ما فيه من الدلالة . وقصارى القول أن الحب بوصفه عاطفة رقيقة وهياماً بالمحبوب وتعلقاً به كان بين الرجال بعضهم بعضاً أقوى منه بين الرجال والنساء ؛ والصينيون فى هذا أشبه الناس باليونان(١٠٥) .

ولم يكن للزواج صلة بالحب . ولما كان الغرض من الزواج هو ربط زوجين أصحاء بعضهما ببعض لكى تنشأ من ارتباطهما أسرة كبيرة ، فإن هذه الرابطة لم يكن يصح فى اعتقاد الصينيين أن تترك لحكم العواطف القائم على غير أساس من العقل . ومن أجل هذا كان الآباء يحرصون على فصل الذكور عن

الإناث حتى يبحثوا هم زوجات لأبنائهم أو أزواج لبناتهم . وكانوا يعدون امتناع الرجل عن الزواج عيباً خلقياً ، كما كانت العزوبة جريمة فى حق الأسلاف وفى حق الدولة وفى حق الجنس لا تغتفر حتى لرجال الدين . وكان الصينيون فى أيامهم الأولى يعيّنون موظفاً خاصا عمله أن يتأكد من أن كل إنسان فى الثلاثين من عمره متزوج وأن كل امرأة قد تزوجت قبل العشرين(١٠٦). وكان الآباء ينظمون خطبة أبنائهم وبناتهم بمعونة وسطاء محترفين (ماى — رن = وسطاء)، وكانوا يفعلون هذا عقب بلوغهم الحُلُم وقبله أحياناً وقبل أن يولدوا فى بعض الأحيان(١٠٧). وكان ثمة قيود تفرض على الزواج بين الأقارب وأخرى على الزواج من غير الأقارب تحد من هذا الاختيار ، منها : أن الزوج يجب أن يكون من أسرة معروفة من زمن بعيد للأب الذى يبحث عن زوج لابنه أو بنته ولكنها بعيدة النسب عنه بعداً يجعلها خارج دائرة عشيرته . وهذا القول نفسه يصدق على الزوجة . وكانت طريقة الخطبة أن يرسل والد الخطيب هدية قيمة إلى والد الفتاة، ولكن الفتاة كان ينتظر منها هى الأخرى أن تأتى معها ببائنة قيمة إلى زوجها تكون فى الغالب على شكل متاع أو بضاعة كما كانت الأسرتان تتبادلان فى العادة كثيراً من الهدايا ذات الشأن وقت الزواج . وكانت البنت تظل فى عزلة شديدة عن خطيبها حتى تزف إليه ، فلم يكن زوجها المرتقب يستطيع رؤيتها إلا إذا احتال على ذلك احتيالا — ولقد كان هذا الاحتيال مستطاعاً فى بعض الأحيان —، ولكنه فى كثير من الحالات كان يراها أول مرة حين يرفع النقاب عن وجهها فى حفلة الزفاف وكانت هذه الحفلة من الطقوس الرمزية المعقدة ، أهم ما فيها أن يحتسى العريس من الخمر ما يكفى لأن يزيل ما عساه أن ينتابه من حياء يعد فى عرف الصينيين جريمة لا تغتفر(١٠٨). أما البنت فكانت تدرب على أن تكون حيية ومطيعة فى وقت واحد . وكانت الزوجة تعيش بعد الزواج مع زوجها فى بيت أبيه أو بالقرب منه ، حيث تكدح كدحاً فى خدمة زوجها وأمه حتى يحين

الوقت الذى يحررها فيه الموت من هذا الاسترقاق ، ويتركها على استعداد لأن تفرضه هى نفسها على زوجات أبنائها .

وكان الفقراء يكتفون بزوجة واحدة ، ولكن حرص الصينيين على إنجاب أبناء أقوياء كان من القوة بحيث يجعلهم يسمحون عادة للقادرين منهم بأن يتخذوا لهم سرارى أو « زوجات فى الدرجة الثانية » . أما تعدد الزوجات فكان فى نظرهم وسيلة لتحسين النسل ؛ وحجتهم فى هذا أن من يستطيعون القيام بنفقاته منهم هم فى العادة أكثر أهل العشيرة قدرة على إنجاب الأبناء . وكانت الزوجة الأولى إذا ظلت عاقراً تحث زوجها على أن يتخذ له زوجة ثانية ؛ وكثيراً ما كانت هى نفسها تتبنى ابن إحدى المحاظى . وكثيراً ما كان يحدث أن الزوجات اللاتى يرغبن فى أن يحتفظن بأزواجهن داخل بيوتهن يطلبن إليهم أن يتزوجوا بالمحاظى اللاتى يؤثرونهن بالعناية وبالصلات الجنسية ، وأن يأتوا بهن إلى منازلهم ويتخذونهم فيها زوجات من الدرجة الثانية(١٠٩) .

ومن أجل ذلك نرى القصص والأخبار الصينية تثنى على زوجة الإمبراطور جوانج — تشو أطيب الثناء لأنها قالت : « لم أكف قط عن إرسال الرسل إلى المدن المجاورة للبحث عن النساء الجميلات لأجعلهن خايلات لمولاى »(١١٠) وكانت الأسر يتنافس بعضها بعضا فى أن ينلن شرف الحظوة بإرسال إحدى بناتها إلى حريم الإمبراطور . وكان من حق الإمبراطور أن يتخذ له ثلاثة آلاف من الخصيان ليحرسوا له حريمه وليعينوا ببعض الشئون الأخرى فى بلاطه ، وكان هؤلاء الخصيان يخصيهم آباؤهم وهم فى سن الثامنة ليضمنوا لهم الحصول على رزقهم(١١١) .

ولم تكن الزوجات الثانيات فى جنة الذكور هذه يفترقن كثيراً عن الإماء ، كما لم تكن الزوجات الأوليات إلا رئيسات هيئة لإنتاج الأبناء والبنات ، تعتمد مكانتهن فى الأسرة اعتماداً يكاد يكون تاما على عدد من يلدن من الأبناء وعلى

جنسهن . وإذ كانت الزوجة قد نشئت على الرضا بسيادة زوجها عليها فقد كان في وسعها أن تنعم بقسط متواضع من السعادة بالاندماج ببطء ويسر في النظام الرتيب الذي هيئت له والذي ينتظره الناس كلهم منها . وإذا كانت النفس البشرية كما نعلم جميعاً سريعة القبول لما تنشأ عليه فإن الرجل والمرأة المرتبطين برباط الزوجية في تلك البلاد كانا يعيشان كما يبدو لنا عيشة راضية سعيدة لا تقل في ذلك عن عيشة الزواج التي تعقب الحب الروائي في البلاد الغربية . وكان في وسع الرجل أن يطلق الزوجة لأي سبب كان ، لعقمها أو لثرثرتها[١١٢] ، ولم يكن من حقها هي أن تطلق زوجها ، بل كان لها أن تغادر داره وتعود إلى دار أبويها وإن كان هذا لا يحدث إلا في القليل النادر . على أن الطلاق كان مع ذلك قليلا ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى ما كان ينتظر المطلقة من مصير أسوأ من أن تستطيع التفكير فيه ، وبعضه إلى أن الصينيين فلاسفة بطبيعتهم يرون الألم أمراً طبيعيا وأنه من مقتضيات النظام العام .

وأكبر الظن أن الأم قبل أيام كنفوشيوس كانت محور الأسرة لأنها مصدر وجودها وسلطانها . وكان الناس في أول عهودهم كما سبق القول « يعرفون أمهاتهم ولا يعرفون آباءهم » ، ولا يزال اللفظ الدال على اسم أسرة مكوناً من الأصل الذي اشتق منه لفظ « امرأة »[١١٣] ، واللفظ الصيني المقابل لكلمة الزوجة معناه « المساوي » ، وكانت الزوجة تحتفظ باسمها بعد زواجها . وكانت النساء حتى القرن الثالث بعد الميلاد يشغلن في البلاد مناصب إدارية وتنفيذية رفيعة ، وقد وصل بعضهن إلى أن يكن حاكمات للبلاد[١١٤] ؛ ولم تكن « الإمبراطورة الأم » حين قبضت بيدها على شئون الدولة إلا متتبعة لخطى الإمبراطورة « لو » التي حكمت الصين حكما صارماً دام من عام ١٩٥ إلى عام ١٨٠ ق . م . وكانت « لو » قاسية لا تلين قناتها ، قتلت منافسيها وأعداءها أو قضت عليهم بالسم ، وكانت تغتبط بتقتيلهم وتسميمهم اغتباط آل ميديشي ، وكانت تختار الملوك وتخلعهم عن

عرشهم، وتصلم آذان محظيات زوجها وتفقأ عيونهم ثم تلقيهن فى المراحيض[115].
وكان التعليم منتشراً بين نساء الطبقات العليا فى الأيام القديمة وإن كان عدد من يعرفون القراءة والكتابة من الصينيين فى أيام المنشو لايكاد يبلغ واحداً فى كل عشرة آلاف. وكانت كثيرات من النساء يقرضن الشعر، ولقد أتمت پان چاو أخت المؤرخ پان كو الموهوبة (حوالى عام ١٠٠ م) تاريخه بعد وفاته ونالت حظوة كبيرة عند الإمبراطور[117].

ولعل قيام نظام الأقطاع فى الصين قد قلل من منزلة المرأة السياسية والاقتصادية فى تلك البلاد؛ وجاء معه بنمط صارم من الأسرة الأبوية. ذلك أن الأبناء الذكور هم وزوجاتهم وأطفالهم كانوا يعيشون فى العادة مع أكبر رجال الأسرة. ومع أن الأسرة كلها كانت تمتلك أرضها امتلاكا مشتركا فإنها كانت تعترف للأب بالسلطان الكامل على الأسرة وعلى أملاكها. فلما أن حل عهد كنفوشيوس كاد سلطان الأب يكون سلطاناً مطلقاً فى جميع الأمور، فكان فى وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً، وإن لم يفعل هذا إلا إذا ألجأته إليه الضرورة القصوى؛ وكان يستطيع إذا شاء أن يقتل أبناءه لا يحول بينه وبين هذا إلا حكم الرأى العام[118]. وكان يتناول طعامه بمفرده لا يدعو زوجته ولا أبناءه إلى المائدة معه إلافى أوقات قليلة نادرة، وإذا مات كان ينتظر من أرملته ألا تتزوج بعده، وكان يطلب إليها فى بداية الأمر أن تحرق نفسها تكريماً له؛ وظلت حوادث من هذا النوع تقع فى الصين إلى أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد[119]. وكان الصينى يجامل زوجته كما يجامل كل إنسان سواها، ولكنه كان فى حياته بعيداً كل البعد عن زوجته وأبنائه كأنه من طبقة غير طبقتهم. وكان النساء يعشن فى أقسام خاصة من المنزل، وقلما كن يختلطن فيه بالرجال، وكانت الحياة الاجتماعية كلها مقصورة على الرجال إلا إذا كانت النساء من الطبقات التى يسمح لأفرادها بالاختلاط بالرجال كالمغنيات والمحدثات ومن إليهن.

وكان الرجل لا يفكر فى زوجته إلا بوصفها أم أبنائه ولا يكرمها لجمالها أو لثقافتها بل لخصوبتها وجدّها وطاعتها ؛ يشهد بذلك ما كتبته السيدة پان هو — پان إحدى بنات الطبقة العليا فى رسالة ذائعة الصيت بعبارات غاية فى التواضع والخضوع تصف فيها المكانة الحقة للمرأة :

نشغل نحن النساء آخر مكان فى الجنس البشرى ، ونحن أضعف قسم من بنى الإنسان ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال ... وما أعدل ما يقوله فى حقنا كتاب قوانين الجنسين وأصدقه : « إذا كان للمرأة زوج يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه طيلة حياتها ؛ وإذا كان للمرأة زوج لا يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه أيضاً طيلة حياتها »[١٢٠] .

ويغنى فوشوان قائلا :

ألا ما أتعس حظ المرأة !
ليس فى العالم كله شىء أقل قيمة منها .
إن الأولاد يقفون متكئين على الأبواب ،
كأنهم آلهة سقطوا من السماء ،
تتحدى قلوبهم البحار الأربعة ،
والرياح والتراب آلاف الأميال ؛
أما البنت فإن أحداً لا يسر بمولدها ،
ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئاً ،
وإذا كبرت اختبأت فى حجرتها ،
تخشى أن تنظر إلى وجه إنسان ،
ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها —
على حين غفلة كما تختفى السحب بعد هطول الأمطار ،
وهى تطأطئ رأسها وتجمل وجهها .

وتعض بأسنانها على شفتيها ،
وتنحنى وتركع مراراً يخطئها الحصر[١٥١] .

قد يكون فى هذه المقتبسات ظلم للبيت الصينى ؛ نعم قد كان فيه خضوع ومذلة ، وكثيراً ما قام فيه النزاع بين الرجل والمرأة وبين بعض الأطفال ، ولكن كان فى البيت أيضاً كثير من الحب والحنان ، وكثير من التعاون والتآزر فى الأعمال المنزلية ، مما يجعل البيت مكاناً طبيعياً ومستقراً صالحاً للأسرة . وكانت المرأة رغم خضوعها للرجل من الناحية الاقتصادية تستمتع بكامل حقها فى استخدام لسانها ، وكان فى وسعها أن تؤنب الرجل حتى يرهبها أو يفر من وجهها كأحسن ما تستطيعه المرأة الغربية فى هذه الأيام . هذا وجدير بنا أن نقول إن الأسرة ذات النظام الأبوى ليس فى مقدورها أن تكون أسرة دمقراطية ، وهى أشد من ذلك عجزاً عن أن يكون جميع أفرادها متساوين فى الحقوق ، وذلك لأن الدولة كانت تترك للأسرة مهمة القيام على النظام الاجتماعى ، ولأن المنزل كان مربى للأطفال ومدرسة ومصنعاً وحكومة فى وقت واحد . ولم يتراخ نظام الأسرة فى أمريكا إلا بعد أن ضعف شأن المنزل فى المدينة ، وقلت أهميته بانتقال واجبات الأسرة إلى المدرسة والمصنع والدولة .

ولقد أثنى كثير من الرحالة أجمل ثناء على الخلق الذى كان ثمرة هذه النظم المنزلية . فإذا صرفنا النظر عن الحالات الشاذة الكثيرة التى تضعف كل حكم عام يمكن أن يصدره الإنسان على أى نظام اجتماعى ، استطعنا أن نقول إن المنزل الصينى العادى كان مثلا يحتذى فى طاعة الأبناء للآباء ، وإخلاصهم ووفائهم لهم ، وفى احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضاً واختيار(*) وكان الصينى يقبل الحكم

(*) توضح الأقاصيص الصينية هذه الصفات توضيحاً فكهاً بما ترويه فى قصة هكوجا اللى كانت أمه تضربه بالسوط كل يوم ولكنه لا يبكى أبداً . لكنه بكى فى يوم من الأيام فى أثناء ضربه ، ولما سئل عن سبب اضطرابه هذا الاضطراب الغير المألوف قال إنه يبكى لأن أمه بعد أن كبرت وضعفت عجزت عن أن تسبب له الأذى بضرباتها(١٣٢) .

الأخلاقية التى جاءت فى اللى — شى أو كتاب الحفلات ، ويعمل بما فيها من آداب اللياقة رغم مشقتها ، وينظم كل ناحية من نواحى حياته حسب ما فيها من قواعد المجاملة العاطفية التى أكسبت أخلاقه من الرقة والسهولة والاتزان والكرامة ما لم ينله أمثاله من الغربيين — فقد يظهر الحمال الذى ينقل الأقذار فى الطرقات من الأدب وحسن التربية واحترام النفس أكثر مما يظهره التاجر الأجنبى الذى باعه الأفيون . ولقد تعلم الصينى فن التراضى والمصالحة واستطاع بذلك أن يستل ضغينة عدوّه المغلوب . ولقد كان فى بعض الأحيان عنيفاً فى قوله ، وكان على الدوام ثرثاراً ، وكثيراً ما تراه قذراً أو ثملا يدمن القمار ويلتهم الطعام التهاماً(*) ، ويميل إلى ابتزاز الأموال العامة وإلى سؤال الناس فى غير إلحاف[١٢٤] ، يعبد إله المال عبادة وثنية مسرفة فى صراحتها[١٢٥] ، ويجرى وراء الذهب جرى الأمريكى كما نراه فى صوره الساخرة ، يستطيع أحياناً أن يكون قاسياً فظا غليظ القلب ، إذا توالت عليه المظالم ثار أحياناً وأقدم على ضروب من السلب والتقتيل فى جماعات كبيرة . ولكنه فى جميع أحواله تقريباً رجل مسالم رحيم ، كثير الاستعداد لمساعدة جيرانه ، يحتقر المجرمين والمحاربين ، مقتصد مجد مثابر على عمله وإن كان لا يعجل فيه ، بسيط فى أسلوب حياته لا يحب التظاهر والتصنع ، شريف إلى حد كبير فى معاملاته التجارية والمالية . وكان من عادته الصبر على النوائب ، يستقبل النعم والنقم على السواء بحكمة ووداعة ، ويتحمل الحرمان والعذاب دون أن يفقد سلطانه على نفسه ، ويصبر عليهما صبر من يرى أن كل شىء مقدّر عليه فى الأزل ، ولا يعطف قط على من يتأفف منهما على مسمع من الناس ، يحزن حزناً صادقاً طويلا على من يموت من أقاربه ، وإذا عجز عن الفرار من الموت بجميع ما لديه من الوسائل واجهه وهو صابر صبر الفلاسفة ؛ وكان

(*) كان الباعة الجوالون يقفون على جوانب الطرق فى كثير من المدن وبيد كل منهم طبق ونرد وقنجان على استعداد لإشباع رغبة المقامر العابر[١٢٥] .

مرهف الشعور بالجمال بقدر ما كان قليل الشعور بالألم ، وكان يزين مدائنه بالنقوش الملونة ويتنعم فى حياته بأرق أنواع الفن .

وإذا شئنا أن نفهم هذه الحضارة حق الفهم كان علينا أن ننسى ، ولو إلى حين ، ما تردت فيه البلاد من فوضى وعجز بسبب ضعفها فى الداخل ، واحتكاكها بمدافع الغرب وآلاته الضخمة القوية ، وأن نراها فى فترة من فترات عزها ومجدها فى عهد أسراء تچو أو فى عهد منج هوانج أوهواى دزونج أوكانج — شى . ذلك أن الصينى فى تلك الأيام أيام حب الجمال كان يمثل بلا ريب أرق المدنيات وأنضج الثقافات اللتين شهدتهما آسية أو إن شئت فقل أية قارة من القارات .

الفصل السادس

حكومة يثنى عليها ڤلتير(١٢٦)

الفرد المغمور – الحكم الذاتى – القرية والإقليم – تراخى القانون – صرامة العقاب – الإمبراطور – الرقيب – المجالس الإدارية – الإعداد للمناصب العامه – الترشيح بالتعليم – نظام الامتحانات – عيوبه – وفضائله

إن أكثر ما يروعنا فى هذه الحضارة هو نظام حكومتها . وإذا كانت الدولة المثالية هى التى تجمع بين الدمقراطية والأرستقراطية فإن الصينيين قد أنشأوا هذه الدولة منذ ألف عام أو تزيد ؛ وإذا كانت خير الحكومات هى أقلها حكما ، فقد كانت حكومة الصين خير حكومات العالم على الإطلاق . ولم يشهد التاريخ قط حكومة كان لها رعايا أكثر من رعايا الحكومة الصينية أو كانت فى حكمها أطول عهداً وأقل سيطرة من تلك الحكومة .

لسنا نقصد بهذا أن النزعة الفردية أو الحرية الفردية كان لها شأن عظيم فى بلاد الصين ؛ ذلك أن فكرة الفردية كانت ضعيفة فى تلك البلاد وأن الفرد كان مغموراً فى الجماعات التى ينتمى إليها . فقد كان أولا عضواً من أعضاء أسرة ، ووحدة عابرة فى موكب الحياة بين أسلافه وأخلافه ؛ وكانت القوانين والعادات تحمله تبعة أعمال غيره من أفراد أسرته كما يحملون هم تبعة أعماله ؛ وكان فضلا عن هذا ينتمى عادة إلى جمعية سرية ، وإذا كان من سكان الحواضر فإنه ينتمى إلى نقابة من نقابات الحرف .

وهذه كلها أمور تحد من حقه فى أن يفعل ما يشاء . وكان يحيط به فضلا عن هذا طائفة من العادات القديمة ويهدده رأى عام قوى بالطرد من البلاد إذا خرج على أخلاق الجماعة أو تقاليدها خروجاً خطيراً . وكانت قوة هذه النظم

الشعبية التى نشأت بطبيعتها من حاجات الناس وتعاونهم الاختيارى هى التى أمكنت الصين من أن تحتفظ بنظامها واستقرارها رغم ما يشوب القانون والدولة من لين وضعف .

ولكن الصينيين ظلوا أحراراً من الناحيتين السياسية والاقتصادية فى داخل هذا الإطار من نظم الحكم الذاتى التى أقاموها بأنفسهم لأنفسهم .

لقد كانت المسافات الشاسعة التى تفصل كل مدينة عن الأخرى ، وتفصل المدن كلها عن عاصمة الإمبراطورية ، والجبال الشامخة والصحارى الواسعة والمجارى التى تتعذر فيها الملاحة أو لا تقوم عليها القناطر ، وانعدام وسائل النقل والاتصال السريع ، وصعوبة تموين جيش كبير يكفى لفرض سلطان الحكومات المركزية على شعب تبلغ عدته أربعمائة مليون من الأنفس — كانت هذه كلها عوامل تضطر الدولة لأن تترك لكل إقليم من أقاليمها استقلالا ذاتيا يكاد يكون كاملا من كل الوجوه .

وكانت وحدة الإدارة المحلية هى القرية ، يحكمها حكما متراخياً رؤساء العشائر بإشراف « زعيم » منهم ترشحه الحكومة . وكانت كل طائفة من القرى مجتمعة حول بلدة كبيرة تؤلف « بينا » أى مقاطعة بلغت عدتها فى الصين نحو ألف وثلثمائة . ويتألف من كل بينين أو أكثر تحكمهما معاً مدينة « فو » ومن كل فوين أو ثلاثة « داو » أى دائرة ، ومن كل داوين أو أكثر « شنج » أى إقليم . وكانت الإمبراطورية فى عهد المنشو تتألف من ثمانية عشر من هذه الأقاليم .

وكانت الدولة تعين من قبلها موظفاً فى كل بين يدير شئونه ، ويجبى ضرائبه ، ويفصل فى قضاياه ، وتعين موظفاً آخر فى كل فو وآخر فى كل داو ؛ كما تعين قاضياً ، وخازناً لبيت المال ، وحاكما ، ونائباً للإمبراطور أحياناً فى كل إقليم (١٢٧) . ولكن هؤلاء الموظفين كانوا يقنعون أحياناً بجباية الضرائب والفروض الأخرى

والفصل فى المنازعات التى يعجز المحكمون عن تسويتها بالحسنى ، ويتركون حفظ النظام لسلطان العادة وللأسرة والعشيرة والنقابة الطائفية . وكان كل إقليم ولاية شبه مستقلة لا تتدخل الحكومة الإمبراطورية فى أعمالها ، ولا تفرض عليها شرائعها طالما كانت تدفع حصتها من الضرائب وتحافظ على الأمن والنظام فى داخل حدودها . وكان انعدام وسائل الاتصال السهلة مما جعل الحكومة المركزية فكرة معنوية أكثر منها حقيقة واقعية . ومما جعل عواطف الأهلين الوطنية تنصرف فى دوائرهم وأقاليمهم ، ولا تتسع إلا فى القليل النادر حتى تشمل الإمبراطورية بوجه عام .

وفى هذا البناء غير المحكم كان القانون ضعيفاً ، بغيضاً ، متبايناً . وكان الناس يفضلون أن تحكمهم عاداتهم وتقاليدهم ، وأن يسووا نزاعهم بالتراضى خارج دور القضاء . وكانوا يعبرون عن آرائهم فى التقاضى بمثل هذه الحكم والأمثال القصيرة القوية : « قاض برغوثاً يعضك » و « اكسب قضيتك تخسر مالك » . وكانت تمر عدة سنين على كثير من المدن التى تبلغ عدة أهلها آلافاً مؤلفة لا ترفع فيها قضية واحدة إلى المحاكم[١٢٨] . وكانت قوانين البلاد قد جمعت فى عهد أباطرة تانج ولكنها كلها اقتصرت تقريباً على الجرائم ولم تبذل محاولات جدية لوضع قانون مدنى . وكانت المحاكمات بسيطة سهلة لأن المحامى لم يكن يسمح له بمناقشة الخصم داخل المحكمة ، وإن كان فى استطاعة كتاب مرخصين من الدولة أن يعدوا فى بعض الأحيان تقارير بالنيابة عن المتقاضين ويتلوها على القاضى[١٢٩] . ولم يكن هناك نظام للمحلفين ، ولم يكن فى نصوص القوانين ما يحمى الفرد من أن يقبض عليه موظفو الدولة على حين غفلة ويعتقلوه . وكانت تؤخذ بصمات أصابع المتهمين[١٣٠] ، ويلجأ أحياناً إلى تعذيبهم لكى يقروا بجرائمهم ، ولم يكن هذا التعذيب الجسمى ليزيد إلا قليلا على ما يتبع الآن لهذا الغرض عينه فى أكثر المدن رقياً . وكان العقاب صارماً ، وإن لم يكن أشد وحشية مما كان فى معظم

بلاد القارة الأسيوية ؛ وكان أوله قص الشعر ويليه الضرب ثم النفي من البلاد ثم الإعدام . وإذا كان المتهم ذا فضائل غير معهودة ، أو كان من طبقة راقية ، سمح له أن ينتحر[١٣١] . وكانت العقوبات تخفف أحياناً تخفيفاً كريماً ، وكان حكم الإعدام لا يصدر في الأوقات العادية إلا من الإمبراطور نفسه . وكان الناس جميعاً من الناحية النظرية سواسية أمام القانون ، شأنهم في هذا كشأننا نحن في هذه الأيام . ولكن هذه القوانين لم تمنع السطو في الطرق العامة أو الارتشاء في وظائف الدولة ودور القضاء ، غير أنها كان لها قسط متواضع في معاونة الأسرة والعادات الموروثة على أن تهب الصين درجة من النظام الاجتماعي والأمن والاطمئنان الشخصي لم تضارعها فيها أمة أخرى قبل القرن العشرين[١٣٢] .

وكان الإمبراطور يشرف على هذه الملايين الكثيرة من فوق عرشه المزعزع ، وكان يحكم من الوجهة النظرية بحقه المقدس ؛ فقد كان هو « ابن السماء » وممثل الكائن الأعلى(*) في هذه الأرض . وبفضل سلطانه الإلهي هذا كانت له السيطرة على الفصول ، وكان يأمر الناس أن يوفقوا بين أعمالهم وبين النظام السماوي المسيطر على العالم ، وكانت كلمته هي القانون وأحكامه هي القضاء الذي لا مرد له . وكان المدبر لشئون الدولة ورئيس دياناتها ، يعين جميع موظفيها ، ويمتحن المتسابقين لأعلى مناصبها ، ويختار من يخلفه على العرش . لكن سلطانه كان يحده من الوجهة العملية القانون والعادات المرعية ، فكان ينتظر منه أن يحكم من غير أن يخرج على النظم التي انحدرت من الماضي المقدس . وكان معرضاً في أي وقت لأن يعزَّر على يد رجل ذي مقام كبير يسمى بالرقيب ؛ وكان في واقع الأمر محوطاً بحلقة قوية من المستشارين والمبعوثين من مصلحته أن يعمل بمشورتهم ، وإذا ظلم أو فسد حكمه خسر بحكم العادات المرعية وباتفاق أهل الدولة « تفويض السماء » ، وأمكن

(*) ومن أجل هذا كانت مملكته تسمى أحياناً تيان — شان أي التي « تحكمها السماء » : وقد ترجم الأوروبيون هذه العبارة « بالمملكة السماوية » وسموا الصينيين حذلقة باسم « السماويين » .

خلعه بالقوة من غير أن يعد ذلك خروجاً على الدين أو الأخلاق .

وكان الرقيب رئيس مجلس مهمته التفتيش على جميع الموظفين فى أثناء قيامهم بواجباتهم ، ولم يكن الإمبراطور نفسه بمنجاة من إشرافه . وقد حدث مراراً فى تاريخ الصين أن عزر الرقيب الإمبراطور نفسه . من ذلك أن الرقيب سونج أشار على الإمبراطور چياه تشنج (١٧٩٦ — ١٧٢١) بالاحترام اللائق بمقامه العظيم طبعاً ، أن يراعى جانب الاعتدال فى صلاته بالمثلين وبتعاطى المسكرات فما كان من چياه تشنج إلا أن استدعى سونج للمثول أمامه وسأله وهو غاضب أى عقاب يليق أن يوقع على من كان موظفاً وقحاً مثله ، فأجابه سونج : « الموت بتقطيع جسمه إرباً » ولما أمره الإمبراطور باختيار عقاب أخف من هذا أجابه بقوله : « إذن فليُقطع رأسى » فطلب إليه مرة أخرى أن يختار عقاباً أخف فاختار أن يقتل خنقاً . وأعجب الإمبراطور بشجاعته وخشى وجوده بالقرب منه فعينه حاكما على إقليم إيلى[(١٣٤)] .

وأضحت الحكومة المركزية على مرّ الزمن أداة إدارية شديدة التعقيد . وكان أقرب الهيئات إلى العرش المجلس الأعلى ، ويتكون من أربعة « وزراء كبار » يرأسهم فى العادة أمير من أمراء الأسرة المالكة . وكان يجتمع بحكم العادة فى كل يوم فى ساعات الصباح المبكرة لينظر فى شئون الدولة السياسية . وكان يعلو عليه فى المنزلة ، ولكن يقل عنه فى السلطان ، هيئة أخرى من المستشارين يسمون « بالديوان الداخلى » . وكان يشرف على الأعمال الإدارية « ستة مجالس » للشئون المدنية ، والدخل ، والاحتفالات ، والحرب ، والعقوبات ، والأشغال العامة ؛ وكان ثمة إدارة للمستعمرات تصرف شئون الأقاليم النائية مثل منغوليا ، وسنكيانج ، والتبت ، ولكنها لم تكن لها إدارة للشئون الخارجية لأن الصين لم تكن تعترف بأن فى العالم دولة مساوية لها ، ومن أجل ذلك لم تنشئ فى

بلادها هيئة للاتصال بها غير ما وضعته من النظم لاستقبال البعوث التى تحمل لها الخراج .

وكان أكبر أسباب ضعف الحكومة قلة مواردها، وضعف وسائل الدفاع عن أراضيها، ورفضها كل اتصال بالعالم الخارجي يعود عليها بالنفع. لقد فرضت الضرائب على أراضيها ، واحتكرت بيع الملح ، وعطلت نماء التجارة بما فرضته بعد عام ١٨٢١ من عوائد على انتقال البضائع على طرق البلاد الرئيسية ، ولكن فقر السكان ، وما كانت تعانيه من الصعاب فى جباية الضرائب والمكوس ، وما يتصف به الجباة من الخيانة ، كل هذا قد ترك خزانة الدولة عاجزة عن الوفاء بحاجات القوى البحرية والبرية التى كان فى وسعها لولا هذا العجز أن تنقذ البلاد من مذلة الغزو والهزيمة(*). ولعل أهم أسباب هزائمها هو فساد موظفى حكومتها ؛ ذلك أن ما كان يتصف به موظفوها من جدارة وأمانة قد ضعف فى خلال القرن التاسع عشر ، فأضحت البلاد تعوزها الزعامة الرشيدة فى الوقت الذى كان فيه نصف ثروة العالم ونصف قواه يتجمعان لسلب استقلالها ، وانتهاب مواردها ، والقضاء على أنظمتها .

بيد أن أولئك الموظفين كانوا يختارون بوسيلة لا مثيل لها فى دقتها ، وتعد فى جملتها أجدر وسائل الاختيار بالإعجاب والتقدير ، وخير ما وصل إليه العالم من الوسائل لاختيار الخدام العموميين . لقد كانت وسيلة جديرة بإعجاب أفلاطون ، ولا تزال رغم عجزها وتخلى الصين عنها تقرب الصين إلى قلوب الفلاسفة . وكانت

(*) بلغ متوسط دخل الخزانة الإمبراطورية فى أواخر القرن الماضى نحو ٧٥ مليوناً من الدولارات الأمريكية فى العام ، ويضاف إليها من الإيرادات التى تجمع للأغراض المحلية ١٧٥ مليوناً أخرى(١٣٦) ، وإذا وازنا بين هذه الإيرادات التى لا غنى عنها لاستتباب الأمن والنظام وبين ال ١٥٠ مليوناً من الدولارات التى فرضتها اليابان على الصين غرامة حربية فى عام ١٨٩٤ والغرامة التى فرضها عليها الحلفاء بعد حرب الملاكين لم تكن مسألة انهيار الصين فى نظرنا أكثر من مسألة حسابية .

هذه الطريقة من الناحية النظرية توفق أحسن التوفيق بين المبادئ الأرستقراطية والدمقراطية : فهى تمنح الناس جميعاً فرصة متكافئة لإعداد أنفسهم للمناصب العامة ، ولكنها لا تفتح أبواب المناصب إلا لمن أعدوا أنفسهم لها . ولقد أنتجت خير النتائج من الوجهة العملية مدى ألف عام .

وكانت بداية الطريقة فى مدارس القرى — وهى معاهد خاصة ساذجة لا تزيد قليلا على حجرة واحدة فى كوخ صغير — يقوم فيها معلم واحد بتعليم أبناء سراة القرية تعليما أوليًا ينفق عليه بما يؤديه هؤلاء الأبناء من أجر ضئيل . أما النصف الفقير من السكان فقد ظل أبناؤه أميين[١٣٧] . ولم تكن الدولة هى التى تنفق على تلك المدارس ، ولم يكن الكهنة هم الذين يديرونها ، ذلك أن التعليم قد بقى فى الصين ، كما بقى الزواج فيها ، مستقلا عن الدين لا صلة بينهما سوى أن الكنفوشية كانت عقيدة المعلمين . وكانت أوقات الدراسة طويلة كما كان النظام صارما فى هذه المدارس المتواضعة . فكان الأطفال يأتون إلى المعلم فى مطلع الشمس ويدرسون معه حتى الساعة العاشرة . ثم يفطرون ويواصلون الدرس حتى الساعة الخامسة ، ثم ينصرفون بقية النهار . وكانت العطلات قليلة العدد قصيرة الأجل ، وكانت الدراسة تعطل بعد الظهر فى فصل الصيف ، ولكن هذا الفراغ الذى كان يصرف فى العمل فى الحقول كان يعوض بفصول مسائية فى ليالى الشتاء . وكان أهم ما يتعلمه الأطفال كتابات كنفوشيوس وشعر تانج ؛ وكانت أداة المعلم عصا من الخيزران . وكانت طريقة التعليم الحفظ عن ظهر قلب ؛ فكان الأطفال الصغار يواصلون حفظ فلسفة المعلم كونج ، ويناقشون فيها مدرسهم ، حتى ترسخ كل كلمة من كلماته فى ذاكرتهم ، وحتى يستقر بعضها فى قلوبهم . وكانت الصين تأمل أن يتمكن جميع أبنائها ، ومنهم الزراع أنفسهم ، بهذه الطريقة القاسية الخالية من اللذة أن يصبحوا فلاسفة وسادة مهذبين ،

وكان الصبي يخرج من المدرسة ذا علم قليل وإدراك كبير ، جاهلا بالحقائق ناضج العقل(*).

وكان هذا التعليم هو الأساس الذى أقامت عليه الصين - فى عهد أسرة هان على سبيل التجربة وفى عهد أسرة تانج بصفة نهائية — نظام تولى المناصب العامة بالامتحان . ومن أقوال الصينيين فى هذا : إن من أضر الأمور بالشعب أن يتعلم حكامه طرق الحكم بالحكم نفسه ، وإن من واجبهم كلما استطاعوا أن يتعلموا طرق الحكم قبل أن يحكموا ، ومن أضر الأمور بالشعب أن يحال بينه وبين تولى المناصب العامة وأن يصبح الحكم امتيازاً تتوارثه فئة قليلة من أبناء الأمة ؛ ولكن من الخير للشعب أن تقصر المناصب على من أعدوا لها بفضل مواهبهم وتدريبهم . وكان الحل الذى عرضته الصين لمشكلة الحكم القديمة المستعصية هى أن نتيح لكل الرجال دمقراطيا فرصاً متكافئة لأن يدربوا هذا التدريب ، وأن تقصر الوظائف أرستقراطيا على من يثبتون بأنهم أليق الناس لأن يتولوها . ومن أجل هذا كانت تعقد فى أوقات معينة امتحانات عامة فى كل مركز من المراكز يتقدم إليها كل من شاء من الذكور متى كانوا فى سن معينة .

وكان المتقدم إلى الامتحان يمتحن فى قوة تذكره وفهمه لكتابات كنفوشيوس وفى مقدار ما يعرف من الشعر الصينى ومن تاريخ الصين ، وفى قدرته على أن يكتب أبحاثاً فى السياسة والأخلاق كتابة تدل على الفهم والذكاء . وكان فى وسع من يخفق فى الامتحان أن يعيد الدرس ويتقدم إليه مرة أخرى ، ومن نجح مُنح درجة شيو دزاى التى تؤهله لأن يكون عضواً فى طبقة الأدباء ولأن يعيّن فى

(*) وكان فى وسع الأطفال بعد أن يتموا الدراسة فى هذه المدارس أن يلتحقوا بإحدى كليات الدولة القليلة العدد الفقيرة فى أدواتها واستعدادها . ولكنهم كانوا فى أكثر الأحيان يتلقون العلم على مدرسين خصوصيين أو يواصلون الدرس فى منازلهم فى عدد قليل من الكتب الثمينة وكان الموسرون فى بعض الأحيان يعينون الفقراء من الطلاب على مواصلة الدرس فى هذه الكليات على أن يكون ما ينفق عليهم فرضاً يؤدونه مع فوائده حين يعينون فى منصب من المناصب ويستطيعون أن « يبتزوا » الأموال من الناس .

المناصب الصغرى فى الحكومة الإقليمية ؛ وأهم من هذا أن يكون من حقه أن يتقدم إما مباشرة أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر يعقد فى الأقاليم كل ثلاث سنوات شبيه بالأول ولكنه أصعب منه . ومن أخفق فيه جاز أن يتقدم إليه مرة أخرى . وكان يفعل ذلك كثيرون من المتقدمين فكان يجتازه فى بعض الأحيان رجال جاوزوا الثمانين وظلوا طول حياتهم يدرسون ، وكثيراً ما مات الناس وهم يتأهبون لدخول هذه الامتحانات . وكان الذين ينجحون يُختارون للوظائف الحكومية الصغرى ، كما كان من حقهم أن يتقدموا للامتحان النهائى الشديد الذى يعقد فى بيكين . وكان فى تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوى على عشرة آلاف حجرة انفرادية يقضى فيها المتسابقون ثلاثة أيام منفرقة فى عزلة تامة ، ومعهم طعامهم وفراشهم ، يكتبون مقالات أو رسائل فى موضوعات تعلن لهم بعد دخولها . وكانت هذه الغرف خالية من وسائل التدفئة والراحة ، رديئة الإضاءة غير صحية لأن الروح لا الجسم — فى رأيهم — هى التى يجب أن تكون موضع الاهتمام ! وكان من الموضوعات المألوفة فى هذه الامتحانات أن ينشئ المتقدم قصيدة فى : « صوت المجاديف والتلال الخضراء والماء » ، وأن يكتب مقالا عن الفقرة الآتية من كتابات كنفوشيوس . قال دزانج دزى : « من يك ذا كفاية ويسأل من لا كفاية له ؛ ومن يك ذا علم كثير ويسأل من لا يعلم إلا القليل ؛ ومن يملك ثم يتظاهر بأنه لا يملك ؛ ومن يمتلئ ثم يبد أنه فارغ » . ولم يكن فى أى امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الأعمال التجارية أو الصناعية ، لأنها لم تكن تهدف إلى تبين علم الرجل بل كانت ترمى إلى معرفة ما له من حكم صادق وخُلُق قويم وكان كبار موظفى الدولة يُختارون من الناجحين فى هذا الامتحان النهائى .

وتبين على مر الزمن ما تنطوى عليه هذه الطريقة من عيوب . فقد وجد الغش سبيله إلى الحكم على الامتحان ، وإن كان الغش فى الامتحان أو فى

تقديره يعاقب عليه أحياناً بالإعدام . وأصبح شراء الوظائف بالمال كثيراً متفشياً في القرن التاسع عشر (١٣٨) ، من ذلك أن موظفاً صغيراً باع عشرين ألف شهادة مزورة قبل أن يكشف أمره (١٣٩) . ومنها أن صورة المقالة التي تكتب في الامتحان أصبحت صورة عادية معروفة يعد المتسابقون أنفسهم لها إعداداً آليا .

كذلك كان منهج الدراسة ينزع إلى الهبوط بالثقافة إلى الصور الشكلية دون اللباب ، ويحول دون الرقي الفكري لأن الأفكار التي كانت تتداول في هذه المقالات قد تحددت وتعينت خلال مئات السنين . وكان من آثارها أن أصبح الخريجون طبقة ديوانية (بيروقراطية) ذات عقلية رسمية متعجرفة بطبيعتها ، أنانية ، مستبدة في بعض الأحيان ، وفاسدة في كثير من الأحوال ؛ لا يستطيع الشعب مع ذلك أن يعزلها أو يشرف على أعمالها ، إلا إذا لجأ بعد يأسه إلى الطريقة الخطرة طريقة الإضراب عن طاعتها أو مقاطعتها وعدم التعامل معها . وقصارى القول أن هذا النظام كان ينطوي على كل العيوب التي يمكن أن ينطوي عليها أي نظام حكومي يبتدعه ويسيره بنو الإنسان ؛ فعيوبه هي عيوب القائمين عليه لا عيوب النظام نفسه ، وليس ثمة نظام آخر لم يكن فيه من العيوب ما في هذا النظام (*) .

أما مزاياه فهي كثيرة : فهو بريء من طريقة الترشيح وما يؤثر فيها من تيارات خفية ؛ وليس فيه مجال للمساعي الدنيئة وللنفاق والخداع في تصوير النتائج ، ولا تدور فيه المعارك الصورية بين الأحزاب ، ولا يتأثر بالانتخابات الفاسدة ذات الجلبة والضجيج ، ولا يتيح الفرصة لتسنم المركز الرفيع عن طريق الشهرة الزائفة . لقد كانت الحكومة القائمة على هذا النظام حكومة دمقراطية بأحسن ما لهذا اللفظ من معان ، لأنها تتيح للناس جميعاً فرصاً متكافئة للتنافس على الزعامة وعلى المناصب الرفيعة . وكانت أرستقراطية في أحسن صورها ، لأنها

(*) يقول الدكتور لاتورت : « قل أن توجد مجموعة كبيرة من بني الإنسان عاشت في رخاء وعاشت قانعة كما عاش الصينيون تحت سيطرة أداتهم الحكومية حين كان يشرف عليها أقدر ملوكهم » . وكان هذا الرأي أيضاً رأي العالم الكبتن برنكلي (١٤٠)

حكومة يتولاها أقدر الرجال الذين اختيروا اختياراً دمقراطياً من بين جميع طبقات الشعب ومن كل جيل . وبفضل هذه الطريقة وجهت عقول الأمة ومطامعها وجهة الدرس والتحصيل ، وكان أبطالها الذين تقتدى بهم هم رجال العلم والثقافة لا سادة المال(*) .

ولقد كان جديراً بالإعجاب أن يجرب مجتمع من المجتمعات أن يحكمه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية رجال أعدوا للحكم بتعلم الفلسفة والعلوم الإنسانية ولذلك كان من شر المآسى أن تنقض قوى التطور والتاريخ القاسية التى لا ترحم ولا تلين على ذلك النظام الفذ وعلى جميع معالم الحضارة التى كان هو أهم عناصرها فتدمرها تدميرا .

(*) يقول السير ربرت هارت : « يعبد الصينيون المواهب العقلية ، ويبتهجون بالآداب ويقيمون فى كل نوادى صغيرة للتعلم والدرس ولمناقشة مقالاتهم وأشعارهم »

الباب السابع والعشرون

الثورة والتجديد

الفصل الأول

الخطر الأبيض

النزاع بين آسية وأوربا — البرتغاليون — الأسبان — الهولنديون — الإنجليز — تجارة الأفيون — حروب الأفيون — فتنة تنج تاى — منج — حرب اليابان — محاولة تمزيق الصين — « الباب المفتوح » — الإمبراطورة الوالدة — إصلاحات كوانج شو — عزله — الملاكون — الغرامة الحربية

اتخذت هذه القوى شكل الانقلاب الصناعى . فقد نشطت أوربا وتجدد شبابها على أثر كشف القوى الآلية واستخدامها فى صنع الآلات ومضاعفة الإنتاج . وما لبثت أوربا أن وجدت نفسها قادرة على إنتاج سلع أرخص من التى تنتجها أية أمة أو قارة ، ظلت تعتمد على الصناعات والحرف اليدوية ، وعجزت أوربا عن تصريف منتجات آلاتها بين سكانها لأنها كانت تؤدى لعمالها أجوراً أقل بعض الشىء من القيمة الكاملة لجهودهم ، واضطرت من أجل ذلك إلى البحث عن أسواق خارجية لتصرف فيها ما زاد من منتجاتها على حاجتها ، فكان لا بد لها أن تستعمر ودفعها الاستعمار إلى الحروب . وأصبح القرن التاسع عشر ، بحكم الظروف القائمة فيه وبدافع الاختراعات الكثيرة التى تعاقبت فى خلاله ، لا ينقطع فيه النزاع بين ما كان فى آسية من حضارة قديمة ناضجة منهوكة ، وما قام فى أوربا الصناعية من حضارة فتية ، قوية منهومة .

وكان الانقلاب التجارى الذى حدث فى أيام كولمب هو الذى أفسح الطريق ومهد السبيل للانقلاب الصناعى ، فقد كشف الرحالة عن أراضى قديمة ، وفتحوا ثغوراً جديدة ، ونقلوا إلى الثقافات القديمة منتجات الغرب وأفكاره . وكان البرتغاليون المغامرون فى أوائل القرن السادس عشر قد استولوا على جزائر ملقا ، وكانوا من قبل قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الهند ، ثم طافوا حول شبه جزيرة الملايو ، ووصلوا بسفائنهم الجميلة ومدافعهم الرهيبة إلى كانتون (١٥١٧) .

وكان أولئك القادمون خلقاً متوحشين لا يخضعون لقانون ، ويعدون كل الشعوب الشرقية فريسة مشروعة مباحة لهم ، ولم يكونوا يفترقون إلا قليلا عن القراصنة ... إن كان بين هؤلاء وبينهم فرق على الإطلاق[١] . . ، وعاملهم الصينيون معاملة القراصنة فألقوا بممثليهم فى السجون ، ورفضوا ما عرضوه عليهم من تجارة حرة ، وكثيراً ما طهّر الصينيون الغضاب الحانقون الأحياء التى استقر فيها البرتغاليون بذبح ساكنيها . ولكن البرتغاليين أعانوا الصينيين على قتال غيرهم من القراصنة ، فكان جزاؤهم على هذه المعونة أن منحتهم بيكين حق الإقامة فى مكاو وحكمها كأنها ملك لهم ، فشادوا فى تلك المدينة مصانع كبيرة لصنع الأفيون ، وأجازت لهم أن يستخدموا فى هذه المصانع الرجال والنساء والأطفال . ودرت عليهم هذه الصناعة أرباحاً عظيمة يكفى لمعرفة مقدارها أن نقول إن مصنعاً واحداً كان يعود على الحكومة البرتغالية التى أنشئت فى هذا الإقليم بربح مقداره ١٫٥٦٠٫٠٠٠ دولار فى كل عام[٢] .

ثم جاء الأسبان وفتحوا جزائر الفلبين فى عام ١٥٧١ واستقروا فى جزيرة فرموزا الصينية ؛ وأعقبهم الهولنديون ، وفى عام ١٦٣٧ أقبلت خمس سفن إنجليزية وصعدت فى النهر إلى كانتون ، وأسكتت بمدافعها القوية المدافع التى قاومتها ، وأنزلت فى المدينة بضائعها[٣] . وعلم البرتغاليون الصينيين شراء الدخان وشربه ، ثم بدأ فى مستهل القرن الثامن عشر استيراد الأفيون من الهند إلى الصين . وحرمت

الحكومة الصينية على الشعب تعاطى الأفيون ، ولكن عادة تعاطيه انتشرت انتشار النار فى الهشيم حتى بلغ ما استورد منه إلى الصين فى عام ١٧٩٥ أربعة آلاف صندوق(*) . وحرمت الحكومة استيراده فى تلك السنة وكررت هذا التحريم فى عام ١٨٠٠ ولجأت إلى المستوردين وإلى الأهلين على السواء تبين لهم ما لهذا المخدر القوى من أثر فى إضعاف حيوية الأمة . ولكن تجارة الأفيون لم تنقطع رغم هذا التحريم ، ولم تكن رغبة الصينيين فى شرائه أقل من رغبة الأوربيين فى بيعه ، ولم يجد الموظفون حرجاً فى تناول الرشاوى التى كانت تقدم إليهم ليتغاضوا عن أوامر التحريم بل كانوا يتقبلونها شاكرين .

وأصدرت حكومة بيكين فى عام ١٨٣٨ أمراً ما تشديد فى تنفيذ قرار تحريم استيراد الأفيون ، وجاء موظف قوى يدعى لن تزه — شو فأمر من فى كانتون من المستوردين الأجانب أن يسلموا ما فى مخازنهم منه . فلما أبوا حاصر الأحياء الأجنبية وأرغمهم على أن يسلموه عشرين ألف صندوق من هذا المخدر ، ثم أقام فى كانتون شبه حفلة أفيونية أتلف فيها هذه الكمية كلها . وعلى أثر هذا انسحب البريطانيون إلى هنج كنج وبدأت « حرب الأفيون » الأولى . وقال الإنجليز إن الحرب لم تكن حرب أفيون ، بل كان سببها أنهم غضبوا لما أظهرته الحكومة الصينية من قحة وغطرسة فى استقبالها ممثليهم أو برفضها استقبالهم ، وما وضعته أمامهم من عقبات فى صورة ضرائب باهظة ومحاكم فاسدة مرتشية أقامتها القوانين والعادات الصينية تعطل بها تجارة منظمة مشروعة . وأطلقوا المدافع على المدن الصينية التى كان فى وسعهم أن يصلوا إليها من الشاطئ ، وأرغموا الصين على طلب الصلح باستيلائهم على مصب القناة الكبيرة عند شنكيانج . ولم تذكر معاهدة نانكنج شيئاً عن الأفيون ، وتخلت الصين بمقتضاها عن هنج كنج إلى

(*) يمكن تقدير ثمن هذه الكمية إذا ذكرنا أن قطعة من الأفيون يتسع لها جيب صديرية الرجل يبلغ ثمنها ثلاثين دولاراً .

البريطانيين ، وأرغمت الصين على تخفيض الضرائب إلى ٥ ٪ ، وفتحت للتجارة الأجنبية خمسة « ثغور معاهدات » (كانتون ، وأموى ، وفوتشو ، وتنجبو ، وشنغهاى) ، وفرضت على الصين غرامة حربية لتغطية نفقات الحرب وما أتلفته من أفيون ، واشترطت أن يحاكم الرعايا البريطانيون فى الصين ، إذا اتهموا بمخالفة قوانين البلاد ، أمام محاكم بريطانية(٥) . وطلبت عدة دول أخرى منها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا أن تطبق هذه « الامتيازات الأجنبية » على تجارها ورعاياها المقيمين فى الصين وأجيبت إلى طلبها .

وكانت هذه الحرب بداية انحلال النظام القديم . ذلك أن الحكومة خذلت أشد الخذلان فى نزاعها مع الأوربيين ، فقد سخرت منهم أولا ، ثم تحدتهم بعدئذ ، ثم خضعت لهم آخر الأمر ، ولم تفد الألفاظ الظريفة المعسولة فى إخفاء الحقائق عن الوطنيين المتعلمين أو الأجانب المتربصين .

وسرعان ما ضعف سلطان الحكومة فى كل مكان تسربت إليه أخبار هزيمتها ، وما لبثت القوى التى كانت من قبل صامتة خاضعة — والتى كانت تظل صامتة خاضعة لولا هذه الهزيمة — ما لبثت هذه القوى أن ثارت علناً على حكومة بيكين . من ذلك أن وطنيا متحمساً يدعى هونج سيو — شوان ، بعد أن تعلم طرفاً من البروتستنتية وتراءت له بعض الخيالات الوهمية ، اعتقد فى عام ١٨٤٣ أن الله قد اختاره ليطهر الصين من عبادة الأوثان ويحولها إلى المسيحية . وبعد أن بدأ هونج عمله بهذه الدعوة المتواضعة تزعم آخر الأمر حركة ترمى إلى القضاء على أسرة المنشو الحاكمة وإيجاد أسرة جديدة هى أسرة التاى بنج أى السلم العظيم ، وحارب أتباعه حرب الأبطال البواسل يحدوهم التعصب الدينى من جهة والرغبة فى إصلاح الصين على غرار الدول الأوربية من جهة أخرى ، وحطموا الأصنام ، وقتلوا المخالفين من الصينيين ، وأتلفوا كثيراً من دور الكتب والمجامع العلمية القديمة ومصانع الخزف القائمة فى چنج ده — چن ، واستولوا على نانكنج وظلت فى

أيديهم اثنتى عشرة سنة (١٨٥٣ — ٦٥)، وزحفوا على پيكين وزعيمهم من خلفهم فى مأمن من الأعداء منغمس فى ترفه وملذاته؛ ولـكنهم هزموا وتشتتوا لعجز قادتهم، وارتدوا إلى أحضان إخوانهم مئات الملايين الصينيين(٦).

وبينما كانت فتنة تاى — پنج الصماء تمزق الصين وتقطع أوصالها اضطرت الحكومة إلى مواجهة أوربا مرة أخرى فى « حرب الأفيون » الثانية (١٨٥٦ — ١٨٦٠). وكان سببها أن بريطانيا العظمى، تعاونها فرنسا والولايات المتحدة معاونة تقوى تارة وتضعف تارة أخرى، طلبت إلى الصين أن تجعل تجارة الأفيون تجارة مشروعة (وكانت هذه التجارة قد ظلت قائمة بين الحربين رغم ما صدر من الأوامر بتحريمها)، وأن تسمح لها بالدخول فى مدن جديدة غير التى كانت قد سمح لها بدخولها، وأن يستقبل الرسل الغربيون بما يليق بهم من التكريم فى بلاط پيكين. فلما رفض الصينيون هذه المطالب استولى البريطانيون والفرنسيون على كانتون، وأرسلوا حاكمها مقيداً بالأغلال إلى الهند، واقتحموا حصون تينتسين وزحفوا على العاصمة، ودمروا القصر الصيفى انتقاماً لما نال مبعوثى الحلفاء من تعذيب وقتل على يد الصينيين فى پيكين. وأملى الغزاة الظافرون على المهزومين معاهدة فتحت لهم بمقتضى شروطها ثغور جديدة كما فتح نهر چنج — دزه للتجارة الأجنبية، وحددت طريقة لاستقبال الوزراء الأمريكيين والأوربيين فى الصين على قدم المساواة مع الوزراء الصينيين، ووضعت الضمانات القوية لسلامة المبشرين والتجار الأجانب والسياح لهم بممارسة نشاطهم فى جميع أجزاء الصين، وأخرجت البعثات التبشيرية من اختصاص المحاكم والموظفين. وزادت فى امتيازات أبناء الأمم الغربية وتحررهم من الخضوع لقوانين البلاد، وأعطت بريطانيا قطعة من الأرض مقابلة لمنچ كنج؛ وجعلت استيراد الأفيون عملا مشروعاً، وفرضت على الصين غرامة حربية لينفق منها على إخضاعها لسلطان الغربيين وتدريبها على أساليبهم.

وشجعت الأمم الأوربية انتصاراتُها السهلة فأخذت تقتطع من الصين قطعة بعد قطعة ، فاستولت الروسيا على الأراضى التى تقع فى شمال نهر عامور وشرق نهر الأوسورى (١٨٦٠) ، وانتقم الفرنسيون لموت أحد المبشرين بالاستيلاء على الهند الصينية (١٨٨٥) ، وانقضت اليابان على جارتها ومصدر حضارتها وأثارت عليها حرباً لجائية (١٨٩٤) ، وهزمتها بعد عام واستولت على فرموزا وحررت كوريا من الصين لتستولى عليها هى فيما بعد (١٩١٠) ، وفرضت على الصين غرامة حربية تبلغ ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار لما سببته لها من متاعب جمة[٧] . ومنعت الروسيا اليابان أن تستولى على شبه جزيرة لياتنج على أن تؤدى الصين إلى اليابان غرامة إضافية ، فلما انقضت ثلاث سنين من ذلك الوقت استولت الروسيا نفسها على شبه الجزيرة وأقامت فيها عدة حصون منيعة . وكان مقتل اثنين من المبشرين على يد الصينيين سبباً فى استيلاء ألمانيا على شبه جزيرة شانتنج (١٨٩٨) ، ثم قُسمت الدولة الصينية التى كانت تحكمها من قبل حكومة قوية إلى « مناطق نفوذ » تستمتع فيها هذه الدولة الأوربية أو تلك بامتيازات فى التعدين أو التجارة لا تشاركها فيها غيرها من الدول . وخشيت اليابان أن تقسم الصين تقسيما حقيقياً بين الدول الغربية ، وأدركت شدة حاجتها إلى الصين فى مستقبل الأيام ، فانضمت إلى أمريكا وطالبت الدولتان بسياسة « الباب المفتوح » ، أى بحق الدول جميعاً فى الاتجار مع الصين على قدم المساواة رغم اعترافها بما للدول فى الصين من « مناطق نفوذ » ، على أن تكون الضرائب الجمركية ونفقات النقل واحدة لجميع الدول على السواء . وأرادت الولايات المتحدة أن تضع نفسها فى مركز يمكنها من أن تساوم على هذه المسائل ، فوضعت يدها على جزائر الفلپين (١٨٩٨) وأعلنت بعملها هذا عزمها على أن تشترك فى النزاع القائم من أجل الاتجار مع الصين .

وفى هذه الأثناء كان فصل آخر من الرواية يمثل وراء جدران القصر الإمبراطورى فى پيكين . ذلك أنه لما دخل الحلفاء عاصمة الصين ظافرين فى

نهاية « حرب الأفيون » الثانية (١٨٦٠) فر الإمبراطور الشاب شيان فنج إلى جيهول حيث توفى بعد عام واحد من ذلك الوقت وترك العرش لابنه البالغ من العمر خمس سنين ، فما كان من زوجة الإمبراطور الثانية أم ذلك الغلام إلا أن استولت على مقاليد الحكم وتسمت باسم تزه شى — وعرفها العالم باسم الإمبراطورة الوالدة — وحكمت الصين حكما طيبا صارما مجرداً من الرحمة دام جيلا كاملا . وكانت هذه السيدة فى شبابها قد حكمت البلاد بقوة جمالها ؛ أما الآن فقد حكمتها بقوة إرادتها . ولما مات ولدها عند بلوغه سن الرشد (١٨٧٥) لم تعبأ الإمبراطورة بالسوابق ولم تأبه بالمعارضين وأجلست على العرش غلاماً قاصراً — جوانج تشو — واستبقت مقاليد الحكم فى يدها . وحافظت هذه الإمبراطورة الجريئة على السلام فى بلاد الصين نحو ثلاثين عاماً مستعينة على ذلك برجال من دهاقين السياسة أمثال لى هونج — چانج ، وأرغمت الدول الجشعة على أن تحسب للصين بعض الحساب . فلما أن انقضت اليابان على الصين فجاءة ، وأسرعت الدول الأوربية إلى تقطيع أوصال البلاد تقطيعاً جديداً بعد انتصار اليابانيين عليها ، قامت فى عاصمة الصين حركة قوية تطالب بأن تحذو حذو اليابان التى أخذت بأساليب الدول الغربية — أى أن تجيش جيشاً قوياً ، وأن تنشىء المصانع وتمهد الطرق ، وأن تحاول الحصول على الثروة الصناعية التى مولت بها اليابان وأوربا حروبهما الظافرة . وقاومت الإمبراطورة ومستشاروها هذه الحركة بكل ما لديهم من قوة ، ولكن جوانج شو انضم إليها سراً ، وكان قد أذن له أن يتربع على العرش وأن يكون إمبراطوراً بحق . فلم تشعر الإمبراطورة ومستشاروها إلا وقد أصدر جوانج إلى الشعب الصينى (فى عام ١٨٩٨) من غير أن يستشير « بوذا العجوز » (وهو الاسم الذى كانت حاشية الإمبراطورة تطلقه عليها) عدة مراسيم عجيبة لو أن البلاد قبلتها وعملت بها لسارت سيراً حثيثاً سلميا فى طريق الأخذ بأساليب الغرب ونظمه ، ولحال أخذها بها دون سقوط الأسرة المالكة وتدهور الأمة فى هاوية الفوضى والشقاء .

فقد أمر الإمبراطور الشاب بإقامة نظام جديد للتعليم ، وإنشاء مدارس لا يقتصر التعليم فيها على كتب كنفوشيوس وأتباعه القدماء ، بل تدرس فيها أيضاً الثقافة الغربية فى العلوم والآداب والفنون الصناعية ؛ وشجع على إنشاء الطرق وإصلاح الجيش والبحرية ، وكان يهدف بهذا إلى الاستعداد لمواجهة « الأزمة » المقبلة على حد قوله هو « لأننا محوطون من كل ناحية بجيران أقوياء يريدون بختلهم أن يظفروا بنا ، ويحاولون بتألبهم علينا أن يغلبونا على أمرنا »(٨). وهال الإمبراطورة الوالدة أن يصدر الإمبراطور هذه المراسيم التى رأت فيها تطرفاً لا تحمد مغبته ، فسجنت جوانج شو فى أحد القصور الإمبراطورية ، ونقضت مراسيمه ، وقبضت بيدها مرة أخرى على أزمة الحكم فى الصين .

وبدأ فى ذلك الوقت رد فعل عنيف ومعارضة قوية لجميع الأفكار الغربية اتخذتها الإمبراطورة الداهية عوناً لها على الوصول إلى أغراضها . وكان بعض العصاة قد أقاموا فى البلاد جماعة تعرف باسم أى هو — چوان ؛ أى قبضات التوافق الصالحة . ويطلق عليهم المؤرخون اسم « الملاكمين » (البكسر) . وكانت هذه الجماعة تهدف فى الأصل إلى خلع الإمبراطورة والأسرة المالكة . ولكن الإمبراطورة أفلحت فى إقناع زعمائها بأن يوجهوا هذه الحركة وقوتها لمقاومة الغزاة الأجانب بدل أن يوجهوها لمقاومتها هى . وقبل الملاكمون أن يصدعوا بأمرها ونادوا بإخراج جميع الأجانب من بلاد الصين ، وجرفهم تيار الوطنية العارمة فشرعوا يذبحون المسيحيين بلا تفريق بين الطيب منهم والخبيث فى كثير من أنحاء الصين (١٩٠٠) . فما كان من الجيوش المتحالفة إلا أن زحفت مرة أخرى على بيكين ، وكان زحفها فى هذه المرة لحماية مواطنيها الذين استولى عليهم الرعب فاختبئوا فى أركان دور السفارات الأجنبية . وفرت الإمبراطورة وحاشيتها إلى شيانفو ، وانقضت جيوش إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا واليابان والولايات المتحدة على المدينة ، وأعملت فيها السلب والنهب ،

وقتلت كثيراً من الصينيين انتقاماً منهم لمواطنيها ، وخربت كثيراً من الممتلكات القيّمة أو نهبتها(*) . وفرض الحلفاء على عدوهم المهول المغلوب غرامة حربية مقدارها ٣٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار يجمعها الأوربيون من المكوس المفروضة على الواردات الصينية وعلى احتكار الملح . على أن جزءاً كبيراً من هذه الغرامة قد رفعته فيما بعد الولايات المتحدة ؛ وبريطانيا العظمى ، والروسيا ، واليابان ، عن الصين . وكانت هذه الدول تشترط عليها عادة أن تنفق الأموال التي نزلت عنها على تعليم الطلبة الصينيين في جامعات الدول التي كانت هذه الأموال من حقها . وكان هذا منها عملا كريماً كان له من الأثر في تحطيم الصين القديمة أقوى مما كان لأي عمل آخر بمفرده في الصراع التاريخي المرير بين الشرق والغرب .

(*) ويقول الكپتن برنكلي في ذلك . « مما يقشعر منه بدن كل شخص أبيض أن يعلم أن أربعين من النساء المبشرات وخمسة وعشرين من الأطفال ذبحهم الملاكمون ، ولكن خمسمائة وسبعاً وثلاثين من نساء الطبقات العليا في الصين قد انتحروا في تونجشاو وحدها مفضلين هذا الانتحار على الحياة بعد ما لاقوا من عار ومذلة ، مع أن الصينيين لم يبدوا أية مقاومة في هذه المدينة ولم يقع فيها قتال ما » .

الفصل الثانى

حضارة تموت

طلبة الغرامة الحربية – تشربهم بالحضارة الغربية – أثرهم فى تفكك الوحدة الصينية – عمل المبشرين – صون يات – صن المسيحى – مغامراته فى شبابه – التقاؤه بلى هونج – چانج – تدبيره للثورة – نجاحهما – يوآن شىء – كاى – موت صون يات – صن – الفوضى والنهب – الشيوعية – « الشمال يهدأ » – جيانج كاى – شك – اليابان فى منشوريا – شنغهاى

وغادر « طلبة الغرامة » وآلاف غيرهم من الطلبة بلاد الصين ليرتادوا حضارة الغزاة الفاتحين . فذهب كثيرون منهم إلى إنجلترا ، وذهب أكثر من هؤلاء إلى ألمانيا ، وأكثر من هؤلاء وأولئك إلى أمريكا ، وأكثر منهم جميعاً إلى اليابان . وتخرج فى جامعات أمريكا وحدها مئات منهم فى كل عام ، وكانوا يأتون إلى هذه الجامعات وهم صغار السن سريعو التأثر قبل أن تنضج عقولهم ، فيدركوا ما تنطوى عليه حضارتهم القومية من عمق وما لها من قيمة ، وارتووا وهم شاكرون معجبون من معين التربية الجديدة التى قدمت لهم ، ومن علوم الغرب وأساليبه وأفكاره ، وأدهشهم ماشاهدوه حولهم من وسائل الراحة والحياة النشيطة القوية ، ومن حرية الأفراد فى بلاد الغرب ، وما تستمتع به الشعوب من حقوق . ودرسوا الفلسفة الغربية وفقدوا إيمانهم بدين آبائهم ، وسرهم أن يكونوا مصلحين متطرفين يشجعهم فى ذلك من لقنوهم علومهم وحضارتهم ، كما تشجعهم بيئتهم الجديدة على نبذ جميع العناصر التى تتكون منها حضارة بلادهم . ورجع إلى الصين فى كل عام آلاف من هؤلاء الشبان الذين انتزعوا من بيئتهم فى حداثة سنهم وهم حانقون على تأخر بلادهم المادى وخطوها البطىء فى سبيل الحضارة الغربية وبذروا فى كل مدينة دخلوها بذور البحث والثورة على القديم .

وأعانتهم على غرضهم سلسلة من الحوادث والظروف ، منها أن التجار والمبشرين الذين غزوا الصين من الغرب قد ظلوا قرابة جيلين مراكز للعدوى الغربية أرادوا هم ذلك أو لم يريدوه ، فقد كان طراز معيشتهم وأساليب متعتهم وراحتهم مما بعث فى نفوس من حولهم من شباب الصين رغبة قوية فى أن ينالوا حظا من هذه الحضارة الراقية . وكان هؤلاء التجار والمبشرون رغم قلتهم قد قوضوا بنشاطهم العقيدة الدينية التى كانت دعامة القانون الأخلاقى القديم ؛ وأثاروا شبان البلاد على شيوخها بدعوتهم إلى نبذ عبادة الآباء ؛ ومع أنهم كانوا يدعون إلى دين عيسى المسالم الوديع فقد كانوا إذا تأزمت الأمور تحميهم مدافع ترهب الشرق بضخامتها وقوتها وتخضعه لسيطرة الأوربيين . لقد كانت المسيحية فى أول نشأتها ثورة المظلومين على الظالمين ، وها هى ذى قد عادت فى يد معتنقيها من شباب الصين عاملا من عوامل الثورة .

وكان زعيم الثورة ممن اعتنقوا المسيحية . ذلك أن أحد المستأجرين من الزراع القاطنين قرب كانتون قد ولد له فى عام ١٨٦٦ ولد مشاغب سماه العالم فيما بعد — فى سخرية غير مقصودة — صون يات — صن ؛ أى الشمس جنية السكينة[١٠] . واعتنق صون المسيحية وقوى إيمانه بها فاندفع يحطم أصنام الآلهة فى معبد قريته . وكان لهذا الغلام أخ له أكبر منه سنا هاجر من قبل إلى جزائر هاواى ، فجاء بأخيه الأصغر إلى هنولولو وأدخله مدرسة يديرها راهب من أتباع الكنيسة الإنجليزية ويسير التعليم فيها بالأساليب الغربية البحتة[١١] . ولما عاد صون إلى الصين التحق بالكلية الحربية البريطانية فكان أول من تخرج فيها من الصينيين .

وكانت هذه الدراسات من أكبر الأسباب التى أفقدت الرجل كل ما كان فى قلبه من العقائد الدينية ، كما كانت الإهانات وضروب الإذلال التى يلقاها هو وأبناء وطنه فى الجمارك التى يسيطر عليها الأوربيون وفى الأحياء الأجنبية من

ثغور المعاهدات مما أوغر صدره وجعله يفكر فى الثورة . وكان عجز الحكومة الفاسدة الرجعية عن أن تقى الصين العظيمة مذلة الهزيمة على يد اليابان الصغيرة ، وتجزئة البلاد بين الدول الأوربية لأغراضها التجارية ، مما أشعره بالمذلة وملأ قلبه حقداً وضغينة على تلك الحكومة ، فاعتقد أن أول خطوة يجب عليه أن يخطوها فى سبيل تحرير الصين هى أن يقضى على أسرة المنشو .

وكانت أولى حركاته شاهداً حقا على ثقته بنفسه ، ومثاليته ، وبساطته . ذلك أنه ركب سفينة تجارية دفع أجرها من ماله الخاص وسار بها مدى ألف وستمائة ميل نحو الشمال ليعرض على لى هونج — چانج نائب الملكة الوالدة مشروعاته التى تهدف إلى إصلاح أحوال البلاد واستعادة عزها وكرامتها . فلما رفض هذا الحاكم مقابلته بدأ حياة كلها مغامرات وتجوال لجمع المال الذى يؤجج به نار الثورة الصينية ، ولقى معونة من كثير من النقابات التجارية والجمعيات السرية القوية التى كان قادتها يحسدون الطبقة الحاكمة الأرستقراطية ، ويتوقون إلى إقامة نظام للحكم يكون فيه للطبقات الحديثة من أرباب المصانع والمتاجر شأن يتناسب وثروتهم المتزايدة : ثم غادر الصين وأبحر إلى أمريكا وأوربا يجمع المال القليل من ملايين الغسالين وآلاف التجار الصينيين . فلما جاء إلى لندن اعتقلته المفوضية الصينية دون سند قانونى أوشكت أن ترسله سراً إلى الصين مكبلا بالأغلال بحجة أنه خائن لحكومته ، ولم ينجه إلا مبشر ممن علموه فى صباه ، فنبه الحكومة البريطانية وتدخلت هذه فى الأمر وأنقذته . وظل خمسة عشر عاماً أخرى يتنقل من مدينة إلى مدينة فى جميع أنحاء العالم ، وجمع فى تجواله مليونين ونصف مليون من الدولارات ليموّل بها الثورة ، ويلوح أنه لم ينفق شيئاً من هذا المال على نفسه . ثم جاءته على حين غفلة فى أثناء تجواله رسالة تنبئه أن قوات الثورة استولت على الجزء الجنوبى من بلاد الصين ، وأنها بسبيل الاستيلاء على شمالها ، وأنها اختارته رئيساً مؤقتاً للجمهورية الصينية . وبعد بضعة أسابيع من

ذلك الوقت رست السفينة التى أقلته فى هنج كنج التى لقى فى ثغرها المذلة منذ عشرين عاماً على يد الموظفين البريطانيين .

وكانت الإمبراطورة الوالدة قد قضت نحبها فى عام ١٩٠٨ بعد أن دبرت موت الإمبراطور السجين جوانج شو قبل موتها بيوم واحد ، وخلفها على العرش بويسى ابن أخى جوانج ، وهو الآن إمبراطور منشوكو(*) . وأدخلت الحكومة الصينية فى أواخر حكم الإمبراطورة الوالدة وأوائل حكم خليفتها الطفل كثيراً من ضروب الإصلاح التى تهدف إلى تجديد البلاد وصبغها بالصبغة الغربية الحديثة ؛ فمدت الطرق الحديدية مستعينة فى الغالب برءوس الأموال الأجنبية وبخبرة الأجانب وإشرافهم ، وألغى نظام الامتحان للتعيين فى المناصب الحكومية ، وأنشئ نظام جديد للتعليم ، ودعيت جمعية وطنية لتجتمع فى عام ١٩١٠ ، ووضع مشروع يستغرق تنفيذه تسع سنين يهدف إلى إقامة حكومة ملكية دستورية ، وينتهى بتعميم حق الانتخاب بعد أن يتدرج خطوة خطوة مع انتشار التعليم العام فى البلاد . وجاء فى المرسوم الذى أعلن به هذا المنهج ما يأتى : « كل تسرُّع فى إدخال هذه الإصلاحات سيؤدى فى النهاية إلى ضياع كل ما بذل فيها من جهود »[١٣] . ولكن الثورة لم تكن لتوقف تيارها هذه النوبة التى جهرت بها الأسرة المريضة وهى على فراش الموت ، وألفى الإمبراطور الشاب نفسه تحيط به الثورة من كل جوانبه ، وقد تخلى عنه الجيش فلم يجد من يدافع عنه ، فلم ير بداً من أن يعلن تخليه عن العرش ، وأصدر نائب الإمبراطور الأمير چون مرسوماً هو أعجب ما صدر من المراسيم فى تاريخ الصين كله :

إن الشعب فى جميع أنحاء الإمبراطورية يتجه الآن بعقله نحو الجمهورية ...

(*) لقد كتب هذا الفصل قبل الحرب الأوربية الأخيرة ، وكانت اليابان قد غزت الصين ، واجتاحت جيوشها منشوريا ، وأقامت فيها دولة تأتمر بأمرها هى دولة منشوكو ، وأجلست هذا الإمبراطور على عرشها . ولكن الحرب الأخيرة بدلت هذا كله (المترجم)

إن إرادة الله واضحة ورغبات الشعب غير خافية . فكيف أستطيع أن أعارض رغبات الملايين الكثيرة للاحتفاظ بمجد أسرة واحدة وكرامتها ؟ ومن أجل ذلك فإنى أنا والإمبراطور نرى أن تكون الحكومة فى الصين جمهورية دستورية إجابة لرغبات الشعب فى داخل الإمبراطورية كلها ، وعملا بآراء الحكماء الأقدمين الذين كانوا يرون أن العرش تراث عام[١٤] .

وكانت الثورة كريمة كل الكرم فى معاملاتها ليو — يى ؛ فقد أمنته على حياته ومنحته قصراً مريحاً ومرتباً سنويا يقوم بشئونه ، وخليلة يسكن إليها . لقد جاء المنشو إلى الصين آساداً وخرجوا منها حملانا .

وكان مولد الثورة هادئاً سلميا ، ولكن حياتها كانت حياة عاصفة مليئة بالأحداث . فقد كان يوان شى — كاى وهو سياسى من الطراز القديم جيش قادر على مقاومة الثورة . وطلب أن يكون ثمن تأييده إياها أن يتولى رياسة الجمهورية ، وأجابه صون يات — صن إلى ما طلب واعتزل الحياة العامة فى كرم وعزة نفس ، وكان قد بدأ منذ قليل يستمتع بمنصبه الجديد . وأخذ يوان يعد العدة لأن يجعل نفسه إمبراطوراً وينشئ أسرة حاكمة جديدة مستعيناً فى عمله هذا بجماعات مالية قوية أجنبية ووطنية ؛ وحجته فى هذا أن الإمبراطورية هى السبيل الوحيدة لمنع تدهور الصين وتفككها . واتهمه صون يات — صن بالخيانة وأهاب بأتباعه أن يجددوا عهد الثورة ، ولكن يوان مرض ومات قبل أن يصل الأمر إلى امتشاق الحسام .

ولم تعرف الصين النظام والوحدة من ذلك الحين . فقد تبين أن صون يات — صن رجل أحلام يسبح فى بيداء الخيال ، وأنه خطيب مفوه ولكنه سياسى عاجز عن تولى زمام الحكم وقيادة الأمة إلى بر السلام ، فكان ينتقل من خطة إلى خطة ومن نظرية إلى أخرى ، أغضب من عاونوه من الطبقات الوسطى بما أظهره من ميل إلى الشيوعية ، وانتهى أمره بالانزواء فى كانتون ليعلم شبابها ويبث فيهم روحه ،

ويحكم أهلها فى بعض الأحيان(*). وحرمت الصين من حكومة تعترف بها جميع أجزائها، ومن ملكية كانت رمز وحدتها، ونبذت عادة الطاعة والخضوع لتقاليدها وشرائعها؛ وهى من بداية أمرها ضعيفة النزعة الوطنية التى تربط النفس بالوطن كله لا بالإقليم الذى تعيش فيه، فشبت فيها نار حرب متقطعة بين الجنوب والشمال تارة، وبين طائفة وطائفة تارة أخرى، ثم بين السراة والجياع، وبين الشيوخ والشبان. وقام المغامرون يجيشون الجيوش، ويفرضون سلطانهم على الولايات النائية، يجبون منها الضرائب ويزرعون الأفيون[١٥]، ويخرجون بجنودهم من حين إلى حين ليضموا ضحايا جدداً إلى رعاياهم المساكين. واضطربت أحوال الصناعة والتجارة واضمحلت لكثرة ما كان يفرضها عليها قائد منتصر بعد قائد. وأخذ اللصوص وقطاع الطريق يفرضون الإتاوات، وينهبون ويقتلون، لأنهم لا يجدون قوة منظمة تقف فى وجههم وتضرب على أيديهم. ووجد الناس فى التلصص والجندية وقاية لهم من الهلاك جوعاً، وكثيراً ما كان هذا القائد أو ذاك المنسر من اللصوص يداهم أسرة مقتصدة فيسلبها ما ادخرته طول حياتها من المال أو ما جمعته من المتاع. وحسبنا تصويراً لهذه الحال أن عدد قطاع الطريق فى ولاية هونان وحدها قد بلغ فى عام ١٩٣١ — ٤٠٠,٠٠٠[١٦] أو يزيدون.

وبينا كانت هذه الفوضى ضاربة أطنابها فى البلاد أرسلت الروسيا فى عام ١٩٢٢ اثنين من أقدر ساستها هما كرخان وجف ليضما الصين إلى نطاق الثورة الشيوعية. ومهد كرخان لعمله هذا بنزول الروسيا عمالها من امتيازات فى الصين، وبتوقيع معاهدة تعترف فيها بشرعية حكومة الثورة وبمركزها الدولى. ولم يجد جف الداهية صعوبة ما فى أن يستميل صون يات — صن إلى الشيوعية لأن جميع السلطات الأخرى كانت قد نبذته، ولم يمض إلا وقت قصير حتى تكون جيش وطنى جديد ودرب بمعونة سبعين من الضابط السوفيت. وزحف هذا

(*) ومات پيكين عام ١٩٢٥ فى أحسن الفرص التى أتيحت لأعدائه المحافظين.

الجيش من كانتون إلى الشمال تحت إمرة چيانج كاى — شك أمين سر صون يات — صن السابق ، ويقوده عمليا المستشار الروسى برودين ، يخضع بلدة فى إثر بلدة حتى استقر أخيراً فى پيكين(*) . ولكن المنتصرين انقسموا على أنفسهم فى ساعة النصر فخرج چيان كاى — شك على الحركة الشيوعية وأقام دكتاتورية عسكرية إجابة لرغبات رجال الأعمال والمال(**) .

إن الأمم كالأفراد من العسير عليها ألا تفيد من مصائب جيرانها . ومصداق ذلك أن اليابان ، التى كان يبغى صون يات — صن أن تكون صديقة الصين وحليفتها على الأمم الغربية ، والتى شجعت الثورة الصينية بنجاحها السريع فى السير على النظم الأوربية فى الصناعة والسياسة والحرب ، تقول إن اليابان وجدت فى الفوضى التى تردت فيها معلمتها القديمة فرصة سانحة لحل المشكلة التى أثارها نجاحها هى وتقدمها السريع . ذلك أن اليابان لم يكن فى وسعها أن تحد من عدد سكانها دون أن تعرض سلامتها للخطر الشديد بعجزها عن صد من تحدثه نفسه بالإغارة عليها ؛ ولم يكن فى وسعها كذلك أن تمون سكانها المتزايدين إلا إذا زادت مواردها بتشجيع الصناعة والتجارة ؛ وليس فى وسعها أن تشجع الصناعة والتجارة من غير أن تستورد الحديد والفحم وغيرهما من المواد الأولية التى لا تجدها فى بلادها ، وليس فى وسعها كذلك أن تنمى تجارتها وأن تفيد منها أكبر فائدة دون أن يكون لها نصيب موفور فى السوق العظيمة الوحيدة التى لا تزال خارجة عن نطاق الاستعمار الأوربى الذى شمل الكرة الأرضية كلها . وكانت الصين

(*) وتغير اسم تلك المدينة من ذلك الوقت فسميت پيپنج أى الشمال المهدأ بدل پيكنج (العاصمة الشمالية) ، واتخذت الحكومة الوطنية مقرها فى نانكنج « العاصمة الجنوبية » لتكون قريبة من مواردها المالية فى شنغهاى .

(**) أما الحوادث التى تلت هذا فلا تزال ماثلة فى الأذهان ، فقد اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، وهزمت اليابان ، وزحف الشيوعيون بجيوشهم على الجنوب تعاونهم روسيا السوفيتية وانتصروا على چيان كاى — شك ، وهزموا جيوش الحكومة الوطنية ، وأصبحت الصين كلها تقريبا دولة شيوعية .   (المترجم)

مشهورة بكثرة ما فيها من الحديد والفحم ، ويرجى منها أن تكون فى المستقبل أعظم الأسواق العالمية . وهى إلى ذلك أقرب الأسواق إلى اليابان . وهل فى العالم أمة يبدو لها أن فى مقدورها أن تختار بين العودة إلى الزراعة والفاقة والمذلة ، وبين التقدم فى الصناعة والفتح والاستعمار ، ثم تستطيع أن تقاوم الميل الشديد إلى اختطاف جزء من الصين الضعيفة المقطعة الأوصال فى الوقت الذى كانت فيه النسور الأوربية يقطع بعضها أشلاء بعض فى ميدان فرنسا(*) ؟

من أجل هذا أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا فى بداية الحرب العالمية الأولى ، وانقضت على إقليم چياو چو وهو الإقليم الذى كانت ألمانيا قد استأجرته من الصين قبل ذلك الوقت بستة عشر عاما ، ثم قدمت إلى حكومة يوان شى كاى « واحداً وعشرين مطلبا » لو أجابتها الصين لأصبحت مستعمرة سياسية واقتصادية لليابان ، ولولا احتجاج الولايات المتحدة ومقاطعة الصينيين بزعامة طلابها الغضاب للبضائع اليابانية لنفذت هذه المطالب قوة واقتداراً . ذلك أن الطلاب انطلقوا فى شوارع المدن الصينية يبكون أو يقتلون أنفسهم لأنهم يستحون أن يرى الناس وجوههم بعد هذا الإذلال الذى حاق ببلادهم(١٧) .

وكان اليابانيون يستمعون وهم ساخرون إلى غضب أوربا واحتجاجها وهى التى ظلت تنخر فى عظام الصين خمسين سنة أو تزيد . وارتدت اليابان دون أن تصل إلى أهدافها ولكنها ظلت تتحين فرصة أخرى تحقق فيها أطماعها . ولاحت لها هذه الفرصة حين كانت أوربا وأمريكا تتردّيان فى عواقب خططهما الصناعية الاستعمارية التى كانت تعتمد على الأسواق الأجنبية لاستيعاب « الفائض » من محصولاتها التى لا يستطيع منتجوها أن يبتاعوها . وزحفت اليابان على منشوريا وأقامت پو يى إمبراطور الصين السابق رئيساً لجمهورية منشوكو التى أنشأتها فى ربوعها ثم نصبته بعدئذ إمبراطوراً عليها . ثم عقدت مع الدولة الجديدة حلفاً

(*) يشير المؤلف بهذا القول إلى الحرب العالمية الأولى (المترجم)

سياسيا ، ثم تغلغلت فيها اقتصاديا ، وسيطرت عليها عسكريا ، وجعلت لنفسها بهذه الوسائل فيها مركزاً ممتازاً يمكنها من استغلال موارد منشوريا الطبيعية ، واستخدام أهلها ، وفتح أسواقها للتجارة اليابانية . وانضمت الدول الأوربية التي كانت قد اتفقت فيما بينهما على وقف غارات التلصص زمنا ما بعد أن جمعت كل ما تستطيع أن تجمعه من الأسلاب ، انضمت هذه الدول إلى أمريكا ، ووجهت احتجاجا ضعيفا إلى اليابان على هذا النهب الصريح ؛ ولكنها كانت فى هذه المرة كما هى عادتها فى جميع الأحوال على استعداد لأن تعد النصر مبرراً للغاية .

كانت آخر مذلة لحقت بأوربا وأمريكا هى ما أقدمت عليه اليابان فى شنغهاى . ذلك أن اليابان ثار ثائرها لما أصاب تجارتها من جراء المقاطعة الصينية ، فأنزلت جيوشها المنتصرة فى أغنى ثغور الصين ، واحتلت حى چاپاى ودمرته ، وأنذرت الحكومة الصينية بأن توقف أعمال جمعيات المقاطعة . ودافع الصينيون عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وقاوم جيش الطريق التاسع عشر القادم من كانتون قوى اليابان التي كانت تفوقه عدة ونظاما ، ووقف وحده تقريبا فى وجهها شهرين كاملين . ثم عرضت حكومة نانكنج على اليابان أن تتراضى وإياها على حل وسط ، وانسحبت اليابان من شنغهاى ، وعادت الصين تضمد جراحها ، فاعتزمت أن تضع لنفسها أساس حضارة جديدة أقوى من حضارتها السابقة وأمتن منها دعامة تستطيع أن تدفع بها العالم النهم وترد مطامعه .

الفصل الثالث

بداية عهد جديد

التغيير فى القرية — وفى المدينة — المصانع — التجارة — اتحادات العمال — الأجور — الحكومة الجديدة — القومية واتباع الأساليب الغربية — إنزال كنفوشيوس عن عرشه — مناهضة الدين — المبادئ الخلقية الجديدة — التحول فى نظام الزواج — تحديد النسل — التعليم المشترك بين الذكور والإناث — « التيار الجديد » فى الأدب والفلسفة — لغة الأدب الجديدة — هوشى — عناصر التدمير — عناصر التجديد

كان كل شىء فى الماضى يتغير ما عدا الشرق ، أما الآن فليس شىء فى الشرق لا يتغير ، وأضحت أشد الأمم استمساكا بالقديم أكثرها تطرفا بعد الروسيا ، وأخذت تدمر عامدة عادات ونظما كانت تعدها من قبل حرما آمنا غير قابل للتعديل . فليس الأمر الآن مقصوراً على القضاء على أسرة حاكمة كما حدث فى عام ١٦٤٤ بل هو اقتلاع جذور حضارة قديمة .

وقد جرت العادة أن يكون آخر التغيير وأقله فى القرية ، لأن اعتدال القرية وبطء سيرها لا يشجعان على التجديد ، والجيل الجديد نفسه لا بد له أن يزرع أولا ثم يحصد ما زرعه فيما بعد . وأما الآن فإن سبعة آلاف ميل من الخطوط الحديدية تخترق الريف الصينى ، ولا تزال تربط القرى الشرقية بالمدن الساحلية وتحمل كل جديد من سلع الغرب إلى الملايين من بيوت الزراع ، رغم ما أصابها من الدمار فى خلال الفوضى وسوء الإدارة اللذين داما عشرات السنين ، ورغم ما تحملته من الأعباء الباهظة بسبب حاجات الحرب ومطالبها الملحة . ففى هذه القرى يرى السائح كثيراً من الواردات الأجنبية مثل الكيروسين ، ومصابيح الكيروسين ، وعيدان الثقاب ، ولفافات التبغ ؛ بل يرى فيها القمح الأمريكى نفسه . ولعل القارئ يظن أن وجود هذه البضائع والسلع فى داخل البلاد أمر عادى غير جدير بالذكر ؛ والحق أن

نقلها إليها من أصعب الأمور لأن البلاد لا تزال جد فقيرة فى وسائل النقل ، حتى أن نقل البضائع بين الأقاليم الداخلية والمقاطعات الساحلية يتطلب من النفقات أكثر مما يتطلبه نقلها إلى ثغور الصين من أستراليا أو الولايات المتحدة . ولقد تبين لأهل البلاد أن نمو الحضارة من الناحية الاقتصادية موقوف على سهولة سبل النقل ووسائل الاتصال . من أجل ذلك أنشئت طرق برية يبلغ طولها نحو عشرين ألف ميل تسير عليها ستة آلاف مركبة حافلة سيراً غير منتظم مملوءة على الدوام بالركاب . فإذا ما ارتبطت هذه القرى التى يخطئها الحصر بالسيارات السريعة فإن ذلك يحدث فى الصين أعظم تغيير شهدته فى تاريخها الطويل وهو القضاء حتى على القحط الذى طالما هددها وأفنى الكثيرين من أهلها .

هذا فى القرى أما فى الحواضر فإن انتصار الأساليب الغربية يسير بخطى أسرع وأيسر ، فالحرف اليدوية أخذت فى الزوال بتأثير منافسة السلع الرخيصة السهلة النقل المستوردة من خارج البلاد . وقد تعطل لهذا السبب آلاف من الصناع ، ولكن للصانع الآلية التى أنشئت على طول السواحل بمعونة رءوس الأموال الأجنبية والوطنية تبتلعهم ابتلاعا سريعا . وقد سكت صوت الأنوال اليدوية فى المدن وإن كانت لا تزال تدور فى الريف ، وغمر القطن والمنسوجات القطنية أسواق البلاد ، وشيدت مصانع النسيج لتجعل من فقراء الصين عبيداً مسخرين للآلات ، وأقيمت فى هانجتشاو أفران لصهر المعادن لا تقل ضخامة وروعة عن مثيلاتها فى البلاد الغربية ، ووضعت مشروعات هائلة لإنشاء مخابز ومصانع لحفظ الطعام ولصنع الأسمنت والورق والصابون والشمع وتكرير السكر ، وهى تعمل رويداً رويداً على تحويل العامل الصينى اليدوى إلى صانع ومشرف على الآلات . لكن الصناعات الجديدة يعوق نموها السريع تردد أصحاب رءوس الأموال فى أن يستثمروها فى بلاد لا تنقطع فيها الثورات ، ويلاقون فيها صعابا جمة من جراء نقص وسائل النقل وكثرة نفقاتها وقلة المواد فى داخل

البلاد ، ومن جراء تمسك الصينيين بتلك العادة الجميلة عادة الولاء للأسرة قبل الولاء لكل ما عداها من الجماعات ، والتي تجعل كل مكتب من مكاتب الموظفين وكل مصنع معششاً للأقارب والعاجزين عن أداء عمل من الأعمال[19]. والتجارة يعوقها فضلا عن هذا ما يفرض عليها من الضرائب في داخل البلاد ومن الرسوم الجمركية والرشا وضروب الاغتصاب ، وإن كانت مع ذلك تنمو أسرع من نمو الصناعة وتضطلع بدور خطير في تحوّل الصين الاقتصادي(*) .

وقد قضت الصناعات الجديدة على نقابات أرباب الحرف القديمة وأحدثت كثيراً من الاضطراب والفوضى بين العمال وأرباب الأعمال . ذلك أن هذه النقابات كانت تعيش بفضل ما تبذله من الجهود لتحديد أجور العمال وأثمان البضائع بالتوفيق بين الملاك والمنتجين الذين لم يكن لمنتجاتهم ما ينافسها في التجارة المحلية . فلما أن اتسع نطاق التجارة بزيادة وسائل النقل ، وجاءت البضائع من البلاد البعيدة تنافس في جميع المدن بضائع النقابات المصنوعة باليد ، تبين لها أن ليس في استطاعتها أن تشرف على الأسعار أو تحدد الأجور من غير أن تخضع في ذلك إلى أوامر المتنافسين الأجانب وإلى رءوس الأموال الأجنبية . ومن أجل هذا تفككت النقابات وتقسمت إلى غرف تجارية من جهة وإلى اتحادات العمال من جهة أخرى . فالغرف تعنى بالنظام والولاء لأصحاب الأعمال وبالحرية الاقتصادية ، والعمال يعنون بأجورهم المنخفضة التي تكاد تميتهم جوعا . وقد كثر الإضراب والمقاطعة ولكن هذين قد أفلحا في إرغام أرباب الأعمال من الأجانب على التسليم للحكومة الصينية ببعض الامتيازات أكثر مما أفلحا في رفع

(*) كانت بريطانيا العظمى في وقت من الأوقات هي المسيطرة على تجارة الواردات ، أما الآن فإن لها فيها نحو ١٤ ٪ والولايات المتحدة ١٧ ٪ واليابان ٢٧ ٪ ، ولا يزال مركز اليابان في هذه التجارة يقوى عاماً بعد عام . وقد تضاعفت تجارة الصين فيما بين ١٩١٠ ، ١٩٣٠ فبلغت ٦٠٠ ٪ وتقدر قيمتها بما يقرب من نصف بليون من الدولارات . غير أن الحرب العالمية الأخيرة وهزيمة اليابان قد بدلتا من مركزها في هذه التجارة .

أجور العمال . وقد قدرت مصلحة الشئون الاجتماعية التابعة لبلدية شنغهاى الصينية متوسط الأجر الأسبوعى لعمال مصانع النسيج بين ٧٣ر١ ، ٧٦ر٢ دولار للرجل ، وما بين ١٠ر١ ، ٧٨ر٢ دولار للمرأة . وكان متوسط الأجور الأسبوعية للرجال فى المطاحن والمصانع ٩٦ر١ دولار وفى مصانع الأسمنت ٧٢ر١ دولار ، وفى مصانع الزجاج ٨٤ر١ ، وفى مصانع الكبريت ١١ر٢ ؛ وكان متوسط أجر العمال المهرة فى المصانع الكهربائية ١٠ر٣ وفى مصانع الآلات ٢٤ر٣ وبين عمال المطابع ٥٥ر٤[٢٣] . وما من شك فى أن الزيادة الكبيرة فى أجور عمال المطابع إنما ترجع إلى حسن تنظيمهم وإلى الصعوبة التى يعانيها أصحاب المطابع فى استبدال غيرهم بهم إذا توقفوا عن العمل فجأة . وتألفت أولى اتحادات العمال فى عام ١٩١٩ وزاد عددها وقوتها حتى طلبت فى أيام بروديِن أن تتولى هى حكم الصين ؛ ولكن چيانج كاى — شك كبح جماحها من غير رحمة بعد نزاعه مع الروسيا ، وقد سنت لمقاومتها فى هذه الأيام قوانين غاية فى الصرامة ، ولكن عددها مع ذلك أخذ فى الازدياد بسرعة لأنها الملجأ الوحيد للعمال من عنت النظام الصناعى الذى لم يعمل حتى الآن أكثر من أن يبدأ بوضع التشريع الخاص بالعمال ، ولم يبدأ قط فى تنفيذه[٢٤] . وإن ما يعانيه صعاليك المدن فى هذه الأيام من فقر مدقع وكدح يدوم اثنتى عشرة ساعة فى اليوم بأجور لا تكاد تمسك الروح بالجسم ، يهددهم للموت جوعاً إذا لم يجدوا عملا فى يوم من الأيام ، إن ما يعانيه هؤلاء الصعاليك فى هذه الأيام لأسوأ مما كان يعانيه فقراء القرى فى الأيام الخالية حيث لم يكن يسمح للفقراء أن يروا الأغنياء ، وحيث كانوا يرضون بما قسم لهم منذ الأزل .

ولعله كان من المستطاع تجنب هذه الشرور لو أن تبدل الأحوال فى شرق الصين لم يتم بغير ما تم به من السرعة ولم يبلغ ما بلغه من الكمال . إذن لكان فى مقدور كبار الموظفين الصينيين ، وإن فقدوا ما كان لهم من حيوية وتلوثت أيديهم بالرشوة ، أن يكبحوا جماح القوى الصناعية الجديدة حتى تتأهب الصين

لقبولها من غير أن تقع فى براثن الفوضى والعبودية ؛ وإذن لنشأت من نمو الصناعة عاماً بعد عام طبقة جديدة من السكان لعلها كانت تستطيع أن تخطو بسلام إلى ميدان السلطة السياسية ، كما خطا الصناع إليها فى إنجلترا وحلوا محل كبار ملاك الأراضى الزراعية .

ولكن الحكومة الجديدة ألفت نفسها بلا جيش ، ولا زعماء مجربين ، ولا مال ؛ ووجد الكومنتانج ، أى حزب الشعب الذى أنشئ لتحرير الأمة ، أن لابد له أن يقف موقف العاجز وهو يرى الأمة تخضع لرءوس الأموال الأجنبية والوطنية . وكان هذا الحزب قد ولد فى مهاد الدمقراطية ونشأ فى أحضان الشيوعية ، ثم أضحى جل اعتماده على مصارف شنغهاى المالية ، فترك الدمقراطية وانحاز إلى الدكتاتورية وحاول أن يقضى على اتحادات الصناع(*) . ذلك أن الحزب يعتمد على الجيش ، ولا بد للجيش من مال ، والمال لا يأتى إلا من القروض ؛ وإلى أن يكون للجيش من القوة ما يمكنه من إخضاع الصين فإن الحكومة ستظل عاجزة عن فرض الضرائب على الصين، وإلى أن تستطيع الحكومة فرض الضرائب على الصين ستظل تتلقى النصح والإرشاد من حيث تتلقى المال . على إنها مع هذا كله قد أنجزت الشىء الكثير ؛ فقد أعادت إلى الصين إشرافها التام على التعريفة الجمركية وعلى صناعاتها — داخل نطاق قوة المال العالمية — وأنشأت ودربت وجهزت جيشاً قد يستخدم فى يوم من الأيام لقتال غير الصينيين ؛ ووسعت رقعة الأقاليم التى تعترف بسلطة الحكومة ، وقللت فى هذه الرقعة من قوة قطاع الطرق الذين كانوا يجثمون على أنفاس الأمة ويكادون يقضون على حياتها الاقتصادية . وهى تسير فى هذا سيراً بطيئاً لأن إشعال نار الثورة مستطاع فى يوم وليلة ولكن إقامة حكومة ثابتة يحتاج إلى جيل

(*) وقد أعدم فى عام ١٩١٧ وحدها آلاف مؤلفة من العمال لانضمامهم إلى هذه الاتحادات .

وليس تفكك الصين وانفصام عرى وحدتها إلا مظهراً مما فى النفس الصينية من انقسام ونتيجة لازمة له . إن أقوى ما فى الصين من مشاعر فى هذه الأيام هو شعور الكراهية للأجانب ، وأقوى التيارات التى تجتاح الصين هو تيار محاكاة الأجانب . والصين تعترف أن الغرب لا يستحق أن تتملقه وتحاكيه ؛ ولكن الصين يضطرها روح الأيام ودوافعها القوية إلى تملق الغرب ومحاكاته لأن الأمم فى هذا العصر لا بد لها أن تختار بين التصنيع والاسترقاق ولا ثالث لها . ومن أجل هذا ترى الصينيين فى المدن الشرقية يهجرون الحقول إلى المصانع ، والثياب الفضفاضة إلى السراويل الضيقة ، ونغمات الماضى البسيطة الشجية إلى موسيقى الغرب المعقدة ، ويتخلون عن ذوقهم الجميل فى الثياب والأثاث والفن ، ويزينون جدرانهم بالصور الأوربية ، ويشيدون دور الحكومة ومكاتب الأعمال على أقبح الطرز الأمريكية . وقد تخلت نساء الصين عن عادة ضغط أقدامهن من الأمام إلى الخلف وأخذن يضغطنها من اليمين إلى اليسار على آخر طراز غربى(*) ، وأخذ فلاسفتها يتخلون عن مبادئ كنفوشيوس المعتدلة القنوعة الظريفة ويهرعون إلى مبادئ موسكو ولندن وبرلين وباريس ونيويورك الشرسة الخصيمة ، ويتلقونها بنفس الحماسة التى كان الأوربيون يتلقون بها مبادئ النهضة فى أواخر العصر الوسيط .

لقد ثل عرش كنفوشيوس وكان فى الطريقة التى ثل بها شىء من سمات عصر النهضة وعصر الاستنارة ؛ ولقد كان نبذا لأرسطو الصين والآلهة التى عبدها الشعب من أقدم الأزمنة . وأتى على الدولة حين من الدهر اضطهدت فيه البوذية وطوائف الرهبان فى الأديرة ، ذلك أن ثوار الصين كانوا كثوار فرنسا ملاحدة لا يخفون عن الناس إلحادهم ، ويجهرون بعدائهم للدين ، ولا يعبدون غير

(*) تعمد بعض الصينيات فى هذه الأيام إلى وضع وسادات فى أحذيتهن ليخفين عن الناس أن أقدامهن قد ضغطت فى صغرهن(٣٦) .

العقل . ولعل الكنفوشية كانت تترك الناس أحراراً فى عقائدهم الدينية لأنها تفترض أن الآلهة ستبقى ما بقى الفقر ؛ أما الثورة فكانت تظن أن فى وسعها أن تقضى على الفقر ولذلك لم تر حاجة إلى الآلهة ؛ وكانت الكنفوشية ترى أن الزراعة والأسرة هما نظام الحياة العملية والاجتماعية الطبيعية ولذلك شادتْ صرحاً للأخلاق يهدف إلى حفظ النظام وإشاعة القناعة فى نطاق دائرة البيت والحقل ؛ أما الثورة فوجْهتها الصناعة وهى فى حاجة إلى أخلاق جديدة تتفق مع الحياة الفردية فى الحواضر . وقد بقيت الكنفوشية لأن الوصول إلى المناصب السياسية والمهن العلمية كان يتطلب معرفة مبادئها والأخذ بها ؛ أما الآن فنَظام الامتحانات قد انقضى عهده وحلت العلوم الطبيعية فى المدارس محل الفلسفة الأخلاقية والسياسية ؛ وأصبح الرجل لا يصاغ للحكم بل يصاغ للصناعة ؛ وكانت الكنفوشية محافظة تكبح بحذر الشيوخ مُثل الشباب العليا ؛ أما الثورة فروحها من أنفاس الشَباب ولا تقبل أن يفرض عليها شىء من هذه القيود ، وهى تسخر من الشيوخ إذا رفعوا عقيرتهم محذرين : « إن الذين يظنون أن الجسور القديمة عديمة النفع ويحطمونها تحطيماً سيصيبهم الدمار ويغرقهم تيار المياه الجارف »(*)(٢٧) .

وقضت الثورة بطبيعة الحال على دين البلاد الرسمى ولم تعد تقرّب القرابين الآن من مذبح السماء إلى التِّبَيان الصامت المجرد . وتجيز الحكومة عبادة الأسلاف ولكن هذه العبادة آخذة هى الأخرى فى الانقراض ، وينزع الرجال إلى تركها شيئاً فشيئاً للنساء وقد كانوا يظنونهن من قبل غير خليقات بهذه الطقوس المقدسة . ولقد تلقى نصف زعماء الثورة تعليمهم فى المدارس المسيحية ، ولكن الثورة رغم انتماء چيانج كاى شك إلى الطائفة المسيحية النظامية (Methodism) لا تميل إلى دين يؤمن بخوارق الطبيعة وتصبغ كتبها المدرسية بالصبغة الإلحادية(٢٩) . أما

(*) انظر ص ٦٣ . وتحاول الآن حركة « الحياة الجديدة » التى يتزعمها چيانج كاى — شك أن تعيد الكنفوشية وقد نجحت فى ذلك بعض النجاح .

الدين الجديد الذى يحاول أن يسد الفراغ العاطفى الناشئ من فراق الآلهة فهو دين الوطنية ، كما أن الدين الجديد فى الروسيا هو الشيوعية . ولكن هذه العقيدة فى الوقت الحاضر لا ترضى كافة الناس ، ولهذا ترى الكثيرين من صعاليك المدن يعمدون إلى العرافين والمتنبئين والوسطاء ليجدوا عندهم ملجأ من كدح الحياة اليومية الرتيب الذى لا لذة فيه ولا طرافة . ولا يزال القرويون يجدون بعض ما يسليهم عن فقرهم ويفرج عنهم كربهم فى سكون المزارات القديمة . والقانون الأخلاقى القديم الذى كان الناس منذ جيل واحد يظنونه قانوناً سرمدياً لا يتبدل آخذ فى التفكك والانحلال بسرعة تتضاعف ثم تتضاعف على مدى الأيام بعد أن فقد حماية الحكومة والدين والحياة الاقتصادية . وأهم ما طرأ على الصين من تبدل فى هذه الأيام ، إذا استثنينا ما أحدثه فيها الغزو الصناعى ، هو تحطيم نظام الأسرة القديمة لتحل محله نزعة فردية تترك كل إنسان حراً يواجه العالم بمفرده ، وقد استبدل الولاء للدولة من الوجهة النظرية بالولاء للأسرة . وإذ كان هذا الولاء الجديد لم ينتقل الآن من طور الأقوال والنظريات إلى طور الأعمال فإن المجتمع الجديد يعوزه الأساس الخلقى الذى يستند إليه . إن الزراعة يلائمها نظام الأسرة لأن الأرض ، قبل انتشار الآلات ، كانت تستغل أحسن استغلال على أيدى جماعة من الناس تربطهم رابطة الدين والسلطة الأبوية . أما الصناعة فتمزق الأسرة لأنها تعطى العمل والجزاء عليه للأفراد لا للجماعات ، ولا تعطيهم هذا الجزاء دائماً فى مكان معين ، ولا تعترف بأن للضعفاء حقاً فى مال الأقوياء ، ولا يجد التعاون والتراحم الطبيعيين القائمين بين الأسرة سنداً من التنافس المرير الذى هو من طبيعة الصناعة والتجارة ؛ وترى الجديد الذى ينفر على الدوام من سلطان الشيوخ يهرع عن عمد إلى المدينة وفردية المصنع ، ولعل سلطان الأب القوى فى الزمن الماضى قد عجل بالانقلاب لأن الرجعية هى التى يرجع إليها على الدوام إسراف المتطرفين . وهكذا انتزعت الصين نفسها من ماضيها واستأصلت

جدوره ، وما من أحد يدرى هل تستطيع أن تمد لها جذوراً جديدة فى وقت يمكنها من أن تنجى بها حياتها الثقافة .

وكذلك أخذت أساليب الزواج القديم تزول بزوال سلطان الاسرة . نعم إن معظم الزيجات لاتزال ينظمها الآباء ، ولـكن الزواج بالاختيار الحر بين الفتيان والفتيات آخذ فى الانتشار فى الحواضر ؛ فالشاب لا يكتفى الآن بأن يرى نفسه حرًّا فى أن يتزوج من يشاء ، بل هو يجرى تجارب فى الزواج قد يرتاع لها أبناء الغرب أنفسهم ، وهذا القول نفسه ينطبق على الفتيات كما ينطبق على الفتيان . لقد كان نتشه يرى أن آسية على حق فيما تعامل به النساء ، ويرى أن إخضاعهن لرجال هو العاصم الوحيد من سيطرتهن عليهم سيطرة لاتقف عند حد ، ولـكن آسية قد اختارت أساليب أوربا لا أساليب نتشه فى معاملة النساء . وتعدد الزوجات آخذ فى النقصان لأن الزوجة الجديدة تعارض فيه وتعارض فى التسرى . والطلاق قليل غير عادى ، ولـكن السبيل إليه أوسع مما كانت فى الأيام الماضية(*) . والتعليم المشترك هو القاعدة المتبعة فى الجامعات ، واختلاط الجنسين اختلاطا حرًّا أمر عادى فى المدن ، وقد سنت النساء لهن قوانينهن الخاصة بهن وأنشأن مدارسهن الطبية ، بل سرن إلى أبعد من هذا فأنشأن مصرفا ماليًا خاصا بهن[٣١] . واللائى انضممن إلى الحزب من النساء منحن حق الانتخاب ، وقد وجدت لهن وظائف فى أرقى لجان الحزب والحكومة على السواء[٣٢] . ولقد نبذن عادة قتل الأطفال

(*) تجيز الثورة الطلاق إذا طلبه الطرفان ، ولكن إذا كان الزوج أقل من ثلاثين سنة أو الزوجة أقل من خمس وعشرين فإن الطلاق يتطلب رضاء الأبوين . ولا نزال الأسباب القديمة التى كانت تجيز الزوج أن يطلق زوجته معمولا بها — وهذه الأسباب هى العقم ، والخيانة الزوجية ، وإهمال الواجب ، والثرثرة ، والسرقه ، والغيرة ، والأمراض الخطيرة ؛ ولكن هذه الأسباب لا يعمل بها إذا كانت الزوجة قد حزنت ثلاث سنين على والدى زوجها ، أو لم تكن لها أسرة تعود إليها ، وكانت وفية لزوجها فى أثناء ارتفاعه من الفقر إلى الغنى[٣٠] .

وأخذن يزاولن عادة تحديد النسل(*)، ولم يزد عدد السكان زيادة ملحوظة منذ قيام الثورة ولعل تيار السكان الصينيين الجارف قد أخذ الآن يتراجع(٣٣) .

ومع هذا فإن خمسين ألف صيني جديد يولدون فى كل يوم(٣٤) . وسيكونون فى مستقبل أيامهم جُدداً من كل الوجوه ، جدداً فى تفصيل ملابسهم وترجيل شعرهم ، جدداً فى تعليمهم وعاداتهم وأخلاقهم ودينهم وفلسفتهم ، لقد اختفى ذيل ملابسهم الطويل واختفى معه ما كان فى الأيام الخالية من ظرف ورقة ، وخشنت أحقاد الثورة روح الأهلين ، وأضحى من أصعب الأمور على المتطرفين أن يجاملوا المحافظين(٣٥) . وها هو ذا تيار الصناعة السريع يبدل ما كان يتصف به الشعب الصينى القديم من تواكل وعدم مبالاة إلى صفات أخرى أكثر دلالة على طبيعتهم . إن هذه الوجوه البليدة لتخفى تحتها نفوسا نشيطة سريعة الاهتياج ، وإن النزعة السلمية التى أشربتها نفوس الصينيين بعد حروب دامت عدة قرون لآخذة فى الزوال من طول تفكيرهم فى هزائمهم القومية وتقطيع أوصال بلادهم ؛ والمدارس تعد الآن كل طالب لأن يكون جندياً ، وعاد القوم مرة أخرى يرون القائد بطلا .

وتبدل نظام التعليم من أوله إلى آخره فألقت المدارس بكنفوشيوس من النافذة وأحلت العلوم الطبيعية والرياضية محله ، وإن لم يكن من الضرورى أن تتخلى عنه لتحل العلوم محله لأن تعاليم كنفشيوس لا تتعارض مطلقاً مع روح العلم . ولكن التاريخ كله لحمته وسداه يتكون فى جميع مراحله من غلبة الإحساسات النفسية على العقائد المنطقية . فدراسة الرياضيات والميكانيكا واسعة الانتشار لأنهما يعينان على صناعة الآلات ، والآلات تعين على جمع الثروة وعلى صناعة المدافع ، والمدافع قد تحفظ الحرية . ودراسة الطب فى الصين آخذة فى

(*) إن الإعلانات الصريحة عن وسائل موانع الحمل فى مخازن الأدوية الصينية لما يوحى إلى الغرب بوسيلة يلجأ إليها لينجو بها من « الخطر الأصفر » .

الانتشار ، والفضل فى انتشارها راجع معظمه إلى هبات المحسن ركفلر (*) . وقد تضاعف عدد المدارس الجديدة والمدارس العليا والكليات بسرعة فائقة على الرغم من فقر البلاد ، والصين الحديثة تأمل ألا يمضى إلا القليل من الوقت حتى يستطيع كل طفل أن يتعلم من غير أجر وأن يسودها النظام لدمقراطى بفضل انتشار التعليم .

وقد حدث فى الأدب الصينى والفلسفة الصينية انقلاب شبيه بما حدث فى عهد النهضة . ذلك أن دخول الكتب الغربية كان له من الأثر المنتج ما كان للمخطوطات اليونانية من أثر فى عقول الإيطاليين ؛ وكما أن إيطاليا فى إبان نهضتها قد هجرت اللغة اللاتينية لتكتب بالإيطالية فكذلك فعلت الصين بزعامة هوشى إذ حولت اللهجة الأرستقراطية القديمة إلى لغة أدبية هى المعروفة بالپاى هوا ، وأقدم هوشى على عمل خطير جازف فيه بمصيره الأدبى فكتب بهذه « اللغة البسيطة » تاريخ الفلسفة الصينية فى عام ١٩١٩ ؛ وكانت شجاعته سبباً فى فوزه العظيم ، فاتخذت خمسمائة صحيفة دورية الپاى هوا لغة لها ، ولم يمض إلا وقت قليل حتى كانت لغة الكتابة الرسمية فى المدارس . وقامت فى الوقت نفسه « حركة الحروف الألف » لإنقاص رموز الكتابة الصينية من ٤٠٫٠٠٠ رمز وهو العدد الذى كان يستخدمه العلماء فى كتاباتهم إلى ١٫٣٠٠ تكفى للاستعمال العادى . وبهذه الطريقة أخذت لهجة المندرين تذيع بسرعة فى الأقاليم الصينية ، وقد لا ينتهى هذا القرن حتى تكون للصين كلها لغة واحدة وحتى تقترب من الوحدة الثقافية .

والأدب الصينى آخذ فى الانتشار مدفوعا بهذه اللغة الشعبية وبحماسة الأهلين ، وقد أضحى عدد الروايات والقصائد والتمثيليات لا يقل عن عدد الصينيين أنفسهم ، وانتشرت الصحف والمجلات فى كل مكان ، وأخذ الصينيون يترجمون آداب الغرب

(*) فى عام ١٩٣٢ فتحت كلية طب الاتحاد للطلاب والطالبات بفضل الهبة التى قدمها جون . و . ركفلر الصغير والبالغ مقدارها خمسة ملايين من الدولارات ، وتنفق اللجنة الطبية الصينية التى تمدها بالمال مؤسسة ركفلر على تسعة عشر مستشفى وثلاث مدارس للطب وتهب فى كل عام خمسا وستين جائزة تعليمية (٣٦) .

بالجملة ، كما أخذت أشرطة الخيالة الأمريكية ، يشرحها مترجم صينى يقف إلى جانب الشاشة البيضاء ، تبعث البهجة فى نفوس الصينيين العلماء منهم والسذج . وكذلك عادت الفلسفة إلى عظماء الفلاسفة الأقدمين الملحدين ، وأخذت تعيد دراستهم وتفسيرهم على نمط جديد بعزيمة واندفاع لا يقلان عن عزيمة أوربا ونشاطها فى القرن السادس عشر ، وكما أن إيطاليا بعد أن تحررت من القيود الكنسية قد راعتها العقلية اليونانية اللادينية وأثارت إعجابها ، كذلك أخذت الصين الجديدة تستمع بشغف ليس كمثله شغف إلى أقوال مفكرى الغرب أمثال جون ديوى وبرتراند رسل وأمثالهم من العلماء المستقلين فى تفكيرهم استقلالا تاما عن جميع الأديان ، والذين يعظمون التجارب ويعتقدون أنها وحدها هى المنطق الواجب الاتباع ، والذين تتفق فلسفتهم لهذا السبب مع مزاج أمة تحاول أن تجمع الإصلاح الدينى ، وإحياء العلوم والاستنارة والنهضة والثورة فى جيل واحد(*) .

وإذا ما امتدح أحدنا الآن ما لآسية من « قيم روحية » سخر منه هوشى وقال إنه يجد فى إصلاح نظم الصناعة والحكم إصلاحا يعين على استئصال العوز من البلاد قيما أخلاقية أعظم من كل ما فى « حكمة الشرق » ، وهو يلقب كنفوشيوس « بالشيخ الطاعن فى السن » ويقول إن التفكير الصينى ليظهر على حقيقته إذا ما وضعت مدارس الملحدين التى كانت قائمة فى القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد فى مكانها الصحيح من تاريخ الصين(٣٨) .

بيد أنه وهو فى وسط هذا « التيار الجديد » الجارف وهذه الحركة الفكرية الجديدة التى كان من أنشط زعمائها قد أوتى من الحكمة ما جعله يدرك ما للشيوخ أنفسهم من قيمة ، وقد صاغ مشكلة بلاده أكمل صياغة فى الفقرة الآتية :

(*) لقد ضعف فى الأيام الأخيرة هذا الميل الشديد إلى تقليد المثل الغربية فى الأمور العقلية بتأثير حركة الحياة الجديدة التى يتزعمها جيانج كاى - شك . وأخذت الصين واليابان تخرجان لها أشرطة خيالية خاصة بهما ؛ وعاد الاستمساك بالقديم يحل تدريجاً محل التطرف ، كما أخذت الصين تميل إلى الانضمام إلى اليابان فى الثورة على أفكار أوربا وأمريكا وأساليبهما .

« إن الجنس البشرى بأجمعه لتصيبه أكبر خسارة إذا ما استبدلت الحضارة الجديدة بالحضارة القديمة استبدالا سريعاً مفاجئاً يمحوها من الوجود بدل أن تمتصها البلاد امتصاصاً بطيئاً وتمثلها كما يمثل الغذاء الصالح . وعلى هذا فإن المشكلة التى تواجهنا يمكن أن تصاغ على النحو الآتى . كيف نستطيع أن نهضم الحضارة الجديدة ونمثلها بحيث نجعلها متجانسة مؤتلفة مع الحضارة التى أنشأناها نحن فى أيامنا الحالية ؟ »[٣٠] .

ويخيل إلى كل من يشهد ظواهر الأمور الخارجية السائدة فى الصين الآن أنها لن تستطيع حل هذه المشكلة . ذلك أن الإنسان إذا ما فكر فيما يخيم على الحقول الصينية من وحشة ، وما حاق بها من خراب ، وما ينتاوبها من جدب تارة وفيضان جارف تارة أخرى ، وما أصاب أشجارها من تقطيع وتدمير ، وفيما أصيب به زراعها من إنهاك وخمول ، وفى الموت الذى يحصد أطفالها حصداً ، وفى عمالها الذين يكدحون فى المصانع كالعبيد كدحاً يضعفهم ويهد قواهم ، وفى مدنها القذرة التى تتفشى فيها الأمراض ، وتفرض على بيوتها أفدح الضرائب ، وفى الرشوة المنتشرة فى تجارتها ، وفى صناعاتها التى يسيطر الأجانب عليها ، وفى فساد حكومتها ، وضعف وسائل الدفاع عن بلادها ، وفى أهلها الذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً وامتلأت قلوبهم غلا وحقداً ، إذا ما فكر فى هذا كله هاله الأمر فلا يدرى هل تستطيع الصين أن تستعيد عظمتها الماضية ، وهل فى مقدورها أن تمتص مرة أخرى فاتحيها وتمثلهم فى جسمها الضخم ، وتحيا من جديد حياتها النشيطة المبدعة ؟ ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة تدقيق وإمعان رأينا من تحت هذه المظاهر السطحية عوامل النقاهة والتجديد فأراضيها الواسعة الرقعة المختلفة الأنواع غنية بمعادنها الكفيلة بأن تجعلها بلداً صناعياً عظيما ، وقد لا يكون فيها من الثروة المعدنية ما قدره رختوفن ، ولكن فيها بلا ريب أكثر مما كشفت عنه البحوث التجريبية فى هذه الأيام . وإذا ما تسربت الصناعة إلى داخل البلاد فستكشف عن خامات ومواد للوقود لا يتصور الناس

الآن أنها توجد فيها ، كما لم يكن أحد يتصور منذ قرن واحد ما فى أمريكا من ثروة معدنية ومن وقود . أما عن قواها المعنوية فإن هذه الأمة التى مرت عليها ثلاثة آلاف عام سمت فيها إلى المجد تارة وتردت فى مهاوى الشقاء تارة أخرى ، وتوالت عليها فترات موت وبعث ، إن هذه الأمة لتظهر فيها اليوم كل دلائل الحيوية المادية والمعنوية التى تتبينها فى أكثر عهودها إبداعا وإنتاجا . وليس فى العالم كله شعب أكثر من هذا الشعب نشاطا وذكاء ، وليس فيه شعب يماثله فى قدرته على التكيف حسب ما يواجهه من الظروف ، وفى مقاومته للأمراض ، وفى انتعاشه بعد الكوارث والآلام ، شعب علّمه تاريخه الطويل الصبر على الأرزاء والخروج منها سالما على مر الأيام . وليس فى الخيال أن يتصور ما يخبئه المستقبل لحضارة تمتزج فيها الموارد المادية والطاقة البشرية والعقلية لهذا الشعب والوسائل والأدوات الفنية التى أوجدتها الصناعة الحديثة .

وأكبر الظن أن الصين ستنتج من الثروة ما لم تنتجه قارة من القارات حتى أمريكا نفسها ، وأن الصين ستتزعم العالم فى نعيم الحياة وفنها كما تزعمته مراراً فى الزمن القديم فى التنعم وفى فنون الحياة .

ذلك أن الهزائم الحربية واستبداد الأموال الأجنبية مهما قست لا تستطيع أن تكبت إلى مدى طويل روح أمة غنية فى مواردها وفى حيويتها ، بل سيخسر المغير عليها ماله وينفد صبره قبل أن تستنفد البلاد قدرتها على التكاثر ؛ ولن يمضى قرن واحد من الزمان حتى تكون الصين قد امتصت فاتحيها وهضمتهم وحضرتهم بحضارتها ، وتعلمت جميع الفنون التى سيطلق عليها إلى وقت قصير اسم الصناعة الحديثة . وسوف توحّد الطرق وسبل الاتصال أجزاءها ، وتمدها أساليب الاقتصاد والادخار بحاجتها من المال ، وستعيد إليها الحكومة القوية السلم والنظام . ويقيننا أن الفوضى مهما اشتدت ليست إلا أمراً عارضاً مصيره إلى الزوال ، ثم بتوازن

الاضطراب آخر الأمر مع الطغيان ويتعادلان ، وحينئذ تُكتسح العوائق القديمة وتنمو البلاد نماء حُرًّا جديداً . إن الثورة كالموت هى اكتساح الأقذار ، وبتر الذى لا نفع فيه ؛ وهى لا تقوم إلا إذا كان فى البلد الذى تقوم به أشياء كثيرة فى دور الاحتضار . ولقد ماتت الصين مراراً من قبل ، ثم عادت وولدت من جديد .

(انتهى)

المراجع†

الباب الثالث والعشرون

1. I am Indebted for this quotation from the *Book of Rites* to Upton Close. Cf. Gowen and Hall, *Outline History of China*, 60; Hirth, F., *Ancient History of China*, 155.

1a. Reichwein, A., *China and Europe: Intellectual and Artistic Contacts in the Eighteenth century*, 92.

2. Ibid., 89f; Voltaire, Works, New York, 1927, xiii, 19.

3. Keyserling, *Creative Understanding*, 122, 203; *Travel Diary*, ii, 67, 58, 50, 57, 48, 68.

4. Lippert, 91; Keyserling, Travel Diary, ii, 58.

5. Smith, A.H., *Chinese Characteristics*, 98.

6. Giles, H., *Gems of Chinese Literature Prose*, 119.

7. Williams, S. Wells, *Middle Kingdom*, i, 5; Brinkley, Capt. F., *China : Its History, Arts and Literature*, x, 3.

8. Ibid., 2; Hall, J. W., *Eminent Asians*, 41.

10. Pittard, 397: Buxton, 158; Granet, *Chinese Civilization*, New York, 1930, 63; Latourette, K. S., *The Chinese: Their History and culture*, 35-6; New York *Times*, Feb, 15. 1933,

11. Lowie, 182; Fergusson, J., *History of Indian and Eastren Architecture*. ii, 468; Legendre, A. F., *Modern Chinese Civilization*, 234; Granet, 64.

12. Ibid., 215, 230.

13. Gowen and Hall, 26-7.

14. Coufucius (?) *Book of History*, rendered and compiled by W. G. Old, 20-1.

15. Giles, *Gems*, 72.

16. Hirth, 40.

17. Ibid., 53-7.

18. Willhelm. R., *Short Histopy of Chinese Civilization*, 124; Cranet, 86.

19. Ibid., 87.

20. Confucius, *Analects*, XIV, xviii, 2, in Legge, Jas, *Chinese Classics, Vol, I : Life and Teachings of Confucius*.

21. Legge, 213n

22. Airth, 107-8, Latourette, i, 57, Gowen and Hall, 64; Schneider, H., ii, 796-8.

23. Cranen, 78.

23. Cranet, 78.

24. Ibid., 32-3; Hu Shih, *Development of the Logical Method in Ancient China*, 22, Latourette, ii, 52.

25. Ibid, 58-9; Granet, 87-8; Hirth,

(†) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده في هذه القائمة ثم نكتفي بعد ذلك بذكره مختصراً

110.

26. Giles, H.A., *History of Chinese Literature*, 5

27. *Book of Odes*, I, x,8, and xii, 10, in Hu Shih, Pt. I, p. 4.

28. Cranmer-Byng, L., *The Booh of Odes*, 51.

29. Tr. by Helen Waddell in Van Dorren, *Anthology oj World Poetry*, 1.

30. In Yaug Chu's *Garden of Pleasure*, 64.

31. Fenollosa E.F., *Epochs oj Chinese and Japanese Art*, 14, Hirth, 59-62; Hu Shih, 28f; Suzuki, D. T., *Brief History of Early Chinese Philosophy*, 14; Murdoch, Jas., *History of Japan*, .iii, 108.

32. Hu Suih, 12

33. Legge, 75n.

34. In Hu Shih, 12.

35. Ibid., 13.

36. Ibid., 12.

37. Giles, *History*, 57; Legge, Jas., *The Text oj Taosim*, i, 4-5.

38. Gilse, *History*, 67, Giles *Gems*, 55.

39. Legge, *Texts of Taoism*, i, 41.

40. II, lxxxi, 3, I, lxv, 1-2.

41. In Suzuki, 81.

42. II, lvii, 2-3, lxxx, Parentheticapassages, in this and other quota tions, are usually explanatory interpolations, nearly always of the translatior.

43. Yung Chu, 16, 19, Schlender, ii, 810; Hu Shih, 14, Wilelm, *Short History*, 247.

44. I, xvi 1-2.

45. I, xiiii, 1; xlix, 2 : lxi, 2, lxiii, 1, lxxviii, 1, lxxxi, 1, Giles, *History*, 73.

46. II, lxi, 2.

47. II, lvi, 1-2.

48. Granet, 55,

49. II, lvi, 2.

50. I, xvi, 1, II, lvi, 3, Parmelee. 43.

51. Legge, *Texts oj Taoism*, 34, *Life and Teachings of Confucins*, 64.

61. Legge, *Texts*, 84,

62. Ibid.

63. Szuma Ch'ien in Legge, *Life*, 58n.

64. Ibid.

65. Legge, *Life*, 55-8, Wilhelm, R., *Soul af China*, 104.

66. Hirth, 229.

67. *Analects*, VII, xiii.

68. VIII, viii.

69. XV, xv.

70. VII, viii.

71. VII, xii,

72. VI, ii, XI, iii.

73. XVII, xvii, XIV, xivi.

74. Legge, *Life*, 65.

75. Ibid., 79.

76. V, xxvii.

77. VII. xxxii.

78. XIII, x.

79. IX, iv.

80. VII, i.

81. IV, xiv.

82. Legge, *Life*, 67.

83. XII, xi

84. Legge, *Life*, 68.

85. Ibid., 72.

86. Ibid., 75.

87. IX, xvii.

88. Legg, 83.

89. Ibid. 82.

90. XV, xviii.

91. II, iv.

92. Legge, 82.

93. Mencius. *Works of*, tr. by Legge, III, 1, iv, 13.

94. Wilhelm, *Short History*, 148, Legge, *Life*, 16.
95. Ibid., 267, 27, Hu Shih, 4.
96. XV, 40.
97. II, xvii.
98. XIII. iii,
99. III, xiii, 2.
100. IX, xv.
101. Legge, *Life*, 101, Giles, *History*, 83, Suzuki, 20.
102. Legge, 101.
103. XI, xi.
104. VI, 20.
106. VII. 20.
106. Giles, *History*, 69.
107. XV. ii.
108. *Great Learning*, I, 4-5. in Legge, *Life*, 266. I have ventured to change "illustrate illustrions vitrue" in Legge's translation, to "illustrate the highest virtue", and the words "own selves" have been substitited for "Persons," since "the cultivation of the person" has now a misleading connotation.
109. XIV, xiv.
110. XV, xxxi, II, xiv, XIII, iii, 7.
111. VI, xvi.
112. *Doctrine of the Mean*, XII, 4, in Legee.
113. *Analects*, II, xii.
114. *Doctrine of the Mean*, XIV, 5.
115. XV, xviii-xx.
116. XIV, xxix. XI, xiii, 3, *D. of M.*, XXXIII, 2.
117. Ibid., XI, 3.
118. *Li-chi*, XVII, i, 11-2.
119. Spinoza, *Ethics*, Bk. III, ProP. 59.
120. *D. of M.*, XXIX, tr. by Suzuki, 64.
121. Suzuki, 63.
122. *Analects*, XII, ii, V, xvi.
123. XV, xxiii,
124. XIV, xxxvi, 1-2.
124a. IV, xvii.
124b. XII, vi.
125. XIII, xxiii.
126. *D. of M.*, XIV, 3.
127. IV, xxiv, V, iii, 2, XVII, vi, XV, xxi.
128. V, xvi, XVI, iii, 5.
129. XVI. 10.
130. I. ii, 2, Legge, *Life*, 106.
131. IV, xviii, *Li-Chi*, XII, i. 15, Brown, B., *Story of Confucius*, 183.
132. *Great Learning*, X. 5.
133. *Analects*, XII, vii.
134. XII, xix, II, ii, xx.
135. XII, xxiii, 3.
136. *D. of M.*, XX, 4.
137. *Analects*, XIII, x-xii.
138. *Great Learning*. X, 9.
139. *Analects*, XII, xix, XV, xxxviii.
140. *Li chi*, XVII, i, 28, iii. 23, Brown, *Story of Confucius*, 181.
141. *Analects*, XX, iii, 3.
142 *Li-Chi*, XXVII, 33, XXIII, 7-8.
143. Ibid., VII, i, 2-3, quoted in Dowson, *Ethics of Confucius*, 299, from Chen Heang-chang. *The Economic Principles of Confucius and School*.
144. Latourette, i, 80-1.
145. Legge, *Life*, 106.
146. *D. of M.*, XXX-XXXI.
147. Hu Shih109, f.
148. Hirth, 807.
149. Mencus, VII, i, 26, in Hu Shih, 58.
150. Hu Shih, 72.
151. Ibid., 57, 75, Latourette, i, 78.

152. In Hirth. 281.
153. Hu Shih, 69-70.
154. Thomas. E. D., *Chinese political Thought*, 29-30.
155. Hu Shih, 58.
156. Mencius, Introd., 111.
157. Withelm *Short History*, 150, Hu Shih 110.
158. Hu Shih, 62.
159. Mencius. Introd., 98.
160. Yang Chu, 10, 51, Latourette, i, 80.
161. Mencius, Introd., 96, Yang Chu, 57.
162. Mencius, Introd., 96-8.
163. Hirth, 27-9.
164. Mencius, III, ii, 9.
165. Mencius, Intrd., 14-18.
166. Ibid., 42.
167. Ibid., I, ii 3, ii, 5; pp. 156, 162.
168. Ibid., 12.
169. VI, I, 7.
170. I, i, 7.
171. III, I, 3.
172. I. I, 3.
173. II, i, 5.
174. Thomas, E.D., 87, Williams, S. Wells, i, 670.
175. IV, ii, 19.
176. Mencius, Introd., 30-1.
177. VI, ii, 4.
178. VII, ii, 4.
179. Qouted in Thomas, E. D., 87.
180. I, i, 3.
181. II, ii, 4.
182. VII, ii, 14.
183. V, ii, 9, I, ii, 6-8.
184. Mencius., Introd., 84.
185. Ibid., 79-80.
186. Ibid., 86.
187. In Hu Shih, 152.
188. Legge, Texts of Taoism, V, 5.
189. Ibid., Introd., 87.
190. XVII, 11.
191. I Thomas, E. D., 100.
192. XI, 1.
193. XVI, 2, IX, 2.
194. XII, 11.
195. XII, 2.
196. II, 2, XX, 7, Giles, *Gems*, 32.
197. II, 7, XXII, 5.
198. VI, 7.
199. In Suzuki, 36.
200. XVII, 4, Hu Shih, 146.
201. XVIII, 6.
202. II, 11, tr. by Giles, *History* 63
203. VI, 10, tr. by Suzuki, 181-2.
204. In Giles, *History*, 68.
205. In Reichwein 79f.
206. Ibid.
207. Ibid., 84.
208. Wilheim, *Soul of China*, 233.
209. Thomas, E.D., 25.
210. Voltaire, *Works*, iv, 82.
211. Reichwein, 131, Hirth, xii.

الباب الرابع والعشرون

1. Giles, *Gems*, 33.
2. Granet, 87, Gowen and Hall, 84, Giles, *History*, 78.
3. Granet, 41.
4. Voltaire, *Works*, iv. 82.
5. Granet, 87, 97-8, 101-3, Boulger, D. C., *History of China*, i, 68-70 Wilhelm, *Short History*, 157.
6. Boulger, i, 71.
7. Granet, 38.

8 Ibid.

9. Ibid., 103; Schneider ii, 790; Wilhelm, *Short History*, 160-1; Lautourette i, 96.

10. Gowen and Hall,. 84f, Giles, *History*, 78.

11. Hall J. W., *Emin nt Asians*, 6.

12. Boulger, i, 64.

13. Ibid., 62, Latourette, i, 99.

14. Granet; 38-40, Boulger i, 77. Giles inG(owen) & H (all),92.

15. Boulger, i, 106, Granet, 44.

16. Szuma Ch'ien in Granet, 113.

17, Ibid.

18. Granet, 112-3.

19. Ibid., 118.

20. Fenollosa, i, 77.

21. Walley, Arther *Introduction to the Study of chinese Paining*, 27, G.H. 102.

22. Granet, 113-5.

23. Wilhelm, *Short History*, 186,194.

24. Lautourette, i, 121.

25. Ibid., 120-2.

26. Ibid., 122.

27. G & H, 118.

28. Ibid., 117-21.

29. Fenollosa, i, 117.

30. Voltaire, *Works*, xiii, 26.

31. Tu Fu, *Poems*, tr. by Edna W. Under-wood, xli

32. Li-Po, *Works*, done into English Verse by Shigeyoshi Obata, 91.

33. Tu Fu, xlvii.

34. In Li-Po. 1.

35. In Tu Fu, xii.

36. Murdoch,*History of Japan*,i, 146.

37, Waley. *Chinese Paninting*, 142.

38. Ibid., 97.

39. William, *Short History*, 224.

40. Williams, S. Wells, i, 696f.

41. Li-Po, 20.

42. Ibid., 95.

43. Ibid., 30.

44. Williams, S. Wells, i, 697.

45. Li-Po, 31.

46. G & H, 115.

47. Li-Po. 100.

48. Ibid., 84.

49. 138.

50. 191.

51. 71.

52. 55.

53. Ibid., ii.

54. Ibid.,

55. Ibid., 25.

56. Giles, *History*, 50.

57. Translations by Arthur Waley Amy Lowell and Florence Ayscough, in Van Deren, *Anthology*, 18-20.

58. Waley,Arthur,170 *ChinesePoems*, 106-8.

59. Ibid, 126.

60. Ibid., 168.

61, in Van Doren, 24.

62. Giles, *History*, 156; Ayscogh, Florence, *Tu Fu: The Autobiography of a Chinese Poet.*, 105.

63. Ibid., 75.

64. Tu Fu, *Poems*, 118, 184, 154.

65. Ibid., 95,

66. 30, 7, 132.

67. 137.

68. 72, 133, and introd.

69. Williams, S. Wells, i, 602,

70. Giles, *History*, 276.

71. Ibid., 102.

72. Ibid.

73. Themas, E. D, 5.

74. Giles, *History*, 224.

75, Ibid., 160.

76. G & H, 156.

77. Wilhelm,*Short History*,256;Giles,

History, 258,

78. William, S. Wells, i, 870; Latourette, ii, 220.

79. Ibid.,

80. William, 141.

81. Pratt, *History of Music*, 82-5.

82. Giles, *Gems*, 117.

الباب الخامس والعشرون

1. G & H, 142.
2. Ibid., 141.
3. Ibid., 140-3; Latourette, I, 252-7; Wilhelm, 237-8; Murdoch, iii, 106; Fenollosa, ii, ii, 33, 57.
4. G & H, 133, quoting Walter T. Swingle, Librarian of the U.S. Dept. of Agriculture.
5. Carter, *Invention of printing* 2.
6. Ibid., 3.
7. Ibid., 96.
8. Sarton, 369.
9. Carter; 25.
10. Ibid., 145; Sarton, 512.
11. Carter, 41.
12. Ibid., 43, 183.
13. G & H, 183.
14. Carter, 250.
15. Ibid., 178, 171.
16. Ibid. 177-8; Sarton, 663.
17. Ibid.; G & H, 164; Giles, *History* 206.
18. Chu Hsi, *Philosophy* of *Human Nature*, 75; Bryan, J. I, *Literature of Japan*, 122; Latourtte, I, 262-3; Williams, S. Wells, i, 683; Wilhelm, *Short History*, 249-50, Aston, W.G., *History of Japanese Literature*, 226-7.
19. Chu Hsi, 68.
20. Wilhelm, 2249-50.
21. Wang Yang-ming, *Pihilosophy* tr. by Fredk, G. Henke, 117-8.
22. Armstrong, R.C., *Light from the East: Studies in Japanese Confucianism*, 121, Brinkley, Capt. F., *Japan: Its History, Arts and Literature*, iv, 125.
23. Wang Yang-Ming, 8, 12, 50, 59.
24. Brinkely, *Japan*, iv, 125.
25. Wang Yang-Ming, 106, 52.
26. Ibid., 115-6.
27. Hobson, R. L., *Chinese Art*, 14.
28. *Encyc, Brit.*, xiii, 575.
29. Cf. the imperial marriage table in Hobson, R.L., Pl. LXXXIII.
30. Ibid., XCI.
31. Illustrated in *Encyc, Brit.*, xiii, f. p. 576.
32. Ferguson. J. C, *Outlines of Chinese Art*, 67.
33. Hobson, R. L., LXXXVIII.
34. Ibid., LXXVII, 1.
35. Lorenz, *Round the World Traveler*, 197.
36. *Encyne, Brit.*, xii, 864.
37. Fry. R.E., *Chinese Art*, 81, Granet, 37, *Encyc, Brit.*, iv, 245.
38. *Chinese Art*, 33.
39. Fischer, Otto, 374.
40. *Encyc, Brit.*, Pl. XIV, f. p. 246, collection of Mr. Warren E. Cox.
41. *Chinese Art*, 47.
42. Faure, *History, of Art*, ii, 55.
43. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 581.
44. Siren, O, in *Encyc, Brit.*, v. 581, *Chinese Art*, 46.
45. Stein, Sir Aurel, *Innermost Asia*,

Vol. i, Plates VIII, XI, XIX and XXIV.
46. *Encyc. Brit.*, v. f. p. 586, Plate X, 2, Fischer, 866.
47. *Encyc. Brit.*, v. f. p. 584, Pl. VI, 4
48. Ibid., f. p. 585, Pl. VIII, 2.
49. Ibid., f. p. 586. Pl. XI '2 and 3.
40. Fergusson, Jas., *History of Indian and Eastern Architecture*, ii, 454.
51. Fergusson, Jas., in William, S. Wells, i. 727.
52. Cf the decorative design reproduced in Stein air, A., *Innermost Asia*, Vol. iii, Pl. XXV, and the patiently carved aud ornamental ceiling shown in Pelliot, Vol. iv Pl CCXXV.
53. Fergussen, op. cit., ii, 464.
54, Coomarswamy, *History*, 152.
55. Williams. S. Wells, i, 744.
56. Lorenz, 203.
57. Cook's, *Guide to Peking*, 28, 30.
58. Fergusson, ii, 481.
59. Legendre, 79.
60. Ibid., 166.
61. Smith, *Chinese Characteristics*, 134.
62. Watey, *Chinese Painting*, 69-70.
63. Siren Osvald, *Chinese Paintings in American Collectiohs*. i, 36.
64. Giles, H. A., *Introduction to the History of Chinese Pictorial Art*, 2.
65. Wilhelm, *Short History*, 88.
66. Giles, *Pictorial Art*, 3.
67. Ibid., Waley, *Chinese Painting*, 32.
68. Fenollosa, ii, p. xxx.
69. Wally, *Chinese Painting*, 45.
70. *Encyc. Brit.*, art. ou "Chinese Paintieg." Pl. II, 5.
71. Fischer, 525-31.
72. Waley, 49.
73. Ibid., 51.
74. Giles, *Pictorial Art*, 21
75. Tu Fu, 97, cf. 175 and 187.
76. Giles, *Pictorial Art*, 79.
77. Wilhelm, 244.
78. Waley, 183.
79. Fenollosa, i, f. p. 120, Fischer, 490.
80. Ibid. 424.
81. Giles, 47-8.
82. Ibid., 50, Binyon. Li, *Fligh of the Dragon*, 43.
83. Giles, 47.
84. Croce, Bene tt : *Esthetic*, 50.
85. In Waley, 119.
86. Binyon, 111.
87. Siren, i, Plates 5-8 *Encys. Brit.*, Chinese Painting," Pl. II, 4.
88. Ftnollosa, ii, 27.
89. Waley, 177.
90. G & H, 146.
91. A Chinese writer in Giles, *Pictorial Art*, 115.
92. Fischer, 492.
93, E. g , Fenollosa, ii, 42.
95. Ibid, 62.
96. Gulland, W. G,. *Chinese Porcelain*, i, 16
97. *Chinese Art*, 11.
98. Ibid., 2.
99. Hsieh Ho in Coomaraswamy, *Dance of Sive*, 43.
100. Binyou, 65-8, *China Art*, 47.
101. In Okakura-Kakuso, *The Book of Tea*, 108
102. Gulland, i, 3.
103. *Encyc Brit.*, xviii, 861.
104. Ibid., Legendre, 233.
105. *Encyc.Brit.*, xviii,'862,Carter,93.

106. Ibid., l c.
107. Briukly, *China*, ix, 299.
108. Ibid., 62.
109. Ibtd., 87, Gulland, 139.
110. Brinkley, 75.
111. G & H, 165.
112. Briukley, *Ghina*, ix, 256.
113. *Encync. Brit.*, viii, 419.
114. Brinkley, *China* iu, 210, 215.
115. Ibid., 376, 554, *Encyc.*, *Brit.*, art. "Ceramtcsl'.

الباب السادس والعشرون

1. polo, Travels, 78, 188.
2. Ibid., v-vii,a perfect introduction, to which the persint account is much indebted.
3. Polo, 232-4.
4. 152.
5. 129.
6. G & H, 135f.
7. Giles, *History*, 248-9.
8. Polo, 172.
9. Giles, 147.
10. Polo, 158.
11. ibid., 125.
12. 149.
13. P.xxiv of Komroff's introduction.
14. G & H. 172.
15. Ibid.
16. Latourette, i,330, Wilheim, *Short History*, 260, G & H, 195, Giles, *History*, 291, Gulland, W. G., ii, 288.
17. G & H, 209.
18. Ibid., 227.
19. Quoled iu Parmelec, 218, and in Bisland, Eizabeth *Three Wise Men of the East*, 125.
20. Wilhelm, 204, Latourette, i, 203, G & H. 286, Briukley, *China*, x. 4.
21. Latourette, i 289.
22. Briukley, I.c., 12.
23. Williams, S. Wells, i, 770.
24. Ibid., 762.
25. Wilhelm in Keyserling, *Book of Marriage*, 133, Waley, *Chinese Painting*, 165.
26. Legendre, 23.
27 ibid., 75, Park,No Yong, *Making a New China*, 122.
28. Smith, *Chinese, Characteristics*, 127.
29. Polo, 286.
30. Pitkin. *Short Introduction*, 182.
32. Wilhelm, *Short History*, 64.
33. Mason, *Art of Writing*, 154-76.
34. Legendre, 76. 113.
85. Okakura, 3, 36.
36. Granet. 144-5.
37. Legendre, 114.
38. Wilhelm, *Soul of China*, 339.
40. Smith, *Characeristics*, 21, Park, No Yong, 123, Legendre, 86, Williams, S. Wells, i, 775-80.
41. Latourrette, i, 225.
42. Park, 121, Smith, *Characteristics*, 19.
43. Eudy,Sherwood, *Challenge of the East*, 81.
44. Giles, *Gems*, 285.
45. Murdocb, iii, 262.
46. Sarton, 452.
47. NationalGeographical Magazine, April. 1932, p. 511.
48. Sumner and Keller, iii, 2095.

49. Wilhelm, *Short History*, 134, Wilhelm, *Soul of China*, 861-2, G & H, 59.
50. Polo, 286.
51. Peffer, N., *China: the Collapse of a Civilization*, 25-32, Parmelee, 101, Legendre, 57.
52. Williams, S. Wells, i. 413, Wilhelm. *Short History*, 11.
53. Park, 85, G & H, 290.
54. Park, 67.
55. Latourette, ii, 206, G & H, 2-3.
56. Renard, 161.
57. Park, 92.
58. Summer, *Folkways*, 153, Latourette, i, 63.
59. Ibid., 252.
60. Polo, 159, Carter, 77.
61. Carter, 92.
62. Hirth, 126f.
63. Ibid.,
64. Darter, 93.
65. Polo, 170n.
66. Legendre, 107-10.
67. Sarton, 371, 676, Schneider, ii, 860.
68. Sarton, 183, 410.
69. Waley, *Chinese Painting*, 30.
70. Schneider, ii, 837.
71. Voltaire, *Works*, iv, 82, Hirth, 119, Wilhelm, *Soul*, 306.
72. Garrison, 73, Schneider, ii, 859, Sarton, 310, 825, 342.
73. Ibid., 436, 481, Garrison, 78.
74. Latourette, 313, Garrison, 75.
75. Williams, S. Wells, 785, Legendre, 56.
76. Wilhelm *Short History*, 79, 81; Smith, *Characteristics*, 290, 297; Spengler, O., *Decline of the West*, ii, 286, Granet, 168, Latourette, ii, 168-5.
77. Smith, *Characteristics*, 392, Suzuki, 47, 112, 139, Wilhelm, *Short History*, 69.
78. Hirth, 81.
79. Ibid., 118, Smith, 164, 331.
80. Garent, 321.
81. Wilhelm, *Soul*, 125.
82. Legge, *Tests of Taoism*, i, 41.
83. Suzuki, 72, Wilhelm, *Short History*, 248.
84. Waley, *Chinese Planting*, 28.
85. Potter, Chas, F. *History of Religion*, 198.
86. Wilhelm, *Soul*, 857, Murnoch, iii, 104, Waley, 38-4, 79, Sarton, 470, Latourette, i, 171, f214, ii, 164-5, G & H, 104, Schneider, ii, 803.
87. Smith, *Characteristics.*, 89, Latourette, ii, 129, Parmelee, 81
88. Smith, 304, Legendre, 197.
89. Wilhelm, *Short History*, 234, Lorenz, 202.
90. G & H, 118, 527.
91. Fenollosa, ii, 149.
92. Voltaire. *Works*, xiii, 29.
93. Quoted by Wilhelm in Keyserling *Book of Marriage*, 137.
94. Mencius, IV, I, 26.
95. Latourette, ii, 197, Garnet, 321, Williams, S. Wells, i, 836, Legendre, 26.
96. WilkelM, in Keyeserling, 137, Wilhelm, *Soul*, 22, Wilhelm, *Shor' History*, 104, Smith. 213,
97. Granet, 345, Williams, S. Wells, i, 836, Westermarck, *Moral Ideos*, i, 462, Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, vol, ii, *Sexual Inversion*, 6f.
98. Briffault, iii, 846.

99. ibid., Wilhelm in Keyserling, 126.
100. Williams, S. Wells, i, 834.
101. Brinkley, *China*, x, 101.
102. Polo. 134, 152, 235.
103. Parmelee, 182; Brifault, ii, 333.
104. Li-Po, 152.
105. Waley, 170 *Chinese Poems*, 19; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 97.
106. Hirib, 116.
107. Williams, S. Wells, 785.
108. Ibid., 787-90.
109. Wilhelm, in Keyserling, *Book of Marriage*, 134.
110. Briifault, ii, 263.
111. Williams, S. Wells i, 407-8.
112. Park, 133.
113. Wilhelm, *Short History*, 59; Wilhelm, in Keyserling, 128; Briifautt, i, 362f.
114. Thomas, E.D, 134; Briifault, i. 368.
115. Granet, 43.
116. Briffaull, ii, ii, 331.
117. Granmer - Byng, *The Book of Odes* 11; Gils, *History*, 108, 274,
118. Smith, 194, Sumner and Keller, iii, 1754, Legeudre, 18.
119. *Li-Chi*, IX, iii, 7; Smith, 215; Sumner and Keller, ii, 1844.
120. In Briffault, ii, 331.
121. Waley; 170 *Chinese Poems*, 94.
122. Armstrong, 56.
123. Williams, S. Wells, i. 825.
124. Westermark, *Moral Ideas*, i. 89. Keyserling, *Travel Diary*, ii, 65, Smith, 192, Legender, 122.
125. Wilhelm, *Soul*, 309.
126. Voltaire, *Works*, xiii, 19.
127. Brinkley, *China*, x, 37, 44, 49.
128. Smith, 225.
129. Thomas, E. D., 236, Williams, S. Wells, i, 504, Latourette, ii, 46.
130. Garrison, 75.
131. Williams, i, 391-2, Latorette, ii, 46.
132. Williams, ii, 512, Hirth, 125, Wilhelm, *Soul*, 19.
133. Brinkely, i.c., 3.
134. Ibid., 78.
136. Ibid., 92.
137. Williams, i, 544.
138. Legendre, 158, Hall, J. W., *Eminent Asinns*, 35.
139. Williams, i, 569.
140. Latourette ii.21; Brinkley, *China*, x, 86.

الباب السابع والعشرون

1. Latourette, i, 313.
2. Lorenz, 248.
3. Latourette, i, 314.
4. Lorenz, 248, G & H, 233.
5. Norton, H. K., *China and the Powers*, 55, Latourette. i, 367, Poffer, 57,
6. Latourette, i, 376, Norton, 56.
7. Park, 149.
8. Peffer, 88f, Latourette, i, 413.
9. G & H, 306.
10. Hall, *Eminent Asians*, 17, Peffer, 151.
11. Latourette, i, 411.

12. Hall, 33.
13. Peffer, 98
14. G & H, 314.
15. N.Y. *Times*, Feb, 11, 1934.
16. Eddy, *Challenge of the East*, 78.
18. Park, 86.
19. Latourette, ii, 93-6.
20. Eddy, 74.
21. Park, 89.
22. Eddy, 89.
23. Peffer, 241.
24. Peffer, 251.
25. *Modern Review*, Calcutta, May 1, 1931.
26. Peffer, 185.
27. Latourette, ii, 174.
29. Ibid., 176.
30. Parmelee 94.
31. Park, 185, Lorenz, 192.
32. Wu, Chao-chu, *The Nationalist Program for China*, 28.
33. Legendre, 240.
34. Park, 114.
35. Close,Upton, *Revolt of Asia*,245.
36. Lorenz, 250.
38. Hu Shih, 8.
39. Ibid., 7

فهرس الأعــلام

* هذه العلامة تدل على أن الاسم فى هامش الصفحة
إذا لم يذكر لفظ قبل الميلاد مع التاريخ فمعنى هذا أنه بعد الميلاد

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(خ)

(ص)

(ض)

(ط)

(م)

(ن)

(هـ)

